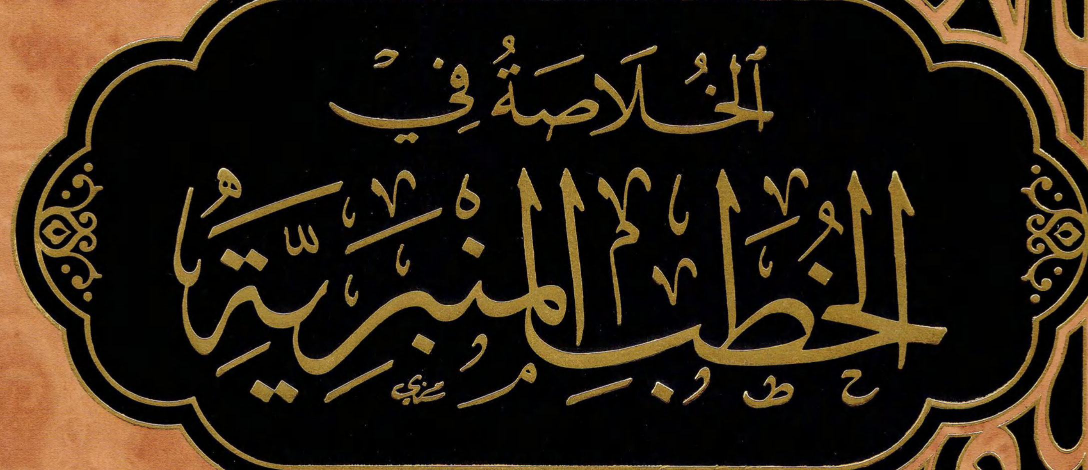








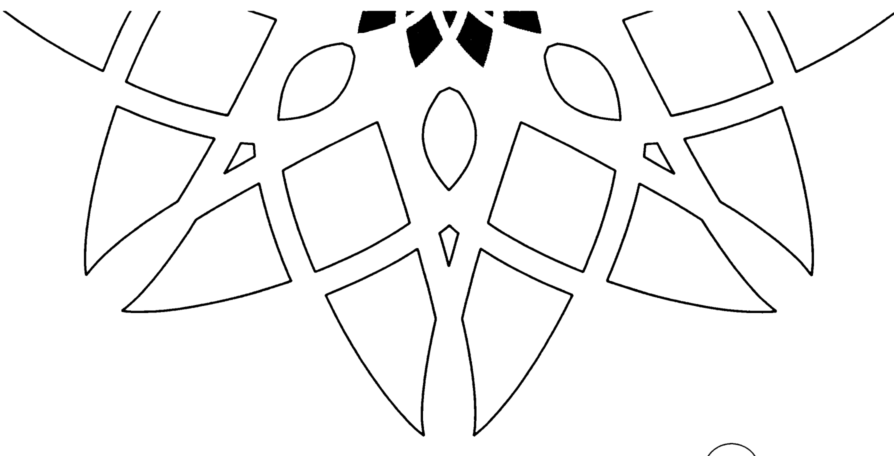


جمعه ورتبه

مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي




الخلاصة في
الخطب المنبرية
المجلد الثاني



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي.
الخلاصة في الخطب المنبرية. / مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي. - الرياض، ١٤٤٢هـ.
٢مج
٨٦٤ ص، ١٧×٢٤سم
ردمك: ٧-٥-٩١٥٤٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٤-٤-٩١٥٥٧-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)
١- خطبة الجمعة. أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ٣٧٩٣/ ١٤٤٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٧٩٣
ردمك: ٧-٥-٩١٥٤٤-٦٠٣-٩٧٨
ردمك: ٤-٤-٩١٥٥٧-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

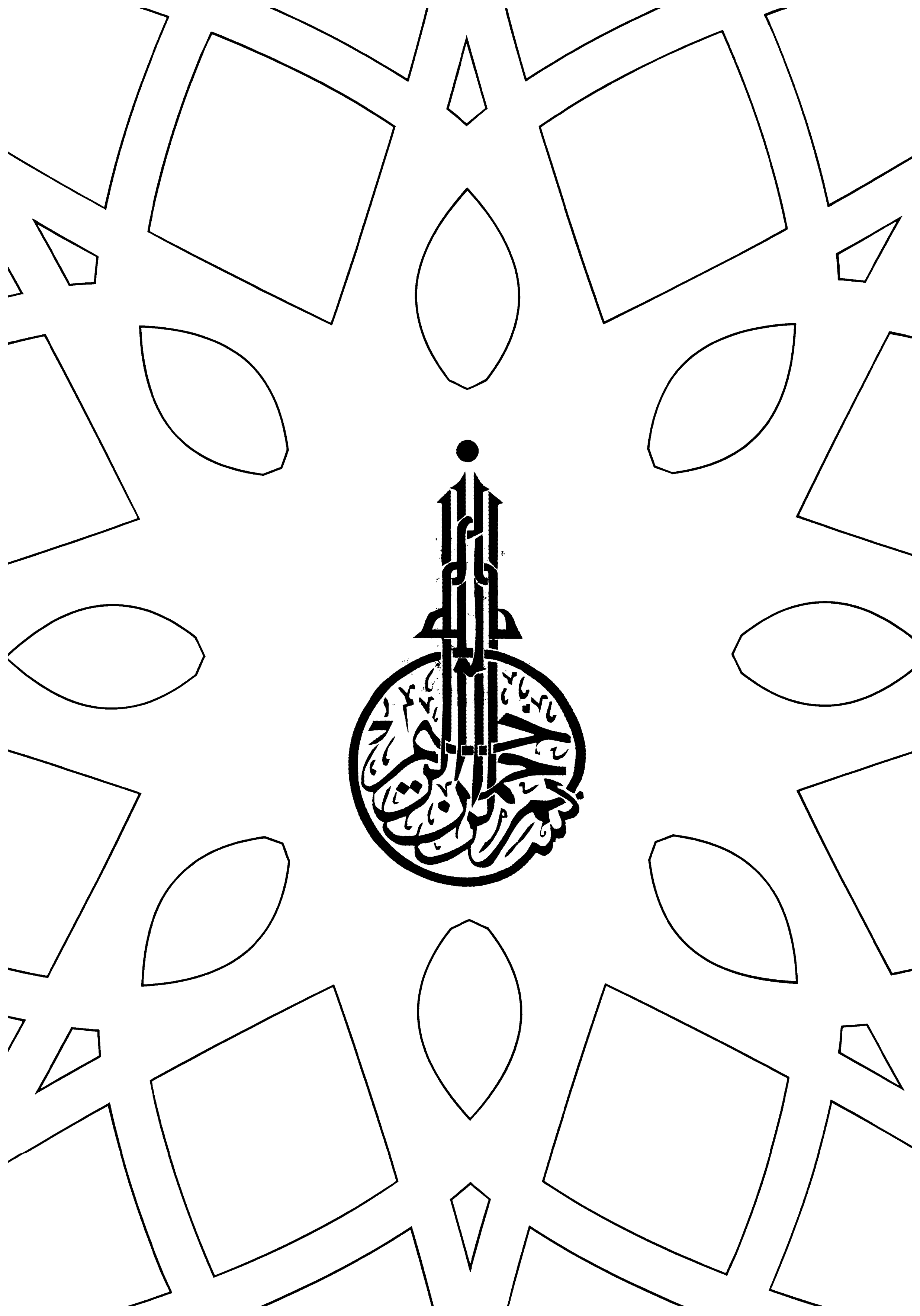


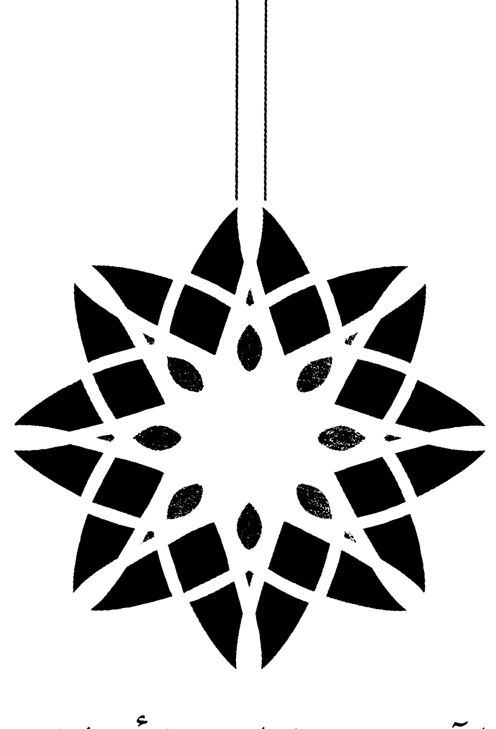
مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي
Almenhaj Center for Educational Supervision and Training

المملكة العربية السعودية - الرياض - هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٠٩٥٣
الموقع الإلكتروني: www.kholasah.com
البريد الإلكتروني: info@kholasah.com

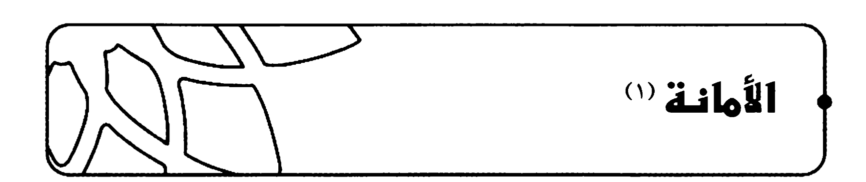


الملحوظات
والمقترحات


بسم الله الرحمن الرحيم



الآداب ومكارم الأخلاق



الأمانة [1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي باع الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، قال: فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟، قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، ولينفقا على أنفسهما منه، وليتصدقا» [2].

أيها الناس: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ

---

(١) محمد المختار الشنقيطي.

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٥)، ومسلم (١٧٢١).

وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣]. ما مِنَّا مِن أحدٍ إلا وقلبه مشرئبٌّ إلى الفوز والفلاح، وإذا أردنا الوصول إلى أمْيز طُرق الفلاح وأعظمها وأوسعها نفعا - فإنه طريق الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبيْن أن يحملْنَها وأشفقن منها وحملها الإنسان.. إنه كان ظلومًا جهولا. إنها الأمانة العظمى -عباد الله- نعم الأمانة بمفهومها الواسع الذي أرادها الله لها وأرادها رسوله ﷺ وهي ضد الخيانة بمفهومها الواسع الذي نهى الله عنها وأخبر أنها لا يحب أهلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨] ؛ لتكون الأمانة في كل ما افترض الله على العباد في الدين والأعراض والأموال والعقول والأنفس والمعارف والعلوم والولاية والحكم والشهادة والقضاء والأسرار والحواس الخمس ونحو ذلك.. فهي -كما قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: (تعمُّ جميع وظائف الدين).

ثم إنه لا يمكن أن يكون الأمين أمينًا إلا إذا كان عافًّا عمَّا ليس له به حق، مؤدِّيا ما يجب عليه من حقٍّ لغيره، حريصًا على حفظ ما استُؤمِن عليه غير مفرِّطٍ به؛ فإن من اجتمعت فيه هذه الركائز فهو في دائرة المفلحين الذين قال الله جل وعلا عنهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١].. إلى أن قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون:٨].

إنها الأمانات التي عُرضت على الأرض والسموات وأُمرنا بحفظها ورعايتها والقيام بها وأدائها إلى أصحابها، فإن القيام بها والعناية بها شيمة من شيم المؤمنين، وخصلة من خصال الأخيار الصالحين، قال تعالى في كتابه المبين وهو يُثني على عباده المفلحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون:٨].

الأمانة عباد الله التي عظم الله أمرها حتى أخبرَ النبي ﷺ أنه يؤتى يوم القيامة بجهنم والناس في عرصاتها أي في عرصات يوم القيامة حفاة عراة غرلًا في ذلك الموقف العظيم يؤتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، ثم يضرب الصراط على متن جهنم، وينادي الله جَلَّجَلَالُهُ بأن يسير العبادُ عليه، وعندها تكون دعوة الأنبياء: اللهم سلّم سلّم. فإذا ضُرب الصراط على

متن جهنم قال ﷺ كما في الصحيح: «قامت الأمانة والرحم على جنبتي الصراط»[1] أما الأمانة فإنها تُكبكِب في نار جهنم كل من خانها، وأما الرحم فإنها تزلّ قدم من قطعها وظلمها.

إنها الأمانة عباد الله التي أخبر النبي ﷺ أن أداءها إحسان، والقيام بها إيمان، وأن تضييعَها كذب وطغيان، والاستهتار بها وخيانتها نفاق وعصيان. قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[2]. فمن حُرم الأمانة فقد حرم كمال الإيمان، ومن تلبس بالخيانة فبئسَ والله البطانة؛ فإن فيه خصلة من خصال المنافقين قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[3].

أيها الناس.. الخيانة دليل على سوء البطانة، دليل على ضعف الإيمان بالله جَلَّجَلَالُهُ، فالإنسان إذا كمل إيمانه كملت أمانته، وأداها على أتم الوجوه، وخاف من الله جَلَّجَلَالُهُ، من تبعتها ومسئوليتها. إذا ضاعت الأمانة سفكت الدماء، وانتهكت الأعراض، وأكلت أموال المسلمين بالباطل. إذا ضاعت الأمانة وتفشت الخيانة فباطن الأرض خير من ظهرها. إذا ضاعت الأمانة ضاعت الحياة الطيبة السعيدة، وأصبح الإنسان لا يأمن حتى على نفسه التي بين جنبيه.

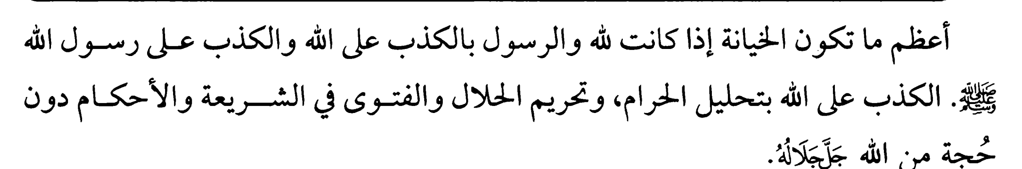
وأعظم ما تكون به خيانة الأمانات إذا كانت خيانة لله والرسول،﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٢٧]. نزلت في أبي لبابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ الذي وقف والنبي ﷺ محاصرًا لبني قريظة فأشار إليهم أنهم يُقتلون. فبهذه الإشارة عَظُم ذنبه، وأنزل الله فيه من فوق سبع سموات قرآنًا يُتلى فبقي في المسجد، وحبس نفسه يبكي حتى أخبره النبي ﷺ بتوبة الله عليه.

---

(١) رواه مسلم (١٩٥).

(٢) صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٩٥) ومسلم (٥٩).



أعظم ما تكون الخيانة إذا كانت لله والرسول بالكذب على الله والكذب على رسول الله ﷺ. الكذب على الله بتحليل الحرام، وتحريم الحلال والفتوى في الشريعة والأحكام دون حُجة من الله جَلَّجَلَالُهُ.

أعظم ما تكون الخيانة إذا كانت بالكذب على رسول الله ﷺ والتحديث بالأحاديث الباطلة المكذوبة على النبي ﷺ.

أعظم ما تكون الخيانة إذا كان فيها ظلم للقرابات كالأبناء والبنات وتضييع حقوقهم، والاستهتار في واجباتهم، فذلك كله خيانة للأمانة، تركُ الأبناء والبنات والحبل على الغارب يسهرون ويعبثون ويضيعون أوقاتهم ويتخبطون في اختيار صداقاتهم وقدواتهم دون حسيب ولا رقيب خيانة للأمانة. ترك تربيتهم وتوجيههم وتعليمهم وإرشادهم خيانة للأمانة، فإن الله سائلٌ كل راعٍ عما استرعاه هل حفظ ذلك أم ضيّع، وإن الله سيوقفك بين يديه ويسألك عن أمانتهم إذا تركتهم نائمين والصلاة ينادى بها منادي الله فقد ضيعت الأمانة، إن لم توقظهم، وليتعلقن بك الصغيرة والكبيرة بين يدي الله، إذا كان الصغير ممن يؤمر بالصلاة فيقول: يا رب سل أبي رآني نائمًا ولم يوقظني للصلاة ولم يرغبني فيها ولم يشجعني عليها.

تضييع الأمانات عباد الله خسارة وحسرة يوم القيامة وندامة.

أعظم ما تكون الخيانات عباد الله إذا كان فيها هتك أعراض المسلمين وكشف عوراتهم، وتتبع عيوبهم وعثراتهم ونشرها بين الناس، وأشد ما يكون ذلك بين الجيران والقرابات، فذلك ظلم وخيانة وقطيعة رحم، ولنأخذ مثالًا على ذلك ما يحدث بين الأقارب، وكمثال: الزوجان؛ فإنه يكون بينهما أسرار وخبايا، ويرى بعضهم من بعض ما لا يراه غيرهما من العيوب والخفايا، نظرًا لطول العشرة، ورفع ستار الحشمة والاحتجاب بينهما، الزوج إذا أخذ امرأةً فإنه قد يطلع على شيء من عيوبها وعيوب أهلها وقرابتها، وكذلك الزوجة تطلع على شيء من عيوب زوجها وعيوب أقربائه، فإفشاء هذه الأسرار وكشف هذه الأستار خيانة للمؤمنين والمؤمنات، واعتداء على حدود الله جَلَّجَلَالُهُ خاصة إذا وقعت الخصومات والنزاعات، بأن يذهب الزوج إلى قرابته يُحدثهم بما يكون من زوجته، ولربما حدثهم عن أدق الأمور وأخفاها، وكذلك الزوجة قد لا تخاف الله جَلَّجَلَالُهُ فبمجرد أن تكون الخطيئة من

زوجها تذهب إلى أهلها وقرابتها؛ لكي تخون الله في أماناتها فتهتك ما اطلعت عليه من العورات وتكشف السوءات دون خوف من الله جَلَّجَلَالُهُ، أو مراعاة لسابق العشرة، أو استبقاء شيء من المودة والمحبة، والله تعالى يقول للزوج والزوجة: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

اختلف رجل مع امرأته وقد رأى منها ما يكره، فلما سُئل عنها قال: (ما كنتُ لأهتك ستر امرأتي. ثم ترجّح له أن يطلقها بعد أن تأكد له صعوبة الاستمرار معها، فلما طلقها سألوه: حدّثنا عن عيوبها، فإنها الآن لم تعد امرأتك؟ فقال: ليس من حقي أن أكشف عيوب امرأة لم تعد في عصمتي!). إنها أمانة الكلمة، لله درّه امرؤٌ، ولله درُّها مروءة، هذه هي السجايا الرفيعة، والآداب النبيلة، والأخلاق السامية.

عباد الله: ومن أعظم ما تكون الخيانة إذا كانت بالكذب والزور والشهادات، قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»(١).

كررها؛ لأن شهادة الزور من أعظم الخيانات بها تسفك الدماء البريئة، وبها تُنتهك أعراض المسلمين بدون حق، وبها تؤكل أموالهم بالباطل، فشاهد الزور خان الله ورسوله وعباده المؤمنين خان القاضي حينما ائتَمَنَه أن يكون صادقًا في شهادته فكان من الكاذبين، وخان من شهد له؛ لأنه أدخل عليه المال الحرام، وأدخل عليه السحت والآثام، وخان المظلوم الذي شهد عليه حينما أضره وآذاه وتسبب في البلية التي كانت بسبب شهادته بالعبث.

ومن أعظم ما تكون الخيانات إذا كانت بالعبث بأمور القضاء والحكم، أو أوراق المعاملات والوثائق والمستندات، ونحوها من الشهادات، إذا أؤتمن الإنسان على السجلات ونحوها، فقدّم من حقّه التأخير، وأخّر من حقه التقديم، عملًا بمبدأ الوساطات

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧).

والمحسوبيات والرشوات، تلك أمانة على من وليها أن يتقي الله فيها وأن يؤديها كما أخذها، دون زيادة أو نقص فيها بدون حق، عليك أيها المسؤول أو الموظف أن تتقي الله جَلَّجَلَالُهُ في كل ما يوضع بين يديك من السجلات والوثائق والشهادات، تخاف الله جَلَّجَلَالُهُ وتجعله نصب عينيك دون محاباة للقريب أو الصاحب، إن فعلت ذلك كنت من الأمناء، وإن غيَّرت أو بدلت وقعت في الظلم وخُنت الأمانة التي ستُسأل عنها بين يدي الله تعالى. ولا تنس وصية المصطفى ﷺ لأبي ذر حين سأله أن يوليه ولاية، فضرب على منكبه وقال: «يا أبا ذر! إنك رجل ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها» رواه مسلم.

ومن هذا الحديث -عباد الله- نستطيع أن نبعث رسالةً إلى كل من تطلعت نفسه واشرأبت إلى أن تتولى مصلحة من مصالح المسلمين دون استحضار القدرة عليها والشعور بقيمتها، والتأمل الصادق في عظم المسئولية وخطورة التبعة فيها.. والقوة في هذا الحديث تعني حسن الإدارة الموصوفة بالحزم والحكمة والإجادة؛ إذ لا أحد يشك في إيمان أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وتقواه.. ومع ذلك وصفه النبي ﷺ بأنه ضعيف.. والضعف خلل في تحمل المسئولية؛ ولذا فإننا نشاهد في كل عصرٍ ومصر من تُوكل إليه المسئولية وهو طيبٌ في نفسه ومؤمنٌ بربه وحسنٌ في عبادته، ولكنه لا يفعل خيرًا في مسئوليته ولا يحجز شرًا.. هكذا سبهللًا، وترى من تحت مسئوليته فوضى لا سراة لهم..

فمثل هذا لم يدرك أن وظيفته عقدٌ بينه وبين ولي الأمر أو بين مؤسسةٍ للقيام بعمل محدودٍ مقابل عوضٍ مخصوص، ومن فرَّط في أداء هذا الواجب فهو ممن لم ينفعه إيمانه في أداء واجبه؛ إذ كيف يرضى المؤمن بالغش أو الخيانة أو التقصير فيما استأمنه عليه ولي الأمر من مصالح العباد وحاجاتهم؛ لأن النبي ﷺ يقول: «لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهد له»(١).

ولذا فإن الوظائف -كبيرها وصغيرها- ليست وسيلةً للترفُّه، أو طريقًا للترفُّع، إنما هي أمانة في بناء كيان دولةٍ، وضمان مجتمع، وحاضر أمة ومستقبلها؛ فمن وُلِّي من أمر المسلمين

---

(١) صحيح الجامع (٧١٧٩).

عملًا فضيّع فيه فهو خائن. فهو خائن. فهو خائنٌ للأمانة، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨]، ومن هنا كان المؤمنون الصالحون والعقلاء الناصحون يفرّون من هذه الولايات والمناصب، لأنها تبعات ومصائب، على كل من تطلّع إليها ثم لم يؤد حق الله وحق العباد فيها.

فالحذر الحذر -عباد الله- من انقلاب المفاهيم وعدم التمييز بين الخائن والأمين؛ فما زمننا هذا إلا ميدانٌ ترامت فيه الأهواء، وقُلِبت فيه الحقائق؛ فسُتِر على الخائن، وضُيِّق على الأمين؛ بسبب مفاهيم مغلوطةٍ، ومقدماتٍ مضللة، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ قال: «والذي نفْسي بيدِه.. لا تقومُ الساعةُ حتى يُخَوَّنُ الأمين ويؤتمن الخائن...»[1].

عباد الله: الأمانات حقوق وواجبات ومسئوليات وتَبِعَات شَمِلَت الصغير والكبير والجليل والحقير ولن يضيع فيها مثال حبة من خردل أو قطمير فاتقوا الله يا عباد الله، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

اللهم وفقنا لأداء الأمانات وحفظ الحدود والمحارم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري وسلم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهو أرحم الراحمين، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله المصطفى الأمين، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى جميع أصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

عباد الله: الأمانة مفهوم شامل، وأدب جامع، يندرج تحته سائر الأقوال والأفعال، والعبادات والمعاملات، فالجليس مؤتمن، قال ﷺ: «إذا حدث الإنسان حديثا والمحدث يلتفت حوله، فهو أمانة»(١).

والمستشار مؤتمن، قال ﷺ: «المستشار مؤتمن»(٢).

زعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بأمر يعلم أن الرشد في غيره ، فقد خانه» وفي رواية: «إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة»(٣).

وفي كل شيء من عبادات الإنسان وتعاملاته أمانة مسؤول عنها عند الله يوم القيامة، فعن زاذان عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة – وإن قتل في سبيل الله – فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أي رب! كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول: اذهبوا به إلى الهاوية، فيذهب به إليها، وتمثل له أمانته، فيجدها كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى ينتهي إلى قعرها، فيأخذها فيحملها على عاتقه، ثم يصعد بها في نار جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج بها، زلت فهوت، فهو في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشد ذلك الودائع» ، قال زاذان: فلقيت البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقلت: ألا

---

(١) صحيح الجامع: (٤٨٦).

(٢) صحيح الجامع: (٦٧٠٠).

(٣) صحيح الجامع: (٦٠٦٨).

تسمع ما يقول أخوك عبد الله؟ ، فقال: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨][١].

ولهذا لما خرج الصادق الأمين ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، وكان الناس يودِعون عنده الودائع، أقام علي بن أبي طالب في مكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، فلما فرغ منها لحق برسول الله ﷺ.

اعلموا -عباد الله- أنه ما اتصف أحدٌ بصفة الأمانة إلا كان الفلاح حاديه والسكينة والطمأنينة مطيته، ولم يتفق العقلاء - قديمًا وحديثًا.. رجالًا ونساءً.. كبارًا وصغارًا- على استحسان خَلّةٍ كخلةِ الأمانة يتحلى بها المرء المسلم؛ ألا ترون إلى ابنة شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما خاطبت أبيها عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائلة: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]. ومن هذا المنطلق فإن صفة الأمانة صفةٌ مطلقة لا تخضع للمقابلة بالمثل حسب تعامل الناس معك؛ يقول ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[٢].

وإن من أعظم ما تكون عليه الأمانة مع الجار، وأشد الخيانة: خيانة الجار، فخيانة الجار يا عباد الله عظيمة، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: سألت النبي ﷺ: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»[٣].

الزنى والعياذ بالله من أعظم الخيانات، ومن الكبائر المهلكات والذنوب الموبقات، لكنه بحليلة الجار من أعظم الجرائم وأشدها عند الله جَلَّ جَلَالُهُ. تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩]. اشتد غضب الله على من هتك ستر جاره، فالجار له حقوق على جاره تَعلم أخباره، وتعرف مدخله ومخرجه، وصدقه وكذبه، وتطلع على ما يكون منه من الأمور، فاتق الله جَلَّ جَلَالُهُ.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب: (١٧٦٣، ٢٩٩٥).

(٢) صحيح الجامع (٢٤٠).

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦).

واعلم أخي الكريم أن كل شيء رأته عيناك أو سمعته أذناك من عورات المسلمين فإنه أمانة في عنقك، فاتق الله جَلَّجَلَالُهُ، ومن ستر مسلمًا ستره الله، ومن تتبع عورة مسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه في الدنيا والآخرة.

إن للأمانة من الدقة والأهمية ما يوضحها دعاء النبي ﷺ مستعيذًا ربه قائلًا: «اللهم إني أعوذُ بك من الجوعِ فإنه بئْس الضَّجِيع، وأعُوذ بكَ من الخيانةِ فإنها بِئْستِ البِطانة»[1].

وما حُمِّلَ الإنسانُ مثلَ أمانةٍ ... أشقَّ عليه حينَ يحملُها حملا

فإنِ أنتِ حُملتَ الأمانةَ فاصطبر ... عليها فقد حُمِّلْتَ من أمِرها ثِقْلا

إذا رأيت الرجل يحفظ الأمانة، ورأيته يؤديها إلى أصحابها على أتم الوجوه وأكملها فاعلم أن وراء ذلك قلبًا يخاف الله جَلَّجَلَالُهُ ويتقيه، وأن هذا العبد يعلمُ عِلمَ اليقين أن الله محاسبُهُ وسائِلُه ومجازيه.

ألا وصلوا وسلموا على خير الأنبياء وإمام الأتقياء فقد أمركم الله بذلك...



(١) صحيح النسائي (٣/ ١١١٢).

الإيثارُ خُلق الكرام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي جعل الإيثار، صفةً من صفات المتقين الأبرار، وسمةً من سمات المؤمنين الأخيار، أحمده سبحانه بما هو أهل من الحمد، وأثني عليه هو أهل الثناء والمجد، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حث على الإيثار والبذل، ونهى عن الأثرة والبخل، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبدالله ورسوله، خير من آثر على نفسه وتصدق، وبسط يديه الشريفتين وأنفق، ﷺ وعلى آله وصحبه الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيا عباد الله: اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ.

فَقَالَ ﷺ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ. قَالَ: فَقَعَدُوا، وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»[2].

---

(١) ياسر الطريقي.

(٢) رواه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤).

أيها المؤمنون: البذلُ والسخاء، والجودُ والعطاء أخلاقٌ فاضلة، وصفاتٌ عظيمة، وخصالٌ حميدة، ما تحلى بها رجلٌ إلا أصبحَ محلَّ المدحِ والثناءِ عندَ جميعِ العُقَلاء.

وفي الأخلاقِ صِفَةٌ أرْفَعُ من هذِه الخصالِ مَرْتَبَة، وأسمى مَنْزِلَة، وأعلى مَكانة، وهي أَنْ يُؤْثِرَ غَيْرَهُ بالشيء مع حَاجَتِه إليه، صِفَةٌ اتَّصَفَ بها المُتقونَ الأبرار، وأَفْلَحَ بها الصحبُ من الأنصار، وأثنى عليهمُ اللهُ بها في كتابه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

صاحبُ الإيثارِ موعودٌ بخيرٍ مما آثَرَ به غيرَه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل:٢٠].

يُحقِّقُ المُؤْثِرُ على نَفْسِهِ حَقيقَةَ الإيمانِ بِصِدْقِ مَحَبَّتِهِ لغَيرِهِ ما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ، ففي الصحيحين عَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1].
بالإيثارِ تَتَأَلَّفُ القلوب، وتَقْوَى أَوَاصِرُ الأُخُوَّة، وتَعْظُمُ المَحبَّة، وتَظْهرُ الرَّحْمة، ويسُودُ الإِلْفُ بَيْنَ أفرادِ المُجتمع، وتَخْفُتُ نَارُ التنازُع، وتَزُولُ الشَّحْناء.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الدينُ كُلُّهُ والمعاملةُ في الإيثار).

والإيثارُ -عبادَ الله- أنواعٌ وصُوَر، مِنْهَا ما يَتَعَلَّقُ بالخالق، ومِنْهَا ما يَتَعَلَّقُ بالخَلْق، وأَعْظَمُ أنواعِه وصُوَرِه: إيثارُ رِضَا الخَالِقِ على رِضا المخلوق كائنًا من كان، وفي الترمذيِّ مَرْفُوعًا: «مَن الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مؤنَةَ النَّاسِ، وَمَن الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ»[2].

فيظهر إيثار رضى الله وتَجرُّد النفسِ عن هَوَاهَا، واتِّبَاعُهَا الحَقَّ ولو خَالَفَ مُبْتَغَاهَا مِن أَعْظَمِ صُوَرِ الإِيْثَارِ وأَعْلَاها، وأَعْظَمُهُ إِيْثَارُ الحَقِّ ولو كان فيه هَلَاكُ النَّفْس، كما فَعَلَ السَّحَرَةُ الذين آمنوا بموسى فقالوا لفرعون: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

(٢) صحيح الترمذي (٢٤١٤).

﴿مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه:٧٢]. ونَبِيُّنَا ﷺ إِمَامُ الْمُؤْثِرِيْن، الذي آثر رضى الله على رضى الناس، والذي وقف أمام المشركين رافضًا كل إغراءاتهم ومحاولاتهم لصرفه عن دين الله ودعوة الإسلام، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه.

وقد رَبَّى أَصْحَابَه على الإِيْثَارِ، ودَعَا إِلَيْه قَوْلًا وَعَمَلًا، فأَصْبَحَ هَدْيًا نَبوِيًّا يَتَمَثَّلُهُ السَّلفُ في حَيَاتِهِم، ومَنْ تَأَمَّلَ الأحاديثَ والآثارَ وجَدَ أَرْوَعَ صُوَرِ الإيثار.

جَاءَتْ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ فقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي نَسَجْتُ هَذِهِ بِيَدِي أَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ الله، أُكْسُنِيهَا، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ، لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالله مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ. قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ(١). إنه كرم بالغ، وإيثارٌ جَمٌّ مع ضِيْقِ العيشِ، وقِلَّةِ ذات اليد.

ولقد امْتَدَحَ النَّبِيُّ ﷺ الأَشْعَرِيِّينَ، وهمُ قَبِيلةُ أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما في الصحيحين عنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا [أي: فَنِيَ زادُهم] فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»(٢).

وما زَالَ في المسلمين اليومَ مَنْ حَالُهُ كحَالِ الْأَشْعَرِيِّينَ، يتقاسَمُونَ الرَّغِيفَ والمَأْوَى، يُمَثِّلُونَ الجَسَدَ الواحِد، ويَضْرِبُونَ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ في الإيثَارِ، لا سيما في أوقاتِ الأَزَمَات، والحروبِ، والكوارثِ والمُلِمَّاتْ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا ولَهُمُ الثَّبَات.

أقول هذا وأستغفر الله، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩٣).

(٢) رواه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله على إحسانِه، والشكرُ له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أيها المؤمنون: إن إيثارُ المُؤْثِرِين، وسَخَاءُ الصالحين، وكرم المنفقين، ينبغي أن يُقَابَل بِنَفْسٍ مُتَعَفِّفَةٍ غَيْرِ مُسْتَشْرِفَة، لا أن يُقابَل بالطمع وكثرة التطلع إلى ما في أيدي الناس، ففي الصحيحين عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ؛ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»[(١)].

وتَأَمَّلْ كَيْفَ قَابَلَ عَبْدُ الرحمن بن عَوفٍ -وهو من المهاجرين- إِيْثَارَ أَخِيْهِ سَعْدِ بن الرَّبِيْع -وهو من الأنصار- حِيْنَ آخَى بينهما النبي ﷺ، فعَرَضَ عَلَيْهِ سعد بن الربيع مَالَهُ فَقَال: «أُقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ، وَأُزَوِّجُكَ»، فكانَ جوابُ عَبْدِ الرحمن أن قال له: «بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، ولكن دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ». فذهب واتَّجر، حتى أثرى وكثر ماله وبارك الله له في تجارته.

عباد الله: لَقَدْ جَاءَ الإِسلاَمُ الحَنِيفُ حَاثًّا عَلَى أَحْسَنِ الخُلُقِ وأَجْمَلِ الصِّفَاتِ، وأَنْبَلِ القِيَمِ وأَفْضَلِ السِّمَاتِ، ونَبْذِ كُلِّ مَا هُوَ مَذْمُومٌ مِنَ الطِّبَاعِ والعَادَاتِ، ومِنَ الصِّفَاتِ التِي ذَمَّهَا الإِسلاَمُ صِفَةُ الأَثَرَةِ، وهِيَ تَعْنِي الاستِبْدَادَ وحُبَّ التَّمَلُّكِ والأَنَانِيَّةَ، وهِيَ ضَرْبٌ مِنْ ضُروبِ الشُّحِّ والبُخْلِ، وسَبَبٌ لِمَنْعِ مَا أَمَرَ اللهُ مِنَ الإِنْفَاقِ والبَذْلِ، و كما أن الإيثار خلقٌ محمود، وأدب رفيع، فإن الأنانية والأثرة خلق مذموم، وإن تَفْضِيلُ الإنسانِ نَفْسَهُ دائمًا على غَيْرِهِ، بِحَيْثُ لا يَهْدِفُ إلا لِنَفْعِهِ الخَاصِ وإن كان على حساب ضرر غيره، يُعَدُّ أَثَرَةً قَبِيحَةً،

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

وأنانيةٌ ذَميمَة، حَذَّرَ منها النبيُّ ﷺ فقال -كما في سنن أبي داود، وغيره-: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ! فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا»(١).

والشُّحُّ على المؤمنينَ بالخيرِ والبرِّ والمعرُوف سِمَةٌ من سِماتِ المنافقين، قال تعالى في مَعْرِضِ ذَمِّهِم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٩].

وإن من الأنانية والأثرة ما يحصل بين المتنافسين في أمر من أمور الدنيا، فيطغى عليهم الحسد والحقد والمكر والكيد، بل والتعدي والظلم والكذب، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق ومرذول الطباع التي تغذيها الأثرة والأنانية والشح، ولو وجد الإيثار لذهب ذلك كله، ولعاش الإنسان في سلام مع نفسه ومع من هم حوله، وصدق الله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

ومن أقبح الأنانية والأثرة: ما يُرى من تبجُّح المترفين، وتبذير المسرفين، من الميسورين وأهل الثراء، الذين يتباهون بالترف والسَّرَف فيما لا طائل منه، دون أدنى مراعاة لما أولاهم الله وابتلاهم به من النعم والستر والكفاية، ودون أن يلتفتوا إلى من أثقلتهم الديون، وتكالبت عليهم الهموم، وتقطعت بهم السبُل، من المحتاجين والمعوزين، فترى أحدهم ينفق النفقة الباهضة والمال العريض في الأمر التافه، فخرًا وبطرًا ورئاء الناس، ووالله لو صرفها في أوجه الخير والبر لأغنت فئامًا من الناس، ولملأت بطون عشرات أو مئات، وربما آلاف الجوعى ممن لا يجدون ما يأكلون.

فهل يتقي الله هؤلاء؟ إنه لم يُطلب منهم الإيثار إلى الحد الذي قد يحرموا فيه أنفسهم مما يحتاجون، ولا أن يمنعوها من مُتَع الحلال التي فيها يرغبون، مع توسط، ودون سَرَف أو مخيلة، وإنما ليُخففوا من نفقاتهم التي لا حاجة لها ولا نفع من ورائها، فليتقوا الله، ولا يوغلوا

---

(١) صحيح أبي داود (١٦٩٨).

في التبذير والإسراف، فذلك كفر بالنعمة مؤْذِنٌ بزوالها، وقد قيل: ما شبع غنيٌّ وأُتخِم، إلا بجوعة فقير مُعدِم.

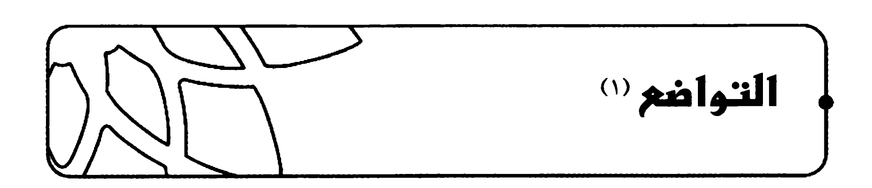
والناس شتَّى في الخلال وخيرُهم   من كان ذا فضلٍ وذا إيثارِ

أيها الأحبة: ومن الكرم والإيثار: الصدقة، والهديةُ، والقيامُ بِخِدْمَةِ الوالدين والأقربين والأَصْحَابِ، والمُشَارَكَةُ في خِدْمَةِ الحَيِّ والمُجْتَمَعِ، والعَفْو عن الأَخطَاءِ، والسعيُ في الإصلاح، والمساهمةُ في المعروف، وتقديمُ شيءٍ من المالِ للخير وتعليم القرآن والسنة والعلوم النافعة، ونُصْرَةُ المظْلُومين، وسَدُّ عَوَزِ المُحتَاجِين، فتلك أَعَمالٌ يَقُومُ بِها مَنْ اتَّصَفَ بالإيثار وكرم النفس وعلو الهمة وشهامة الطبع، والمُسارعَةِ بالجودِ والمُبادرةِ إلى البَذْلِ والعَطَاء..

وإن الإيثارُ -عبادَ الله- إنما يكون في أمورِ الدنيا وحظُوظِ النفس، وأما القُرُباتُ والطاعات فلا إيثارَ فيها، بل الصواب هو التنافس والمسارعة والاستباق إليها.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، وخذ بنواصينا للبر والتقوى، واهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.





التواضع[1]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونتوبُ إليه، ونعوذُ به من شرورِ أنفسِنا، ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له؛ وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدين.

أمَّا بعد: فيا أيُّها الناسُ، اتَّقوا اللهَ تعالى حَقَّ التقوى.

عباد الله: التواضع خلقٌ حميدٌ، وخصلةٌ كريمةٌ ينال بها العبد بعد رضا الله رضا الناس عنه، فالمتواضع يحبه الناس ويألفونه ويطمئنون إليه، والتواضع حقيقته ترك التعالي والتكبر على عباد الله، والمسلم حقًّا يحب إخوانه المسلمين، وينظر إليهم نظرة الاحترام والتقدير، وإن تفاوتت المنازل من غنىً إلى فقر، أو ضعف أو علم أو غير ذلك، هو ينظر إليهم مهما كانت الفوارق في الجاه أو في المنزلة أو في المكانة الاجتماعية، كل هذه الأمور لا تُذهب التواضع عنه، بل تؤصل التواضع في نفسه.

أيها المسلم: والتواضع خلق كريم ينال به العبد محبة الله، ثم كسب القلوب إليه، وقد أمر الله بالتواضع في كتابه العزيز مخاطبًا نبيه بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨]، وقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥]، وقال مُنوِّهًا بعباده المؤمنين: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٧-٣٨]

---

(١) خالد بن عبدالله الشايع.

أيها المسلمون: إن الإنسان إذا كسب شيئًا من حطام الدنيا الفانية، فزاده ذلك مرتبة عند الخلق، تشرئب نفسه إلى التعالي على الناس، وتسوّل له أنه خير منهم، وأعلى درجة منهم، فتتصف نفسه بداء الكبر، الذي هو أصل مادة الشرك والكفر، فهو داء إبليس اللعين، عندما أُمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

فكل متكبر تلميذ لإبليس، يقوده إلى مهاوي الردى، بل إلى النار والعياذ بالله، ولذا نجد أن الكبر من أخلاق الكفار والفراعنة، والتواضع من أخلاق الأنبياء والصالحين، فقد وصف سبحانه الكفار بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب من اتصف بصفة الكبر، واصفًا نفسه الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]، وجعل سبحانه النار مثوى للمتكبرين، فيقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠]، ولشناعة هذا الداء أخبر المصطفى ﷺ أن اليسير من هذا الداء يمنع دخول صاحبه الجنة، فقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(١).

فكم يا ترى في قلوبنا لا نقول: من مثاقيل الذر، بل من مثاقيل الجبال ومكاييل البحار من الكبر؟! نسأل الله العفو والعافية، والسلامة والهداية.

معاشر المسلمين: لنحاسب أنفسنا، فكم من متكبر وهو بنفسه لا يشعر!! ولكي يتسنى لك -أخي المسلم- معرفة ما في قلبك من الكبر، لا بد من معرفة حقيقة الكبر، فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه مسلم (٩١).



وبطر الحق: هو دفعه وردّه على قائله، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم.

فالكبر إذًا هو افتخارك على أخيك المسلم وبغيك عليه، وعدم قبول الحق منه، قال ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1]، قال بعض السلف: (الكبر أن ترى نفسك أفضل من غيرك).

أيها المسلمون: إن التواضع هو صفة المؤمنين المخبتين لربهم، وعلى رأسهم أنبياؤه وأصفياؤه، والتواضع هو ضد الكبر، قال حمدون القصار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة، لا في الدين ولا في الدنيا)، وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التواضع أن يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله ولو كان صبيًا أو جاهلًا)، وقال آخرون: (هو خفض الجناح ولين الجانب).

أيها الناس: إن المتواضعين بهذا المقياس قليل، بل أقل من القليل، والله المستعان، فمن منا يقبل الحق من الصبي، أو من الجاهل، أو من الفقير، قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفصِّلًا أمر التواضع: (رأس التواضع ثلاث: أن ترضى بالدون من المجلس، وأن تبدأ من لقيته بالسلام، وأن تكره المدحة والسمعة والرياء بالبر).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عجبت لمن يعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمة، ضمت إليها جرعة ماء، طُبخت فأُخرجت منه قطرات منيّ، فاستقر في الأنثيين فحركته الشهوة، فصُبّت في بطن الأم مدة، فكان علقة ثم مضغة... حتى تكاملت صورته فخرج طفلًا يتقلب في خرق البول، وآخره: يلقى في التراب فيأكله الدود، ويصير جيفة ورفاتًا).

قلت: وهو فيما بين ذلك يحمل في جوفه الأذى!

أيها المؤمنون: إن من صور الكبر -وهو شرُّها- أن تتكبر على الله بهجرك لعبادته واستنكافك عن ذكره ودعائه، فكيف تتكبر على مولاك وهو خلقك ورزقك وسترك، وهيَّأ لك أسباب العبادة والسعادة، وصرف عنك كل مكروه.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

ومن التكبُّر: التكبُّر على العباد، وذلك بأن يستعظم الإنسان نفسه ويزدري الناس أو بعضهم، وذلك إما لما رزقه الله من العلم أو الجاه، أو المنصب أو المال أو الجمال، أو نحو ذلك من حطام الدنيا.

عباد الله: من أراد التواضع فعليه أن يعرف قدر نفسه، قال أبو سليمان الداراني: (لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه)، وقال أبو يزيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا؟! قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا)! وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه ومعرفته بنفسه.

واعلم -يا عبد الله- أن للمتكبرين صفات فاحذرها: منها جرّ الثياب وإسبالها، أخرج أبو داود وغيره من حديث جابر بن سليم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة»[1]. ومنها: أن يحب أن يمشي الناس حوله وخلفه، ومنها: أن لا يزور بعض الناس تكبرًا، ومنها: أن يستنكف من جلوس العمال والخدم أو أكلهم بجواره، حتى إن بعضهم ليستنكف من ذلك في الصلاة، ولو اعتذر باتّساخ ملابسهم، فالله أعلم بقلوب العباد أيها أطهر، ومنها: أن لا يتعاطى أعماله بيده، بل يأمر بها أمرًا، ومنها: ذكر مكانته أو منصبه أو أمواله وتجارته تكبرًا ومباهاة، وغيره كثير.

والناصح لنفسه هو من عرّفها قدرها، وألزمها طريق المصطفى ﷺ إمام المتواضعين؛ وسيد الأولين والآخرين.

اللهم إنا نعوذ بك من الكبر والحسد، ومن سوء الأخلاق، إنك سميع الدعاء.

---

(١) صحيح أبي داود (٤٠٨٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

عباد الله: إن من نعمة الله على الناس أن حفظ لهم سير سلفهم الصالحين من الأنبياء والأولياء والصحابة والتابعين، لينهلوا من أخلاقهم وآدابهم، علّهم أن يسيروا على نهجهم ويقتفوا أثرهم، وإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

ولعلنا نستعرض بعض آثار الصالحين في التواضع، لتفقه النفوس وتلين القلوب، فها هو المصطفى ﷺ كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم، وكان يركب الحمار، ويجيب الدعوة ولو كانت على يسير من الطعام.

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت»[1]، وكان ﷺ يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجلس مع المساكين، وكان من دعوته: اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين.

وها هو أبو بكر الصديق الخليفة الأول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يسقط الخطام من يده، فينيخ الناقة ويأخذه بكل تواضع، فيقال له: لو أمرتنا ناولكه، فيقول: «إن حِبّي ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئًا».

وها هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، يقول عنه عروة بن الزبير: «رأيت عمر بن الخطاب وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين: لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود -أي: القبائل وساداتها وعظماءها- سامعين مطيعين دخلَت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها»، وقال أنس بن مالك: «كان بين كتفَي عمر أربع رقاع، وإزاره مرقوع بأدم». وخطب عمر على المنبر وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٨).

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما أبقاك الله فيهم، قال: «ويحك! لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما اتقوا ربهم».

وللمتكبرين المتفاخرين على الناس بالأنساب والأحساب تفاخرت قريش بأنسابها عند سلمان الفارسي يومًا، فقال: لكنني خلقت من نطفة قذرة، ثم أعود جيفة مُنتنة، ثم آتي الميزان؛ فإن ثقُل فأنا كريم، وإن خفَّ فأنا لئيم.

وسئل أحمد بن حنبل عن نسبه يومًا – وهو من بني شيبان- فقال رَحِمَهُ اللَّهُ كلمته المشهورة: (نحن قوم مساكين، لولا ستر الله لافتضحنا).

فتواضعوا تُرفعوا، واخفضوا الجناح لإخوانكم المؤمنين، وللأقربين، وقبل ذلك الوالدين، فقد قال الله: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤]، فالله في خفض الصوت والجناح، والتواضع والبر. وليعلم المسلم أن حسن المظهر وجمال اللباس جائز شرعًا وليس من الكبر، فقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»؛ فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة! قال: «إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1]..

إلا أن المبالغة في الملبس تؤدي إلى الكبر، خصوصًا إذا كانت الملابس والمراكب والمآكل هي الشغل الشاغل للمسلم، فقد أخرج أبو داود من حديث أبي أمامة بن ثعلبة قال: ذكر أصحاب النبي ﷺ يومًا عنده الدنيا، فقال: «ألا تسمعون! ألا تسمعون! إن البذاذة من الإيمان»[2]، قال عبد الله بن الإمام أحمد: سألت أبي عن البذاذة فقال: (التواضع في اللباس).

ولقد كان سلف الأمة لا تغيرهم المناصب ولا الدنيا، ولا يحتقرون أحدًا صغر عنهم أو كبر، قال بكر بن عبد الله المزني: (إذا رأيتَ من هو أكبر منك فقل: سبقني بالإيمان، والعمل الصالح، فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك، فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته).

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) صحيح أبي داود (٤١٦١).

أيها المؤمنون: من أراد التواضع، فليحتقر نفسه في جنب الله، وليذكر هفواته وخلواته، لا أن يذكر حسناته ومساوئ غيره، فإن ذلك يبعث الكبر في نفسه، قال مالك بن دينار: (لو أن مناديًا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلًا، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلًا بفضل قوة أو سعي)، فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: (بهذا صار مالك مالكًا).

وقال علي بن ثابت: (ما رأيت سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إلى الحائط، ويجمع بين ركبتيه).

ولما قيل لأحمد بن حنبل: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: (ومن أنا حتى يجزيني الله عن الإسلام خيرًا؟! بل جزى الله الإسلام عني خيرًا). وكان يكثر أن يقول: (أسأل الله أن يجعلنا خيرًا مما يظنون، ويغفر لنا ما لا يعلمون).

قال سفيان الثوري: (إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قال الناس)، وقال ابن معين: (ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه)، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (نحن قوم مساكين).

وقال إسماعيل بن إسحاق: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل أول ما لقيته: يا أبا عبد الله: ائذن لي أن أقبّل رأسك، فقال: (لم أبلغ أنا ذاك)!

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن العبد إذا تواضع لله رفع حَكَمته»، وقال: «انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره وضعه الله على الأرض»، وقال: «اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير».

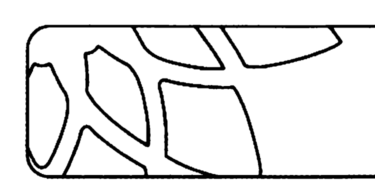
أيها المؤمنون: لنجعل أمام أعيننا دائمًا حديث المصطفى ﷺ: «ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»[1].

اللهم اجعلنا من المتواضعين الهينين اللينين، اللهم استر عيوبنا، واغفر ذنوبنا، وتوفنا مع الأبرار.



---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).



الحياء من الله [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الكريم الرزاق، الذي جعل الحياء من أعظم الأخلاق، أحمده سبحانه حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أهل الثناء والمحامد والأمجاد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبد الله ورسوله، أشرف الخلق وخير العباد، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أهل الحياء والرشاد، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم التناد.

أَمَّا بَعْدُ:

عِبَادَ الله: اتَّقُوا اللهَ تَعَالَى حَقَّ تَقْوَاهُ، وَرَاقِبُوهُ سُبْحَانَهُ مُرَاقَبَةَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ رَبَّهُ يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ، فإنه مَنِ اتَّقَى اللهَ وَقَاهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى خَيْرِ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

أَيُّهَا الْـمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ خِلَالِ الدِّينِ وَمِنْ أَعْظَمِ أَوْصَافِ عِبَادِ الله الْـمُؤْمِنِينَ وَمِنْ أَجَلِّ شُعَبِ الْإِيمَانِ: الْـحَيَاء، وَهُوَ خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَخَلَّةٌ كَرِيمَة، تَبْعَثُ عَلَى التَّحَلِّي بِالْفَضَائِلِ وَالتَّخَلِّي من الرَّذَائِلِ.

وَالْـحَيَاءُ مَعْدنُ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَمَنْبَعُ الْـمُعَامَلَاتِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ خَيْرٌ كُلُّهُ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، وَالحياء لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ، ولا ينتج إلا عن إيمان.

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بن حُصَيْن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْـحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[2]، وفِي الصَّحِيحَيْنِ أيضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَرَّ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْـحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: دَعْهُ؛ فَإِنَّ الْـحَيَاءَ مِنْ

(١) عبدالرزاق بن عبدالمحسن العبّاد البدر.

(٢) رواه البخاري (٦١١٧) ومسلم (٣٧).

الْإِيمَانِ»[1]، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ»[2].

وَالْحَيَاءُ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- مُشْتَقٌّ فِي أَصْلِهِ مِنَ الْحَيَاةِ؛ فَكُلَّمَا عَظُمَتِ الْحَيَاةُ فِي الْقَلْبِ عَظُمَ الْحَيَاءُ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتِ الْحَيَاةُ فِي الْقَلْبِ وَالرُّوحِ ضَعُفَ الْحَيَاءُ، قَالَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ».

عِبَادَ اللهِ: الْحَيَاءُ مِنْ أَفْضَلِ الْخِصَالِ، وَأَكْمَلِ الْخِلَالِ، وَأَعْظَمِهَا فائدةً، وَأَكْبَرِهَا عَائِدَةً، وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ مُتَحَلِّيًا بِالْحَيَاءِ كَانَ ذَلِكَ دَافِعًا لَهُ إلى البر، وَسَائِقًا إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ، فَمَنْ كَانَ ذَا حَيَاءٍ حَجَزَهُ حَيَاؤُهُ عَنِ الرَّذَائِلِ، وَمَنَعَهُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ.

وَأَمَّا من قلَّ حياؤهُ فَهُوَ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ لَا يُبَالِي أَيَّ رَذِيلَةٍ ارْتَكَبَ وَأَيَّ كَبِيرَةٍ اقْتَرَفَ وَأَيَّ مَعْصِيَةٍ اجْتَرَحَ؛ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[3].

مَنْزُوعُ الْحَيَاءِ -عِبَادَ اللهِ- لَا يُبَالِي بِأَعْمَالِهِ وأقواله، وَلَا يَتَوَقَّى فِيمَا يأتي ويذر مِن أُمُورِهِ؛ فَهُوَ لَا يَسْتَحِي مِنْ اللهِ، وَلَا يَسْتَحِي مِنْ عِبَادِ اللهِ، فَمِنَ النَّاسِ مَن بلغَ مِنْ قِلَّةِ حَيَائِهِ أنه لَا يُبَالِي بِارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ فِي أَيِّ مَكَانٍ، فيكون قدوة في الشر ومثلًا في السوء، وَمِنْهُمْ مَنْ يُشِيعُهَا وَيُشْهِرُ نَفْسَهُ بِهَا وَيَتَحَدَّثُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَفْضَلِ الْخِصَالِ وَأَطْيَبِ الْخِلَالِ، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

---

(١) رواه البخاري (٢٤) ومسلم (٣٦).

(٢) رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥).

(٣) رواه البخاري (٣٤٨٤).

وَإِنَّ أفضلَ الْـحَيَاءِ وَأَوْجَبَهُ، وَأَجَلَّهُ قَدْرًا وأعظمَه أجرًا: الْـحَيَاءُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِ الْـخَلْقِ أَجْمَعِينَ، الاستحياء مِمَّنْ أَوْجَدَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَمَـنَّ عَلَيْـكَ بِصُنُوفِ النِّعَمِ وَأَلْـوَانِ الْـمِنَنِ، الْـحَيَاءُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا رَبِّ الْعَالَمِينَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي. قَالَ: أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ»[1].

عِبَادَ اللهِ.. وَمما يُحَرِّكُ فِي الْقَلْبِ الْـحَيَاءَ مِنَ اللهِ: تَعْظِيمُ اللهِ جَـلَّ وَعَـلَا، وَحُبُّـهُ سُبْحَانَهُ، وَالْعِلْمُ بِرُؤْيَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ؛ فَهَذِهِ الثَّلَاثُ مُحَرِّكَاتٌ لِلْقُلُوبِ، باعثةٌ للحيـاء، فمَتَـى كَـانَ الْقَلْـبُ مُعَظِّمًا لِرَبِّهِ عز وجل، مُحِبًّا لَهُ سُبْحَانَهُ، عَالِمًا بِاطِّلَاعِهِ مستحضرًا لِرُؤْيَتِهِ مؤمنًا أَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، تَحَرَّكَ فِي القلبِ الحياء مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

قال النووي: (قَالَ العلماءُ: حَقِيقَةُ الحَيَاءِ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ القَبِيحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الحَقِّ، وَرَوَيْنَا عَنْ أَبِي القاسم الْـجُنَيْدِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: الحَيَاءُ: رُؤْيَةُ الآلاءِ - أَيْ النِّعَمِ - ورُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الحياء).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْـحَيَاءِ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَللهِ الْـحَمْدُ. قَـالَ: لَيْسَ ذَاكَ؛ وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَأَنْ تَذْكُرَ الْـمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْـحَيَاءِ»[2]؛ فِي الحديث أُمُورٌ أَرْبَعَةٌ فِيهَا جِمَاعُ الْـخَيْرِ وأصل الحياء:

الْأَوَّلُ وَالثَّانِي: حِفْظٌ لِلرَّأْسِ، وَحِفْظٌ لِلْبَطْنِ؛ وَهُمَا أَثَرُ الْـحَيَاءِ حَقًّا وَنَتِيجَتُهُ وَثَمَرَتُهُ.

فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ مُفْعَمًا بِالْـحَيَاءِ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بَعَثَهُ حَيَاؤُهُ وَسَاقَهُ إِلَى حِفْظِ رَأْسِهِ، وَحِفْظُ الرَّأْسِ -عِبَادَ اللهِ- يَشْمَلُ حِفْظَ الْبَصَرِ مِـنَ النَّظَـرِ إِلَى الْـحَرَامِ، وَحِفْـظَ السَّـمْعِ مِـنْ سَـمَاعِ

---

(١) صحيح الجامع (٢٥٤١).

(٢) صحيح الترمذي (٢٤٥٨).

الْـحَرَامِ، وَحِفْظَ اللِّسَانِ مِنَ الْكَـلَامِ الْـحَرَامِ، وَحِفْـظَ الْوَجْـهِ عُمُومًـا مِـنْ مُقَارَفَـةِ خَطِيئَـةٍ أَوِ ارْتِكَابِ مَعْصِيَةٍ.

وَحِفْظُ الْبَطْنِ - عِبَادَ الله - يَتَنَاوَلُ عَدَمَ إِدْخَالِ الحرام فِي الْـجَوْفِ، وَيَتَنَاوَلُ كَذَلِكَ حِفْظَ الْقَلْـبِ بِـالْأَخْلَاقِ الْفَاضِـلَةِ وَتَجْنِيبِـهُ رَدِيئَهَـا وَسَـيِّئَهَا، وَيَتَنَـاوَلُ كَـذَلِكَ حِفْـظَ الْفَـرْجِ مِنْ غِشْيَانِ الْـحَرَامِ.

وَالْأَمْرَانِ الْآخَرَانِ فِي الْـحَدِيثِ وَهُمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّـلَامُ: «وَأَنْ تَـذْكُرَ الْـمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا»؛ فِيهِمَا ذِكْرٌ لِأَمْـرَيْنِ عَظِيمَـيْنِ إِذَا اسْـتَقَرَّا فِي الْقَلْبِ تَحَرَّكَتِ الْفَضَائِلُ فِيهِ؛ فَمَنْ تَذَكَّرَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ وَيَبْلَى، وَأَنَّهُ سَـيَقِفُ بَـيْنَ يَـدَيِ الله جَـلَّ وَعَلَا، وَأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ سَيُحَاسِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا قَدَّمَ فِي هَذِهِ الْـحَيَاةِ اسْـتَحْيَا مِـنَ الله جَـلَّ وَعَلَا مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالٍ سَيِّئَةٍ وَخِصَالٍ مَشِينَةٍ، وَأَقْبَلَ عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ إِقْبَالًا صَـادِقًا بِإِنَابَةٍ وَحُسْنِ عِبَادَةٍ وَتَمَامِ إِقْبَالٍ.

قال أبو حاتم البُستي: (إن المرء إذا اشتد حياؤه صـان عرضـه، ودفـن مسـاويه، ونشـر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على النـاس ومُقـت، ومـن مُقت أوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن فقد عقله، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ومن قل حياؤه صنع ما شاء، وقال ما أَحَبّ).

وقال أيضًا: (فالواجب على العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل العقـل، وبـذر الخـير، وتركـه أصل الجهل، وبذر الشر، وجوده يدل على العقل كما أن عدمه دال على الجهل)[1].

وَإِنِّي لَتَنْهَـانِي خَلَائِـقُ أَرْبَـعٌ ... عَـنِ الْفُحْـشِ فِيهَـا لِلْكَـرِيمِ رَوَادِعُ
حَيَـاءٌ وَإِسْـلَامٌ وَشَـيْبٌ وَعِفَّـةٌ ... وَمَـا الْـمَرْءُ إِلا مَـا حَبَتْـهُ الطَّبَـائِعُ

إن من أسماء الله: (الْـحَيِيّ)، وَقَدْ ثَبَتَ هَذَا الاسْمُ في قوله ﷺ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ رضي الله عنـه: «إِنَّ اللهَ حَيِـيٌّ كَـرِيمٌ يَسْـتَحْيِي مِـنْ عَبْـدِهِ إِذَا رَفَـعَ إِلَيْـهِ يَدَيْـهِ أَنْ يَرُدَّهُمَـا صِـفْرًا»[2]،

(١) روضة العقلاء.

(٢) صحيح أبي داود (١٤٨٨).

فـ(الـحَيِيُّ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ سبحانه، كما أنه صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا، فمَنِ اسْتَحْيَا مِـنَ الله اسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْـحَدِيثِ: «وَأَمَّا الثَّانِي، فَاسْتَحْيَا مِـنَ الله فَاسْـتَحْيَا اللهُ مِنْـهُ»[1] فِي قِصَّةِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب).

قال ابن القيم معلقًا على كلام يحيى بن معاذ: (وهذا الكلام يحتاج إلى شرح، ومعنـاه: أن من غلب عليه خلقُ الحياء من الله حتى في حال طاعته، فقلبه مُطرق بين يديه إطـراق مُستحٍ خَجِلٍ، فإنه إذا واقع ذنبًا استحيا الله عَزَّوَجَلَّ مـن نظـره إليـه في تلـك الحـال؛ لكرامتـه عليـه؛ فيستحيي أن يرى من وليه ومن يَكْرُم عليه ما يشينه عنده... وهذا غاية الكرم).

إلى أن قال: (أما حياء الرب من عبده فذاك نـوع آخـر، لا تدركـه الأفهـام، ولا تُكَيِّفُـه العقول؛ فإنه حياء كرم، وبرٍّ، وجود، وجلال؛ فإنه تبارك وتعالى حييٌّ كـريم، يستحيي مـن عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام)[2].

والحياء كذلك خلقٌ من أخلاق النبوة، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أشـد النـاس حياءً، حتى إنه كما قال أبو سعيد الخدري: «كَانَ رسـول الله ﷺ أَشَـدَّ حَيَـاءً مِـنَ العَـذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِه»[3].. وقال الله عنه في أمر دخول أصحابه بيته وجلوسـهم بعـد إطعامـه إيـاهم: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]. فلم يكن عليه الصلاة والسـلام صـخَّابًا ولا فاحشًـا ولا متفحشًا، ولا يجابه المخطئ بخطئه، أو يفضح عيبه ليحرجه، بل كـان بسّـامًا متواضـعًا قليـل الكلام كثير الحياء والإغضاء.

ولكن لا ينبغي الحياء من تعلُّم العلم، أو بيان الحق، فإن الله لا يستحيي من الحق، كما قال سـبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحـزاب:٥٣]. وقـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ

---

(١) رواه البخاري (٦٦) ومسلم (٢١٧٦).

(٢) مدارج السالكين.

(٣) رواه البخاري (٦١١٩).



﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]. وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهنَّ الحياء أن يسألن عن أمر دينهن. فإن العلم لا يناله مُستحي ولا متكبر، وإن بيان الحق وإقامة العدل لا ينبغي أن يُستحيا منه.

اللَّهُمَّ يَا ذَا الْـجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا مَنَّانُ يَا جَـوَادُ يَـا كَـرِيمُ يَـا مُحْسِـنُ ارْزُقْنَـا أَجْمَعِينَ الْـحَيَاءَ مِنْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْـحَيَاءَ مِنْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّـومُ، اللَّهُـمَّ ارْزُقْنَـا الْـحَيَاءَ مِنْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ. اللَّهُمَّ وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ.

أَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ وَلِسَائِرِ الْـمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْب فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِـرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثانية:

الْـحَمْدُ للهِ عَظِيمِ الْإِحْسَانِ، وَاسِعِ الْفَضْلِ وَالْـجُودِ وَالامْتِنَانِ، وَأَشْـهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْـدَهُ لَا شَرِيـكَ لَـهُ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّـدًا عَبْـدُهُ وَرَسُـولُهُ؛ صَـلَّى اللهُ وَسَـلَّمَ عَلَيْـهِ وَعَـلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وبعد:

يقول ابن القيم: (من وافق الله في صفة من صفاته؛ قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربه، وأدْنَتْهُ وقرَّبته من رحمته، وصيرته محبوبًا له؛ فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حييٌّ يحب أهل الحياء، جميلٌ يحب أهل الجمال، وِترٌ يحب أهل الوتر).

وَرُبَّ قَبِيحَـةٍ مَـا حَـالَ بَيْنِـي	وَبَـيْنَ رُكُوبِهَـا إِلا الْـحَيَاءُ
فَكَـانَ هُـوَ الـدَّوَاءَ لَهَـا وَلَكِـن	إِذَا ذَهَـبَ الْـحَيَاءُ فَـلا دَوَاءُ
يَعِـيشُ الْـمَرْءُ مَـا اسْـتَحْيَى بِخَـيْرٍ	وَيَبْقَـى الْعُـودُ مَـا بَقِـيَ اللِّحَـاءُ
فَـلا وَاللهِ مَـا فِي الْعَـيْشِ خَـيْرٌ	وَلا الـدُّنْيَا إِذَا ذَهَـبَ الْـحَيَاءُ
إِذَا لَمْ تَخْـشَ عَاقِبَـةَ اللَّيَـالِي	وَلَمْ تَسْـتَحِي فَافْعَـلْ مَـا تَشَـاءُ

كان الفاروق عمر يقول: من قلّ حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: رأس مكارم الأخلاق الحياءُ. وقال سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله إذا أراد بعبدٍ هلاكًا نزع منه الحياء». وقال ابن القيم: (الحياء أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (خُلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فَمَن لا حياء فيه فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء)[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة.

ولقد جاء من أخبارهم ما يوضح شدة حيائهم من الله تعالى: فهذا أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إني لأغتسل في البيت المظلم، فأحني ظهري حياءً من ربي.

وعن عكرمة عن ابن عباس: أنه لم يكن يدخل الحمام إلا وحده وعليه ثوب صفيق، ويقول: «إني لأستحيي من الله أن يراني في الحمام متجرِّدًا». وعن الحسن قال: (كان موسى نبي الله ﷺ لا يغتسل إلا مسترًا)، فقال له ابن بريدة: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبي هريرة.

وقال أبو العباس الأزهري: سمعت خادمة محمد بن يحيى -وهو على السرير يغسل- تقول: (خدمته ثلاثين سنة، وكنت أضع له الماء، فما رأيت ساقه قط، وأنا ملك له).

ودخل محمد بن إسماعيل البخاري على محمد بن سلام حين قدم من العراق، فأخبره بمحنة الناس، وما صنع أحمد بن حنبل وغيره من الأمور، وكان البخاري حييًّا، فلما خرج من عنده قال محمد بن سلام لمن حضره: (أترون البكر أشد حياء من هذا؟!) لحسن أدبه وشدة حيائه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واعلم أن الحياء في الإنسان يكون من ثلاثة أوجه: أحدهما: حياؤه من الله تعالى ويكون بامتثال أوامره، والكفّ عن زواجره. والثاني: حياؤه من الناس ويكون بكفِّ الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح. والثالث: حياؤه من نفسه، ويكون بالعفة، وصيانة الخلوات). وقد قيل: ذو المروءة يستحي من نفسه كما يستحي من غيره، فلا يفعل في الخلوة ما يستحي منه في العلانية.

فأين من لا يستحي من الله أن يقول الفاحش من الكلام؟ أين من إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها؟ أين من لا يستحي من والديه ولا يخفض لهما جناح الذل من الرحمة؟ أين من لا تستحي من قول الله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]؟ أين من يخضعن بالقول لفتنة الآخرين وقد قال الله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]؟ أين من لا يستحون من قول الله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] فيطلعون على العورات ويسعون لهتك الحرمات؟ أين من لا يستحي من خروج بناته ونسائه بلباس غير محتشم؟ بل أين من يسعون لسلخ أبناء الجيل من الحياء، بإعلامهم

وقنواتهم وطربهم ومسلسلاتهم؟ الله الله في تعظيم الله والحياء منه، وعدم تعدي حدوده وانتهاك حرماته، استحيوا من الله حق الحياء..

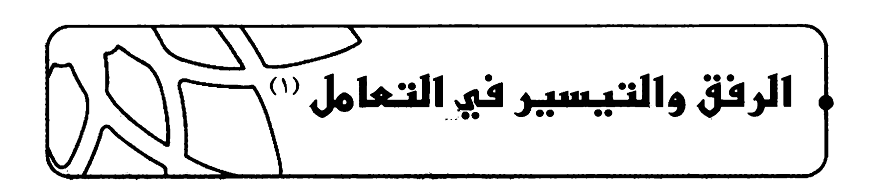
أَيُّهَا الْـمُؤْمِنُونَ: إن اللهَ جَلَّ وَعَلَا حَيِيٌّ يُحِبُّ الْـحَيَاءَ والستر، وَالْوَاجِبُ عَلَى العَبْدِ الْـمُؤْمِنِ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْهُ وَعِلْمِهِ بِهِ، وَاستشعاره لاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، مُعَظِّمًا لِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، مُقَدِّمًا مَحَابَّهُ عَلَى كُلِّ المحبوبات والمرغوبات، وَالْكَيِّسُ مِنْ عِبَادِ الله مَنْ دَانَ نَفْسَه وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْـمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى الله الْأَمَانِيَّ.

إذا مـا قـال لي ربي	أمـا اسـتحييتَ تعصـيني
وتخفـي الـذنب مـن	خلقـي وبالعصـيان تـأتيني
فـما قـولي لـه لمّـا	يعـاتبني ويُقصـيني

ألا وصلوا وسلموا على النبي الخاتم، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَصْدَقَ الْـحَدِيثِ كَلَامُ الله، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى رَسُولِ الله ﷺ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَعَلَيْكُمْ بِالْـجَمَاعَةِ فَإِنَّ يَدَ الله عَلَى الْـجَمَاعَةِ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا وَلَا تُعِنْ عَلَيْنَا، وَانْصُرْنَا وَلَا تَنْصُرْ عَلَيْنَا، وَامْكُرْ لَنَا وَلَا تَمْكُرْ عَلَيْنَا، وَاهْدِنَا وَيَسِّرِ الْهُدَى لَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْنَا.





الرفق والتيسير في التعامل [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله بارئ البريات، وعالم الخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمده سبحانه وأشكره وسع كل شيء رحمة وعلما، وقهر كل مخلوق عزةً وحُكما، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أرجو بها الفوز بالجنات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله المؤيد بالمعجزات، المسدد بالبراهين الواضحات، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله السادات، وأصحابه ذوي الفضل والمكرمات، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسموات، وسلم عليهم كثير التسليمات، أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها المؤمنون: إن حُسن الخلق من كمال الإيمان، وإن الله قد بعث نبيه محمدا ﷺ رحمة وهدى، ووسع خلقه الناس سهولة ورفقا، ونضحت يداه بالعطايا كرما وجودا، أبر الناس قلبا، وأصدقهم لهجة، وأقربهم رحما. وإن من أخص خصائصه وأكرم سجاياه عليه الصلاة والسلام: رفقه ولينه مع الناس، وليس ذلك في حال الرخاء والرضى فحسب، بل لازمته تلك الفضائل الزاكية والأخلاق العالية في أشد الأوقات وأحلك الظروف، شُج رأسه وكسرت رباعيته في غزوة أحد، فقيل له في هذا الحال العصيب: ألا تدعوا على المشركين؟ فما هو إلا أن تدفق رفقه، وظهرت رحمته، وفاضت طبيعته العالية، وسجيته الكريمة، بما يلتمس فيه العذر لهؤلاء، فكان مما قال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا»[2] وصدق الله العظيم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

---

(١) صالح بن عبدالله بن حُميد.

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٩).

قال ابن القيم: (من رَفَقَ بعبادِ الله رَفَقَ الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله بتلك الصِّفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه)(١). وقال ابن حجر: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب)(٢).

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥]. وقال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والرفق ضد العنف، قال ابن حجر: (هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف)(٣). وقال القاري: (هو المداراة مع الرفقاء ولين الجانب واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه وأيسرها)(٤).

خذ الأمور برفقٍ واتّئد أبدًا ... إياك من عجلٍ يدعو إلى نصبِ

الرفق أحسن ما تُؤتى الأمور به ... يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطبِ

أيها المسلمون: إنها القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة عن التعقل والحلم، إنها إلى العفو والصفح أقرب منها إلى الانتقام والبطش.

ها هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول في مجادلته لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦١-٦٣]. إنه جواب ملؤه الرحمة والشفقة، والصدق في النصح، واللطف في

---

(١) الوابل الصيب (ص٣٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ٩٤).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٤٩).

(٤) مرقاة المفاتيح للقاري (٨/ ٣١٧٠).

الخطاب. وكذا خطابه مع ابنه الذي لم يؤمن به، فناداه حين نزل العذاب: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢]، إنه خطاب الأب الحاني، والناصح المشفق.

وأما رفق الولد مع أبيه فها هنا مثال رائع يعلو على كل مثال، ويتجلى في موقف إبراهيم الخليل مع أبيه آزر، يقول الشنقيطي عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٦-٤٧]. قال: (بين الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ومن عذاب الله تعالى وولاية الشيطان خاطبه هذا الخطاب العنيف وسماه باسمه ولم يقل له يا بني في مقابلة قوله له يا أبت وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان أي معرض عنها لا يريدها لأنه لا يعبد إلا الله وحده جل وعلا وهدده جل وعلا وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمنه.. ثم أمره بهجره مليًّا أي زمانا طويلا، ثم بيّن أن إبراهيم قابل أيضا جوابه العنيف بغاية الرفق واللين في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم:٤٧])[١].

أيها الإخوة في الله: إن الرجل العظيم كلما ارتفع إلى آفاق الكمال؛ اتسع صدره، وامتد حلمه، وتطلب للناس الأعذار، والتمس لأغلاطهم المسوغات، وأخذهم بالأرفق من حالهم.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بال أعرابي في المسجد فقام إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه، لا تزرموه، وأهريقوا على بوله ذَنوبا من ماء -أي دلوًا من ماء- فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسرين، وسكنوا ولا تنفروا»[٢] زاد الترمذي: ثم قال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا، فقال له النبي ﷺ: «لقد تحجّرت واسعًا»[٣].

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٨).

(٣) صحيح الترمذي (١٤٧).

أولئك هم رسل الله عليهم الصلاة والسلام عنوان الرحمة والشفقة والقدوة في الصفح والمغفرة.

ومن أحسن ما وصف به الله تعالى أنبياءه ورسله قوله جل في علاه عن نبينا وحبيبنا محمد ﷺ لما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، يعني رحمك الله تعالى، وأحسن إليك، وتفضل عليك بأن أصبحت لينًا رفيقًا في تعاملك مع الناس ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

أيها الناس: الرفق زين، والقسوة شَين، يقول ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[١]. ولا يظن البعض أنه سينال بالقسوة والشدة ما لا يناله بالرفق والتؤدة والحكمة، فالعكس هو الصحيح، وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الخير»[٢].

ويقول ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»[٣]. قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (يعني أن الإنسان إذا حُرم الرفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه، وفيما يتصرف فيه مع غيره، فإنه يحرم الخير كله أي فيما تصرف فيه، فإذا تصرف الإنسان بالعنف والشدة فإنه يحرم الخير فيما فعل وهذا شيء مجرب ومشاهد أن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة؛ فإنه يحرم الخير ولا ينال الخير، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر؛ حصل على خيرٍ كثير، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائمًا رفيقًا حتى ينال الخير)[٤].

وعلى من ولي من أمر الناس شيئًا صغيرًا كان أو كبيرًا، حتى الأب في بيته، والمعلم في مدرسته، والمدير في إدارته، أن يتقي الله فيمن هم تحت يده، وأن يستعمل الرفق واللين،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٣) واللفظ له، وأحمد (٦/ ٤٥١) (٢٧٥٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٦٤). قال الترمذي: (حسن صحيح). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ٥٩٢).

والرأفة والرحمة، والحكمة والأناة، لينال دعوة النبي له لا عليه، فقد قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به»[1]. ولكن لا يظن البعض أن ذلك يعني المحاباة في الحكم، والمداهنة أو التنازل على حساب الحق، واتباع أهواء الآخرين، ليس الأمر كذلك، بل أن يسير برعيته وفق ما تقتضيه المصلحة الراجحة والمنفعة المتحققة، ولكن بسلوك أقرب السُبل، وأرفق الطرق، وأيسر الوسائل، بشيء من الحكمة والتدرج، دون أن يشق عليهم في شيء ليس من مرضاة الله، ولا يلجأ إلى الشدة إلا حيث تُلجئه الحاجة، مع تقدير الضرورة بقدرها، ووضع الأمور في نصابها بميزان العدل والصدق، مع استحضار حجته عند الله تعالى يوم يقف بين يديه، فيكون الرفق أصل غالب، والشدة استثناء طارئ، فمن شقّ على من هم تحت يده في غير وجه حق، دخل في الطرف الثاني من الحديث، وهو دعاء النبي ﷺ بأن يشق الله عليه، وذلك يشمل دنياه وآخرته، نسأل الله العافية.

أيها المؤمنون: إن القسوة في القلوب، والغلظ في الأخلاق تكون في الإنسان دليلا على قلة التوفيق، وسوء التدبير، كما أنها في تاريخ الأمم قد تكون علائم فساد خطير، فلا عجب أن قد حذر منها القرآن الكريم واعتبرها علة الفسق عن أمر الله، وسر الشرود عن صراطه المستقيم يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]. أما إذا زاد الإيمان في القلب وعمرت النفس بذكر الله، ازدادت السماحة وازداد الحلم، واتسع الصدر للناس، فلا يقابل الجاهل بمثل جهله ولكنه قول سلام وإعراض عن اللغو: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وبسنة نبيه محمد ﷺ. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة. فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله جعل لكل شيء قدرا، وأحاط بكل شيء خُبرا، وأسبل على خلقه بلطفه رحمة وسترا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: إن مما ينبغي التنويه إليه والتنبيه عليه: استعمال الرفق مع النفس، في تهذيبها وتأديبها، وتقويمها في سيرها إلى الله تعالى، فإن النفوس تحتاج إلى ترويض، وتدرج لتترقى في مراقي الكمال، سواء في العبادات، الأخلاق والمعاملات، أو حتى في تعلّم العلوم، فإن من رام أخذ العلم جملة، ذهب عنه جملة، فإنما يؤخذ الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام، حتى تعتاد النفس وتتقوى شيئًا فشيئًا، وقليل دائم خير من كثير منقطع، فإن المُنبَتّ لا أرضًا قطَع، ولا ظهرًا أبقى. فلا ينبغي الغلو في شيء من الطاعات والعبادات، أو الاستعجال، مما يورث السأم ويسبب الملل والكلل.

قال الحافظ ابن حجر: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغلب)[1]. وقال ابن القيم: (نهى النبي ﷺ عن التشديد في الدين بالزيادة على المشروع، وأخبر ﷺ أن تشديد العبد، على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه إما بالقدر وإما بالشرع. فالتشديد بالشرع: كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر كفعل أهل الوسواس. فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر، حتى استحكم ذلك وصار صفة لازمة لهم)[2].

وقال أبُو حاتم: (العاقل يلزم الرفق في الأوقات والاعتدال في الحالات؛ لأن الزيادة على المقدار في المبتغى عيب، كما أن النقصان فيما يجب من المطلب عجز، وما لم يصلحه الرفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق، كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرفق يكون

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٩٤).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٢).

الاحـتراز وفي الاحـتراز ترجـى السـلامة، وفي تـرك الرفـق يكـون الخـرَق، وفي لـزوم الخرق تُخاف الهلكة)[1].

أيها المؤمنون: وإن من عامل الناس بالرفق عامله الله بمثل ما يعامل به غيره، والجزاء مـن جنس العمل، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من رَفَقَ بعبادِ الله رَفَقَ الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومـن نفعهـم نفعـه، ومـن سـترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله بتلك الصِّفة بعينهـا في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه)[2].

ومن أولى من ينبغي له التخلق بالرفق الـدعاة والمربـون، والآبـاء والمعلمـون، قـال عبـد الرحمن الميداني: (وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفـق في دعـوة الخلـق إلى الحـق، وتعلـيم النـاس لا يـؤتي ثمراتـه الطيبات ما لم يقترن بخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة)[3]. ولنتأمل: فإنـه لـيس بعـد طغيان فرعون من طغيان وقد قال الله لموسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣-٤٤]. إن حقا على المسلمين أن يستصحبوا الرفق واللين في الأمر كله من غير مداهنة ولا مجاملة، ومن غير غمط ولا ظلم.

وعلى أصحاب المسئوليات أن يرفقـوا بمـن تحـت أيـديهم، لا يأخـذون إلا بحـق، ولا يدفعون إلا بالحسنى، ولا يأمرون إلا بما يستطاع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

كما أن على الأب الشفيق والأم الرؤوم، وإن على الأزواج أن يرفقوا بزوجاتهم، فإنما هُـن عُوانٍ -أي: أسيرات- عندهم، لذا أوصى بهن النبي ﷺ خيرًا، وقال: «خيركم خيركم لأهله،

(١) روضة العقلاء لابن حبان البستي (٢١٦).

(٢) الوابل الصيب (ص٣٥).

(٣) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني (٢/ ٣٤٠).

وأنا خيركم لأهلي»، وفي لفظ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم»[1]. فأولى الناس برفقك وخيرك هم أهل بيتك.

لذلك حرص النبي ﷺ على الرفق، وكان يربي عليه أصحابه، كان يربي عليه أهله، كان يتمثله في نفسه ﷺ، فكان ﷺ يقول -كما في الصحيح-: «إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا» إذا أراد الله ببيتك أنت، بزوجتك وأبنائك، أو بأمك وأبيك وأخواتك وأخوالك، إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا، ماذا يفعل بهم؟ أكثر أموالهم؟ أم زرع بينهم الخير والصلاح؟ قال ﷺ: «إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق، وإذا أراد بأهل بيت شرا نزع منهم الرفق»[2].

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله حرم على النار كل هيِّنٍ ليِّنٍ سهْلٍ قَريبٍ من الناس»[3]، لم يقل حرم على النار كل عابد قوّام لليل، صوام للنهار، مع فضل العبادة وارتفاع شأنها ونفعها العظيم عند رب العالمين؛ لكنه ﷺ بيَّن أثر العبادة في الناس. ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه، وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، بذلك صحت الأخبار عن الصادق المصدوق ﷺ.

أمة الرحمة والهدى: إن العقل والحكمة والمعرفة بطبائع الأمور تقتضي تقبل الميسور من أخلاق الناس، والرضا بالظاهر من أحوالهم، وعدم التقصي على سرائرهم، أو تتبع دخائلهم، كما تقتضي قبول أعذارهم، والغض عن هفواتهم، وحملهم على السلامة وحسن النية. إذا وقعت هفوة أو حصلت زلة فليس من الأدب وليس من الخلق الحسن المسارعة إلى هتكها والتعجل في كشفها فضلا عن التحدث بها وإفشائها. بل لقد قيل: اجتهدوا في ستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الاسلام.

كيف يسوغ لمسلم أن يتشاغل بالبحث عن العيوب ورجم الناس بها؟ بل لعله قد يخفي ما يعلم من صالح القول والعمل. هل وظيفة المسلم أن يلوك أخطاء الناس ويتتبع عثراتهم،

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

(٢) صحيح الترغيب (٣٠٣).

(٣) صحيح الجامع (٣١٣٥).

ويعمى أن يرى حسناتهم، وكأنه لا يعرف و لا يرى إلا كفة السيئات؟ أليس في عيوبه ما يشغله عن عيوب الناس؟!.

أيها المؤمنون: إن المسلم الناصح شفوق بإخوانه، رفيق بهم، يحب لهم الخير كما يحبه لنفسه، ويجتهد لهم في النصح كما يجتهد لنفسه. أما الفظ القاسي صاحب القلب الغليظ.. فقد قضت سنة الله.. نفرة الناس منه، فلا تقبل منه دعوة، ولا يسمع منه توجيه، ولا يرتاح له جليس ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وعلى قدر ما يمسك الإنسان نفسه، ويكظم غيظه، ويملك لسانه تعظم منزلته عند الله وعند الناس.

وعلى قدر ما يتجاوز عن الهفوات، ويقيل من العثرات.. تدوم مودته ويأنس الناس به. إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن تسعوهم بأخلاقكم. يسعهم منكم بسط المحيا وطلاقة الوجه.

إن المخلص في المودة الصادق في المحبة لا يري لنفسه فضلا على غيره، ولا يكون عونا للشيطان على صاحبه. روي أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر على رجل قد أصاب ذنبا والناس يسبونه فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قليب -أي في بئر- ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم».

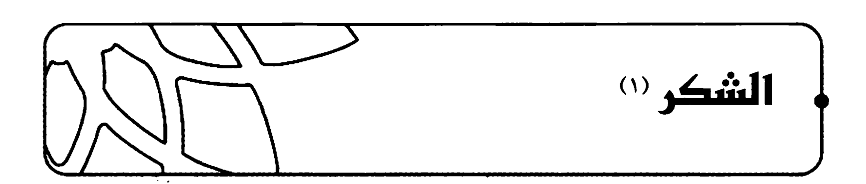
فاتقوا الله رحمكم الله وأجلوا أقرانكم، واحترموا زملاءكم وارحموا إخوانكم. واعرفوا لأهل الفضل فضلهم، وغضوا عن المقصرين، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وتودد إليها. فاعفوا واصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٦].

فاتقوا الله ربكم وخذوا بأحسن الأخلاق، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.

هذا وصلوا وسلموا...





الشكر (1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الولي الحميد، ذي العرش المجيد، الفعَّال لما يُريد، أحمده سبحانه وأشكرُه وعدَ الشاكرين بالمزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ الإخلاص والتوحيد، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه أفضلُ الأنبياء وأشرفُ العبيد، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله السادة الأطهار، وأصحابِه البرَرة الأخيار ذوي القول السديد والنهج الرشيد، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الوعيد، وسلَّم التسليمَ الكثيرَ المزيد.

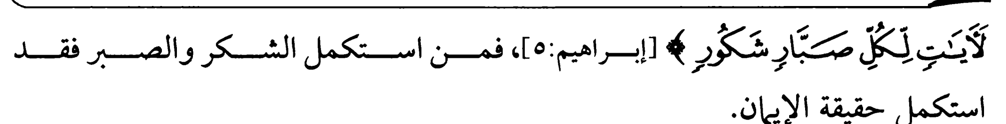
أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله - حقَّ التقوى، واستمسِكوا من الإسلام بالعُروة الوُثقى.

أيها المسلمون: يقول الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢]. ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢].

إنه خُلُقٌ عظيمٌ، ومقامٌ من مقامات العبادة كريم، أمرَ اللهُ به، ونهى عن ضدِّه، وأثنَى على أهلِه، ووصفَ به خواصَّ خلقِه، وجعلَه غايةَ خلقه وأمرِه. وعدَ أهلَه بأحسن جزائِه، وجعلَه سببًا للمزيد من فضلِه، وحارسًا لنعمه، وحافِظًا لآلائِه. أهلُه هم المُنتفِعون بآياته، اشتقَّ لهم اسمًا من أسمائِه، هم القليلون من عباده، وحسبُكم بهذا كلِّه فضلًا وشرفًا وعلوًّا. إنه مقامُ الشكر، نصف الإيمان، وقسيم الصبر، فالإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

(١) عبدالمحسن القاسم.



﴿لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]، فمن استكمل الشكر والصبر فقد استكمل حقيقة الإيمان.

أيها المؤمنون: إن معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله تُوجِبُ محبَّتَه وتعظيمَه وإفرادَه، ومن أسمائِه: الوهَّاب، ومن صفاته: الكرَم، ومن كرمِه: ما امتنَّ به على عباده من النِّعَم، فأسبغَ عليهم منها ما لم يسألُوه إياها، ومنَحَ لهم منها ما سألُوه، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٤]. وفتحَ عليهم نِعَمًا من السماءِ والأرض؛ ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]. وتذكُّرُ نعَمِ الله داعِيةٌ لشُكرِه وتوحيده وكثرةِ عبادته، وهي من أسبابِ الفَلاح؛ قال جل وعلا: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

واللهُ أمرَ رُسُلَه بتذكُّر نعَمِه عليهم، فقال لعيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠]. وقال لنبيِّنا محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨].

وأمر الرُّسُلُ أقوامَهم بتذكُّر أفضالِ الله عليهم؛ فقال هودٌ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]، وقال صالحٌ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤]، وقال شعيبٌ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقال موسى لقومه: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم:٦].

وقال سبحانه مُمتنًّا على الأوسِ والخزرَج: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال لعباده المؤمنين: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [الأنفال:٢٦].

فاذكروا نعم الله عليكم، لعلكم أن تشكروا إحسانه إليكم، فإن نعمه عليكم لا تُحصى، كما أن ذنوبكم لا تُحصى، لكن تذكُّر النعم يورث الشكر، ونسيانها يورث الكفر، ولقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتذاكَرون نعَمَ الله عليهم، فخرجَ عليهم النبي ﷺ، فسألَهم فقالوا: جلَسنا نذكُر الله ونحمدُه على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا؛ رواه مسلم.

وجلسَ الفُضيلُ بن عياض وسفيان بن عُيينة ليلةً يتَذَاكران نعم الله عليهما إلى الصباح.

والله سبحانه بفضله نوَّعَ النِّعَمَ لعباده؛ فمنها ما هو نازلٌ من السماء، ومنها ما هو خارجٌ من الأرض، ومنها ما هو في جوفِها، والبحارُ المُتلاطِمةُ الأمواجِ مُذلَّلةٌ للإنسان، الفُلكُ تمخُرُ في أعلاها، وما في بطنِها من الصيدِ والطعام بما فيه مَيتَتُه حلالٌ لهم، وجواهِرُها من اللؤلؤ والمَرجان ونفائِسَ أُخَر حِليَةٌ لهم ومال. والنجومُ والكواكبُ من فوقِهم منها الجواري ومنها الكُنَّس، وفيها الوهَّاج وفيها ما هو زينة، منها ما يُبصَر ومنها ما لا يُبصَر، وما بين السماء والأرض رياحٌ بُشرى بين يدَي رحمته. والأرض مدَّها فلا تضيقُ بالخلق، وبالجبال أرساها، وأنبتَ فيها من كل زوجٍ بهيجٍ. والإنسان خلقَه وركَّبَه وفي أحسن صُورةٍ صوَّرَه، وأمرَه بالتفكُّر في نفسه، وقال لعباده: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

بل كل ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما فهي هبةٌ من الله للإنسان يستعينُ بها على طاعته، قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

ولا تتمُّ على العبد النِّعَمُ إلا بالدين، الذي هو أكمل النعم وأعلاها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]. ومن المِنَّة على هذه الأمة أن بعَثَ فيها أفضلَ رُسُله وأنزل إليها خير كتبه، وجعلها خير أمة أُخرجت للناس.

ومن رأى أن الله هداه لعبادته وتوحيده، مع ضلال غيره؛ عظُمَت نعمةُ الله عليه في قلبه؛ فوالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا، ثم نعمة العافيةُ أعظمُ نعمةٍ دُنيوية؛ والفراغُ كالصحةِ في قدر النعمة، ولكن قلّ من يشكرهما ويعرف قدرهما؛ قال عليه الصلاة والسلام:

«نِعمتان غبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصحةُ والفراغُ»؛[1]. وكرمُ الله وافِرٌ، وعطاؤُه جَزيل، ونِعمُه تزيدُ بالشُّكر، ومن شُكرِها الإقرارُ بأنها منَ الله؛ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]. وإن بقاءُ النعمةِ مقرونٌ بالشُّكر، فإن النعم إن لم تُشكَر زالَت؛ قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

عباد الله: إن المعاصِي تدفَعُ حُلولَ نعمةٍ نازِلَة، أو ترفَعُ نعمةً حادِثة، وقد لا ترفَعُها ولكن تُنزَعُ البركةُ منها، أو تكون عذابًا لصاحبها، وما أذنبَ عبدٌ ذنبًا إلا زالَت عنه نعمةٌ بحسب ذلك الذنبِ؛ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المعاصِي نارُ النعَم تأكلُها كما تأكُل النارُ الحطَبَ).

وإذا رأيتَ نعَمَه سابِغةً عليك وأنت تعصِيه، فاحذَره فقد يكون استِدراجًا لك؛ كما قال سبحانه عن قوم: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم:٤٤-٤٥]. قال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتَ اللهَ يُعطِي العبدَ من الدنيا على معاصِيه ما يُحبُّ فإنما هو استِدراجٌ»، ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤][2].

وإذا حلَّت نعمةٌ وإن قلَّت فإنها تزيد المؤمن الشاكر إيمانًا وتزيد الجاحد الكافر بها بُعدًا؛ فقد أمطرت السماء في ليلة من الليالي على عهد النبي ﷺ فقال في صبيحتها: «قال الله تعالى: أصبحَ من عبادي مُؤمنٌ بي وكافِر»[3].

وكل نعمةٍ وإن كانت يسيرةً سيُسألُ عنها العبدُ هل شكرَها أم جحَدَها؛ قال عليه الصلاة والسلام: «إن أولَ ما يُسألُ عنه العبدُ يوم القيامةِ - أي: من النِّعَم -: أن يُقال له: ألم نُصِحَّ لك

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٥، ٣٣٩).

(٣) متفق عليه.

جسمَك ونرويكَ من الماء البارِد؟»[1]. والنِّعَمُ بـذاتِها لا تُقـرِّبُ مـن الله، وإنـما حـين تُشـكر ويُستعانُ بها على طاعته؛ قـال سـبحانه: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ:٣٧].

وقد يُعذَّبُ المرءُ بالنعمةِ إذا لم يتَّقِ اللهَ فيها؛ قال تعـالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٥٥]. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الله ليُمتِّعُ العبدَ بالنعمةِ ما شاءَ، فإذا لم يشـكُر ربَّـه عليهـا قلَبَهـا عـذابًا)، نسـأل الله العفو والعافية.

إن الله تعالى وهَّابٌ كريمٌ يدُه ملأى سحَّاءُ الليل والنهار، لكنه عليمٌ حكيـمٌ، يُعطِـي كـلَّ عبدٍ ما يُلائِمُه من النِّعَم، فمن الناس من بسط لهم في الأرزاق فطغوا وبغوا، وتكبروا وكفروا بتلك النعم، فما زادتهم من الله إلا بُعدا، ولقد منع الله بعض عباده وضيّق عليهم من حبه لهـم ورحمته بهم لئلا يقعوا فيما وقع فيه أولئك، فمنع من يحب بعض ما يحبون وحـرمهم ممـا إليـه يطمحـون، قـال سـبحانه: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ ﴾ [الشـورى:٢٧]. وقـال تعـالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلـق:٦-٧]، وقـال: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴾ [الإسراء:٨٣].

فالله سبحانه لطيفٌ رحيمٌ يحرمُ العبدَ نعمةً يتمنَّاها، أو يُنزِلُ عليه نعمـةً في لبـاسِ مُصيبةٍ ليرفَعَ درجتَه، والمؤمنُ يتقلَّبُ في حياته بين الشُّكرِ والرضا، والصبر والاستغفار.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظـيم، ونفعنـي الله وإيـاكم بـما فيـه مـن الآيـاتِ والـذكرِ الحكـيم، أقـول قـولي هـذا، وأسـتغفر الله لي ولكـم ولجميـع المسـلمين، فاسـتغفروه، إنـه هو الغفور الرحيم.

---

(١) الترمذي (٢٠٢٢).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، أحصَى كل شيءٍ وعلِمَه، وأتقنَ ما صنَع وأحكمَه، أحمده سبحانه على ما وهبَ من العلم وفهَّمَه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ من عرفَ الحقَّ والتزمَه، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه صدعَ بالحق وأسمعَه، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصار ممن عزَّره ووقَّره وكرَّمه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أيها الناس: الشكرُ أمرٌ مستقرٌّ في سُلوك المُتعبِّدين، ونهجٌ راسِخٌ في نفوس الصالحين، تمتلِئُ به قلوبُهم، وتلهَجُ به ألسِنتُهم، ويظهرُ على جوارِحهم.

وأولُ أنبياء الله نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصفَه ربُّه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، والخليلُ إبراهيم صاحب الملَّة الحنيفية قال فيه ربُّه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١]، ويقول سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ينظرُ فيما خصَّه به ربُّه من نعمه وسخر له من مخلوقاته: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، ويقول: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

أما نبيُّنا محمدٌ ﷺ وهو الذي قد غفرَ الله له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخَّر، فيقومُ لربِّه من الليل حتى تتفطَّر قدماه، ويقول: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟».

الشكرُ اعترافٌ من العبد بمنَّة الله عليه، وإقرارٌ بنعمِه عليه من خيرَي الدنيا والآخرة في النفس، وفي الأهل والمال والأعمال، وفي شأن العبد كلِّه، وهو دليلٌ على أن العبدَ راضٍ عن ربِّه؛ فالشكرُ حياةُ القلب وحيَويَّتُه، وهو دليلٌ على صفاء النفس، وطهارة القلب، وكمال العقل؛ وإن الله جل وعلا خلقَ الناسَ من أجل أن يشكُروه، يقول - جل وعلا -:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

والشكرُ أولُ وصيَّةٍ وصَّى بها الإنسان: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤].

وأخبرَ - عزَّ شأنه - أن يرضى عمن شكره، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

كما جعلَ الشكر سببًا من أسباب الأمن من عذاب الله، يقول عزَّ شأنه: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧].

بل لقد خصَّ الله الشاكرين بتوفيقهم وتفضيلهم على غيرهم من الناس، فقال جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣].

أيها الإخوة: وللشكرِ أركانٌ ثلاثة: الاعترافُ بالنعم باطنًا مع محبَّة المُنعِم، والتحدُّثُ بها ظاهرًا مع الثناء على الله، وصرفُها في طاعة الله ومرضاته واجتناب معاصِيه.

يقول الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الخيرُ الذي لا شرَّ فيه: العافية مع الشكر؛ فكم من شاكرٍ وهو في بلاء، وكم من مُنعَمٍ عليه وهو غيرُ شاكِر. فإذا سألتُم الله فاسألُوه الشكرَ مع العافية).

وشكرُ الله واجبٌ في جميع الأحوال: في الصحة والسَّقَم، والشباب والهرَم، والفقر والغِنى، والفراغ والشُّغل، والسرَّاء والضرَّاء، واليقظَة والمنام، والسفَر والإقامة، وفي الخَلوة والاختلاط، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم؛ فإن أمر المؤمن كله له خير، والخير في التسليم لما اختاره الله.

يقول أبو الدرداء: «من لم يعرِف نعمَ الله عَزَّوَجَلَّ عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمُه». لأن نعم الله دائمة، وآلاءه مُتتابِعة، ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال - عزَّ شأنه -: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠].

واعلموا - وفقكم الله - أن وسائل الشكر لا تُحصَى، وميادينَه لا تُحصَر، فاشكُروا ربَّكم على ما أظهرَ من جميل، وعلى ما ستَرَ من قبيح، وإن من شُكرِ نعم الله: حمدُ الله عليها؛ قال عليه الصلاة والسلام: «إن اللهَ ليرضَى عن العبد أن يأكلَ الأكلَةَ فيحمَده عليها، أو يشربَ الشربةَ فيحمدَه عليها»؛[1].

وتَعدادُ النِّعم من الشكر، والتحدُّث بالنِّعم من الشكر، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، ومن أثنَى فقد شكَر، والمقصود بذلك الثناء على الله لا الثناء على النفس الذي يورث الكبر والأشَر والبطر واحتقار الآخرين، بل التمدح بنعم الله مع التواضُع لعباده والإنفاق مما أعطاك الله ابتغاءَ وجهه، والمُعافَى يتحدَّثُ بعافيةِ الله له، ويُعمِلُ جوارِحَه في طاعته.

وتذكُّر المحرومين من النِّعَم يزيدُ من قدرها، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أوَى إلى فراشه يحمدُ ربَّه على النِّعَم، ويتذكَّرُ من حُرِمَها؛ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبي ﷺ إذا أوَى إلى فراشِه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافِيَ له ولا مُؤوِي»[2]. والنظرُ إلى من هو دونَه في الدنيا يفتَحُ بابَ القناعة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «انظُروا إلى من هو أسفلَ منكم، ولا تنظُروا إلى من هو فوقَكم؛ فهو أجدرُ ألا تزدَروا نعمةَ الله عليكم»[3]. واستعمال النعمة في الطاعة تحفظُ تلك النعمةَ وتزيدُها.

ومن أسباب دوامِ النعم: دعاء الله أن يبقيها والاستعاذة من زوالها، ولقد كان من دُعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذُ بك من زوال نعمَتك، وتحوُّل عافيتك، وفُجاءة نقمتِك، وجميع سخَطك»[4]. ويكونُ شكرُ النعمة بالصلاة؛ كما سبق أن النبي ﷺ كان يُصلِّي من الليل حتى تتفطَّر قدماه، ويقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟». ويكونُ بالصيام؛ فقد صامَ مُوسَى يوم

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٣).

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٩).

عاشوراء شُكرًا لله؛ إذ نجَّاه وقومَه من فرعون وقومِه، ثم صامَه نبيُّنا محمدٌ ﷺ وأمرَ بصيامِه، وقال لليهود: «نحن أحقُّ بمُوسَى منكم».

كما يكونُ الشكرُ بسَجدة شكرٍ يسجُدها المؤمن إذا جاءَه خيرٌ من ربِّه، أو حدثَت له نعمةٌ من مولاه، وقد سجدَ نبيُّكم محمدٌ ﷺ حين أخبرَه جبريل أن الله يقول: «من صلَّى عليك صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه بها عشرًا». وسجدَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغَه مقتلُ مُسيلِمة الكذَّاب. وسجدَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغَه مقتلُ الخارجيِّ ابن الثُّدَيَّة. وسجدَ كعبُ بن مالك لما تابَ الله عليه. يقول عبد الرحمن السُّلميُّ: (الصلاةُ شكرٌ، والصيامُ شكرٌ، وكلُّ خير يعمله لله عَزَّ وَجَلَّ الشكرُ، وأفضلُ الشكر الحمدُ).

والقناعةُ شكرٌ؛ فكن قانِعًا تكُن أشكرَ الناس، والمعروفُ رِقٌّ، والمُكافأةُ عِتقٌ. ومن قصُرت يدُه عن المُكافأة فليُكثِر من الشكر والثناء، ومن لا يشكُر القليل لا يشكُر الكثير.

ومن الشكرِ: ألا يزالَ لسانُك رطبًا من ذكر الله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

أيها الناس: وإن من فضل الله ورحمته ولُطفه: أنه - جلَّ في عُلاه - يشكرُ لعباده، فهو الغفورُ الشكور؛ فالذي سقَى الكلبَ شكرَ الله له فغفرَ له؛ فكيف بمن يُحسِنُ للمسلمين، ويتفقَّدُ المُحتاجين، ويتصدَّقُ على المُعوِزين، ويرحَمُ المُستضعَفين. والذي أخَّر غُصن الشوك عن الطريق شكَر الله له فغفَرَ له؛ فكيف بمن يسعى في تيسير أمور الناس وتفريج همومهم وتنفيس كروبهم؟!

ومن لُطفه - عزَّ شأنه - أن جعلَ شُكرَ الناس من شُكر الله: «لا يشكرُ الله من لا يشكُر الناس».

ولقد جُبِلَت القلوب على حبِّ من أحسنَ إليها، ولا أحدَ أعظمُ إحسانًا من الله؛ فالمخلوقُ يتقلَّبُ في جميع أحواله في نعَمِ الله، ومن استعانَ بها على معصية الله فقد جحدَها، ومع كثرة النِّعَم وتوارُدِها على العبادِ قلَّ من يشكُرُها؛ قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]. وإن التوفيق لشكر النعمة، هو نعمة مستقلة بذاتها، كما قال محمود الورّاق رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

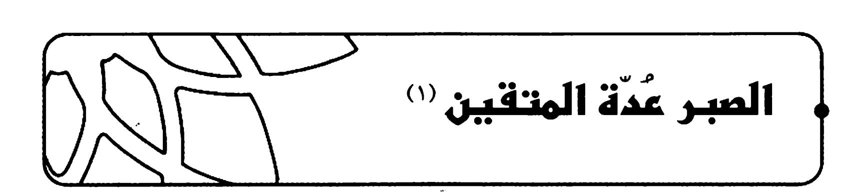
إذا كـــان شـــكري نعمـــة اللهّ نعمـــة عـــليّ لـــه في مثلهـــا يجـــب الشّـــكرُ
فكيـــف وقـــوع الشّـــكر إلّا بفضـــله وإن طالـــت الأيّـــام واتّصـــل العمـــرُ
إذا مـــسّ بالسّـــرّاء عـــمّ سرورهـــا وإن مـــسّ بالضّـــرّاء أعقبهـــا الأجـــرُ
ومـــا مـــنهما إلّا لـــه فيـــه منّـــةٌ تضـــيق بهـــا الأوهـــام والـــبرّ والبحـــرُ

فأحسِنوا جوارَ نعم الله؛ فإنها قلَّ ما نفَرَت عن أهل بيتٍ فكـادَت أن ترجِـع إلـيهم، وإن المفلِحُ من تذكَّر نعَمَ الله عليه في القليل والكثير وشكرَها، فالشكر قيـد وصـيد، قيـد النعمـة الموجودة وصيد النعمة المفقودة،

ثم اعلموا أن الله أمركم بالصلاةِ والسلامِ على نبيِّـه، فقـال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم على نبيِّنا محمدٍ، وارضَ اللهم عن خلفائه الراشدين الذين قضَوا بالحق وبه كانوا يعدِلون: أبي بكرٍ، وعمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن سائر الصحابةِ أجمعين، وعنَّا معهم بجُودك وكرمِك يا أكرم الأكرمين. اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك..





الصبر عُدّة المتقين [1]

الخطبة الأولى:

الحَمدُ لله وَعَدَ الصَّابِرينَ بِالأَجرِ من غَيرِ حِسابٍ، وَأَثابَ الشَّاكِرِينَ على نِعَمِهِ فَنِعمَ الثَّوَابُ، نَشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لهُ الحُكمُ وإليهِ المَآبُ، ونَشهدُ أنَّ مُحمدًا عبدُ الله وَرَسُولُهُ خيرُ مَن صَبَرَ وصَابَرَ بِلا تَشَكٍّ ولا ارتياب، اللَّهمَّ صَلِّ وَسَلِّم وبارِك على مُحمَّدٍ وعلى آلِهِ والأصحاب، الَّذِينَ صَبَرُواْ وَصَابَرُواْ وَرَابَطُواْ رجاء يوم الحساب، وَاتَّقُواْ رَبَّهم فانفتَحَ لَهم من الخَيرِ كُلُّ باب.

أَمَّا بَعدُ:

فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُوهُ؛ فَإنَّ طَاعَتَهُ أَقوَمُ وأَقْوى، وَتَزَوَّدُوا لآخِرَتِكُم واستَعِينوا على دُنياكُم بالصَّبر والتَّقوَى، فقد قالَ اللهُ في كِتَابِهِ الكَرِيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

أَيُّها المُسلِمُونَ: إنَّ العبدَ في حَيَاتِهِ مُحتَاجٌ إلى التَّحَلِّي بِالصَّبرِ في جَوَانِبِ حَيَاتِهِ كُلِّها، فإنَّهُ لا استِقَامَةَ وَلا إمَامَةَ، وَلا فوزَ وَلا فَلاحَ إلاَّ بِالتَّحَلِّي بِالصَّبرِ الجَمِيلِ، إِذْ هُوَ وَقُودٌ وَزَادٌ، وَقُوَّةٌ وَعَتَادٌ، يَحتَاجُهُ المَرِيضُ في شَكوَاهُ، والمُبتَلى في بَلوَاهُ، وطَالِبُ العِلمِ مَعَ كُتُبِهِ وَدُرُوسِهِ، وَالدَّاعِيَةُ لا يَشُدُّ عَزمَهُ مِثلُ الصَّبرِ، والآمِرُ بالمَعرُوفِ والنَّاهي عن المُنكَرِ أعظَمُ وصِيَّةٍ لَهُ من الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧] وَلَن تَجِدَ أَبًا في بَيتِهِ، وَلا مُعَلِّمًا في مَدرَسَتِهِ ولا موظفًا في مُؤَسَّسَتِهِ، وَلا خَادِمًا ولا عَامِلًا، إلاَّ وَهُم بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إلى الصَّبرِ الجَمِيلِ.

إنِّي رَأَيْتُ وفي الأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... للصَّبرِ عاقِبَةٌ مَحْمُودَةَ الأَثَرِ

وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أَمْرٍ يُطالِبُهُ ... فاستَصْحَبَ الصَّبْرَ إلاَّ فَازَ بالظَّفَرِ

---

(١) خالد بن محمد القرعاوي.

فَلَولا الصَّبرُ لَغرِقَ المهمُومُ في بُحُورِ هُمُومِهِ، وَلَغشَتِ المَحزُونَ سَحَائِبُ غُمُومِهِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى ما أَعطَى المُؤمِنَ عَطَاءً خيرًا وَلا أَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ، قَالَ رَسُولُ الله: «وَمَا أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ»[1].

قَالَ الشَّيخُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِنَّمَا كَانَ الصَّبرُ أَعظَمَ العَطَايَا؛ لأَنَّـهُ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ أُمُورِ العَبدِ وَكَمَالاتِهِ، كُلُّ حَالَةٍ مِن أَحوَالِهِ تَحتَاجُ إِلى صَبرٍ، فَإِنَّ المُؤمِنَ يَحتَاجُ إِلى الصَّبرِ عَلَى طَاعَةِ الله حَتى يَقُومَ بها وَيُؤَدِّيَهَا، وَإِلى صَبرٍ عَن مَعصِيَةِ الله حَتى يَترُكَهَا لله، وَإِلى صَبرٍ عَلَى أَقدَارِ الله المُؤلِمَةِ فَلا يَتَسَخَّطُهَا، بَل إِلى صَبرٍ عَلَى نِعَمِ الله وَمَحبُوبَاتِ النَّفسِ، فَلا يَدَعُ النَّفسَ تَمرَحُ وَتَفرَحُ الفَرَحَ المَذمُومَ، بَل يَشتَغِلُ بِشُكرِ الله، فَهُوَ في كُلِّ أَحوَالِهِ يَحتَاجُ إِلى الصَّبرِ وَبِالصَّبرِ يَنَالُ الفَلاحَ) اهـ.

عبادَ الله: وَلأَهَمِّيَّةِ الصَّبرِ وَعُلُوِّ مَنزِلَتِهِ فَقَد ذَكَرَهُ اللهُ في كِتَابِهِ في تِسعِينَ مَوضِعًا، فَأَمَرَ بِهِ فَقَالَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وَقَالَ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]، وَجَعَلَ الإِمَامَةَ في الدِّينِ مَورُوثَةً عَنِ الصَّبرِ وَاليَقِينِ بِقَولِهِ: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]، وَحَتَّى في الخُصُومَاتِ وَأَخذِ الحَقِّ الذي لكَ، نُدِبتَ إِلى الصَّبرِ وَجُعِلَ هو الخَيرَ قَالَ تَعَالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [النحل:١٢٦].

إِذَا مَا أَتَاكَ الدَّهرُ يَومًا بِنَكبَةٍ ... فَأَفرِغْ لَهَا صَبرًا وَأَوسِعْ لَهَا صَدرًا

فَإِنَّ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ عَجِيبَةٌ ... فَيَومًا تَرَى يُسرًا وَيَومًا تَرَى عُسرًا

يا من يحاول أمرًا صعب عليه بلوغه، وتعسّر عليه حصوله، صبرًا قليلًا، لا تيأس ولا تقنط، واستعن بالله ولا تعجز، فإنه ما نال من نال إلا بالصبر والمثابرة، ورُب فشلٍ استحوذ على النفس وقد أوشكت أن تبلغ المقصود، اصنع من المحن منحًا بإذن الله، واعلم بأن الصعوبات والعقبات تقوّيك وتصقلك.

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

إني رأيتُ وفي الأيامِ تجربةً للصبرِ عاقبةً محْمُودَةَ الأثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحاوِلُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فَازَ بِالظَّفَرِ

أيُّها المُؤمِنُ: وَإِنَّ أعظَمَ الخَيرِ في الصَّبرِ أَنَّ أَجرَهُ لا يُقَدَّرُ ولا يُحَدُّ، فـ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] وَإِذَا وَجَدَ المُؤمِنُونَ مَشَقَّةً وَعَنَتًا، أَتَت مَحَبَّةُ الله لِلصَّابِرِينَ، وَمَعِيَّتُهُ لَهُم لِتُخَفِّفَ عَنهُم وَطأَةَ ما يلاقون، وَتُهَوِّنَ عَلَيهِم صُعُوبَة ما يعانون، قَالَ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦] وَحِينَ يَفرحُ أُناسٌ بِمَا نَالُوهُ مِن مَتَاعٍ دُنيَوِيٍّ زَائِلٍ، أَوِ تَحَقَّقَ لَهُم مَا تَمَنَّوهُ، يَأتِي فَلاحُ الصَّابِرِينَ، بِأَنَّ العَاقِبَةَ الحَسَنَةَ، والفَوزَ بِالجَنَّةِ سَيَكُونُ لَهُم في الآخِرَةِ؛ لِئَلاَّ يَيأَسُوا مِن رَوحِ الله، فقد قَالَ اللهُ عنهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ لعَطَاءِ بنِ أَبي رَبَاحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أَلا أُرِيكَ امرَأَةً مِن أَهلِ الجَنَّةِ؟ فَقُلتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرأَةُ السَّودَاءُ، أَتَتِ النَّبيَّ فَقَالَت: إِنِّي أُصرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادعُ اللهَ لي، قَالَ: «إِنْ شِئتِ صَبَرتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئتِ دَعَوتُ اللهَ أَن يُعَافِيَكِ»، فَقَالَت: أَصبِرُ، فَادعُ اللهَ لي أَن لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا[1]!

وَأَمَّا حِينَ يَكبُرُ مَكرُ الأَعداءِ وَيَعظُمُ كَيدُهُم وَيَشتَدُّ أَذاهُم، فَإِنَّ الصَّبرَ وَالتَّقوى هُمَا خَيرُ عِلاجٍ وَأَنجَعُ وَسِيلَةٍ لإِبطَالِ كَيدِهِم وَإِخمَادِ عَدَاوَتِهِم، قَالَ تَعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠]، فلا تَظُنُّوا يا مؤمِنُونَ أَنَّ من ابتُلي بفقر أو هم أو غمّ أو مرض أو ظلم؛ أَنَّ اللهَ سَيَخذُلُه، كلاَّ وربِّي، قال الله عن يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولما كان الإيمان نصفين نصف صبر ونصف شكر كان حقيقا على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين).

(١) رواه البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٥٧٦).

وكَمَا امتدَحَ اللهُ الصَّبرَ في كِتَابِه، فَقَد زَخرَت سُنَّةُ النَّبِيِّ وسِيرَتُهُ قولًا وعَمَلًا، وكَفَاكَ أيُّها المُسلِمُ أَنْ تَسمَعَ طَرَفًا منها لِتَشتَاقَ نَفْسُكَ أَنْ تَكُونَ مِن العِليَةِ الأَخيَارِ، الحَائِزِينَ عَلَى الصَّبرِ والمَدحِ والنَّوالِ، قالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابتَلَيتُ عَبدِي بِحَبِيبَتَيهِ فَصَبَرَ عَوَّضتُهُ مِنهُمَا الجَنَّةَ»[(١)]، وقَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَا لِعَبدِي المُؤمِنِ عِندِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضتُ صَفِيَّهُ مِن أَهلِ الدُّنيَا ثُمَّ احتَسَبَهُ إِلاَّ الجَنَّةُ»[(٢)] وَفي المُسنَدِ وغيرِهِ أَنَّهُ قَالَ: «واعلَمْ أَنَّ فِي الصَّبرِ عَلَى مَا تَكرَهُ خيرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا»[(٣)] وَقَالَ: «المُؤمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصبِرُ عَلَى أَذَاهُم أَعظَمُ أَجرًا مِنَ المُؤمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصبِرُ عَلَى أَذَاهُم»[(٤)]. وقَالَ: «الصَّبرُ ضِيَاءٌ»[(٥)]

هكذا أَيُّهَا المُسلِمُونَ، يَظَلُّ الصَّبرُ سِرَاجًا لَنا في دُرُوبِ الحَيَاةِ، وَنُورًا في ظُلُمَاتِ الفِتَنِ، وَرَفِيقًا في غُربَةِ الزَّمَنِ، حَتَّى إِذَا وَصَلَت الفِتَنُ أوجَها في مِثلِ عَصرِنا، من شُبُهَاتٍ وَشَهَوَاتٍ، وتَسَلُّطٍ من الأَعدَاءِ وَضَعفٍ من الصَّالِحِينَ والفُقَهَاءِ! فلا عِلاجَ أَنْجَعُ مِن صَبرٍ جَمِيلٍ مَعَ إِحسَانٍ في العَمَلِ، قَالَ: «إِنَّ مِن وَرَائِكُم أَيَّامَ الصَّبرِ، لِلمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَومَئِذٍ بِما أَنتُم عَلَيهِ أَجرُ خَمسِينَ مِنكُم» قَالُوا: يَا نَبِيَّ الله، أَو مِنهُم؟ قَالَ: «بَلْ مِنكُم»[(٦)].

أَلا فَاتَّقُوا اللهَ يا مُسلِمُونَ، واصبِرُوا، ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، وَمَن لم يَكُن مَجبُولًا عَلَى الصَّبرِ ومُعتَادًا لَهُ، فَلْيَتَصبَّرْ وَليُجَاهِدْ نَفسَهُ عَلَيهِ يُفلِح، قَالَ: «إِنَّمَا العِلمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الحِلمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَن يَتَحَرَّ الخَيرَ يُعطَهُ، وَمَن يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»[(٧)].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (٦٤٢٤).

(٣) مسند أحمد (٤/ ٢٨٧) وصححه أحمد شاكر.

(٤) صحيح ابن ماجه (٣٢٧٣).

(٥) رواه مسلم (٢٢٣).

(٦) صَحَّحَهُ الألبَانيُّ في السلسلة الصحيحة (٤٩٤).

(٧) حسّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨).

وَقَالَ: «وَمَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»[1].

فهذه الدار دار ابتلاء وصبر وأجر..

جُبِلَتْ على كَدَرٍ وأنت تُريدُها صَفْوًا مِنَ الأَقْذَارِ والأَكْدَارِ؟
ومُكلِّفُ الأيام فوق طباعِها مُتطلِّبٌ في الماء جذوةَ نارِ

يقول الحافظ أبو نعيم: (لما توفي ذر بن عمر الهمداني، جاء أبوه، فوجده قد مات، فوجد أهل بيته يبكون، فقال: ما بكم؟ قالوا: مات ذر، فقال: الحمد لله، والله ما ظلمنا ولا قهرنا ولا ذهب لنا بحق، ثم غسَّله وكفَّنه، وذهب فصلى مع المصلين، ثم ذهب به إلى المقبرة، ولما وضعه في القبر قال: رحمك الله يا بني، قد كنت بي بارًا، وكنت لك راحمًا، والله يا ذر ما ذهبت لنا بعز، وما أبقيت علينا من ذل، ولقد شغلني -والله- الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر -والله- لولا هول يوم المحشر لتمنيتُ أني صِرْتُ إلى ما صرتَ إليه، يا ليت شعري ماذا قيل لك وبماذا أَجبتَ؟ ثم رفع يديه باكيًا فقال: اللهم إنك قد وعدتني الثواب إن صبرتُ، اللهم ما وهبته لي من أجر فاجعله لذر صلةً مني، وتجاوز عنه، فأنت أرحم به مني، اللهم إني قد وهبت لذر إساءته فهب له إساءته، فأنت أجود مني وأكرم، ثم انصرف ودموعه تقطر على لحيته، وهو يقول: يا ذر قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك، وربنا قد استودعناك، والله يرحمنا وإياك..). قال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز عندما مات ولد سليمان: (أيصبر المؤمن حتّى لا يجد لمصيبته ألمًا؟ قال يا أمير المؤمنين: لا يستوي عندك ما تحبّ وما تكره، ولكنّ الصّبر معول المؤمن).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

بارك الله لي ولَكم في القرآنِ العظيمِ، ونفَعني وإيّاكم بِهدِي سَيِّدِ المُرسَلينَ، وأَستَغفرُ اللهَ لِي وَلَكُم، فَاستَغفِرُوهُ، إنَّه هُو الغَفُورُ الرَّحيمُ.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٠).

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ، نَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبينُ، ونَشهَدُ أنَّ نَبيَّنا مُحمدًا عبدُ الله ورَسُولُهُ الصَّادِقُ الأَمِينُ، اللهمَّ صَلِّ وسَلِّم وَبَارِك عليهِ وعلى آلِهِ وأصحَابِهِ والتَّابعينَ لَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ؛ أَمَّا بَعدُ:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أحلى من العسلِ

أَيُّهَا المُسلِمُونَ: لقد ذَكَرَ العُلَماءُ أنَّ الصَّبرَ هو: حَبْسُ النَّفسِ على الطَّاعَةِ، وَكَفُّها عن المَعصِيَةِ، والدَّوامُ على ذَلِكَ. وقَسَّموا الصَّبرَ، إلى أَقسَامٍ ثَلاثَةٍ: صَبْرٌ على طَاعَةِ الله، وَصَبْرٌ عن مَعصِيَةِ الله، وثالِثُها الصَّبرُ على أَقدَارِ الله المُؤلِمَةِ.

فالنَّوعُ الأَوَّلُ: أَعظَمُها؛ لأنَّ العِبادَاتِ شَاقَّةٌ على النُّفُوسِ؛ وتَحتاجُ إلى مُصابَرَةٍ ومُجاهَدَةٍ، فالصلاةُ والصِّيامُ، والحَجُّ والزَّكَاةُ، والأمرُ والنَّهيُ، كُلُّها تحتاجُ إلى الصَّبرِ، قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]، وقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

والقِسمُ الثَّانِي: الصَّبرُ عن الوُقُوعِ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ تَعالى، وَذَلِكَ بِكَفِّ النَّفسِ وكبح جماحها عن فعل ما تشتهي من الحرام، واقتراف ما تهواه من المعاصي والآثام، وآفَةُ المُنكراتِ في هذا الزَّمنِ، أنْ سَهُلَ الوُصُولُ الحرامِ فكانَ أقربَ إلى أحدِنا من يَدِهِ لِعينيهِ، فالقَنواتُ والشَّبكاتُ والأجهِزَةُ الذَّكِيَّةُ، إنْ لَمْ نَصبِرِ عن الحرامِ الذي فيها، أوردتنا المهالكَ والمَضارَّ! ذلِكَ أنَّ النَّفسَ مَيَّالَةٌ إلى الآثامِ، تَوَّاقَةٌ إلى الشَّهوَاتِ، فإنْ لم نُلجِمهَا بِتَقوى الله والصَّبرِ عن مَعَاصِيهِ، أدركتنا الأخطار، وأهلكتنا الأوزار، ولقد قال الله لعباده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤]، فحين حرّم الصيد على الحاج المُحْرِم، اختبره بأن يأتي الصيد إلى متناول يده، ليعلم الله من يخافه بالغيب، وإن قُرب الشهوات وسهولة الوصول إلى المعاصي هذه الأيام إنما هي ابتلاء واختبار ليعلم الله من يخافه بالغيب. وإن أعظم علاج بعد الاستعانة بالله تعالى هو قَولُ الله في مُحكَمِ التَّنزِيلِ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ

تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨] فإن رُفقة الأخيار أفضل مُعين على الثبات في زمن الشهوات والشبهات.

وأمَّا القِسمُ الثَّالِثُ: فَهُو صَبرٌ على أَقدَارِ الله المُؤلِمَةِ وعلى مَصَائِبِ الحَيَاةِ المُتنَوِّعَةِ، فمَن مِن البشَرِ من سَلِمَ من ذالِكَ؟ مَن منَّا من لَم يُصبْ بِمَرَضٍ؟ مَنْ مِن البشَرِ من لم يفقدْ مالًا؟ أو قريبًا أو عزيزًا؟

ولهذا قالَ اللهُ سُبحَانَهُ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥] فهذهِ سُنَّةُ الله في عِبادِهِ، وهي ابتِلاؤُهُم بِشَيءٍ من الخَوفِ، ولَم يَقُل: بِالخَوف كُلِّهِ؛ لأَنَّهُ لو قَالَ: بالخَوفِ، لأَهلَكَهُم؛ وإِنَّمَا يَبتَلِيهم بشيء منه؛ لأنَّ مَقصُودَهُ تَمْحِيصُهُم وتَطهِيرُهُم من ذُنُوبِهِم ومَعَاصِيهِمْ. فَتَلَفُ الأَموَالِ، ومَوتُ الأَحبَابِ، وأَلمُ المَرضِ، نَقصٌ يحتاجُ إلى صَبرٍ ومُصَابَرَةٍ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ! ونَحنُ عندَ المَصَائِبِ قِسمَانِ: قِسمٌ جَازِعٌ سَاخِطٌ مُهلِكٌ نفسَهُ بالأَسى والحَسرَةِ، بل منهم من يصل إلى التسخط على الله، ولطم الخدود، وشقّ الثياب، ونتف الشعور، فهذا قد جَمَعَ على نَفسِهِ مُصِيبَتَينِ، فَواتَ المَحبُوبِ، وَفَواتَ الأَجرِ العَظِيمِ الذي رَتَّبَهُ اللهُ لِلصَّابِرِينَ، لا هو الذي سلم من المصيبة، ولا هو الذي نال ثوابها حين قد وقعت عليه.

وقِسمٌ راضٍ بقَضَاءِ الله وقَدَرِهِ، فَهؤلاءِ بَشَّرهم بِبِشَارَةِ الله لهم وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، فَلَهُم أَجْرٌ غَيرُ مَعدُودٍ ولا مُقَدَّرٍ؛ جَزاءً لَهم على عَظِيمَ ما صَبَرُوا وعلى رَبِّهم يَتوكَّلونَ؛ لأنَّهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، فَنَحنُ مَمْلُوكُونَ للهِ، مُدَبَّرُونَ تحت عَونِهِ وتَصَرُّفَاتِهِ؛ فكَانَ جَزاؤهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٧] فهم الْمُوَفَّقُون لِلْحَقِّ والرَّحمَةِ! ولهذا عَجِبَ رَسُولُ الله من حالِ المُؤمِنِ فَقَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ»(١). ولا يعنِي ذلِكَ أَنْ يكونَ الإنسانُ فاقِدُ الرَّحمَةِ والأَحاسيسِ، كلا فَتِلكَ رَحمَةٌ في قُلُوبِ العِبادِ، ولكن بدونِ تَسَخُّطٍ ولا عويلٍ ولا

---

(١) رواه مسلم (١١٠).

اعتراضٍ على قَدَرِ الله تعالى، فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ النَّبِيَّ لَـمَّا دَخَـلَ عَـلَى ابنِـهِ إِبـرَاهِيمَ وَهُـوَ فِي سَكَرَاتِ المَوتِ، جَعَلَت عَينَاهُ تَذرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبدُ الرَّحمَنِ بن عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وَأَنتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! فَقَالَ النَّبِيُّ: «إِنَّ العَينَ تَدمَعُ وَالقَلبَ يَحزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبرَاهِيمُ لَمَحزُونُونَ» فَقَالَ لَهُ سَعدٌ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: يَا رَسُولَ الله، مَا هَذَا؟! فَقَالَ: «هَذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرحَمُ اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»(١).

أحد السلف كان أقرع الرأس، أبرص البدن، أعمى العينين، مشلول القـدمين واليـدين، وكان يقول: (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرًا ممن خلق وفضلني تفضيلًا) فَمَرّ بِهِ رجل فقال له: مِمَّ عافاك؟ أعمى وأبرص وأقرع ومشلول. فَمِمَّ عافاك؟ فقال: (ويحـك يـا رجـل! جَعَلَ لي لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وبَدَنًا على البلاء صابرًا !).

فأين الصابرون عند المحن؟ أين الصابرون على أذى الناس؟ أين الصـابرون عـلى القيـام بالطاعات، واجتناب المعاصي والمنكرات؟ أين الصابرون في زمـن الفـتن والشـهوات؟ أيـن الصابرون على البلايا والرزيّات؟ روي ابن حجر في الإصابة أن عمران بـن حصـين رَضِيَ اللهُ عَنهُ أصـابه مـرض أقعـده ثلاثـين سـنة، ومـا اشـتكى حتـى إلى أهلـه، فكانـت الملائكـة تصافحه وقت السَّحر.

وهذا هو الصّبر الجميل، كما في قوله تعالى عـلى لسـان يعقـوب عَلَيهِ السَّلَامُ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨]، قال القرطبي: (المـراد بـه الصّـبر الّـذي لا جـزع فيـه ولا شـكوى)(٢)، وقـال ابن جريج عن مجاهد إنّ المعنى: (لا أشكو ذلك لأحد)(٣). وقال أبو حيّان: (المعنـى: أتجمّـل لكم في صبري فلا أعاشركم على كآبـة الوجـه، وعبـوس الجبـين، بـل عـلى مـا كنـت عليـه معكم من قبل)(٤).

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).
(٢) تفسير القرطبي (٩/ ١٥٢).
(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٢٤٧).
(٤) تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٩٠).

قال ابن تيمية: (ذكر اللهّ تعالى في كتابه: الصّبر الجميل، والصّفح الجميل، والهجر الجميل. الصّبر الجميل: هو الّذي لا شكوى فيه ولا معه، والصّفح الجميل: هو الّذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: هو الّذي لا أذى معه).

فتسلّحوا عباد الله بالصبر، فإنه ضياء في الظلمة، ومُتّكأ عند المحنة، وتذكروا بأنكم في دار ممر وابتلاء، وليست دار مقر وبقاء، ومن أتته مصيبة فليذكر أن الجنة حُفّت بالمكاره، وليذكر صبر النبي وما لاقاه، وهو الأسوة الحسنة لكل مؤمن صابر، وليتذكر أعظم مصيبة حلّت على هذه الأمة، وهي موت النبي محمد ﷺ.

قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ، فلْيَذكُر مصيبته بي؛ فإنها من أعظم المصائب»(١).

اصبر لِكُلِّ مُصيبةٍ وَتَجَلَّدِ ... واعلم بِأَنَّ المرءَ غيرُ مُخَلَّدِ

أو مَا تَرى أنَّ المَصَائِبَ جَمَّةٌ ... وَتَرى المَنِيَّةَ لِلعِبَادِ بِمَرصَدِ

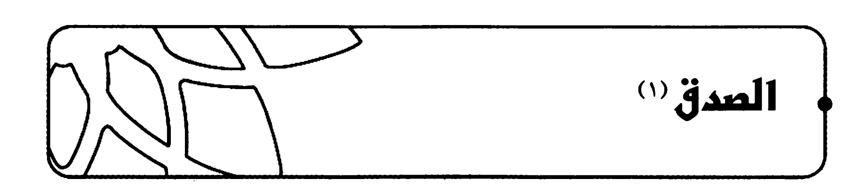
مَن لَم يُصب مِمَّن تَرى بِمُصيبةٍ؟ ... هَذا قَبِيلٌ لَستَ فِيهِ بِأوحَدِ

وإذا أَتتكَ مُصيبَةٌ تَشجَي بِها ... فَاذكُر مُصابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

اللَّهُمَّ اجعَلْنَا مِمَّن إِذَا أُعطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنَبَ استَغفَرَ، آمنَّا باللهِ وتَوكَّلنا عليه.



(١) رواه الدارمي وصححه الألباني.



الصدق [1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، جل من رب وتعالى من إله، هو سبحانه رب كل شيء ومليكه ومولاه، وهو العلي الأعلى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم السر والنجوى، والمؤمَّل لكشف كل بلوى، ورفع كل لأوى، سبحانه وبحمده ليس في الكون رب سواه فيدعى، وليس في الوجود إله غيره فيرجى، وليس في الملأ حكم غيره فترفع إليه الشكوى، وأشهد أن نبينا وقدوتنا محمدًا عبد الله ورسوله النبي المصطفى، والرسول المجتبى، والحبيب المرتضى، بلغ رسالة ربه فما ضل وما غوى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣-٤].

صلى الله عليه وعلى آله أنوار الهدى، وصحبه مصابيح الدجى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله: خير الوصايا وصية رب البرايا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٣١] فاتقوا الله رحمكم الله، فبالتقوى العصمة من الفتن، والسلامة من المحن.

في سير أعلام النبلاء[2] أن سليمان بن يسار دخل على الخليفة هشام بن عبد الملك، فقال الخليفة: (يا سليمان، من الذي تولى كبر الإفك؟ قال: عبد الله بن أبي بن سلول. فقال: كذبت، هو علي، فسكت سليمان. ثم دخل بعد ابن شهاب، فسأله هشام، فقال: هو عبد الله بن أبي، قال: كذبت، هو علي. فانتفض الزهري وتغير لونه وقال: أنا أكذب لا أبا لك؟!

(١) منصور بن محمد الصقعوب.

(٢) (٥/٣٣٩).

والله الذي لا إله غيره لو نادى مناد من السماء: إن الله أحل الكذب ما كذبت، فما زال الأمير يجلّه بعد ذلك الكلام).

الصدق -أيها الفضلاء- خلق الكرام، وخلة أكد عليها الإسلام، هي صفة من اتصف بها نجا ومن اتصف بخلافها هوى، بالصدق تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال ومحك الأحوال، الصدق -كما قال ابن تيمية-: (أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها، الصادق ما يزال به صدقه حتى يوصله إلى الجنة، والكاذب ما يبرح به كذبه حتى يهديه إلى النار).

معشر الكرام، من خالط الناس رأى فيهم الصادق والكاذب، رأى فيهم الكاذب في أقواله فلا يحدث إلا بالكذب، إذا حدّث افترى وكذب في حديثه، وإذا واعد وعاهد لم يتم وعده، وتراه في أفعاله كاذبًا كما هو في أقواله، وذاك لا تراه إلا مبغوضا من العباد ومن رب العباد.

ولكن الكرام النبلاء والصالحين الفضلاء لا يعرف الكذب لألسنتهم ولا لأفعالهم طريقًا، بل الصدق هديهم وإن كان فيه حتفهم، لعلمهم أن النجاة هي أن ينجو المرء عند رب البريات، فهم يفكرون لنجاة أنفسهم في الآخرة لا في الدنيا، لأنهم يسمعون من مقول رسولهم ﷺ التأكيد على الصدق، فصادق الإيمان لا يكذب وهو يسمع قول المصطفى ﷺ: «إنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وإنّ الرّجل ليصدق حتّى يكون صدّيقا، وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، وإنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذّابا»(١). أيُّ مؤمن يقدم على الكذب وهو يسمع الحديث: «إنّ الصّدق طمأنينة، والكذب ريبة»(٢)، وهو يسمع: «أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك في الدّنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفّة في طعمة»(٣)؛ ولهذا ضربوا في الصدق مثلًا للخلق، تجليه مواقفهم وتترجمه كلماتهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) صحيح الترغيب (٢٩٣٠).

(٣) رواه أحمد (١٠/ ١٣٨) وصححه أحمد شاكر والألباني في صحيح الترغيب (١٧١٨).

لما تخلف كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورجع النبي ﷺ من غزوه جاء كعب إليه، فسأله ﷺ: «يا كعب، ما الذي خلفك؟» فقال: يا رسول الله، لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَي، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَي فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله، وَالله مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فقال ﷺ: «أما هذا فقد صدق»[1]. وبصدقه أنجاه الله وتاب عليه وبقي من كذبوا لا يؤبه لهم.

وكان من السلف من يقول: ما يسرني أني كذبت كذبة وأن لي الدنيا وما فيها. ومنهم القائل: والله ما كذبت كذبة قط منذ بلغت. وأوصى أحدهم بنيه عند موته قائلًا: يا بنيَّ، عليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلا ثم سئل عنه أقر به، والله ما كذبت كذبه منذ قرأت القرآن[2].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بالصّدق حيث تخاف أنّه يضرّك، فإنّه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنّه ينفعك فإنّه يضرّ بك»[3]، وقال: «لا تنظروا إلى صيام أحد ولا صلاته، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدث وأمانته إذا ائتمن وورعه إذا أشفى»[4].

وإذا الأمور تزاوجت ... فالصدق أكرمها نتاجا
الصدق يعقد فوق رأس ... حليفه بالصدق تاجا
والصدق يقدح زِندُهُ ... في كل ناحية سراجا

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ بك ما نرى؟ قال: (صدق الحديث وأداء الأمانة وتركي ما لا يعنيني).

وأما ربعي بن حراش فإنه لم يكذب منذ علم أن الكذب حرام، ولما طلب الحجاج ولديه ليرسلهما إلى الحرب اختبآ، فقيل للحجاج: (إن ربعيًا لم يكذب فسله عن بنيه، فدعاه وقال له:

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) حلية الأولياء (٦/ ٨٥).

(٣) مدارج السالكين.

(٤) حلية الأولياء (٣/ ٢٧).

ما فعل ابناك يا ربعي؟ فصدقه القول وقال: هما في البيت مختبئين، فقال الحجاج: وهبناكهما لصدقك، وعفا عن ابنيه)[1].

فرحم الله أولئك القوم، صدقت ألسنتهم، وأعدوا لكلماتهم عند ربهم جوابًا، قال ابن دقيق: (ما تكلمت كلمة ولا فعلت فعلًا إلا وأعددت له جوابًا بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ).

معشر المسلمين: ما أجمل أن يكون الصدق رائدَنا في كل أحوالنا، فإذا تكلمت فاصدق في مقالك، واعلم أن في الصدق نجاتَك، وإن بدى لك غير ذلك، واذكر أن الصادقين لهم عند الله الشأن العظيم، وأن الله يسمع حديثك ويعلم صدقك من كذبك.

إذا سُئلت عن أحدٍ فاصدق في قولك، ولا تغش من سألك، فكم من طلاق وقع وامرأة زوجت لغير كفئها لأجل أن من سُئل عنه ما صدق في قوله، أو لأجل أن الزوج ما صدق في حقيقة أمره وألبس نفسه ثوبًا ليس له، فغش من تقدم إليه.

تجنب الكذب ولو لإضحاك الناس، ولا يغب عن بالك قول الرسول ﷺ: «ويل للّذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له»[2].

واصدق في وعودك حين تعد، فالله أثنى على إسماعيل بوفائه بوعده فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم:٥٤]، فما بال البعض يعد ولا يفي بما وعد؟! وذاك خصلة من النفاق «إذا وعد أخلف»[3].

وكن على حذر من الكذب في الأحلام والرؤى، وأن تري عينك ما لم تر، ففي الحديث عند البخاري: «إن من أفرى الفِرَى أن يري المرء عينيه ما لم ترَ»[4].

وإذا خطّت يدك كلامًا في أي وسيلة مقروءة فلا تكذب فيما تكتب، فكم من كاتب في جريدة أو في موقع إلكتروني كذب كذبة فسارت بها الركبان، والنبي ﷺ أخبر أنه رأى رجلًا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦٠).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣١٧٨) ومسلم (٥٩).

(٤) رواه البخاري (٧٠٤٣).

يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، وحين سأل عنه قيل له: هذا الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وحتى في عِداتك لأولادك تحر الصدق معهم، ولأن لا تعد أهون من أن تعد فتخلف، وفي الحديث عن عبد الله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ»، فقَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا: «أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ»[1].

اصدق حديثك إنّ في ... الصدق الخلاص من الدّنس
ودع الكذوب لشأنه ... خير من الكذب الخرس
عود لسانك قول الصدق تحظ به ... إن اللسان لما عودت معتاد

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٩١).



الخطبة الثانية:

عباد الله: وإذا كان ما مضى من الحديث هو في الصدق في الأقوال فإن ثمة أنواعًا من الصدق أخرى يجدر ذكرها، وربما كانت أهم من الصدق في القول وآكد:

الصدق في النية، أن يتعامل العبد مع الله بالصدق، فلا يظهر للناس خلاف ما يبطن، ويصدق مع الله في نيته الخير وطلبه له.

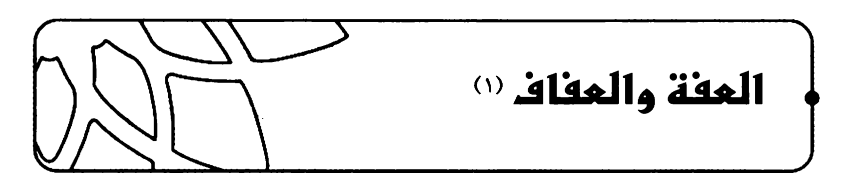
والصدق في الأفعال مطلب من شرائف الأمور، فما الذي ينفع العبد أن يظهر الخشوع أمام الناس أو يظهر غيرته وصلاحه وزهده وهو بخلاف ذلك، فالمؤمن الصادق هو الذي ترى سريرته كعلانيته أو أصفى، ولذا قال السلف: (إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصَف، وإن كانت سريرته أفضلَ من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور).

وما أجمل أن يكون المرء صادقًا مع الله في سائر أحواله، فإذا دعا ربه صدق في سؤاله، وإذا خاف الله أو رجاه أو أحبه أو عظمه صدق في ذلك، فليست الأمور بالكلام، بل بالحقائق، فكلٌّ يقول: إنه يحب الله، لكنك حين تبحث عن الصادق في محبته لربه الذي يترك ما عنه نهى ويفعل أمره ولو صعب لأنه يحب ربه لا تكاد تجده إلا قليلًا، فالصادق مع الله عبدٌ يرضى عن الله في أقداره، يصبر تجاه بلاءه، يعبد ربه في جلوته وخلوته، يحب ربه من قلبه.

وجماع الأمر -أيها الكرام- أننا كلَنا بحاجة إلى الصدق لتستقيم أمورنا.

فالمربي والمعلم بحاجة إلى الصدق في تربيته، فيسعى لتخريج نشء ينفع الله به، ويربطه بمعالي الأمور، ويربي الصغار منذ صغرهم على الصدق. والداعية بحاجة إلى الصدق في دعوته، فلا يبغي بدعوته أمر دنيا، وتكون أفعاله توافق أقوالَه، ولا يقول إلا صدقًا، ولا يتكلم إلا بما فيه صلاح الناس. والمسلم يصدق في كلامه ووعوده، وأفعاله وقلبه وعهوده، فلا تنطق شفتاه بكذب وإن قلّ، وطوبى لمن رأى في صحفيته صدقًا، ويا خيبة من سود صحيفته بالكذب، وإذا كان الله سيسأل الصادقين عن صدقهم فما ذا سيكون حال الكاذبين؟!

اللهم طهر ألسنتنا من الكذب وسيء الأقوال، واهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال..



العفة والعفاف [1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله.

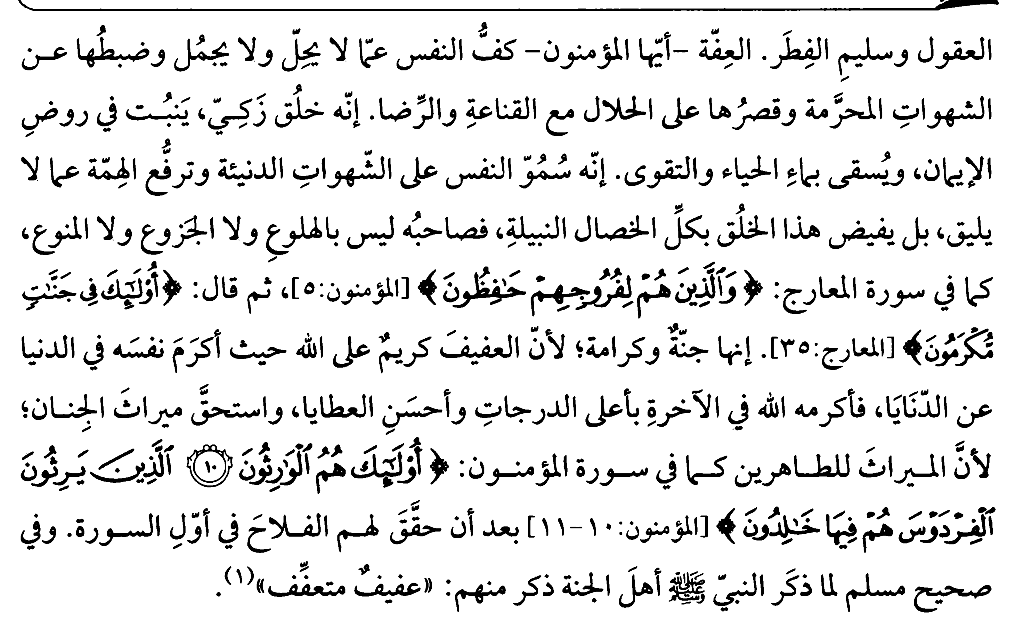
أَمَّا بَعْدُ:

فاتّقوا الله تعالى -أيها المسلمون-، واعلموا أنّكم إليه راجعون، وبأعمالكم مجزيّون، وعليها محاسَبون، وأنّ المصيرَ حقٌّ إلى جنّةٍ أو نار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]، ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ [الذاريات:١٥-١٦].

عباد الله: ما طعِمَ الطّاعِمون كالحَلالِ الكفافِ، وما لبسوا خيرًا من رِداء التقوى والعفاف.

العَفافُ والعِفَّة -أيّها المسلمون- سِيمَا الأنبياءِ وحِليةُ العلماء وتاجُ العُبَّاد والصّلَحاء. العفافُ سلطان من غيرِ تاجٍ، وغِنًى من غير مالٍ وقوّة من غيرِ بَطشٍ وخُلُق كريم وصِفة نبيلة. هو عنوان الأسَرِ الكريمة والنفوسِ الزّكية الشريفةِ ودَليل التربيةِ الصالحة القويّة. هو موجِبٌ لظلِّ عرش الرحمنِ ذِي الجلال كما في حديثِ الذي دَعَته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. والعِفّة والعَفاف سببُ إجابة الدعاءِ وتجاوزِ الأخطارِ كما ورَد في حديثِ الثلاثة الذين انطبَقت عليهم صخرةُ الغار. الحِرصُ عليه جِبلّة في البشر وطبعٌ عند أصحابِ

(١) صالح آل طالب.



العقول وسليمِ الفِطَر. العِفّة -أيّها المؤمنون- كفُّ النفس عمّا لا يحِلّ ولا يجمُل وضبطُها عن الشهواتِ المحرَّمة وقصرُها على الحلال مع القناعةِ والرِّضا. إنّه خلُق زَكِيّ، يَنبُت في روضِ الإيمان، ويُسقى بماءِ الحياء والتقوى. إنّه سُمُوّ النفس على الشّهواتِ الدنيئة وترفُّع الهِمّة عما لا يليق، بل يفيض هذا الخلُق بكلِّ الخصال النبيلةِ، فصاحبُه ليس بالهلوعِ ولا الجَزوع ولا المنوع، كما في سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون:٥]، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥]. إنها جنّةٌ وكرامة؛ لأنّ العفيفَ كريمٌ على الله حيث أكرَمَ نفسَه في الدنيا عن الدّنَايَا، فأكرمه الله في الآخرةِ بأعلى الدرجاتِ وأحسَنِ العطايا، واستحقَّ ميراثَ الجِنان؛ لأنَّ الميراثَ للطاهرين كما في سورة المؤمنون: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١] بعد أن حقَّقَ لهم الفلاحَ في أوّلِ السورة. وفي صحيح مسلم لما ذكَر النبيّ ﷺ أهلَ الجنة ذكر منهم: «عفيفٌ متعفِّفٌ»[(١)].

وحين تُعرَض القصَصُ فإنّ أحسَنَها قصّةُ يوسفَ الكريم ابن يعقوبَ ابن خليلِ الله إبراهيم حين يكون العفافُ سيّدَ الموقِف في ظرفٍ تتهاوَى فيه عزائمُ الرّجال الأشدّاء، فضلًا عن فتًى غريبٍ نائي الأهلِ والديار، حين راودته التي هو في بيتها عن نفسه، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]. مَعَاذَ الله، إنها كلِمةٌ عظيمة في موقفٍ عصيب لا يقوَى عليه إلا صاحبُ الإيمان، فيصبِر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رغمَ الوَعدِ والوعيد والسّجنِ والتهديدِ، ويتجاوَزُ المحنةَ، فآتاه الله الملكَ وعلّمه من تأويلِ الأحاديث، وأعظم من ذلك أنّه من عبادِ الله المخلَصين. وفيه من العِبَر أنّ العِفَّةَ عاقبتُها الغناءُ والاستغناء ونورُ القلب والبصيرةُ والضياء والعِلمُ والفراسة والتّوفيق؛ ذلك أنَّ العِفّةَ في حقيقتها مراقبةُ الله تعالى وخوفُه، ومَن راقب الله في خواطِره عصَمَه في حركاتِ جوارحه وأسبغ عليه رضاه، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة:٨]، ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

أيّها المسلمون: ولاهتِمامِ الإسلام بهذا الجانبِ العظيم ولامتداحِ الله المؤمناتِ بقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء:٣٤] فقد حمى الله تعالى أعراضَ المؤمنات، وصانَ سُمعَتَهن أشدَّ صيانةٍ لكرامتِهن عند الله وحرمةِ جنابِهنّ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٣-٢٦].

بل إنّ مَن قدح في عِرض العفيفة فقد استوجَبَ الحدَّ وسقوطَ العدالة واستحقَّ صِفةَ الفِسق، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤].

ثمّ تأمّلوا -رعاكم الله- كيف وصَف العفيفاتِ بالغافلات، وهو وصفٌ في محلِّه لطيفٌ محمود يصوِّر المجتمَع البريء والبيتَ الطاهر الذي تشِبّ فيه فتياتُه في الأكمامِ بعيداتٍ عن الدنايا والآثام، يصوِّرُهنّ غافلاتٍ عن لوثَاتِ الطِّباع السّافلة غائباتٍ عن المعاني الرّديئة، ثمّ تأمّل كيف تتعاوَن الأقلام السّاقِطة والأفلام الهابِطة لتمزِّقَ حجابَ الغفلةِ هذا، ويتسابقون ويتنافَسون في هَتكِ الأستار وفتحِ عيونِ الصّغار على ما يستحِي منه الكبار، وصدق الله العظيم: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

أيّها المسلمون: إنَّ الحديث عن صيانةِ الأعراض وتزكيةِ النفوس وتطهيرِ الطِّباع وتنمية دواعِي العِفّة والطهارة ليست شعاراتٍ عاطفيّة أو مجرَّدَ كمالاتٍ خُلُقيّة، إنها أصلُ تماسُك المجتمع وبِنية أساسٍ لبقائه ومقصد عظيمٌ من مقاصِدِ الشرع الحنيف، وانظر كيف جعَل الله تعالى العفافَ والأمن في آيةٍ واحدة مع توحيدِ الله سبحانه، وجعل إزهاقَ الأرواح وانتهاكَ الأعراض قرينَ الشرك، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩].

فليس الأمرُ قابلًا للتهاون أو للمسَاومة، والمجتمَع يجِب أن يؤسَّس على الضـمائر اليقِظَـة والفضائلِ الشريفةِ والصيانةِ والحِراسة المشدَّدة مِن الرأيِ العامّ والقوّة الحاكمة جميعًا. كـما أنَّ العجز عن ضَبطِ العَواصف والعواطف في الحدود التي شرَعَها الله والتـذرُّع بهـذا العجـزِ إلى ترك الشّهوةِ البهيميّة تنساح كيف تشاءُ هو سقوطٌ بالفِطرة والخُلُق وتمرُّد على الله وشرعِه.

إنَّ العالَمَ المنفَتِح على الجنسِ المتحلِّل منَ الفضيلةِ يئِنّ اليومَ تحت وطأةِ الأمراضِ الوبائيـة ويجأرُ من التشتُّت الاجتماعـيّ والتفكُّـك الأسريّ والتحلّـل الأخلاقـيّ، كـما تشـكو نسـاؤه وأطفالُه آلافَ الحالات مـن الاغتصـابِ وتجـارةِ الرذيلـة، والتـي نافَسَـت تِجارةَ الأسـلحة والمخدِّرات، ويسمّونها تجـارةَ الرقيـقِ الأبـيض، فـأين الحرّيـة والأمـان؟! وأيـن الطّمأنينـةُ والاستقرار في هذه الفوضَى العارِمة في اختلالِ الأخلاق والقـيَم؟!إنَّ الحريّـةَ الحقيقيّـة التـي بناهَا الإسلام هي عندَما يحِسّ أفرادُ المجتمع بالأمنِ في حياتهم وأعراضِهم، فيتحرَّكون بحرّيّةٍ وأمن، وتنتشِر الثِّقة والطمأنينة وحُسنُ الظنّ، ويتفـرَّغ النـاس لمعاشِـهم ومـا يصـلِح ديـنَهم ودنياهم، وذلك حين يتربَّى المجتمـعُ رجـالًا ونسـاءً وينشـؤونَ أجيـالًا عـلى مظـاهِرِ العِفّـة والحِشمة والورَع ولزومِ أمر الله تعالى، فـلا شـكَّ وريبـةَ ولا خيانـةَ ولا خَـوف، إنـه الأمـنُ والطمأنينةُ والحريّة، ولذلك في صدرِ الإسلامِ الأوّل لم يمنَـع ذلـك صـلاةَ المـرأة في المسـجِد ومشاركتَها الجيشَ في المعركة وطلَبَها للعِلم ومـداواةَ الجَرحـى وطلَـبَ الـرِّزق، ولم يكُـن في أحكامِ الشَّرع ما يمنعُها مصلحةً لها أو لغَيرِها، بل كلُّه حِفظٌ وصيانة كـما قـال تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]. وإذا تحرّكتِ المرأة الطاهرةُ والرجلُ الطاهر في البِيئـة الطـاهرة وفـقَ مـا رسـمَه الله مـن أحكـامٍ بعيـدًا عـن الشّـبُهات والملوِّثـات فـلا سـبيلَ لجرثومةٍ أن تنفذَ.

أيّها المسلمون: ولأجل هذه المقاصدِ السامية جاءت شريعةُ الإسلام بما يكفَل هذه الحرّيّة وهذا الأمنَ الخلقيّ، بل بايع النبيُّ ﷺ نُقَباء الأنصارِ ليلةَ العقبة الأولى على التوحيدِ وتركِ الزنا كما في صحيحِ البخاريّ[1] من حديثِ عبادةَ بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي آخرِ المتحنة أمر

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٣).

الله تعالى رسولَه ﷺ أن يبايعَ المؤمناتِ على التوحيدِ والعفاف، وفي الكتابِ العزيز والسنّةِ المطهَّرة آدابٌ شتَّى للنظرِ والاستئذان والتسترُّ والتكشُّف والزِّينةِ وسفَر المرأة وخَلوَتها وعودةِ الرجل إلى بيتِه وموقف المرأةِ من أقاربها وأقاربِ زوجها وحقِّ الوالدين وحقوقِ الأولاد وآدابِ الاستماع والظنّ والنهي عن الاطِّلاع على عوراتِ البيوت وتتبُّع العَثَرات، وهي آدابٌ مفصَّلة يجب على المسلمينَ أن يلتزِموهَا ويربُّوا أهلَهم عليها؛ ذلك أنَّ من أعظم مقاصِدِ الشريعة إقامةَ المجتمَع الطاهِر المحاطِ بالخُلُق الرفيع والمُبطَّن بالعِفّة والحشمة والوقار. وحيثُ إن أعظمَ أبوابِ الشرّ وأوّلَ مدخلٍ للشيطان هو إطلاقُ البَصَر والاختلاط لذا صارت أحكامُ الحجابِ والقَرار في البيوت والأمر بغَضِّ البصر للرجال والنساء، قال الحقّ سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]، بل حتى في الحديثِ العابِر بين الرّجل والمرأة الأجنبيّة عنه: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

إنّه سدٌّ لمنافِذِ الشيطان كما في قولِ الله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

أيّها المسلمون: وحيث جاءَ الإسلام بكلِّ ما يحفَظ ويصون هذا السياجَ فقد حرَّم كلَّ ما يهتِكه ويفسِده، وقد علِم كلُّ مسلمٍ حرمَةَ ما يعارِضه ويناقضه مِن دعواتِ السّفورِ والاختلاطِ في الأعمال والجامِعات والمجالِسِ والمؤتمرات لـئلاّ يُكسَر حاجِز الحياء وتُنبَذ الحِشمة. ولقد علِم الراشِدون أنَّ التقدّمَ والتخلّفَ له أسبابُه وعوامِله، وإنَّ إقحامَ السترِ والاحتشام والخُلُق والالتزام والعِفّة والفضيلة وجعلَها عواملَ للتخلُّف لهو خِداع مكشوف وتمريرٌ مفضوح لا ينطلي على متبصِّر. إنَّ الحياةَ الطاهِرة تحتاج إلى عزائِم الأخيارِ، وأمّا عيشةُ الرذيلة فطريقُها سهلُ الانحدار، والبيوتُ التي تظِلّها العفّةُ والحِشمة تورِق بالعزِّ والكرامة، أمّا البيوتُ التي يملؤهَا الفحشاء والمنكرُ فلن تنبُتَ إلاّ بالذّلِّ والمهانة، وإذا أمَر الله تعالى

بوقايةِ النفس والأهل من النارِ التي وقودُها الناس والحجارة، وأخبر النبيُّ ﷺ أنَّ كلَّ راعٍ مسؤول عن رعيّته[1]، فإنَّ المسلِمَ يجب أن تكونَ له وقفةٌ لله لتجنيبِ نفسِه ومن يَليه ما جلبته وسائلُ الاتِّصال والبَثّ مِن ذبحٍ للفضيلة ونشرٍ للرذيلة وإماتةٍ للغيرة، وكيف يستسيغُ مسلمٌ هذا الغثاءَ المدمِّر؟! أين الحياء؟! أين المروءةُ؟! أين الحِفظُ والصِّيانة مِن بيوتٍ هيَّأت لناشِئَتها أجواءَ الفتنة وجلَبت لها محرِّضاتِ المنكَر؛ تجرُّها إلى مستنقَعات الفُحش جرًّا وتَدُعُّها إلى الخطيئةِ دَعًّا؟! ومع أنَّ شهوةَ الجِنس كشهوةِ الطّعام قد تمتلِئ المِعدة فتفترُ وقتًا عن طلَبها إلاّ أنَّ الذين يحِبّون أن تشيعَ الفاحشة في الذين آمنوا لم يَفتروا، بل ملَؤوا الفضاءَ بكلِّ أنواع المثيراتِ والمغرِيات، وتفنَّنوا في إثارةِ الشّهَوات وإيقادِ لهيبِ الغرائزِ في سُعارٍ أذهل الشيطان.

وأمام هذه الأمواجِ المتلاطمةِ منَ الفتن الضاربةِ مهدِّدةً سفينةَ المجتمعاتِ المسلمة؛ تعظُم الأمانةُ والمسؤوليّة على المسلمين للحِفاظ على زكاءِ مجتَمَعهم وطهارةِ حياتهم وبما لا زالُوا متميِّزين به على أهلِ الأرض بحمد الله. ولا أحدَ ينكِر ما صارَ للإعلامِ من مكانةٍ خطيرة في توجيهِ الأمَمِ والشّعوب والسياسات وصياغةِ مفاهيمِها وتصوُّراتها وسلوكيّاتها. وإذا طغتِ الشهواتُ واختلطَتِ النيات فسدَتِ الأوضاع واضطَرَبت الأحوال وحقَّ العذاب، وتَضيع الأمّة إن تُرِك الحبلُ على الغارِب، يعيش الناسُ بشَهَواتهم ويعبَثون بأخلاقِهم متجاوِزين حدودَ الله بلا وازعٍ ولا ضابطٍ وبلا رادِعٍ ولا زاجر، وإنها سُنّةٌ من سنَنِ الله، إذا فشَا الظلم والفسادُ ولم ينهَض مَن يدافِعُه فإنَّ سنّةَ الله تعالى تحِقّ ولا تحابِي أحدًا، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود:١١٦].

وفي هذا البابِ ينبغي أن يُشكَرَ ويذكَرَ بالتّقدير والدّعاء كلُّ جهدٍ مبذولٍ من أهلِ الحِسبة ورجال الأمن ومن وراءَهم، وكذا القائِمون على تنقيَةِ المطبوعات والموادّ الإعلاميّة وشبكة المعلوماتِ العالميّة في مدينةِ التِّقانَةِ وغيرها، إنهم حُرّاس الفضيلة وحُماة الدّينِ والمرابطون في وجهِ العاصفة. ومع هذا فإنَّ التحصين من الداخلِ والتربيةَ الذاتية وزرعَ المراقبةِ لله في السِّرِّ

---

(١) رواه البخاري (٧١٣٨).

والعلَن مسؤولية الجميع: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بسنة سيد المرسلين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ولسائر المسلمين والمسلمات من كلّ ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أمّا بعد:

عفُّوا تعفُّ نساؤكم في المحرمِ وتجنبوا ما لا يليق بمسلمِ

إن الزنا دَينٌ فإن أقرضته كان الوفا في أهل بيتك فاعلم

أيّها المسلمون: إنَّ الغريزةَ والشهوة مطبوعةٌ في دمِ الإنسان، والله تعالى هو الذي خلَقَها بأمرِه وعِلمِه وحِكمتِه وابتلائِه لخَلقِه، وجعلها وسيلةَ البقاء البشريّ، وهو سبحانه أعلَمُ بما يُصلِحها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]. إنَّ الإسلامَ لم يتجاهَل هذه الغريزةَ، ولم يقتُلها بالرّهبانيّة، ولا أطغاهَا بالإباحيّة، بل جَعَل لها شاطئًا آمنًا تسبَح إلى بحره وتطهُر في مائِه وتحيَا ببقائِه، إنّه الزواج، أنبلُ صِفةٍ عرَفَتها الإنسانيّة لتكوينِ الأسرةِ وتربيةِ الأولاد ونشرِ الألفةِ والرّحمة وسكينةِ النفس في جوٍّ زكيٍّ طهور، مع ضبطِ المشاعر وترشيدِها نحوَ مكانها الصّحيحِ المنتج بدلًا من ضَياعِها وتيهِها في العَبَث والفساد. والمسلمُ مأمورٌ ببلوغ هذا المدَى حتى يتحصَّنَ بالحلال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٣]، وفي الحديثِ المتّفق عليه أنّ النبيَّ ﷺ قال: «يا معشرَ الشباب: مَن استطاع منكم الباءةَ فليتزوج؛ فإنّه أغض للبصر وأحصَن للفرج، ومَن لم يستطِع فعليه بالصّوم؛ فإنّه له وجاء»[1]؛ وذلك أنَّ الصومَ مع تضييقِه لمجاري الشيطان فإنّه ينمِّي روحَ المراقبة والخشيةِ والتقوى، وهي أصولُ وبواعث العِفّة، ومِن دعاءِ عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]. وحتى بعدَ الزواج فينبغِي تنميةُ جانبِ العفّة والصيانة، ومِنه ما يُشرَع للمرأة مِنَ التحبُّب لزوجِها والتودُّد وحُسن التبعُّل وقصرِ عينه لئلاً يتطلَّع لغيرها. وكذلك الزوجُ، يكفِي زوجتَه، ويشبع عاطفتَها بالكَلِمة الطيّبة

---

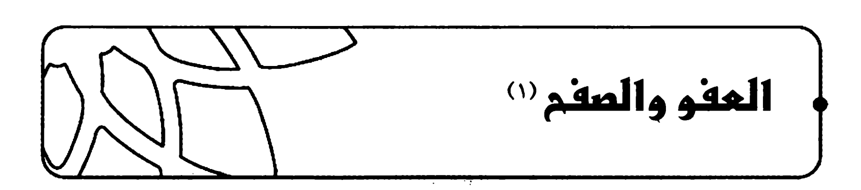
(١) رواه البخاري (٥٠٦٥) ومسلم (١٤٠٠).

والعِشرة الحسنة وجبرِ الخواطر وسدِّ مداخل الشيطان وأداءِ أمانة القِوامة في الأهـل والأولادِ والقيام بأمرِ الله في كل شؤون الحياة. والمؤمنُ أسيرٌ في الدنيا يسعَى في فكـاكِ رقبتـه، لا يـأمن نفسَه حتى يلقَى الله عَزَّوَجَلَّ، يعلَم أنّه مأخوذٌ عليه في سمعِه وبصرِه ولسـانِه وجوارحِـه، ومـن يستعفِف يعفّه الله، وفي الحديث: «احفَـظِ اللهَ يحفَظـك»[1]، أي: في نفسِـك ودينِـك وأهلِـك وذرّيّتك، ومَـن كـرُم عنـد الله فلـن يخزيَـه ولـن يسـوؤَه. أسـأل الله تعـالى لي ولكـم الهـدى والتّقَى والعفافَ والغنى.

ثـمّ اعلَمـوا -رحمكـم الله- أنَّ الله تعـالى أمَـركم بـأمرٍ بَـدَأ فيـه بنفسـه فقـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحـزاب:٥٦]. اللّهمّ صلّ وسلّم وزِد وبارك على عبدك ورسولك محمّد وعلى آله وأزواجِه وذرّيته وصحابتِه ومن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



(١) رواه أحمد (٤/ ٢٣٣) وصححه أحمد شاكر.



العفو والصفح [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أكمل علينا الدين، وأتم علينا النعمة، وجعل أمتنا خير أمة، وبعث فينا رسولًا منا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، أحمده على نعمه الجمَّة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تكون لمن اعتصم بها خير عصمة، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله أرسله ربه للعالمين رحمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً تبقى، وسلامًا يترى إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله؛ فإن تقواه أفضل مكتسب، وطاعته أعلى نسب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

خرج عمر بن عبدالعزيز ذات ليلة إلى المسجد ومعه رجل من الحراس، فلما دخل عمر المسجد مرَّ في الظلام برجل نائم، فأخطأ عمر وداس عليه، فرفع الرجل رأسه إليه، وقال: أمجنون أنت؟ فقال: «لا»، فتضايق الحارس وهَمَّ أن يضرب الرجل النائم فمنعه عمر، وقال: «دعوه، إنما سألني فأجبته!».

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتبُ ... ولا ينال العلى مَن طبعهُ الغضبُ

أيها المسلمون: يتفاوت الناس في مكارم الأخلاق ومقامات الإحسان وجميل السجايا والخصال، وإن العفو عن المسيء في أمر المعاش، وعن المقصر في أدب الصحبة وحقوق المخالطة، والإغضاء عن زلته، والتجافي عن هفوته، والتغافل عن عثرته، واحتمال سقطته من أجَلِّ الصفات وأنبل الخصال؛ يقول جل في علاه: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال جل في علاه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧]، وقال جل في علاه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٣٩-٤٣].

فشَرَعَ العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو؛ قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا). رواه البخاري.

والصفح أقرب للتقوى، والصفح أكرم في العقبى، والتجاوز أحسن في الذكرى؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يغفر الله لكم»(٢).

أيها المسلمون: الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، مرتبةٌ عاليةٌ، وخصلةٌ شريفةٌ، لا يقدر عليها إلا الصابرون المهتدون الموفقون؛ يقول جل في علاه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في صفة رسول الله ﷺ: «ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح»(٣). فصلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) صحيح الجامع (٨٩٧).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٨).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: «ما ضَرَبَ رسول الله ﷺ شيئا قَطُّ بيده ولا امْرَأَةً ولا خَادِمًا إلا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبِيلِ الله، وما نِيلَ منه شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ من صَاحِبِهِ إلا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ من مَحَارِمِ الله فَيَنْتَقِمَ للهِ عَزَّوَجَلَّ»[1].

لا يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا ... حتى يذلوا وإن عزُّوا لأقوام

ويُشْتَمُوا فترى الألوان مُسْفِرَةً ... لا صفح ذُلٍّ ولكن صفح أحلام

أيها المسلمون: لا عافية ولا راحة ولا سعادة إلا بسلامة القلب من وساوس الضغينة، وغواشي الغل، ونيران العداوة، وحسائك الحقد، ومن أمسك في قلبه عداوة، وتربص الفرصة للنقمة، وأضمر الشر لمن أساء إليه، تكدر عيشه، واضطربت نفسه، ووهن جسده، وأُكِلَ عِرْضُه، والعافية إنما هي في التغاضي والتغافل، وقد قيل: (في إغضائك راحة أعضائك)، وقيل: (الأديب العاقل هو الفطن المتغافل)، وقيل للإمام أحمد -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى-: (العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، فقال: العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل).

ويقول الإمام الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ:

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من هم العداوات

يقول جل في علاه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

فتعافوا بينكم، وتجاوزوا عمن أساء إليكم ابتغاءَ لوجه الله تعالى، ورغبةً في ثواب العفو وجزاء الصفح، واخرجوا من ضيق المناقشة إلى فسحة المسامحة، ومن حزورة المعاسرة إلى سهولة المعاشرة، واطووا بساط التقاطع والوحشة، وصلوا حبل الأخوة، وروموا أسباب المودة واقبلوا المعذرة؛ فإن قبول المعذرة من محاسن الشيم، وإذا قدرتم على المسيء فاجعلوا العفو عنه شكرًا لله للقدرة عليه.

فعن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: كم نعفو عن الخادم؟! فصمت رسول الله ﷺ، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال: «اعفُ عنه كل يوم سبعين مرة»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨).

(٢) صحيح أبي داود (٥١٦٤).

وعن مالك بن نضلة الجُشَمي قال: قلت: يا رسول الله: الرجل أمُرُّ به فلا يقريني ولا يضيفني فيمر بي، أفأجزيه؟! قال: «لا، أقره»[1].

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

جعلني الله وإياكم من أهل العفو والإحسان والصفح والغفران، وعفا عنا جميعًا بمنه وكرمه وهو العفو الغفور الكريم المنان.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) صحيح الترمذي (٢٠٠٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه.

وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها المسلمون: كم رأينا بين الأزواج والإخوان والأقارب والجيران من المحن والإحن، والفتن والدخن، والدعاوى والخصومات، والمضادة والمحادة، والغضاضة والنفرة، والشر والفتنة، حتى شاع الطلاق وكثرت القطيعة، وتصرمت أواصر القربى؛ فاتقوا الله -أيها المسلمون-، وراعوا حق القربة والرحم والجوار، وكُفوا عن المنازعة والقطيعة، وعالجوا الأمور بما هو لشمل القرابة أجمع، ولطريق الفرقة أقطع، وكونوا كما قال الأول:

وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لمختلف جدًّا
إذا قدحوا لي نار حرب بزندهم	قدحت لهم في كل مكرمة زندًا
وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم	وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ	وليس رئيس القوم من يحمل الحقدَ

والحلم من أرقى الأخلاق وأرفعها، حتى قيل: الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله اتصف به فقال -جلّ ثناؤه-: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]، قال أكثم بن صيفي: (دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر).

والحلم يغلب الشجاعة بمقتضى قول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصّرعة ؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1]. وقال معاوية لعمرو بن الأهتم: (أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه). وقال: (والحليم نادر في الناس؛ لأن شهوة النفس تأبى إلا الانكسار لها)، حتى قال الأصمعي: (لا يكاد يجتمع عشرة إلا فيهم مُقاتل أو أكثر، ويجتمع ألف ليس فيهم حليم).

شتم رجل عمر بن ذر، فقال: (يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإني أَمَتُّ مشاتمة الرجال صغيرًا، ولن أحييها كبيرًا، وإني لا أكافئ من عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه).

وكان الأحنف بن قيس التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ممن يضرب به المثل في الحلم حتى يقال: (أحلم من الأحنف)، ويذكر أن رجلًا خاصمه فقال: لئن قلت واحدة لتسمعن عشرًا، فقال له الأحنف: (لكنك إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة).

ومن أقواله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه، وهذا يدل على أن العلماء يتحملون القليل من السفه والجهل بدءًا لما هو أكبر منه)، ولذا كان الأحنف إذا عجبوا من حلمه قال: (إني لأجد ما تجدون؛ ولكني صبور).

وما أجمل رد الإمام الشعبي على رجل غضب عليه فأسمعه كلامًا جارحًا، فقال له الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك). إن مثل هذا الرد يدحض الشيطان، ويزيل الخلاف، بل يحمل المخاصم على الندم والخجل، وهذا أبلغ في الردع، وأسلم في الدين من مقابلة الجهل بالجهل، والسفه بالسفه، ومن قدر على مكافأة من أساء إليه فذلك أعظم في ردعه وتأديبه.

سب رجل علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فرمى له بقميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، قال بعضهم: (جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده من الله عَزَّوَجَلَّ، وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى المدح بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا، فاتقوا الله ربكم وتزينوا بالحلم، فإنه من صفات عباد الرحمن).

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).

قال ابن الأثير متحدثًا عن صلاح الدين الأيوبي: (وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حليمًا حسنَ الأخلاق، متواضعًا، صبورًا على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يُعلمه بذلك، ولا يتغير عليه. وبلغني أنه كان جالسًا وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضًا بسرموز فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها).

فقابِلُوا الإساءة بالإحسان تُنصَروا؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إن رجلًا قال: يا رسول الله: إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[1]. ومعنى: فكأنما تسفهم المل؛ أي فكأنما تطعمهم الرماد الحار، قال الله تعالى﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢]، وقال جل وعلا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن:١٤].

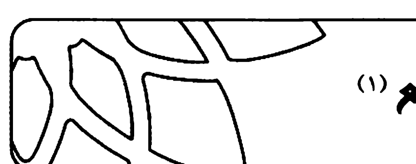
أيها المسلمون: إن ثمرة الاستماع الاتباع، فكونوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، جعلني الله وإياكم ممن علم فعمل وأخلص فثبت على الحق.

ثم اعلموا أن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، وأيَّه بكم - أيها المؤمنون- من جنه وإنسه، فقال قولًا كريمًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].



(١) رواه مسلم (٢٥٥٨).

الأدب والذوق الرفيع [1]



الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله بلُطفه تنكشِف الشدائد، وبالتوكُّل عليه يندفعُ كيدُ كل كائِد، أحمده سبحانه وأشكرُه وأسألُه المزيدَ من فضلِه وكرمِه، فبفضلِه ولُطفِه تتواصَلُ النِّعمُ وجميعُ العوائِد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له في كل شيءٍ آيةٌ تدلُّ على أنه الواحد، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه خيارٌ من خيارٍ كريمُ الأصل سيلُ الأماجِد، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله السادة الطيبين الطاهرين أهل المكارِم والمحامِد، وعلى أصحابِه الغُرِّ الميامين انعقَدَت على فضلِهم المعاقِد، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ من كل عابِد، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأُوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -؛ فليس أطيبَ من العافية، ولا أغنى من القناعة، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

أيها الناس: الدنيا دارُ عملٍ لا دارُ كسل، ويوم تقومُ الساعةُ لا فوزَ إلا بالطاعة، ومن كان له من نفسِه واعِظ كان له من الله حافِظ، ومن أصلحَ أمرَ آخرتِه صلُح له أمرُ دُنياه، والناسُ لن يُعطُوك أو ينفعوك إلا بما قُدِّر لك، ولن يضرُّوك أو يمنعُوك إلا بما قُضِيَ عليك، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

---

(١) صالح بن حميد.

أيها المسلمون:

قِيل لبعض أهل الفضل: هل قرأتَ (أدبَ النفس) لأرسطو؟ فأجاب بعزَّةٍ وثقةٍ: بل قرأتُ أدبَ النفس لُمحمدٍ ﷺ.

الله أكبر! كتابُ ربِّنا مليءٌ بالتوجيهات والآداب في شؤون الحياة والأحياء، شُربًا وأكلًا، وقولًا وفعلًا، واستِئذانًا ومُحادثات، ولِباسًا ومُعاملات، وضبطًا للمواقيت والمواعيد، ومثلُ ذلك وتفصيلاتُه في كتب الصِّحاح والسُّنن، في سُنَّة المُصطفى ﷺ وسيرتِه. كيف ونبيُّنا محمدٌ ﷺ بُعِث ليُتمِّم صالحَ الأخلاق ومكارِمِها؟

والأحكامُ والتشريعات حينما كانت تتنزَّل تنزَّلَت مُتكامِلةً في بناءٍ من حُسن الخُلق متين، وسدادٍ في السلوك جميل، وذوقٍ في التعامُل رفيع.

معاشر المسلمين: أدبُ النفس، ورفعةُ الذَّوق، وجمالُ التعامُل من أجلِّ ما وهبَ الله عبدَه من نعمٍ، ومُراعاة المشاعر، وحُسن المُعاملة مقصدٌ شرعيٌّ من مقاصِد الدين عظيم.

الذَّوقُ مسلكٌ لطيفٌ، وتصرُّفٌ حميدٌ يحملُ معانِي الأدب، وعالِي الرِّقَّة، وحُسن المعشَر، وكمالَ التهذيب، وحُسن التصرُّف، وتجنُّب ما يُحرِجُ أو يجرَح من فعلٍ أو قولٍ أو إشارةٍ.

والناسُ تُحبُّ ليِّنَ الجانِب، باسِط الوجه، والقلوبُ تُقبِلُ على من تواضَعَ لها، فالمواجهةُ بالوجه الجميل، والمُصافحةُ بالكفِّ الكريم، والتحدُّثُ باللسان المُهذَّب يعطِفُ القلوب، ويُمهِّدُ السبيل لقبول كل ما يُقدَّم من علمٍ ونُصحٍ، ونقدٍ وتوجيه.

إخوتي في الله: وإن من علامات الإيمان وعُنوان السعادة: أن يُرزَق العبدُ ذوقًا راقِيًا، وتهذيبًا رقيقًا ليستمتِع بالحياة، ويحترِم المشاعر، ويُدخِل السُّرورَ على نفسِه وعلى الآخرين من الأقرَبين والأبعَدين، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان.

وهل رأيتُم أرفعَ ذوقًا وأرقَى سلوكًا من أُسوتنا وقُدوتنا وسيِّدنا نبيِّنا محمدٍ ﷺ؟!

ألم تقرأوا في سيرته أن الأَمَةَ كانت تأخذُ بيده عليه الصلاة والسلام فتنطلق به حيث شاءَت؟ وكان يبدأ من لقِيَه بالسلام، ويبدأ أصحابَه بالمُصافحَة، ولا ينزِعُ يدَه حتى يكون

الرجلُ هو الذي ينزِعُ يدَه، ولا يصرِف وجهَه حتى يكونَ الرجلُ هو الذي يصـرِف وجهَـه. «ولم يُرَ مُقدِّمًا رُكبتَه بين يدَي جليسِه»؛[1].

ويقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما التَقَمَ أحدٌ أُذنَ رسول الله ﷺ يعني: يُناجِيه - فيُنحِّي رأسَه حتى يكون الرجلُ هو الذي يُنحِّي رأسَه[2]، وكان ضحِكُه تبسُّمًا[3].

معاشر الأحِبَّة:

أما تعليماتُ ديننا وأحكامُه وتشريعاتُه وتوجيهاتُه فلها في ذلك من الدقائق واللطائِف مـا لا ينقضِـي منه العجَب، وفي عرضٍ واستِعراضٍ للعبادات الكُبرى في الإسلام يستَبِينُ للناظِر والمُتأمِّل متانةُ الأواصِر التي ترتبِطُ فيها العباداتُ بالأخلاق والسلوك والتهذيب.

عباداتٌ هي أركانُ الدين وقِوامُه، مُختلفةٌ في مظهَرها، مُتَّفِقـةٌ في جوهَرهـا، هـي مـدارِجُ الكمال، ومراقِي الطُّهر، وسجايا الكرَم.

فالصلاةُ تنهَى عن الفحشاء والمُنكَر، وفي الصلاة مظاهرُ الذَّوق ورفيع الأدب؛ من أخـذ الزينة عند المسجد، والطِّيب، والمشي بسكينةٍ ووقار، وتسوية الصُّفوف وسدّ الفُرَج، وتجنُّـب أكل الثُّوم والبصَل، وكل ما له رائحةٌ كريهةٌ.

ولقد قال المُصطفى ﷺ لمُتخطِّي الصفوف: «اجلِس فقد آذيتَ»[4].

فإذا كنـتَ - يـا عبـد الله - تُريـد تحصيلَ الفضيلة في عبادتـك فإيـاك أن يترتَّـب عـلى ذلك إيذاءُ إخوانك.

أمـا الزكـاة فقـد قـال فيهـا - عـزَّ شـأنُه -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. وتُخفِي الصدقة وتُبدِيها حسب الأحوال، مما يُحافِظُ على أدب النفوس ويتجنَّـبُ جرحَها وإيذاءَها، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٣].

---

(١) ضعيف الترمذي (٢٤٩٠) وحسّنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (٥/ ٢٨٦).

(٢) صحيح أبي داود (٤٧٩٤).

(٣) صحيح الترمذي (٣٦٤٢).

(٤) صحيح أبي داود (١١١٨).

بل إن مفهومَ الصدقة في ديننا أوسع من التصدُّق بالمال؛ فتبسُّمُك في وجه أخيك صدقة، وإرشاد الضالّ صدقة، وإماطةُ الأذى عن الطريق صدقة، وبصرُك للرجل رديء البصر صدقة.

أما الصيام فصيامٌ عن الزُّور كلِّه قولًا وعملًا، «ومن لم يدَع قولَ الزُّور والعملَ به والجهلَ فليس لله حاجةٌ في أن يدَع طعامَه وشرابَه»[1]. وإنما الصيامُ عن اللَّغو والرَّفَث، «وإن سابَّه أحدٌ أو شاتَمَه فليقُل: إني صائِمٌ»[2].

والحجُّ زادُ التُّقَى، ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، في الحج عليكم بالسكينة، وإياكم والغُلُوّ، واجتنِبُوا إيذاءَ إخوانكم في مواطِن الزِّحام، في النَّفير من المشاعِر، ورمي الجِمار، والطواف، وتقبيل الحجَر الأسوَد، والسعيِ.

معاشر الأحِبَّة:

يعجزُ بعضُ أصحابِ العبادات والكُرُبات - وفَّقهم الله وتقبَّل منهم - يعجَزون أن يربِطوا بين حُسن التعبُّد وحُسن الخُلق وسُمُوّ الذَّوق، فترى هذا المُتعبِّد - حفظَه الله - يحرِصُ على العبادات في أوقاتِها وهيئاتِها، لكنَّه قد يرتكِبُ أعمالًا يأباها الخُلُق الكريم، ومن لم تُزكِّه عبادتُه وتُهذِّبه ديانتُه فما الذي حصَّلَه يا تُرى؟! وخبرُ المُفلِس عند أهل الإسلام معلوم، وهو من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ، ويأتي وقد شتَمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفَكَ دمَ هذا، وضربَ هذا. وحينئذٍ يكونُ القِصاصُ؛ فأين حسناتُه؟!

وهل يبدو تقيًّا من بدا كالِحَ الوجه، بادِيَ الشرِّ، قريبَ العُدوان؟! وآيةُ المنافق ثلاث: «إذا حدَّثَ كذَب، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا عاهَدَ غدَر، وإن صلَّى وصامَ وزعمَ أنه مسلمٌ»[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٧).

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).

(٣) رواه مسلم (٥٨).

ومن مطلوب العبادات ومقاصِدها: ألا تختلِف القلوبُ، ولا تُكدِّر النفوسُ، «سوُّوا صفوفَكم، ولِينُوا في أيدي إخوانِكم، ولا تختلِفوا فتختلِفَ قلوبُكم»[1]، «والمؤمنُ بحُسن خُلُقه يُدرِكُ درجةَ الصائم القائم»[2].

معاشر المُسلمين:

ومما يتجلَّى فيه مظاهر الذَّوق والأدَب الرفيع في دينِنا: آدابُ الأكل من غسل اليدَين، والأكل مما يلِيه، ولا ينفُخ في الطعام، ولا يتنفَّس في الإناء، ولا يفعَلُ ما يُستقذَرُ أو يُستنكَرُ أو يُستكرَه قولًا وفعلًا وإشارَة، وكُل من الطعام المُباح ما اشتهيتَ، والبَس من اللِّباسِ ما يشتَهيه الناسُ.

دُعِيَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ إلى ضِيافةٍ عند رجُلٍ، فيقولُ له عليه الصلاة والسلام: «لقد دعوتَنا خمسة، وهذا تبِعَنا، فإن شئتَ قبِلتَه وإن شئتَ أرجعتَه»[3]. فقال الرجلُ: قبِلناهُ من أجلِك يا رسول الله.

هذا - وربِّكم - هو الأدبُ، وهذا هو الذَّوق في أسمَى صُوره ومعانِيه.

ومن دلائل الأدب العالِي والذَّوق الرَّفيع: آدابُ الزيارات والاستِئذان من جميع الأعمار، من البالِغين والأطفال، من طرق الباب من غير عُنفٍ، وعدم الوقوف مُقابِل الباب؛ فإنما جُعِل الاستِئذان من أجل البصر، وتخيُّر أوقات الزيارة، ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، والجلوسُ حيث يُجلِسُه صاحِبُ البيت أو حيثُ ينتهِي به المجلِسُ حسب الأحوال.

والقومُ أعلمُ بعورات بيوتِهم، ولا يُقيمُ أحدًا من مجلسِه ليجلِسَ فيه، وافسَحوا يفسَحِ الله لكم، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ [المجادلة:١١]. ولا يتناجَى اثنان إلا بإذن الثالِث؛ فإن ذلك يُحزِنُه، ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ [النور:٥٩]، والذين لم يبلُغوا يستئذِنون في

---

(١) رواه مسلم (٤٣٢).

(٢) صحيح أبي داود (٤٧٩٨).

(٣) رواه البخاري (٥٤٣٤).

العورات الثلاث: من قبلِ صلاة الفجر، وحين وضع الثياب من الظَّهيرة، ومن بعد صلاة العشاء.

وفي أدب الاجتماعات والتشاوُر وإدارة الجلَسات يأتي التوجيهُ القُرآنيُّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٦٢].

ومن اللِّياقة في آداب الجوار والجيران: ألا يطَّلِع على دارِه، ولا يُتبِع نظرَه فيما يحمِلُه، ويغُضّ طرفَه عن حرَمه، ويستُر ما ينكشِف من عورته.

ومن زارَ مريضا فمن الكياسَة: أن يُخفِّف الجلوسَ، ويدعُو بالعافية؛ فإن المريضَ يُعاد، والصحيحَ يُزار.

ومما تتجلَّى فيه اللَّباقة واللِّياقة وحُسن الذَّوق: قيادةُ المركَبات، ومُراعاة إيقافِها في مواقفِها، والتِزامُ قواعِد المُرور، وضوابط السَّير، وحُسن الوقوف المُنظَّم صفوفًا، وحُسن استِخدام المرافِق العامَّة والمُحافظةُ عليها ونظافتُها وصيانتُها وعدمُ العبث بها والتعدِّي عليها.

ناهِيكم بما أنعمَ الله به على أهل هذا الزمان من وسائل الاتصال وما يجبُ من مُراعاة الأدب في استِعمالِها مُحادثةً وإرسالًا واستِقبالًا.

ومن أبرز علامات الذَّوق وأرفعها وأعلاها: الحياء حين يتحرَّجُ عن فعلِ ما لا ينبَغي، ويترفَّعُ عما لا يليق.

تأمَّلُوا هذه الصورةَ النبويةَ الرفيعةَ، يقول أبو سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدرها، وكان إذا رأى شيئًا يكرهُه عرفناه في وجهِه»(١).

نعم، إن من الذَّوق الرفيع: أن يخجَل الإنسان أن يُؤثَرَ عنه سوءٌ، وأن يحرِصَ على بقاء سُمعتِه نقيَّةً من الشوائِب بعيدةً عن الإشاعات، يذُودُ عن سُمعتِه ظُنون العباد.

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٢) ومسلم (٢٣٢٠).

ومن هذه الآداب: معرفةُ حقوق أصحاب الحُقوق، ومنزلة أصحاب المنازِل، وإيتاء كل ذي فضلٍ فضلَه؛ فللغلام مع من يكبُرُه مُعاملة، وللطالِب مع مُعلِّمه مُعاملة، وللولَد مع والِدِه مُعاملة، وللسُلطان منزلتُه، وللعالِم مقامُه.

أيها المسلمون:

هذه بعضُ التصرُّفات والمسالِك التي يستَبِينُ فيها حُسن تصرُّف الرجُل وكياسَته ولباقَتُه، وقد قال أهلُ الحكمة: (الفضلُ بالعقل والأدب لا بالأصل والحسَب؛ بل إن من قعَدَ به حسَبُه نهضَ به أدَبُه).

والأدبُ وسيلةٌ إلى كل فضيلةٍ، وذريعةٌ إلى كل شريعةٍ. يقول أبو جعفر المنصورُ: (إن أحببتَ أن يكثُر عليك الثناءُ الجميلُ بغير نائِلٍ فالقَهم ببُشرٍ حسنٍ).

والذَّوقُ الرفيعُ - عباد الله - ليس ضعفًا؛ فالرجلُ الكريمُ يُفضِّلُ أن يُريقَ دمَه على أن يُريقَ ماءَ وجهه، والعاقلُ في حضرة الرِّجال يُحكِمُ سلوكَه، ويضبِطُ تصرُّفَه، يتكلَّمُ بقدرٍ، ويتصرَّفُ بذوقٍ، وإن تمعُّر الوجه، واهتِزاز المشاعِر في بعض المواقِف دليلُ سمُوٍّ كامنٍ وطبعٍ كريمٍ.

مُستحكِمُ الأدب من أي الأقطار أتيتَه قابلَكَ بكرَم فِعالٍ، وحُسن مقالٍ. ورُبَّ قولٍ أشدُّ من صَولٍ، ومن حصافَة عقل المرء أن يكون الاستِماعُ أحبَّ إليه من النُّطق.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٨-١٩].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمدٍ ﷺ.

وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئةٍ؛ فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رفعَ قدرَ ذوي الأقدار، أحمده سبحانه وأشكرُه برحمته وفضلِه، وحكمتِه وعدلِه تنفُذُ مصارِيفُ الأقدار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يَخلُقُ ما يشاءُ ويختار، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه البشيرُ النذيرُ، والمُصطفى المُختار، صلَّى الله وسلَّم وبارَكَ عليه، وعلى آله الطيبين الأطهار، وعلى أصحابه السادة الأخيار، والتابعِين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ما تعاقَبَ الليلُ والنهار، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أيها المسلمون:

العاجِزُ من عجزَ عن سياسة نفسِه، مسكينٌ من جفَّ ذوقُه، وغلُظَ طبعُه، فلا تسأل عما يُحدِثُه في نفسِه والناسِ من أذًى وشرخٍ وشقاءٍ، لا يُراعِي مشاعِر، ولا يأنَفُ من مُواجَهات، جَهولٌ نزِقٌ، يُقلِّبُ المواجِع، وينشُرُ المعايِب.

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يصِفُ أمثالَ هذا فيقول: (فمُخالطتُه حُمَّى الرُّوح، ثقيلٌ، بغيضٌ لا يُحسِنُ أن يتكلَّم فيُفيدك، ولا يُحسِنُ أن يُنصِتَ فيستفيدَ منك، ولا يعرِفُ نفسَه فيضعَها موضعَها).

إن للثَّرثَرة ضجِيجًا يذهبُ مع الرُّشدِ، وثمَّة فِئةٌ ممن يتصدَّرُون المجالِس، يجزِمُ مُستمِعُهم أنهم لا يتحدَّثُون من وعيٍ يقِظٍ، ولا فِكرٍ عميقٍ، ولا ذوقٍ رفيعٍ؛ بل ربما ظنَّ الظانُّ أن لدَيهم انفِصامًا بين الاتِّزان وهذا الكلام المُتناثِر، وما استقامَ قلبُ عبدٍ حتى استقامَ لسانُه. والعياذُ بالله من أُناسٍ يبسُطون ألسِنَتهم بالسُّوء، يتسقَّطون الأخبار، ويتتبَّعون العورات، هُمَزةٍ لُمَزة، «وإن أبغضَ الرِّجال إلى الله: الألدُّ الخصِم»[1].

وآفةُ ذي الحِلمِ: طيشُ الغضب، ومن ساءَ أدبُه ضاعَ نسَبُه، والغريبُ من لا أدبَ له، وشرُّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة من تركَه الناسُ اتِّقاءَ فُحشِه.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٢٣) ومسلم (٢٦٦٨).

ألا فاتقوا الله - رحمكم الله -؛ واعلموا أن الأدب خير ميراث، فإن الرجُل النبيلَ لا يفقِدُ خُلُقه مع من لا خُلُق له، وهل تكونُ المُداراةُ إلا مع السُّفهاء وأصحاب الطِّباع الشَّرِسة والوجوه الصَّفيقة، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمدٍ رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُّكم، فقال في محكم تنزيله - وهو الصادقُ في قِيله - قولًا كريمًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمدٍ الحبيب المُصطفى، والنبي المُجتبى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعِز الإسلام والمسلمين، وأذِلَّ الشرك والمشركين، واخذُل الطغاة والملاحدة وسائر أعداء الملَّة والدين.

اللهم وأبرِم لأمةِ الإسلام أمرَ رُشدٍ يُعزُّ فيه أهلُ الطاعة، ويُهدَى فيه أهلُ المعصية، ويُؤمَرُ فيه بالمعروف، ويُنهَى فيه عن المنكر، إنك على كل شيءٍ قديرٌ.

اللهم أصلِح أحوالَ المُسلمين، واحقِن دماءَهم، وولِّ عليهم خيارَهم، واجمَع على الحق والهُدى والسنَّة كلمتَهم، وانصُرهم على عدوِّك وعدوِّهم.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:٢٠١]، ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

عباد الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠].

فاذكُروا الله يذكُركم، واشكُرُوه على نعَمه يزِدكم، ولذِكرُ الله أكبر، والله يعلمُ ما تصنَعون.



حق المسلم على المسلم

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله وفَّقَ من شاءَ من عباده إلى طريقِ السعادة، أحمده سبحانه وأشكرُه وقد أذِنَ للشاكِرين بالزيادة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أرجُو بها الحُسنى وزِيادة، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه عبَدَ ربَّه حقَّ العبادة، صلّى الله وسلَّم وبارَكَ عليه وعلى آله وأصحابه أهلِ الشرفِ والعِزِّ والسِّيادة، والتابعين ومن تبِعهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

أيها الناس: اتقوا الله واعلموا أن من أعظم مقاصد الشريعة، ومن أَجَلِّ أهداف الإسلام، أن يؤلِّف بين القلوب، وأن يجمع بين الصفوف، وأن يوحِّد الكلمة، وأن يرأب الصدع، وأن يزيل أسباب الخلاف والتدابر والتقاطع، وإذا لم يتم ذلك في واقع المسلمين، وفي حياة الأمة؛ فيجب أن نعلم - جميعًا - أننا ما التزمنا بالإسلام، وما اهتدينا بنور القرآن، وما تشرفنا بالسير على هدي رسول الأنام ﷺ يقول الله تعالى ممتنًّا على هذه الأمة: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٣] فسبحان من ألَّف بين هذه القلوب، وسبحان من وحد بين هذه الأجناس، وسبحان من جمَّع بين هذه الألوان واللغات والعادات.

جمع الله بين بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وعليٍّ القرشيِّ، في وحدة وألفة وترابط أخوي، لم يعرف التاريخ له مثيلًا.

والله تبارك وتعالى يأمرنا بالاعتصام بحبله جميعًا، وينهانا عن التفرُّق والتَّشرذم والتحزُّب، وعن موجبات ذلك من العصبية القبلية، أو التعصب للَّونِ، أو الجنس، أو اللغة، فكل هذه العصبيات موضوعة في الإسلام، قد جعلها النبي ﷺ تحت قدميه.

فلماذا يبغض بعضنا بعضًا، ولماذا يحسد بعضنا بعضًا، ولماذا يغتاب بعضنا بعضًا، ولماذا هَتْكُ الأعراض، والتقاطع والتدابر والتباغض، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

أيها المسلم:

اعلم: أنك لن تنال رضوان الله عَزَّوَجَلَّ ولا رحمة الله تبارك وتعالى وعفوه ومغفرته، إلا بمحبتك لأخيك المسلم، وبره ومساعدته؛ فالله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وإن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ تتنزَّل بمساعدة الإخوان، وتقديم العون لهم، ومحاولة التيسير على المعسرين وأهل الحاجة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]، ويقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربةً فرَّج الله عنه بها كربة من كُربِ يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ سُلامى [السُّلامى: أصله عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في سائر عظام البدن ومفاصله] من الناس عليه صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٩٨) كتاب المظالم باب (٣). ومسلم (٤/ ١٩٩٦) كتاب البر والصلة رقم (٥٨).

ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[1].

ويقول النبي ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أوَلاَ أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

وإفشاء السلام معناه التواضع لعباد الله، والمحبة لهم، ومسالمتهم، وعدم إضمار شيء في نفسه لهم، ويوم يتخلى الناس عن السلام، ويوم يستهينوا بهذه الشعيرة العظيمة من شعائر الدين، فيمر بعضهم على بعض بلا سلام ولا تحية، تظهر الضغائن، وينتشر الحقد والحسد والبغض بين الناس، وهذا من فساد ذات البين الذي حذر منه نبينا ﷺ بقوله: «إياكم وفسادُ ذات البين؛ فإن فساد ذات البين الحالقة؛ لا أقول تحلق الشعر وإنما تحلق الدين»[3].

فعليك أيها العبد المسلم أن تُخرج من قلبك كلَّ حقد، وكل حسد، وكل بغضاء تجدها لأحد من المسلمين، إذا طرحت نفسك على الفراش، ووكلت أمرك إلى خالقك فاسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينزع من قلبك كل غشٍّ وضغينة، وحسد وبغضاء.

عباد الله:

أراد النبيُّ ﷺ أن يبين لأصحابه فضل محبة المسلمين، وعدم إضمار شيء لهم، وسلامة الصدر تجاههم، فبينا هو جالسٌ مع أصحابه ذات مرة، إذ قال ﷺ لهم: «يَطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلع رجلٌ من الأنصار، يتساقط ماء الوضوء من لحيته، وقد علَّق نعليه في شماله، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال لذلك الرجل: إني خاصمت أبي فأقسمت

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٢٤) كتاب الجهاد باب (٧٢، ١٢٨). ومسلم (٢/ ٦٩٩) كتاب الزكاة رقم (٥٦).

(٢) رواه مسلم (١/ ٧٤) كتاب الإيمان، رقم (٩٣).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٢) كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٨) قال الترمذي: (حديث صحيح غريب). وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٦٨٣).

ألا أدخل عليه ثلاث ليالٍ، فإن رأيتَ أن تؤويني إليك حتى تحلَّ يميني فعلت، فقال: نعم؛ فكان عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه بات معه ليلة - أو ثلاث ليالٍ - فلم يره يقوم من الليل بشيء، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر، فيسبغ الوضوء، قال عبد الله: غير أني لا أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال كدتُ أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، إنه لم يكن بيني وبين والدي غضب وهجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات في ثلاث مجالس: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلعت أنت تلك الثلاث مرات، فأردتُ آوي إليك، فأنظر عملك، فلم أركَ تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله - ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فانصرفتُ عنه، فلمَّا ولَّيتُ دعاني؛ فقال: ما هو إلا ما رأيتَ، غير أني لا أجد في نفسي غِلاً لأحدٍ من المسلمين، ولا أحسده على خير أعطاه الله إيَّاه. قال عبد الله بن عمرو: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق[1].

أيها المسلمون:

لينظر كلٌّ منَّا في قصة هذا الرجل، وليأخذ منها العبرة والعظة، ما الذي بلغ بهذا الرجل تلك المنزلة الرفيعة، ما الذي جعله من المشهود لهم بالجنة والفضل، وهو لا زال يعيش على ظهر هذه الدنيا؟ ما أعماله؟ ما عبادته؟ ما جهاده؟ ما هو السر الذي تفوق به؟

إن الذي بلغ بهذا الرجل تلك المنزلة هو سلامة الصدر لإخوانه المسلمين، ينام وليس في قلبه غشٌّ ولا حسد ولا بغضاء لأحد، وهذا ليس بالأمر اليسير؛ ولذلك قال عبد الله بن عمرو: «هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق».

إن من الناس من يتصدَّق ولكنه حقود، ومنهم من يدعو لكنه حسود، ومنهم من يقوم الليل ويقوم النهار، ولكنه يؤذي جيرانه، ويأكل لحوم إخوانه المسلمين، ويقع في أعراضهم.

مَاذَا التَّقَاطُعُ في الإِسلامِ بَيْنَكُمُ ... وأنتُمُ يا عبادَ الله إِخْوانُ

---

(١) رواه أحمد (١٦٦، ٣٥٦) والنسائي في اليوم والليلة رقم (٨٦٣) وابن السني في اليوم والليلة رقم (٧٥٤). قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ١٨٧): (رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين).

إن اليهود والنصارى وأعداء الدين يختلفون فيما بينهم؛ ولكنهم يتفقون على حرب الإسلام والمسلمين، أما أهل الإسلام فمشارب وأساليب وأهواء وجماعات وأحزاب، ولا نراهم يتفقون حتى على حرب أعدائهم من أهل الإلحاد وفرق الكفر والزندقة!! (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير).

لقد بين الرسول ﷺ حق المسلم على المسلم، فقال: «المسلم أخو المسلم» ولك أن تتصور حقوق أخيك عليك، وما يجب عليك تجاهه: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا». ويشير إلى صدره ثلاث مرات، «بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه»(١).

ما أعظم تلك الحقوق، وما أجلّ هذه التوجيهات، لا يظلم المسلم أخاه؛ لأن عاقبة الظلم وخيمة، ولذلك فإن الله عَزَّوَجَلَّ حرَّم الظلم على نفسه، ولا يخذل المسلم أخاه بأن يترك إعانته ونصره والدفاع عنه في موطن يستطيع أن ينصره فيه، ولا يحقر المسلم أخاه بأن يستهزئ به، ويستهين به، ويستقله ويستصغر شأنه، فهذا كله ليس من أخلاق المؤمنين.

فيا مَنْ يجلس في مجالس الغيبة والنميمة، ويا من يقضي وقته في هتك الأعراض والتفكُّه بالحرمات، أما تعرف أنك تحارب الله؟! أما تعرف أنك تعلن الحرب على جبار السماوات والأرض؟! أما تعرف أنك تهدم في صرح هذه الرسالة الخالدة؟! اتق الله في نفسك، اتق الله في مصيرك، واعلم بأننا أمة واحدة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، واعلم بأن الله عَزَّوَجَلَّ سوف يقتصُّ منك لا محالة، وسوف يأخذ من حسناتك؛ لتُجعل في موازين من اغتبت وظلمت وشتمت، حتى إذا فنيت حسناتك، أخذ من سيئاتهم؛ لتُجعل في ميزانك، حتى تُطرح في النار(٢): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

إن هناك من يتخذ أساليب في الدعوة والتربية تضر ولا تنفع، وتفرق ولا تجمع، إنهم يتحزَّبون ضد إخوانهم، ولا يتلمسون العذر لغيرهم، ويشكِّكون في مصداقية الآخرين

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٣٢).

(٢) ورد بذلك الحديث الصحيح. انظر صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٧) كتاب البر والصلة رقم (٥٩).

ونيَّاتهم، مما يعمل على تفريق الأمة، وتمزيقها إلى جماعات وأحزاب متعادية، والذي ينبغي أن يعامل المسلم معاملة تتفق مع الأحكام الشرعية والآداب المحمدية، لكونه ما زال مسلمًا، فله ما للمسلم من الحقوق، وعليه ما عليه من الواجبات.

كيف يتَّحد أهل الباطل ضدنا، ويكوِّنون صفًّا واحدًا في حزبنا، مع أنهم أعداء فيما بينهم، ثم نتعادى نحن ونتقاتل ونتباغض؟!!

أيها الناس: ينبغي كذلك أن لا تتشتت الأُسر، وتُقطع الأرحام، لخصومات سلفت، وشجارات سبقت، لئلا يحل الفساد فيما بيننا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢٢]. إن من الأرحام من يحقد على رحمه، ويتعرض له بالكيد والدسائس، ولذلك فقد قست القلوب، وجفَّت العيون، وقلَّت الأرزاق، وذهبت البركة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأين نحن من قول النبي ﷺ: «حقُّ المسلم على المسلم ستٌّ: إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فَشَمِّتْه، وإذا مرض فعُده، وإذا مات فاتَّبِعْه»[(١)].

فأين هذا من أناس جعلوا السلام على المعرفة والمكانة، فلا يسلِّم أحدهم إلا على الكبار، والنبي ﷺ يقول: «إذا لقي أحدكم أخاه؛ فليسلِّم عليه»[(٢)].

ويبين النبي ﷺ أن السلام لا يكون على المعرفة، ولا يكون على المكانة، فروى عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٧٠٥) رقم (٢١٦٢).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٣٥١) رقم (٥٢٠٠) قال الألباني: (رواه بإسنادين أحدهما صحيح) كما في المشكاة رقم (٤٦٥٠).

(٣) رواه البخاري (١/ ١٣)، ومسلم (١/ ٦٥) رقم (٣٩).

فالسلام هو شعار المحبة والود الذي أقامه رسولنا ﷺ وحثَّ على إرسائه وتثبيته في قلوب اتباعه وأمته من بعده، وعند البخاري موقوفًا على عمار بن ياسر، أنه قال: «ثلاثٌ من جمعهنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»(1).

وبذل السلام للعالم - هنا - يتضمن تواضع العبد، وأنه لا يتكبر على أحد؛ بل يبذل السلام للصغير والكبير، لمن عرف ومن لم يعرف.

ومن حق المسلم على أخيه أيضًا إجابة دعوته، ومن الدعوات ما تكون واجبة، ومنها ما تكون مستحبة، ومنها ما يحرم إجابتها، فأما التي هي واجبة فالدعوة إلى وليمة الزواج، ما لم يكن هناك منكر، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «إذا دعي أحدكم إلى وليمة فليأتها»(2). والوليمة هي وليمة العرس، وفي لفظ في الصحيح أيضًا: «إذا دعى أحدكم أخاه فليجب، عرسًا كان أو نحوه»(3).

قال أهل العلم: هذا الأمر للوجوب، أي يجب عليك أن تجيب الداعي ما لم يكن هناك منكر، أو شيء يخالف الشرع.

عباد الله: إن من الناس من يدعو إلى وليمته وطعامه عِلْيَة القوم، ويترك الفقراء والمساكين - وهم أحقّ بالدعوة من هؤلاء - وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «شرُّ الطعام طعام الوليمة؛ يُمنَعَها مَنْ يأتها، ويُدعى إليها مَنْ لم يأتها»(4). فشرُّ الولائم التي للرياء والسمعة، يُدعى إليها الأغنياء، ويُمنع منها الفقراء.

وهناك من الناس أيضًا من لا يجيب الداعي إلا إذا علم أنه من الأغنياء، وسوف يقدِّم كذا وكذا، فهذا - أيضًا - مخالفٌ لهدي الإسلام؛ لأن النبي ﷺ وهو خير البشر كان يقبل

---

(1) رواه البخاري (1/ 12) معلقًا، وقد وصله عبد الرازق في المصنف رقم (19439).

(2) رواه البخاري (6/ 143)، ومسلم (2/ 1052) رقم (1429).

(3) رواه مسلم (2/ 1053) رقم (1429).

(4) رواه البخاري (6/ 144)، ومسلم (2/ 1054) رقم (1432).

دعوة كل أحد، وكان يقول ﷺ: «لو دعيت إلى ذِرَاعٍ أو كُرَاعٍ لأجبت، ولو أُهدي إليَّ ذراعٌ أو كُرَاعٌ لقبلت»[1].

ويقول ﷺ أيضًا: «يا نساء المسلمات، لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِن شاةٍ»[2].

عباد الله: أقول ما تسمعون وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنب فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٩).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢٩)، ومسلم (٢/ ٧١٤) رقم (٩٠) والفرسن: عظم قليل اللحم وموضع الحافر في الإبل.

الخطبة الثانية:

الحمد لله المعروف بالإحسان المحمود بكل لسان، الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والصلاة والسلام على رسول السلام على رسول الإسلام، وهادي الأنام، أفضل من صلى وصام، وطاف بالبيت الحرام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

عباد الله: ومن حقوق المسلم على أخيه أداء النصيحة إليه، فالنصيحة واجبة عند أهل العلم، وقد قال ﷺ: «الدين النصيحة، قالوا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

والنصيحة من نصرة المسلم لأخيه وعدم خذلانه، وقد قال، ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قلنا يا رسول الله ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: ترده عن الباطل، فإن ذلك نصره»[2].

فالواجب علينا أن نتناصح فيما بيننا، والإنسان لا يسلم من الخطأ والنسيان، ونحن جميعًا يعترينا الخطأ في كثير من تصرفاتنا، فالواجب على الأخ الناصح إذا رأى أخاه قد أخطأ في قضية أو مسألة أو اجتهاد أو تصرف، أن يذهب إليه وينصحه، ولن يجد من أخيه إلا الحب والدعاء والبشر والاستقبال الحسن.

أما أن ينتقد إخوانه وينال منهم في المجالس، ويتعرض لأعراضهم، ثم يهرب من أداء النصيحة إليهم في وجوههم؛ فإن هذا من الغش لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

ومن علامة المؤمن، أنه يتلطَّف في نصحه، فيذهب إلى أخيه، ويأخذه على انفراد، ويُسِرُّ إليه بالنصيحة، ولا يُشَهِّر به أمام الناس، لأنه لا يبغي من وراء ذلك إلا رضا الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٧٤) رقم (٥٥).

(٢) رواه البخاري (٣/ ٩٨) من حديث أنس واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٩٨) رقم (٢٥٨٤) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومما يروى عن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله:

تَعَمَّـــدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِ ... وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَهْ

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ

فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي ... فَلا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ

عباد الله: ومن حق المسلم على أخيه أن يشمِّته إذا عطس؛ فقد ورد في الحديث: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه: يرحمك الله، فإذا قال: يرحمك الله، فليقل: يهديك الله ويصلح بالك»(١).

وعن أنس: «أنه عطس عنده رجلان، فشمَّت أحدهما، ولم يشمِّت الآخر، فقال الذي لم يشمته: عطس فلان فشمَّتَّهُ، وعطستُ فلم تُشَمِّتني، فقال: هذا حَمِدَ الله، وأنت لم تحمد الله»(٢).

وروى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه»(٣)

أيها المسلمون: ومن حق المسلم على أخيه عيادته إذا مرض، وعيادة المرضى من الأمور التي تزرع المحبة والألفة بين المسلمين، ولذلك فقد جاءت الأحاديث الصحيحة مُبينة فضل زيارة المرضى منها ما رواه مسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا لم يزل في خُرْفة الجنة حتى يرجع»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٢٥) وأحمد (٢/ ٣٥٣).

(٢) رواه البخاري (٧/ ١٢٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٢)، رقم (٢٩٩١)، والترمذي (٥/ ٧٨) رقم (٢٧٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٣) رقم (٣٧١٣).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٩٩٢) رقم (٢٩٩٢)، وأحمد (٤/ ٤١٢).

(٤) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٩) رقم (٢٥٦٨) وخرفة الجنة: بساتينها.

وقد عاد عليه الصلاة والسلام أصحابه ودعا لهم؛ منهم: سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاده ﷺ ودعا له[1]. وعاد عليه الصلاة والسلام جابرَ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوجده مُغْمى عليه فتوضأ عليه الصلاة والسلام وصبَّ عليه الماء؛ فاستفاق[2].

أيها المسلمون: إن حقوق المسلمين على إخوانهم لا تنقطع ولا تنتهي حتى بعد الموت، فللمسلم حقوقٌ على إخوانه حتى بعد أن يصبح جثمانًا، وتصعد روحه إلى بارئها.

فمن حقوقه بعد وفاته: اتباع جنازته، والصلاة عليها، ومواصلته بالدعاء بالمغفرة والرحمة، فهذه هي أخوة الإسلام، وهذا هو ميثاق الإيمان، وقد قال ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلِّي عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين»[3]. وانظر إلى عظم الأجر وجزيل الثواب مع أن العمل هينٌ والمشقة محدودة.

أيها الناس: إن حقوق المسلمين كثيرة، لا نستطيع في هذه الدقائق أن نستوعبها، وإذا لم يستطع أحد منا أن يقوم بكل ما عليه تجاه أخيه من حقوق، فعليه أن يكفَّ شرّه عن عباد الله، فلا يغتاب أحدًا، ولا ينال من عرض أحد، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات:١٢]. وقد بلغ الحسن البصري أن رجلًا قد اغتابه، فأتى بطبق، ووضع فيه رطبًا، ثم قال لخادمه: (اذهب إليه وقل له: أهدى لنا حسناته، وأهدينا له رطبًا!!).

وأتى رجل إلى جعفر الصادق، فسبَّ رجلًا من المسلمين في مجلسه، فقال له جعفر الصادق: (أيها الرجل.. أقاتلت الروم؟ قال: لا. فقال له: أقاتلت فارس؟ قال: لا. قال:

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٧/ ٦)، ومسلم (٣/ ١٢٥٣) رقم (١٦٢٨).

(٢) رواه البخاري (٨/ ١٤٩)، ومسلم (٣/ ١٢٣٤).

(٣) متفق عليه.



أجاهدت الكفار؟ قال: لا. فقال: سبحان الله!! يسلم منك الروم وفارس واليهود والنصارى، ولا يسلم منك المسلمون!!).

فاتق الله أيها المسلم في أعراض المسلمين، فعِرْض المسلم أمره عظيم، وشأنه خطير، فكيف يزين لك الشيطان أن تتحدث في أعراض إخوانك، فتعدِّل هذا، وتجرِّح ذاك، وتشتم هذا، وتسب هذا، وقد يكون هذا الذي سببتَ وشتمت أفضل منك وأتقى منك لله عَزَّوَجَلَّ.

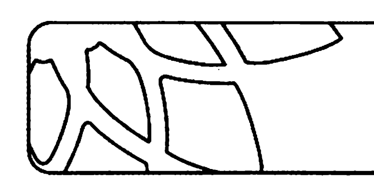
فأين نحن من أبي الدرداء الذي كان يدعو في السحر لسبعين من أصحابه، وأين نحن من الإمام أحمد وقد رأى ابن الشافعي فقال له: (أبوك من الذين أدعو لهم كل يوم!!).

هذا وصلوا وسلموا على مَنْ أمركم الله بالصلاة والسلام عليه فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقد قال ﷺ: «من صلى عليَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشرًا»[(١)].



(١) رواه مسلم (١/ ٢٨٨) رقم: (٣٨٤).



الوفاء بحق الوالدين (١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]. أما بعد: فإن خير الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي رسول الله ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة.

أما بعد:

أيها المسلمون: إن الوفاء لمن أعظم وأشرف ما يتصف به الناس، ولذا مدح الله الموفين؛ ولو كان الوفاء دارًا لكان بر الوالدين أعلاها، ولو كان الوفاءُ جسدًا لكان بر المرء بوالديه رأس هذا الجسد، ولو كان الوفاء قبيلة فإن برك بأبيك وحدبك على والدتك شيخ هذه القبيلة وأعظمها فخارًا.

أَيْ عباد الله! أَيُّ مشاعر أرق، وأَيُّ فضل بعد فضل الله أحق، مِن رد الجميل، والاعتراف بالفضل لأعظم صاحب فضلٍ عليك؟. ألم تَرَ أنهما سببُ خُروجك من العدم (واللا شيء) إلى

---

(١) حسن البار.



الوجود؟ والكريم يشكر من تسبب في المعروف له ولو من غير قصد. ألستَ ترى يا أخي أن من فتح عليك بابًا عظيمًا من الرزق، ولنقل: عدةَ ملايين من الريالات بكلمةٍ قالها وهو غافلٌ، ألستَ ترى أن من جميل العشرة، وحُسن التصرُّف واللياقة، أن يُحثى له منها شيء؟!. تجد الكريم طيِّبَ النَّفس يرى ذلك حقًا واجبًا، وتجد البخيل اللئيم يقول: وما الذي صنع؟ إنما الجهدُ والمال لي، والرزق كلُّه لي، فلو كان فوق هذا الربح الذي أجراه الله على يديه إليك سبب في إنقاذ حياتك من الموت، هل يُجازي هذا المرء أن تُعطيَه الدنيا وما عليها؟! فكيف، وهو لا يريد إلا لُطفك، وحُسن العهد منك، وطيِّب الأحدوثة، وفي بعض الأحايين: السلامة من الأذى!. كيف بمن يسعدُ لنجاحك، ويطرب لأولادك، ويَجهدُ لإعطائك، ويدأبُ لفلاحك، ويدعو الله بكرة وعشيًا بحفظك وسلامتك، ويشعر بسرور الغنى إن دخل القرشُ جيبك، ويتلذذ بنعيم السعادة إن أسعد اللهُ بيتَك، وتقرُّ عينه بمعافاتك، فهل يجزي هذا أن تحمِلَه على رأسك، أو تنفق عليه من مالك، أو أن تدعوَ له في صلاتك؟!. لا يجزي ولدٌ والده بشيء، ولو فعل وفعل، إلا أن يكون، كما قال الحبيب المصطفى ﷺ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه»[1]. وهذا بابٌ قد أُغلق على الناس منذ زمن؛ فلا يجزي ولدٌ والديه بشيء الآن البتة، ولو جزاهما عليه الدنيا بحذافيرها!.

ألم ترَ أنهما أنفقا عليك في وقتٍ لا تملك لنفسك فيه كسبًا؟ وهَشّا لك وفَرِحا بمقدمك وأنت لا تملك فلسًا؟ وَقَسَما لك من طعامهما وهما لا يريدان منك ردًا؟ فقل لي بربِّك: هل تُقارن إحسانَهما بإحسانِ مُحسنٍ من البشر؟!. ألَم تَرَ أنك إن اتبعتهما بإحسانٍ أُلحقت بمنزلتهما في الجنة، فالوالد يحدُبُ على بنيه، ويبحث عنهم، ولا تتم سعادتُه -حتى في الجنة- إلا بهم. ولو سُئل الابنُ: من تشتهي أن يكون معك؟ لاشتهى زوجَه وولده! فالآباء يطلبون الأبناء، والأبناء يطلبون أبناءهم، ولا عكس!.

---

(١) رواه مسلم (١٥١٠).

ألم ترَ أنهما يريدان لك الحياة والسلامة، وبعضُ الأولاد قد يُريد لهما الضرر، أوَلَستَ تَسمع عن عقوق الأبناء؟ فأين منه تقصير الآباء؟! أما إن الوالدين قد يُقصِّران، وقد يظلمان أو يجوران، ولكن تبقى في فطرة الله في خلقه أنه مهما ارتكس الآباء في تقصيرهم تُجاه أبنائهم، فإنهم لن يبلغوا مقدار ما يفعلُه الأبناء ويصلوا إليه من عقوقهم وتقصيرهم، إلا ما شذ، والشاذ لا حُكم له.

أغرى امرؤ يومًا غلامًا جاهلًا	بنقوده كيما ينال به الوطرْ
قال: ائتني بفؤاد أمك يا فتى	ولك الدراهمُ والجواهرُ والدرر
فمضى وأغرزَ خِنجرًا في صدرِها	والقلبَ أخرجه وعاد على الأثر
لكنه مِن فَرط سُرعته هوى	فتدحرج القلب المُعَفَّر إذْ عَثَر
ناداه قَلبُ الأُم وهو مُعَفَّر	ولدي حبيبي هل أصابك مِن ضرر؟
فكأنَّ هذا الصوت رغم حُنُوِّه	غضبُ السماء به على الولد انهمر
فارتد نحو القلب يغسله بما	أجرت دموع العين من سيل العبر
ويقول يا قلب انتقم مني ولا	تغفر فإن جريمتي لا تغتفر
واستل خنجره ليقتل نفسه	طعنًا فيبقى عبرة لمن اعتبر
ناداه قلب الأم كُفَّ يدًا ولا	تذبح فؤادي مرتين على الأثر

ألستَ توافقُني، يا عبد الله: كم نحن بحاجةٍ إلى خُلُق الوفاء، وإلى الازدياد في التوفية بالبر، وإلا كان المرءُ جبارًا قاسيًا، غليظًا عاصيًا؟!. قال عيسى ﷺ وهو يُعدِّد مِن نِعَم الله عليه وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف:١٥-١٩]. وعن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، قال: كان ابنُ عمر يطوف، فرأى رجُلًا يطوف حاملًا أُمَّه وهو يقول:

إني لها بعيرُها المُذلَّل ... إنْ ذُعِرَت ركابُها لم أُذعر

أَحْمِلُها، ومَا حَمَلت أكثرْ ... أتُرى جزيتُها يا ابنَ عُمر؟

فقال: «لا، ولا زفرةً واحدة». وفي رواية: «ولا بطلقةٍ واحدةٍ من طَلَقاتِ الولادة، ولكنْ قد أحسَنتَ، واللهُ يُثيبُك على القليل كثيرًا».

فأسعِد قلبَهما أيها المُوفَّقُ في حياتهما، وبعد المهات بصلاحِك، وببِرِّك وإحسانك، وبدعائك وتَحنانك، عسى الله أن يجعلك في زمرة البارين، وأن يجعل لك من ذريتك من يبرُّك من بعد برِّك بأبويك، فلا وصفة لاستجلاب البر مِثل سابق البر.

أخي المسلم: أكرِم أبويك، وتحنَّن، وتذلَّل لهما، وأطعهما في غير معصية، إذْ معروف الباري سبحانه عليك أكبر، وهو بالبر قبلهما أولى وأجدر. واعلم أن رضا الله في رضا الوالدين، وأن سخط الله في سَخَطِ الوالدين، كما جاء عن النبي ﷺ[1]. بل إنهما من أوسع أبواب دخول الجنة، فأنت -إن بَرَرْتَهما- تُوافقُ فطرتَك، وتُرضي ربَّك، وتكتسب حمد الناس، وحُسن العاقبة في الدنيا، وفوقَ ذلك تدخُلُ الجنة. ألا إنها الغنيمة العظيمة! فاستثمر غنيمتك، أو أضِعها، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الوالدُ أوسطُ أبواب الجنة، فإن شئت فأَضِع هذا الباب أو احفظه»[2]. أما إذا زاد البر واتصل، وعُرف به الإنسان، فإنه يسبق الآخرين إلى الجنة؛ فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح الجامع (٣٥٠٧).

(٢) صحيح الترمذي (١٩٠٠).

«دخلت الجنة فسمعتُ فيها قراءةً، فقلتُ: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، كذلكم البرّ! كذلكم البرّ!» وكان أبرّ الناس بأمه[1].

أيها المسلمون: إنَّ مِن حقوق الوالدين على أبنائهم: الإحسانُ إليهما، فقد قَرَن اللهُ الإحسان إليهما بعبادته فقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١]. قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: (أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يعُمُّ كلَّ إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهيُ عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهيٌ عن ضده.

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جُرمًا، وَتركُ الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول... وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد) اهـ. عن أبي مُرَّة مولى أم هانئ بنت أبي طالب أنه: «ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بالعقيق، فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته: عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أماه!. فتقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. يقول: رحمك الله كما ربيتِني صغيرًا. فتقول: يا بني! وأنت فجزاك الله خيرًا ورضي عنك، كما بررتني كبيرًا»[2]. ومن حقوق الوالدين على أبنائهما: الإنفاقُ عليهما عند حاجتهما لذلك، بل إن الشريعة جعلت المال مال الوالد، فكأن الابن فيه يأتي بالتبع: فعن جابر بن عبد الله أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي مالًا وولدًا، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك»[3]. ونقل الإمامُ ابنُ قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن المنذر أنه قال: (أجمع أهلُ العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسبَ لهما ولا مال واجبةٌ في مال الولد). اهـ.

---

(١) السلسلة الصحيحة (٩١٣).

(٢) صحيح الأدب المفرد (١١).

(٣) صحيح ابن ماجه (١٨٧٠).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، له الحمد والمجدُ والكبرياء، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضد ولا أشباه، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله، النبي المصطفى، والرسول المجتبى، صلى عليه الله، وسلَّم تسليمًا. أما بعد:

أيها المسلمون: ومن حقوق الوالدين على أولادهم: وجوب الطاعة في المعروف، وفي هذا قصَّ لنا النبي ﷺ قصة عجيبة، تبيِّن أن طاعة وإجابة الوالدين تُقدَّم حتى على نوافل العبادة.

فعَنْ أَبِى رَافِعٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ فَجَاءَتْ أُمُّهُ -قَالَ حُمَيْدٌ: فَوَصَفَ لَنَا أَبُو رَافِعٍ صِفَةَ أَبِى هُرَيْرَةَ لِصِفَةِ رَسُولِ الله ﷺ أُمَّهُ حِينَ دَعَتْهُ كَيْفَ جَعَلَتْ كَفَّهَا فَوْقَ حَاجِبِهَا ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَيْهِ تَدْعُوهُ- فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ كَلِّمْنِي، فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي فَقَالَ اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلاَتِي، فَاخْتَارَ صَلاَتَهُ، فَرَجَعَتْ ثُمَّ عَادَتْ فِي الثَّانِيَةِ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ فَكَلِّمْنِي، قَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلاَتِي، فَاخْتَارَ صَلاَتَهُ، فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ وَهُوَ ابْنِي وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي؛ اللَّهُمَّ فَلاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ. قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ، قَالَ: وَكَانَ رَاعِي ضَأْنٍ يَأْوِى إِلَى دَيْرِهِ -قَالَ- فَخَرَجَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْقَرْيَةِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا الرَّاعِي فَحَمَلَتْ، فَوَلَدَتْ غُلاَمًا، فَقِيلَ لَهَا: مَا هَذَا؟ قَالَتْ: مِنْ صَاحِبِ هَذَا الدَّيْرِ، قَالَ: فَجَاءُوا بِفُئُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ فَنَادَوْهُ فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ -قَالَ- فَأَخَذُوا يَهْدِمُونَ دَيْرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُ: سَلْ هَذِهِ -قَالَ- فَتَبَسَّمَ ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَبِي رَاعِي الضَّأْنِ. فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ قَالُوا: نَبْنِي مَا هَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. قَالَ: لاَ وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ تُرَابًا كَمَا كَانَ»[1].

لقد علم سلف الأمة فضل الوالدين، فعاملوهم بالبر والإحسان، وبالغوا في إكرامهم وطاعتهم، اعترافًا منهم بالجميل، وحذرًا من غضب الربِّ الجليل، ومما يروى عنهم في ذلك رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٦) ومسلم (٢٥٥٠).

كان محمد بن المنكر يضع خدّه على الأرض ثم يقول لأمه: (قومي ضعي قدمك على خدّي).

وقال عروة بن الزبير: «ما برّ والده من شد الطرف إليه».

ولما مات عمر بن ذر قالوا لأبيه ذر: كيف كانت عشرته معك؟ قال: (ما مشى معي قطّ في ليلٍ إلا كان أمامي، ولا مشى معي في نهار قط إلا كان ورائي، ولا ارتقى سطحًا قطُّ كنت تحته).

وروي عن علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يخشى أن يأكل مع أمه على مائدة، فقيل له في ذلك فقال: «أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتُها».

وعن محمد بن سيرين: بلغت النخلة في عهد عثمان بن عفان ألف درهم، فعمد أسامة إلى نخلة فعقرها فأخرج جُمّارها-فأطعمه أمه، فقالوا له: ما يحملك على هذا، وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟!

قال: «إن أمي سألتنيه ولا تسألني شيئًا أقدر عليه إلا أعطيتها».

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرّ من كانا في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأما عثمان فإنه قال: ما قدرت أن أتأمل أمي منذ أسلمت. وأما حارثة، فإنه كان يفلي رأس أمه، ويطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قط تأمر به، حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج، ما أرادت أمي؟!».

قال محمد بن المنكر: (بات أخي يصلي، وبتُّ أغمز قدم أمي، وما أحبُّ أن ليلتي بليلته!!).

كان كهمس رجلًا عابدًا، وكان يعمل في الجصّ كل يوم بدانقَيْن، فإذا أمسى اشترى به فاكهة، فأتى بها إلى أمه. ورأى مرة عقربًا في البيت، فتبعها ليقتلها، فدخلت في جُحرٍ، فأدخل يده خلفها فكانت تلدغه، فقيل له: كيف تُدخل يدك في الجحر؟ قال: «خفتُ أن تخرج فتجيء إلى أمي فتلدغها».

وكان حيوة بن شريح- وهو أحد أئمة المسلمين- يقعد في حلقته يعلم الناس، فتقول له أمه: «قم يا حيوة، فألق الشعير للدجاج، فيقوم ويترك المجلس ويفعل ما أمرته أمه!!».

واستسقت أم مسعر ماءً منه بعض الليل، فذهب فجاء بقربة ماء، فوجدها قد غلبها النوم، فثبت في مكانه والشربة في يده حتى أصبح. قال بعض العلماء: (من وقّر أباه طال عمره، ومن وقّر أمه رأى ما يسرّه، ومن أحدَّ النظر إلى والديه عقهما).

ومن حقوق الوالدين: الدعاءُ لهما، كما كان يقول الصالحون: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]. فهكذا علَّم الله عباده أن يقولوا، وأن يدعوا لآبائهم وأمهاتهم بالرحمة، أحياءً وأمواتًا. قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ادعُ الله لوالديك بالرحمة، وقل: ربِّ ارحمهما، وتعطَّف عليهما بمغفرتك ورحمتك، كما تعطَّفا عليَّ في صغري فَرَحِماني وربَّياني صَغيرًا، حتى استقللتُ بنفسي واستغنيتُ عنهما). اهـ.

وقال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»(١). فبروا -يا عباد الله- آباءكم تبرُّكم أبناؤكم، وبادروا حياتهم بالمبرة، يُختم لكم ولهم -إن شاء الله- بالمسرة، واتقوا الله؛ إن الله كان عليكم رقيبًا.

زُر والِديكَ وقِف على قبريهما ... فكأنني بك قد نُقلتَ إليهما
لو كنتَ حيث هما وكانا بالبقا ... زاراكَ حبْوًا لا على قدميهما
كانا إذا سمِعا أنينَك أسبلا ... دمعيهما أسفًا على خدّيهما
وتمنّيا لو صادفا بك راحةً ... بجميعِ ما يَحويهِ مُلكُ يديهما
فنسيْتَ حقّهما عشيّةَ أُسكِنا ... تحت الثرى وسكنتَ في داريهما
فلتلحقّنهما غدًا أو بعدَهُ ... حتمًا كما لحِقا هما أبويهما
ولتندمنَّ على فِعالِك مثلما ... ندِما هما ندمًا على فعليهما
بُشراكَ لو قدّمتَ فِعلا صالحًا ... وقضيتَ بعضَ الحقّ من حقّيهما
وقرأتَ من آيِ الكِتاب بقدرِ ما ... تستطيعُهُ وبعثتَ ذاكَ إليهما
فاحفظ حُفظتَ وصيّتي واعمل بها ... فعسى تنال الفوزَ من بِرّيهما



---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

حقوق الأبناء على الآباء[1]

الخطبة الأولى:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ حُسْنَ تَرْبِيَةِ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، وَجَعَلَ الأَوْلَادَ وَالأَحْفَادَ وَالزَّوْجَاتِ، وَالإِخْوَةَ الصِّغَارَ وَالأَخَوَاتِ، أَمَانَةً فِي يَدِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ جُمْلَةِ الأَمَانَاتِ، يُسْأَلُونَ عَنْهُمْ يَوْمَ الدِّينِ كَمَا يُسْأَلُونَ عَنْ سَائِرِ الْوَاجِبَاتِ.

نَحْمَدُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فاتقوا الله عباد الله، فالتقوى وصية الله للأولين والآخرين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

عِبَادَ اللهِ: مَنْ رُزِقَ الْـمَالَ وَالْوَلَدَ، فَقَدْ رُزِقَ خَيْرًا عَظِيمًا، وَمَنْ شَكَرَ اللهَ عَلَى نِعْمَتِهِ زَادَهُ مِنْهَا، وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٠-١٤]، وَمِنْ وَقَارِ اللهِ تَعَالَى الْقِيَامُ بِحُقُوقِ هَذِهِ النِّعْمَةِ؛ لأَنَّهُ عَنْ ذَلِكَ يَكُونُ مَسْئُولًا.

صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْـمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا»[2].

أَخِي الْـمُسْلِمَ: كَمَا عَلِمْتَ حُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ وَوَاجِبَ بِرِّهِمَا وَطَاعَتِهِمَا، فَاعْلَمْ أَنَّ لِلأَوْلَادِ حُقُوقًا عَلَى وَالِدَيْهِمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا، وَآدَابًا يَلْزَمُهُمُ الْقِيَامُ بِهَا:

---

(١) عبدالله القرعاوي.

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٨) ومسلم (١٨٢٩).

فَالأَوَّلُ مِنْ ذَلِكَ: تَعْلِيمُهُمُ الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ السليمة، وغرس محبة الله تعالى وخشيته ومراقبته في قلوبهم، فهذا أول الفلاح وأصله وأساسه، وهو ترسيخ لمبادئ الفطرة وصدق الإيمان، وقد قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ» -وَفِي رِوَايَةٍ: «وَيُشَرِّكَانِهِ- كَمَا تَنْتِجُونَ الإِبِلَ، فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا»[١]. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ، حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ»[٢].

الثَّانِي: أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَحَمْلُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ لله وَلِرَسُولِهِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَجْنِيبُهُمُ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ، وَالْمَفَاسِدَ وَالشُّرُورَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦].

وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[٣]، وَالتِّرْمِذِيُّ بِلَفْظِ: «عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلاَةَ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرٍ»[٤].

الثَّالِثُ: حُسْنُ تَرْبِيَتِهِمْ، وَتَأْدِيبُهُمْ بِتَعْلِيمِهِمُ الصِّدْقَ وَالأَخْلاَقَ الْجَمِيلَةَ وَمَكَارِمَ الأَخْلاَقِ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وذكر قصص الأنبياء والصالحين لهم، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْكَذِبِ وَسُوءِ الأَخْلاَقِ، وَمُجَالَسَةِ أَهْلِ الْبَطَالَةِ وَاللَّعِبِ وَالسُّوءِ، عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦] قال: «عَلِّموا أهليكم الخيرَ»[٥]

الرَّابِعُ: وُجُوبُ النَّفَقَةِ عَلَى الأَوْلاَدِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، أَيْ:

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٨).

(٣) صحيح أبي داود (٤٩٥).

(٤) صحيح الترمذي (٤٠٧).

(٥) صحيح الترغيب (١١٩).

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ﴾ -وَهُوَ الأَبُ- ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أَيْ: طَعَامُ الْوَالِدَاتِ، ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أَيْ: لِبَاسُهُنَّ، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أَيْ: بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَمْثَالِهِنَّ فِي بَلَدِهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ إِقْتَارٍ.

وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «خُذِي مِنْ مَالِهِ مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ»[1].

الْخَامِسُ: الْعَدْلُ وَالْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الأَوْلادِ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ فِي الْعَطَاءِ وَالْهِبَةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَهُمْ؛ لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا -أَيْ أَعْطَيْتُهُ- غُلامًا كَانَ لِي. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟»، فَقَالَ: لاَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَأَرْجِعْهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟!»، قَالَ: لاَ. فقال ﷺ: «اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلادِكُمْ»[2].

السَّادِسُ: تَحْسِينُ الاسْمِ، فعن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ الله ﷺ غيَّرَ اسمَ عاصيةَ، وقال: «أنتِ جميلةٌ»[3].

السَّابِعُ: الْعَقِيقَةُ، أَيِ الذَّبِيحَةُ عَنِ الْمَوْلُودِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «عَنِ الْغُلاَمِ شَاتَانِ مُتَكَافِئَتَانِ -أَيْ مُتَسَاوِيَتَانِ سِنًّا وَشَبَهًا- وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ»[4].

الثَّامِنُ: الْمُبَادَرَةُ بِالْخِتَانِ؛ لأَنَّهُ فِي زَمَنِ الصِّغَرِ أَفْضَلُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ...». الْحَدِيثَ[5].

فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللهِ-، وَأَدُّوا مَا أَوْجَبَ الله عَلَيْكُمْ مِنَ الْحُقُوقِ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ لاَ يُهِمُّهُ مِنْ بَنِيهِ إِلاَّ أَنْ يَكُونُوا مُوَظَّفِينَ أَوْ تُجَّارًا أَوْ مُحْتَرِفِينَ، يَكْتَسِبُونَ الْمَالَ وَلاَ يُبَالِي بِهِمْ إِذَا جَمَعُوا الْمَالَ: أَصَالِحِينَ كَانُوا أَمْ أَشْرَارًا، وَقَدِيمًا قِيلَ: أَشْبِعْ وَلَدَكَ وَأَحْسِنْ أَدَبَهُ، وَأَجْمِعْ لَهُ أَدَبًا وَلاَ تَكْتَسِبْ لَهُ ذَهَبًا.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧١٨٠) وَمُسْلِمٌ (١٧١٤).

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٩).

(٤) صحيح ابن ماجه (٢٥٧٧).

(٥) رواه البخاري (٦٢٩٧) ومسلم (٢٥٧).



وَالأَبْنَاءُ وَرَثَةُ آبَائِهِمْ طَبَائِعَ وَآثَارًا، وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَوْلادُكَ فَكُنْ أَنْتَ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا فَإِنَّمَا الْوَلَدُ سِرُّ أَبِيهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

أَسْأَلُ اللهَ تعالى أَنْ يَرْزُقَنَا عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَنَفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ وَلِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرُوهُ وَتُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

الْحَمْدُ لله جَعَلَ التَّقْوَى خَيْرَ زَادٍ، أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهُ، وَالشُّكْرُ وَاجِبٌ لَهُ عَلَى كُلِّ الْعِبَادِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى الله وَسَلَّمَ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ: أَخْوَفُ مَا يُخَافُ عَلَى الصَّغِيرِ سُكُوتُ مُرَبِّيهِ عَلَى قَبِيحِ فِعَالِهِ، وَفُحْشِ لِسَانِهِ، وَإِعْطَاؤُهُ كُلَّ مَا يُحِبُّ، وَاسْتِغْرَاقُهُ فِي اللَّعِبِ، وَتَفْضِيلُهُ عَلَى إِخْوَانِهِ، وَمُرَافَقَةُ الأَشْرَارِ فِي الشَّارِعِ وَالدَّارِ، وَعَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْأَلُوا وَلَكِنِ اسْأَلُوا عَنْ أَقْرَانِهِ.

وَالطِّفْلُ شَاشَةٌ بَيْضَاءُ، يَنْقُشُ الْمُرَبِّي مَا يَشَاءُ عَلَيْهَا مِنْ أَلْوَانِهِ؛ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْكُو إِلَيْهِ عُقُوقَ ابْنِهِ، فَأَحْضَرَ عُمَرُ الْوَلَدَ، وَأَنَّبَهُ عَلَى عُقُوقِهِ لأَبِيهِ وَنِسْيَانِهِ لِحُقُوقِهِ، فَقَالَ الْوَلَدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: أَلَيْسَ لِلْوَلَدِ حُقُوقٌ عَلَى أَبِيهِ؟! قَالَ عُمَرُ: «بَلَى». قَالَ: فَمَا هِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟! قَالَ عُمَرُ: «أَنْ يَنْتَقِيَ أُمَّهُ، وَيُحْسِنَ اسْمَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْكِتَابَ -أَيِ الْقُرْآنَ-». قَالَ الْوَلَدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّ أَبِي لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ أَمَّا أُمِّي فَإِنَّهَا زِنْجِيَّةٌ كَانَتْ لِمَجُوسِيٍّ، وَقَدْ سَمَّانِي جُعَلًا، وَلَمْ يُعَلِّمْنِي مِنَ الْكِتَابِ حَرْفًا وَاحِدًا. فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَى الرَّجُلِ، وَقَالَ لَهُ: «جِئْتَ إِلَيَّ تَشْكُو عُقُوقَ ابْنِكَ، وَقَدْ عَقَقْتَهُ قَبْلَ أَنْ يَعُقَّكَ، وَأَسَأْتَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُسِيءَ إِلَيْكَ».

فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللهِ- فِي أَوْلاَدِكُمْ؛ فَقَدْ وَصَّاكُمُ الله بِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النساء:١١]. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: (وَقَدِ اسْتُنْبِطَ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا؛ حَيْثُ أَوْصَى الْوَالِدَيْنِ بِأَوْلاَدِهِمْ، فَعُلِمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبَتْ ثَدْيَيْهَا، تَسْعَى إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟!»، قَالُوا: لاَ، يَا

رَسُولَ الله. قَالَ: «فَوَالله: للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(١)، وَقَالَ عَبْدُ الله بن عَمْرٍو عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، قَالَ: إِنَّمَا سَمَّاهُمُ الله الأَبْرَارَ، لأَنَّهُمْ بَرُّوا الآبَاءَ وَالأَبْنَاءَ، كَمَا أَنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ).

إِخْوَتِي فِي الله: اتَّقُوا اللهَ فِي أَوْلاَدِكُمْ، وادعوا لهم بالصلاح، وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله، وإن طال النصح فلا تقنطوا، فإن الهداية بيد الله، وقد يكون تأخير هداية الولد نوع من الابتلاء للوالدين، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي بِرُّهُ وَخَيْرُهُ بَعْدَ مَمَاتِ وَالِدَيْهِ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ الْوَالِدُ إِلَيْهِ؛ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٢).

ولدي يا نبضةً في خافقي	ولدي يا فلذةً من كبدي
ولدي يا كوكبًا أرقُبُه	كي أرى فيه ضياء الفرقد
إنْ سألتُ الله يومًا أن أرى	في خريف العُمر أزكى مشهدِ
فشبابٌ صادقٌ في طاعةٍ	طاهرَ النظرةِ، معصوم اليد
أو سألتُ الله يومًا أملًا	قبل أن ألقى الردى في مرقدي
فَلْذَتي يخشعُ في محرابِهِ	ويُباري النَّجم عند السُّؤددِ

وأنتم أيها الأولاد: لا تجعلوا القسوة التي قد تطرأ من ولديكم في بعض الأحيان عذرًا للعقوق، والجفاء ونكران الجميل، فإن لهما حقًا لا يبلغه بركم مهما كنتم بهم بررة، ذلك حين عجزكم وضعفكم في صغركم، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤] فاتقوا الله عباد الله، ولينظر كل امرئ ما عليه من الواجبات قبل أن يطلب ما له من الحقوق، والموفق من وفق للبر والصلة وسلم من العقوق.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

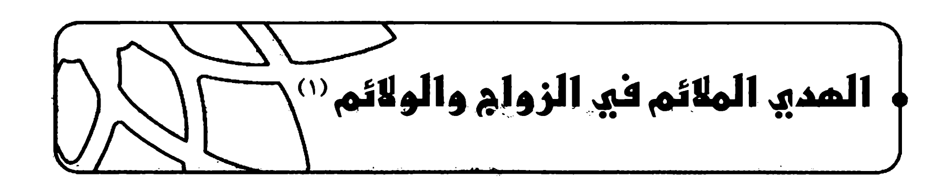
(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٦٣١).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فَأَكْثِرُوا عَلَيْهِ مِنَ الصَّلاةِ يُعْظِمْ لَكُمْ رَبُّكُمْ بِهَا أَجْرًا، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»(١).



---

(١) رواه مسلم (٣٨٤).



الهدي الملائم في الزواج والولائم[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، المتوحد بالجلال لكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرًا وتدبيرًا، المتعالي بعظمته ومجده، الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، سبحانه لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لا تواري منه سماء سماءً، ولا أرض أرضًا، ولا جبل ما في وعره، ولا بحر ما في قعره: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الأتقياء الطيبين، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون.

أما بعد:

فاتّقوا الله عبادَ الله حقَّ التقوى، فتقوى الله طريقُ الهدى، ومخالفتُها سبيل الشّقاء.

أيّها المسلمون: الأسرةُ أساسُ المجتمَع، منها تتفرّق الأمَم والشّعوب، نواةُ بنائِها الزّوجان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]. والشريعة مبناها على الحِكَم ومصالح العباد، دَعَتِ الشبابَ لإعفاف أنفسِهم بالزّواج، قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشرَ الشّباب، منِ استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوّج؛ فإنّه أغضّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطِع فعليه بالصيام؛ فإنّه له وجاء»[2].

---

(١) عبدالمحسن القاسم.

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).

حثَّ الدّين على اختيار الزّوجةِ الصّالحة ذاتِ الخُلُق الرّاقي والتعامل الهادي، لا ترفعُ صوتًا ولا تؤذي زوجًا. والسؤالُ عن حالِ الخاطب والمخطوبة أمرٌ لازم لبيان ما قد يخفى في أحدهما من مثالبَ قادِحة، وعلى المسؤول الصّدقُ في الجواب والبيانُ بكلّ وضوحٍ وأمانة لإبداء خوافي المحاسِن والمساوئ، وكتمانُ معايِب أحدِهما عندَ السؤال ضربٌ من الغشّ للمسلمين.

وإذا عزَم الخاطبُ على الخطبة أبيحَ له النّظر إلى مخطوبته بحضُور محرمِها ودونَ خَلوة بها، من غير تدليسٍ عليه في زينةٍ أو تجمّل، يقول المصطفى ﷺ: «إذا خطبَ أحدُكمُ المرأةَ فإنِ استطاعَ أن ينظرَ إلى ما يدعوهُ إلى نِكاحِها فليفعل»[1].

وليحذَر الخاطب قبلَ العقدِ الخلوةَ بمخطوبتِه أو الحديثَ معها بمهاتفةِ الاتّصال أو إلباسَ المخطوبة خاتمًا أو مسَّ جسدها أو الخروج بها من دارها، فإنّ ذلك من المعاصي وركضةٌ من الشّيطان يغوي بها الخاطبَين، وكثيرًا ما تتبدَّد أحلامُهما بتلك السيّئات.

والإسلامُ دين عدلٍ وقصد، أمَر الشبابَ بالزّواج، وحثّ على تيسير مهرِه، وإذا قلَّ المهرُ علَت المرأة، وشرُفَت عندَ الزوج مكانتُها وزادت بركتُها، وأثرياءُ الصّحابة لم يغالوا في مهورِهم، يقول عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تزوّجتُ على وزنِ نواةٍ مِن ذَهب، ولمّا علِم النبيّ ﷺ عن صداقِه قال له: «بارَك الله لك»[2].

والمَهر حقٌّ للمرأة لا يجوز للآباء أو الأولياء اختصاصُهم به، قال سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [النساء:٤].

وجمالُ المرأة في سترِها، وبهاؤها في حيائها، ورونقُها في عفافِها، والإسلامُ جاء آمرًا بسِتر المرأة، وبعضُ النّساء يقعنَ في المحرّمات في مواطنِ فرح، فتجوّز لنفسِها ما ضاقَ مِن المَلبس، وأخرى تلبسُ ما رقَّ منه ممّا لا يستر جسدَها، ومنهنّ من تُبدي شيئًا من ساقِها وفخذِها، ومنهنّ من لا تستُر أعلى جسدِها، يزيّن لهنّ الشيطان سوءَ عملهنّ.

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٨٢).

(٢) صحيح النسائي (٣٣٧٢) وأصله في البخاري (٣٧٨١).

والمرأةُ لا يحلّ لها أن تبديَ للمرأة إلاّ ما أبيح كشفُه أمامَ محارمِها مِن الرجال ممّا جرت العادةُ بكشفه في دارها مِن الرّأس واليدين والعنُق والقدَمين، ولا تبدِي المرأة عندَ النّساء أكثرَ من ذلك.

ومِن النّساء الجاهلات من تكشِف عورتَها لامرأةٍ أخرى لإزالةِ خوافي شعرِ جسدها، وهذا منكرٌ غليظ، فيه اطّلاعٌ على العورات وخديعةٌ للزّوج وضياع لحقّه في غيبته، عليها تهديدٌ من ربّ العالمين، يقول عليه الصلاة والسلام: «أيّما امرأةٍ وضعت ثيابَها في غير بيتِ زوجِها فقَد هتكت سترَها فيما بينها وبين الله»[1].

هذا بالإضافة إلى ما يترتب على ذلك من وقوعٍ فيما يُخشى من الشر والضرر، كالعين والسحر ونحوه مما يتسبب به الاطلاع على ما أمر الله بستره من العورات رحمة منه وحكمة، ولله الحكمة البالغة والحجة الدامغة..

والدّين وسطٌ في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، يُعلن النكاحَ ولا يقَع في المحذور، ومِن النّساء من تتباهى في زينةِ الملبَس والتبرّج والتجمّل، تبدِّد الأموالَ وتهدر الأوقات بشهرةٍ زائفة أو رياءٍ ممقوت.

واحذري أيّتها المرأة مِن الخُيَلاء في الملبَس، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بينما رجلٌ يمشي في حلّةٍ تعجِبه نفسُه مرجِّلٌ رأسَه يختال في مشيَته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[2].

والمرأة المسلمةُ متميِّزة بزينتِها وملبسِها وشعرها، بعيدةٌ عن تشبّهها بالرّجال أو غير المسلِمات، وتشبُّهُها بغير جنسِها يعرّضها للوعيد، فقد لعن رسول الله ﷺ المتشبّهات من النّساء بالرجال، ولكلّ جنسٍ من الرّجال والنّساء خصائصُه وأحواله وملبسُه وزينتُه. المرأة تفخَر بأنوثتِها، والرّجل يعتزّ برجولتِه، وفي التّقليد ضعفٌ في النّفس وعدمُ رضًا بالخصائِص ونقصٌ في إدراكِ حكمةِ الخالِق.

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣٠٣٦).

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨).

وحواجبُ العينين زينةٌ مِن ربّ العالمين، وبعضُ النّساء تعمد إلى إزالةِ بهاء وجهِها وجمالِ عينيها بنتفِ حواجبها، وقد لعن الله مَن أزالت شعرَ حاجبها، يقول النبي ﷺ: «لعن الله النامصةَ والمتنمِّصة»[1].

وبعض النّاس لضعفٍ في النّفس مولَع بالتّقليد، يضاهي غيرَه حتى في أفراحه، والرّجل محرّم عليه رؤيةُ المرأة الأجنبيّة في النكاح وغيره، ودخول الزّوج ليلةَ الزفاف على النساء الأجانب وجلوسُه على علوٍّ مع زوجتِه وهو يتطلّع إلى نساءِ المسلمين بكامِل زينتهنّ منكرٌ رذيل، يقول النبيّ ﷺ: «إيّاكم والدخول على النّساء»[2].

وجلوسُ الزّوج مع زوجته أمامَ النّساء تقليدٌ مقيت، دافعه الهوى، وظاهرهُ الخُيَلاء، وثمرتُه الشّقاء، فما حالُ الزّوجين أمام النساء وهنّ ينظرنَ إليهما؟! والناظر للزّوجين مِن الحضور ما بين شامتٍ في الخِلقة، وما بين حاسدٍ على النعمة، تقول فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «خيرٌ للمرأة أن لا ترى الرجالَ ولا يراها الرّجال».

وإرخاءُ ذيلٍ طويل يُحمَل خلفَ الزّوجة ليلةَ زفافِها تشبّهٌ بغير المسلمين، حرامٌ عليها فعلُه.

والمعازِف والغناءُ لا تدني من الربّ، ومن أسبابِ قسوةِ القلب، حجابٌ كثيف عن الرحمن. وما يفعله بعضُ النّاس من المعازف ليلةَ النكاح جحودٌ لنِعمة الله وعصيانٌ له، ومِن السّرف استئجار عازفةٍ للغناء لعصيان ربِّ العالمين في دُجى السَّحَر زمنِ نزول العظيم جَلَّجَلَالُهُ إلى السّماء الدنيا، والعُبّاد في محاريبهم.

والمسلمُ حرامٌ عليه حضورُ مناسبةٍ فيها منكر، يقول الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تدخلْ وليمةً فيها طبلٌ ومعازف). وفي أحكام الإسلام غنيةٌ عن الحرام، ودينُنا أباح ضربَ الدفّ للنّساء خاصّة في وقتٍ مِن اللّيل بكلامٍ لا محذورَ فيه.

---

(١) صحيح الجامع (٥٠٩٤).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢).

والتّصوير مِن كبائرِ الذّنوب، موجبٌ للّعنة والغَضب، قال عليه الصلاة والسلام: «لعن الله المصوِّرين والمصوِّرات»[1] والمصوّر أشدّ الخلقِ عذابًا، قال ﷺ: «أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة المصوّرون»[2].

وتصويرُ النّساء يجني مفاسدَ وخيمة، وقد تَسري صوَرُ النّساء إلى غير المحارم من الرّجال، فتنهار بذلك بيوت، والأبُ اللّبيب من يمنعُ زوجتَه وبناته من ورود أماكنِ التّصوير.

والعدلُ في المأكل والمَشرب وعدم البذَخ فيه دأبُ الفضلاء، سنّةُ خيرِ البشر، تصِف صفيّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وليمتَه بقولها: أولمَ النبيّ ﷺ على بعضِ نسائِه بمدَّين من شعير.

ومِن مجانبةِ الصّواب أن تكونَ مبذِّرًا في الزّواجِ، شحيحًا في البذل في أوجُه الخيرات.

وتكرار ولائِم مناسبات النّكاح في ظاهرها أفراح، وفي حقيقتِها على الزّوج أتراح، للخطبةِ وليمةٌ، وفي يوم إلباس المخطوبة خاتمًا من قِبل خاطبِها مأدُبة، مع أن مسّ يدها محرّم، وليلة عقد النكاح دعوة، وفي ليلةِ الزّفاف مآكلِ ومشارب متنوّعة، إرهاقٌ لمؤونَة الزّوج، هل مَن يسعى لبِناء بيتِ زوجيّة مُحاطٍ بالسّتر والعفاف تُستنزَف أمواله أم تخفَّف عنه الأعباء لإضافةِ لبنةٍ صالحة في المجتمع؟! والاكتفاءُ بوليمة واحدةٍ ليلةَ الزفاف أحبّ للزّوجين وأسلم وأكملُ وأوفق.

والله عَزَّوَجَلَّ جعل الليلَ لباسًا والنومَ سُباتًا، والنبيّ ﷺ كان يكرَه النومَ قبل العشاء والحديثَ بعدها. متفق عليه.

ولحظات الفرَح يُظهر التعبير عنها من غير سهَر فاحِش، وإعلانُ النكاح لا حاجة إلى امتداده إلى السَّحر، وساعاتٌ في الليل غنيةٌ عن جميعه.

---

(١) رواه البخاري (٥٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٠) ومسلم (٢١٠٩).

أيّها المسلمون: فمَن أسّس بنيانَه على التّقوى أزهى وأربى، ومن أحاطه بالمحرّمات أذِن بحلول الشّقاء، والزّوجان يستويان في لظى العِصيان ليلةَ زفافِهما، يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنّي لأعصِي الله فأرَى ذلك في خلُق امرأتِي ودابّتي).

والمرأةُ الحاذِقة لا تزلزل بيتَها بمعصيةِ الله أوّلَ ليلتِها، فالذّنوب تعسِّر الأمورَ، وتوحِش القلبَ بين الزّوجين، وكلّما كان الزّواج أقربَ إلى الصّواب كانَ أحرى بالتّوفيق.

وجملة المخالفات في النّكاح داعيها عُقدةُ الشّعور بالعَجز والنّقص، وبعضُ النّاس قد لا يدرك حقيقةَ النّكاح، يظنّ أنّ مِن مستلزماتِه البذخ والتفنّن في المآكل والتّباهي في الملابس، وليس الأمر كذلك، بل النّكاح عقدٌ موثّق غليظ بين زوجين، لا يُشاب بخطيئةٍ، ولا يعرَّض للانهيار بمعصية.

وعلى الآباء أن لا يُرخوا العنانَ للنّساء لارتكاب المعاصي بما يزيد النّكاح عقبات. والمرأةُ مستضعَفةٌ، إن لم تُؤخذ بِيَد وليِّها جنحت مع نفسِها لهواها، وعلى النّساء الإذعان لأوامِر الله وعدمُ الوقوع في المحرّمات، وعلى المرأة أن تشتغل بمعالي الأمور لإصلاح قلبها في طاعة ربّها، فموطنُها أمٌّ وراعية أسرةٍ وموجِّهة، ينبغي أن تُعليَ مِن فِكرها، وترقَى باهتماماتِها، فاليومَ عملٌ ولا حِساب، وغدًا حسابٌ ولا عمَل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإيّاكم بما فيه من الآيات والذّكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشّكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أنّ نبيّنا محمّدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه.

أمّا بعد:

أيّها المسلمون: الإسلامُ هو منبَع الحضارةِ والسُّؤدَد، والتمسُّك بِه يثمِر الرُّقيَّ والتقدّم، يبني الأمَمَ، وينشئ الأجيالَ بأمثل السّبُل، يسّر مسالكَ النّكاح ودروبَ المودّة بزواج سعيدٍ يبهج الزوجَين وأهلها، ويسرُّ المجتمع بأكملِه.

يختار الزوج امرأةً ذات دين وخلقٍ راق وأدبٍ رفيع، وإذا تقدّم خاطبٌ كفءٌ متّسمٌ بالدين والخلُق لم يردّ، وبعدَ استشارةٍ لذوي النّهى واستخارة وعزمٍ على الاختيار يرى الخاطبُ مخطوبتَه بحضورِ محرمِها. ومع انشراحِ صدرٍ وتوكُّل يُعقد النّكاح، وفي ليلةِ الزّفاف فرحٌ معتدِل، لا مباهاةَ فيه ولا مفاخرة، يُعلَن فيه النّكاح ويدعَى إليه ويصنَع طعامٌ بقدرهم، لا إسرافَ فيه ولا تبذير، وتُزَفّ المرأة إلى زوجها، والمرأةُ الواعيَة ذات العقلِ الرّاجح والروح السامية تسعى إلى منعِ المحرّم في زواجِها لعلمِها أنّ المعصيةَ لها أثرٌ على حياتِها مع زوجها. والإسلامُ يسّر النكاحَ وسهّل أبوابَه على الشّباب، النبيّ ﷺ تزوّج صفيّةَ وهو في سفر، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حتّى إذا كان بالطّريق جهّزتها له أمّ سليم، فأهدتها له في اللّيل، فأصبح النبيّ ﷺ عروسًا».

ومِن قبائِح الصّنائع تأخيرُ الأبِ تزويجَ ابنته مع تقدُّم الكفءِ لها، أو حجرها على أحد دون غيره بلا رضا منها، فأين الرفق بالقوارير؟ وأين الرفق بالأهل؟ وأين المشورة؟ وأين التوازن التربوي؟

واعلم أيّها الأب الذي يؤخر زواج ابنته بلا طائل؛ أنّ ابنتَك مستضعفة في دارِك، منعَها حياؤها من إبداء مكنونِ نفسها، تصبح أسيفةً وتمشي حزينة، تتألّم من دخول بوّابة العنوسة، والمرأةُ زهرة لها زمن قصيرٌ ثمّ تذبُل، ومِن الهدي القويم تزويجُها في سنّ مبكِّرَة، ولا غضاضة

في عَرض الرّجل ابنتَه أو أختَه على الرّجل الصالح، وهذا من تمام الرّعايـة والقيـام بالولايـة، وعمرُ الفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عرض ابنتَه حفصة على عثمان فردّها وما غضِـب، فعرضـها عـلى أبي بكر فردّها وما أيِس، فعرضها على النبيّ ﷺ فتزوّجها. رواه البخاري.

ومنعُ الآباء الخاطبَ ذا الدين والخلُق مخالفٌ لأمرِ الشّريعة، يقول النبيّ ﷺ: «إذا جاءكم مَن ترضون دينَه وخلقه فزوِّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد عريض»[1].

فالرَشَد في اتِّباع الهُدى، واللّبيب من رجَا السعادةَ من أبواب الطاعة، والسعادة في مرضاة الله تعالى واتباع رسوله، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

ثمّ اعلموا أنّ الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيّه فقال تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهمَّ صلِّ وسلِّم على نبيِّنا محمّد، وارض اللهمّ عن خلفائه الراشدين.



(١) صحيح الترمذي (١٠٨٤).

الحقوق الزوجية [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، أمر ووصى، وشرع فأحكم، وهو العليم الخبير، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا معقب لحكمه وإليه المصير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أنار السبيل، وأوضح الطريق، وهدى إلى النهج القويم، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حق التقوى، فبالتقوى كل حبلٍ يقوى.

أيها المسلمون: في أحضان الأسرة المتماسكة الملتزمة بأحكام الله تنمو الخلال الطيبة، وتنشأ الخصال الكريمة، ويعيش الصبية الصالحون حيث تفشو المودة، وتنتشر الرحمة في جنبات هذا البيت الكريم، متمثلًا فيه قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١].

إن المودة والألفة هي قوام الأسرة، وإن أجلى مظاهرها وأوضح أسبابها حسن العشرة، ولزوم الطاعة، والتواصي بين الزوجين بالخير، وجميل الخلق، فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخير المؤمنين خيرهم لنسائهم، والمرأة إذا صلت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبوابها شئت.

عباد الله: إن من أسباب سعادة الزوجين قيام كل منهما بما يجب عليه نحو صاحبه، فقيام الزوج بالواجب عليه، وقيام المرأة بالواجب عليها، يكفل للبيت السعادة والهناء بتوفيق من الله.

---

(١) عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ.

والله جل وعلا في كتابه العزيز قد بين للزوجين الواجب على كل منهما فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨]، فأخبر تعالى أن للزوجة حقًا كما أن عليها واجبًا، وللزوج حق كما أن عليه واجبًا.

فالحق الواجب على الزوج نحو امرأته الإنفاق عليها، كسوتها، التعامل معها بالمعروف، كفُّ الأذى، حسن العشرة، وقد سأل رجل النبي: «ما حق امرأة الرجل عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبِّح، ولا تهجر إلا في الفراش»[1]، فهذه خمس خصال:

أولًا: أمره أن يطعمها إذا طعم، فيوفر لها الطعام، وأمره أن يوفِّر لها الكسوة، ثم نهاه عن ضربها في الوجه؛ لأن الضرب في الوجه فيه إهانة وإذلال، ووجه الإنسان أشرف أعضائه الظاهرة، فلا يجوز تشويهه بضربه، ويمكن الأدب في غير ذلك، ونهاه أن يقبِّح أي: أن يقول كلمة قبيحة، نحو: قبَّحكِ الله أو غيره من الألفاظ البذيئة، فإن الألفاظ السيئة تجرح القلب أعظم من الضرب، ولذا يقول الله جل وعلا: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣].

ونهاه عن الهجران إلا في الفراش، بمعنى: إذا أراد هجْرها هجَرها بترك المبيت معها، وأما هجرٌ بترك الكلام والمحادثة فهذا نهى عنه النبي، فبقاؤهما معه من دون حديث صاحبهما للآخر يزيد في الجفاء، ويبعد كلًا منهما عن الآخر، فإن الأحاديث الودية مما يُكسب القلب محبة ومودة من كل منهما لصاحبه.

وأما إذا دخل وخرج، لا يكلمها ولا يلتفت إليها، لا يسمع منها قولًا، ولا يُسمعها قولًا، فهذا أمر نهى عنه النبي، لأنه يحدث تصدُّعًا في الحياة الزوجية، وبعد كلٍ منهما عن الآخر، والله تعالى يقول أيضًا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩]، وقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة:٢٣١].

---

(١) صحيح أبي داود (٢١٤٢).

فانظر إلى أن ربنا جل وعلا أرشد الزوج إذا طلق المرأة، وأراد العود إليها، فليكن بقصد الإصلاح، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٣١]، ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقطاع العدة، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بمعنى: استرجعوها لتكون الرجعة بالمعروف أي: ناويًا العشرة بالمعروف، لا جاعلًا الرجعة سببًا للعذاب والألم، ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فدعها تنقضي عدتها، ولعل الله أن يعوضها خيرًا ويعوضك خيرًا.

وأما إمساك لأجل الإضرار والظلم والعدوان، فهذا نهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١] أي: لا تمسكوهن وتراجعوا المرأة ضرارًا لأجل أن تعتدي عليها، أو أن تظلمها وتسيء إليها، فذاك محرم في شريعة الإسلام، والعدوان قد نهى الله عنه، ولا يحلّ للرجل أن يعتدي عليها بالإيذاء والإضرار، فذاك أمر لا يليق بالمسلم السامع والمطيع لله ورسوله.

ونبينا قد أرشد الأزواج -أيضًا-، أرشد الزوج إلى المعاملة الحسنة مع المرأة، فأخبرهم أن من كمال الإيمان حسن الخلق، فقال: «أكمل المؤمنين إيمان أحسنهم خلقًا، وخيركم خيركم لأهله»، «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[1].

فإن حسن الخلق وحسن التعامل يدلّ على كمال الإيمان وقوته، وسوء العشرة وسوء المعاملة وعدم الوفاء يدل على نقص في الإيمان، ولذا قال نبينا: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، ثم قال: «وخيركم خيركم لأهله»، وخير الناس من كان خيره لنسائه، التعامل الحسن، والقيام بالواجب، والبعد عن كل ما يكدّر صفو العشرة وينغصها.

ويبين في موضع آخر أن الرجل يجب أن يكون المستحمل للأخطاء، ويجب أن يكون الصبر والتحمل من أخلاقه، فهو أقوى من المرأة تحملًا، والمرأة ضعيفة، وقد يكون منها الخطأ، لكن تحمّلُ الرجل وصبره هو المطلوب منه، فإنه القيّم عليها، وما دام القيم فلا بد من صبر وتحمل، فيقول: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»[2].

---

(١) صححه الألباني في كتاب الإيمان لأبي عبيد (٢٨).

(٢) رواه مسلم (١٤٦٩).

لا يبغضها ويكرهها فإنه قد يكون فيها خلق غير مناسب، ولكنها تشتمل على خلق طيب أيضًا، وهكذا حال الإنسان، فالكمال في المخلوق غير ممكن، لا من الرجل ولا من المرأة، فإن كرهت منها خلقا من الأخلاق فلا بد أن ترتضي منها خلقا غيره، وأما إذا كنت تعاتب على كل نقص، وتريد الكمال في كل الأحوال، فذاك طلب المستحيل، ومن كثر عتابه قلّ أصحابه.

ويبين أيضًا ذلك بوضوح جلي فيقول فيما ترويه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «خيركم خيركم لأهله» ثم قال: «وأنا خيركم لأهلي»، فمحمد خير الناس لأهله، صبرًا وتحملا وإكرامًا ومعاملة بالحسنى، آلى شهرًا منهن لما حصل منهن ما حصل، ومع هذا كان يعاملهن بالحسنى، وتخبر عائشة لما سئلت: ماذا كان يفعل في بيته؟ قالت: كان في حاجة أهله، فهو من أحسن الناس خلقًا، وأحسنهم تعاملًا صلوات الله وسلامه عليه أبدًا دائمًا إلى يوم الدين.

وهو أرشد الأزواج إلى أمر عظيم، وهو أن المرأة من طبيعتها الضعف وقلة القيام بالواجب المطلوب، إن من طبيعتها الضعف فقال: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته فلا يزال به عوج، فاستوصوا بالنساء»[1].

فهذا توجيه للرجل أنه لُفِت نظره إلى تركيبة المرأة الضعيفة، وربما يكون منها سوءٌ في شيء من الأخلاق، أو قلة قيام بواجب، فلا تنظر إليها إلا نظر من يعرف وضعها وحالها، وأنك إذا أردت أن تقيم الاعوجاج فإن ذلك يستحيل عليك.

وأخبر أيضًا أن المرأة خلقت من ضلع، وأنها لا تستقيم لك على طريقة واحدة، إذا تعوِّد نفسك على الصبر والتحمل وعدم الضجر مما عسى أن تجده من بعض أخلاقها، لتنتظم الحياة الزوجية، ويتربى الأطفال في حضن الأبوين، في محبة ومودة وقيام بالواجب.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨).

أيها المسلمون: ونبينا إذ وجّه الأزواج إلى هذه الأخلاق العالية والصفات الطيبة، أرشد أيضًا النساء الزوجات إلى ما يجب عليهن نحو الأزواج، فأخبر المرأة المسلمة أن رضا زوجها عنها من أسباب دخولها الجنة،

فيقول مبينًا أن المرأة إذا قامت بحق زوجها نالت الثواب العظيم، فيقول: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت بعلها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت»[1]، هذا وعد من رسول الله لتلكم المرأة المؤمنة المصلية الصائمة الحافظة فرجها، المطيعة زوجها، أنها تخيّر أي باب من أبواب الجنة تدخل منه، فضلًا من الله وكرمًا وجودًا.

أيتها المرأة المسلمة: ولكن رسول الله حذرك من العصيان والتمرد على الزوج، ورتب على هذا وعيدًا شديدًا ترتعد منه فرائص المرأة المؤمنة التي تخاف الله وتتقيه، فيقول: «إذا دعا الرجل امرأته للفراش فلم تجبه، فبات ساخطًا عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»[2].

هذا وعيد شديد للمرأة إذا عصت زوجها، وخالفت أمره، فإنها متوعَّدة بأن تلعنها ملائكة الرحمن حتى تصبح، وعيد شديد في غاية القسوة والشدة، مما يدعو المرأة المؤمنة إلى السمع والطاعة وبذل المعروف لزوجها والقيام بحقه.

ويوجه المرأة المسلمة إلى الطاعة للزوج فيقول: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»[3].

أيتها المرأة المسلمة: إنك راعية في بيت زوجك، يقول: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، الخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته»[4].

---

(١) صحيح الجامع (٦٦٠).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٧) ومسلم (١٤٣٦).

(٣) السلسلة الصحيحة (٣٣٦٦).

(٤) رواه البخاري (٨٩٣).



ويقول مبينًا فضل المرأة المستقيمة على الخلق الكريم لما قيل له: أيُّ النساءِ خيرٌ؟ قال: «التي تسرُّه إذا نظر، وتطيعُه إذا أمر، ولا تخالفُه في نفسِها ومالها بما يكره»، فتحفظ عرضها، وتصون فراش زوجها، وتحفظه في ماله فلا تتعدى على ماله بغير حق؛ لأنها راعية ومؤتمنة، فمن لازم ذلك حفظ حقوق الزوج بكل المعنى.

فلنتق الله في أنفسنا، ولنطبق شرع الله علينا، لننال السعادة والخير، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حق التقوى.

أيتها المرأة المسلمة: إن من أسباب مودة الزوج لك -أيضًا- أن تكوني امرأة صالحة مصلحة، تسعين في جمع الكلمة، ولَمِّ الشعث، وجمع شتات الأسرة، فلا تكوني امرأة مسيئة، وامرأة سيئة الخلق، لا تكوني امرأة ساعية بالشر بين الزوج وأهله، ومفرقة بينه وبين أولاده، أو مفرقة بينه وبين أبويه.

فبعض النساء الصالحات هي خير على البيت وبركة عليه، تراعي من هو أكبر سنًا من أب وأم، وتراعي حق الأولاد للزوج من غيرها، وتسعى في جمع الكلمة، وأن يكون البيت بيتًا فيه ارتباط وتعاون وصلة بعضهم ببعض، فهي ليست نمامة، ولا مغتابة، ولا شريرة، ولكنها المرأة المؤمنة، هي بركة على زوجها وعلى البيت الذي تحل فيه.

فأم الزوج لها احترام، وأبو الزوج له احترام، والزوج له احترام، والأولاد من غيرها لهم احترام، فهي إذًا مصدر خير وصلاح، ونعمة ورحمة، تلك المرأة الصالحة التي إن فُقِدت ذكرت، وإن ماتت تُرحِّم عليها، وذُكرت بالخير في كل خصالها.

ولا يليق بالمرأة المسلمة أن تكون سيئة الخلق، سريعة الغضب، تجلس مع زوجها فتملي عليه كل سوء، وتحسّن له كل قبيح، تدعوه إلى القطيعة للأبوين، وإلى ظلم الأولاد، وتحمل إليه غيبة ونميمة، حتى تملأ قلبه حقدًا على الأبوين وعلى الأولاد من غيرها، بل قد يتعدى شرها إلى القطيعة بين الرجل وأهل بيته ورحمه.

فكوني -أختي المسلمة- على خلاف ذلك، اتقي الله وأحسني لمن هو عندك، فإن الإحسان والمعروف لن يُنسى ولن يُعدم، وستجدين غِبَّ ذلك في زوجات الأولاد وتعاملهن معك، وأما إن قدمت الشر والبلاء؛ فإن العواقب السيئة ستلحق بك شئت أم أبيت.

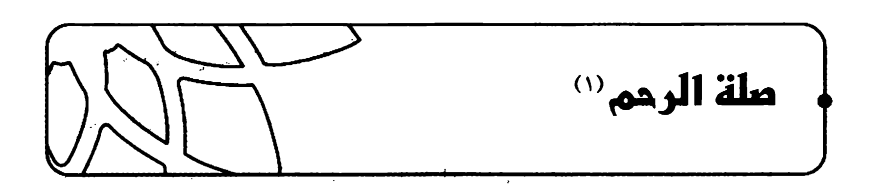
قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن زوجته حينما ماتت: (مكثت عندي ثلاثين سنة، والله ما اختلفت أنا وهي في كلمة!).

ويا أيها الزوج: حيال تلك المشاكل التي قد تحدث في البيوت أحيانًا يجب أن تتحلى بالصبر والحلم والأناة، لا تنقاد لوساوس المرأة، ولا تنقاد أيضًا إلى ما قد يُفترى عليها من غيرها، فكن متوازنًا، للأبوين حق البر والإحسان، وللزوجة حق القيام بالواجب.

فكن في اتزان في الأمور، وعالج القضايا بحكمة وبصيرة، وحلم وأناة، وتروٍّ في الأمور، وصبر على الأشياء، وحاول تضميد الجراح، وحاول تناسي كل الأمور، وحاول الربط بين الجميع بحكمة وبصيرة، فإن ذلك واجبك، والمسلم إذا ابتلي تحلى بالصبر، والصبر طريق للخير.

أسأل الله أن يوفق الجميع لما يرضيه، وأن يعيننا وإياكم على القيام بما أوجب علينا، إنه على كل شيء قدير.





صلة الرحم[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرا، وأوجب صلة القربى وأعظم في ذلك أجرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فاطر السموات العلى، ومنشئ الأراضين والثرى، أحمده جل وعلا على ما أولى، واشكره تعالى على ما أسدى، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أعظم الناس قدرا وأرفعهم ذكرا، صلى الله وأصحابه أولي الفضل والنهى، وعلى التابعين وسلم تسليما كثيرًا..

أمّا بعد:

فاتّقوا الله عبادَ الله حقّ التقوى، فبتقوى الله تُستجلَبُ النّعم، وبالبُعد عنها تحلّ النقَم.

أيّها المسلمون: يهدِف الإسلام إلى بناءِ مجتمعٍ إسلاميّ متراحمٍ متعاطِف، تسودُه المحبّةُ والإخاء، ويهيمِن عليه حبّ الخيرِ والعَطاء.

والأسرةُ وحدة المجتمع، تسعَد بتقوى الله ورعايةِ الرّحِم، اهتمّ الإسلامُ بتوثيق عُراها وتثبيتِ بنيانها، فجاء الأمر برعايةِ حقّها بعدَ توحيد الله وبرّ الوالدين، قال جلّ وعلا: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء:٣٦]. وقُرِنَت مع إفراد الله بالعبادةِ والصّلاة والزّكاة، عن أبي أيّوب الأنصاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: أخبِرني بعملٍ يدخلني الجنّة، قال: «تعبد الله ولا تشرِك به شيئًا، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاةَ، وتصِلُ الرّحم»[2]

(١) عبدالمحسن القاسم.

(٢) رواه البخاري (١٣٩٦) ومسلم (١٣).

أُمِرَت الأمم قبلَنا بصِلة أرحامِها، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [البقرة:٨٣]، ودَعا إلى صِلتها نبيّنا محمّد ﷺ في مَطلع نبوّته، قال عمرو بن عبَسَة: قدمتُ مكّةَ أوّلَ بعثةِ النبيّ ﷺ، فدخلتُ عليه فقلت: ما أنت؟ قال: «نبيّ»، قلت: وما نبيّ؟ قال: «أرسَلَني الله»، قلت: بِمَ أرسلك؟ قال: «بصلةِ الأرحام وكسرِ الأوثان وأن يُوحَّد الله»(١)

وسأل هرقل أبا سفيان عن النبيّ ﷺ: ما يقول لكم؟ قال: يقول: «اعبُدوا الله وحدَه ولا تشركوا به شيئًا»، ويأمرنا بالصّلاة والصِّدق والعَفاف والصّلَة.(٢)

وأمَر بها عليه الصلاة والسلام أوّلَ مقدمِه إلى المدينة، قال عبد الله بن سلام: لمّا قدم النبيّ ﷺ المدينةَ انجفلَ الناس إليه أي: ذهَبوا إليه فكان أوّل شيء سمعتُه تكلّم به أن قال: «يا أيّها الناس، أفشوا السّلام، وأطعِموا الطّعام، وصِلوا الأرحامَ، وصَلّوا بالليل والنّاس نِيام، تدخلوا الجنّة بسلام»(٣). وهي وصيّة النبيّ ﷺ، قال أبو ذر: «أوصاني خليلي بصِلة الرّحم وإن أدبَرت»(٤).

صِلة ذوي القربَى أمارةٌ على الإيمان، «من كان يؤمِن بالله واليومِ الآخر فليصِل رحِمَه»(٥). وقد ذمّ الله كفّارَ قريش على قطيعةِ رحِمِهم فقال عنهم: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة:١٠].

القيامُ بها برٌّ بالوالدَين وإن كانوا أمواتًا، فعن عبدالله بن دينار أنَّ رجلًا من الأعرابِ لقِيَ عبدالله بن عمر بطريقِ مكةَ، فسلَّم عليه عبدُ الله، وحمله على حمارٍ كان يركبُه، وأعطاه عمامةً كانت على رأسِه، فقال ابنُ دينارٍ: فقلنا له: أصلحَك اللهُ! إنهم الأعرابُ وإنهم يرضَون

(١) رواه مسلم (٨٣٢).

(٢) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

(٣) صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٤) صحيح الترغيب (٢٥٢٥).

(٥) رواه البخاري (٦١٣٨) ومسلم (٤٨).

باليسيرِ. فقال عبدُ الله: إنَّ أبا هذا كان وُدًّا لعمرَ بن الخطابِ، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أبرَّ البرِّ صلةُ الولدِ أهلَ وُدِّ أبيه»[(١)].

خلق الله الرحمَ، وشقَقَ لها اسمًا من اسمِه، ووعَد ربُّنا جلّ وعلا بوصلِ مَن وصلَها، ومَن وصَله الرحيمُ وصلَه كلُّ خير ولم يقطَعه أحد، ومن بَتَره الجبّار لم يُعلِه بشرٌ وعاشَ في كَمَد، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

والله يُبقي أثرَ واصلِ الرّحم طويلًا، فلا يضمحِلّ سريعًا كما يضمحِلّ أثر قاطعِ الرّحم، قال النبيّ ﷺ: «قال الله للرّحم: أما ترضينَ أن أصلَ من وصلك وأن أقطعَ من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك»[(٢)]، «والرحمُ معلّقة بالعرش تقول: مَن وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[(٣)].

صلةُ الرّحم تدفَع بإذن الله نوائبَ الدّهر، وترفع بأمرِ الله عن المرء البَلايا، لّما نزل على المصطفى ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١] رجع بها ترجف بوادرُه حتّى دخل على خديجةَ فقال: «زمّلوني»، فأخبرَها الخبَر، وقال: «قد خشيتُ على نفسِي»، فقالت له: كلاّ والله، لا يخزيكَ الله أبدًا؛ إنّك لتصلُ الرّحم، وتحمِل الكَلّ، وتكسِب المعدومَ، وتَقري الضّيف[(٤)].

أمَرَ الله بالرّأفة بهم كما نرأَف بالمسكين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء:٢٦]. حقُّهم في البذلِ والعطاء مقدّمٌ على اليتامَى والفقراء، قال سبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:٢١٥]. السخاءُ عليهم ثوابٌ مضاعفٌ من ربِّ العالمين، قال عليه الصّلاة والسّلام: «الصدقةُ على المسكين صدقة، وعلى القريب صدقةٌ وصِلة»[(٥)]

(١) رواه مسلم (٢٥٥٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٧) ومسلم (٢٥٥٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٥).

(٤) رواه البخاري (٦٩٨٢).

(٥) صحيح الترغيب (٨٩٢).

وأوّلُ مَن يُعطَى مِن الصدقةِ هم الأقربون مِن ذوي المَسكنَة، تصدّق أبـو طلحـة رَضِوَاللَّهُعَنهُ ببستانِه، فقال له النبيّ ﷺ: «أرَى أن تجعلَها في الأقربين»، فقسمَها أبو طلحة على أقاربِه وبني عمّـه[1]. يقـول علـيّ رَضِوَاللَّهُعَنهُ: «لأن أصِـل أخًـا مِـن إخـواني بـدِرهم أحـبّ إليّ مـن أن أتصدّق بعشرين درهمًا».

الباذلُ لها سخيُّ النّفس كريم الشّيَم، يقول الشعبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما ماتَ ذو قرابـةٍ لي وعليـه دينٌ إلاّ وقضيتُ عنه دينه).

الجارُ من ذوي الأرحام أخصُّ بالرّعاية والعنايةِ مِـن غـيره، قـال سـبحانه: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء:٣٦].

دعوتُهم وتوجيهُهم وإرشادهم ونُصحهم ألزمُ مـن غـيرِهم، قـال جـلّ وعـلا: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]. وإكرامُ ذوي القرابـاتِ مـأمور بـه عـلى أن لا يكـونَ في التّقـديم بخـسٌ لأحـدٍ أو هضـمٌ لآخـرين، قـال سـبحانه: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

في صلةِ الرّحم ثمراتٌ هي أُسُسٌ في بِناء الحياة؛ محبّة الأهل، بَسط الـرّزق، بركـةُ العُمـر، يقول ﷺ: «صِلة الرّحم محبّةٌ في الأهل، مثراة في المالِ، منسَـأَة في الأثـر»[2]، وعنـد البخـاريّ ومسلم: «من أحبَّ أن يُبسَط له في رزقه ويُنسَأ له في أثَره فليصِل رحمَه»[3]، قـال ابـن التّـين: (صلةُ الرّحم تكون سببًا للتوفيقِ والطاعة والصيانة عن المعصيةِ، فيبقى بعدَه الـذكرُ الجميـل فكأنّه لم يمُت).

صِلتُها عبادةٌ جليلة مِن أخصِّ العبادات، يقول عمرو بـن دينـار: (مـا مِـن خطـوة بعـد الفريضةِ أعظمُ أجرًا من خطوةٍ إلى ذي الـرّحم). ثوابُهـا معجَّـل في الـدنيا ونعـيمٌ مـدَّخرَ في الآخرة، قال ﷺ: «ليس شيء أُطِيع الله فيه أعْجَل ثوابًا من صِلةِ الرحم»[4].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٢) ومسلم (٩٩٨).

(٢) صحيح الترغيب (٢٥٢٠).

(٣) رواه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧).

(٤) السلسلة الصحيحة (٩٧٨).

والقائمُ بحقوقِ ذوي القربَى موعودٌ بالجنّة، يقول عليه الصلاة والسلام: «أهلُ الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مُقسط، ورجلٌ رحيم رقيقُ القلب بكلّ ذي قُربى ومسلم، ورجلٌ غنيّ عفيف متصدِّق»[1].

بصلتِهم تقوَى المودَّة وتزيدُ المحبَّة وتتوثَّق عُرى القرابةِ وتزول العداوة والشّحناء، فيها التعارفُ والتواصلُ والشعور بالسّعادة.

صِلة الرّحم والإحسان للأقربين طرقُها ميسَّرة وأبوابها متعدِّدة، فمِن بشاشةٍ عند اللّقاء ولينٍ في المُعاملة، إلى طيبٍ في القول وطلاقةٍ في الوجه، زياراتٌ وصِلات، مشاركةٌ في الأفراح ومواساةٌ في الأتراح، وإحسان إلى المحتاج، وبذلٍ للمعروف، نصحُهم والنّصح لهم، مساندةُ مكروبِهم وعيادة مريضهم، الصفحُ عن عثراتهم، وترك مضارّتهم. ولا يكن أهلُك أشقى الخلقِ بك، والمعنى الجامِع لذلك كلّه إيصالُ ما أمكَن من الخير، ودفعُ ما أمكنَ منَ الشرّ.

صلةُ الرّحم أمارةٌ على كَرَم النّفس وسَعَة الأفُق وطيبِ المنبَتِ وحُسن الوَفاء، ولهذا قيل: مَن لم يصلح لأهلِه لم يصلح لك، ومَن لم يذبّ عنهم لم يذبَّ عنك. يقدِم عليها أولو التّذكرة وأصحاب البصيرة، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

وقطيعة الرّحم مِن كبائر الذّنوب، متوعَّد صاحبُها باللّعنةِ والثبور، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٢-٢٣]. التدابرُ بين ذوِي القربَى مؤذِنٌ بزوالِ النِّعمة وسوءِ العاقبةِ وتعجيل العقوبة، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنّةَ قاطع»[2]، قال ابن حجَر: (القاطعُ للرّحم منقطِعٌ مِن رحمة الله).

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٦٣٨).

عقوبتُها معجَّلة في الدّنيا قبلَ الآخرة، يقول النبيّ ﷺ: «ما مِن ذنبٍ أجدر أن يعجِّل الله لصاحبِه العقوبةَ في الدّنيا مع ما يدَّخره له في الآخرة من البغي أي: الظلم وقطيعة الرحم»[1]. وهي سببٌ للذلّة والصّغار والضّعفِ والتفرّق، مجلبة للهمّ والغمّ.

قاطعُ الرّحم لا يثبُت على مؤاخاة، ولا يُرجَى منه وفاء، ولا صدقٌ في الإخاء، يشعر بقطيعةِ الله له، ملاحَقٌ بنظرات الاحتِقار مهما تلقَّى من مظاهِر التبجيل. لقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يستوحِشون مِن الجلوس مع قاطِع الرّحم، يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحرِّج على كلِّ قاطعِ رحمٍ لَمَا قام من عندنا»، وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جالسًا في حلقةٍ بعدَ الصبح فقال: «أنشد الله قاطعَ رحمٍ لَمَا قام عنَّا فإنّا نريدُ أن ندعوَ ربَّنا؛ وإنّ أبوابَ السماء مُرتَجَة أي: مغلقة دونَ قاطِع الرّحم». وكلّ رحِم آتيةٌ يومَ القيامةِ أمامَ صاحبها، تشهَد له بصلةٍ إن كانَ وصلها، وعليه بقطيعةٍ إن كان قطعَها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال:٧٥].

بارَك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإيّاكم بما فيه من الآيات والذّكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر اللهَ لي ولكم ولجميع المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه إنّه غفور رحيم.

---

(١) صحيح الترمذي (٢٥١١).



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علمًا وهو على كل شيء شهيد، أحاط علمه بالظاهر والخفي والقريب والبعيد، أحمده سبحانه وأشكره وهو الولي الحميد، وأُصلي وأُسلِّم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم في هديهم الرشيد.

أمّا بعد:

أيّها المسلمون: إن الروابطُ تزداد وُثوقًا بالرّحم، وقريبُك لا يَمَلّك على القرب ولا ينسَاك في البُعد، عِزّهُ عزٌّ لك، وذلّه ذلٌّ لك، ومعاداة الأقاربِ شرّ وبلاء، الرّابح فيها خاسِر، والمنتصِر مهزوم.

إنّ ذوي الرّحِم غيرُ معصومين، يتعرّضون للزّلل، ويقَعون في الخَلل، وتصدُر منهم الهَفوة، ويقَعون في الخطأ والتقصير، وسوء التصرف والتدبير، فإن بَدَر منهم شيءٌ من ذلك فالزَم جانبَ العفوِ معهم، فإنَّ العفوَ من شِيَم المحسنين، وما زادَ الله عبدًا بعفو إلاّ عِزًّا، وقابِل إساءَتهم بالإحسان، واقبل عُذرَهم إذا أخطؤوا، لقد فعل إخوة يوسفَ مع يوسفَ ما فعلوا، وعندما اعتذروا قبِل عذرهم وصفَح عنهم الصفحَ الجميل، ولم يوبِّخهم، بل دعا لهم وسأل الله المغفرةَ لهم، قال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢].

غُضَّ عن الهفواتِ، واعفُ عن الزّلاّت، وأقِلِ العثرات، تجنِ الودَّ والإخاء واللينَ والصفاء، وتتحقَّق فيك الشهامةُ والوفاء. داوِم على صِلة الرّحم ولو قطعوا، وبادِر بالمغفرة وإن أخطؤوا، وأحسِن إليهم وإن أساؤوا، ودَع عنك محاسبةَ الأقربين، ولا تجعَل عِتابَك لهم في قطعِ رحِمك منهم، وكُن جوادَ النّفس كريمَ العطاء، وجانب الشحَّ فإنّه من أسباب القطيعة، قال عليه الصلاة والسلام: «إيّاكم والشّحَّ؛ فإنّ الشحّ أهلك من كان قبلكم؛ أمرهم بالبُخل فبخلوا، وأمرهم بالظّلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعةِ فقطعوا»[(١)]

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢/ ٥١٣) وأصله في مسلم (٢٥٧٨).

إنّ مقابلةَ الإحسانِ بالإحسان مكافأةٌ ومجازاة، ولكن الواصلَ من يَتفضَّل على صاحبِه، ولا يُتَفضّل عليه، قال عليه الصلاة والسلام: «ليسَ الواصل بالمكافئ، ولكنّ الواصلَ مَن إذا قطعَت رحمُه وصَلها»[1].

قيل لعبد الله بن مُحَيريز: ما حقّ الرّحم؟ قال: (تُستَقبَل إذا أقبلَت، وتُتْبَع إذا أدبَرت)، وجاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّ لي قرابةً أصِلهم ويقطعونني، وأُحسِن إليهم ويسيؤون إليّ، وأحلم عليهم ويجهَلون عليّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لئن كان كما تقول فكأنّما تسِفُّهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمتَ على ذلك»[2].

قيل لأبي حازم: (ما القرابة؟ قال: المودة. قيل: فما الراحة؟ قال: دخول الجنة، وقال: المودة لا تحتاج إلى القرابة، والقرابة تحتاج إلى المودة).

فمن كان بينه وبين رحمٍ له عداوة فليبادِر بالصّلة، وليعفُ وليصفح، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]. وإنّ لحسنِ الخُلُق تأثيرًا في الصّلة، والزَم جانبَ الأدَب مع ذوي القربَى، فإنّ مَن حفظ لسانَه أراح نفسَه. وللهديّة أثر في اجتلابِ المحبّة وإثباتِ المودّة وإذهاب الضغائن وتأليف القلوب، والرأيُ الذي يجمَع القلوبَ على المودّة كَفٌّ مبذول وبرّ جميل، وإذا أحسنتَ القولَ فأحسِن الفعل ليجتمعَ معك فصاحةُ اللّسان وثَمرةُ الإحسان.

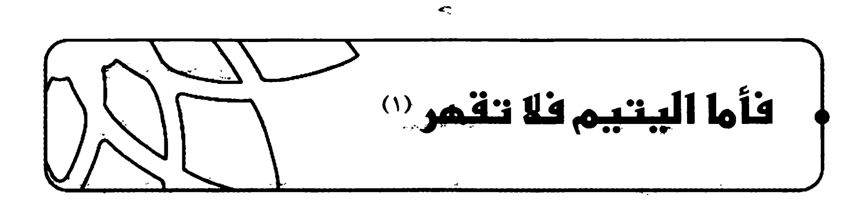
ثمّ اعلموا أنّ الله أمركم بالصّلاة والسّلام على نبيّه، فقال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهمّ صلِّ وسلِّم وزِد وبارك على نبيّنا محمّد، وارضَ اللهمّ عن خلفائه الراشدين...



(١) رواه البخاري (٥٩٩١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٨).



فأما اليتيم فلا تقهر[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله.. الحمد لله خلق الأرض والسموات، والله أكبر أحسن تدبير الكائنات، والحمد لله قدّر الأرزاق والأقوات، والله أكبر أنزل الماء من المعصرات.. والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى.. أحمده سبحانه وأشكره على جزيل العطايا والهبات..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. له الأسماء الحسنى والصفات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله.. بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة حتى ارتفعت به الملة الأعلام والرايات، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.. حققوا في دين الله أعلى وأغلى المكتسبات والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث من الممات.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ فاتقوا الله -رحمكم الله- فتقوى الله خير زاد ليوم المعاد.. اتقوه فيما أمر واتقوه فيما نهى عنه وزجر، زينوا بواطنكم بالتقوى والإخلاص والتوبة كما زينتم أبدانكم بجميل اللباس والمظهر، وتذكروا باجتماعكم الأكبر يوم العرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨].

جعلني الله وإياكم ممن ذُكّر فتذكر وغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر؛ فهو الكريم الجواد يقبل التوبة عن عباده ويغفر لمن استغفر.

أيها المسلمون: لقد أمر الإسلام بالتكافل، ورتب على ذلك أجورًا عظيمة، من ذلك تفقد الأرامل وكفالة الأيتام. إن إعانة اليتيم وكفالته سعادة ونعمة للمُعطي، فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وإن الصدقة تطفئ الخطيئة، وتطفئ غضب الرب.

---

(١) ناصر الأحمد.

فاليتيم ضعيف لكنه قويّ؛ إذ يقودك إلى الجنة صبي ضعيف، فافرح بأن فتح الله لك باب خير، واسعد بإحسانك إلى اليتامى والحنو عليهم، وقضاء حاجاتهم، واحذر احتقارهم، فبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، وهل كان النبي إلا يتيمًا؟ وكم من يتيم صار في قادم أيامه مهابًا عظيمًا؟ ومن فقد رعاية والده بغير يُتمٍ وجب على المجتمع الإحسان إليه وإحاطته بالرعاية والتربية، فكيف بيتيم الأب والأم، والراحمون يرحمهم الرحمن.

أيها المسلمون: لقد وبّخ جل وعلا من لم يكرم يتيمًا: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الفجر:١٧]. وقَرَن دعّه -وهو قهرُه وظلمه- قرن ذلك بالتكذيب بيوم الدين: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الماعون:١-٢]، ونهى الله صفوة خلقه عليه الصلاة والسلام أن يقهر أحدًا منهم: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ [الضحى:٩]، أي لا تذله ولا تنهره ولا تهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به. ونهى عن قرب مال اليتيم إلا بالحسنى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

ولا يتولى أموالهم إلا القوي الأمين. ونهى عليه الصلاة والسلام الضعيف من صحابته أن يتولى على شيء من أموالهم فقال: «يا أبا ذر: إني أراك ضعيفًا وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنّ على اثنين ولا تولينّ مال اليتيم»(١). وأَكْلُ ماله من السبع المهلكات؛ قال عليه الصلاة والسلام: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وذكر منهنّ: «وأكل مال اليتيم»(٢). ومن أكل ماله بغير حق أجج في بطنه نارًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠]. وإذا رَشَدَ أُعطي ماله وافيًا من غير بخس أو إخفاءٍ لشيء منه: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ [النساء:٦].

أيها المسلمون: اليتيم يأتي إلى الدار بالخيرات، وتتنزل بحلوله البركات، ويلين به القلب من الزلات، سأل رجل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف يرق قلبي، قال: (ادخل المقبرة وامسح

(١) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).

رأس اليتيم. وأطيب المال ما أعطي منه اليتيم)، قال عليه الصلاة والسلام: «إن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المال المسلم ما أُعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل»(١).

وقد كان النبي ﷺ قدوة في كفالة الأيتام، فاتخذ عليه الصلاة والسلام أكثر من عشرة أيتام يحوطهم برعايته وعنايته، فكان لهم أبًا رحيمًا مشفقًا محبًّا لهم. ومن كفل يتيمًا كان معه في الجنة، قال عليه الصلاة والسلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»(٢). قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حق على كل من سمع هذا الحديث أن يعمل به، ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرةِ أفضل من ذلك).

واقتفى الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- أثر النبي ﷺ، فكان تحت الخلفاء الراشدين أيتامٌ في بيوتهم، وكفل نساؤهم أيتامًا من البنات في بيوتهنّ، كأم المؤمنين عائشة وميمونة وزوجة ابن مسعود -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنّ-، وكان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا رأى يتيمًا مسح رأسه وأعطاه شيئًا. وقال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ارحم اليتيم، وأدنه منك، وأطعمه من طعامك».

أيها المسلمون: اليتيم محفوظ بحفظ الله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢]. وإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يغلق عن عبده بابًا إلا ويفتح له برحمته وفضله أبوابًا غيره، واليُتم قد يكون طريقًا للعلو والشموخ، فقد كان في الأمة من فقدوا آباءهم فأصبحوا فيها عظماء، لقد حفِل التاريخ بأناس عاشوا اليتم، ولكنهم ملؤوا الدنيا علمًا وجهادًا ودعوةً وعبادةً.

نشأ أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يتيمًا، وكان يرعى لقومه الغنم، ثم لازم النبي ﷺ فكان راوية الإسلام، يخبر عن نفسه فيقول: نشأت يتيمًا، وهاجرت مسكينًا، وكنت أجيرًا لابنة غزوان بطعام بطني وعُقبة رجلي، أحدو بهم إذا ركِبوا، وأحتطب إذا نزَلوا، فالحمد لله الذي جعل

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٥) ومسلم (١٠٥٢).

(٢) رواه البخاري (٥٣٠٤) ومسلم (٢٩٨٣).

الدين قِوامًا، وجعل أبا هريرة إمامًا. والإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب الصحيح يتيم، وقرأ على ألف شيخ، فصنّف أصح كتاب في الحديث، فكان هذا اليتيم نعمة على هذه الأمة.

والإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَقَدَ أباه وهو دون العامين، فنشأ في حِجر أمه في قلة من العيش وضيق من الحال، فحفظ القرآن وجالس في صباه العلماء فساد أهل زمانه. قال الحميدي: سمعت الشافعي يقول: (كنت يتيمًا في حِجر أمي، ولم يكن عندها ما تعطي المعلِّم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه). فأي شيء كان الشافعي بعد ذلك؟! قال الإمام أحمد: (كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس).

والإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشأ يتيمًا على العفاف والصلاح في حضن عمته، فحملته إلى العلماء، فصنف ووعظ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه: (أسلم على يدي أكثر من مائتي ألف). قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا أعلم أحدًا صنف في الإسلام أكثر من تصانيفه).

والزبير بن العوام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي عده عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بألف فارس، كان نتاج تربية أمه صفية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بعد أن مات أبوه وهو صغير، وكانت أمه صفية تضربه ضربًا شديدًا وهو يتيم، فقيل لها: قتلتِه، أهلكتِه! قالت: إنما أضربه لكي يدبّ ويجُرَّ الجيش ذا الجلب

فماذا كان بعد؟! قال الثوري: (هؤلاء الثلاثة أحد نجدة الصحابة: حمزة، وعلي، والزبير. وعن عروة قال: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن في عاتقه، إن كنتُ لأُدخل إصبعي فيها، ضُرب اثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك. ولا تنسَ أنه اليتيم الذي كانت أمه تضربه!).

والإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات والده وهو صغير، فربّته أمه. نقل الذهبي في ترجمته عن العباس بن الوليد قال: (ما رأيت أبي يتعجب من شيء تعجُّبَه من الأوزاعي، فكان يقول: سبحانك تفعل ما تشاء! كان الأوزاعي يتيمًا فقيرًا في حِجر أمه تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حلمك فيه أن بلَّغته حيث رأيتُه. يا بَني! عجزت الملوك أن تؤدب نفسها وأولادها، وأدب الأوزاعي نفسَه!).

وغير هؤلاء كثير، كانوا أيتامًا، كالسيوطي وابن حجر والثوري والقاسم بن محمد، وغيرهم من السلف عاشوا اليُتم، لكنهم أناروا الدنيا بالعلم والفهم، ولم يكن اليُتم عائقًا لهم عن النهوض، بل ربما كان دافعًا لهم.

وإذا أردت أمثلة حاضرةً قريبةً فهي غير قليلة أيضًا، أمثال: صِدِّيق حسن خان، وعبد الرحمن السعدي، ومحمد الأمين الشنقيطي، وعبد العزيز بن باز رَحِمَهُمُاللَّهُ.

وسيد الأيتام نبينا محمد ﷺ، توفي والده وأمه حامل به، ثم تقلّب في أحضان متوالية من أمه إلى جده إلى عمه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦].

قالوا: (اليتيم)

فـاجَ عطـرُ قصـيدتي	وتلفتـت كلماتُهـا تعظـيما
وسـمعتَ منهـا حكمـةً أزليـةً	أهـدت إليّ كتابَهـا المرقومـا
حسْـبُ اليتـيمِ سـعادةً أن الـذي	نَشَـرَ الهـدى في النـاس عـاش يتـيما!

محمد ﷺ.

أيها المسلمون: وإذا فقد اليتيم أباه تضاعف واجب الأم نحوه؛ فأم موسى رعت ابنها موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ واصطفاه الله نبيًا: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص:١٢-١٣]، وزكريا عَلَيْهِالسَّلَامُ كفل مريم: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧]، ومريم أحسنت تربيتها لابنها عيسى عَلَيْهِالسَّلَامُ، واختاره الله رسولًا.

والإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُاللَّهُ مات والده وهو حمل في بطن أمه، وعاش حياة فقر وفاقة، فحضنته أمه وأدبته وأحسنت تربيته، قال رَحِمَهُاللَّهُ: (كانت أمي توقظني قبل الفجر بوقت طويل وعمري عشر سنوات، وتُدفئ لي الماء في الشتاء، ثم نصلي أنا وإياها ما شئنا من صلاة التهجد، ثم تنطلق بي إلى المسجد في طريق بعيد مظلم موحش لتصلي معي صلاة الفجر في المسجد، وتبقى معي حتى منتصف النهار تنتظر فراغي من طلب العلم وحفظ القرآن). بصبر هذه الأم على اليتيم أخرجت عالمًا من علماء المسلمين وأئمتهم.

ويجب على الأم والأوصياء والأولياء الإحسان إلى اليتيم والرفق به في التربية والرحمة، وأن لا يقتصر على الشفقة والعطف والإنفاق فحسب، بل يكون بالتوجيه الحسن والتعليم النافع؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وأول ما يوجه إليه اليتيم حفظ كتاب الله العظيم، فهو العاصم والحافظ والمخرج من الفتن، ثم طلب العلم الشرعي، وحفظ الحديث والفقه وغيرهما، ومجالسة العلماء ولزوم الصحبة الصالحة، مع صرفه عن أسباب الفتن.

وعلى من يرعى يتيمًا أن يراقب ربه في ذلك الضعيف، وأن يخلص في عمله مع الله، فالإخلاص ييسر العمل ويكسوه حلاوة، وعليه أن لا يبخل بابتسامة وأن يبذل له ويرحمه، ويقيل عثرته، ويحسن ولايته، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كن لليتيم كالأب الرحيم).

أيها المسلمون: واليتيم طفل اليوم وهو رجل المستقبل، والله يكافئك على كل ما تعمله من تربيه وإحسان، ويجازيك على ذلك الجزاء الأوفى، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أيها المسلمون: الله عَزَّوَجَلَّ جابر كسر اليتيم، ورافعٌ قدره، ومن كُتب عليه اليُتم وهو ضعيف، فالجنة مأوى المستضعفين من المؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟! كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره»[1]

اليتيم فرد من أفراد الأمة، ولبنة من لبناتها، غير اليتيم يرعاه أبواه، يعيش في كنفهما تظلله روح الجماعة، يفيض عليه والداه من حنانهما، ويمنحانه من عطفهما، ما يجعله بإذن الله بشرًا سويًا، وينشأ فيه إنشاءً متوازنًا، أما اليتيم فقد فَقَدَ هذا الراعي، ومال إلى الانزواء، ينشد عطف الأبوة الحانية، ويرنو إلى من يمسح رأسه، ويخفف بؤسه، يتطلع إلى من ينسيه مرارة اليتم وآلام الحرمان.

كم من أم لأيتام يحوم حولها صبيتها وعينهم شاخصة نحوها، لعلهم يجدون عندها إسعافًا.

إن اليتيم إذا لم يجد من يستعيض به حنان الأب المشفق والراعي الرافق، فإنه سيخرج نافر الطبع، وسيعيش شارد الفكر، لا يحس برابطة، ولا يفيض بمودة، وقد ينظر نظر الخائف الحذر، بل قد ينظر نظر الحاقد المتربص، وقد يتحول في نظراته القاتمة إلى قوة هادمة.

أيها المسلمون: من خيار بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَن إليه، إن خفض الجناح لليتامى والبائسين دليل الشهامة، وكمال المروءة، صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وتحفظ من المحن والبلايا.

إن كنت تشكو قسوة في قلبك فأدْنِ منك اليتامى، وامسح على رؤوسهم، وأجلسهم على مائدتك، وألِن لهم جانبك، إذا رجوت أن تتقي لفح جهنم فارحم اليتامى وأحسن إليهم، فإن الإحسان إليهم يفرّج كُرب الآخرة، وإطعامهم سبب لدخول الجنة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:٨-١١].

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣).

لقد تحرّج الذين عندهم أيتام من أصحاب رسول الله ﷺ حين سمعوا القوارع في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فعزلوا طعام الأيتام وشرابهم، فصاروا يأكلون منفردين، ويعيشون منعزلين، وامتنع آخرون من كفالة اليتيم تحرجًا وتعففًا، وكان هذا موضع حرج آخر، فسألوا رسول الله ﷺ، فنزل القرآن مجيبًا لهم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وكم من نُظَّار على أوقاف، وأوصياء على أيتام انزلقوا في الشبهات، ثم ترقوا إلى المحرمات، فغلبتهم أطماعهم حتى أصبح واحدهم غنيًا من بعد فقر، قاسيًا من بعد لين، فويل لهم، ثم ويل لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وفي الحديث: «أربعة حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وآكل ربا، وآكل مال اليتيم، والعاق لوالديه». وقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أُحَرِّجُ عليكم حقَّ الضعيفينِ: اليتيمُ، والمرأةُ».(١)

أيها المسلمون: وهناك يُتم من نوع آخر، معه أبواه لكنه يعيش حياة الغفلة، وأعداد هؤلاء يتضاعف مع مرور الأيام وكثرة المشاغل والملهيات، فالأب مشغول في وظيفته أو تجارته أو سهرته أو سفرته، والأم كذلك قد تركت ولدها للخادمة، وأصبحت مشغولةً بين السوق والوظيفة، وبين الأزياء والموضة، وحين يكبر الولد وينتهي من رعاية الخادمة ويملك الخروج من المنزل ولو مع صغر سنه، فإنه يلتقم ثدي الشارع، ويختاره سكنًا بدل البيت، ليقطع فيه جُل الوقت. هذا يسمى يتيم التربية!

ليس اليتيم من انتهى أبواه مِن	همِّ الحياةِ وخلّفاه ذليلًا
فأصاب بالدنيا الحكيمةِ منهما	وبحسن تربيةِ الزمان بديلًا
إن اليتيمَ هو الذي تلقى له	أمًّا تخلّت، أو أبًا مشغولًا

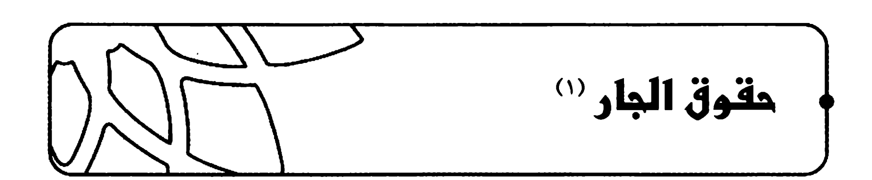
---

(١) صحيح ابن ماجه (٢٩٨٢).

إننا لا نطلب من الرجل ولا من المرأة أن يتركوا أشغالهم التي يطلبون منها لقمة العيش مطلقًا، لكننا نقول لهم: إن فترة الغياب الطويل عن الأولاد لها أثر كبير؛ ولذا كان من الضروري على الزوجين تخصيص أوقات كافية للجلوس مع أبنائهم، واصطحابهم، وحل مشكلاتهم، وإشراكهم معهم في الحياة.







حقوق الجار [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله خلقَ وأمَر، وملكَ فقهَر، وأراد فقدَّر، أحمده سبحانه وأشكرُه وهبَ وأعطى، وأغنَى وأقنَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمدُ في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه صفوةُ الأخيار وقُدوةُ الأبرار، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابِه أهلِ الفضل والتُّقى، ما وهَنوا لما أصابَهم في سبيل الله وما ضعُفُوا وما استكانُوا، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله- واعبدوه، اجتمِعوا على الرحمة والمحبّة والطاعة، ولا تتفرَّقوا على الشَّحناء والهوى والمعصية.

أيها المؤمنون: ما منا إلا ويعيش بين الناس ويخالطهم، ولا غنى لأحد منا عن الناس من حوله؛ ولهذا فإن اقتراب الناس بهذه الصورة مظنّة لهضم الحقوق بينهم أو ظلم بعضهم لبعض، فتختلط الأموال، ويطغى أهل النفوذ والقوة على من لا نفوذ له ولا سلطان؛ لذلك جاءت الشريعة من لدن حكيم حميد، فأوجبت حقوقا شرعية يطالب بها أهل الإسلام، ويؤاخذون على منعها أو التقصير فيها، ومن تلك الحقوق حق الجوار.

والجار هو كل من جاورك سواء كان جواره لك في مسكن أو دكان أو عمل أو غيرها، واعلموا أن الجيران ثلاثة: جار مسلم قريب، فهذا له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار.

---

(١) عابد بن عبدالله الثبيتي.



وجار مسلم ليس بقريب، فهذا له حقان: حق الإسلام، وحق الجوار.

وجار كافر، أبقَت له الشريعة حقَّ الجوار.

وللجوار أهمية عظيمه في الدين يا عباد الله، وذلك لأنه:

أولًا: وصية الله عَزَّوَجَلَّ ورسولِه، فقد أمر الله بالإحسان إلى الجار في نسق عشرة أوامر في كتابه، فقال تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]. قَالَ أَبُو عَبْد الله البخاري: «ذِي الْقُرْبَى: الْقَرِيبُ، وَالْـجُنُبُ: الْغَرِيب، والْـجَارُ الْـجُنُبُ يَعْنِيك الصَّاحِبَ فِي السَّفَرِ».

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْـجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»(١).

ثانيًا: أن إساءة الجوار من عادات الجاهلية التي بعث الله نبيه ﷺ لتغييرها، ويتضح هذا من جواب جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنجاشي حين سأله عن هذا الدين الجديد، فقال له جعفر: «أَيُّهَا الْـمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّة، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْـمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْـجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى الله؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْـحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْـحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْـجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْـمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْـمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَام فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلام فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٨٠) وصححه أحمد شاكر، وصححه الألباني في فقه السيرة (١١٥).



ثالثا: أن الإحسان إلى الجار والقيام بحقه سبب للتفاضل بين الناس، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»[1].

رابعا: أن الإحسان إلى الجار والقيام بحقه سبب لمغفرة الذنوب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَشْهَدُ لَهُ ثَلاثَةُ أَبْيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الأَدْنَيْنَ بِخَيْرٍ إِلاّ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عِبَادِي عَلَى مَا عَلِمُوا وَغَفَرْتُ لَهُ مَا أَعْلَمُ»[2].

خامسا: أن الإحسان إلى الجار والقيام بحقه سبب للثناء والمدح في الدنيا، وعكسه موجب للذم والعقوبة. ذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال يهجو حيا من العرب غدروا بأصحاب النبيّ ﷺ فقتلوهم على ماء يقال له الرجيع:

إن سرك الغدر صرفا لا مزاج له ... فأت الرجيع فسل عن دار لحيان

قوم تواصوا بأكل الجار بينهم ... فالكلب والقرد والإنسان مثلان

لو ينطق التيس يوما قام يخطبهم ... وكان ذا شرف فيهم وذا شان

سادسا: ومما يدل على أهمية حق الجار أن الله عظَّم الخطيئة في حق الجار، فعن الْمِقْدَادَ بن الأَسْوَدِ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟» قَالُوا: حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ»، قَالَ: فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟» قَالُوا: حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: «لأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»[3].

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني (١٩٤٤).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٥١٦).

(٣) صحيح الترغيب (٢٥٤٩).

سابعا: أن الجار الصالح من أسباب سعادة العبد، وعكسه من أسباب شقائه، فعن سلمان قال رسول الله ﷺ: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»[1].

عباد الله: إن الله جعل للجار حقوقا شرعية على جيرانه، فإذا قام بها المسلمون بينهم سادت روح الألفة والمحبة والتسامح، واكتملت في المجتمع المسلم صفاته المثالية التي تعلو المجتمع بصبغة إسلامية رائعة تميزه عن باقي المجتمعات. فمن حقوق الجار:

أولا: كف الأذى عنه، وهذا الحق واجب على المسلمين، فلا يجوز لهم بحال إيذاء أحد من الناس ما دام مسالما، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِي جَارَهُ»[2]، وعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ وَلا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»[3]

ومن صور إيذاء الجار عباد الله حسده وتمني زوال النعمة عنه، أو السخرية به واحتقاره، أو إشاعة أخباره وأسراره بين الناس، أو الكذب عليه وتنفير الناس منه، أو تتبّع عثراته والفرح بزلاته، أو مضايقته في المسكن أو موقف السيارة، أو إلقاء الأذى عند بابه، أو التطلّع إلى عوراته ومحارمه، أو إزعاجه بالصراخ والأصوات المنكرة، أو إيذائه في أبنائه.

وأما من ابتلي بجار يؤذيه فعليه بالصبر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَاصْبِرْ»، فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا فَقَالَ: «اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ

---

(١) خرجه الألباني في الصحيحة (٢٨٢).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٥) ومسلم (٤٧).

(٣) صحيح الترغيب (٢٥٦٠).

فِي الطَّرِيقِ»، فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ: فَعَلَ اللهُ بِهِ وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ لا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ[1].

لهذا معاشر المسلمين فإننا مأمورون بتحرّي حقوق جيراننا والقيام بها؛ لننال الفضل في الدنيا، وننجو من المؤاخذة في الآخرة.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وسنة نبيه ﷺ، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه أبو داود (٥١٥٣) وقال الألباني: (حسن صحيح).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإن من حقوق الجار أيضا الحقّ الثاني: **الإهداء إليه وبذل المعروف**، فكم من هدية أوقعت في قلب المهدى إليه أثرا عظيما، فهي تقرب النفوس وتزيل الأحقاد وتبرهن على صدق المودة وعظيم المحبة، فعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ: سَمِعَتْ أُذُنَايَ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»[1]، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ» فكان فيما بعد إذا طبخ لحما أكثر ماءه وأهدى إلى جيرانه ويقول: إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ»[2]. وذُبح لعَبْدَ الله بن عَمْرٍو شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[3]. وسألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رَسُولَ الله ﷺ فقالت: إِنَّ لِي جَارَتَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا»[4].

أيها المؤمنون: إن الهدية ليست فقط للجار الفقير المحتاج، بل الهدية أشمل من هذا، فقد أهدي للنبي ﷺ مع أنه لو أراد المزيد من الرزق لدعا الله فأعطاه ما شاء من متاع الدنيا، بل كان ﷺ يهدي للناس ويقبل الهدية، حتى إنه ليستغني بها هو وأزواجه أياما طويلة، بل أشهرا عديدة، فقد كانت عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ لابن أختها: «وَالله يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ورواه مسلم عن أبي هريرة (٤٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٥).

(٤) رواه البخاري (٢٥٩٥).

الْهِلالِ ثُمَّ الْهِلالِ ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ الله ﷺ نَارٌ، قَالَ: يَا خَالَةُ، فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟! قَالَتِ: الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إلا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ»[1].

فهذه هي السنة في العطية للجار، وعدم منع المعروف عنه، وإلا صار خصما له يوم القيامة عند الملك العدل سبحانه، فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد قول رسول الله ﷺ: «كم من جار متعلّق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب، هذا أغلق بابه دوني، فمنع معروفه»[2].

الحق الثالث: محبّة الخير له كما يحبها العبد لنفسه وعدم حسده، فعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ أَوْ قَالَ: لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[3].

الحق الرابع: مساعدته ماديا فيما يحتاج إليه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لا يَمْنَعْ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ للناس لما رأى من تقصيرهم في حقوق جيرانهم: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ؟! وَالله لأَرْمِيَنَّ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ[4].

ولقد ضرب أصحاب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في التعاون والمساعدة فيما بينهم، حتى استحقوا إطراء النبي ﷺ لهم وثناءه عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام في الأشعريين: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[5].

الحق الخامس: الحفاظ على عوراته وعدم خيانته في أهله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[6]، وعَنْ عَبْدِ الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٧) ومسلم (٢٩٧٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨١) وحسنه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٤٥).

(٤) رواه البخاري (٢٤٦٣) ومسلم (١٦٠٩).

(٥) رواه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).

(٦) رواه مسلم (٤٦).

سألت رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ الله أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للهَّ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»، قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨][(١)].

الحق السادس: مواساته وعدم إضجاره وإحزانه، خاصة إذا كان كبير السن، قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٥٤): سمعت محمد بن حامد البزاز يقول: (دخلنا على أبي حامد الأعمشي وهو عليل، فقلت: كيف تجدك؟ قال: أنا بخير لولا هذا الجار، يعني أبا حامد الجلودي، دخل عليّ أمس وقد اشتدّت بي العلّة فقال: يا أبا حامد، علمت أن زنجويه مات، فقلتُ: رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: دخلت اليوم على المؤمل بن الحسن وهو في النزع، ثم قال أيضا: يا أبا حامد، كم عمرك؟ قلت: أنا في السادس والثمانين، فقال: إذًا أنت أكبر من أبيك يومَ مات، فقلت: أنا بحمد الله في عافية فعلت البارحة كذا، واليوم فعلت كذا وكذا، فخجل وقام).

كن في البلاد إذا ما الْـجار جار بِها ... كالراح في الكاس لا تبقى على ميل

واجف الخليل وبادر بالرحيل وقل ... هذا الدواء الذي يشفي من العلل

عباد الله: بالقيام بحقوق الجيران تقوم الأُلفة، وتحصُل المودَّة، فيعيشُ أهلُ الحي والمُجتمع في أمنٍ وطُمأنينة، يتبادَلون المنافع، ويقضُون حاجاتهم فيما بينهم، ويتعاوَنون على البرِّ والتقوى، ويدفَعون الشُّرور والأذَى والسوءَ عن أهليهم وبيوتهم، في إخلاصٍ وصدقٍ في الظاهر والباطن، يُؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهَون عن المُنكر، ويُسارِعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين.

عباد الله: هذه بعض حقوق الجوار التي شرع الله للمسلمين فعلها، فلنبدأ من هذا اليوم بالإحسان إلى جيراننا والقيام بحقوقهم، ولنطرح الأضغان ولنُنَقِّ أنفسنا وضمائرنا من كلّ ما

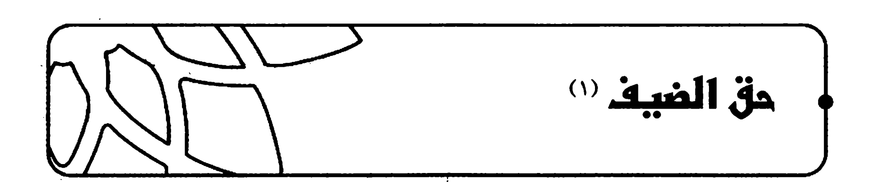
---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٠) ومسلم (٨٦).

يكدّر صفو العلاقة مع جيراننا، ومن كان منا بينه وبين أحد من جيرانه نزاع أو خصومة فليُدخل بينهما من جيرانه من يكون سببا في إصلاح ما فسد.

اللهم وفقنا لخيرِ الأعمال والأقوال لا يوفِّق لخيرها وأحسنها إلا أنت، وجنّبنا شرَّها لا يجنّب شرها إلا أنت.





حق الضيف (1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله أبدعَ ما أوجدَ، وأتقنَ ما صنَعَ، وكلُّ شيءٍ لجبروته ذلَّ ولعظمته خضَعَ، سبحانه وبحمده في رحمته الرجاء، وفي عفوِه الطمعُ، وأُثني عليه وأشكُره؛ فكم من خيرٍ أفاضَ ومكروهٍ دفَع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تعالى في مجده وتقدَّس، وفي خلقِه تفرَّد وأبدَع، وأشهد أن سيدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله، أفضلُ مُقتدًى به وأكملُ مُتَّبَع، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله وأصحابه أهل الفضلِ والتُّقى والورَع، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ، ولنهجِ الحق لزِم واتَّبَع، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي المقصرة بتقوى الله وطاعته؛ استجابةً لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩].

أيها الإخوة المسلمون: لقد بَعُد العهد بنا عن زمن النبي ﷺ، فنحن اليوم في حاجة إلى مراجعة كثير من عاداتنا الاجتماعية، وأنماط حياتنا المعيشية، لنرى مدى قربها أو بُعدها من منهجه العظيم، ولكي تتحول هذه العادات إلى عبادات؛ حين تصدق فيها نياتنا، وتسير وفق شرع الله المطهر، وسنة حبيبه ﷺ.

ومن تلك العادات التي هي سمة من سمات مجتمعنا الطيب: إكرام الضيف، هذا الإنسان الذي لا يخلو من إحدى حالتين؛ إما أن يكون غريبًا عن البلاد، ليس له بيت يأوي فيه، أو أن

---

(١) خالد بن سعود الحليبي.



يكون من أهل البلد، ولكنه حل ضيفًا على صاحب دار، ولكل منهما حق الضيافة، الذي يراه الإمام المبجل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقًّا واجبًا له، يؤجر فاعله، ويأثم الممتنع عنه إذا كان قادرًا.

ففي الصحيحين وغيرهما عن أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ: سَمِعَتْ أُذُنَايَ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ..» الحديث[1].

إنها مكارم الأخلاق التي يدعو لها دينٌ جاء ليعزز شأنها، وينشرها في البشرية؛ لتسعد في حياتها الدنيا، ولتتوثق علائقها، ولتكون في مجموع أفرادها كالفرد الواحد، فأي غربة ستبقى للغريب حين يشعر وهو في طريقه إلى هذه البلاد أن له بيوتًا سوف يأوي إليها وكأنها ملك له، وأن له أهلًا سوف يأنس بهم وكأنهم أهله، فيشعر حينئذ بالأمن والاطمئنان، والراحة والحبور، ويفرغ لما جاء من أجله، أو يفرح بقدومه إذا كان لمحض الزيارة ورعاية الصلات.

وصور الكرم لم تتوقف عند حاتم، ولكنها ازدادت تألقًا ورفعة حين جاء رسول الإسلام والأخلاق بشريعته العظيمة، فكان أجود الناس بأبي هو وأمي، فما عرف عنه أن رد سائلًا، ولا عبس في وجه ضيف، بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وإذا أعياه المال والطعام ولم يجد منهما شيئًا، التفت إلى أصحابه يطلب منهم أن يستضيفوا ضيفه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا»؟

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ومسلم (٤٧).

ﷺ، فقال: «ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩](١).

إنها لوحة من لوحات الإنسانية الكريمة، التي تتضاءل أمامها كثير من لوحات الكرم الحاتمي، فماذا بعد أن يؤثر المرء ضيفه على نفسه وعلى أطفاله حتى يبيتوا جائعين ليشبع ضيفهم، بل يوهموه أنهم يأكلون معه، ويطفئون السراج حتى لا يكتشف هذا النبل والكرم العظيم.

ولكن ذلك ليس غريبًا على جيل تربى في المحضن التربوي النبوي، أولم تفعل عائشة ما أعظم من ذلك، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَسَأَلَتْ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ»(٢).

وإذا رحنا نستنطق تلك النصوص لتروي لنا أخبار كرم سلفنا الصالح، فلسوف يطول بنا المقام، ولكن دعونا لنتعرف على بعض آداب هذا الكرم، ولنبدأ بصاحب الدار المضيف.

إن أول ما ينبغي أن يستقر في نفوس المؤمنين أن علاقة المضيف بضيفه هي علاقة عبادة، فليست استضافته تطبيقًا لعرف من الأعراف، ولا جريًا لعادة اجتماعية سائدة، وإنما ليستشعر أنها عبادة من العبادات العظيمة، يؤديها ليؤجر عليها. ولذلك فينبغي أن يرعى فيها حقوق الله تعالى.

ولعل أول اللقاء هو تلك التحية التي تُفَتِّحُ القلوب، وتملأ الوجوه بالبشر، وإذا كان الضيف هو الذي يبدأ بها عادة، فلتكن تحية المضيف أجزل منها، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦]، وهو شأن الصالحين من عباد الله، فهذا نبي الله إبراهيم حين دخل عليه أضيافه، وقالوا: ﴿سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾

---

(١) رواه البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) رواه البخاري (١٤١٨) ومسلم (٢٦٢٩).

[هود:٦٩]، قال علماء البيان: (هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام، فاختار خليل الله الأفضل والأكمل).

ويمكن أن تكون بأي عبارة حسنة أخرى متضمنة تحية الإسلام السلام.

ثم له بعد ذلك أن يجتهد في إكرام ضيفه قدر طاقته، ويتجمل معه، حسب استطاعته، فلا داعي أن يستدين ويرهق نفسه وأولاده من أجل أن يظهر أمام الضيف بغير حقيقته، أو من أجل ألا يعاب من عشيرته، فإن مثل هذا البلاء قد استشرى، وإن جريرة الديون على المعسرين أعظم خطرًا من حديث الناس الوقتي الذي يذهب مع الزمن، وعلى الضيف أن يعذر صاحبه، وألا يحمله أكثر من طاقته، فلا يحقرن منه شيئًا مهما قل، ولو كان مذقة لبن، أو كأس عصير، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها وقد أحسن من قال:

إذا الضيف جاءك فابسم له ... وقرِّب إليه وَشِيك القِرَى

ولا تحقر المزدرى في العيون ... فكم نفع الهين المزدرى

وأما الأثرياء فلهم أن يقدموا ما يشاءون من أصناف الطعام القادرين عليها، ولهم في الخليل إبراهيم أسوة حسنة، فقد جاء ضيوفه بعجل سمين شواه لهم على الحجارة، وأقبل هو وامرأته يخدمانهم، بل إن من تمام إكرامه لهم أنه لم يُطل انتظارهم للطعام، ولم يذهب بهم إليه، بل كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٦-٢٧].

ولكن ينبغي أن نتنبه إلى أن إكرام الضيف نفقة من النفقات، فينالها ما ينال غيرها من أحكام الإسراف والتقتير والاعتدال، فمن أسرف فقد وقع تحت طائلة قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧]، والآية في معرض الإنفاق على الآخرين.

وعليه بعد ذلك أن يحفظ نعمة الله التي تبقت، فيأكلها أو يُطعمها أهله أو المحتاجين.

ولعلنا نجد ذلك الإسراف الوبيل يتضاعف في الولائم العامة والأعراس، وربما انتقل إلى طبع دائم في البيوت، فيستأصل كالمرض الذي لا يجدون فكاكًا منه.

وإن من صور الإسراف عند بعض الفئات من مجتمعنا: تخصيص كل ضيف من الضيوف بذبيحة خاصة، مع تواجدهم في زمن واحد، بحجة أن لكل منهم حقًّا خاصًّا به، بل إن من أكبر أسباب الطلاق المنتشرة في بعض المناطق هو الضيافة العنجهية، التي يقسم فيها صاحب الدار أن ذبيحة الضيف ميتة، وأنه إذا لم يقبل ضيافته فزوجته طالقة، وربما أبى الضيف لأي سبب ربما كان خارجًا عن إرادته، فإذا بصاحب الدار يضيق به ذرعًا ويتحول إلى عدو من ألد أعدائه، أليس هو الآن - في نظره- سببًا من أسباب هدم بيته، وفراق زوجته، وإذا به بعد ذلك يناشد العلماء أن يجدوا له مخرجًا فيطوف الديار، ويطرح نفسه أمام هذا وذاك، فربما وجدوا له مخرجًا، وربما وجد المجتهد في مسألته أليس له إلا فراقها فإن الدنيا تضيق به، ويندم ساعة مندم.

فيا ليت شعري ما ذنب امرأة في دارها تخرج منه ذليلة حسيرة، تفارق حبيبها وأولادها، وتبقى ضحية كلمة مسعورة أطلقها مسكون بعادات لم ينزل بها الله من سلطان، قالها ليأمن عواقب العار الذي يخشى أن يلحق به، وما أخسر من هدم داره استجابة لداع من دواعي القبلية أو الأعراف، فلتدع ضيفك بإصرار فإن رضي فله الإكرام التام، وإن أبى فلينصرف مرحومًا مغفورًا له بإذن الله دون تحرجه أو يحرجك، ولتأمن أنت على أهلك وبيتك.

وذكر رسول الله ﷺ عددًا من أصحاب الهيئات الذين تراعى منازلهم في الحديث الذي رواه أبو مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْـمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْـجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْـمُقْسِطِ»[1]

أن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ»[2] وهم أصحاب الوجاهات والمسئوليات.

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٤٣).

(٢) رواه ابن ماجه وحسنه الألباني (٣٠٠٧).

وأقصى مدة للضيافة ثلاثة أيام، هي حق للضيف، عليه أن يرحل بعدها حتى لا يحرج مضيفه،[1] أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَمَا أُنْفِقَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ» وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «لَا يَثْوِي عِنْدَهُ» يَعْنِي الضَّيْفَ لَا يُقِيمُ عِنْدَهُ حَتَّى يَشْتَدَّ عَلَى صَاحِبِ الْمَنْزِلِ وَالْحَرَجُ هُوَ الضِّيقُ، إِنَّمَا قَوْلُهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ يَقُولُ حَتَّى يُضَيِّقَ عَلَيْهِ.

وليست الضيافة بالطعام والشراب فقط، بل إن من أجمل القِرَى وأكمله الحديث مع الضيف والترحيب به، وإزالة الوحشة عنه:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ... ويخصب عندي والمكان جديبُ

وما الخصب للأضياف كثرة القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيبُ

إنه الكريم حقًّا ذاك الذي يتناسى كل همومه أمام ضيفه، ويشعره بالراحة معه وحب لقياه، مهما كانت ظروفه وعسرها؛ حتى لا بنكد عليه حلاوة اللقاء:

انظر إلى حسن صبر الشمع يظهر للر ... ائين نورًا، وفيه النار تستعرُ

كذا الكريم تراه ضاحكًا جذلًا ... وقلبه بدخيل الهم منفطرُ

حقًّا صدق رسول الله ﷺ حين قال: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» والحديث رواه أحمد وصححه الألباني.

عباد الله.. توبوا إلى واستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) روى البخاري (٦١٣٥).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن من حق المسلم على المسلم أن يجيب دعوته، ومن كرم الضيف أن يأتي في موعده الذي حدده له، وإذا لم يستطع أن يأتي أو نسي موعده -وكل ذلك من طبع البشر- فعليه أن يعتذر منه، ويحسن الاعتذار، وإذا استطاع عوضه زيارة أخرى دون إحراج له.

يقول الرسول ﷺ: «إذا دُعي أحدكم فليجب، فإن كان صائمًا فليُصَلّ، وإن كان مفطرًا فليطعم»[1] فليُصَلّ: أي يدعو لمضيفه، على أنه إذا كان صائمًا صيام سُنّة فإن له أن يفطر إكرامًا لمضيفه، وجبرًا بخاطره، وهو إن شاء الله على أجره؛ لأنه العمل الصالح، بل وشرع فيه.

وعلى الضيف أن يراعي حق الضيافة من جانبه، فيغض بصره عن محارم المضيف، ولا يطلع إلا على ما أذن له فيه، ولا يفشي له سرًّا، ولا يتحدث بما حدثه إلا ما يعود بالخير عليه، فبئس الضيف اللئيم الذي يقابل كرم مضيفه بالكيد له أو الإساءة إليه، فإن المجالس بالأمانة.

وعليه ألا يتقدم على صاحب المنزل في دابته، ولا مكان جلوسه، ولا يتقدمه في صلاة إلا بإذنه، فعَنْ عَبْدِ اللهَّ بن يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى الْكُوفَةِ قَالَ: أَتَيْنَا قَيْسَ بن سَعْدِ بن عُبَادَةَ فِي بَيْتِهِ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنِ لِلصَّلَاةِ، وَقُلْنَا لِقَيْسٍ قُمْ فَصَلِّ لَنَا، فَقَالَ لَمْ أَكُنْ لِأُصَلِّيَ بِقَوْمٍ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِأَمِيرٍ، فَقَالَ رَجُلٌ لَيْسَ بِدُونِهِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهَّ بن حَنْظَلَةَ بن الْغَسِيلِ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «الرَّجُلُ أَحَقُّ بِصَدْرِ دَابَّتِهِ، وَصَدْرِ فِرَاشِهِ، وَأَنْ يَؤُمَّ فِي رَحْلِهِ» قَالَ قَيْسُ بن سَعْدٍ عِنْدَ ذَاكَ يَا فُلَانُ لِمَوْلًى لَهُ: قُمْ فَصَلِّ لَهُمْ.[2]

---

(1) رواه مسلم (١٤٣١).

(2) صحيح الجامع (١٦١٣).

وللضيف أن يكون لـه دور الإصـلاح إذا وقعـت عينـه عـلى عيـب دون قصـد، ويـأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا رأى أن لذلك مكانًا، كما أن المضيف له أن يكرم ضـيفه بعلـم نافع يذكره له، أو يهدي له كتابًا نافعًا أو نحوه.

روى البخاري بسنده أن النَّبِيَّ ﷺ آخَى بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُـو الـدَّرْدَاءِ لَـيْسَ لَـهُ حَاجَـةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ: مَا أَنَا بِآكِـلٍ حَتَّـى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُـومُ، فَقَـالَ نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الْآنَ فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّـهُ، فَـأَتَى النَّبِـيَّ ﷺ فَـذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ».(١)

ومن كرم الضيف لمضيفه أن يدعو له، وتلك سنة مـن سـنن الرسـول ﷺ، فقـد أخـرج البخاري عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمِّ سُـلَيْمٍ فَأَتَتْـهُ بِتَمْـرٍ وَسَـمْنٍ قَـالَ: «أَعِيـدُوا سَمْنَكُمْ فِي سِقَائِهِ وَتَمْرَكُمْ فِي وِعَائِهِ، فَإِنِّي صَـائِمٌ، ثُـمَّ قَـامَ إِلَى نَاحِيَـةٍ مِـنَ الْبَيْـتِ فَصَـلَّى غَـيْرَ الْـمَكْتُوبَةِ، فَدَعَا لِأُمِّ سُلَيْمٍ وَأَهْلِ بَيْتِهَا، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِي خُوَيْصَّةً. قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَتْ: خَادِمُكَ أَنَسٌ، فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلَا دُنْيَا إِلَّا دَعَا لِي بِهِ قَـالَ: اللَّهُـمَّ ارْزُقْـهُ مَـالًا وَوَلَدًا، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ، فَإِنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ الْأَنْصَارِ مَالًا وَحَدَّثَتْنِي ابْنَتِي أُمَيْنَةُ أَنَّهُ دُفِنَ لِصُـلْبِي مَقْـدَمَ حَجَّاجٍ الْبَصْرَةَ بِضْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ».(٢)

وليس للضيف أن يُحضِر معه ضيفًا آخر إلا بإذن صاحب المنزل، فعـنْ أَبِي مَسْـعُودٍ قَـالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُكْنَى أَبَا شُعَيْبٍ، فَقَالَ لِغُلَامٍ لَهُ قَصَّابٍ: اجْعَلْ لِي طَعَامًا يَكْفِي خَمْسَةً، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَ النَّبِيَّ ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَإِنِّي قَدْ عَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْـجُوعَ، فَـدَعَاهُمْ فَجَـاءَ مَعَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا قَدْ تَبِعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، فَأْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شِـئْتَ أَنْ

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٩).

(٢) رواه البخاري (١٩٨٢).

يَرْجِعَ رَجَعَ» فَقَالَ: لَا بَلْ قَدْ أَذِنْتُ لَهُ[1]. وهذا لا ينافي أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام راغبًا في أن يأذن صاحب البيت لذاك الرجل، وإنما كان ذلك استئذانًا منه للرجل، ومراعاةً لصاحب البيت، في أن لا يدخل عليه من لا يأذن بدخوله.

أيها الناس: إن الإسلام قد نظم حياة المسلم الاجتماعية، ودلنا على ما يليق وما لا يليق، فمن الناس مستقل ومستكثر من تلك الآداب، تعلمًا أو عملًا، فلم هذا التهاون من الآباء والأمهات والمربين بغرس القيم والآداب؟ وتعويد الأبناء على مكارم الأخلاق؟ إن هذا الأمر ليس بنافلة مستحبة، بل هو فريضة واجبة، وضرورة مُلحّة، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته.

إنه لما يجدر بالمربين أن يعلموا أولادهم وأهليهم ومن تحت أيديهم تلك الآداب الحسنة، والشمائل الرفيعة، والمكارم النبيلة، فإنه ما أعطى والدٌ ولدًا ولا معلمٌ تلميذًا أفضل من أدب حسن، وقد قيل: نحن إلى قليل من الأدب، أحوج منا إلى كثير من العلم.

أسأل الله تعالى أن يبصّرنا بديننا، وأن يعيننا على اقتفاء آثار رسوله الذي أمرنا بالصلاة والسلام عليه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦] اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله الطاهرين، وصحبه أجمعين، أخص منهم الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ أبا بكر وعمر وعثمان وعلي، وعنا معهم برحمتك وفضلك ومنك يا أكرم الأكرمين.



(١) رواه البخاري (٢٠٨١).



آداب الصديق [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله بعثه بالهدى، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجعلنا على المحجة البيضاء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأصفياء، وأصحابه الأتقياء، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وسار على نهجهم واقتفى.

أما بعد:

فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

اتقوا الله عباد الله، وراقبوه واعلموا أنكم عن قريب ملاقوه..

أيها الناس: إن من الأمور الجبلّية الفطرية التي فطر الله تعالى الإنسان عليها في هذه الحياة: أنه لا بد للمرء في هذه الحياة من جلساء وأصحاب، يتحدث معهم، ويتحدثون معه، يبث إليهم همومه ويشكو إليهم أحزانه ويستشيرهم فيما يُلمّ به من مهمات وأمور.

فالمصاحبة مما حث الإسلام عليه، ورغّب في السعي إليه، والصداقة تدعيم للعلاقات الاجتماعية، وتقوية للمودات، وشدّ لأواصر الصلات.

الصديق عباد الله من ضرورات الحياة، وطبائع البشر، ومن ظنّ أنه يمكن أن يستغني عن صديق في هذه الحياة فمغرور، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[2].

---

(١) ناصر بن محمد الأحمد.

(٢) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٣٣).

أيها المسلمون: والمرء في هذه الحياة على مشرب صديقه وجليسه، ولا يشك عاقل من الناس في أهمية الصداقة والمؤاخاة في حياة المسلم وأثرها على سلوكه وأخلاقه، فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.

أيها الأحبة: ومن أجمل ما قيل في تعريف الصديق ما قاله بعضهم: الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك.

ومثل هذا القول قد روي عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضًا وكتب له بها كتابًا وأشهد فيه ناسًا منهم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن الصحابة أجمعين، فأتى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه له، فامتنع عمر، فرجع طلحة إلى أبي بكر مغضبًا وقال: «والله ما أدري أأنت الخليفة أم عمر؟ فقال أبو بكر: بل عمر لكنّه أنا».

عباد الله: وقد جاءت وصايا السلف الصالح في الحث على اختيار الأصدقاء وانتقاء الأصحاب والأخلاء، ومن ذلك قول أحدهم: (اصحب مَن إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أصابتك فاقة جاد لك بماله، وإذا رأى منك حسنةً عدّها، وإن رأى سيئة كتمها وسترها، لا تخاف بوائقه، ولا تختلف طرائقه).

وصاحب إذا صاحبت حرًّا مبرّزًا ... يزين ويُزري بالفتى قُرناؤه

وقال لقمان لابنه وهو يعظه: (يا بني إياك وصاحب السوء، فإنه كالسيف المسلول، يعجبك منظره، ويَقبُح أثره، يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة). وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك؟ قال: (الذي يغفر زللي، ويقبل عِللي، ويسد خللي). وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اصحب من ينسى معروفه عندك، ويذكر حقوقك عليه».

أيها المسلمون: لقد أصبحت الصداقة الحقة من غرائب الدنيا وعجائب الزمان وذلك لمّا بعد الناس عن المنهج الصحيح للروابط والعلاقات فيما بينهم، فأصبح اجتماعهم إلا من رحم الله من أجل الدنيا، يجتمعون عليها، ويتفرقون من أجلها، حتى إنه ليصدُق فيهم قول القائل:

ما في زمانك ما يعزُّ وجوده ... إن رمته إلا صديقٌ مخلصُ

والمسلم العاقل عباد الله يدرك أن الحصول على الصديق الوفيّ والخليل الحميم من أصعب الأشياء إن لم يكن من المستحيلات، ولذلك ينظر بعين البصيرة إلى أعمال وأخلاق من يريد صداقته، فمن رضي أعماله وأخلاقه صادقه، ومن سخط أعماله وأخلاقه ابتعد عنه. قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إن لم يكن مثله شانه).

أيها المسلمون: ولِما للصداقة من أهمية في حياة المسلم وتأثير على سلوكه فقد ذكر أهل العلم صفات، يجب على المسلم أن يختار صديقه وجليسه على وفقها: أولها: أن يكون ذا دين واستقامة، فإنّ ذا الدين يقف به دينه على الخيرات، ويجنبه المحرمات، مما يعود على صاحبه بالخير، وتارك الدين عدوّ لنفسه فكيف ترجى منه مودةُ غيره. قال أحد السلف: (اصطفِ من الإخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب، فإنه ردءٌ لك عند حاجتك، ويدٌ عند نائبتك، وأُنسٌ عند وحشتك، وزينٌ عند عافيتك).

فالإسلام معاشر الأخوة شرط ضروري للجليس الصالح والصديق الناصح، ولن يكون صديقًا ناصحًا من يكون على غير دينك، ولن يكون خليلًا وفيًا من يخالفك في الاعتقاد، وكل صداقةٍ تُبنى على غير الإسلام فإن ضررها متيقنٌ منه قلّ أو كثر، وستنقلب هذه الصداقة إلى عداوة يوم تتبين الحقائق، وتزول الغشاوة عن العيون والبصائر ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]. ألا فليحذر من يصادقون بعض أهل البدع من الفرق الباطنية وغيرهم ويثقون بهم، وليحذر أيضًا من يصادق بعض النصارى ممن ابتلي بالعمل في الشركات فإن كل هؤلاء لا يؤمَن جانبهم.

يعطيك من طرف اللسان حلاوةً ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

الصفة الثانية: أن يكون عاقلًا، فإن العقل رأس المال، والصديق الأحمق يفسد أكثر مما يصلح، ويضر أكثر مما ينفع، لذا كان لا بد أن يكون الصديق صاحب عقلٍ موفور، وسلوك محمود، ومن الجهل صحبة ذوي الجهل والحماقة ممن لا تدوم صداقتهم، ولا تثبت مودتهم، وقديمًا قيل:

احذر مودة ماذقٍ ... مزج المرارةَ بالحلاوةِ

يُحصي الذنوب عليك ... أيام الصداقةِ للعداوةِ

الصفة الثالثة: أن يكون محمود الأخلاق، مرضيّ الفعال، مؤثرًا للخير، آمرًا به، كارهًا للشر ناهيًا عنه.

الصفة الرابعة: أن لا يكون فاسقًا، فإن الفاسق لا فائدة في صحبته، لأن من لا يخاف الله لا تؤمَن غائلته، ولا يوثق بصدقه بل يتغير بتغير الأغراض، ويتقلب بتقلب الزمان. قال أحد الفضلاء:

مجالسة السفيه سفاه رأيٍ ومن عقلٍ مجالسة الحكيم

فإنك والقرين معًا سواءٌ كما قُدَّ الأديمُ من الأديمِ

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم فإنهم زينٌ في الرخاء، وعدةٌ في البلاء، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى».

أيها المسلمون: لقد حذر المصطفى ﷺ من مجالسة الأشرار ومصاحبة الأنذال، وحث على اختيار الصديق الصالح والجليس المؤمن لما له من نفع في الدنيا والآخرة، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[1].

عباد الله: وإذا كان رسول الله ﷺ قد ضرب للجليس الصالح مثلًا بحامل المسك فإنه أعظم من ذلك وأنفع، فهو إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من معصية، أو يحثك على طاعة، أو يدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، بقوله وفعله، وأقل ما تستفيده منه أن تنكفّ بسببه عن السيئات والمعاصي رعاية لحق الصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعًا عن الشر، وهذه فائدة عظيمة لا توزن بشيء، وقديمًا قيل: ما شيء أسرع في فساد الرجل وصلاحه من صاحبه.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٣٤) ومسلم (٢٦٢٨).

قال عديّ بن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عـن المـرء لا تسـأل وسـل عـن قرينـه فكـل قـرين بالمقـارن يقتـدي

وصاحب أولي التقوى تنل من تقاهمُ ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1].

عباد الله: إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا، زينةٌ في الرخاء، وعدّةٌ في الشدة، ومعونة على خير المعاش والمعاد، هم كما قيل: إن جالستهم نفعوا، وإن شاورتهم نصحوا، وهكذا تكون مصاحبة الأخيار أهل العلم والفضل والتقى والصلاح.

والصديق الفاسد والجليس السوء مما حذر الله تعالى منه ورسوله وقد ضرب له النبي ﷺ مثلًا بنافخ الكير، لأنه يؤذي جليسه على كل حال، فهو كالحداد الذي ينفخ في كيره ويضرب على محمى حديده، إذا لم يطر شيء من شرار ناره، وطائش قذائفه الملتهبة على ثيابك وجدت من حديده وناره وكل ما يحيط به ريحًا منتنة مؤذية، وهكذا من يصاحب الأشرار وأهل السوء والفحش والمعاصي عياذًا بالله، فهو إما أن ينساق معهم إلى مواقع الإثم ومواطن الريب فتمسه نار المعصية في الدنيا ويصلى نار جهنم في الأخرى، وإما أن يناله خبيث رائحتهم واقتباس سيرتهم فيجد ما يؤذيه من قول وعمل قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨].

لا تصـحب الكسـلان في حالاتـهِ كـم صـالحٍ بفسـادِ آخـر يفسُـدُ

عـدوى البليـد إلى الجليـد سريعـةٌ والجمـر يوضـع في الرمـاد فيخمُـدُ

عباد الله: إن مصاحبة الأشرار سم ناقع، وبلاء واقع، فكم هلك بسببهم أقوام، وكم فسد بسببهم أقران، كم من شاب وفتى صغير أو كبير انحرف عن الطريق المستقيم، وضل عن الهدي القويم، وسلك سبيل الهوى والشيطان الرجيم بسبب صديق السوء، وجليس الضلالة الذي قاده إلى الخراب والهلاك، وأوقعه في الضلال والفساد خطوةً خطوة، حتى ترك الصلاة،

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٣٢).

واتبع الشهوات وفي المقابل كم من ضال تائهٍ قاده الجليس الصالح إلى مجالس الخير وحلقات الذكر فهداه الله على يديه وأصبح من عباد الله المتقين، ينافس في الخير ويُسابق في العمل الصالح.

ولا أدلّ على شدة تأثير الجليس على جليسه والصديق على صديقه مما رواه البخاري ومسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل بن هشام فقال له: «يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله». فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب، فأعاد عليه النبي ﷺ، فكان آخر الأمر أن قال: هو على ملة عبد المطلب. فمات على الشرك وأصبح حطب جهنم بسبب جلساء السوء ودعاة الضلالة.

فلنحذر عباد الله من مجالسة أهل الزيغ والفساد ولنتشبث بصداقة أهل الخير والاستقامة قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه المتقين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: اعلموا رحمني الله وإياكم أن الصداقة النافعة هي التي بنيت على تقوى الله تعالى ومرضاته، بعيدًا عن مطامع الدنيا، وشهوات الحياة، فهذه الصحبة هي النافعة في الدنيا قبل الآخرة، لأنها سريعة الاتصال بطيئة الانقطاع قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف:٦٧-٦٨]. قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وذكر منهم: «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»[١]. وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة لقربهم من الله تعالى ومجلسهم منه، هم قوم من أفناء الناس، من نزّاع القبائل، تصادقوا في الله وتحابوا فيه، يضع الله عَزَّوَجَلَّ لهم يوم القيامة منابر من نور، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله عَزَّوَجَلَّ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٢].

أما صحبة الأشرار فإنها سريعة الانقطاع، بطيئة الاتصال، تورث الخزي في الدنيا قبل الآخرة، لأن الإنسان موسوم بسيما من قارب، ومنسوبٌ إليه أفاعيل من صاحب. ولقد ذكر الله تعالى حالهم يوم القيامة إذا تقطعت بهم السبل وغرّهم السراب اللامع والبريق الخادع، وهم يصطرخون في النار ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

(٢) السلسلة الصحيحة (٣٤٦٤).

فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

عباد الله: إن الناس على ثلاث طبقات: منهم من هو كالغذاء لا يستغنى عنه. ومنهم من هو كالدواء لا يحتاج إليه إلا زمنًا معينًا. ومنهم من هو كالداء لا يحتاج إليه أبدًا.

ثم اعلموا رحمني الله وإياكم أن للصداقة آدابًا، وللصحبة حقوقًا، فلا بد من النصيحة للصديق في السر والعلن، وتخفيف الأثقال عنه ومعاونته فيما ينوبه من حادثات الدهر، أو يناله من نكبات الحياة، فإن مراقبته في الظاهر نفاق، وتركه في الشدة لؤم وخسّة. وعليك بعد ذلك أن لا تُفرِطَ في حبه، بل تترفق وتقتصد، فإن الأيام دول، فقد يصير الصديق عدوًّا، والعدوّ صديقًا. قال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما» رواه البخاري في الأدب المفرد.

قال الحسن البصري: (إخواننا أحب إلينا من أهلينا، إخواننا يذكروننا بالآخرة وأهلونا يذكروننا بالدنيا).

وقال عمر ابن الخطاب: «عليك بإخوان الصدق فعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء».

إن الأخوة قائمة على الكرم، والصدق، والأمانة، والوفاء، والبذل، والإيثار.

جاء عن فتح الموصلي أنه قال: (هل يُدخل أحدكم يده في جيب أخيه فيأخذ ما يريد؟ قالوا: لا، قال: فلستم بإخوان)، و(سافر مرة، فجاء أحد إخوانه إلى بيته فسأل عنه، فخرجت الجارية، فقال: إنه مسافر، فقال: هاتي لي صُرة أخي، فأخرجت له صرة فيها دراهم، فأخذ بعضها وانصرف، فلما جاء فتح الموصلي، أخبرته، فقال: إن كنت قد صدقتِ فأن حُرة، فأعتقها)، فرحًا ببذله لأخيه.

وهذا إنما يكون فيمن تعمقت فيهم الأخوة، وزالت بينهم الحواجز، فهم أهل صدق ووفاء وبذل وسخاء، ودين وتقوى.

ولا بد أيضًا من غض الطرف عن الزلات، والتجاوز عن الهفوات بقدر ما يحفظُ الصداقة، وتدوم معه العشرة، فإن من رام بريئًا من الهفوات سليمًا من الزلات فقد رام مستحيلًا:

ومن يتتبع جاهدًا كل عثرةٍ ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحبُ

ولله در القائل:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

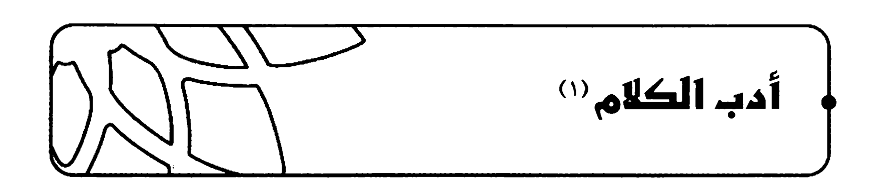
فعش واحدًا أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنبٍ مرةً ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه

اللهم رحمة اهد بها قلوبنا، واجمع بها شملنا، ولم بها شعثنا، ورد بها الفتن عنا اللهم صلِ على محمد ...







أدب الكلام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله القاهر فوق عباده عزًا وسلطانًا، تعالى مجده، وتعاظم ملكه، قسَّم الخلق بعدله ورحمته، فممتحل كفرًا، ومنتحل إيمانًا. أحمده سبحانه وأشكره، وأسأله المزيد من فضله وكرمه، والإعانة على ذكره وشكره، وحسن عبادته، فطوبى لمن ذُكِّر بآيات ربه فزادته إيمانًا، وويل لمن ذُكِّر بها فخر عليها صُمًا وعميانًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، دعا إلى الحق سرًا وإعلانًا، فأشاد بالتوحيد منائر، وكسر للشرك أصنامًا، وهدم أوثانًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا للدين دعاة وعلى الحق أعوانًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، فالتقوى وصية الله للأولين والآخرين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها المؤمنون: لقد امتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعم عديدة، وأحوال متكاثرة فريدة، ومن تلكم النعم، نعمة البيان واللسان، نعمة النطق والكلام: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدمِ

اللسان، نعمة جليلة، ومخلوق صغير، داخل كيان هذا الإنسان، لكن له شأن عظيم، فما أصغر حجمه وما أصغر أثره على الإنسان. اللسان -أيها الأحبة- يعتريه شيئان، الكلام والسكوت فكلام اللسان له سلبيات، وهي ما تسمى بالآفات، وله إيجابيات، وهي الطاعات

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

والقربات. وسكوت اللسان قد يكون آفة، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، وقد يكون عملًا صالحا؛ كما قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»[1]. فالسكوت والصمت، خير من الكلام بالباطل وبالفحش.

الصمت زين والسكوت سلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما إن ندمتُ على سكوتي مرة ... ولقد ندمت على الكلام مرارا

أيها المسلمون: اللسان تتعلق به آفات كثيرة، وخصال عديدة، ولهذا قال ﷺ: فيما رواه الترمذي بسند حسن عند أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان -أي تخضع له- فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[2]. وعندما سأله معاذ بن جبل عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، أخبره النبي ﷺ برأسه وعموده، وذروة سنامه، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: كف عليك هذا»[3]. و «إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمةِ، ما يتبيَّنُ ما فيها، يهوي بها في النارِ أبعدَ ما بينَ المشرقِ والمغربِ»[4].

إن الحديث -أيها المسلمون- عن اللسان وآفاته، حديث لا ينقطع ولا ينتهي؛ لأنك إن أردت الحديث عن ذلك، فإنك ستلاحقك سائر شئون الحياة التي يحياها الإنسان، فهناك الكذب، وبضده الصدق، وهناك الكف عن أعراض الناس، وبضده الغيبة والنميمة، وهناك التقعر في الكلام، وقد هلك المتنطعون، وهناك قول الزور، ولغو الحديث والخوض في الباطل، وهناك التحدث بالأخبار من غير تثبت، وهناك الطعن في نيات الصالحين، والتلذذ بتشويه سمعة من آتاه الله فضلًا وعلمًا وعفة. وهذا إذا صار معه الهوى -والعياذ بالله- كان

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٠٧).

(٣) صحيح الترمذي (٢٦١٦).

(٤) رواه مسلم (٢٩٨٨).

الكلام مطيته الكذب، وسوء الظن، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]. وقال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران:١٨١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١]. وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

أيها المسلمون: إن أقل الورع يكون في اللسان، قال بعض السلف: (فتشنا الورع، فلم نجده في شيء أقلّ منه في اللسان).

لسانك لا يلقيك في الغي لفظه ... فإنك مأخوذ بما أنت لافظ

اللسان معبر عندما اشتمل عليه قلب الإنسان، فإن كان القلب زكيًا مؤمنًا كانت ألفاظه طيبة، وإن كان القلب خربًا مظلمًا بظلمة المعصية، كانت ألفاظ اللسان سيئة بذيئة. إن من الناس من يعيش -مع كل أسف- بذيء اللسان، شرس الطبع، لا تحجزه مروءة، ولا يردعه أدب، جرد لسانه مقراضًا للأعراض، بكلمات تنضح فحشًا، وألفاظ تنهش نهشًا، يسرف في التجني على عباد الله بالسخرية واللمز، وكأنه قد وكل إليه تجريح عباد الله. ويزداد الأمر، وتعظم البلية، حين ترى من عليه ملامح الاحتشام، وسيما الوجاهة، وهيئات العلماء يسفر عن بذاء وثرثرة، يزعج بكلامه الباطل كل من جالسه، لا يدع لأصحاب الفضل فضلًا، يحمل على أهل الخير، ومن شهد له بالصلاح، حملات شعواء، أحياءً وأمواتا، لزلة لسان، أو سبق قلم، هذا حجزه عن عيوب الناس ما يعلم من عيوب نفسه.

إذا رمت أن تحيا سليمًا من الأذى ... ودينك موفور وعرضك صيّنٌ

لسانك لا تذكر به سوءة امرئ ... فكلك سوءات وللناس ألسن

وعيناك إن أبدت لك معايبًا ... فقل لها يا عين، للناس أعين

ذكر رجل آخر بسوء عند إياس بن معاوية، فقال له: (هل غزوت الترك والروم؟ فقال: لا. فقال: سلم منك الترك والروم، ولم يسلم منك أخوك المسلم). إن الاشتغال بالطعن في

الناس، خاصة من عرف بالدعوة والعلم، وذكر نقائصهم، والتسلي بالخوض في معائبهم، وإفشاء مقالة السوء بينهم، من طبائع القلوب المريضة، والصدور الحاقدة، وهو من أظهر الدلائل على قلة التوفيق -والعياذ بالله-، قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(١). فاحذر -أيها المسلم- من لسانك، وزن كلامك وتأمل عاقبة قولك قبل أن تتلفظ به، فرُب كلمة سلبت نعمة، وإن الكلمة إذا خرجت من فمك لا يمكن استردادها، وقد يصعب تدارك خطرها، فالملائكة كتبوا، والناس سمعوا، والمرجفون علقوا وشرحوا وزادوا، وأنت وحدك الذي تتحمل كل هذه التبعات والمسئوليات.

أيها المسلمون: لقد جاءت الشريعة وحثت على اختيار الطيب من القول، وأمرت بحسن الكلام، ونهت عن الضد من ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]. وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣]. وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤]. وقال: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨]. والله -جل وتعالى- أنكر على الصحابة قول المنكر من الألفاظ ونهى عنها، ألم تسمع لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:٢]. قالوا: ألفاظ الظهار، وهي ألفاظ محرمة، لا يليق بمؤمن أن يتلفظ بها مع زوجته، لما فيها من التعدي والتحريم، فقول الرجل لامرأته: (أنت عليّ كظهر أمي) هذا قول منكر، ولفظ لا يجوز للمؤمن أن يأتي به، ولهذا شرعت له الكفارة.

بل إن الله -جل وعز- لينكر على الصحابة الجهر بالقول، والزيادة في الصوت، فضلًا عن اللفظ نفسه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]. ولهذا فقضية اللفظ والقول، وحُسن تخيّر الكلام، مع من تخاطبه، قد جاءت بها الشريعة، ثم اسمع لهذه الآية:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٤) ومسلم (٤١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٠٤]. نهى الله عَزَّوَجَلَّ الصحابة أن ينادوا رسول الله ﷺ بلفظة: راعنا: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة:١٠٤]. السبب هو أن الأمة الغضبية، اليهود، كانوا يقولون يا محمد راعنا، وكلمة راعنا لها عدة معاني، فتأتي بمعنى انتظرنا، وتأتي بمعنى أنك يا محمد راعٍ فيك رعونة، أو غير ذلك من مرادات اليهود، المغضوب عليهم، كما حكاه أهل التفسير. وأيًا كان معناها، فقد نهى الله الصحابة عن التشبه باليهود، وأمرهم بغيرها لكمالها وحسنها وأدبها. ومن هذا الباب ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، اسق ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل: أحدكم عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»(١). فالرب هو الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوز أن يقول الرجل لمولاه: أطعم ربك، يعني سيدك، وإن كان معناه صحيحًا من جهة اللغة، ولكن لما كان الرب هو الله سبحانه، نهى النبي ﷺ عن ذلك، وأبدله بلفظ أحسن منه. ومن ذلك: نهيه عليه الصلاة والسلام أن يقول الرجل إذا شعر بملل أو كسل أو فتور، نهاه أن يقول: «خبثت نفسي» ولكن ليقل: لقست نفسي، أي فترت وكسلت.(٢) فخبثت نفسي لفظ غير حسن، وفيه معان سيئة، فلهذا نُهي عنه. والحديث في البخاري. ومن ذلك: النهي عن تسمية العنب بالكرم، قال ﷺ: «لا يقولن أحدكم للعنب الكرم، فإنما الكرم قلب المؤمن»(٣). فلفظة الكرم تدل على كثرة الخير والمنافع، ولا يليق إطلاقها على العنب الذي تتخذ منه الخمور والأشربة المحرمة. ومن هذا الباب: التلفظ بألفاظ الطلاق والنكاح والعتق والظهار، والنذور ونحو ذلك مما يتساهل فيه بعض الناس. ناهيك عن بعض الألفاظ التي قد تخرج صاحبها من الإيمان والإسلام، مما يكون فيها كفر أو اعتراض على إرادة الله، وخلقه وتصريفه لشئون الكون، وبعض ألفاظ الاستهزاء والسخرية بالدين أو بأهله -نعوذ بالله من الخذلان-. اسمع لهذه القصة الطريفة، والتي ذكرها صاحب

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢) ومسلم (٢٢٤٨).

(٢) رواه البخاري (٦١٧٩) ومسلم (٢٢٥٠).

(٣) رواه البخاري (٦١٨٣) ومسلم (٢٢٤٧).

كتاب الحاوي للفتاوى في المجلد الأول منه (ص٢٤١) لترى حساسية السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ودقة تربيتهم، حتى لأولادهم في انتقاء الألفاظ، (كان الشيخ تاج الدين ابن السبكي، مع جماعة له في دهليز داره، فمر بهم كلب يقطر ماءً، يكاد يمس ثيابهم، يقول فنهرته، وقلت: يا كلب ابن الكلب، وإذا بأبيه الشيخ العلامة تقي الدين السبكي سمعه من داخل البيت، فلما خرج على ولده، قال له: لم شتمته؟ فقال: ما قلت إلا حقًا، أليس هو بكلب ابن كلب؟ فقال: هو كذلك، إلا أنك أخرجت الكلام في مخرج الشتم والإهانة، ولا ينبغي ذلك). فقس -رعاك الله- تربيتنا لأنفسنا ولأولادنا، في حسن انتقاء الألفاظ. نفعني الله وإياكم بهدي كتابه، واتباع سنة نبينا نحمد ﷺ. أقول هذا القول...



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فيا أيها الأحبة المسلمون: لقد كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يتخيرون ألفاظهم، ولا ينطقون إلا بالكلام الطيب الحسن؛ لأنهم يعلمون أنهم سيلاقوه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. فلا يريدون أن يروا في صحائف أعمالهم ألفاظًا بذيئة فاحشة، غيرُ حسنة. وكان هذا هديًا عامًا فيهم، وتلك من صفات أهل الإيمان. قال يونس بن عبد الأعلى: (كانت ألفاظ الشافعي كأنها سكر). وكان يقول: (ما كان الشافعي إلا ساحرًا يقصد به حديث رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا»)[1]. وكان يقول ابن هشام صاحب السيرة: (طالت مجالستنا للشافعي، فما سمعت منه لحنةً قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها). ولهذا فتن الناس الشافعي لما قدم مصر، من حسن حديثه وبيانه.

أيها المسلمون: كم من لفظة يقولها الإنسان، فتؤثر في حياته كلها، وتقلبها رأسًا على عقب، رب لفظة قالها رجل، هدمت بيته، وفرقت شمله، ورب كلمة سيئة خرجت، فرقت الصديق عن صديقه، ورب كلمة قيلت، حرمت صاحبها من رزقه ووظيفته.

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرِّجلِ

فعثرته في القول تذهب رأسه ... وعثرته بالرِّجلِ تبرى على مهلِ

لعلي أختم -أيها الأحبة- بأن أقرأ عليكم حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما نحن بصدد الحديث عنه، فإنه حديث عظيم، يحتاج إلى وقوف وتأمل، قال معاذ: قلت يا رسول الله: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبدُ الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاةُ الرجل من جوف الليل»، ثم تلا:

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٧).

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]. ثم قال: «يا معاذ ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال: يا معاذ، ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟! -كل ما تقدم- قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه عليه الصلاة والسلام وقال: كف عليك هذا، قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بها نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»(١).

فاتقوا الله عباد الله: واعقلوا ما تقولون، فإنكم بذلك مجزيون، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وفقنا الله جميعًا لمرضاته، ورزقنا العلم النافع والقول الصائب، والعمل الصالح..

اللهم إنا نعوذ بك من شر سمعنا وبصرنا، ونعوذ بك من شر ألسنتنا، اللهم قوم ألسنتنا، وسدد ألفاظنا، اللهم احفظنا من بين أيدينا.



---

(١) صحيح الترمذي (٢٦١٦).

أدب الاستئذان (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينا، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ذو الأدب الجم والخلق الرفيع، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

أما بعد: فاتقوا الله -أيها المؤمنون- وعظموا أمر ربكم، واستغفروه ثم توبوا إليه: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر:٥٥].

عباد الله: لقد جعل الله البيوت سكنًا يأوي إليها أهلها، تطمئن فيها نفوسهم، ويأمنون على حرماتهم، يستترون بها مما يؤذي الأعراض والنفوس، يتخففون فيها من أعباء الحرص والحذر.

وإن ذلك لا يتحقق على وجهه إلا حين تكون محترمة في حرمتها، لا يستباح حماها إلا بإذن أهلها، في الأوقات التي يريدون، وعلى الأحوال التي يرغبون: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٢٧-٢٨].

إن اقتحام البيوت من غير استئذان؛ هتك لتلك الحرمات، وتطلع على العورات، وقد يفضي إلى ما يثير الفتن، أو يهيء لغوايات تنشأ من نظرات خائنة، تتبعها أمور مريبة، تنقلب إلى أفعال آثمة، واستطالات محرمة. وفي الاستئذان وآدابه ما يدفع هاجس الريبة، والمقاصد السيئة.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

أيها الإخوة المؤمنون: إن كل امرئ في بيته قد يكون على حالة خاصة، أو أحاديث سرية، أو شؤون بيتية، فيفجؤه داخل من غير إذن، قريبًا كان أم غريبًا، وصاحب البيت مستغرق في حديثه، أو مطرق في تفكيره، فيزعجه هذا أو يخجله، فينكسر نظره حياءً، ويتغيظ سخطًا وتبرمًا.

ولقد يقصّر في أدب الاستئذان بعض الأجلاف ممن لا يهمه إلا قضاء حاجته، وتعجُّل مراده، بينما يكون دخوله محرجًا للمزور مثقلًا عليه.

وما كانت آداب الاستئذان وأحكامه إلا من أجل أن لا يفرِّط الناس فيه أو في بعضه، معتمدين على اختلاف مراتبهم في الاحتشام والأنفة، أو معولين على أوهامهم في عدم المؤاخذة، أو رفع الكلفة.

تأملوا -أيها المؤمنون- قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور:٢٧].

إنه استئذان في استئناس، يعبر عن اللطف الذي يجب أن يكون عليه الزائر أو الطارق مراعاةً لأحوال النفوس وتهيؤاتها، وإدراكًا لظروف الساكنين في بيوتاتهم وعوراتهم.

وهل يكون الأُنس والاستئناس إلا بانتفاء الوحشة والكراهية؟!

أدبٌ رفيع يتحلى به الراغب في الدخول لكي يطلب إذنًا لا يكون معه استيحاش من رب المنزل، بل بشاشة وحسن استقبال.

ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين مستأنسين، فذلك عون على تأكيد روابط الأخوة الإسلامية.

ولقد بسطت السنة المطهرة هذا الأدب العالي، وازدان بسيرة السلف الصالح تطبيقًا وتبيينًا.

فكان نبيكم محمد إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن، أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم»[1].

---

(١) صحيح أبي داود (٥١٨٦).

ووقف سعد بن عبادة مقابل الباب، فأمره النبي أن يتباعد، وقال له: «وهل الاستئذان إلا من أجل النظر؟!»[1].

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اطلع رجل من جحرٍ في حُجَر النبي، ومع النبي مدرى -أي: مشط- يحك به رأسه، فقال النبي ﷺ: «لو أعلم أنك تنظر؛ لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»[2].

والمستأذن -أيها الإخوة- يستأذن ثلاث مرات، فإن أُذن له وإلا رجع. وقد قيل: إن أهل البيت بالأولى يستنصتون، وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يردُّون، لكن قال أهل العلم: (لا يزيد على ثلاثٍ إذا سُمع صوته وإلا زاد حتى يعلم أو يظن أنه سُمع).

ويقول في استئذانه: السلام عليكم، أأدخل؟! فقد استأذن رجل على النبي وهو في بيته فقال: أألج؟! فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعلِّمه الاستئذان، فقل له: قلْ: السلام عليكم، أأدخل؟!»، فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟! فأذن له النبي ﷺ، فدخل[3]. وله أن يستأذن بنداءٍ أو قرع أو نحنحة أو نحو ذلك.

تقول زينب امرأة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان عبد الله إذا دخل تنحنح وصوَّت.

ويقول الإمام أحمد: (يستحب أن يحرك نعله في استئذانه عند دخوله حتى إلى بيته؛ لئلا يدخل بغتة). وقال مرةً: (إذا دخل يتنحنح).

ومن الأدب أن الطارق إذا سئل عن اسمه فليبينه، وليذكر ما يُعرف به، ولا يجيب بما فيه غموضٌ أو لبسٌ؛ يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتيت إلى النبي في دَيْن كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا؟!»، فقلت: أنا، فقال النبي ﷺ: «أنا أنا!!»، كأنه كرهها[4].

وإذا قرع الباب فليكن برفق ولين من غير إزعاج أو إيذاء ولا ازدياد في الإصرار، ولا يفتح الباب بنفسه، وإذا أذن له في الدخول فليتريث، ولا يستعجل في الدخول، ريثما يتمكن

---

(١) صحيح أبي داود (٥١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦).

(٣) صحيح أبي داود (٥١٧٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٥٠).

صاحب البيت من فسح الطريق وتمام التهيؤ، ولا يرم ببصره هنا وهناك، فما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر.

والاستئذان حقٌّ على كل داخل من قريب وبعيد من الرجل والمرأة، ومن الأعمى والبصير.

عن عطاء بن يسار، أن رسول الله سأله رجل فقال: يا رسول الله: أستأذن على أمي؟! فقال: «نعم»، قال الرجل: إني معها في البيت؟! فقال رسول الله ﷺ: «استأذن عليها». فقال الرجل: إني خادمها. فقال له رسول الله ﷺ: «استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟!»، قال: لا. قال: «فاستأذن عليها»[(١)].

ويقول أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا دخل أحدكم على والدته فليستأذن».

والأعمى يستأذن كالبصير، فلربما أدرك بسمعه ما لا يدركه البصير ببصره. (ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه، صُبَّ في أذنه الآنك يوم القيامة)، والآنك هو الرصاص المذاب.

أيها الإخوة في الله: وهناك أدب قرآني عظيم، لا يكاد يفقهه كثير من المسلمين، إنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨].

إن من حق صاحب البيت أن يقول بلا غضاضة للزائر والطارق: ارجع. فللناس أسرارهم وأعذارهم، وهم أدرى بظروفهم، فما كان الاستئذان في البيوت إلا من أجل هذا.

وعلى المستأذن أن يرجع من غير حرج، وحسبه أن ينال التزكية القرآنية.

قال بعض المهاجرين: «لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها. لقد طلبت أن أستأذن على بعض إخواني ليقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط. لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]». ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره.

---

(١) صححه الألباني مرسلًا في تخريج مشكاة المصابيح (٤٥٩٨).

إن من الخير لك ولصاحبك -أيها الطارق- أن يَعتذر عن استقبالك بدلًا من الإذن على كراهية ومضض، ولو أخذ الناس أنفسهم بهذا الأدب، وتعاملوا بهذا الوضوح؛ لاجتنبوا كثيرًا من سوء الظن في أنفسهم وإخوانهم.

فاتقوا الله -أيها المؤمنون- والتزموا بدينكم، واستمسكوا بآدابه، وحافظوا على مشاعر الأخوة، وتخيروا في أوقات الزيارات، وقدّروا لإخوانكم أحوالهم وظروفهم، والتمسوا لهم الأعذار، ودعوا الأعراف والتقاليد الخاطئة.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وبسنة نبيه محمد ﷺ، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله معزّ من أطاعه واتقاه، ومذل من خالف أمره وعصاه، أحمده سبحانه وأشكره، من توكل عليه كفاه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اصطفاه واجتباه، وقرَّبه إليه وأدناه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه.

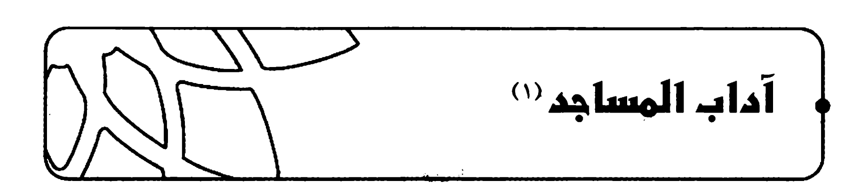
أما بعد:

أيها الناس: اتقوا الله واعلموا أن الإسلام كما شرع آدابًا للاستئذان من خارج البيوت؛ فقد أوضح آدابًا خاصة أدَّب بها الصغار الذين لم يبلغوا الحلم في أوقات خاصة في عورات ثلاث: من قبل صلاة الفجر، وفي أثناء الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، أوقات يخلو بها المرء في نفسه، أو مع زوجته، يتخفف فيها من كثير من القيود، فللعمل وقته، وللراحة وقتها، فيعطي كل ذي حق حقه.

أيها الإخوة في الله: إن هذه التفاصيل الدقيقة في آداب الاستئذان تؤكد فيما تؤكد حرمة البيوت، ولزوم حفظ أهلها من حرج المفاجآت، وضيق المباغتات، والمحافظة على ستر العورات. عورات كثيرة تعني كل ما لا يُرغب الاطلاع عليه من أحوال البدن، وصنوف الطعام واللباس وسائر المتاع، بل حتى عورات المشاعر والحالات النفسية، حالات الخلاف الأسري، حالات البكاء والغضب والتوجع والأنين. كل ذلك مما لا يُرغب في الاطلاع عليه لا من الغريب ولا من القريب، إنها دقائق يحفظها ويسترها أدب الاستئذان. فهل يدرك هذا أبناء الإسلام؟!

أيها المؤمنون: إن الإسلام دين التكامل والرقي، والأدب والذوق الرفيع، فمن أين لهذا النبي الأمي كل هذه الآداب والشمائل والتوجيهات الراقية؟ إلا من عند الله الذي أدّب نبيّه فأحسن تأديبه، وأدب هذه الأمة بما جاء في كتابه وسنة نبيه من أخلاق وآداب.

فاتقوا الله ربكم، وامتثلوا هدي نبيكم، واعلموا أن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى فيه بملائكته المسبحة بقدسه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].



آداب المساجد[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتفرد بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، القائم على كل النفوس بآجالها، العالِم بتقلبها وأحوالها، أحمده سبحانه وأشكره، نفذت في خلقه مشيئته، ومضت فيهم إرادته، فهم على أقدارهم يمشون، وبما تيسر لهم من الأعمال يعملون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أكمل به الدين وأظهره على جميع الأديان، صلى الله وسلم وبارك عليه ما تعاقب الجديدان، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فيا أيّها المسلمون: اتَّقوا الله فإنَّ تقواه أفضلُ مكتسَب وطاعتَه أعلى نَسَبٍ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيّها المسلِمون: المساجِدُ بيوتُ الله، بُنِيت جُدُرها ورفِعَت قواعدها على اسمه وحدَه لا شريك له، يُعبَد فيها ويوحَّد، ويعظم فيها ويمجَّد، ويركَعُ له فيها ويُسجَد، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن:١٨].

أَذِنَ الله برَفعِها وعِمارتها، وأمَرَ ببِنائها وصِيانَتِها، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النور:٣٦]. بِناؤها من أعظم القُرَب لمن أخلص لله واحتَسَب، فعَن عثمانَ قال: سمعتُ رسولَ الله يقول: «مَن بَنَى لله مَسجدًا يَبتغِي به وجهَ الله بَنى الله له بيتًا في الجنة»[2].

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) رواه البخاري (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣).

أمَرَ الشارع بتطهيرِها وتنظيفِها وتنزيهِهَا وتطييبها، فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أمَرَ رسول الله ببناء المساجِدِ في الدور يعني: في القبائل وأن تُنَظَّف وتُطَيَّب.[1]

هِي أحبُّ البقاع وأطهر الأصقاع، فعن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله قال: «أحَبّ البلاد إلى الله تعالى مساجدُها، وأبغَضُ البلاد إلى الله أسواقُها»[2].

ولِعظيمِ فضلها وشريفِ مكانتها شُرِع لقاصدها من الآداب والسنَن والأحكام ما يحسُن التنبيهُ عليه؛ رعاية لحرمتها وتذكيرًا بحقِّها.

أيّها المسلمون: يُستَحَبُّ لقاصِدِ المسجد أن يتجمَّل لصلاتِه بما يستطيع من ثيابِه وطيبِه وسِواكه، قال جل في علاه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]، وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله: «إذا صلَّى أحدُكم فليلبَس ثوبَيه، فإنَّ الله أحقُّ مَن يُتزيَّن له»[3]

ولا يجوز أن يصلِّيَ في ثوبٍ رقيق يَشفّ عنه أو ضيّقٍ يكشف عن عورته أو قصيرٍ ينحسر عن سَوأته، وتحرُم صلاته في ثوبٍ فيه صورة أو ثوبٍ مسبِل، فعن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله يقول: «من أسبل إزارَه في صلاتِه خُيلاءَ فليس مِنَ الله جلّ ذِكرُه في حلٍّ ولا حَرام»[4]

وعلى المصلِّي اجتنابُ الروائحِ الكريهة في ملبسِه ومأكله، فلا يؤذِي إخوانه المصلين ببخَر فمِه وقَذَر أنفِه وطَفَسِ ريقِه وسهكِ عرقه ونَتَن رائحته، فعن جابر أنَّ رسول الله قال: «مَن أكَلَ البصلَ والثومَ والكرّات فلا يقربنَّ مسجدنا؛ فإنَّ الملائكة تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدم»[5]، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان الناس ينتابون الجمعةَ من منازلهم ومن العَوالي، فيأتون في العباء، ويصيبهم الغبار، فتخرج منهم الريح، فأتى رسولَ الله إنسانٌ منهم وهو

(١) صحيح أبي داود (٤٥٥).

(٢) رواه مسلم (٦٧١).

(٣) صحيح الجامع (٦٥٢).

(٤) صحيح أبي داود (٦٣٧).

(٥) رواه مسلم (٥٦٤).

عندي، فقال رسول الله: «لو أنكم تطهَّرتم ليومِكم هذا»[1]. فأكرِم بعبدٍ يأتي بيوتَ الله مُتطهِّرًا مُتنظِّفًا، تفوح رائحته طيبًا وقَطرًا وتسطَع أرجًا ونشرا وتتضوّع عُودًا وعَرفا.

ويخرج المسلم إلى المسلم للصلاة بسكينة ووقار، ويقارب خُطاه، ويقول ما ورد، ولا يشبِّك أصابعَه، وإن سمع الإقامةَ لم يسعَ إليها، فعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله: «إذا سمعتمُ الإقامةَ فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقارِ، ولا تسرِعوا، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا»[2].

ويستَحَبّ التبكير والتهجير إليها، فعن أبي هريرةَ أن رسولَ الله قال: «لو يعلَم الناسُ ما في النداءِ والصفِّ الأول ثم لم يجِدوا إلا أن يستهِموا عليه لاستَهَموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتَمَة والصبح لأتوهما ولو حبوًا»[3].

ويقدِّم رجلَه اليمنى عند دخولِ المسجد، ويسلِّم على النبيِّ محمَّد، ويقول: «اللّهمّ افتح لي أبوابَ رحمتك»، وإذا خرَج سلَّم على النبيِّ وقال: «اللّهمّ افتح لي أبواب فضلك، أو: اللّهمّ أجِرني من الشيطان الرجيم».

ولا يجلِسُ حتى يصَلِّيَ تحيّةَ المسجد ركعتين، فعن أبي قتادةَ أنَّ رسولَ الله قال: «إذا دخل أحدُكم المسجدَ فليركع ركعتين قبل أن يجلِس»[4]. ومَن دَخَل يومَ الجمعة والإمامُ يخطُب فلا يجلِس حتى يصَلِّيَ ركعتين في أصحِّ قولي العلماء، يخفّفهما ويتجوَّز فيهما، فعن جابرٍ قال: جاءَ سُليكٌ الغطفانيّ يومَ الجمعة ورسول الله يخطب فجلس، فقال له النبيّ: «يا سُلَيك، قم فاركع ركعتين وتجوَّز فيهما»، ثمّ قال: «إذا جاء أحدكم يومَ الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوَّز فيهما»[5]. ومَن دخَل يومَ الجمُعةِ والمؤذِّن يؤذن الأذانَ الثاني فليُبادر بصلاةِ تحية

---

(١) رواه البخاري (٩٠٢) ومسلم (٨٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٦) ومسلم (٦٠٢).

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٩) ومسلم (٤٣٧).

(٤) رواه البخاري (٤٤٤) ومسلم (٧١٤).

(٥) رواه مسلم (٨٧٥).

المسجد، ولا ينتظر المؤذّنَ حتى ينتهيَ؛ لأنَّ ذلك يفضي إلى أن يشرَع في تحيّة المسجد والإمامُ يخطب والإنصاتُ للخطبة واجب.

وإذا أقيمَت الصّلاةُ فيحرُم على المصلّي أن يشرَعَ في نافلةٍ أو سنّة راتبة في أصحّ قولي العلماء؛ لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إذا أُقِيمَت الصلاةُ فلا صلاةَ إلا المكتوبة»[١].

ومِن اختلافِ بعض المصلين على الإمامِ ومخالفَتِهم لجماعةِ المسلمين دخولُهم المسجدَ في صلاة الفجر والإمام يصلّي فلا يلتحقون بالجماعةِ حتى يصلّوا سنّةَ الفجر خلفَ جماعة المسلمين، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يصلِّيَ في المسجد شيئًا مِنَ النّوافل إذا قامَت المكتوبة.

ومَن فاتَته سنّةُ الفجر فيُستَحَبّ له قضاؤها بعدَ ارتفاع الشمس قيدَ رُمح؛ لما روى أبو هريرةَ أنَّ النبيَّ قال: «من لم يصلِّ ركعتي الفجر فَليصلِّهما بعدما تطلُع الشّمس»[٢]. وإن قضاها بعد صلاةِ الفجر قبل أن تطلع الشمس جازَ؛ لحديث قيس بن عمرو قال: رأى رسول الله رجلًا يصلِّي بعد صَلاةِ الصبح ركعتين، فقال رسول الله: «صلاةُ الصبحِ [ركعتان]»، فقال الرجل: إني لم أكن صلَّيتُ الركعتين اللّتين قبلهما فصلَّيتهما الآن، فسكت رسول الله[٣].

أيّها المسلمون: المصلُّون في المسجدِ كلُّهم سواء، فمن سبَقَ إلى مكان في المسجدِ استحقّه، ومن أقامه منه بغيرِ حقٍّ فهو مغتصِب، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ قال: «لا يقيمَنَّ أحدكم الرجلَ من مجلسِه ثم يجلس فيه»[٤]. وليس لأحدٍ أن يتحجَّر من المسجد شيئًا، فيضَعَ سُجّادةً أو بساطًا أو عصا أو غير ذلك قبل حضورِه، أو يوكِّل من يحجز له، وليس لشيء مما وضَعَ حرمةٌ، بل يزال ويُصلَّى مكانَه. ومَن سبَق إلى مكانٍ في المسجدِ ثم فارَقَه لتجديدِ وضوء

(١) رواه مسلم (٧١٠).
(٢) صحيح الترمذي (٤٢٣).
(٣) صحيح أبي داود (١٢٦٧).
(٤) رواه مسلم (٢١٧٧).

ونحوِه فلا يبطُلُ اختصاصُه به، وله أن يقيمَ من قعد فيه، ويجِب على القاعد طاعتُه، فعن أبي هريرةَ أن رسول الله قال: «من قام من مجلسِه ثم رجَع إليه فهو أحقُّ به»(١).

ولا يَصُفّ في طرقات المجلس وأبوابه لئلاّ يمنع المصلين دخولَ المسجد، بل يتقدَّم إلى الصفوف المتقدِّمة، فعن أنس أن رسولَ الله قال: «أتمُّوا الصفَّ المتقدِّم ثم الذي يليه، فما كان من نقصٍ فليكن في الصفِّ المؤخَّر»(٢).

وإذا علِم المصلّي أنه إذا مشى إلى الصفّ المتقدِّم فاتته الركعة وإن صلَّى في الصفّ المؤخَّر لم تفُته فقد قال العلماء: إن كانت الركعةَ الأخيرة صلّى في الصفِّ المؤخَّر، وإذا كانت غيرها مشى إلى الصف المتقدِّم. وقال في الإنصاف: (وقد يقال: يحافِظ على الركعة الأولى والأخيرة).

ولا يصلَّى بين السواري إلا إذا ضاقَ المسجِد فلا بأس بالصلاة بينها.

ويستَحَبّ صلاة المصلي إلى سترةٍ ودنوُّه منها ولو لم يخش مارًّا، وإن أراد أحدٌ المرور بين يديه فله منعُه، فإن أبى فلَه دفعُه، فإن أبي فلَه المبالغةُ في قهرِه عن المرور بما لا يفضِي إلى الفتنةِ وفسادِ الصلاة، فعن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله: «إذا صلّى أحدُكم فليصلِّ إلى سترة، وليدنُ منها، ولا يدع أحدًا يمرُّ بينه وبينها، فإذا جاء أحدٌ يمرّ فليقاتله فإنّه شيطان»(٣).

ويحرُم المرور بين يدَي المصلّي حتى ولو لم يجِد المارّ مَساغًا وسبيلًا غيرَه، إلاّ لضرورة أو مشقّة عظيمة لا يمكِن دفعُها؛ لما روى أبو جهيم الأنصاريّ قال: قال رسول الله: «لو يعلم المارّ بَين يديِ المصلّي ماذا عليه لكان أن يقفَ أربعين خيرًا له من أن يمرَّ بين يديه»، قال أبو النضر: لا أدرِي قال: أربعين يومًا أو شهرًا أو سنة(٤).

(١) رواه مسلم (٢١٧٩).

(٢) صحيح أبي داود (٦٧١).

(٣) صحيح الجامع (٦٥١).

(٤) رواه البخاري (٥١٠) ومسلم (٥٠٧).



أيها المسلمون: وعلى قاصِد المسجد أن لاَ يؤذِيَ إخوانه المصلّين بتخطّي رقابهم ومضايَقَتهم ومزاحمَتِهم ومحاولةِ اقتحام الصفّ عليهم مع تعذُّر ذلك بسبَبِ الضيق والازدحام الشديد، أو بالتشويشِ عليهم بالجهر بالقراءةِ والدعاء، فعن أبي سعيد الخدريّ قال: اعتكف رسول الله في المسجدِ، فسمعهم يجهرون بالقراءةِ، فكشف السترَ فقال: «ألا إنَّ كلَّكم مناجٍ ربَّه، فلا يؤذِيَنَّ بعضكم بعضًا، ولا يرفَع بعضكم على بَعضٍ في القراءة» أو قال: «في الصلاة»[1].

ومن التشويشِ والإيذاء الذي عمَّ وطمَّ في مساجدِ المسلمين وقطَعَ عليهم خشوعَهم وسكونهم ما يصدُر من أجهزةِ الجوّال اليومَ من المقاطع الغنائيّة والنغمات الموسيقيّة والأصوات المطرِبَة التي آذت المسلمين أيّما إيذاء، فعَلى كل مسلم يخشى ربَّه ويخاف عقوبتَه أن لا يدنِّسَ بيوتَ الله التي بُنيَت للذكرِ والصلاة وقراءةِ القرآن بهذه النَّغَمات المحرمة والأجراس الشيطانيّة، وعليه أن يسارع في محوِها والتخلُّص من شرِّها وإثمها.

جعلني الله وإيّاكم من الهداة المهتدين المتَّبعين لسنّة سيد المرسلين، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمينَ من كلّ ذنب وخطيئة، فاستغفِروه إنه كان للأوّابين غفورًا.

---

(١) صحيح أبي داود (١٣٣٢).

الخطبة الثانية:

الحمد على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أنَّ نبيَّنا وسيِّدنا محمّدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد:

فيا أيّها المسلمون: اتّقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيّها المسلمين: وممّا تُصان عنه المساجد إنشادُ الضالة والبيعُ والشراء، فعن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله قال: «إذا رَأيتم من يبيعُ أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربَحَ الله تجارتَك، وإذا رأيتم من ينشُد ضالّة فقولوا: لا ردَّ الله عَليك»(١).

ويجب أن يُصان المسجد عن الأقوال الرذيلَة والأحاديثِ السيّئة واللَّغط والأصوات المرتفعة، قال سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (من جَلَس في المجلس فإنما يجالِس ربَّه، فما حقُّه أن يقولَ إلا خيرًا).

والحيضُ حدَث يمنَعُ اللّبثَ في المسجدِ على الصحيح من قولي العلَماء؛ لحديثِ أمِّ عطيّة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت النبي يقول: «ويعتزِل الحُيَّضُ المصلّى»(٢). ويباح لها العُبورُ للحَاجَة مِن أخذِ شيءٍ أو تركِه، فعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله: «ناوليني الخمرةَ مِنَ المسجد»، فقلتُ: إني حائض! فقال: «إنَّ حيضَتَك ليسَت في يدِك»(٣).

والجنابةُ حدَث يمنع اللبثَ في المسجدِ أيضًا، ويُباح له العبور لحاجةٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء:٤٣].

---

(١) صحيح الترمذي (١٣٢١).

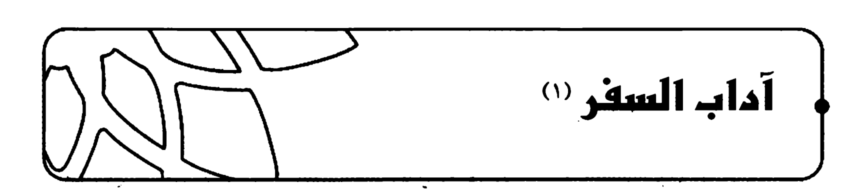
(٢) رواه البخاري (٣٢٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨).

أيّها المسلمون: إنما شُرِعت الجماعة في المسجد لمقاصِدَ عظمى، منها التعارف والتآلف والتعاوُن والتكاتُف، فتصافَحوا يذهبِ الغِلّ، وتَسَامحوا تذهب الشحناء، وخُذوا بأيدي بعضكم، وطهِّروا قلوبَكم مِن الأحقاد والضغَائِن، واستبدلوا القطيعةَ والجفاء بالصِّلة والمحبة والصَّفاء، وأدّوا حقوق بعضكم على بعض، وليعطِف غنيُّكم على فقيركم وقوِيّكم على ضعيفِكم، وكونوا عباد الله إخوانًا.

وصلّوا وسلِّموا على خيرِ البريّة وأزكى البشريّة، فقد أمركم الله بذلِك فقال قولًا كريمًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].





آداب السفر [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الملك العلام، والصلاة والسلام على النبي الكريم معلم الناس آداب الإسلام، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام، وعلى التابعين وتابعيهم يا ذا الجلال والإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أما بعد:

فإن الوصية المبذولة لي ولكم -عباد الله- هي تقوى الله سبحانه في سركم وعلنكم، في الغيب والشهادة، في الغضب وفي الرضا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] الذين تدفعهم تقواهم إلى تقديم مرضاة ربهم على رضاء خلقه وعبيده: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

أيها الناس: لقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالسياحة في الأرض، والنظر والاعتبار في آلائه ودقة صنعه وتَدَبُّرِ آثار الأمم السابقة. فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]. وقال جل وعلا: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

وفي السفر فوائد كثيرة جمعها الشافعي في قوله:

تَغَرَّبْ عن الأوطان في طلب العلا ... تفرُّج همٍّ واكتساب معيشة

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد ... وعلم وآداب، وصحبة ماجد

وتتعدد أسباب سفر المسلم؛ فهو يسافر للحج والعمرة، أو لطلب العلم، أو للسعي وراء الرزق، أو لزيارة قريب أو صديق، وغير ذلك.

---

(١) سليمان بن قاسم العيد.

والسفر يُسفر عن أخلاق صاحبه، ويكشف عن مكنونها، لذا كان لا بد من الإشارة إلى أهم الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم في سفره، ومن ذلك:

أولًا: إخلاص النية لله سبحانه وتعالى: ففي الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته على ما هاجر إليه»؛[1]

ومما يتعلق بهذا تحري الهدف من السفر وليكن هدفًا مشروعًا، حتى ولو كان ترويحًا مباحًا عن النفس لاستعادة نشاطها دون سرف أو مخيلة، ولتعلم أخي المسلم أن المسافر يجني فوائد عظيمة من إخلاص نيته لله في سفره، ومنها رضاء الله عنه وتوفيقه إياه، وتحقيق مبتغاه في سفره، وعودته حميدًا.

ثانيًا: الاستعداد للسفر ماديًا ومعنويًّا: فالمادي مثلًا بالنفقة الكافية، والمركب المناسب، والأوراق الثبوتية اللازمة، وما يحتاجه من طعام وشراب، ومن الأمور الهامة ما يتعلق بأمور الدين كأداة تحديد القبلة ومعرفة أوقات الصلاة، وأما المعنوي مثلًا بالعلم بجهة سفره، وما فيها من أخطار فيتجنبها، وما فيها من فرص جيدة ليستفيد منها.

ثالثًا: ومن آداب السفر:

استحباب التوديع للمسافر: يستحب للمسافر أن يودع أهله وقرابته وإخوانه، قال ابن عبدالبر: (إذا خرج أحدكم في سفر فليودع إخوانه، فإن الله جاعل في دعائهم بركة). والسنة أن يقولهم «استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»[2]، وان يقولوا له: «أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك»[3].

رابعًا: ألا يسافر وحده: ففي الحديث عن النبي قال: «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده»؛[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٤) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) صحيح ابن ماجه (٢٢٩٥).

(٣) صحيح أبي داود (٢٦٠٠).

(٤) رواه البخاري (٢٩٩٨).

وفيه أيضًا حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب»؛[1].

خامسًا: استحباب التأمير في السفر إذا كانوا ثلاثة فأكثر: نادى الشرع بالاجتماع وعدم التفرق، وحث على ذلك ورغب فيه، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»؛[2].

السادس من آداب السفر:

عدم سفر المرأة بدون محرم: نهى الشرع المطهر عن سفر المرأة بدون محرم، لما قد يترتب عليه من الفتنة لها لومن حولها من الرجال. روى الشيخان وغيرهما أن أبا هريرة قال: قال النبي: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها محرم»[3]، ولفظ مسلم: «لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها رجل ذو حرمة منها».

سابعًا: استحباب السفر يوم الخميس أول النهار: فقد كان من هديه عليه الصلاة والسلام في أسفاره، أنه كان يحب الخروج في يوم الخميس.

ومن آداب السفر:

الحرص على كثرة الذكر والأدعية المأثورة: وأُتي علي رضي الله تعالى عنه بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣-١٤]، ثم قال: الحمد لله (ثلاثًا)، وقال: الله أكبر (ثلاثًا)، ثم قال: «سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، ثم ضحك، وقال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت[4].

(١) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (١٦٧٤).

(٢) صحيح أبي داود (٢٦٠٨).

(٣) رواه البخاري (١٠٨٨) ومسلم (١٣٣٩).

(٤) صحيح أبي داود (٢٦٠٢).

ومنها: الدعاء إذا خرج للسفر: روى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى السفر كبَّرَ (ثلاثًا) ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣-١٤].

اللهم نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. وإذا رجع قالهن وزوّد: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.[1]

ومن أدعية السفر:

دعاء نزول المنزل: قد يحتاج المسافر إلى النزول من مركوبه، للنوم، أو الأكل، أو قضاء الحاجة، والبرية فيها من الهوام والسباع والشياطين ما الله به عليم، فكان من نعمة الله علينا أن شرع لنا على لسان نبينا، دعاءً نقوله يحفظنا - بإذن الله - من شر كل مخلوق، فعن خولة بنت حكيم السلمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمعت رسول الله يقول: «من نزل منزلًا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[2].

ومنها: التكبير على المرتفعات والتسبيح عند الهبوط والنزول.

ومنها: دعاء دخول القرية ونحوها: يقول: «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها»؛[3].

كما ينبغي للمسافر أن يغتنم سفره، يدعو لنفسه وآبائه وأهله ومن يحب، وأن يجتهد في ذلك، ويتحرى الدعاء الجامع، مع الإلحاح والخضوع، فللمسافر دعوة مستجابة فلا ينبغي التفريط فيها. روى أبو هريرة أن النبي قال: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»[4].

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٣) صححه الوادعي في الصحيح المسند (٥٠٩).

(٤) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٣٢).

ومن آداب السفر:

صلاة التطوع في السفر: من السنن المهجورة، صلاة المسافر التطوع على مركوبه، فقل من تراه يصلي النافلة أو الوتر في الطائرة أو غيرها من وسائل السفر.

النوم في السفر: قد يضطر المسافر على الطرق البرية إلى النوم للراحة من عناء السفر، ولما كان الشرع المطهر يرشد الناس لما فيه مصلحتهم العاجلة والآجلة؛ كان من جملة ذلك إرشاد المسافر لمكان نومه، حتى لا يؤذى من هوام الأرض ودوابها. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنَة فبادروا بها نقيها، وإذا عرستم»[١]«فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل»؛[٢].

ثم إنه ينبغي على المسافر إذا أراد نومًا، أن يتخذ ما في وسعه من الوسائل التي تعينه على الاستيقاظ لصلاة الفجر، وفي زماننا هذا أصبحت تلك الوسائل -ولله الحمد- متيسرة وبأبخس الأثمان.

---

(١) المعرس: الذي يسير نهاره ويعرس أي ينزل أول الليل، وقيل: التعريس النزول في آخر الليل.

(٢) رواه مسلم (١٩٢٦).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

أيها الناس: ومما يلحق بآداب المسافر:

حسن الخلق ومراعاة حق الرفيق في الطريق والسفر.

فينبغي للمسافر أن يراعي حقوق رفقائه وجلسائه في مركوبه، ومن ذلك:

- لين الجانب وغض البصر وخفض الجناح لهم ومساعدتهم فيما قد يحتاجونه مما يقدر عليه، فهذا لها أعظم الأجور.

- إذا ركبوا في سيارة واحدة، أو سكنوا غرفة واحدة فينبغي عدم فتح النافذة أو الباب إلا بعد استئذان المجاورين له.

- الكرم، فمثلًا إذا تناول أحد المسافرين غذاءً أثناء السفر، دعا إليه المجاورين.

- ينبغي على الشاب أن يجعل خير الأمكنة للشيخ الكبير والمرضى والنساء.

- مراعاة آداب الذوق العام وعدم إيذاء الآخرين، بالتدخين مثلًا أو رفع الصوت بحديث خاص، وكذا لا يبصق ولا يرمي بفضلات طعامه؛ حفاظًا على مشاعر من معه، وحفاظًا على نظافة المركبات.

ومما ينبغي معرفته من آداب السفر:

استحباب رجوع المسافر لأهله بعد قضاء حاجته وعده الإطالة: يُستحب للمسافر إذا نال مراده من سفره أن يعود سريعًا إلى أهله، ولا يمكث فوق حاجته. وقد أرشد إلى هذا رسول الله، فعن أبي هريرة عن النبي قال: «السفر قطعة من العذاب: يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه. فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله»؛[1].

---

(١) رواه البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٩٢٧).

ومن الآداب عند عودة المسافر:

كراهية قدوم المسافر على أهله ليلًا: روى مسلم عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «نهى رسول الله أن يطرق الرجل أهله ليلًا»[1] وعند مسلم: «إذا قدم أحدكم ليلًا فلا يأتين أهله طروقًا حتى تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة»، وعنده أيضًا: «نهى رسول الله أن يطرق الرجل أهله ليلًا يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم»[2].

أخيرًا: يستحب لمن عاد من سفر أن يصلي ركعتين في المسجد عند دخوله البلد: فقد كان من هديه ﷺ أنه كان إذا قدم من سفر، فإن أول شيء كان يبادر إليه هو الصلاة في المسجد ركعتين. قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن النبي كان إذا قدم من سفر ضحى دخل المسجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس»؛[3]. وهذه من السنن المهجورة، التي قل من يطبقها، فنسألك اللهم اتباعًا لسنة نبيك ظاهرًا وباطنًا، وبالله التوفيق.

هذا وصلوا وسلموا.....



(١) رواه البخاري (١٨٠١) ومسلم (٧١٥).

(٢) رواه مسلم (٧١٥).

(٣) رواه البخاري (٣٠٨٨) ومسلم (٧١٦).



آداب اللباس والستر (1)



الخطبة الأولى:

الحمد لله الواصل الحمد بالنعم، والنعم بالشكر، نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه، ونستعينه على نفوسنا البُطاء عمّا أُمِرت به، السِّراع إلى ما نهيت عنه، ونستغفره مما أحاط به علمه وأحصاه كتابه، علمٌ غير قاصر، وكتابٌ غير مغادر، خلق الإنسان وبصَّره بما في الحياة من خير أو شر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله سبحانه، فإنها دار حصن عزيز، تمنع أهلها، وتحرز من لجأ إليها، وبها تُقطع حُمَة الخطايا، فهي النجاة غدًا، والمنجاة أبدًا بفضل الله.

أيها الناس: إن البشر بعامة محكومون بحدودٍ وأعلام، يتقاسمها في الأساس فطرة الله التي فطر الناس عليها، وشريعة من الأمر أُمِر الناس باتباعها على هدىً وبصيرة، وهم إبَّان ذلك قد يضعفُون أمام تلك الحدود والمعالم إلى درجة الخُذلان المنبثق من التهاون واللامبالاة، أو قد يشتدون مع منافع زهرة الحياة الدنيا إلى حد الطغيان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧] والمؤمن الكيِّس مطلوب منه التماسك والرباطة على حالَيه كلتَيهما، إذ أن ترامي الغرائز يمنة ويسرة يتقاذفها ريح الهوى في كل اتجاه، دون أن تخضع مذعنة لحدود الفطرة والشرع، هي لا بد منتهية بأصحابها إلى بلاءٍ عريض، فإن الباري جل وعلا لم يخلق

---

(١) سعود الشريم.

الغرائز لبني آدم لتكون محلًا للسطو أو الختل أو التلفظ بأعراض الآخرين، ولا خلقها ليتعبد بعضَ الناس بقتلها والعبث بها دونما سياج وحماية يحكمان محالَّها.

المرء الإنسي في هذه الحياة تتبدى له عورتان اثنتان، يتجاذب الاهتمام بسترهما والحرص على مواراتهما: عورة حسية وعورة معنوية، ومن هذا المنطلق حرص الإنسان السوي على أن يواري عورتَيه وسَوءتَيه أشد المواراة، عورته الجسدية وعورته النفسية أو المعنوية.

وأصل البشرية أبوان كريمان، ابتدأ الامتحان بالعورات بهما، وأين هذا الامتحان؟ إنه في جنة الخلد: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠].

لقد حرص الشيطان على أن يقضي ابتداءً على عنق الزجاجة ومكمن الحياء، وهو الستر: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه:١٢١] يخصفان عليهما خجلًا من تعريهما، إذ لا يتعرى ويتكشف إلا من فقد فطرته!

ويا لله.. لقد نسي آدمُ فنسِيَت ذريتُه.

أيها المسلمون: إن الستر فطرة تجعل المجبول عليها لا يأذن للعوادي أن تكشفه كائنة ما كانت، ولو اضطر يومًا ما على أن يُبدي سوأته الجسديةِ لِضُرٍ أَلَمَّ به، فسيكون ذلك على استحياءٍ وخجلٍ شديدَين أمام طبيبٍ أو نحوه، الضرورة كامنة وراء استسلامه بذلك، وقولوا مثل ذلك في العورة القلبية وما يكون من أحوال مشينة تصدر من نفس المرء ويخشى أن يطلع عليها غيره، على حد قول النبي ﷺ: «والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[(١)].

وجماع الأمر في العورَتين -عباد الله- هو قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

لقد امتن الله جل وعلا على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش الذي يوارون به سوءاتهم.

فباللباس تستر العورات عن أعين بني آدم.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

باللباس يُكْبَحُ جماح الشهوة الطاغي، ويُكَفْكَفُ اللحظ ومُماداة البصر عن أن ينطلق إلى ما لا يُرضي الله.

باللباس -أيها الناس- تستر المرأة أنوثتها، وتحفظ كيانها عن أن تكون عِلْكًا ملتصقًا بأحذية لصوص المرأة وأيدي العابثين، حتى تصبح جوهرة في صدفة لا ينظر إليها إلا الخواص وهم الأزواج.

باللباس والستر يقدم المرء رِجْلًا أو يؤخرها إذا ما امتدت نفسه إلى خِطبة امرأة بحلال.

باللباس -أيها المسلمون- يُعرف الذكور والإناث عن مدى احتشامهم واستقامتهم وحبهم للستر مظهرًا ومخبرًا، وبه تُعرف الأسر المصونة من غيرها.

باللباس والستر قد يُحمى ركنٌ أساس مما أجمع عليه الأنبياء والرسل قاطبة، وهو حماية العرض والنسب من مواهبها.

ثم إنه بالريش والرياش يتجمل الإنسان ظاهرًا، إذ لباسه من الضروريات الجسدية، والريش والرياش من التحسينيات والزيادات التي يتمتع بها المرء وفق ما شرعه الله له دونما إسراف على حد قوله ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مَخِيْلَةٍ ولا سَرَفٍ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»[1].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «كلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيْلَةٌ».

ولا غروَ -أيها المسلمون- في مقابل نعمة اللباس والامتنان بها أن يشرع الحمد مِن قِبَل المرء على ما يكسو به معيبه، ويواري به سوأته، فلقد صح عند أحمد وغيره: أن النبي ﷺ كان يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي»[2].

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح النسائي (٢٥٥٨).

(٢) السلسلة الضعيفة (٦٢٦٣).

والأمر -عباد الله- ليس حكرًا على ستر العورة الحسية الجسدية فحسب، بل إنَّ لباس التقوى وستر التقوى خير ما يتجمل به المرء؛ إذ ما عسى ستر البدن أن ينفع إذا كان القلب عاريًا؟!

«استيقظ رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: الله أكبر! كم فُتح من الخزائن اليوم؟! أيقظوا صُوَيْحِبات الحُجَر، فرُبَّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»[1].

أيها المسلمون: الفِطَر السليمة والأنفس السوية تجفل بطبعها من ظهور السوأتين، وتحرص أشد الحرص على مواراتها، والذين يحاولون في تبعيتهم النكوص عن هذه الحقيقة على علم أو جهل بما يطلقون من دعوات هنا وهناك عبر ألسنتهم وأقلامهم ومقدراتهم لتأصيل هذه المعرَّة، هم الذين يريدون سلب خصائص فطرة الإنسان، وهم الذين ينفِّذون بالحرف الواحد المآرب الصهيونية الرهيبة عبر مقرراتهم المرقومة؛ لإشاعة الانحلال بين بني الإسلام.

وإن تعجبوا -عباد الله- فعجبٌ أن اليهود هم أول من شنَّ الحرب على نزع الستر وإظهار السوأة منذ أن تآمر رجلان منهم في سوق بني قينقاع على نزع حجاب امرأة وكشف سوأتها، حينما كانت جالسة في السوق، فربطوا خمارها بطرف ثوبها، فلما قامت واقفة بدت سوأتها للناس، فاستغاثت بمن حولها، ثم توالت بعد ذلك أحداث شبيهة..

كما ذكر ابن الأثير في كامله عن شابين من قريش رأوا امرأة من بني عامر في سوق عكاظ، وسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت، فامتهنها أحدُهم، فاستغاثت بقومها حتى كان ذلك سببًا في اليوم الثاني من أيام حروب الفجار المشهورة.

العري -أيها المسلمون- سِمة حيوانية بهيمية، ولا يميل إليه إلا من هو أدنى من الإنسان، ومتى رؤي العُري والتعرِّي جمالًا وذوقًا وتقدمًا ومسايرةً لركب الغافلين فقولوا على الفطرة: السلام، ولتبدأ الآذان صاغية في سماع ما يُبكي ويُحزن من مآسي الفتن، والتنويع في

---

(١) رواه البخاري (١١٥).

الانسلاخ، والتجرد عن قيم الإسلام، ناهيكم عن سوء العواقب الموخزة، وحينئذٍ واقعون ولا محالة فيما حذرنا منه الباري بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف:٢٧].

عباد الله: إنَّ لنا في كل يوم أجناسًا من الذكور والإناث تنمو غضة رقيقة، لا يتعهدها أحدٌ بسقي ولا رعاية، حتى تصيبها الجائحة فتجف وتذبل، كما أن عواقب التغريب والاستسلاخ والاستنساخ وأرزائها تحطم أعراقًا متينة من الستر والحشمة طالما أظلت وسقت حتى اجتُثت، فلا بواكي لها.

لقد صعدت أجيال تنكَّرت لماضيها وأعراقها التي أصلتها وحكَّمَتها شريعة الإسلام.

أقحم أناس أنفسهم في الميدان، وجعلوا التحسين والتقبيح خاضعًا لممارسات الحضارة الغربية وطيشها، تبدل الوزَّان وبقي الميزان مختلًا وقطبه مائلًا، وصناجه ضائعة، حتى إن أحدنا ليجد بين الأم وبنتها، أو بين الأب وابنه في صورة اللباس وما يُشاكله من البَون الشاسع ما يُعادل قرنًا كاملًا من الزمان.

ألا ما أكثر الأحياء فينا وهم قتلى؟! ذكور وإناث يلبسون لباسًا لم يُفصَّل لهم، ولم يُقَس عليهم، وإنما خِيْطَ لغيرهم، فأخذوه بلا إصلاح، ومشوا به فرحين كما يمشي الطفل بحُلة أبيه، يتعثر بها، فيسقط سقطات يكون بها محلًا للضحك والتندُّر.

إن الخلل الذي تعيشه جملة من الشعوب الإسلامية في قضية اللباس والستر، إنما كان منشأه من ممارسات خاطئة في كيفية التعامل مع الحضارة المدنية في كافة شئونها الحياتية، وفي المفاهيم المغلوطة لمعاني التقدم الحية، مما علق مواهبهم وقدراتهم عن تسخيرها باقتدار، حتى التحقوا بالركب المتقدم عن طريق التشبه به، والاقتباس منه، وعذرهم في ذلك أنهم يريدون النهوض بأنفسهم وأمتهم من وهدة النمو إلى مصافي الأمم المتحضرة، ولم يعد للشرع ولا للفطرة في بعض الأفئدة إلا النسبة الأساس.

وإذا رأيت ثوب المفتون بهم يستر بعض العورة فاعلم أنه صورة لما عندهم من الأنموذج الجديد.

إن الإصابة بحمى اللباس ليست على درجة واحدة بين المسلمين، إذ منهم من شمل السفور والحسور والتشبه، نساءه ورجاله، أو الكثرة منهم، ومنهم من ظهر فيهم واستعلن، وإن لم يعم ويشمل، ومنهم من بدأ يقرع أبوابهم ويضع إحدى قدميه، إن لم تكن وُضِعَتا كلتاهما.

حدثوا -أيها المسلمون- ولا حرج! عن انهماك (المجوع) بما يسمى على لغة العصر: الموضة؛ حيث يتلاعب مصممو اللباس بنفسيات الجنسَين في جذب أنظارهم تجاه كل لباس مستحدَث، مهما كان انسلاخه من معاني الرجولة، أو سمات الأنوثة العفيفة المصونة، استنزاف للأموال، واستخفاف بالرعاع، ونشر للفاحشة كيفما نشر، بعرض المفاتن، وسبل الإغراء، حتى أصبحت الموضة متِكْأةً للإثراء ووأد العفاف لدى كثير من الشعوب.

والزمن كفيل في أن يثير جمهور اللاهثين في قبول الإحداث المتجدد المتراوح بين انتشار ما يُلبس دون الركبة أو فوقها، أو ما يُفتح من الجانبَين ليبدو ما يتمنى المرء المسلم معه الموت ولا أن يرى يومًا ما شيئًا من ذلك في محارمه أو أقاربه، ولا أن يكون ضحية لمشاهدة ما يستفز العيون من محاجرها، مشرئبة لتتقد كوامن الشهوة كالنار المتأججة في الصدر، والتي يُتَرْجم عوارها عبر جوارح المغفلين.

إنه التفنن في إذابة الأعراف وإغراء الشعوب بما يُبعدهم عن ربهم وخالقهم، التفنن في تعويد المرأة على أن تبدو سافرة، ولن تستطيع صعود درجة إلا بكشف ساقيها، والمتحجبة منهن ربما تفننت في تقشيب الحجاب وإحالته إلى وضع أشد فتنة من ثوبها وصورة وجهها، ولطالما فتنت بعض العباءات السود ألبابَ الرجال؛ فكم من عباءة هي في الحقيقة أشد ما تكون إلى عباءة أخرى تسترها؟!

وأما الشباب فحدثوا ولا حرج عن تململهم بلباسهم الرجولي، وغدَوا في إشفاق مشين بلباس أهل الفن والمجون، حتى لقد أصبح المرء الغيور يرى من أحوالهم ما يحترق به بصره مرة تلو الأخرى... أهكذا زي شباب المسلمين؟!

إن أحدنا ليضع كفه على ذقنه ويقرع سنه حيرةً، يُسائل نفسه: لمِ ومم؟ ولأي شيء يستنكف الناس لنداءات الفطرة، وحدود شرعة الله ومنهاجه؟!

إن مردَّ ذلك كله إلى إفساد البنت والشاب؛ إذ معظم ممتهني دور التصاميم والأزياء هم من اليهود في عواصم الغرب، فهم بيوت الألبسة ومصمموها، وهم أساتذة التجميل ودكاكينه.

بل لَمْ يكتفِ أولئك بعقلاء الجنسَين حتى امتدت مآربهم إلى مَن هُم قبل سن التكليف من صبيان وبنات، فأُشربوا من خلال ملابس الأطفال المنتشرة في المعمورة، والتي لا تمت للحشمة بصِلَة، أشكال وألوان.. من الضيق تارة، ومن العاري أخرى، ومن القصير الفاضح كرَّات وتارات! هي ملأى بالصور أو بالعبارات الرقيعة، قد لا يفهم جُلّ اللابسين المراد منها، ولا تسألوا بعد ذلك عن حال الطفل أو الطفلة بعد الكبر، إنَّ كُلًّا منهما لَمْ يُعَوَّد يومًا ما على الستر الشرعي.

إن الأب والأم إن كُتِبَ لهما الوعي والحرص بعد ذلك على سترهما سيجدان المرارة والعي في الإقناع به، وللأبوَين نقول:

وعند سؤال المكابرين منهم يقولون: ماذا نفعل؟! هكذا يلبس الناس، وهكذا يريد الناس، ولَعَمْرُ الله -أيها المسلمون- كم يجلس الغيور الصادق يبحث جاهدًا لأطفاله، متسوقًا في كل مجمع، يعز عليه أن يجد المكسي من الثياب، ويعيه طِلابه، فالله المستعان!

إن هذه المفاهيم والأخطار المدلهمة ينبغي ألا يُفهم إنكار المصلحين لها على أنهم يريدون بها التحجيم أو الإبقاء على القديم من كل وجه؛ بحيث يظن البعض أن المراد هو الإلزام بكل ما كانت تلبسه أمهاتنا ومَن وَلَدْنَهُم، أو آباؤنا ومَن وَلَدُوهم، كلا.

إن الشرع لم يلزم بذلك، وإنما منع من كشف العورات، ومن لبس ما يخدش الحياء أو يبرز المفاتن، وترك لنا في الجملة اختيار الزي الذي يلائمنا ويسترنا مهما تجددت صورتُه؛ ولكن علينا ألا نرى الستر عيبًا والعفاف عارًا، وحسبنا تذكيرًا برءوس غيرنا، ونظرًا بعيون عدونا المترمدة.

وقد سأل رجل ابن عمر: ماذا ألبس من الثياب؟ فقال: «ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء».

فاتقوا الله معاشر المسلمين! والحذار.. الحذار من الوقوع في فتنة اللباس، والخروج به عن مقصوده ومبتغاه، ولا يغوينكم الشيطان بزخرف من القول والعمل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة، ونفعني وإياكم بما فيهما من الآيات والذكر والحكمة، أقول ما سمعتم، إن صوابًا فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان؛ وأستغفر الله.

الخطبة الثانية:

الحمد لله بارئ البريات وعالم الخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمده سبحانه وأشكره، أحاط بكل شيء علمًا، ووسع كل شيء رحمة وحلمًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وكل شيء عنده بمقدار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، خاتم الأنبياء، وأكرم من مشى تحت أديم السماء.

اللهم صلِ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد نبي الرحمة، وعلى آله وأصحابه خير صحب وآل من خير أمة، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تجددت نعمة بعد نعمة.

أما بعد:

فاتقوا الله -أيها المسلمون- واعلموا أن للباس والزينة شأنًا عظيمًا في ملة الإسلام، وما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ليحل محلًا كبيرًا في الأسفار والتصاميم، فقد عقد أهل العلم في كتبهم أبوابًا وفصولًا مستقلة تخص اللباس وحده، ومن خلال الاستقراء والتتبع وُجد أن الأسباب الداعية إلى تحريم بعض الألبسة لا تخرج عن واحد مما سيأتي:

فمن ذلك: التحريم بسبب ما يُفضي إليه من فتنة:

كظهور عورة المرأة، أو تجسيد جسمها وتقسيمه، أو إظهار ما هي مأمورة بستره، عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الجلباب هو: الرداء فوق الخمار).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن حاجة أن يغطين وجوههن فوق رءوسهن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة».

فيا للهَّ.. ماذا أبقت المرأة من جمالها حينئذٍ؟! إنها بمثل هذا ربما سترت القبيح، وأبرزت الحسن، والشارع الحكيم أذن لها بإبراز إحدى العينين لترى بها الطريق، لا أن يراها أهل الطريق.



وسبب آخر من أسباب التحريم، وهو: ما يكون لأجل الشهرة والتباهي والخيلاء:

لقوله ﷺ: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة»[1].

وكذا إسبال الثياب وجرها أسفل الكعبين سواءً أكان ذلك خيلاءً أو لم يكن، ولا ينبغي أن يُفَرَّق بين من يُسبل لأجل الخيلاء ومن يسبل بلا خيلاء، والجواب الصحيح في ذلك: هو أن ما أسفل الكعبين إذا لم يكن خيلاء فهو في النار، وأما إذا كان خيلاء فإن العذاب يكون أشد؛ لقوله ﷺ: «من جرَّ ثوبه خيلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[2]، وفي رواية: «ما أسفل الكعبين ففي النار»[3] هذا في حق الرجل، وأما في حق المرأة فإنها تسبل ثوبها حتى يغطي قدميها؛ لأن القدمين عورة بالنسبة لها.

وسبب ثالث من أسباب التحريم، وهو: التشبه:

كتشبه النساء بالرجال، والرجال بالنساء في اللباس، أو التشبه بالأعاجم وأهل الكفر في زيهم، يقول عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: «رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين مُعطَّرين، فقال: إن هذه ثياب الكفار، فلا تلبسها»[4].

وفي الصحيحين: أن عمر رضي الله تعالى عنه كتب لوُلاته: «وإياكم والتنعم، وزي أهل الشرك، ولبوس الحرير»[5].

ومما قاله الفقهاء: يحرم من اللباس ما خالف زي العرب، وأشبه زي الأعاجم وعاداتهم.

وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا لهذه القاعدة العظيمة فيقول: إن المشاركة في الهدي الظاهر تُوْلِف تناسبًا وتشاكلًا بين المتشابهَين، يقود إلى موافقة في الأخلاق والأعمال، فلابس ثياب أهل العلم -مثلًا- يجد في نفسه نوع انضمامٍ إليهم... وهكذا بالنسبة

---

(١) صحّحه الألباني في غاية المرام (٩١).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٥) ومسلم (٢٠٨٥).

(٣) رواه البخاري (٥٧٨٧).

(٤) رواه مسلم (٢٠٧٧).

(٥) رواه البخاري (٥٨٢٨) ومسلم (٢٠٦٩).

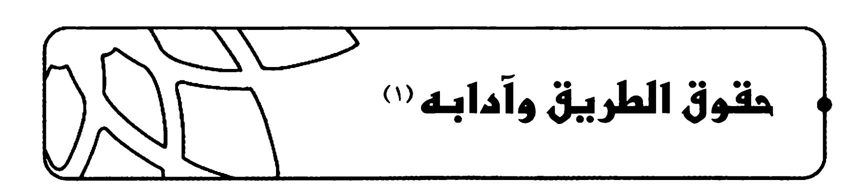
لثياب الجند المقاتلة، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى ألا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط.

وقولوا مثل ذلك -عباد الله- في مشابهة الفسقة من مغنين وفنانين من أهل الكفر وغيرهم من رواد المجون والفجور.

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن الواجب والمسئولية على كل عاتقٍ نصيبه منها، من ولاة وعلماء ودعاة وأولياء أمور، كما أن على التجار مسئولية عُظمى تجاه ذلك؛ إذ عليهم أن يوجدوا البديل المباح، وأن يكفوا عن بيع ما يخدش الحياء، أو يكشف العورات، وليعلموا أن عليهم إثم ما يبيعونه من ذلك، وليحذروا الوقوع عن أن يكونوا بفعلهم هذا ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وأنهم مسئولون عن أموالهم من أين اكتسبوها وفيمَ أنفقوها؟

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.





حقوق الطريق وآدابه[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله تفرد بكل كمال، تفضل على عباده بجزيل النوال، بيده الخير؛ ومنه الخير فله الحمد على كل حالٍ، وفي كل حال، في الحال وفي المآل، أحمده سبحانه على ما منح من النعماء، وأشكره على واسع العطاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تقدس في الذات والصفات والأسماء، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله سيد المرسلين، وخاتم الأنبياء، وإمام الحنفاء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأوفياء، وأصحابه النجباء، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء.

فاتقوا الله أيها الناس وعظموا أمره، واشكروا نعمه. وأعظم هذه النعم وأجلها.. الهداية لهذا الدين ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧].

أيها الإخوة في الله: إن شرائع الإسلام استوعبت شتى جوانب الحياة وشؤونها. وانتظمت كل ما يعرض للمرء من مهده إلى لحده.

إن الدين الذي يبني أمة ذات رسالة لتبقى قائدة رائدة.. صالحة لكل زمان ومكان إن دينًا هذا شأنه لا يدع مجالًا في السلوك العام، أو السلوك الخاص، إلا وجاء فيه بأمر السداد.

ومن هنا فلا غرو أن تدخل توجيهات الإسلام وأحكام الشريعة في تنظيم المجتمع، في دقيقه وجليله، في أفراده وجموعه، وفي شأنه كله. ولا تزال مدونات أهل الإسلام في الفقه والأخلاق مشحونة بالحكم والأحكام في فكر أصيل، ونظرٍ عميق، واستبحار في فهم الحياة، وشؤون الإنسان، وسياسة المجتمع، مع نماذج حية وسير فذة، وتطبيقات جليلة طوال تاريخ الأمة المجيد.

---

(١) صالح بن حميد.



وإن مما يظهر فيه شمول هذا الدين، وجلاء حكمه وأحكامه، ما أوضحه الكتاب والسنة وآثار الأئمة.. من آداب الطريق، ومجالس الأسواق، وحقوق المارة، وأدب الجماعة. جاء في محكم التنزيل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:٦٣]. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

وفي السنة المطهرة من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٦-٣٨] عن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[1].

وفي حديث أخرجه الترمذي وغيره عدَّ النبي ﷺ من أبواب الخير: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»[2].

إن مصادر الشريعة الموثوقة قد طفحت بأمثال هذه النصوص مؤكدة هذه الحقوق، ومرشدة إلى هذه الآداب.

فعباد الرحمن: هم خلاصة البشر يمشون في الطريق هونًا، لا تصنُّع ولا تكلف، ولا كبر ولا خيلاء، مشية تعبر عن شخصية متزنة، ونفس سوية مطمئنة تظهر صفاتها في مشية صاحبها. وقارٌ وسكينةٌ، وجدٌّ وقوةٌ من غير تماوتٍ أو مذلة، تأسيًا بالقدوة الأولى محمد ﷺ فهو غير صخَّابٍ في الأسواق حين يمشي يتكفَّأ تكفؤًا، أسرع الناس مشية وأحسنها

(١) رواه البخاري (٦٢٢٩) ومسلم (٢١٢١).

(٢) صحيح الترمذي (١٩٥٦).

وأسكنها، هكذا وصفه الواصفون، تلك هي مشيةُ أولي العزم والهمة والشجاعة، يمضي إلى قصده في انطلاقٍ واستقامةٍ لا يُصعر خده استكبارًا، ولا يمشي في الأرض مرحًا. لا خفق بالنعال، ولا ضرب بالأقدام، لا يقصد إلى مزاحمة، ولا سوء أدب في المهازحة، يحترم نفسه في أدب جمٍّ، وخلقٍ عالٍ لا يسير سير الجبارين، ولا يضطرب في خفة الجاهلين. إنه المشي الهون المناسب للرحمة في عباد الرحمن، وحين يكون السير مع الرفاق فلا يتقدم من أجل أن يسير الناس خلفه، ولا يركب ليمشي غيره راجلًا.

أما غض الصوت وخفضه فهو من سيما أصحاب الخلق الرفيع، وذلك في الطريق، وأدب الحديث أولى وأحرى. إنه عنوان الثقة بالنفس، وصدق الحديث، وقوة الحجة يصاحب ذلك حلم وصفح، وإعراض عن البذاء من القول، والفحش من الحديث تجنبًا لحماقة الحمقى، وسفاهة السفهاء.

ولا يرفع صوته من غير حاجة إلا سيء الأدب ضعيف الحجة، يريد إخفاء رعونته بالحدة من الصوت، والغليظ من القول.

يُضمُّ إلى ذلك أيها الإخوة، غض البصر، فذلك حق لأهل الطريق من المارة والجالسين.. تحفظ حرماتهم وعوراتهم، فالنظر بريد الخطايا، وإنك لترى في الطرقات والأسواق من يُرسل بصره محمَّلًا ببواعث الفتنة، ودواعي الشهوة، وقد يُتبع ذلك بكلمات وإشارات قاتلة للدين والحياء مسقطة للمروءة والعفاف.

وكف الأذى عن الطريق من أبرز الحقوق. والأذى كلمة جامعة لكل ما يؤذي المسلمين من قول وعمل، يقول عليه الصلاة والسلام: «لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»[1].

وحينما طلب أبو برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رسول الله ﷺ أن يعلمه شيئًا ينتفع به قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[2].

---

(١) رواه مسلم (١٩١٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦١٨).

وفي خبر آخر: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له؛ فغفر له»[1].

وإذا كان هذا الثواب العظيم لمن يكف الأذى، فكيف تكون العقوبة لمن يتعمد إيذاء الناس في طرقاتهم ومجالسهم، ويجلب المستقذرات، وينشر المخلفات في متنزهاتهم، وأماكن استظلالهم.

أخرج الطبراني من حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «من آذى المسلمين في طرقهم؛ وجبت عليه لعنتهم»[2].

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «اتقوا اللعَّانين» قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلِّهم»[3].

أما إفشاء السلام - أيها الإخوة - ابتداءً وردًا؛ فأدب كريم يتخلق به أبناء الإسلام، وحقٌّ يحفظونه لإخوانهم، يغرس المحبة، ويزرع الألفة، ويغسل الأحقاد، ويزيل الإحن، ويستجلب به رضا الله وغفرانه، وفي الحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[4].

والجامع لهذه الآداب والحقوق - أيها المسلمون - هي تلك الكلمة الجامعة المانعة: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يدخل في ذلك ما شئت من مكارم الأخلاق والآداب والمروءات.

فالحمل الثقيل ينوء به صاحبه فتعينه عليه.

تهدي ابن السبيل الضال بعبارة ملؤها الأدب، وإشارة كلها لطف ورقة من غير فظاظة ولا ملال، لا تقول هجرًا ولا تنطق فحشًا، والبشاشة والتبسم في وجه أخيك من الصدقات.

تعين صاحب المتاع في حمل متاعه ورفعه ووضعه، وإن كنت تحمل شيئًا فاحترس أن تصيب أحدًا بأذى. تفضُّ النزاع بين المتخاصمين، وتُصلح ذات البين، وتحفظ اللقطة، وتدلُّ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤).

(٢) حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٩٤).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩).

(٤) رواه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة.

على الضالة تعين على رد الحقوق لأصحابها، والذبِّ عن أعراض المسلمين، والأخذ على أيدي الظالمين، ونصرة المظلومين.

لا تعرض لأحدٍ بمكروه، ولا تذكر أحدًا بسوء، لا تهزأ بالمارة، ولا تسخر من العابرين.. لا تشر ببنان، لا تستطل بلسان، ولا تحتقر صغيرًا، ولا تهزأ من ذي عاهة. وإياك والجلوس في مضايق الطريق وملتقى الأبواب ومواطن الزحام، ويتأكد ذلك أثناء قيادة المركبات بأنواعها مع حفظٍ تامٍ لحقوق المشاة والراكبين والقاعدين، وإهمال ذلك يصيب المسلمين بفساد عريض.

أمة الأدب والخلق: إن من الناس من يتخذون من الطرق وأماكن البيع.. مقاعد وأندية ينشرون الأرائك والفرش ليتتبعوا العورات، ويمزقوا الأعراض، ويُحرجوا أهل الأدب والمروءة، فضوليون يدسُّون أنوفهم فيما لا يعنيهم.

يتناولون السابلة غمزًا بالأبصار، وطعنًا باللسان: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١١-١٣]:

إنه لا يحل لهؤلاء أن يجعلوا أماكنهم أوكارًا تمتد منها النظرات المحرمة، وطريقًا إلى الرذيلة والمقابلات المريبة. وإن أمثال هذه المجالس يترفع الفضلاء وذوو المروءات عن المرور بها، فضلًا عن الجلوس فيها، تلك أسواق لا يرتادها إلا الأراذل من الناس، الذين لا يتحرجون من البذاء ولا يعرفون الاحتشام.

أيها المسلمون: إن من لم يعط الطريق حقه يُتبع نفسه هواها، ويريد أن يملأ عينه بمناها، فيَذلُّ بعد عز، ويفسق بعد عفة، وينحدر بعد الكمال. إن هذه المواطن إن لم تُرْعَ فيها آداب الإسلام؛ فهي مرتع خصيب للغيبة والنميمة والسخرية والكذب والإفك المبين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٧-١٩].

الخطبة الثانية:

الحمد لله على ما مَنَحَ من الإنعام وأسدى. أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره من خطايا وذنوب لا تحصى عدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله أعظم به رسولًا وأكرم به عبدًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه كانوا أمثل طريقة وأقوم وأهدى، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: إن الإسلام العظيم علّم المسلم أن يكون عنصرًا فاعلًا في مجتمعه، إيجابيًا نحو الخير لإخوانه المسلمين، نافعًا لنفسه ومُعَدِّيًا نفعه للآخرين، يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه، إلفًا مألوفًا، ودودًا رحيمًا، إذا سمع بالخير بادر إلى امتثاله والتشجيع عليه، وإذا سمع بالشر بادر إلى الكف عنه واجتنابه، والتحذير منه، فهو مبارك أينما كان، كالشجرة المثمرة، في أي مكان غرست أثمرت وأينعت وانتشر خيرها، فإن لم يكن المسلم كذلك -ولا إخاله- فلا أقل من أن يكف أذاه عن الآخرين، أيًا كان مصدر هذا الإيذاء، سواء كان سمعه أو بصره، أو لسانه، أو يده، أو غيرها.

وقد جمع محدث زمانه، وحافظ عصره، الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، بعض هذه حقوق الطريق وآدابه من أحاديث النبي ﷺ، ونظمها بقوله:

جمعتُ آداب من رام الجلوس على ... الطريق من قول خير الخلق إنسانًا

أفش السلام وأحسن في الكلام ... وشمّت عاطسًا وسلامًا رد إحسانًا

في الحملِ عاوِن ومظلومًا أعنْ ... وأغث لهفانَ اهد سبيلًا واهد حيرانًا

بالعُرف مُر وانهَ عن نُكرٍ وكُفّ ... أذى وغُضّ طرفًا وأكثِر ذكر مولانا

فلتكن لنا مع هذه الحقوق وقفات تأمُّل ومحاسبة، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى، وليسأله الثبات على الخير، ومن وجد تقصيرًا فليرجع على نفسه باللوم، وليعزم على تدارك حاله.

ثم اعلموا - عباد الله - أن من أولى الآداب وأكرم الأعمال الاشتغال بذكر الله كثيرًا. ففيه الانبعاث على الخيرات، والعون على الطاعات، والقيام بالحقوق، وحفظ النفس من الشيطان.

جاء في حديث عند الترمذي وصححه واللفظ له، وأبي داود وغيره عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال يعني: إذا خرج من بيته بسم الله، توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كُفيتَ ووقيتَ، وتنحى عنه الشيطان»[1]. ولا ينبغي أن يغفل المسلم عن الدعاء المأثور عند خروجه من منزله: «اللهم إني أعوذ بك أن أَضِل أو أُضَل، أو أَزِل أو أُزَل، أو أَظلِم أو أُظلَم، أو أجهل أو يجهل علي»[2]

والمرأة إن احتاجت إلى الخروج، فتخرجُ محتشمةً في لباسها، حييةً في مشيتها، بعيدةً عن حركات الريبة، ومواضع التهم، غير متعطرة ولا متلفتة، سريعة العودة إلى منزلها، بعد انقضاء حاجتها ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

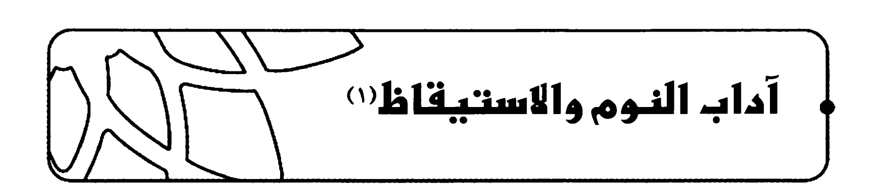
فاتقوا الله أيها المسلمون والمسلمات والتزموا بآداب دينكم، واحفظوا حقوق إخوانكم.



---

(١) صحيح الترمذي (٢٧٢٤)..

(٢) رواه الأربعة وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٢٥).



آداب النوم والاستيقاظ(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله خلق الخلائق وقدر أقواتها، وقدم أرزاقها، وحدد آجالها، فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أبان الطريق، وأوضح السبيل، فاستبانت نفوس الحق، وأجابت دعوة ربها، وضلت أخرى فآثرت هواها على هداها، فاستسلمت لشهواتها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة الحق واليقين، إيمانًا بحقيقتها وعملًا بمقتضاها، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، المبعوث بالهدى ودين الحق، باتباعه تبلغ النفوس مناها في آخرتها ودنياها، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، خير الأمة وأزكاها وأبرها وأتقاها، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأُوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله التي لا يقبَلُ غيرَها، ولا يرحمُ إلا أهلَها، ولا يُثيبُ إلا عليها؛ فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]، واستمسِكوا من الإسلام بالعُروة الوُثقى، واعلموا أنكم غدًا مُحاسَبون، وبأعمالكم مجزيُّون، وأن أجسادكم لا تصبر على حرِّ النار ولا تقوَى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨].

---

(١) صالح آل طالب.

أيها المسلمون: لم يترُك النبي ﷺ خيرًا إلا دلَّنا عليه، ولا بابًا للجنة إلا عرَّفنا طريقَه، ولا سببًا للسعادة والهناء إلا أرشدَنا له وحثَّنا عليه، وفي ذات الوقت ربَّانا على لزوم السُّنن، وعلَّمنا الآداب، وأرادنا أن نكون على مُراد الله في كل الأحوال؛ في منامنا ويقظَتنا، في محراب التعبُّد أو في ميدان السعي للدنيا، أن يكون حالُنا ومُنقلبُنا لله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، وهذه هي غاية العبودية، والعبودية هي الغاية.

أيها المسلمون:

لا يخلو الإنسان أن يكون في حالِ يقظةٍ أو حال نومٍ، يتقلَّبُ بينهما كما يتقلَّبُ الليل والنهار، والنومُ حالٌ عجيبٌ من أحوال الإنسان، وآيةٌ من آيات الله العظام، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم:٢٣].

ويُشكِّلُ النومُ جزءًا كبيرًا من اهتمام الناس، فيتخِذون له الفُرش والأثاث، ويتهيَّؤون له بالوسائل والأحوال، ويتحكَّم في أوقاتهم ومعاشِهم، وإذا اختلف بزيادةٍ أو نقصٍ أثَّر على صحة الإنسان بدنيًّا ونفسيًّا، وبذَلَ للعلاج الكثيرَ من الأموال، والإنسانُ يُمضِي ثُلُث حياته في النوم.

ومن هنا جاءت الآداب النبوية والسنن المحمدية بالإرشاد والتوجيه، حتى يكون منامُنا طاعة ونومُنا عبادة، والتزامُ هذه السنن سببٌ للأجر، ومُعينٌ على القيام لصلاة الفجر، والنشاط في سائر اليوم، والبُعد عن الوساوس والأحلام المُزعِجة، والأمراض النفسية.

وهذه السنن والآداب - على أهميتها وعظيمِ أجر فاعلها - قد أعرض كثيرٌ من المسلمين عنها جهلًا أو تكاسُلًا، أو زُهدًا فيما عند الله من ثواب.

وإليكم - أيها المسلمون - طائفةٌ مما صحَّ عن النبي ﷺ من سُنن النوم وآدابه، فيها الخير والسعادةُ في الدنيا والآخرة:

فأول ذلك: ما ورد عن النبي ﷺ من التبكير في النوم؛ فعن أبي بَرزةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان يكره النومَ قبل العشاء، والحديثَ بعدها؛[١].

ثم الوِتر قبل النوم لمن خشِيَ ألا يقومَ آخر الليل؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيامِ ثلاثةِ أيامٍ من كل شهر، وركعتَيْ الضُّحى، وأن أُوتِر قبل أن أرقُد»[٢].

ومن الآداب: إطفاءُ النار، وتخميرُ الإناء، وإغلاقُ الأبواب؛ عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أطفِئوا المصابيح إذا رقدتُم، وغلِّقوا الأبواب، وأوكُوا الأسقِية، وخمِّروا الطعام والشراب - وأحسِبُه قال: ولو بعودٍ تعرِضُه عليه -»؛[٣].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «لا تترُكوا النار في بيوتكم حين تنامون»؛[٤].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: احترق بيتٌ بالمدينة على أهله من الليل، فحُدِّث بشأنهم النبي ﷺ، قال: «إن هذه النار إنما هي عدوٌّ لكم، فإذا نِمتُم فأطفِئوها عنكم»؛[٥].

ومن الآداب: عدمُ النوم على مكانٍ مُرتفعٍ بلا حواجز؛ عن علي بن شيبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «من باتَ على ظهر بيتٍ ليس له حِجارٌ فقد برِئَت منه الذِّمَّة»؛[٦]

ومن الآداب: غسلُ اليد والفم من أثر الأكل والدَّسَم ونحوه؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نامَ وفي يده غَمَرٌ ولم يغسِله فأصابَه شيءٌ، فلا يلومنَّ إلا نفسَه»[٧].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨) ومسلم (٦٤٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢١).

(٣) رواه البخاري (٥٦٢٤) ومسلم (٢٠١٢).

(٤) رواه البخاري (٦٢٩٣) ومسلم (٢٠١٥).

(٥) رواه البخاري (٦٢٩٤) ومسلم (٢٠١٦).

(٦) صحيح أبي داود (٥٠٤١).

(٧) صحيح أبي داود (٣٨٥٢).

ومن السنن: الوضوء قبل النوم؛ عن البراء بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيتَ مضجِعك فتوضَّأ وضوءَك للصلاة»؛[1].

ويُسنُّ الوضوء أيضًا حتى ولو كان الإنسان جُنُبًا؛ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل رسولَ الله ﷺ: أيرقُد أحدُنا وهو جُنُب؟ قال: «نعم، إذا توضَّأ أحدكم فليرقُد وهو جُنُب»[2].

ومن آداب النوم: نفضُ الفراش والتسمية؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أوى أحدُكم إلى فراشه فليأخذ داخِلة إزاره، فلينفُض بها فِراشه وليُسمِّ الله؛ فإنه لا يعلمُ ما خلَفَه بعده على فِراشه»؛[3].

ويحرِصُ المسلمُ على التستُّر حتى لا تنكشِفَ عورتُه وهو نائمٌ؛ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «لا يستلقِيَنَّ أحدكم ثم يضعُ إحدى رجلَيْه على الأخرى»؛[4].

ومن الآداب: تباعُد النائمين عن بعضهم؛ فعن عمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال النبي ﷺ: «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبع سنين، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرِّقوا بينهم في المضاجِع»؛[5].

ومن السنن: كتابةُ الوصية؛ فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يُوصِي فيه يبيتُ ليلتين إلا ووصيتُه مكتوبةٌ عنده»؛[6].

وقد نهى النبي ﷺ عن النوم على البطن، وقال: «إنها ضَجعةُ أهل النار»[7]، وقال: «إنها ضَجعةٌ يُبغِضُها الله عَزَّوَجَلَّ»؛[8].

---

(١) رواه البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٢) رواه البخاري (٢٨٧) ومسلم (٣٠٦).

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤).

(٤) رواه مسلم (٢٠٩٩).

(٥) صحيح أبي داود (٤٩٥).

(٦) رواه البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧).

(٧) صحيح ابن ماجه (٣٠١٦).

(٨) قوّاه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٤٦٤٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: رأى رسول الله ﷺ رجلًا مُضطجِعًا على بطنه، فقال: «إن هذه ضَجعةٌ لا يحبها الله»؛[١].

أيها المسلمون: ومن السنة: النوم على الشِّقِّ الأيمن؛ فعن البراء بن عازبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيتَ مضجِعك فتوضَّأ وضوءَك للصلاة، ثم اضطجِع على شِقِّك الأيمن»؛[٢].

ومن السنة: وضعُ اليد تحت الخدِّ؛ فعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان ﷺ إذا أخذ مضجِعَه من الليل وضع يدَه تحت خدِّه؛[٣].

عباد الله: هذه بعضُ السنن العملية، وإليكم طائفةً أخرى من الأدعية والأذكار التي صحَّت عن النبي ﷺ، وحرِيٌّ بكل مسلمٍ أن يحفَظَها ويتلُوها ويجعلها وِردَه وطمأنينة قلبه، وذِكرُ الله مطلوبٌ عند النوم؛ فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اضطجَع مضجِعًا لا يذكرُ اللهَ فيه كانت عليه من الله تِرة»؛[٤].

ومن هذه الأذكار: قراءةُ آية الكرسي؛ ففي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الطويل، قال: «إذا أويتَ إلى فِراشك فاقرأ آيةَ الكرسي؛ فإنه لن يزالَ عليك من الله حافظٌ ولا يقربُك شيطانٌ حتى تُصبِح». فقال النبي ﷺ: «صدَقَك وهو كذوبٌ، ذاك شيطان»؛[٥].

ومن الذِّكر قبل النوم: التسبيحُ ثلاثًا وثلاثين، والحمدُ ثلاثًا وثلاثين، والتكبيرُ أربعًا وثلاثين، وفيه حديثُ علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وشكوى فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ما تلقى من الرَّحَى مما تطحَن، وطلبَت خادمًا، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أدلُّكما على خيرٍ مما سألتُماه؟ إذا

---

(١) صحيح الترمذي (٢٧٦٨).

(٢) رواه البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٤).

(٤) صحيح الجامع (٦٤٧٧).

(٥) رواه البخاري (٢٣١١).

أخذتُما مضاجِعكما فكبِّرا اللهَ أربعًا وثلاثين، واحمدَا ثلاثًا وثلاثين، وسبِّحا ثلاثًا وثلاثين؛ فإن ذلك خيرٌ لكما مما سألتُماه»؛[1].

عباد الله:

ومن الدعاء الذي كان يقوله ﷺ: ما رواه حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فِراشه قال: «باسمك اللهم أموتُ وأحيا»، وإذا قام قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»؛[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أوى أحدُكم إلى فِراشه فلينفُض فِراشه بداخِلَة إزاره؛ فإنه لا يدري ما خلَفَه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعُه، إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتَها فاحفظها بما تحفَظ به عبادَك الصالحين»؛[3].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا أخذ مضجِعَه: «الحمدُ لله الذي كفاني وآواني، وأطعمني وسقاني، والذي منَّ عليَّ فأفضَلَ، والذي أعطاني فأجزَل، الحمدُ لله على كل حال، اللهم ربَّ كل شيءٍ ومليكَه وإلهَ كل شيءٍ، أعوذ بك من النار»؛[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أبا بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله! مُرني بكلماتٍ أقولهنَّ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، قال: «قل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشيطان وشِرْكِه، قُلها إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ وإذا أخذتَ مضجِعَك»؛[5].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتَت فاطمةُ النبيَّ ﷺ تسألُه خادمًا، فقال لها: «قولي: اللهم ربَّ السماوات وربَّ الأرض، وربَّ العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كل شيءٍ، فالقَ الحبِّ والنوى، ومُنزِل التوراة والإنجيل والفُرقان، أعوذ بك من شرِّ كل شيءٍ أنت آخِذٌ بناصيته،

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٥) ومسلم (٢٧١١).

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤).

(٤) صحيح أبي داود (٥٠٥٨).

(٥) صحيح أبي داود (٥٠٦٧).

اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهرُ فليس فوقَك شيء، وأنت الباطنُ فليس دونَك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن، وأغنِنا من الفقر»؛[1].

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام وضع يده تحت رأسه ثم قال: «اللهم قِني عذابَك يوم تجمعُ عبادَك»؛[2]

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فِراشه قال: «الحمدُ لله الذي أطعمَنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافِيَ له ولا مُؤوِي»؛[3].

وعن البراء بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيتَ مضجِعك فتوضَّأ وضوءَك للصلاة، ثم اضطجِع على شقِّك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجَا منك إلا إليك، اللهم آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ، وبنبيِّك الذي أرسلتَ»، قال: «فإن متَّ من ليلتك فأنت على الفِطرة، واجعلهنَّ آخر ما تتكلَّم به»؛[4].

أيها المسلمون:

وقد يعرِضُ للمسلم ما يُخيفُه ويُفزِعُه، فإذا وجدَ ذلك فليستعِذ بالله، قال رسول الله ﷺ: «إذا فزِعَ أحدُكم من النوم، فليقُل: أعوذ بكلمات الله التامات من غضبِه وعِقابه وشرِّ عباده، ومن همَزات الشياطين وأن يحضُرون؛ فإنها لن تضُرَّه»؛[5].

وللرؤيا والأحلام آدابٌ وسُنن؛ عن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرُّؤيا من الله، والحُلم من الشيطان، فإذا أرى أحدُكم شيئًا يكرهه فلينفُث عن يساره ثلاث مرات، ثم ليتعوَّذ من شرها، فإنها لا تضرُّه»؛[6].

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) صحيح الترمذي (٣٣٩٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٥).

(٤) رواه البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٥) صحيح الترمذي (٣٥٢٨).

(٦) رواه البخاري (٥٧٤٧) ومسلم (٢٢٦١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدُكم الرؤيا يكرهُها، فليبصُق عن يساره ثلاثًا، وليستعِذ بالله من الشيطان ثلاثًا، وليتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه»؛[1].

الله بارِك لنا في القرآن والسنة، وانفعنا بما فيهما من الآيات والحكمة، أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٦٢).

الخطبة الثانية:

الحمد لله وليِّ المؤمنين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عُدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملكُ الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الصادقُ الأمين، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها المسلمون:

وإذا انتبَه المسلم من الليل فيُسنُّ له أن يذكُر اللهَ تعالى ويدعوَه، فإنه حرِيٌّ بالإجابة؛ عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيءٍ قدير، الحمدُ لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي أو دعا استُجيبَ له، فإن توضَّأ وصلَّى قُبِلَت صلاتُه»؛[1].

وعن مُعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلمٍ يبيتُ على ذِكرٍ طاهرًا فيتعارُّ من الليل، فيسأل الله خيرًا من الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه»؛[2].

ومن السنة: قراءةُ آخر سورة آل عمران إذا قام ليلًا؛ عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال في حديثه: «فنام رسول الله ﷺ حتى انتصَفَ الليل أو قبله بقيل أو بعده بقليل، ثم استيقظَ رسول الله ﷺ فجلسَ فمسحَ النومَ عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر آياتٍ خواتيم سورة آل عمران»[3].

ومن السنة: السواكُ بعد النوم؛ عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يشُوصُ فاهُ بالسواك؛[4].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يُوضَع له وَضوؤه وسِواكُه، فإذا قام من الليل تخلَّى ثم استاكَ[5].

---

(١) رواه البخاري (١١٥٤).

(٢) صحيح أبي داود (٥٠٤٢).

(٣) رواه البخاري (١١٩٨) ومسلم (٧٦٣).

(٤) رواه البخاري (٢٤٥) ومسلم (٢٥٥).

(٥) صحيح أبي داود (٥٦).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ كان لا ينامُ إلا والسواك عنده، فإذا استيقظَ بدأ بالسِّواك[1].

ومن السنة: الذِّكرُ بعد الاستيقاظ؛ عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجِعه من الليل وضع يدَه تحت خدِّه ثم يقول: «اللهم باسمك أموت وأحيا»، وإذا استيقظَ قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»؛[2].

ومن السنة أيضًا: غسلُ اليد ثلاثًا قبل استعمالها؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظَ أحدُكم من نومه، فليغسِل يدَه قبل أن يُدخِلَها في وُضوئه؛ فإن أحدَكم لا يدري أين باتَت يدُه»؛[3]

عباد الله: ومن أراد النشاطَ وانشراحَ الصدر وطِيبَ النفس بعد الاستيقاظ من النوم؛ فليُبادِر إلى ذكر الله، ثم إلى الوضوء والصلاة؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «يعقِدُ الشيطانُ على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضربُ مكان كل عُقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُد، فإن استيقَظ فذكرَ الله انحلَّت عُقدَة، فإن توضَّأ انحلَّت عُقدَة، فإن صلَّى انحلَّت عُقَدُه فأصبح نشيطًا طيبَ النفس، وإلا أصبح خبيثَ النفس كسلان»؛[4].

أيها المسلمون: هذا بعض ما ثبت عن النبي ﷺ، وفي الصحيح كثيرٌ غيرُها، فهل لنا أن نتتبع أثر النبوة، ونتحرى آدابها وشمائلها؟ إن هذا هدي خير الخلق، فمن اهتدى بهديه واقتدى بآدابه كان من خير الناس، أسأل الله تعالى أن ينفعنا وينفع بنا، وأن يُعينَنا على تطبيقها والتزامها.

اللهم وفِّقنا لهُداك، واجعلنا نخشاك كأنا نراك، واجعلنا مُتَّبعين لسنة نبيك محمد ﷺ، اللهم أورِدنا حوضَه، وارزُقنا شفاعتَه، واحشُرنا تحت لوائه.



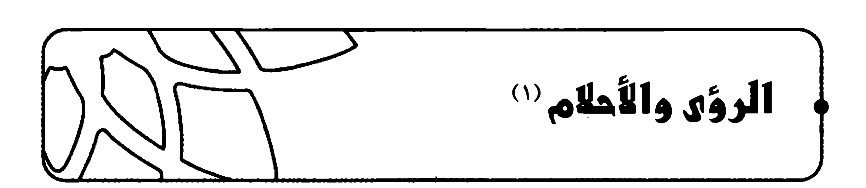
---

(١) السلسلة الصحيحة (٢١١١).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٥) ومسلم (٢٧١١).

(٣) رواه البخاري (١٦٢) ومسلم (٢٧٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٩) ومسلم (٧٧٦).



الرؤى والأحلام [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد الأحد.. الفرد الصمد.. الذي لم يلد ولم يولد.. ولم يكن له كفوا أحد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، خير من ركع لله وسجد، وأفضل من دعا إلى طريق الحق والرشد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من سار على طريقهم واتبع هداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله -معاشر المسلمين- واعلموا أن هذه الدنيا دار ممر وأن الآخرة هي دار القرار ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]...

أيها الناس:

إن لبني آدم ولَعًا بالغًا وشغفًا ثائرًا فيما يتعلق بالأمور الغيبية -الماضي منها واللاحق-، وإنكار هذه الظاهرة ضربٌ من ضروب تجاهل الواقع والنَّأْيِ عنه. غيرَ أن تَراوُحَ هذه الظاهرة -صعودًا وهبوطًا- يُعَدّ مرهونًا بمدى قرب الناس من مشكاة النبوة والشِّرعة الحقّة، التي أَحْكَمت هذا الباب، وأخبر الله من خلالها بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

ولا غَرْو حينئذ إذا وَجدْنا هذه العصور المتأخرة مظنةً للخلط واللغط بالحديث عن الغيبيات، وتوقان النفوس الضعيفة إلى مكاشفتها، ما بين مؤمن بالخرافة وراضٍ بالكهانة، وآخرين سادرين بالسجع والتخمين يقذفون بالغيب في كل حين، مع أن آيات الله تُتلى عليهم

(١) سعود بن إبراهيم الشريم.

بكرةً وعشيًا، وفيها قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥] وتُقرأ عليهم سنة المصطفى ﷺ وفيها قوله: «خمس لا يعلمهن إلا الله عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ خَبِيرٌ»(١).

إذن لا مجال للحديث عن المغيَّبات إلا من خلال ما ذكره لنا ربنا جل وعلا، أو ما أوحاه إلى رسوله ﷺ، وما عدا ذلك فما هو إلا مجرّدُ تكهُّناتٍ إن لم تكن محورَ أساطير وأوهام، وخليطَ كلام يقذف به مسترقُ السمع من الجن.

والإسلامُ في حقيقته دينٌ يُزيلُ الخرافةَ من الفكْر، والرذيلة من القلب، والشّرودَ من المسيرة، فالإيمان بالغيب ليس إيمانًا بالأوهام ولا هو إيذانا لأنواع الفوضى.

ثم إن الناجين من هذه الظاهرة قد لا يسلمون من تطلُّع آخر يحملهم عليه الشغفُ ورَوْم معرفة الحال اللاحقة، والتي يظنون أن لها ارتباطًا وثيقًا باستقرار مستقبلهم من عدمه، فاشرأبّت نفوسُهم إلى الوقوف على ذلك في مناماتهم من خلال ما يعتريهم من رؤى وأحلام، ولذا فإن أحدنا قد يلاقي أخًا له أو صديقًا فيراه عبوسًا مُتجهِّما أو فرِحًا مسرورًا، فيزول عنه العَجَب حينما يعلم أن سببَ هذا الفرح أو الحزن رؤيا مؤنسة أو أخرى مقلقة.

وهذا الأمر-عباد الله- ليس قاصرًا على أفراد الناس وعامتهم فحسب، بل يشركهم فيه العظماء والكبراء، فكم أقضَّت الرؤيا عظيمًا من مضجعه، وكم بشَّرت الرؤيا أفرادًا بمستقبلهم، وكم شغلت شعبًا كبيرًا برُمّته، وما رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بغائبة عنا، ولا رؤيا ملك مصر بخافية علينا، فقد اجتمع فيها تبشير وتحذير في آنٍ واحدٍ، إذ بشارتها هي السَّعة عليهم في الرزق سبعَ سنين، ونذارتها هي في الجدب والقحط سبعًا مثلها.

الرؤى لها أهميتُها الكبرى في واقع الناس قبل الإسلام وبعد الإسلام، لكنها من خلال نظرات المتعلمين والمثقفين لها قد تتفاوت تفاوتًا كثيرًا لاختلاف المرجعية من قبل كل طائفة،

---

(١) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٥٤).

فقد أَنْكَرَها الفلاسفةُ، ونَسَبوا جميع الرؤى إلى الأخلاط التي في الجسد، فرأوا أنها هي التي تحدث انعكاسًا مباشرًا على نفس الرائي بقدر هيجان الأخلاط التي في جسده.

ولبعض علماء النفس موقفٌ سلبي تجاه هذه الرؤى أيضًا، قاربوا فيه قولَ الفلاسفة فجعلوها خليطًا من الأمزجة والرواسب التي تكمُن في ذاكرة الإنسان فيهيّجها المنام، حتى قصروا أمرَها في قالب مادي -بيولوجي- صِرف كما زعموا.

وأما شريعة الإسلام فإن علماءَها وأئمتَها قد ساروا على منهاج النبوة ووقفوا من الرؤى بما نصَّ عليه الكتاب والسنة، فذهبوا إلى أن الرؤيا المنامية الصالحة الصادقة إنما هي حق من عند الله، فمنها المبشِّرة ومنها المنذرة..

لما روى البخاري عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنّ رسول الله ﷺ قال: «لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ»، قيل: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[1].

والتبشير هنا -عباد الله- يحتمل التبشير بالخير والتبشير بالشر، كما قال الله تعالى عن الكفار: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

وهذه الرؤيا -عباد الله- هي التي قال عنها الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة..» الحديث.[2].

وبعدُ -يا رعاكم الله-..

فلقد تكالبتْ هِممُ كثيرٍ من الناس في هذا العصر، بسبب الخواء الروحي الذي يتبعه الجزعُ والفَرَق، ونأيُ النفس عن تعلقها بالله وإيمانها بقضائه وقدره وبما كان ويكون، وأن شيئًا لن يحدث إلا بأمر الله ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، حتى لقد تعلَّقتْ نفوسُهم بالرؤى والمنامات تعلُّقًا خالفوا فيه من تقدَّمهم في الزمن الأول من السلف الصالح، ثم توسَّعوا فيها وفي الحديث عنها والاعتماد عليها، إلى أن أصبحت شغلَهم الشاغل عبر المجالس والمنتديات والمجامع! بل والقنوات الفضائية!!

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠).

(٢) رواه البخاري (٧٠١٧) ومسلم (٢٢٦٣).

إلى أن طغتْ على الفتاوى الشرعية، فأصبح السؤالُ عن الرؤى أكثرَ بأضعاف عن السؤال في أمور الدين وما يجب على العبد وما لا يجب!

كل ذلك إبان غفلةٍ ووَسْنةٍ عن ما ينبغي أن يقِفَه المؤمنُ تجاهَ هذه الرؤى، وأنّ هناك هديًا نبويًا للتعامل معها ينبغي أن لا يتجاوزه المرءُ فيطغى.. ولا يتجاهلَه فيعْيى؛ لأن النبي ﷺ تركَنا على المحجة البيضاء، فأغنانا في الحديث عنها عن إتعابِ النفْس في التعلق بها والسعي الدؤوب في معرفة تأويلها، بلْهَ التعلق بها والاعتماد عليها، وما تهافتُ الناسِ في السؤال عنها بهذه الصورة المُفْرطة إلا لونٌ من ألوان الخروجِ عن الإطار المرسومِ والتوازن المتكامل، فتجد أحدَنا يرى الرؤيا -أيًّا كانت- فتضطرب لها حواسُّه! وترتعد منها فرائصُه! وتُحبَس أنفاسُه! فلا يطفئ ذلك إلا البحث بنَهمٍ عن عابرٍ لها ليَعْبُرَها، حتى يظهر له أشرٌّ هي أم خير.

ولو وقفَ كُلّ واحدٍ منا عند الهدي النبوي مع الرؤى، لَمَا رأينا مثل هذه الجَلَبة ولا مثل هذا التعلّق الشاغل، الذي استثمرته بعضُ المجامعِ والمنتديات، فضلًا عن الفضائيات التي جعلته وسيلةَ جلْبٍ واستقطابٍ لمشاهِدِيها من خلال هذا الطُّعْم الْـمُهَوِّع.

ولأجل أن نقفَ جميعًا على صورةٍ مثلى للتعامل مع الرؤى المتكاثرة فلنستمع إلى جملة من الآداب المرعية تجاه هذه الظاهرة الناخرة في المجتمع...

فقد روى مسلم في صحيحه أن أبا سلمة قال: كنت أرى الرؤيا أُعرَى منها - أي أمرضُ منها- غير أني لا أُزَمَّل، حتى لقيتُ أبا قتادة فذكرتُ ذلك له فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان، فإذا حَلَم أحدُكم حُلْمًا يَكْره، فلينفُثْ عن يساره ثلاثًا وليتعوّذ بالله من شرها، فإنها لن تضرّه» قال أبو سلمة: إن كنتُ لأرى الرؤيا أثقل عليَّ من جبل، فما هو إلا أن سمعتُ بهذا الحديث فما أُبالِيها[1].

ومن هنا -عباد الله- فما كلُّ ما يراه النائمُ يُعَدّ من الرؤى التي لها معنًى تفسَّر به؛ إذ إنّ ما يراه النائم في منامه يتنوّع إلى ثلاثة أنواع لا رابع لها.. كما عند ابن ماجه من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن الرؤيا ثلاث: منها أهاويلُ من الشيطان

(١) رواه مسلم (٢٢٦١).

لِيَحْزن بها ابنَ آدم، ومنها ما يَهمّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»[1].

يقول البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في هذا الحديث بيانُ أنه ليس كل ما يراه الإنسانُ في منامه يكون صحيحًا ويجوز تعبيرُه، إنما الصحيحُ منها ما كان من الله عَزَّوَجَلَّ، وما سوى ذلك أضغاث أحلام لا تأويل لها).

ومثال هذه الأضغاث -عباد الله- ما رواه مسلم في صحيحه أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.. رأيتُ في المنام كأنّ رأسي ضُرب، فتدحرج فاشتددتُ على أثره.. فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: «لا تُحَدِّث الناس بتلعّب الشيطان بك في منامك»[2].

وأمّا موقف المرء من هذا النوع من الرؤى - وهو الغالب على حال الكثيرين - فإنه قد جاء في السنة آداب خاصة به في أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما.. وهي:

التعوذ بالله من شر هذه الرؤيا ومن شر الشيطان، وأن يتفل الرائي حين يهبّ من نومه ثلاثًا عن يساره، وأن لا يذكرَها لأحد أصْلا، وأن يصلي ما كُتِب له، وأن يتحوّلَ من جنْبِه الذي كان عليه.

وزاد بعض أهل العلم قراءةَ آية الكرسي.. لما صحّ عن النبي ﷺ أنّ من قرأها لا يقربه شيطان.

وهذا النوع من الرؤى إنما هو من الشيطان..

يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وينبغي أن يجمعَ الرائي بين هذه الآداب كلها ويعمل بجميع ما تضمنته الروايات، فإنْ اقتصر على بعضها أجْزَأه في دفع ضررها -بإذن الله- كما صرحت بذلك الأحاديث).

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣١٦٩).

(٢) رواه مسلم (٢٢٦٨).

وأما النوع الثاني من الرؤى فهو ما يحدِّثُ به المرءُ نفسَه في يقظته، كمن يكون مشغولًا بسَفَر أو تجارةٍ أو نحو ذلك فينام، فيرى في منامه ما كان يفكِّر فيه في يقظته، وهذا من أضغاثِ الأحلامِ التي لا تعبير لها.

فلا يبقى إلا النوعُ الثالث، وهو الرؤيا الصادقة الصالحة التي تكون من الله، وهي التي تكون بشارة أو نذارة، وقد تكون واضحةً ظاهرةً لا تحتاج إلى تأويل، كما رأى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه يذبح ابنَه في المنام..

وقد تكون خافية برموز تحتاج فيها إلى عابر يَعْبُرها، كرؤيا صاحِبَي السجن مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهذا النوع هو الذي نهى رسول الله ﷺ أن يُقَصّ إلا على عالم أو ناصحٍ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «لا تُقَصّ الرؤيا إلا على عالمٍ أو ناصحٍ»(١).

وما عدا ذلك من الرؤى التي تتعلق بإثبات شيء من أحكام الشريعة في حلال أو حرام، أو فِعْل عبادة أو تحديد ليلة القدر مثلًا -وهي التي أُرِيَها النبي ﷺ ثم أُنسيَها-، أو تلك الرؤى التي ينبني عليها آثار متعدية تتعلق بحقوق الناس وحرماتهم وإساءة الظنون بهم من خلال بعض الرؤى مثلا، أو الحُكْم على عدالتهم ونواياهم من خلالها، فإنّ ذلك كلَّه من أضغاث الأحلام ومن الظنون التي لا يجوز الاعتماد عليها في قول جمهور أهل العلم كالشاطبي والنووي وابن تيمية وابن القيم وابن حجر وغيرهم.

وقد ذكر الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الاعتصام) أن الخليفة المهدي أراد قتل شَريك بن عبد الله القاضي فقال له شريك: (ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين ودمي حرام عليك؟!

قال: لأني رأيت في المنام كأني مقبلٌ عليك أُكَلِّمُك وأنت تكلمني من قفاك! فأرسلتُ إلى المعبر فسألته عنها فقال: هذا رجل يطأ بساطَك وهو يُسِرّ خلافَك!!

فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب، وإن دماءَ المسلمين لا تُسْفَك بالأحلام!

فنكَّس المهدي رأسه وأشار إليه بيده أن اخرُج فانصرف).

(١) صحيح الترمذي (٢٢٨٠).

وقد ذكر ابنُ عساكر في تاريخ دمشق أنّ بعضَهم رأى في المنام الشافعيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال له: (كذبَ عليَّ يونس بن عبد الأعلى في حديث ما هذا من حديثي ولا حدّثْتُ به!). فقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذا الكلام: (يونس بن عبد الأعلى من الثقات، لا يُطْعَنُ فيه بمجرد منام).

وقد نقل الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن المروذي قال: (أَدْخَلْتُ إبراهيمَ الحصري على أبي عبد الله أحمد بن حنبل -وكان رجلًا صالحا- فقال: إنّ أُمي رأت لك منامًا هو كذا وكذا -وذكرت الجنة-فقال: يا أخي، إنّ سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا وخرج إلى سفك الدماء! وقال: الرؤيا تسرُّ المؤمن ولا تغرُّه).

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين واستغفروا ربكم إنه كان غفارا.

الخطبة الثانية:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه..

فيا أيها الناس:

إنّ من باب الإنصاف والمصارحة والنصح، أنْ لا نُلْقيَ باللائمة كلها في موضوع الرؤى والإفراط فيها على آحاد الناس فحسب، بل لا بد من تعديةِ الأمرِ إلى العابرين أنفسهم الذين يعبُرون الرؤى، إذ عليهم مسؤوليةٌ عظمى تجاه الرائين.

فلا بدّ للعابر أن يكون عالمًا بهذا العلم العظيم، وأن يدركَ المصالح والمفاسد في هذا الميدان، وأن لا ينصِّبَ نفسه للفتيا في الرؤى ويتطلَّع إليها، لا سيما عبر الشاشات وفي المجامع الكبيرة.

فتعبير الرؤى قرينُ الفتيا، وقد قال الملك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣] يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المفتي والمعبِّر والطبيب يطَّلعون من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطّلع عليه غيرهم، فعليهم استعمال الستر فيما لا يَحْسُن إظهارُه).

ثم إنّ على العابرين أن لا يتسارعوا في التعبير، وأن لا يجزموا بما يعبرون، وأن يعلموا خطورةَ هذا الجانبِ وما يوصله إليه من الافتتان والإعجاب بالنفس وتعظيم شأنه فوق شأن المفتين وأهلِ العلم، وقد نقل ابنُ عبد البر عن الإمام مالك أنه سئل: (أيعبُر الرؤيا كلُّ أحد؟) فقال مالك: (أبالنبوة يُلعَ؟!).

وقد نقل ابنُ عبد البر أيضا عن هشام بن حسان أنه قال: (كان ابن سيرين يُسألُ عن مئة رؤيا فلا يجيب فيها بشيء إلا أنه يقول: اتق الله وأحسِن في اليقظة فإنه لا يضرك ما رأيت في النوم، وكان يجيب في خلال ذلك ويقول: إنما أجيب بالظن، والظن يخطئ ويصيب)

فإذا كان هذا هو قولَ إمام المعبرين في زمانه وما بعده من الأزمان، فما الظن بمن جاء بعده؟!

إننا لنسمع بالمعبِّر يُسأل عن ألف رؤيا لا تسمع مرةً يقول: لا أدري! أو يقول: هذه أضغاث أحلام! أو يقول: هذه حديث نفس... إلا من رحم ربُّك!

كما أنّ على العابرين أن يدركوا خطورةَ تعبير الرؤى من خلال الشاشات التي يراها الملايين من الناس، وكذا المجامع الممتلئة بالحشود وذلك للأمور التالية:

أولها: أنّ الانفتاح المطلَق في التعبير نوعُ فتنة من أجل حديثه في أمور الغيب، لا سيما أنّ أحدًا لا يستطيع أن يجزمَ بصحة ما يقول العابر من عدمه، إلا من رأى ذلك في واقعه، وهذا شبْه متعسِّر عبر الشاشات.

وثانيها: تعذّرُ معرفة حال الرائي عبر الشاشات والمجامعِ من حيث الاستقامة من عدمها، وهذا له صلةٌ وثيقةٌ بتعبير الرؤيا، فابن سيرين سأله رجلان -كل منهما رأى أنه يؤذِّن-، فعبرها للصالح منهما بالحج لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج:٢٧] وعبرها، للآخر بأنه يسرق لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠].

والشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في مثل هذه الحالة: (فمتى تتعين الصالحة حتى يُحكَمَ بها وتترك غير الصالحة؟).

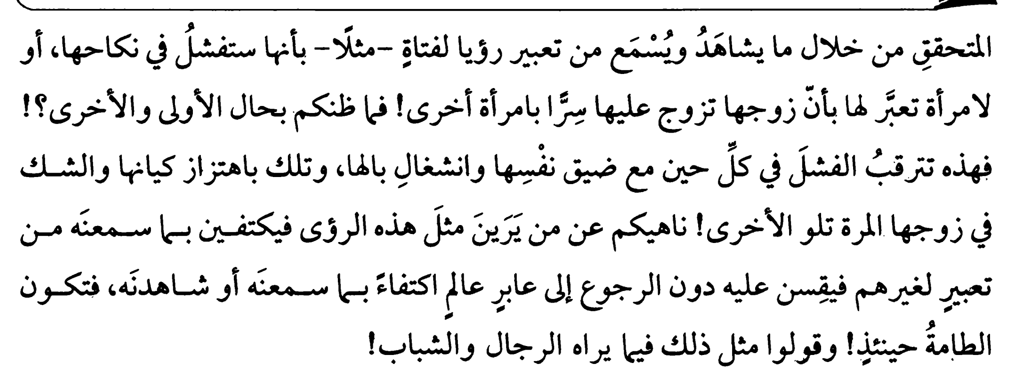
وثالثها: عدم إدراك عقول الناس لطريقة بعض العابرين للرؤيا لا سيما عبر الشاشات والمجامع، بحيث يكون تعبيرهم بصورة تجعل المستمعَ الجاهلَ لأول وهلةٍ يقول: هذا تكهّن أو تخمين أو عرافة! ونحن قد أُمِرْنا بمخاطبة الناس على قدر عقولهم.

فقد أخرج البخاري في صحيحه قول علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟!»[1].

وعند مسلمٍ عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أنت محدّث قوما حديثًا لا تبلغه عقولُهم إلا كان لبعضهم فتنة».

رابعها: أنّ درءَ المفاسد مقدمٌ على جلبِ المصالح، فالمفسدةُ من خلال التعبير عبر الشاشات أشدّ من مصلحته لأمورٍ لا تخفى على متتبِّعها، لا سيما أنها في أمورٍ غيبية، وأنّها كالفتوى، والسلف الصالح كانوا يتدافعون الفتوى ما استطاعوا، ناهيكم عن بعض الفساد

(١) رواه البخاري (١٢٧).


المتحققِ من خلال ما يشاهَدُ ويُسْمَع من تعبير رؤيا لفتاةٍ -مثلًا- بأنها ستفشلُ في نكاحها، أو لامرأة تعبَّر لها بأنّ زوجها تزوج عليها سِرًّا بامرأة أخرى! فما ظنكم بحال الأولى والأخرى؟! فهذه تترقبُ الفشلَ في كلِّ حين مع ضيق نفْسِها وانشغالِ بالها، وتلك باهتزاز كيانها والشك في زوجها المرة تلو الأخرى! ناهيكم عن من يَرَينَ مثلَ هذه الرؤى فيكتفين بما سمعنَه من تعبيرٍ لغيرهم فيقِسن عليه دون الرجوع إلى عابرٍ عالمٍ اكتفاءً بما سمعنَه أو شاهدنَه، فتكون الطامةُ حينئذٍ! وقولوا مثل ذلك فيما يراه الرجال والشباب!

وأمّا ما يحتجُّ به بعضُ الناس من أن مسلمًا روى في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان كثيرًا ما يسألُ أصحابه بعد الفجر فيقول: من رأى منكم رؤيا؟ فالجوابُ عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أنّ هذا رسول الله ﷺ، وتعبيرُه حقٌّ لا يشوبُه شائبة.

الوجه الثاني: أن تعبيره كان في مسجدٍ يحضره عددٌ ليس كالأعداد التي تُعَدُّ بالملايين حينما تشاهد التعبير عبر الشاشات! وما ظنكم بحضورٍ عند رسول الله من الصحابة العقلاء الفضلاء مقارنةً بحضور عند غيره؟!

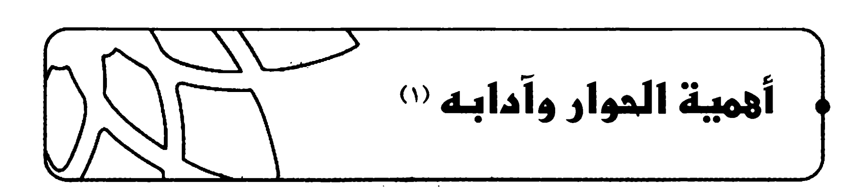
فأين الثرى من الثريا؟!

الوجه الثالث: أنه لم يَثْبُت عن أحدٍ من الصحابة -كالخلفاء الأربعة ولا من بعدهم من التابعين- أنه كان يفعل في المسجد كما كان النبي ﷺ يفعل، لا سيما أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد شَهِد له النبي ﷺ بأنه عارفٌ بتعبير الرؤى، وهو معدودٌ من المُعبرين عند كثير من أهل العلم.

ألا فاتقوا الله -معاشر المسلمين-، وراقبوه في السر والعلن، والقصدَ القصدَ تُفْلِحوا. واعلموا أن أصدق الناس رؤيا أصدقهم حديث، فكلما صدق اللسان، وغُضّ البصر، وامتثلت الجوارح، وأُكل الحلال، كانت الرؤيا أصدق، والفراسة أصوب.

هذا وصَلُّوا رحمكم الله على خير البرية وأزكى البشرية، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، صاحب الحوض والشفاعة فقد أمركم اللهُ بذلك في كتابه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].





أهمية الحوار وآدابه [1]

الخطبة الأولى:

الحَمْدُ لله ربِّ العالمينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ سيدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الأَخْيَارِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فيَا عبادَ الله: أُوصيكُمْ ونَفْسِي بتقْوَى الله عَزَّوَجَلَّ القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها المسلمونَ: إنَّ حياةَ الناسِ على هذهِ البسيطةِ، واختلاطَهُم، وتبادُلَ المصالحِ بينَهم، والتعايشَ على هذهِ الأرضِ بسلامٍ، يستلزمُ عليهم أولًا معرفةُ ما لَهُم وما عليهم، ما لَهُم مِنْ حقوقٍ، وما عليهم من واجباتٍ، وأنْ يكونَ ذلكَ نابعًا مِن شريعةِ الله التي بينَتْ الحقوقَ والواجباتِ وأعطتْ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، ثم بعدَ ذلكَ إنهاءُ الخلافاتِ الفرديةِ والاجتماعيةِ، ولا يتمُّ ذلكَ بينَ الأفرادِ والجماعاتِ، إلا من خلالِ الحوارِ الهادفِ الهادئِ، لأنَّ الحوارَ -يا عبادَ الله- إذا كانَ حوارًا هادفًا، يقرِّبُ وجهاتِ النظرِ، ويقلصُ التشتتَ والتباينَ في الآراءِ والتوجهاتِ، ولذلك -أيها المسلمون-: فلقَدِ حفلَتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ والسنةُ النبويةُ المطهرةُ بالنصوصِ الكثيرة التِي تُرشِدُنَا إِلَى أهميةِ الحوارِ فِي حياةِ الناسِ، وتُعلِّمُنَا حُسْنَ الاستماعِ إِلَى الآخرينَ، وما خلقَ اللهُ للإنسانِ فمًا وأذنينِ إلا ليقولَ ويسمعَ، وقَدْ ذكَرَ القرآنُ الكريمُ الحوارَ في مواضعَ كثيرةٍ جدًا، نذكرُ منها ما دارَ بينَ الله والملائكةِ مِنْ حوارٍ فِي قصةِ خَلْقِ الإنسانِ، وسؤالَ الملائكةِ لربِّ العالمينَ، قالَ تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي

---

(١) عبدالله الواكد.



جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، عندَ ذلكَ أستجابَتِ الملائكةُ لأمْرِ الله تعالَى ولمْ يكنْ ذلكَ الحوارُ معَ الملائكةِ فحسب، بلْ حتى معَ شرِّ خلقِ الله إبليس، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٠-٣١].

ولقَدْ حاورَ اللهُ سبحانه وتعالى إبليسَ معَ عصيانِ هذا المطرودِ من رحمةِ الله وتمردِهِ على أمرِ الله، فسألَهُ اللهُ تعالَى عَنْ سببِ عِصيانِهِ بأدبِ الرحمةِ الإلهيةِ فقالَ سبحانَهُ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٣٢-٣٣].

درسٌ عظيمٌ، وتربيةٌ ربانيةٌ، نُدركُ مِنْ خلالِها أهميةَ الحوارِ في حياتِنا، ونتعلَّمُ منْ هذهِ الدروسِ الربانيةِ، حُسْنَ الإصغاءِ للآخرينَ ولَوْ كانُوا غيرَ مُحِقِّينَ، لأنَّ مجردَ الإصغاءِ لهم، يشتملُ على احتواءِ كلِّ ما لديهِمْ من الأسبابِ والحُجَجِ، والأعذارِ والتأولاتِ، للوقوفِ على سببِ الخلافِ وعلاجِه، ولكي يعلمَ الطرفُ الآخرُ أنكَ تُشارِكُهُ همومَهُ، ويهمُّكَ أمرُهُ، وأنكَ تسعى للاقترابِ منهُ، وتحبُّ لهُ وتخشى عليهِ.

أيُّها المؤمنونَ: اقرؤوا القرآنَ وتأملوه، لقَدْ تَحاوَرَ اللهُ سبحانَهُ -وهوَ الخالقُ- معَ كثيرٍ من الأنبياءِ، وتحاورَ سيدُنا نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ وشعيبٌ وموسَى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مَعَ أقوامِهِمْ، وقَصَّ علينَا القرآنُ الكريمُ محاوراتِهِمْ، وتحاورَ البشرُ فيما بينَهم، فقد جاءَ في القرآنِ الكريمِ حِوارٌ جَرَى بيْنَ رَجُلَيْنِ أَنْعَمَ اللهُ تعالَى علَى أحدِهِمَا بِجَنَّتَيْنِ، فاغْتَرَّ بِمَا عندَهُ، وأنكرَ الإيمانَ والدارَ الآخرةَ، فكانَ صاحبُهُ المؤمنُ يُحاورُهُ بأدَبٍ، وينصَحُهُ بلُطْفٍ، قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٧-٤٢].

لقد نِدمَ الرجلُ علَى مَا اقترَفَ، وقالَ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا، حينَ لنْ تنفعَ (ليتَ)، ولنْ تنفعَ (ليتَ) في كلِّ زمانٍ ومكانٍ مَنْ يتعامى عنِ الحوارِ والنصحِ الصادقِ.

ليكنْ هدفُنا من الحوارِ، هو توضيحُ الحقِّ، وتبيينُ الصوابِ، وهدايةُ التائهِ، بعيدًا عن حظوظ النفس والثورانِ لها.

عبادَ الله: إنَّ الحوارَ مهمٌّ فِي حياتِنَا، والحوارُ ليسَ باللجاجِ والصخبِ والفوضى، والاستعلاءِ والاستنقاصِ، والاستبدادِ بالرأي، إنما هو جدال بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو مائدةُ حُجَجٍ وبراهينَ، وأخذٍ وعطاءٍ، وقولٍ وإصغاءٍ، وتفاهمٍ وتراحمٍ، فمتى ما علمَ الطرفُ الآخرُ أنكَ تسعى لمصلحتِهِ كما تسعى لمصلَحَتِك، فلنْ يساوِرَهُ شكٌّ في صدقِكَ وأمانتِكَ، وبالتالي يَرضى بسماعِ قولِكَ وقبولِهِ، فعلينَا أَنْ نتعلَّمَ ذلكَ، ونُعلِّمَهُ أبناءَنَا وبناتِنَا، ونمارسَهُ بآدابِهِ وأخلاقِهِ فِي العلاقاتِ بيننَا جميعًا، فليكُنِ الحوارُ الهادفُ بينَ الأزواجِ والزوجاتِ، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، وبينَ الآباءِ والأبناءِ؛ فقد حاورَ إبراهيمُ أباهَ ولقمانُ ابنَهُ، وبينَ المعلمينَ والطلابِ فقدْ تحاورَ الخَضِرُ مع موسى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -.

ولقد تحاورَ صفوةُ الخلقِ ﷺ مع أصحابِه، تأمَّلُوا هذَا الحوارَ التربويَّ الذِي ورَدَ فِي سننِ ابنِ ماجه، أُتِيَ رَسُولُ اللهِ بِلَبَنٍ وَعَنْ يَمِينِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ -وكانَ صغيرَ السِّنِّ- وَعَنْ يَسَارِهِ خَالِدُ بن الْوَلِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَسْقِيَ خَالِدًا؟!». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُوثِرَ بِسُؤْرِ رَسُولِ اللهِ عَلَى نَفْسِي أَحَدًا. أي بفضلةِ رسولِ الله ﷺ، فَأَخَذَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَشَرِبَ، وَشَرِبَ خَالِدٌ[١].

فما أروعَهُ مِنْ حوارٍ جميلٍ، فيهِ احترامٌ لمشاعرِ الصغيرِ، واستماعٌ لرأيِهِ.

بل تحاور سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الهدهد، كما ذكر الله ذلك في سورة النمل في قصة سليمان، وتركه يوضح أعذاره ويبرر غيابه، ويثبت صحة كلامه، وهو طير صغير ومخلوق في نظر البعض حقير، فلم يحقره، ولم يعجل عليه بعقوبة، ولم يتهمه بالشبهة، بل لم يغضب منه حين

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٧٨٣).

دلّ عليه بالعلم وأنه أحاط بما لم يحط به، وهذا من كمال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن المعالم التربوية في الحوار للمربين والمعلمين والآباء والأمهات.

أيها الأحبةُ في الله: إنَّ مِنْ أسبابِ نجاحِ الحوارِ الهادفِ الابتعادَ عَنِ الجدالِ بالباطلِ؛ لأنَّهُ يُستخدَمُ لقَلْبِ الحقيقةِ مِنْ غيرِ هُدًى ولاَ دليلٍ ولاَ حجَّةٍ ولاَ بُرهانٍ، قالَ تعالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج:٨].

فالحوارُ الهادفُ ينجَحُ بالحكمةِ، وباستخدامِ أفضَلِ السبُلِ للإقناعِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

والحوارُ بالتِي هيَ أحسنُ يستلزِمُ احترامَ الآخرِ، والصبرَ عليهِ وعدمَ مقاطعتِهِ أثناءَ حديثِهِ أَوْ بيانِ رأْيِهِ، كمَا يستلزِمُ حُسْنَ الظنِّ بهِ، والحرصَ علَى عدمِ تحويلِ الحوارِ إلَى جدَلٍ وخصامٍ، ففي الصحيحينِ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ»[1].

ألا وإنَّ أعظمَ ما يُردُّ إليهِ النزاعُ والخلافُ هو قولُ الله وقولُ رسولِهِ ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعَنِي اللهُ وإياكُم بما فيه والسنة من الخير العميم. وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي ولكُمْ ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ومسلم (٢٦٦٨).

الخطْبة الثانية:

الحَمْدُ لله ربِّ العالمينَ، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ذُو الجَلالِ والإكـرامِ، وأَشْهَدُ أَنَّ سَيدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ الأَنَامِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَـيِّدِنَا مُحَمَّـدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها المسلمونَ: فاتقُوا اللهَ -عبادَ الله- واعلمُوا أنّه ما مِنْ أمةٍ حكمت بشـرعِ الله وأخـذت بمبدأ الحوارِ الهادفِ، إلا وكانتْ منْ أعظمِ الأممِ، استمعوا إلى هذا الموقفِ العظيمِ منَ النبـيِّ ﷺ وهو يحاورُ ذلكَ الشابَ حتى أشركَهُ النبيُّ ﷺ في تمحيصِ الحقِّ وتبيـانِ الصـوابِ؛ ففـي حديثِ أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ فتىً شابًا أتى النبيَّ ﷺ فقالَ: يـا رسـولَ الله: ائـذنْ لي في الزنـا، فأقبلَ القومُ فزجروهُ، وقالوا: مهْ مهْ، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «ادْنُهْ»، أي اقـتربْ منـي، فـدنا منـهُ قريبًا، وتأملْ هنا كيفَ أدناهُ النبيُّ ﷺ، ليكونَ الحوارُ والحديثُ بينهما فقـط، فيكـونُ أبلـغ في تحقيقِ النتائجِ، قالَ له النبيُّ ﷺ: «أتحبُّه لأمِّك؟!». قـال: لا والله، جعلنـي اللهُ فـداءَك، قـال: «ولا الناسُ يحبونَهُ لأمهاتِهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟!»، قال: لا والله يا رسـولَ الله، جعلنـي اللهُ فداءَك. قال: «ولا الناسُ يحبونَهُ لبناتِهم». قال: «أفتحبه لأختك؟!»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخـواتهم». قـال: «أفتحبـه لعمتـك؟!»، قـال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟!» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال راوي الحديث: فوضعَ يدَهُ عليـهِ، وقـالَ: «اللهـم اغفـرْ ذنبَـهُ وطهـرْ قلبَـهُ، وحصِّـنْ فرجَـهُ». فلـم يكـنْ بعـدَ ذلـكَ الفتـى يلتفتُ إلى شيءٍ[1].

دررٌ ونفـائسُ، القـرآنُ والسـنةُ -أيهـا المسـلمونَ- مدرسـتانِ عظيمتـانِ، ولكـن أينَ المستفيدونَ؟!

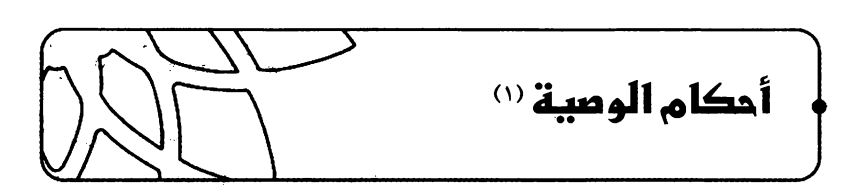
(1) السلسلة الصحيحة (1/ 712).

الحـوار أيهـا الأحبـة للتكامـل ولـيس للـتلاكم، وللعـرض لا للفـرض، وللنقـد البنـاء لا للهدم والتحطيم.

فبالحوار الهادئ يقتنع المخطئ، ويتبصر الغوي، ويتعلم الجاهل، وبالحوارِ الهادئِ يـدخلُ الناسُ في دينِ الإسلامِ، فليستِ الدعوةُ بالإكراهِ ولكنْ بالتبيينِ والإيضاحِ بـاللطفِ واللـينِ، وبالحوارِ الهادئ يتركُ الناسُ المعتقداتِ الباطلةِ والمناهجِ العوجاءِ والأفكارِ الضالةِ، وبـالحوارِ الهادفِ غيرِ المتعصِّبِ تتقلصُ الفجواتُ في المجتمعِ فيزدادُ تلاحمًا، وبـالحوارِ الهـادفِ الهـادئ تزدادُ الأُسرةُ تماسكًا، ويتفاهَمُ الأصدقاءُ معَ بعضِهِمْ، وبالحوارِ نحقِّقُ معانِي القِـيَمِ الإنسـانيةِ والحضاريةِ الراقيَة، بعيدًا عنِ الاستبدادِ والفوضى والأنانيةِ.

ألا وصلوا وسـلموا عـلى مـن أمـركم ربكـم بالصـلاة والسـلام عليـه فقـال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].





أحكام الوصية [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله إقرارًا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختصَّ بها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومنَّ على العاصي بقبول توبته، ومدَّ للمسلم عملًا صالحًا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المفضَّل على جميع بريته. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المؤمنون: يقول ربُّنا جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

إنه الأمرُ من الرب للعبيد، بأن يقولوا القولَ السديدَ، وأن ينهَجوا المنهجَ الرشيدَ، فمن امتثل أمر ربه فهو السعيد، ومن تنكّب طريقه فهو الطريد البعيد.

أيها الناس: كلنا يعلم بأن الإنسان يتنقل من مرحلة إلى أخرى، ومن طور إلى طور في هذه الحياة، بل تمر به أحوال من العسر واليسر، والفقر والغنى، والحزن والسرور، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والإنسان في الغالب له حقوق على نفسه، ولغيره حقوق عليه، ومثل تقلبات هذه الأحوال قد يتناسى الإنسان مثل هذه الحقوق، من ديون، أو ودائع وأمانات، أو ذوي فقر وحاجات، أو حتى فتح باب أجر على نفسه يجمع له بعد موته، من الوصية بشيء من ماله للبر والإحسان، لكل هذا ولغيره شرع الله بلطفه ومنّه وكرمه لهذا العبد الضعيف شرع له هذا الباب، باب الوصية فسحة وأمل، شرع له ميدان حسنات حال

(١) ناصر بن محمد الأحمد.

الحياة، وبعد الممات. قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء:١١]، وقال النبي ﷺ: «إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم زيادة لكم في أعمالكم»[١].

أيها المسلمون: الوصية لها مسائل ينبغي معرفتها، وأحكام يجدر التنبه لها، فأول أحكام الوصية: أن هناك وصية واجبة، ووصية مستحبة.

أما الواجبة: فذلك حين يكون على الإنسان حقوق لغيره، فهذه يجب عليه إثباتها؛ لئلا تضيع على أصحابها، ففي الحديث الصحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين - وفي رواية - ثلاث ليال، إلا ووصيته مكتوبة عنده» قال ابن عمر: ما مرت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي[٢].

فأين الصواب ممن حمل الديون، وتحمل الحقوق، ولا يدري أقرب الناس إليه ما له وما عليه؟ هل من الحزم أن يبقى ابن آدم كذلك وهو عُرضة للموت في أي وقت؟

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (من صواب الأمر للمرء أن لا تفارقه وصيته).

أيها المسلمون: من لزمته حقوق شرعية لله، أو لعباد الله من زكوات وكفارات وديون وودائع فليسارع في أدائها وليبادر في قضائها مادام قادرًا على الأداء، متمكنًا من القضاء، وإلا فليوصِ بذلك وصية واضحة في لفظها ومعناها، مجودة في كتابتها، عادلة في شهودها؛ لأنها حقوق أيها الأحبة، وسيتعلق برقبتك أصحابها يوم القيامة، ولأجل أن تحمد سيرتك ولا يبقى اهلك من بعدك في منازعات، ولكي تلقى الله وقد أديت ما عليك، وأبرأت ذمتك، وابيضت صحيفتك، وحسنت بإذن الله خاتمتك، وخفّ في الآخرة حسابك، ومن قصر تعرض لحرمان الثواب، أهمل براءة الذمة فليعد للسؤال جوابًا.

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٠٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧).

أما الوصية المستحبة: فهي لمن لم تكن عليه حقوق ولم تلزمه واجبات، فهذا يستحب له أن يوصي بشيء من ماله يصرف في سبيل البر والإحسان ليصل إليه ثوابه بعد وفاته، وهذا من لطف الله بعباده لتكثير الأعمال الصالحة لهم، وهذا باب واسع من الوصايا لا تنحصر، فلك أن توصي بشيء من مالك في عمارة المساجد وخدمتها، أو بناء الأربطة والمساكن للمحتاجين، أو في قضاء ديون المعسرين، أو في الصدقة على المحاويج، أو في الإنفاق على طلبة العلم وتعليم القرآن، أو تعبيد طرق المسلمين، أو طبع الكتب النافعة ونشرها، أو الوصية بالحج والأضاحي عن نفسك أو غيرك، وغيرها من أبواب البر والخير والإحسان، لكن هذه الوصية لمن له مال كثير، وورثته غير محتاجين لقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠]، والخير هو المال الكثير، ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٨].

فيقول أهل العلم: إن الوصية تكره من رجل ماله قليل ووارثه محتاج، وذريته ضعفاء، فالأولى أن يبدأ بهم ولا يقدم عليهم وصيته؛ لأنهم أحق بها له وأولى بمعروفه، وأعظم في ثوابه ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء:٩]، وقد قال عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»[1]. وقال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما من مال أعظم أجرًا من مال يتركه الرجل لولده ويغنيهم به عن الناس، وقد مات كثير من صحابة رسول الله صلى ولم يوصوا).

ومن أحكام الوصية: إنها لا تصح في الأمور المبتدعة والمسائل المحرمة كالوصية لعمارة الأضرحة وإسراجها أو الوصية بالنياحة والتبذير، والبناء على القبور، أو الوصية بالتكفين بالحرير أو الدفن في مسجد أو في بيت خاص، فكل هذا من الوصايا التي لا يجوز تنفيذها لمخالفتها للشرع.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٣٦) ومسلم (١٦٢٨).

ومن أحكام الوصية: أنها تجوز إلاّ في حدود ثلث المال فأقل، ولا تجوز بأكثر من الثلث لمن له ورثة؛ لأن ما زاد على الثلث حق لهم، لكن تجوز الوصية بأكثر من الثلث، بل بكل المال لمن لا وارث له؛ لأن المال الآن لم يتعلق به حق وارث ولا غريم، فأشبه ما لو تصدق بكل ماله في حال صحته، قال ابن القيم: (فمن لا وارث له لا يعترض عليه فيما صنع في ماله).

ومن أحكامها: أنها لا تصح لأحد من الورثة، بمعنى أنك لا توصي لشخص له حق في الميراث لقول النبي ﷺ: «لا وصية لوارث»[1]. ذلك لأن أنصبة الورثة قد قسمها الله سبحانه بنفسه في كتابه، ولا أحسن من قسمة الله تعالى، فهو أعلم وأحكم وأرحم.

ومن أحكام الوصية: إن الموصَى له لا تنتقل له الوصية، ولا يملكها إلا بعد موت الموصي؛ لأنه قد يغيّر رأيه، ولهذا فمن أحكامها: أنه يجوز للموصي الرجوع في وصيته، ونقضها أو الرجوع في بعضها، وهذا متفق عليه بين أهل العلم، كأن يقول: رجعتُ في وصيتي، أو أبطلتها، ونحو ذلك.

ومن أحكامها: أنه قبل تنفيذ الوصية يخرج الواجب في تركة الميت من الديون والواجبات الشرعية التي تجب عليه أولًا قبل غيرها، لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء:١١]، فيبدأ بالدين، ثم الوصية، ثم الإرث.

ومن أحكامها: أن الوصية تصح لكل شخص يصح تملكه بمعنى أنه يصح الوصية من مسلم لكافر؛ لأنها من باب الصدقة، والصدقة تجوز دفعها للكافر، وقد كسا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخًا له وهو مشرك، وصفية أم المؤمنين أوصت بثلثها لأخ لها يهودي، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

ومن الأحكام: أنها تصح الوصية للحمل الذي في البطن إذا تحقق وجوده، ولا تصح الوصية لحمل غير موجود، كما لو قال: أوصيت لمن ستحمل به هذه المرأة السنة القادمة؛ لأنها وصية لمعدوم.

---

(١) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٦٣٥).

ومن الأحكام: عدم صحة الوصية لمن لا يصح تمليكه، كمن يوصي لشخص ميت، أو كمن يوصي ببعض ماله لبهيمة أو حيوان، كما نسمع أحيانًا مما يصلنا من تفاهات الغرب وزبالة معتقداتهم أن أوصى أحدهم بعدة ملايين لكلب له أو قطة، فمثل هذا غير جائز في شريعة الإسلام.

ومن أحكام الوصية: أنه لو أوصى بثلث ماله، فاستحدث مالًا بعد الوصية، دخل في الوصية؛ لأن الثلث إنما يعتبر عند الموت في المال الموجود حينه، وللتوضيح بمثال: رجل يملك مليون ريال، فأوصى بثلثها في مجال الخير وقبل وفاته صارت المليون خمسة ملايين، فالثلث يكون من الخمسة لا من المليون.

ومن الأحكام: أنه لو أوصى لشخص بشيء معين من ماله، مزرعة معينة، ثم قبل موت الموصي أو بعده تلفت المزرعة، بطلت الوصية، وليس له حق بالمطالبة بقيمتها أو مثلها من باقي ماله، لزوال حقه بتلف ما أوصى له به.

هذه بعض أحكام الوصية، نسأل الله جل وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهُ الأولين والآخرين، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آله وأصحابِهِ أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون: فاتقوا الله واعلموا أن من أدب الوصية أن يوصيَ المسلم بنيه وأهله وأقاربه، ومن حضره واطَّلع على وصيته، يوصيهم بتقوى الله وطيب العمل، ثم يوصي من بعده من أولاد وبنات وزوجة بشرائع الإسلام، وكليات العقيدة، وخصال الخير العامة ويحذرهم من ضدها.

وإن لكم في إبراهيم وبنيه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أسوةً، وفي نبيكم محمد ﷺ أعظم قدوة: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وأوصى محمدٌ ﷺ بكتاب الله، وقال: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم»، وحذَر من الفتن، وأمر بالطاعة ولزوم الجماعة، وأوصى بأصحابه السابقين وبالمهاجرين وأبنائهم، كما أوصى ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا هو مات أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها الإخوة: ليس هناك صيغة ثابتة تكتب بها الوصايا، وهذه صيغة مأخوذة من جملة ما أوصى به بعض أئمة الإسلام من الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن بعدهم، حيث رأوا أن يقول الموصي مخاطبًا أهله، ومن حضره واطَّلع على وصيته: (أوصى فلانٌ، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا، فردًا صمدًا، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولم يشرك في حكمه أحدًا، ويشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق وما أعده الله لأوليائه حقٌّ، والنار حقٌّ، وما أعده الله لأعدائه حقٌّ، وهو قد رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وبالقرآن إمامًا، على ذلك يحيا، وعليه يموت إن شاء الله، ويشهد أن الملائكة حق، والنبيين حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ثم يقول: اعلموا أني مفارقكم وإن طال المدى، فهذه أدوات السفر تُجمع، ومنادي الرحيل يُسمع، والمرء لو عُمِّر ألف سنة لا بدَّ له من هذا المصير كما ترون).

إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، فأكيسهم أطوعهم لربه وأعملهم ليوم معاده. وهذه وصية مودع ونصيحة مشفق، حسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملًا، ولكن ليبلوكم أيكم أحسن عملًا: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان:١٧، ١٨].

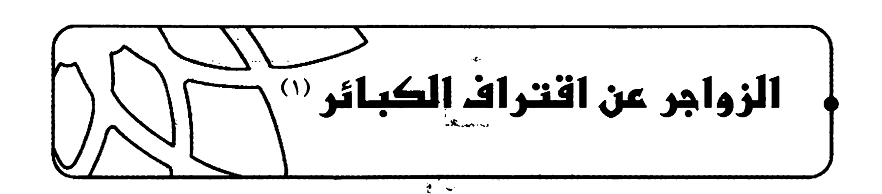
أعظم فرائض الله بعد التوحيد: الصلاة، الله الله في الصلاة، فإنها خاصة الملة، وأم العبادة، والزكاة أختها الملازمة، والصوم عبادة السر لمن يعلم السر وأخفى، والحج مع الاستطاعة ركنٌ واجبٌ، هذه عُمُد الإسلام وفروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين، وتلقوا ربكم غير مبدلين ولا مغيرين، واسلكوا في الاعتقاد مسلك السلف الصالح وأئمة الدين، ولا تخوضوا فيما كره السلف الخوض فيه، وعليكم بالعلم النافع، فالعلم وسيلة النفوس الشريفة، وشرطه الإخلاص والخشية لله مع الخيفة، وخير العلوم علوم الشريعة، وانبذوا العلوم المذمومة فإنها لا تزيد إلا تشكيكًا، وأطيعوا أمر من ولاه الله عليكم، واجتنبوا الفتن وأسبابها، ولا تدخلوا في الخلاف، والزموا الصدق فإنه شعار المؤمنين، والكذب عورة لا تُوارى، وحافظوا على الحشمة والصيانة، وأوفوا بالعهد، وابذلوا النصح، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تطغوا في النعم، ولا تنسوا الفضل بينكم، ولا تنافسوا في الحظوظ السخيفة، وإذا أسديتم معروفًا فلا تذكروه، وإذا برز قبيحٌ فاستروه، وأصلحوا ذات بينكم، واحذروا الظلم، وصلوا الأرحام، وأحسنوا إلى الجيران، واعرفوا حقَّ الأكابر، وارحموا الأصاغر، واحذروا التباغض والتحاسد، واعلموا أن جماع الأمر تقوى الله، كان الله خليفتي عليكم في كل حال، وموعد الالتقاء دار البقاء، والسلام عليكم من حبيبٍ مودع، والله يجمع إذا شاء هذا الشمل المتصدع.



ألا فاتعظوا أيها المسلمون، أدُّوا الحقوق إلى أهلها، وتحللوا من المظالم، واستعيذوا بالله من المآثم والمغارم.. استكثروا من الصالحات، وبادروا قبل الفوات، واعملوا قبل الوفاة، والانتقال إلى معسكر الأموات..

هذا وصلّوا وسلموا على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة..





الزواجر عن اقتراف الكبائر (1)

الخطبة الأولى:

تبارك الذي جعل في السماء بروجًا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا، أحمده تعالى وأستعينه وأستهديه، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها الناس: يقول النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»(2).

فما هي الكبائر التي جعل النبي ﷺ اجتنابها شرطًا لتكفير ما سواها من الذنوب في هذا الحديث؟ نريد أن نتعرف عليها لنتجنبها:

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِّيهِ
ومن لا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيهِ

اعلموا عباد الله أن جماعةً من الأئمة أنكروا أن في الذنوب صغائر، وقالوا: بل سائر المعاصي كبائر، يقول القاضي عبد الوهاب: (لا يمكن أن يقال في معصية الله إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر).

---

(١) أحمد فريد.

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

وقال الجمهور: إن المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧] فجعلها رُتَبًا ثلاث.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

وقوله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»[١].

واختلف العلماء في حد الكبيرة على أقوال:

منها: أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد، بنص كتاب أو سنة.

ومنها: أنها ما أوجب الحد، أو توجَّه إليه الوعيد، والصغيرة ما قلَّ فيه الإثم.

ومنها: أنها كل جريمة (أو جريرة) تُؤذِن -أي: تُعلِم- بقلة اكتراث أي اعتناء مرتكبها بالدين، ورقة الديانة مبطلة للعدالة، وكل جريمة أو جريرة لا تؤذن بذلك بل يبقى حسن الظن ظاهرا بصاحبها لا تحبط العدالة.

ومنها: أنها كل ما ينص الكتاب على تحريمه، أو وجب في جنسه حد وترك فريضة تجب فورا، والكذب في الشهادة والرواية واليمين.

ومنها أنه لا حد لها يحصرها يعرفه العباد، وإلا اقتحم الناس الصغائر واستباحوها، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهى عنه رجاء أن تجتنب الكبائر، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك.

وذهب بعض العلماء إلى تعريفها بالعدّ، من غير ضبطها بحدّ، فقيل: هي سبع واستدلوا على ذلك بخبر الصحيحين: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).

وعن ابن عباس قال: «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع».

وعن سعيد بن جبير أكبر تلامذته: (هي إلى السبعمائة أقرب يعني باعتبار أصناف أنواعها).

والأحاديث المصرحة بالكبائر نوعان:

منها ما صرح فيه بأنه كبيرة، أو أكبر الكبائر، أو أعظم الذنوب، أو موبق، أو مهلك، وما ذكر فيه نحو لعن، أو غضب، أو وعيد شديد.

فمن الأول خبر الشيخين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وقول الزور، وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[1].

ولهما أيضا أن رجلا قال للنبي ﷺ: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال: إن ذلك عظيم، ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»[2].

ورويا أيضا: «من الكبائر شتم الرجل والديه، قيل وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[3].

النوع الثاني:

ما رواه مسلم وغيره عن النبي ﷺ: «قال: ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، قال أبو ذر: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل إزاره خيلاء» وفي روايات أخر: «والمنان الذي لا يعطي شيئا إلا منّه، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠).

(٤) رواه مسلم (١٠٦).



ومنه أيضا قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[1] أي نمام.

واعلموا عباد الله وفقنا الله وإياكم لطاعته وأنالنا سوابغ رضاه ومهابته، أن الله تعالى حذر عباده من معصيته، بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته، وأقامه من قوانين ألوهيته ووحدانيته، وكرره في الأمم من سطوات قهره وجبروته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]. أي أغضبونا وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣].

وفي الصحيح: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»[2].

وفي الصحيحين كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه»[3].

وفيهما أنه ﷺ قال: «لا أحد أغير من الله، فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عَزَّوَجَلَّ»[4].

قال بلال بن سعد: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت).

وقال الحسن بن آدم: (ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة).

وقال محمد بن كعب القرظي: (ما عبد الله بشيء أحب إليه من ترك المعاصي).

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥).

(٢) حسّنه الألباني في شرح الطحاوية (٣٠٢).

(٣) رواه البخاري (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١).

(٤) رواه البخاري (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠).

ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»(١).

فأتى بالاستطاعة في جانب المأمورات ولم يأت بها في جانب المنهيات، إشارة إلى عظم خطرها وقبيح وقعها تنويهًا إلى أنه يجب بذل الجهد والوسع في المباعدة عنها، سواء استطاع ذلك أم لم يستطع بخلاف المأمورات.

قال حذيفة: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، حتى يصير قلبه كله أسود»، ويؤيده قول السلف: (المعاصي بريد الكفر) أي: رسوله؛ باعتبار أنها إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته لم يقبل خيرا قط، فحينئذ يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف، فيرتكب ما أراد ويفعل ما أحب، ويتخذ الشيطان وليا من دون الله، ويضله، ويغويه ويعده ويمنيه ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد له إليه سبيلا.

قال الله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء:١١٧-١٢١].

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

اعلموا عباد الله أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى وخشية انتقامه وسطوته والرهبة من عقابه وسخطه، قال أبو الفرج ابن الجوزي: (الخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإذًا كانت فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة، وبقدر ما يكف عن المعصية، ويحث على الطاعة، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة، وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، كما علم من الآيات والأخبار، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]. وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨]. قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]). وكل ما دل على فضيلة العلم يدل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم.

واعلموا أن البكاء إما من حزن، وإما من وجع، وإما من فزع، وإما من فرح، وإما شكرا، وإما من خشية الله تعالى، وهذا هو أعلاها درجة وأغلاها ثمنا في الدار الآخرة، وأما البكاء للرياء والكذب فلا يزداد صاحبه به إلا طردا وبعدا ومقتا.

وحق لمن لم يعلم ما جرى له به القلم في سابق علم الله تعالى، من سعادة مؤبدة، أو شقاوة مخلدة، وهو فيما بين هاتين الحالتين قد ركب المحرمات، وخالف خالقه في المنهيات، أن يكثر بكاؤه وأسفه وحزنه ونحيبه ولهفه، وأن يهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يجأر إلى الله تعالى على ما سلف منه، من سوابق مخالفاته، وقبائح شهواته، عسى الله أن يوفقه إلى التوبة النصوح، وأن يخرجه من ظلمات الجهل والعصيان إلى العلم والطاعة، وما لهما من ثمرات المعرفة والفتوح.

قال بعضهم: (أرق الناس قلوبا أقلهم ذنوبا).

وقال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له»[1].

ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء، وغلب أمن المكر على الظلمة الأطغياء، والفراعنة الأغبياء، والجهلة والعوام، الرعاع والطغام، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم، فلم يخشوا سطوة العقاب، ولا نار العذاب، ولا بعد الحجاب: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

وفي صحيح البخاري عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - «أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة قالت: فطار لنا أي وقع في سهمنا عثمان بن مظعون، من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبديهم، وممن شهد بدرا، فاشتكى فمرضناه، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه، دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى - فقال لي رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه»؟ فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: أما عثمان فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي». قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا[2].

فتأملوا عباد الله زجره ﷺ عن الجزم بالشهادة على الله في عثمان، مع كونه شهد بدرا وقد قال ﷺ: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[3].

وقد قبَّله ﷺ لما مات، ووصفه بأعظم الأوصاف وأفضلها، وكان أول من قبر في البقيع.

فهذا يدلنا عباد الله على أنه ينبغي لنا وإن عملنا من الطاعات ما عملنا، أن نكون على حال الخوف والخشية من الله تعالى، وعذابه وأليم عقابه، فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة:١٧].

---

(١) صححه الألباني في غاية المرام (٢٠٨).

(٢) رواه البخاري (٢٦٨٧).

(٣) رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

ومن العجيب أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢].

ربما فهم منه بعض من لا تأمل له، أن فيه رجاء عظيما، وأي رجاء عظيم فيه، مع كونه تعالى شرط للمغفرة أربعة شروط: التوبة، والإيمان الكامل، والعمل الصالح، ثم سلوك سبيل المهتدين، من مراقبة الله تعالى وشهوده وإدامة الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى بقلبه وحاله ودعائه وإخلاصه.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص:٦٧].

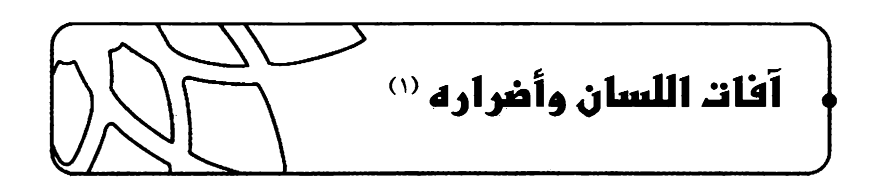
ولا تغتر بما قيل: عسى من الله واجبة الوقوع، فإن ذلك أكثري لا كلي، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]. وفرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يخش، بل نبهك الله تعالى على أنك إذا تبت توبة نصوحا، وآمنت إيمانا كاملا وعملت صالحا، كنت على رجاء حصول الفلاح لك والهداية والقرب من حضرة الحق، فإياك وأن تأمن مكر الله واستحضر قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٨]. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود:١٠٢-١٠٦].

سئل سعيد بن جبير عن الخشية فقال: (أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيته بينك وبين معاصيه، فهذه هي خشيته، وأما الغرة بالله فهي أن يتمادى الرجل في المعصية، ويتمنى على الله المغفرة).

وعن يحي بن معاذ قال: (من أعظم الاغترار أن المذنب يرجو العفو من غير ندامة، ويتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وينتظر الجزاء بلا عمل، ويتمنى على الله مع الإفراط).

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك..





آفات اللسان وأضراره [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله العزيز الحميد، الفعال لما يريد، أمر عباده بالقول السديد، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، القائل: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد)، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أشرف الخلق وأزكاهم، وأعبَدُهم وأتقاهم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم المزيد. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

عباد الله: اتقوا الله تعالى واحفظوا جوارحكم، وتحرّوا طيب الأقوال وجميل الكلام، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[2].

فاللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فهو صغير الحجم عظيم الطاعة والجرم، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، ولقد تساهل كثيرًا من الناس في حفظ ألسنتهم فأطلقوا لها العنان، وتساهلوا في الاحتراز من آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحباله، فإن لهذا اللسان آفات عظيمة انتشرت بين الناس، نشأ عليها الصغير، ودرج عليها الكبير، وتساهل بها الكثير. آفات عظيمة تَوَلَّدَتَ منها الأحقاد، وثارت الضغائن، وهاجت بسببها رياح العداوة والبغضاء. آفات عظيمة تغضب الرب جل وعلا، وتخرج

---

(١) أحمد بن محمد مخترش.

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٠٧).

العبد من ديوان الصالحين، وتدخله في زمرة العصاة الفاسقين، أجارنا الله وإياكم وجميع المسلمين.

فمن هذه الآفات: السخرية والاستهزاء والتنابز بالألقاب، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١] ولقوله ﷺ: «بحَسْبِ امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[(١)]، والسخرية تعني الاستهانة والتحقير والتشهير بالعيوب والنقائص على وجه يضحك، وأشد أنواع الاستهزاء وأعظمها خطرًا: الاستهزاء بالدين وأهله، ولقد تعددت أنواع السخرية والاستهزاء بمظاهر التدين، فهناك مَنْ يهزأ بالحجاب، وآخر يسخر بتنفيذ الأحكام الشرعية، ولمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر نصيب من هذه السخرية.. وكما أن سنة نبينا محمد ﷺ أيضًا لها نصيب من مرضى القلوب، فظهر الاستهزاء ببعض السنن النبوية والآداب المحمدية، وقد قال تعالى عن قوم خاضوا في الاستهزاء من مظاهر التدين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

ومن الآفات: الفحش والسب واللعن وبذاءة اللسان، وللأسف فإن هذه الأمور قد انتشرت كثيرًا بين الناس في هذا الزمان، فتجد الوَالِدَ والأم يسبان أبناءهم ويلعنونهم، وكذلك الصديق يسبُّ ويلعن صديقه، حتى الطفل الصغير تجده قد تعود كيل السباب واللعائن للآخرين، وربما فعل ذلك بأبيه وأمه، وهذا كله لنقص التربية وتعليم الآداب والحث على مكارم الأخلاق، فإن السباب والطعن واللعن يخرج صاحبه من الإيمان، ويصيّره إلى منزلة الفساق الفجار، قال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

بالبذيء»[١]، وقال ﷺ: «سِباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٢]، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (السّب في اللغة: الشتم والتكلم في عرض الإنسان بما يعنيه. والفسق في اللغة: الخروج، والمراد به في الشرع: الخروج عن الطاعة). فسبّ المسلم بغير حق حرام بإجماع الأمة، وفاعله فاسق كما أخبر به النبي ﷺ. فهل تصور أولئك الذين يطلقون ألسنتهم سبًا وشتمًا وانتهاكًا لأعراض المسلمين، أنهم يكونون فُساقًا خارجين عن طاعة الله ورسوله، وأن ذلك يوردهم موارد الهلكة ومراتع الحسرات، قال النبي ﷺ: «سباب المسلم كالمشرفِ على الهلكة»[٣].

وأحذر أيها الأخ الكريم أن تكون سببًا في سبّ والديك فتكون كمن سبهما، فقد قال النبي ﷺ: «من الكبائرِ شتمُ الرَّجلِ والدَيْه. قالوا: يا رسولَ الله ! وهل يشتُمُ الرَّجلُ والدَيْه؟ قال: نعم. يسبُّ أبا الرَّجلِ، فيسُبُّ أباه، ويسُبُّ أمَّه، فيسُبُّ أمَّه»[٤]، ومن المؤسف أن ذلك قد انتشر بين أبناء المسلمين وشبابهم، نسأل الله أن يصلحهم.

ومن آفات اللسان: اللعن، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، وقد ورد في اللعن وعيدٌ شديد وتهديدٌ أكيد، قال ﷺ: «لعن المؤمن كقتله»[٥] ولقد أخبر النبي ﷺ عن تأخر منازل اللعانين يوم القيامة فقال: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[٦].
ويقول ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا بالبذيء»[٧]،

وقد بلغ الأمر ببعض الناس أنه لم يسلم من لسانه أحد، فتراه يسبُّ ويلعن ويضرب كل شيء قد يغضبه حتى ولو كان حيوانًا أو جمادًا، ولقد نهى النبي ﷺ عن سب أو لعن كل شيء لا يستحق اللعن، حتى ولو كان حيوانًا أو جمادًا، فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أن رجلًا لعن

---

(١) صحيح الترمذي (١٩٧٧).
(٢) رواه البخاري (٦٠٤٤) ومسلم (٦٤).
(٣) السلسلة الصحيحة (١٨٧٨).
(٤) رواه مسلم (٩٠).
(٥) رواه البخاري (٦١٠٥) ومسلم (١١٠).
(٦) رواه مسلم (٢٥٩٨).
(٧) صحيح الترمذي (١٩٧٧).

الريح عند رسول الله ﷺ فقال: «لا تلعن الريح فإنها مأمورة، من لعن شيئًا ليس له بأهل؛ رجعت اللعنة عليه»(١). هل تعلم أخي أين تذهب هذه اللعنة؟ هل تدري أيها اللعان أن لعنتك تصعد إلى السماء، فيهرب أهل السماء منها خشية أن تصيبهم؟! ثم أنها تهبط إلى الأرض بعد ذلك فتهرب الكائنات منها خشية أن تصيبهم؟! ثم تعود إليك إذا كان من لعنت لا يستحق لعنتك؟ فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا، فإن لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لُعن، فإن كان أهلًا، وإلا رجعت إلى قائلها»(٢).

ولست أنا ولا أنت الذي يقرر من يستحق اللعنة، بل هذا الأمر يعلمه الله فقط، وليس كل من أغضبك أو خالفك أو أخطأ في حقك يستحق اللعن كما تظن أو تعتقد، فلماذا تحمل نفسك أخي هذا الذنب العظيم، وتصر على هذا الجرم الكبير؟ ألا تخشى أن ترجع إليك لعنتك فتكون سببًا في طردك من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وتكون من المُبعَدين المقبوحين؟ ويا من تسب وتلعن أبناءك! لماذا لا تعوّد لسانك الدعاء لهم بالهداية والصلاح؟ فكم من شاب قد غرق في لُججِ المعاصي والآثام، ولم يوفق في شيء، بسبب دعوة أو لعنةٍ لعنها إياه أحد والِديه فوافقت ساعة إجابة، والله المستعان.

ومن آفات اللسان: آفة الكذب، والكذب جماع كل شر، وأصل كل ذم، وهو من صفات الكافرين ولا يمكن أن يكون من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل:١٠٥]، وهذه الخصلة أولى صفات المنافقين، قال ﷺ: «أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا

---

(١) صحيح الترمذي (١٩٧٨).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٠٥).

خاصم فجر»[١]. لو تفكر الكذَّاب في شدة عقابه يوم القيامة؛ لردعه ذلك عن هذا الخُلُق الذميم! ففي الحديث الطويل الذي يرويه سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في رؤيا النبي ﷺ التي قصها على أصحابه.. قال: «فأتينا على رجل مُستلق لقفاه، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكَلُّوب من حديد! وإذا هو يأتي شدقَّي وجه، فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه! ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل في الجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يَصحَ ذلك الجانب كما كان! ثم يعود عليه، فيفعل مثلما فعل المرة الأولى، فقلت لهما من هذا؟ فقالا: إنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق»[٢]، فتأمل أيها العاقل في شدة هذا العذاب! هل يطيقه أحد؟ فإياك والكذب، وإنك لتجد بعض الناس مغرمًا باختلاف الأخبار والقصص لإضحاك الناس وتسليتهم! ومثل هذا توعده النبي ﷺ بالويل، فقال: «ويلٌ للذي يحدِّث فيكذب؛ ليضحك به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له»[٣].

لا يكذب المرءُ إلا من مهانته	أو فعلِه السوء أو من قلة الأدبِ
لبعضُ جيفة كلبٍ خير رائحةٍ	من كذبة المرء في جدٍّ وفي لعبِ

ومن الآفات: القذف، أن يقذف أحدًا ويرميه بتهمة فعل الفاحشة والعياذ بالله، وهذا صاحبه ملعون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣] فيا ويل هؤلاء من عذاب الله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال، وليس بخارج»[٤]. وردغة الخبال: عُصارة أهل النار، نسأل الله العافية من سخطه وعقابه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨).

(٢) رواه البخاري (٧٠٤٧).

(٣) صحيح أبي داود (٤٩٩٠).

(٤) صحيح الجامع (٦١٩٦).

ومن آفات اللسان: الغيبة، وهي ذكر غائب بما يكره، وهي خصلة ذميمة لا تصدر إلا عن نفس دنيئة، اشتغلت بعيوب الناس عن عيوبها، وانصرفت عما يعنيها إلى ما لا يعنيها، والغيبة كما عرفها النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره»(١). وحذر منها سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢] وأخبرنا ﷺ عن قومٍ ليلة أسري به يأكلون الجيف، فلما سأل جبريل عنهم قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في غيبتهم»، فمن الناس من يطعن ويغتاب ويتكلم ويعيب في عرض أخيه، وذلك إما لحقده أو لحسده، أو لتطفله وقلة حيائه، فليتقي الله هذا وأمثاله، وليعلم المغتاب أنه متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن الغيبة محبطة لحسناته يوم القيامة، فعليك أخي أن تتدبر وتشتغل بعيوبك عن عيوب غيرك، فربما كنت أكثر منهم عيبا، وهل ترضى أن يغتابك أحد بما فيك من العيوب؟ كلا والله، فكيف سيرضى غيرك بذلك. قال الشافعي وهو يذكر حُمق المغتاب الذي هو بمثابة من يوزع حسناته على من اغتابهم، يقول: (لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبتُ أمي، فهي أحق بحسناتي!).

ومن آفات اللسان: النميمة، وهي نقل الكلام بين الناس بقصد الإفساد وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم، تجد النمام يذهب إلى فلان ويقول له قال فيك فلان كذا وكذا ويذهب إلى الآخر ويقول قال فلان فيك كذا وكذا، فيشب العداوة بينهم، فالنميمة من كبائر الذنوب وهي سبب في عدم دخول الجنة وعذاب النار وعذاب القبر، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمّام»(٢)، ومرّ عليه الصلاة والسلام بقبرين فقال: «إنهما ليُعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»(٣). وأن النمام يكون في أبعد المنازل يوم القيامة عن النبي ﷺ، قال ﷺ: «إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقا، الموطؤون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة؛

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) وهذا لفظه، واللفظ المتفق عليه: «لا يدخلُ الجنَّةَ قتَّاتٌ».

(٣) رواه البخاري (١٣٦١) ومسلم (٢٩٢).

الملتمسون للبرآء العيب»[1]. فانظر أخي إلى النمام وما أُعِدَّ لهُ مِن عقوبات، لا يدخل الجنة، معذبٌ في قبره، بعيد عن النبي ﷺ يوم القيامة، فهلا ابتعدت أخي عن هذا العمل المذموم، وأنكرت ونصحت وحذرت من نقل إليك كلام الناس فيك، ورفضت تصديقه وتأكدت من الواقع قبل تصديق كلامه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦] ولقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه بالإعراض عن هؤلاء فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١١] واعلم أخي أن من نقل إليك كلام الناس فيك أنه سينقل عنك مالم تقله.

أيها المسلمون: هناك آفات للسان غير ما ذكرنا، نذكر منها إجمالًا: الكلام فيما لا يعنيك، الخوض في الباطل، الغناء، شهادة الزور، وإفشاء السر، واليمين الغموس، والتعيير والتوبيخ، وغير ذلك كثيرٌ جدًا.

وهناك عباد الله ألفاظ وعبارات نهت عنها الشريعة وحذر منها أهل العلم، ومن هذه الألفاظ: قول: شاءت الأقدار أو الظروف؛ فالأقدار والظروف لا تشاء وإنما هي بيد الله. وقول: وجه الله تفضل، أو وجه الله تأكل؛ وهذا لا يجوز لأنه استشفاع بالله على المخلوق. وقول: أعوذ بالله وبك، أو ما شاء الله وشئت. وقول بعض العامة: الله والنبي، أو الله ومحمد، وقول البعض اللهم اغفر لي إن شئت، وهذا منهي عنه. وقول البعض عن الميت: دُفن في مثواه الأخير، فإن المثوى الأخير هو الجنة أو النار، ومن ذلك قول البعض: ربنا افتكره، وهذا محرم لا يجوز؛ لأن ذلك لا يكون إلا لمن نسي ثم تذكر، ومن الألفاظ قول البعض إذا دُعي إلى الأكل قال: يأكل معكم الرحمن. وقول البعض: المرض الملعون، وهذا من تسخط أقدار الله، وقول البعض: يا حطب جهنم، وهذا لا يجوز. ومن الألفاظ قول البعض: فلان ما فيه خير أبدا، وهذا لا يجوز لأن المؤمن فيه خير وإن كان عاصيًا.

نسأل الله أن يوفقنا لخير القول والعمل، وأن يقينا الزيغ والزلل، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم..

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٥٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى أصحابه الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرا، أما بعد:

أيها المسلمون: قد عرفنا شدة خطر اللسان، وما يجلبه على من أهمله وأطلق له العنان من ذنوبٍ وأمورٍ عظام، فاللسان خطره عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بقلة الكلام والصمت عما لا ينفع، ولهذا حث النبي ﷺ على قول الخير والصمت عما سواه فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[(١)]، وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إنك لن تزال سالمًا ما سكتَّ، فإذا تكلمت كُتب لك أو عليك»[(٢)]. فاحفظ لسانك أخي فإن حفظ اللسان ملاك الخير كله، وهذا ما قاله النبي ﷺ لمعاذ بن جبل بعد أن ذكر له الإسلام والصلاة والجهاد ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله» قال بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «كُف عليك هذا» فقال معاذ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُ الناس في النار على وجههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم»[(٣)]، فحفظ اللسان إذن هو ملاك الخير كله، وسبيل الفلاح في الدنيا والآخرة. فأمسك لسانك أخي وألجمها بلجام التقوى، قال بعض السلف: (أعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تشكرها). فلا تطلق العنان للسانك أخي فتهلك، فرب كلمة تقولها لا تلقي لها بالًا يكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة والعياذ بالله، قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغَت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»[(٤)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٦٦).

(٣) صحيح الترمذي (٢٦١٦).

(٤) صحيح الجامع (١٦١٩).

فيا أيها المسلمون: احفظوا ألسنتكم، لا تطلقوا لها العنان فتهلككم، وإذا أردتم الكلام في شيء فتذكروا قول الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] فما تلفظ يا عبد الله من قول، ولا تعمل من عمل، إلا كتب لك أو عليك، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. فاعلموا أخواني، وأيقنوا تمام اليقين، أنكم محاسبون على كل كلمة تخرج من أفواهكم، فما جوابكم يوم القيامة إذا سئلتم ألم تتكلم بكذا وكذا؟ ألم تقل في أخيك كذا وكذا؟ ما جوابكم إذا سئلتم عن أذية المسلمين بألسنتكم؟ فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

ذكر الإمام مالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل على أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يجبذ لسانه أي يجره بشدة، فقال عمر: «مَه! غفر الله لك، فقال أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن هذا أوردني الموارد». من القائل؟ إنه أفضل أصحاب النبي والرجل الأول بعد الأنبياء والرسل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، القائل هو أبو بكر الصديق، انظر إلى حرصه على لسانه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه..

وقال رجل: رأيت ابن عباس آخذًا بثمرة لسانه وهو يقول: «ويحك! قل خيرًا تغنم واسكت عن شرٍ تسلم». قال: فقال له الرجل: يا ابن عباس، مالي أراك آخذًا بثمرة لسانك وتقول كذا وكذا؟ قال ابن عباس: «بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو على شيءٍ أحنق منه على لسانه»، يعني لا يغضب على شيءٍ من جوارحه أشد من غضبه على لسانه. أخرجه ابن المبارك وأحمد وأبو نعيم وأحمد في كتاب الزهد.

وقال عبد الله بن أبي زكريا: (عالجت الصمت عشرين سنة - انظر للحساب.. انظر محاسبة النفس - عالجت الصمت عشرين سنة فلم أقدر منه على ما أريد، وكان لا يدع أحدًا يغتاب في مجلسه، ويقول: إن ذكرتم الله أعناكم، وإن ذكرتم الناس تركناكم).

وكان طاووس بن كيسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعتذر من طول السكوت ويقول: (إني جربت لساني فوجدته لئيمًا راضعًا). هؤلاء هم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.. فماذا نقول نحن عن ألسنتنا؟!

وأخرج وكيع في الزهد وأبو نعيم في الحلية من طريق جرير بن حازم قال: ذكر ابن سيرين رجلًا فقال: (ذلك الرجل الأسود.. يريد أن يعرّفه.. ثم قال: أستغفر الله، إني أراني قد اغتبته).

وقال بكر بن المنير سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: (ما اغتبت أحدًا منذ احتلمت، وأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا..) اسمع للثقة، والبخاري له كتب في الجرح والتعديل، ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء معلقًا على قول البخاري هذا: (صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.. ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس وإنصافه في من يضعّفه، فإن أكثر ما يقول -يعني أشد ما يقول البخاري إذا أراد أن يجرح رجلًا - يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا، وقلَّ أن يقول: فلان كذاب ، أو كان يضع الحديث ،حتى أنه قال: إذا قلت: (فلان في حديثه نظر) فهو متهم واهن ، وهذا معنى قوله (لا يحاسبني الله أني اغتبت أحدًا) وهذا هو والله غاية الورع). انتهى كلام الذهبي.

وكان عبد الله بن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (نذرت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أصوم يومًا فأجهدني - يعني تعبت - فكنت أغتاب وأصوم أغتاب وأصوم.. فنويت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمِن حُب الدراهم تركت الغيبة)، جرب هذا، كلما اغتبت أحدًا أو ذكرته بسوءٍ فادفع ولو ريالات قليلة.. الله أعلم بحالنا.. أظن في آخر الشهر لن يبقى من راتبنا ولو ريالًا واحدًا!

قال النووي في الأذكار: بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا ، فقال أحدهما لصاحبه: (كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى ، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، فوجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها.. قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان !!)

قال إبراهيم التيمي: (أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عامًا ما سمع منه كلمة تعاب).

وقيل للربيع: (ألا تذم الناس؟ قال: والله إني ما أنا عن نفسي براضٍ فأذم الناس؟ إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس ، وأمنوه على ذنوبهم)، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، صدق.

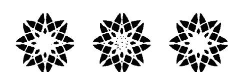


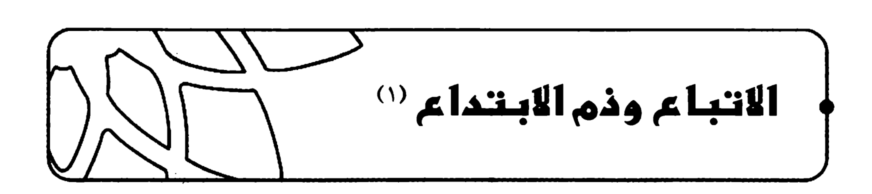
ارجع لنفسك وانظر لعيوبها قبل أن تنظر لعيوب الآخرين وتتكلم فيهم.

وقال حماد بن زيد: بلغني أن محمد بن واسع كان في مجلس فتكلم رجل فأكثر الكلام، فقال له محمد: (ما على أحدهم لو سكت فتنقَّى وتوقَّى. أي اختار كلماته وحسب لها حسابها).

عباد الله: هلا تزودنا من الدنيا بالأعمال والأقوال والذكر الصالح، وهلا تخلقنا بالأخلاق والأقوال الحسنة، بعيدين عن الأخلاق والأقوال السيئة، وهلا تعقلنا واتخذنا من رسولنا ﷺ قدوة وأسوة، وهلا رطبنا ألسِنَتِنَا بذكر الله وتلاوة كتابه، وهذبناه بالتقوى، وصناها وحفظناها من الأقوال والألفاظ السيئة، فيا لقرة عين مَن سلك بلسانه طريق الخير؛ من ذكرٍ وتلاوةٍ واستغفارٍ وتحميدٍ وتسبيحٍ وشكرٍ وتاب، ويا لخيبة مَن سلك بلسانه طريق الشر، من كذبٍ وهتكٍ للأعراض وجرحٍ للحرمات وآذى به الناس، فطوبى لعبد قال خيرًا فغنم، أو سكت عن الشر فسلم.

فاتقوا الله عباد الله، وصلوا وسلموا على من أمركم الله بالصلاة عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]...





الاتباع وذم الابتداع [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسُل ربنا بالحقِّ المبين، أحمده سبحانه، أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا إلى يوم الدِّين، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وأشهد أنْ لا إلا الله، وحده لا شريك له، ربُّ العالمين، وإلهُ الأوَّلين والآخرين، أتقَن ما صنع، فما ترى في خَلْق الرَّحمن من تفاوت، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأكمل ما شرع، فأغنى عن الزيادات والبِدَع، وحفظ الذِّكر فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تَنْزيل من حكيم حميد.

وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله النبيُّ الأمين، والرسول المبين، وإمام المُتَّقين، وخِيرَة الله من خلقه أجمعين، الذي بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصَح الأمة، وتركَها على بيضاء نقية، لا يزيغ عنها إلا هالك: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥] صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].

---

(١) حسين بن عبد العزيز آل الشيخ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

جاء رجل إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس، في مدينة النبي ﷺ، فقال له: من أين أُحرم يا إمام؟ فقال له مالك: (أَحرِم من ذي الحُليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: ولكني أريد أن أُحرِم من المسجد من عند القبر؟ فقال له الإمام: لا تفعل، رحمك الله، فإني أخشى عليك الفتنة. فقال الرجل: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها؟ فقال مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقتَ إلى فضيلة قصّر عنها الرسول ﷺ، إني سمعت الله يقول: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]).

أيها المسلمون: يقول تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]، كتابُ الله سبحانه وسنّة رسوله ﷺ لم يترُكا في سبيل الهِداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالًا يُعتَدّ به، فالدين قد كَمُل، والسعادة فيما وضع، والطِلْبة فيما شرَع، وما سِوى الحق ليس إلا ضلالٌ وبهتانٌ وإفكٌ وخسران، والعاقد عَليهما بكِلتا يديه مستمسكٌ بالعروة الوثقى، محصِّلٌ للخير دنيا وأخرى.

إخوة الإيمان دين الإسلام مبنيٌّ على أصلين عظيمين وركيزتين أساسيتين: الإخلاص لله جل وعلا والاتباع لهدي المصطفى ﷺ، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وخيرُ طريق يكون به الاتِّباع المحمود ويحصُل به الاقتِداء المنشود هو طريق نبيِّنا ﷺ؛ إذ هو المَعِين الصافي، ومصدَر النور والهدى، وإشعاع الخير والفلاح والزكاء، والبُعد عن هذا الطريق والجنوح عنه بليّةٌ عظمى وفِتنةٌ كبرى يدعو إليهَا إبليسُ وحِزبه، يستغِلّ جهلَ بعضِ المسلمين لدينهم وميلهم إلى أهوائهم، فيزيِّن لهم ما ليس بمشروع، ويُحسّن لهم ما ليس بمحمود، يُحدث لهم رهبانيّة مبتدَعة وشرائعَ محدثة تنأى بهم عن عِلم السنّةِ المطهرة، يُسوّغ لهم التعصّبَ للآراء والرِّجال لِيحولَ بين المرءِ واتِّباع الدليل وسبيلِ الحقّ، وبذا انحرَف بعضٌ عن سواءِ السبيل، فشوَّهوا حقيقةَ الدين، وأصبحوا لا يفرّقون بين حقٍّ وباطلٍ، ولا يعرفون

السنَّة من خلافِها، فظنوا الحسنَ قبيحًا والقبيحَ حسنًا، فصدق فيهم قول المولى جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، فما يفتح لهم الشيطان بابًا من الضّلال إلا ولجُوه، ولا يُزيِّن لهم طريقًا من طُرقِ البدَع إلاّ سلكوه.

أيّها المسلمون: لا شيءَ بعد الشرك أعظم فسادًا للدّين وأشدّ تقويضًا لبنيانه وأكثر تفريقًا لشمل الأمّة من البدع؛ فهي تفتِك به فتكَ الذئب في الغنم، وتنخر فيه نخرَ السوس في الحبِّ، وتسري في كيانه سَريان السرطان في الدّم، وتشتعل فيه اشتعال النار في الهشيم، فلقد جعَلَت المسلمين شِيعًا وأحزابًا، شتَّتتْ شملهم، وجعلتهم لقمةً سائغةً لأعدائهم؛ إذ فيها البُعد عن الصراط المستقيم والهديِ المستبين، وقد قال الله ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

ومن هنا إخوة الإيمان جاءت النصوص المتكاثرة والأدلة المتضافِرة في وجوبِ اتّباع السنَّة والتحذير من البدعةِ وبيان سوءِ عاقبتِها في الدنيا والآخرة، يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية: «تَبيَضُّ وجوه أهل السنة، وتَسْودُّ وجوه أهل البدع». ويقول عزّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

ولذا فمن له عقلٌ رشيد ورأيٌ سديدٌ يجِد عظمَ المصائب والفتَن التي وُجِدَت في هذه الأمّة عبر تاريخها إنها ترجع في أصلها ولو من طَرْفٍ خفيّ إلى الإفراط أو التفريط، الغلوّ أو التقصير، في هدي النبي ﷺ، وما تفرَّقت الأمّة أحزابًا وشيَعًا إلاّ بسبَب التنكُّبِ عن الصراط المستقيم والهديِ النبويّ الكريم، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]، قال مجاهد وغيره: (هذه لأمّة محمد ﷺ).

أتباعَ محمد ﷺ!

لقد كان نبيُّنا عليه أفضلُ الصلاة والسلام حَريصا على أمّتِه مشفِقا عليهم رَحيما بهم، فحذَّرهم من الابتِداع أشدَّ التحذير، وأوصاهم باتّباع سنّته وسنّة خلفائه الراشدين، فقال:

«عليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ عَضُّوا عليها بالنواجذ»[1]؛ فلا تخالفوا أمرَه، ولا تنتهِجوا غيرَ نهجه، تمسَّكوا بهديه، واستنّوا بسنّته؛ يكن منهجُكم سويًّا سليمًا وصحيحًا مستقيمًا، فإن ما خالف هديه ليس بدين مقبول، ولا شرع متبوع، في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[2]، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[3]، قال العلماء: (وهذا الحديث ثلُث العِلم؛ لأنّه جمع وجوهَ أمرِ المخالفَة لأمره ﷺ).

لقد أوجز لنا ﷺ مَكمَن الخير ومستودَع السلامة والأمنِ في اتباع سنته وهديه، وأبان لنا أصلَ الشرّ والفساد بما ابتُدع في دينه مما لم يأتِ عنه قولًا وفعلًا، فيقول محذِّرًا: «وإيّاكم ومحدثاتِ الأمور؛ فإنّ كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[4]. وكان ﷺ يقول في خطبته يوم الجمعة: «أما بعد: فإنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ رسولِ الله، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ بدعة ضلالة»[5].

أيها المسلمون: إن النبي ﷺ -وهو رسول الله- لم يكن ليزيد في شرع الله من عنده ما ليس منه، فهو القائل كما أمره ربه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:٥٠]، فلم يكن ينطق إلا بما أُمر، ولم يكن يشرّع إلا وفق ما أوتي، ما أحل إلا ما أحله الله لعباده، ولا حرم إلا ما حرم الله عليهم.

وعلى نهج السنة والهدَى سار سلفنا الصالح من صحابةِ رسولنا ﷺ وأتباعهم وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين من أهل الحديث والأثَر، فهُم بالوحيَين مستمسِكون، وعن غيرهما حائدون، وبذا فازوا بحُسن الثنَا، وعظيمِ السيرةِ والهُدى، أجمعَت أقوالُهم على ذمِّ البدَع والنهي عنها والتحذير من عاقبتها.

---

(١) صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٣) رواه مسلم (١٧١٨).

(٤) صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٥) رواه البخاري (٧٢٧٧) ومسلم (٨٦٧) واللفظ له.

فهذا صِدّيق الأمّة أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إنما أنا متّبع، وليس بمبتدع، فإن استقمتُ فتابِعوني، وإن زغتُ فقوِّموني»، وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كلُّ عبادة لا يتعبَّدُها أصحابُ رسول الله ﷺ فلا تعبَّدُوها؛ فإنَّ الأوّل لم يدَع للآخرِ مقالًا».

كُلّيةٌ مُجْمَعٌ عليها، وأصلٌ متَّفقٌ عليه بينَهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبعوا آثارنا، ولا تبتدعوا، فقد كُفِيتم»، وينبِّه حبرُ الأمّة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على لزوم الاتّباع والحذَر من الابتداع فيقول: «عليكم بالأثر، وإياكم والبدَع، فإنَّ من أحدث رأيًا ليس في كتاب الله ولم تمضِ به سنة رسول الله ﷺ لم يدرِ ما هو عليه إذا لقِيَ الله عَزَّوَجَلَّ»، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي من لقِيَه بتقوَى الله والاستقامةِ والاتّباع وترك الابتداع.

وها هم التابعون لهم من أهلِ الحديث والأثَر يأخذون منهَجَهم ويرتَسِمون خطاهم، فقد جاء عن غير واحد منهم قوله: (صاحِب البِدعة لا يَزداد اجتهادًا من صلاةٍ وصيام إلا ازدَاد من الله بُعدًا).

واسمع أخي المسلم لجهبذ من جَهابِذة الحديث وعلَم من أعلام السنّة المطهرة، عبد الله بن المبارك إذ يقول: (اعلم أخي، أنَّ الموتَ كرامةٌ لكل مسلم لقيَ الله على السنة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتَنا وذهابَ الإخوان وقِلّة الأعوان وظهورَ البدَع، وإلى الله نشكو عظيمَ ما حلَّ بهذه الأمة من ذهابِ العلماء وأهلِ السنة وظهور البدع).

ومن محاسِن كلامِ العلماء قولُ بعضهم: (اختلاف الناسِ كلِّهم يرجع إلى ثلاثة أصول، فلكلِّ واحدٍ منها ضدّ، فمن سقَط عنه وقع في ضدِّه: التوحيد وضدُّه الشّرك، والسنة وضدّها البدعة، والطاعة وضدها المعصية). وما أروع كلامَ الجنيد حين يقول: (الطرُقُ كلُّها مسدودةٌ على الخَلق إلا على من اقتفَى أثرَ الرسول ﷺ، ولا مقامَ أشرف من مقام متابعةِ الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه).

أيّها المسلمون: البِدعة ما أُحدِث في الدين على خلافِ ما كان عليه النبي ﷺ والأربعةُ الخلفاء الراشدون، إمّا بالاعتقاد بخلاف الحقّ الذي دلّ عليه الكِتاب والسنّة، وإمّا بالتعبُّد بما لم يأذَن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة.

وليس في الدين بدعةٌ حسنة، قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»[1]. مِن جوامع الكَلِم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدّين، فكلّ مَن أحدث شيئًا ونسبَه إلى الدين ولم يكن له أصلٌ من الدين يرجِع إليه؛ فهو ضلالة والدين بريءٌ منه، وسواء كان ذلك في مسائِلِ الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة)، وما أجمل قولَ إمام دار الهجرة الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول: (من ابتدَع في الإسلام بدعةً يراها حسنة فقد زعم أن محمّدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأنّ الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا).

يا دعاةَ الخير! العِلمُ أمانة أنتم مطالبون بأدائها وإظهارها، وإظهارُ العلم هو إظهارُ السنة والدّعوة إليها بكلِّ ممكن، قيل للوليد بن مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما إظهارُ العلم؟ قال: (إظهارُ السنة).

والتنبيه على البدع سبيلُ الصالحين ومَنهج الصحابةِ والتابعين، ولكن ذلك يحتاج إلى فقه، ليحقق مقاصد الشارع، فيكون بالحِكمة والموعظةِ الحسنة، والموازنةِ بين الحَزم واللِّين، والمصلحة والمفسدة، والأهم والمهم، قال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو في القرن الأول: «ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلاّ الله، قد فَنِيَ عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا، لا يرونَ الحقَّ غيره»، لذا كان يأخذ الناس بالتدرُّج شيئًا فشيئًا، فماذا نقول نحن اليوم؟

ويقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ عند كلّ بدعة كِيد بها الإسلام دليلًا من أوليائه يذبّ عنه وينطق بعلامتها، فاغتَنِموا حضورَ تلك المواطن وتوكَّلوا على الله، وكفى بالله وكيلًا».

وإن سكوت من يعلمون عن الإنكارِ على البدَع وأهلها يصيِّرها وكأنَّها سننٌ مقرَّرات وشرائع محرَّرات، قال الأوزاعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تشتدّ ألسنتهم على أهل البدع وتشمئزّ قلوبهم منهم ويحذِّرون الناسَ بدعتَهم، ولو كانوا مستَتِرين ببدعتهم دون الناس ما كان لأحدٍ أن يهتِك سترًا عليهم ولا يظهِرَ منهم عورَة، الله أولى بالأخذِ بها وبالتوبة عليها،

(١) صحيح الجامع (٢٥٤٩).

فأمّا إذا جاهروا بها فنشر العلم حَياة، والبلاغ عن رسول الله ﷺ رَحمة، يُعتصَم بها على مُصِرّ ملحد).

ثمّ إنَّ منهجَ السلف عدمُ الإسراف في إطلاقِ كَلِمة البدعة على كلِّ أحد خالَف بعض المخالفات، إنها يصِفون بالبدعة من فعل فِعلًا لا أصلَ له من الشّرع ليتقرَّب به إلى الله جلّ وعلا، فليس كلُّ عاصٍ ومخطِئ مبتدِعًا.

ومَنهج السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مع المبتَدِع مناصحتُه وإقامَة الحجّةِ عليه بكلِّ حِكمة ولين، ومتى عاند واستكبَر عن الحقّ وجَب هجرُه إن كانت بدعتُه مكفِّرة، وإن كانت دونَ ذلك فالأصل هو الهَجر إلاّ إن كان في هجره مفسدة وكان في مجالَسَتِه مصلحةٌ ظاهرة لتبيين الحقّ والتحذير من البدعة، وإلاّ وجب الابتعاد عنه، ويلحق بذلك ترك النظر في كتب هؤلاء خَوفًا من الفِتنة بها أو تَرويجها بين الناس، إلا لمن كان عنده من العِلم والبصيرة ما يحذَر به من شرِّها.

أيها المسلمون: مِن مفهوم الولاء والبراء في الدين عدمُ تعظيم المبتدِع أو الثناء عليه مطلقًا، فهذا دَأب المؤمنين الصالحين المعتصمين بكتابِ الله المهتدينَ بهدي رسول الله ﷺ.

فاتقوا الله عباد الله، واستجلبوا محبة الله باتّباع هدي نبيه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، اللهم صلِّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابِه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أهل الإسلام في الناس غرباء والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع هم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا فلا غربة عليهم).

لقد بايع الصحابة محمدًا ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، متبعًا لآداب النبوة، حريصًا على التحلي بكريم الشمائل وجميل الفضائل، في الشدة والرخاء، والغُربة والكربة، قال الإمام أحمد لإبراهيم بن هانئ: (ليس ينبغي أن يتبع الرسول ﷺ في الرخاء ويترك في الشدة).

وأوصى الخليفةُ الراشد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحدَ ولاته فقال: «أوصيك بتقوَى الله والاقتصادِ في أمرِه واتِّباع سنة نبيّه ﷺ وتركِ ما أحدثَ المحدثون بعدما جرَت به سنّتُه وكُفُوا مؤنته، فعليك بلزوم السنّة، فإنها لك بإذن الله عِصمة، ثم اعلم أنه لم يبتَدِع الناس بدعةً إلا قد مضى قبلَها ما هو دليلٌ عليها أو عِبرةٌ منها، فإنَّ السنة إنما سنّها من قد علِم ما في خلافها من الخطأ والزّلل والحمقِ والتملّق، فارضَ لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فقد قصر قومٌ دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فضلّوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدي مستقيم».

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عيه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة وأبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

وقال أيضا: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه لرسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوا سيئا فهو عند الله سيء». وقد قال الله في نبيه وأصحابه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة:١٣٧].

قال الإمام أحمد: (أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم). وقال لبعض أصحابه: (لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي، وخذ من حيث أخذنا)، أي: السنّة وأحاديث النبي ﷺ!

خُـذْ مَـا أَرَدْتَ مِـنَ ... الأَنَـام وَدَعْ وَلا تَتَشَـدَّدِ

أَمَّـا إِذَا ذُكِـرَ النَّبِـيُّ ... فَغُـض طَرْفَـكَ تَسْـعَدِ

مَـا اخْتَـارَ رَبُّـكَ ... أُسْـوَةً غَـيْرَ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ

أيها المؤمنون: اجعلوا قدوتكم وقدوة أبنائكم وأهليكم أحاديث المصطفى وآداب النبوة، فإنه ليس في الدين قدوة مطلقة لمؤمن يرجو الله واليوم الآخر إلا النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، فطاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، طاعته هي الهداية بحذافيرها، ومعصيته هي الضلالة بعينها: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]، من أطاعه عليه الصلاة والسلام واتبع هديه وسنته نال شرف محبة الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]. فخذوا كل ما عنه جاءكم، واتبعوا كل ما صح من سنته عندكم، (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)،

فبالسنة الغراء كن متمسكًا هي ... العروة الوثقى التي ليس تُفصمُ

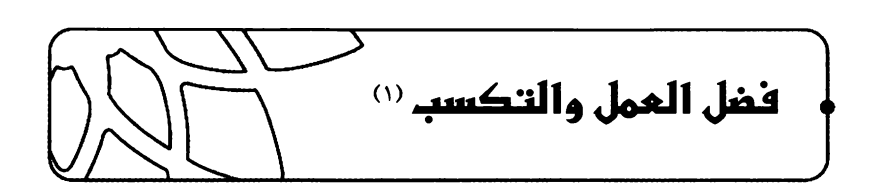
تمسك بها مسك البخيل بماله ... وعضّ عليها بالنواجذ تسلَمُ

ودع عنك ما قد أحدث الناس ... بعدها فمرتع هاتيك الحوادث أوخمُ

عليكم بسنة نبيكم، أحيوها في حياتكم، وتمثلوا آدابها في معاشكم؛ تفوزوا بخيرَي الدنيا والآخرة، فمن أراد النجاه فعليه بلزوم السنة واتباع الأثر، في قوله وفعله، فطوبى لمن كان محبًا لهدي النبوة، ملتمسًا من مشكاتها، فلا تراه ينطق إلا بالخير، ولا يمشي إلا إلى خير، ولا يحرك جوارحه إلا بخير، بل لا يشتغل قلبه إلا بما يرضي الله، فهو محب لنبيّه، متّبع لهديه، يتحرى مواضع الاقتداء به قولًا وفعلًا، في حال الحضر والسفر، والصحة والمرض، والفقر والغنى، والرضى والغضب، يا طوبى لمن كان هذا حالهم، ما أقلّهم هذه الأيام، وما أشد غربتهم بين الأنام، اللهم اجعلنا من أتباع نبيك، ومن أحب الناس إليه وأقربهم منه يوم القيامة.

اللّهمّ صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.





فضل العمل والتكسب (1)

الخطبة الأولى:

الحمد الله ذي النعم والآلاء، رازق الطير في السماء، والسمك في الماء، والدود في الصخرة الصماء، تكفل بالأرزاق وكتب الآجال، أشهد أن لا إله إلا هو ذو العزة والجلال، ومصرف الشئون والأحوال، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، نبي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد وعلى أزواج محمد وعلى أصحاب محمد، ما اتصلت عين بنظر، وأذنٌ بخبر، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المحشر.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

أيها الإخوة: خلق اللهُ البشر في هذه الدنيا، وأنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها، وتتعاقب على هذا الاستخلاف الأمم والأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ كل ذلك: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك:٢].

والأحق بهذا الاستخلافِ، والأجدرُ به عباد الله الصالحون، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦].

---

(١) عبد الله بن علي الطريف.

ومن هنا فإن كلَ قصد من عمارة الأرض كما أمر الله تعالى فهو توجه محمود، وكلَ عمل في هذا السبيل من الأعمال الصالحات، وكلَ مجهود في سبيل الحق سعي مبرور.

إن هذا الدينَ يوجبُ على أهله أن يكونوا أجدر بالحياتين: الآخرة بالعمل الصالح، والدنيا بعمارةِ الأرض، واتخاذِ أسباب القوة بخوض المجالات المشروعة من تجارة، وصناعة وحرفة، وقد حث الله تعالى على السعي والتكسب، من ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١١].

فذكره في معرض الامتنان، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠].

فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها، بل جعل سبحانه السعي في الكسب والمعاش عذرًا لترك قيام الليل الطويل والاكتفاء بيسيره، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠] أي مسافرون في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر.

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠] أي: لطلب المكاسب والتجارات.

وعَنِ الْـمِقْدَام بن مَعْدِي كَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[1].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (والحكمة من تخصيص داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذكر، أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة؛ لأنه أوتي ملكًا عظيمًا وكان خليفة في الأرض كما قال الله -تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[ص ٢٦]).

وإنما ابتغى الأكل من طريق أفضل، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خيرَ الكسبِ عملُ اليد.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطِبَ أحدكم حُزْمَةً على ظهرِهِ خيرٌ من أن يسألَ أحدًا فيُعْطِيَهُ أو يمنعَهُ»[1].

هذا هو الخلق النبيل الذي تقتضيه المروءة، ويحث عليه الدين، أن لا يخضع الإنسان لأحد، ولا يذل لمخلوق، ولا يتكل على غير الله، بل يأكل من كسب يده، من عمله، وتجارته، وصناعته، وحرثه.

وقد رعى موسى الكليم لشعيب عشر حِجج كمهر لزوجته، بل إن جميع الأنبياء كانوا رُعاة أغنام، يقول النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»[2].

(قراريط) جمع قيراط وهو جزء من النقد.

وكما أن كسب الحرام من أعظم الجرائر وأقبح الجرائم، فإن كسب الحلال من أعظم القربات وأجلّ الطاعات لمن احتسب أجر ذلك، والإنفاق على العيال أفضل الإنفاق على الإطلاق؛ فعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ الله، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ الله»[3] قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ راوي الحديث: وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا، مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ، يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ، وَيُغْنِيهِمْ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ الله وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»[4].

---

(1) رواه البخاري (٢٠٧٤).

(2) رواه البخاري (٢٢٦٢).

(3) رواه مسلم (٩٩٤).

(4) رواه مسلم (٩٩٥).

ويقول ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْـمِسْكِينِ، كَالْـمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ»[1]. والساعي: الكاسب لهما العامل لمؤنتهما، والأرملة من لا زوج لها، سواء كانت تزوجت قبل ذلك أم لا.

وإن من أعظم الآثام تضييع من تجب عليك نفقتهم، فـ«كَفَى بِالْـمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[2]. وكفى به خذلانًا ومهانة أن يقضي وقته فيما لا ينفعه، يقول ابْنُ مَسْعُودٍ: «إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرَى الرَّجُلَ فَارِغًا، لَا فِي عَمَلِ الدُّنْيَا، وَلَا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ».

وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أصبت؛ استغن عن الناس يكن أصوَن لدينك، وأكرم لك عليهم». وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما من موضع يأتيني الموت فيه أحبَ إليَّ من موطن أتسوَّق فيه لأهلي أبيع وأشتري». ذلك ليس لعظم الدنيا في أعينهم، أو دخولها إلى قلوبهم، وإنما لحرصهم على كسب الحلال، واحتسابهم أجر النفقة على العيال، وفرارهم من الحاجة إلى الناس.

وجاءت ريح عاصفة في البحر، فقال: أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ -وكان معهم- فيها: أما ترى هذه الشدة؟ فقال: (ليست هذه الشدة، إنما الشدةُ الحاجة إلى الناس!).

وقال أيوب: قال لي أبو قلابة: (الزم السوق؛ فإن الغنى من العافية) يعني الغنى عن الناس.

وَقَالَ ابْنُ الْـجَوْزِيِّ: قِيلَ لِأَحْمَدَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ أَوْ مَسْجِدِهِ، وَقَالَ: لَا أَعْمَلُ شَيْئًا حَتَّى يَأْتِيَ رِزْقِي؟ فَقَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (هَذَا رَجُلٌ جَهِلَ الْعِلْمَ، أَمَا سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»؟)[3].

وَقَالَ حِينَ ذَكَرَ الطَّيْرَ: «تَغْدُوا خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٧) ومسلم (٢٩٨٢).

(٢) رواه أبو داود وحسّنه الألباني (١٦٩٢).

(٣) صحيح الجامع (٢٨٣١).

(٤) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٢٢٩).

فذكر أنها تغدوا في طلب الرزق، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَّجِرُونَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَيَعْمَلُونَ فِي نَخْلِهِمْ، وَالْقُدْوَةُ بِهِمْ، وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَيْسَ الْعِبَادَةُ عِنْدَنَا أَنْ تَصُفَّ قَدَمَيْكَ وَغَيْرُكَ يَقوتُ لَكَ، وَلَكِنْ ابْدَأْ بِرَغِيفِكَ فَاحْرُزْهُمَا ثُمَّ تَعَبَّدْ).

ورُوي أن الأوزعي لقي إبراهيمَ بن أدهم وعلى عنقه حُزمة حطب، فقال له: (يا أبا إسحاق إلى متى هذا؟ إخوانُك يكفونَك، فقال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال، وجبت له الجنة).

أيها المؤمنون: إن الكسب بقدر الكفاية لنفسه وعياله، وقضاء دينه، ونفقةِ من يجبُ عليه نفقتُه؛ فرضٌ من الفروض. ولا يجوز للقوي القادر أن يجلس، أو يسأل الناس، قَالَ ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[1].

لقد سمى فقهاؤنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ حاجاتِ الأمةِ من الأعمال والصنائع والحرف فروضَ كفايات، وهي صنوف متعددة لا يحسنها كلُ أحد، ولا يقوى عليها كلُ أحد، ولكن يحتاج إليها كلُ أحد، فإنما هي مواهب وقدرات، وهمم متفاوتة، قسمها الله بين خلقه، في تنوع واختلاف ليتخذ بعضُهم بعضًا سخريا، وليعمروا هذه الأرض التي استُخلفوا فيها، دون بطالة وتواكل، أو ملل وتكاسل.

فكان لا بد من ارتفاع الهممِ، ونفضِ غبارِ الكسل، وإنك لا تكاد ترى سببًا لأنواع البطالات المكشوفة والمقنعة إلا سقوطَ الهمة، وفتورَ العزيمة، فالرجل إنما يترك الجد في طلب العمل، ويتهاونُ في السعي من أجل الرزق، حين تنحطُ همته، وتصغرُ نفسه، أما من شمَّر عن الساعدِ وضرب في الأرضِ ابتغاء فضل الله، فطرق الأبواب، وسلك المسالكَ، واستسهل كلَ صعب من أجل معالي الأمور، فهو الجدير بالحياة الكريمة، تأسيًا بعظماء الرجال؛ الذين سعوا إلى غاية ما يمكنهم من التفوق والكمال.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يُتصور للآدمي صعودُ السموات لرأيتُ من أقبح النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصلُ

---

(١) رواه أبو داود وحسّنه الألباني (١٦٩٢).

بالاجتهاد رأيتُ المقصرَ في تحصيلها في حضيض، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروجُ النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل).

أسأل الله بمنه وكرمه أن يوفقَ شباب أمتنا للخير، وأن يجعلهم ممن يعمر الأرض حق العمارة؛ إنه جواد كريم؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه؛ وبعد:

أيها الناس:

وإذا كان العمل يُلْبِسُ أهله لباس الاستغناء والكرامة، فإن البطالة ثوبُ حقارة فضفاض؛ يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أرى الفتى فيعجبني فإذا قيل لا حرفة له سقط من عيني».

ويقول أيضًا: «مَكْسَبَةٌ فيها دناءة خيرٌ من مسألة الناس».

ويأبى الرجال، أصحاب الهمم العالية، الرضا بالدون من العيش، حتى لو وجدوا ما يكفلُ لهم معاشهم؛ ها هو عبدُ الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يقبل عرض أخيه الأنصاري سعد بن الربيع، ليشاطره ماله، بل قال له حين عرض عليه نصف ما يملك: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلوني على السوق! فعمل في التجارة، حتى أصبح من أثرياء الصحابة، بل صار ينفق على المحتاجين ويساهم في تجهيز الجيوش في سبيل الله، وتسيير القوافل لنصرة دين الله.

إن البطالة -أيها الأحبة-: تجعل صاحبَها مهيض الجناح، كلًّا على غيره، متطلعًا إلى ما عند الآخرين، لا يسلم من ذلة السؤال، يتنكرُ له العارفون ويستثقله حتى الأقربون، تنفكُ من حوله الأواصر، وتنقطعُ الصلات، وإنها والله مصيبة ماحقة، تحترق في سعيرها الفضائل والمصالح، وتذوب في مضاعفاتها الأفراد والجماعات، ولا يرضاها أولو الألباب وأصحاب المروءات.

أيها الإخوة: إن الجد والنشاط في العمل من أعظم الأعمال وأجلها إذا صلحت النية، واسمعوا -يا رعاكم الله- إلى هذا الموقف العجيب؛ فعن كعب بن عجرة قال: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَرَأَوْا مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ -يعني في الجهاد- فَقَالَ ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ

كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»[1].

أيها الإخوة: ليست هذه دعوة لتعظيم ما حقّره الله من أمر الدنيا، ولا لمزيد التكالب عليها وتأجيج الطمع والهلع في الاستكثار منها، إلى الحد الذي يُنسي الآخرة ويُجحف في حقها، فإن ذلك من سوء التدبير وضعف التقدير، إنما المقصود هو العلم بفضيلة طلب الحلال، واحتساب ما يقوم به الإنسان من ذلك، وما ينفقه على نفسه وأهله ومن يعول، ولا يجعلها عادة من العادات فحسب أو سبيلًا للمباهاة والغرور بما أعطاه الله.. إنما يجعلها وسيلة لحفظ ماء الوجه عن مذلة السؤال والحاجة إلى الناس، وإغناء النفس عن الدخول في مداخل الرِيَب، والتجرؤ على مواطن الشُّبَه، وتعدي الحدود وانتهاك الحقوق، ونحو ذلك مما قد توجبه الحاجة الناتجة عن البطالة،

وإن على الآباء والمربين، والقادة والمصلحين، أن يرشدوا الشباب إلى العمل ويحثوهم على علو الهمة وعزة النفس، وسلوك سبل الرزق الحلال، وأن يبينوا لهم طرق السعي في الخير، وأن يغرسوا فيهم حب العمل واحتساب ثوابه، وأن الكسب يحتاج إلى صبر ومثابرة، وحسن تدبير.

وإن من أهم أسباب البركة في الرزق: التزام الآداب والأخلاق، والصدق والأمانة، والعفة والصيانة، مع كثرة الاستغفار والدعاء، والابتهال إلى رب الأرض والسماء، فذلك كله مجلبةٌ للرزق مدعاةٌ للبركة.

ومن ذلك غرس اليقين في القلب، وقوة التوكل على الرب، لأن مفاتيح الرزق بيده، ومقاليد الأمور كلها بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وعليه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كلٌ في كتاب مبين.

واعلموا أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وذلك كله بيد الله وحده، فهل يملك أحد أن ينقص من رزق مخلوق شيئًا؟ وهل يملك أحد أن ينقص من أجل مخلوق

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٨).

يومًا؟ كلا. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨]، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه:١٣٢]، ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢]، وذلك لا ينافي العمل، بل ما أجمل أن يجتمع بذل الأسباب وحسن التدبير مع صدق التوكل على العلي القدير، ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر:٢١]، ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر:٢]. وقد قيل: الجوارح تعمل بالأسباب، والقلب يتوكل على رب الأرباب.

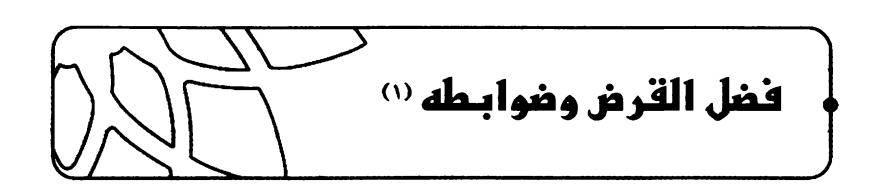
توكَّل على الرَّحمن في كلِّ حاجةٍ ... ولا تؤثرنّ العجز يومًا على الطّلبْ

ألم تر أن الله قال لمريمٍ ... إليك فهزِّي الجذع يسَّاقط الرُّطب

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، واغننا بفضلك عمن سواك، واجعل ذلك عونًا لنا على طاعتك، وبلاغًا لنا إلى مرضاتك، وارزقنا شكر نعمك..

هذا وصلوا وسلموا...





فضل القرض وضوابطه [1]

الخطبة الأولى:

اللهم إنَّا نحمدُك ونستعينُك ونتوب إليكَ، ونثني عليك الخير كله، نحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، لك الحمد كالذي نقول وخيرًا مما نقول، ولك الحمد كالذي تقول، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين، وحجة على الهالكين، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغرِّ الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله ربكم، فبتقواه سبحانه وتعالى تزكوا النفوس، وتصلح الأحوال، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧]، ﴿اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة:٢٠٣].

روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ: «أن رجلًا سأل بعض أهله سلف ألف دينار، قال: ائتني بالشهداء أُشهدهم قال: كفى بالله شهيدًا، قال: ائتني بكفيل قال: كفى بالله كفيلًا قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته؛ ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي كان أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجَّج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استلفت من فلان ألف دينار فسألني كفيلًا فقلت: كفى بالله كفيلًا؛ فرضي بك، وسألني شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وإني قد جهدت أن أجد

(١) ناصر بن محمد الغامدي.

مركبًا أبعث إليه بالذي له فلم أجد مركبًا، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف ينظر، وهو في ذلك يطلب مركبًا، يخرج إلى بلده. فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا يجيء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي تسلف منه فأتاه بألف دينار، فقال: والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركبٍ لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا، قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنتَ بعثت إليَّ بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. قال: فإنَّ الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرِف بألفك راشدًا»[1].

أيها المسلمون:

أخرج الطبراني في الكبير وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عَزَّ وَجَلَّ سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهرًا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يفسد الخل العسل»[2].

إن من محاسن شريعتنا الغرَّاء سعيُها للتعاون والتكافل من أجل تحقيق مصالح العباد في أمور المعاش والمعاد، وحرصُها على إقامة المجتمع الإسلامي الفريد المتماسك المتعاضد، في بُعدٍ عن الأنانية المقيتة، وحبِّ الذات، وعدم الشعور والاهتمام بأحوال المسلمين وظروفهم.

ولذلك كله حرص الإسلام على إشاعة المحبة بين أفراد المجتمع، وتقوية الروابط والصلات والعلائق والمودات، ولا يكون ذلك إلاّ بالتعاون والتعاضد بين أفراد المجتمع.

---

(١) رواه البخاري (٢١٦٩).

(٢) حسّنه الألباني.

إن الإنسان في هذه الحياة معرض للابتلاء والامتحان، ومعرّض لمحن الدنيا ونائبات الدهر، فقد تظهر له حاجة، أو تُلّمُ به فاقةٌ لا يجدُ ما يسدها ولا ما يقضيها به، ممّا قد يوقعه في الحرج والضيق.

وبهذا -عباد الله- تبرزُ مكانةُ القرض في الشريعة، فحين يحتاجُ أحد لمبلغ من المال؛ من أجل حاجةٍ أو فاقةٍ أو جائحةٍ فإنّ الشريعة تتيح له الاقتراض من أخيه لسدِّ حاجته، وإغناء فاقته، وتفريج كربته.

وقد كان رسول الله ﷺ يستقرض من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند حاجته، وكان أحسن الناس قضاءً، قال عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: استقرض منيّ رسول الله ﷺ أربعين ألفًا، فجاء مالٌ فدفعه إليَّ، وقال: «إنّما جزاء السلف الحمدُ والأداء»[1].

كما ندب الإسلام إلى مساعدة المسلم عند حاجته، وأمرَ بإعانته وتفريج كربته؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن نفَّسَ عن مُسلمٍ كُربةً من كرَبِ الدُّنيا، نفَّسَ اللهُ عنهُ كُربةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن سترَ مسلِمًا سترَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن يسَّرَ على مُعسرٍ يسَّرَ اللهُ عليهِ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عونِ أخيهِ»[2].

ولقد تواترت نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة سلفًا وخلفًا على فضل القرض وثوابه، بل إنَّ القرضَ في الشريعة الإسلامية من أبرز مبادئها، وأظهر معالمها الدالة على سعيها للتيسير والتسهيل على المسلمين. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

وقد ذكر الله هذه الآية في كتابه مرارًا مبينًا فضل القرض وثوابه، وأنه سبحانه متكفلٌ بالأجر العظيم، والثواب الكبير لمن أقرض مسلمًا، ونفس عنه كربته، فكأنه إنما يقرض الله سبحانه وتعالى.

---

(١) صحيح النسائي (٤٦٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٥).

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لأن أقرضَ مسلمًا دينارين ثم يردان ثم أقرضهما أحبُّ إليّ من أتصدق بهما». وما ذاك إلاّ لما في القرض من تفريج كُربِ المسلمين، وقضاء حوائجهم، والعون لهم على البعد عن الحرام. وروى النسائي وابن ماجة من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ﷺ قال: «ما من مسلم يقرض مسلمًا قرضًا مرتين إلا كان كصدقة مرة»(١).

وإن من أفضل الطاعات وأجلّ القربات إمهال المدين وإنظار المُعسِر، فقد أمر الله تعالى بإنظار المعسر حيث لم يجد وفاء فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠]. ثم ندب إلى الوضع عنه والتصدق عليه به أو ببعضه فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨٠].

وروى مسلم (٣٠١٤) عن أبي الْيَسَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُول اللهِ ﷺ قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّهِ».

وأخبر النبي ﷺ أن من أنظر معسرا كان له بكل يوم مثل قرضه صدقة قبل أن يحل ميعاد الدين، وله مثل ضعفَي قرضه صدقة بعد حلول الدين عن كل يوم من أيام التأجيل والتوسعة على المدين؛ وذلك ترغيبًا في إعانة المسلم وإنظار المعسر لئلا يلجئه إلى التعامل بالربا المحرم الذي يوبق عليه كسبه ويؤذنه بحرب من الله ورسوله، أو يضيق عليه أمره، ويوقعه في الحرج.

روى الإمام أحمد (٢٢٥٣٧) عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ» قَالَ ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ» قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ تَقُولُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ؟ قَالَ: «لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ»(٢).

---

(١) صحيح الترغيب (٩٠١).

(٢) صححه الألباني في الصحيحة (٨٦).

وفي هذا من الشرع الحكيم ومن رحمة الله بعباده ما هو ظاهر بأدنى تأمل، ولو علم الميسورون والدائنون بما لهم من الأجر عند الله تعالى بالتعاون مع المعسرين؛ لأحسنوا إليهم بالإمهال لهم والتيسير عليهم.

أيها الناس:

ولقد وضعت الشريعة الإسلامية للقرض الحسن المشروع ضوابط شرعية تُحقِّقُ المقصود منه دون ضرر أو إضرار، وتُخرجه من الربا والشبهات المحرمة، ومن أهمّ هذه الضوابط:

أن يردَّ القرض كما هو دون زيادةٍ أو نقصانٍ. وأن لا يكون القرض وسيلة وحيلة توّصله إلى المحاباة في بيع أو شراء أو نحوه. وأن لا يشترط المقرِضُ شرطًا فيه ضررٌ على المقترِض؛ كاشتراط الوفاء ببلدٍ معّين يكون في الوفاء فيه كُلفةٌ ومشقة على المقترض.

وذلك لما أخرجه الإمام البغويٌّ من حديث العلاء بن مسلم أنّه ﷺ قال: «كلُّ قرضٍ جرَّ منفعةً فهو ربا»[1]. وهذا الحديث ضعّفَه جمهور المحدثين لكنَّ العمل عند أهل العلم بما دلَّ عليه، وله من الأحاديث والآثار ما يُعضِّدَه ويُقويّه، فقد جاء عن أُبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين-: «أنّهم نُهُوا عن قرضٍ جرَّ منفعةً»[2].

ومثله ما رواه البخاري والبيهقي والطبراني من حديث أبي بُردةَ قال: «أتيتُ المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لي: ألا تجيءُ إلى البيت حتى أُطعمَك سويقًا وتمرًا؟!. فذهبنا، فأطعمنا سويقًا وتمرًا، ثم قال: إنّك بأرضٍ الربا فيها فاشٍ، فإن كان لك على رجلٍ دينٌ فأهدي إليك حبْلةً من عَلَفٍ أو شعيرٍ أو حبْلةً من تبن فلا تقبله؛ فإنَّ ذلك من الربا»[3].

وعند البيهقي وصححه الألباني من حديث الأثرم: أنّ رجلًا كان له على سمّاكٍ عشرون درهمًا، فجعل يُهدي إليه السمكَ، ويُقوّمه حتى بلغ ثلاثةَ عشر درهمًا، فسأل ابن عباسٍ فقال: «أعطه سبعةَ دراهم».

---

(١) ضعيف الجامع (٤٢٤٤).

(٢) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٣٩٧).

(٣) رواه البخاري (٣٨١٤).

فلا يجوز أيّها الإخوة الاقتراض بفائدة كما هو الحال في البنوك الربوية وغيرها؛ فإنّ ذلك ربًا محرم.

وأمّا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «استسلف النبي ﷺ بكْرًا، فجاءته إبلُ الصدقةِ فامرني أن أقضي الرجلَ بكْرَه، فقلتُ: يا رسول الله إنيّ لم أجد في الإبل إلا جملًا رَبَاعيًّا، فقال: أعطه إيّاه، فإنّ من خير الناس أحسنهم قضاءً».

فإنّه محمولٌ على حُسن القضاء منه ﷺ، وردّه لجميل المقرض، واعترافه بفضله، وإحسانه إليه دون أن يكونَ هناكَ شرطٌ من المقرضِ أن يردَّ إليه زيادةً على قرضه. فأمّا إذا وجدَ الشرطُ بالزيادة عن الاقتراض؛ كأن يُقرضه ألفًا، ويشترطَ عليه أن يردَّ ألفين -مثلًا- فهذا هو الربا الذي لا يجوز.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى واشكره وأطيعوه وراقبوه، واعلموا أنّكم ملاقوه.

عباد الله: إن العَجَب أن بعض المدينين -للأسف- قد يستدين لغير حاجة ماسة، وتحمل الديون العظيمة، وذلك بسبب الإغراق في الكماليات، والبذخ في الحفلات والمناسبات والزواجات والملابس والجوالات والأثاث وغير ذلك! فيستدين البعض من أجل شراء حاجيات ليست ضرورية، بل ربما استدان البعض لأمر محرم وعبث وإسراف، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ومن يُحرمها فقد حُرم خيرًا كثيرًا.

أيها المسلمون: وكما أمر الإسلام بالقرض وندب إليه أمر بالوفاء وحرص عليه؛ وفاءً لحقوق الناس، وشكرًا لجميلهم، وعرفانًا بِفضلهم.

وقد بين رسول الله ﷺ وجوب أداء الدين، والنية الحسنة في قضائه، وبين أنّ مدار الأعمال على ذلك، وأنَّ من استدان الناس ناويًا الإيفاء لحقِّهم أعانه الله على قضاء دينه، فقد روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله تعالى»[1].

وعند ابن ماجة والحاكم بإسنادٍ حسن أنّه ﷺ قال: «إنَّ الله مع الدائن حتى يقضي دينه»[2].

ولكن ومع شديد الأسف لمّا ضَعُفَ إيمانُ كثير من الناس، ضيّعوا الأمانة وتساهلوا بالحقوق فلم يعودوا يهتمون بوفاء ديون الناس، وإعطائهم حقوقهم، بل يماطلون صاحب

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٧).

(٢) صحيح ابن ماجه (١٩٦٨).

الحقّ حقه، حتى أحجم كثيرٌ من الناس عن القرض والتسليف خوفًا على أموالهم من الضياع؛ لضعف ذِمَمِ الناس؛ حيث يأتي الإنسان إلى أخيه فيشكو إليه الحاجة والفقر فيقرضه على أن يرد إليه حقه بعد شهر أو بعد سنةٍ أو نحو ذلك، فإذا استقرض منه مضت تلك المدة وتوالت الشهور وتتابعت السنون، وهو لا يزال يماطله في الوفاء بحقه، حتى لربما احتاج الدائن ووقع في الحرج الشديد ودخل في المتاهات التي ليس لها نهاية وهو يطالب بحقه فلا يجد وفاءً، فإذا بالجميل ينقلب على صاحبه همّا وندمًا، وبدل أنه أنقذ صاحبه ليكسب قلبه، إذا به يفقد نقوده ويفقد ود ووفاء صاحبه، بل إن البعض قد يماطل عمدًا مع قدرته على الوفاء، فإذا جدّ صاحب الحق في مطالبته جحد وأنكر وقابل الحسنة بالسيئة، وذلك كله لرقّة الدين، وضعف الإيمان، وغياب الأخلاق وضياع المروءة.

قال رسول الله ﷺ: «لَيُّ الواجد يُحِلُّ عِرضَه وعقوبَته»[1]. والمراد بذلك: أنّ مطل الغنيِّ لحقوق الناس، يُحِلُّ التظلم عليه بقوله مطلني حقي، ويُحِلُّ حبسَه عقوبةً له على ذلك حتى يفي بالدَّيْنِ لصاحبه.

ومثله ما ثبتَ في الصحيحين من قوله ﷺ: «مطلُ الغنيِّ ظلمٌ»[2].

إنّ الواجب على المسلم إذا اقترضَ من أخيه مبلغًا من المال، أو استلف منه شيئًا أن يردّه إليه شاكرًا لفضله، معترفًا بجميله، سائلًا له الأجر من الله تعالى، ولقد كان النبي ﷺ أحسن الناس قضاءً.

وقد ورد الترهيب والوعيد على عدم وفاء الحقوق والديون لأصحابها، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: توفي رجلٌ منّا، فغسلناه، وحنّطناه، وكفّناه، ثم أتينا به رسول الله ﷺ؛ ليُصلي عليه، فخطا خُطىً، ثم قال: أعليه دين؟ قلنا: عليه ديناران، فانصرف، فتحملّها أبو قادة. فأتيناه، فقال أبو قتادة: الديناران عليّ. فقال رسول الله ﷺ: «حقَّ الغريمُ، وبرئ منهما الميت؟. قال نعم!. فصلى عليه»[3].

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٢٨).

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (١٥٦٤).

(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٨١٢).

في رواية الحاكم: أنّه ﷺ جعل إذا لقي أبا قتادة يقول: «ما صنعت الديناران، حتى كان آخرُ ذلك أن قال: قضيتُها يا رسول الله، قال: الآن بردت جلدته»[1]. وروى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّه ﷺ كان يُؤتى بالرجل المُتوفى عليه الدين، فيسأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟ فإن حُدِّثَ أنّه ترك وفاءً صلى عليه، وإلاّ قال: صلوا على صاحبكم»[2].

إن أمر الدين خطير أيها الإخوة، ويكفي في ذلك أن نعلم أن الشهيد يُغفر له كل ذنب إلا الدَّين؛ ذلك لأهمية حقوق العباد، وعظم شأنها عند الله تعالى.

عباد الله: ألا وإن من الحقوق الواجبة التي أكد الإسلام على الحرص عليها، وعلى عدم تأخيرها عند استحقاقها، أجرة العمال الضعفاء كالسائقين والخدم و عموم الأجراء، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «قال الله عَزَّوَجَلَّ - ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة»، وذكر منهم: «رجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[3].

وفي حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[4].

فاتقوا الله رحمكم الله، أدّوا الحقوق لأصحابها، وإيّاكم ومماطلة ذي الحقِّ حقّه، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزّينوا للعرض الأكبر على الله يومئذٍ تُعرضون لا تخفى منكم خافية، واحذروا دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب، واستغفروا الله وتوبوا إليه إنّه هو الغفور الرحيم.

ثم صلوا وسلموا رحمكم الله على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام...

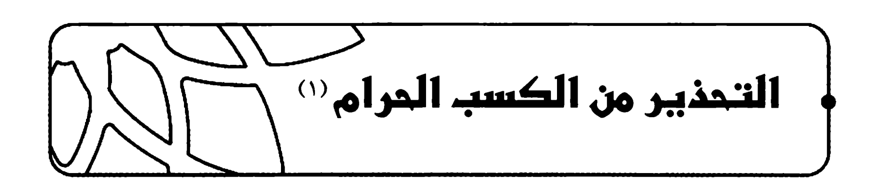


(١) حسّنه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري (٢٢٩٨) ومسلم (١٦١٩).

(٣) رواه البخاري (٢٢٢٧).

(٤) صحيح ابن ماجه (١٩٩٥).



التحذير من الكسب الحرام(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، أحمَدُه سبحانه هو الملك القدُّوس السلام، وأشكُرُه على ما حَبانا به من الفضْل والإنْعام، وأشهَدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له الذي رضي لنا شرعة الإسلام، وأوضَحَ ما فيها من الأحْكام، وبيَّن الحلال من الحرام، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله سيد الأنام، أفضل مُرسَل وأكمل إمام، صلَّى الله عليه وعلى آله الكرام، وأصحابه الأئمَّة الأعلام؛ أمَّا بعدُ:

فيا أيُّها الناس: اتقوا الله حق تقاته، فإن تقواه سبحانه شعار المؤمنين، ودثار المتقين، ووصية الله للناس أجمعين، فاتقوا الله تعالى في كل ما تأتون و تذرون، واتقوا الله لعلكم تفلحون، وابتَغُوا عنده الرِّزق واشكُرُوا له إليه ترجعون، واعلَمُوا أنَّ الله تعالى طيِّب لا يَقبَل إلاَّ طيِّبًا، وأنَّه سبحانه أمَرَ المؤمنين بالابتِغاء من فضله، والأكل من طيب رزقه، وهو ما جاء من حلِّه؛ فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٧٢].

عباد الله: لقد جبل الله عَزَّوَجَلَّ الخلق على حب المال، ورَكَّب في الطباع الحرص على طلبه وتحصيله؛ لأن به قوام حياة الناس وانتظام أمر معاشهم وتمام مصالحهم.

وقد جاء الشرع الحنيف بالحث على السعي في تحصيل المال واكتسابه على أنه وسيلة لغايات محمودة ومقاصد مشروعة، وجعل للحصول عليه ضوابط وقواعد واضحة المعالم، لا يجوز تجاوزها ولا التعدي لحدودها كي تتحقق منه المصالح للفرد وللجماعة.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

وقد أوجب الشارع على المسلم أن يطلب المال ويسعى في أسباب تحصيله مما أذن الله به وشرعه من طرق الكسب الحلال والعمل المباح، حتى يستغني المرء به عن ذل السؤال للغير والحاجة للخلق، فيكفي به نفسه، ويحفظ به مروءته، ويصون به ماء وجهه، ويعيل به أسرته، ويصل به رحمه، وينفق منه على أبواب الخير وطرق البر.

لذا كان طلب الرزق وتحصيله شرف للمؤمن وعزة للمسلم، لا سيما إذا احتسب فيه النية واستشعر عظم الأجر، فنعم المال الصالح للمرء الصالح، كما قال الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا حبذا المال، أصون به عرضي، وأُرضي به ربي».

الكسب الطيب والمال الحلال ينير القلب، ويشرح الصدر، ويورث الطمأنينة والسكينة والخشية من الله، ويعين الجوارح على العبادة والطاعة، ومن أسباب قبول العمل الصالح وإجابة الدعاء.

أما الكسب الخبيث فإنه شؤم وبلاء على صاحبه، بسببه يقسو القلب، وينطفئ نور الإيمان، ويحل غضب الجبار، ويمنع إجابة الدعاء. المال الحرام مستخبث الأصول، ممحوق البركة والمحصول، إن صرفه صاحبه في برٍ لم يُؤجر، وإن بذله في نفعٍ لم يُشكر، ثم هو لأوزاره مُحتَمِل وعليه معاقب. قال بعض الحكماء: (شر المال ما لزمك إثم مكسبه، وحُرمت أجر إنفاقه).

وكفاه شؤمًا وخذلانًا لصاحبه أنه يرد الدعاء ويمنع الإجابة، روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ» فَقَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وَقَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢] «ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك»[١].

لقد استجمع هذا الرجل من صفات الذل والمسكنة والحاجة والفاقة إلى ربه ما يدعو إلى رثاء حاله ويؤكد شدة افتقاره، ولكنه قد قطع صلته بربه، وحَرَمَ نفسه من مدد الله وفضله،

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

وحال بينه وبين قبول دعائه ما هو عليه من استعمال للحرام في المأكل والمشرب والملبس، وماذا يبقى للعبد إذا انقطعت صلته بربه، وحُجب دعاؤه، وحيل بينه وبين رحمة الله؟!

فهذا الحديث فيه تحذيرٌ لمن خدعهم الشيطان، وزيّن لهم أعمالهم السيئة، فتراهم يأكلون الحرام، وينفقون منه في بعض الأعمال الصالحة؛ كبناء المساجد أو المدارس، أو حفر الآبار، أو غير ذلك، ويظنُّون أنهم بهذا برئت ذمَّتهم، فهؤلاء يعاقَبون مرتَيْن:

الأولى: أنَّ الله لا يقبل منهم أعمالهم الصالحة التي أنفقوا عليها من الأموال المحرَّمة؛ لقوله ﷺ: «إن الله طيِّبٌ، لا يقبل إلا طيِّبًا».

الثانية: أن الله يعاقبهم على هذا المال الحرام، ويحاسَبون عليه يوم القيامة؛ فعن خَوْلَة الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إن رجالًا يتخوَّضون في مال الله بغير حقٍّ؛ فلهم النار يوم القيامة»[1]. قال سفيان الثوري: (مَنْ أنفق الحرام في الطاعة، فهو كمَنْ طهَّر الثوبَ بالبَوْل، والثوب لا يَطْهُر إلا بالماء، والذنب لا يكفِّره إلا الحلال).

ولذا كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ كانوا في غاية الخوف من أكل الحرام والمبالغة في التحذير منه، حتى قال بعضهم: (لو قُمتَ في العبادة قيام السارية ما نفعك ذلك حتى تنظر فيما يدخل بطنك).

وروى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غلام فجاء له يومًا بشيء فأكل منه، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟! فقال أبو بكر: وما هو؟ فقال: تكهَّنتُ لإنسان في الجاهلية وما أُحسنُ الكِهانة إلا أني خدعته، فَلقيني فأعطاني بذلك هذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»[2]، وفي رواية أنه قال: «لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها[3]، اللهم إني أبرأ إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء»[4].

---

(١) رواه البخاري (٣١١٨).

(٢) رواه البخاري (٣٨٤٢).

(٣) هذه الرواية رواها أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠).

(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٨).

ورُوي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شرب لبنًا فأعجبه، فقال للذي سقاه: «من أين لك هذا؟ فقال: مررت بإبل الصدقة وهم على ماء فأخذت من ألبانها، فأدخل عمر يده فاستقاء»[1].

وهذا موقف لإحدى النساء الصالحات العاقلات الفاضلات وهي تمثل نموذجًا فذًا للمرأة المسلمة حيث توصي زوجها قائلة له: يا هذا، اتق الله في رزقنا، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

وإن من العجب أن يحتمي بعض الناس من الحلال مخافة المرض ولا يحتمون من الحرام مخافة النار، وما ذاك إلا لقسوة القلوب واستيلاء الغفلة على النفوس وضعف الإيمان وقلة البصيرة في الدين.

عباد الله: إن للمكاسب المحرمة آثارًا سيئة على الفرد والمجتمع، فإنها تُضعف الديانة، وتعمي البصيرة، ومن أسباب محق البركة في الأرزاق، وحلول المصائب والرزايا، وحصول الأزمات المالية المستحكِمة والبطالة المتفشية، وانتشار الإحن والشحناء والعداء والبغضاء.

وإن مما يؤسى له عظيم الأسى أن في الناس من لا يتحاشون عن اكتساب المال الحرام وتحصيله من أي طريق وعبر أي وسيلة، إذ ليس لهم همٌّ إلا تكديس الأموال وتضخيم الثروات، فالحلال في عرفهم ما أُتيح لهم وقدروا عليه، والحرام ما عجزوا عن الوصول إليه، يسلكون في طلبه مسالك معوجَّة وسبلًا مشبوهة، بل وقد لا يكترثون من المجاهرة والمفاخرة بالمكاسب الخبيثة والاستيلاء على الأموال المحرمة التي لا شبهة في تحريمها، حتى أصبح هذا المسلك المشين لشيوعه وانتشاره ظاهرة مألوفة في كثير من مجتمعات المسلمين، حيث فشا فيها أكل الربا وتعاطي الرشوة والغصب والسرقة والمتاجرة بالمحرمات كالخمور والمخدرات وآلات اللهو والغناء ونحوها، وتطفيف المكاييل والموازين والغش والخداع في البيوع والمعاملات، وإنفاق السلع بالأيمان الفاجرة، وأكل أموال اليتامى والقاصرين، والاستيلاء على الحقوق والممتلكات، واختلاس الأموال الخاصة والعامة، بأساليب مختلفة وسبلٍ

---

(١) رواه البيهقي في شُعَب الإيمان (٥/ ٦٠).

متنوعة، بلا خوفٍ من الله ولا حياءٍ من عباد الله، في صور مهينة من صور البطر والأشر والجشع والطمع لدى بعض النفوس، حين يضعف فيها وازع الإيمان، وتتحلل من المروءة ومكارم الأخلاق، وإنه ليكاد يصدق على هذا الزمان ما جاء في الحديث عند البخاري وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام؟»[1].

لكن لم يعلم هؤلاء أن الحرام يمحق بركة المال والعمر والذرية، كما قيل:

جمع الحرام إلى الحلال ليُكثرَهْ   جاء الحرام على الحلال فبعثرَهْ

وإن الله أعدل من أن يمنح السعادة من طلبها بالحرام، بل إنك ترى هؤلاء تُسرع إليهم الأمراض والمحن، فهم يشكون من قلة البركة، وضنك العيش، وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤].

فأين هؤلاء عن قوارع التنزيل التي تُتلى والأحاديث التي تُروى في التحذير من أكل الحرام وبيان عاقبة صاحبه وسوء مصيره ومنقلبه؟! أليس لهم فيها مُدّكرٌ وواعظ ومزدجرٌ ورادع؟! ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

يقول الحق جل وعلا في التحذير من الربا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، ويقول عز شأنه في بيان ما أعد من العذاب لأكلة أموال اليتامى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، ويقول جل وعلا متوعدًا أهل التطفيف للمكاييل والموازين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦]. وفي الحديث عن أبي أمامة الحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حق امرئ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة»، فقال له رجل:

---

(١) رواه البخاري (٢٠٥٩).

وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيبًا من أراك»[1]، وجاء أيضًا عن عدي بن عميرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولًا يأتي به يوم القيامة»[2]، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٦١].

فاتقوا الله عباد الله: ولتجتنبوا ما حرم ربكم عليكم ونهاكم عنه من المكاسب الخبيثة والأموال المحرمة، ولتقنعوا بما أحل لكم من الطيبات، ففي الحلال الغنية والكفاية والسعادة في الدنيا والآخرة.

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك، يا واسع الفضل والإحسان، يا أكرم الأكرمين.

نفعني الله وإياكم بالقرآن الكريم وبهدي سيد المرسلين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه مسلم (١٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٣٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وحبيبه وخليله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

روى الإمامُ أحمد في مسنده، من حديث كعب بن عِياضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ لكلِّ أمَّةٍ فتنةً، وإنَّ فتنةَ أُمَّتي المالُ» [سنن الترمذي (٢٣٣٦)، وصحَّحه الألباني، صحيح الجامع الصغير (٢١٤٨)].

وإن من أعظم المصائب التي عمت وطمت في هذا الزمان الجشع والطمع والحرص على جمع المال من كل الطريق وبكل وسيلة ممكنة بغض النظر عن كون هذه الوسيلة تجوز أو لا تجوز حلالا كانت أو حراما.

فهذا تاجر يغش الناس بسلعته، وذاك موظف لا ينهض بمسئولية وظيفته، والآخر يمنع أصحاب الحقوق حقوقهم مع غناه وقدرته، وهذا يرتشي ولا يعطي المسلمين ما يستحقون حتى يكلفهم ما لا يطيقون، وذاك لا يتورع عن السرقة، والآخر يلف ويدور ويكذب ليحصل ما ليس له بحق، والرابع يغش ويحتال وينصب ويطفف المكيال والميزان، وذاك يتعامل بالربا، وهذا يتاجر بما يفسد عقول الناس ويدمر حياتهم.

انظر إلى أسواقنا لتسمع الأيمان الكاذبة وترى الغش الواضح وتطفيف المكيال والميزان واختلاس الأموال وبيع ما لا يجوز بيعه، واللف والخداع والقمار، يقول الله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه:٨١]. ويقول الله في كتابه العظيم ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة:١-٦].

إننا في زمان لم يعد بعض الناس يبالي فيه بما أكل أمن حرام أو من حلال ولا يهمه أن يغذي أهله وأولاده من الحرام أو الحلال، إن هذا الزمان أخبر به الصادق المصدوق ﷺ فقال «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام؟»رواه البخاري.

وآكل الحرام إنما يعرِّض نفسه للعقوبة في الدنيا، وفي قَبْرِه، ويوم القيامة:

أمَّا في الدنيا، فقد تكون العقوبة خسارةً في ماله، أو مَحْقٌ إلهيٌّ للمال الذي اكتسبه، ونزع البركة منه، أو مصيبةً في جسده؛ كما قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة:٢٧٦].

وأما في قبره، فقد ورد في الحديث: أن عبدًا يُقال له مِدْعَمٌ، كان مع النبيِّ ﷺ واستشهد في غزوة خيبر؛ أصابه سهمٌ طائِشٌ، فقال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: هنيئًا له الشَّهادة، فقال النبيُّ ﷺ: «كلاَّ، والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلة التي أصابها يوم خيبر من المغانِم، لم تُصِبْها المقاسِم - لَتَشْتَعِلُ عليه نارًا»، فلما سمع الناس ذلك، جاء رجلٌ بشِراكٍ أو شِراكَيْن إلى النبيِّ ﷺ فقال: «شِراكٌ أو شِراكانِ من نارٍ»[1]؛ وهذه الشَّمْلَة عباءةٌ قيمتها دراهم معدودة، ومع ذلك لم يَسْلَم صاحبها من عقوبة أكل المال الحرام.

وأما في الآخِرة، فعن كعب بن عَجْرَة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «يا كعبُ، لا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ؛ إلاَّ كانت النار أَوْلى به»[2].

إن من دلائل التوفيق وأمارة السعادة والفلاح للعبد أن يكف عما حرم الله من المكاسب الخبيثة، وما نهى عنه من الأموال المحرمة، وأن يتورع عما يشتبه عليه من ذلك، حرصًا على سلامة دينه وصيانة عرضه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[3]، وقال الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام).

ولتعلموا عباد الله أن المشتبهات يحصل للقلوب عندها قلق واضطراب يحمل على الشك والتردد في حِلها، والورع من عباد الله يكون وقافًا عند المشتبهات، فيدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، فذلك مسلك الصالحين ونهج المتقين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٨٨].

---

(١) رواه البخاري (٦٧٠٧).

(٢) رواه الترمذي (٦١٤).

(٣) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هذا في الرَّجُل يكون عليه مالٌ، وليس عليه فيه بيِّنة، فيَجْحَد المالَ، ويخاصمهم إلى الحكَّام، وهو يعرف أنَّ الحقَّ عليه، وأنَّه آثِمٌ آكِلٌ للحرام». اهـ.

قال ابن المبارك: (لأنْ أرُدَّ دِرْهمًا من شُبْهَةٍ؛ أحبّ إليَّ من أن أتصدَّق بمائة ألفٍ).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنَّا نَدَعُ تسعةَ أعشار الحلال؛ مخافةَ الوقوع في الحرام»، وإنما فعل ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امتثالًا لقول النبيِّ ﷺ في حديث النعمان بن بشير: «فمَنِ اتَّقى الشُّبهات، استبرأ لدينه وعِرْضِه، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبهات، وقع في الحرام».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فرِّغ خاطرك للهمِّ بما أُمرت به، ولا تشغله بما ضمن لك؛ فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان، فما دام الأجل باقيا كان الرزق آتيا، وإذا سد عليك بحكمته طريقا من طرقه، فتح لك برحمته طريقا أنفع لك منه؛ فتأمل حال الجنين: يأتيه غذاؤه وهو الدم، من طريق واحدة وهو السرة، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق، فتح له طريقين اثنين، وأجرى له فيهما رزقا أطيب وألذ من الأول: لبنا خالصا سائغا، فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام، فتح طرقا أكمل منها، فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه، وأنفع له، وليس ذلك لغير المؤمن، فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ولا يرضي له به، ليعطيه الحظ الأعلى النفيس، والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما مُنع منه وبين ما ذُخر له، بل هو كالطفل مُولع بحب العاجل وإن كان دنيًّا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًّا!!).

فاتقوا الله أيها المؤمنون، ولتستطيبوا مطاعمكم ومشاربكم وسائر مكاسبكم، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

الْمَالُ يَذْهَبُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ ... يَوْمًا وَيَبْقَى فِي غَدٍ آثَامُهُ

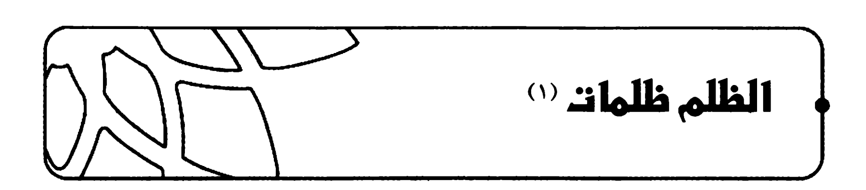
لَيْسَ التَّقِيُّ بِمُتَّقٍ لِإِلَهِهِ ... حَتَّى يَطِيبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُهُ

وَيَطِيبُ مَا تَحْوِي وَتَكْسِبُ كَفُّهُ ... وَيَكُونُ فِي حُسْنِ الْحَدِيثِ كَلَامُهُ

نَطَقَ النَّبِيُّ لَنَا بِهِ عَنْ رَبِّهِ ... فَعَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغنِنا بفضلك عمَّنْ سواك.

ألا وصلوا عباد الله على نبي الرحمة والهدى..



الظلم ظلمات [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله العظيم في قدرِه، العزيز في قهرِه، العليم بحالِ العبد في سرّه وجهره، يسمع أنينَ المظلوم عند ضعف صبره، ويجود عليه بإعانته ونصره، أحمده على القدر خيره وشرِّه، وأشكره على القضاء حلوِه ومرّه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الآيات الباهرة، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، جاهد في الله حقَّ جهاده طولَ عمره وسائرَ دهره، صلى الله عليه وعلىٰ سائر آله وأصحابه، ما جاد السحاب بقطره، وطلّ الربيع بزهره، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

يقول أحدهم: استدنت من رجل مبلغًا من المال من أجل إتمام مشروع خاص، وبعد انتهاء المدة المحددة لإعادة المبلغ حضر صاحبه للمطالبة بحقه، ولكني قمت بطرده وأنكرت أنه أعطاني أي مبلغ خاصة، وأنه لم يأخذ مني أي إثبات، لم أكن أعلم ما ينتظرني بسبب ظلمي، فبعد مضي ثلاثة أشهر خسرت صفقة بقيمة نصف مليون ريال ومنذ ذلك اليوم والخسارة تلازمني، وقد نصحتني زوجتي بإرجاع المبلغ لصاحبه لأن ما يحدث لنا هو عقاب من الله، ولكني مع الأسف لم أستمع إليها وتماديت في المكابرة حتى خسرت أعز ما أملك وهم أبنائي الثلاثة في حادث سيارة أثناء عودتهم إلى البيت.

---

(١) إبراهيم بن محمد الهلالي.

ويتابع: وأمام ذلك الحدث الرهيب قررت بدون تردد إعادة الحق لصاحبه، وطلبت منه أن يسامحني حتى لا يحرمني الله من زوجتي وابني ذي السنوات السبع، فهما كل ما بقي لي!

عباد الله: إن من أشد الأمور حرمةً وأسرعها عقوبة وأعجلها مقتًا عند الله وعند المؤمنين، ومن أشد ما يُؤثِّر في النفس ويذهب إنسانيتها ويحيل قلب صاحبها من اللحم والدم إلى أن يصير كالحجارة أو أشد قسوة هو ذلك الداء الخطير والشر المستطير الذي انتشر في الوقت الحاضر انتشارًا ينذر بالخطر وبانتقام الجبار جَلَّجَلَالُهُ، ألا وهو الظلم.

فقد تفشى الظلم في مجتمعاتنا ليس على مستوى الأفراد فحسب، بل حتى على مستوى الأقارب والأرحام والأصهار، بل وحتى على مستوى المجتمعات والشعوب والدول، نسأل الله السلامة والعافية.

الظلم مرتعه وخيم، وعاقبته سيئة، وجزاء صاحبه النار، ولو بغى جبل على جبل لدُكّ الباغي منهما.

يقول تعالى عن قوم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل:٥٢]، الظلم يهدم البيوت، ويمحق البركات، ويورث النقمات، والله يتولى الانتقام من الظالم حتى لو كان المظلوم كافرًا مشركًا؛ لأن الله قد حرم الظلم على نفسه قبل أن يحرمه على عباده؛ إذ هو منبع الرذائل ومصدر الشرور، وهو انحراف عن العدالة، ومتى فشا وشاع في أمة أهلكها، وإذا حل في قريةٍ أو مدينةٍ دمّرها.

لقد حرم الله تعالى الظلم، وتوعد عَزَّوَجَلَّ الظالمين بعذاب أليم في الدارين، وذلك لما له من عواقب وخيمة على الأفراد وعلى المجتمعات، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا». وأخبر عَزَّوَجَلَّ أن من الناس من هو كثير الظلم لنفسه ولغيره فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال جل وعز: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

أيها المسلمون: إن الله تعالى توعد الظالمين بعذاب أليم في الدارين، وهذا هو عزاء المظلومين، فكل من ظُلم عزاؤه في وعيد الله عَزَّوَجَلَّ بالظلمة.

أما في الدنيا فإن الظالم لا يُفلح في دنياه، من سلك طريق الظلم فإن بابه في النهاية مغلق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

وقد يحرم الظالم من هداية التوفيق أيضًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]، وقال تعالى: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤١].

الظلم سبب مصائب الدنيا من أوجاع وأسقام وفقر وذهاب الأولاد والأموال والقتل والتعذيب وغلاء الأسعار وغيرها. إن ما تعانيه الأمة اليوم هو بسبب وجود الظلم بما كسبت أيدي الناس، يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧]، دُونَ ذَٰلِكَ أي: قبل موتهم عقوبة شاملة للقرى الظالمة، عقوبة شاملة للمدن الظالمة، عقوبة شاملة للمجتمعات الظالمة.

إذا انتشر الظلم في مجتمع وجاهر أهله به وصار الصبغة العامة لهذا المجتمع هو الظلم فقد يعجل الله لهم العقوبة الشاملة التي لا يكاد يسلم منها أحد، بل تعم الصالح والطالح. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة المسلمة إذا كانت ظالمة).

إهلاك الله تعالى للظالمين في الدنيا وما أعده لهم من النكال والعذاب في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. لقد ذكر لنا ربنا تبارك وتعالى ما فعله بالقرى الظالمة فقال سبحانه: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء:١١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥]، ويقول جل وعلا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ [الطلاق:٨-٩]. هذه بعض العقوبات الدنيوية.

أما في الآخرة فقد توعد الله الظالمين باللعنة وأليم العقاب، فقال جل وعلا: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥٢]. ثم إن هذا الظالم لن يكون له يوم القيامة نصير ولا شفيع ولا حميم، يحرم الظلمة من شفاعة إمام المرسلين وشفاعة من يأذن الله لهم في الشفاعة لعباده، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠].

ومما يصيب الظلمة يوم القيامة أيضًا الحسرة والندم، فكل ظالم سيندم هناك ولات ساعة مندم، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وبعد هذا المشوار، وبعد كل هذا سيُنكس الظلمة في نار جهنم وتكون هي نهايتهم، فبئست النهاية وساءت الخاتمة، قال الله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ:٤٢]، فعاقبة الظالمين جهنم، لا يموتون فيها ولا يحيون، قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة»، فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله، فقال: «وإن كان قضيبًا من أراك»[(١)]، وعن أبي سلمة أنه كانت بينه وبين أناس خصومة فذكر لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت له: يا أبا سلمة، اجتنب الأرض فإن النبي ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»[(٢)]، وقال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][(٣)]. فمن يجرؤ بعد هذا على شيء من الظلم؟!

---

(١) رواه مسلم (١٣٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٣) ومسلم (١٦١٢).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

أيها المسلمون: لقد بين الرسول أن دعوة المظلوم مستجابة فقال: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1]. دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرًا؛ لأن فجوره لا يجيز التعدي عليه، وفجوره على نفسه، وعن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنّك ولو بعد حين»[2]، وعن أبي الدرداء قال: «إياك ودعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كشرارات نار حتى يفتح لها أبواب السماء». وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد).

ألا فليعلم كل من يقع في شيء من الظلم أن صاحب الحق وإن لم يستوفِ حقه اليوم فسوف يستوفيه في موقف أشد صعوبة وأقسى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يستوفيه حينئذ خيرًا من ذلك، حسنات هي خير من الدنيا وما فيها، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[3].

إنه الظلم الذي حرمه الله على نفسه وجعله بين عباده محرمًا، إنه الظلم الذي يؤهل المعتدي للاستيلاء على حقوق الآخرين، إنه الظلم الذي يقلب الحقائق ويغيّر النتائج، إنه الظلم الذي توعد الله عليه أشد الوعيد: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

أيها المسلمون: إن الظلم مذهِب لبركة العمر مضيِّع لجهد الإنسان ممحِق للكسب، بل إن الظلم إفلاس من كل مكسب في الدنيا والآخرة. روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: «إنَّ

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦) ومسلم (١٩).

(٢) صحيح الترمذي (٢٥٢٦).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٩).

المفلسَ من أمَّتي، يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا. فيُعطَى هذا من حسناتِه وهذا من حسناتِه. فإن فَنِيَتْ حسناتُه، قبل أن يقضيَ ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه. ثمَّ طُرِح في النَّارِ»[1]، وعند مسلم أيضًا من حديث جابر أن رسول الله قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[2].

أيها الظالم: أبشر بما أعده الله لك يوم القيامة: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، أبشر بعد سعادتك بظلم الناس وفرحتك بأكل أموالهم وانتهاك حقوقهم، أبشر بمال كلّه ظلم كلُّه حزن كلّه حسرة كلّه ندم، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

أيها المسلم: الظلم خلق ذميم، الظلم عمل سيّئ، الظلم عاقبته سيئة في الدنيا والآخرة، إنه سبب لزوال النعم، سبب لانتقاص الأعمار، سبب لحلول العقوبات والمثلات، وفي الآخرة ظلمات بعضها فوق بعض. فليتق المسلم ربه، وليلزم العدل في كل أحواله، فالعدل به قامت الأرض والسموات، والظلم ظلمات يوم القيامة.

خلص نفسك من مظالم العباد، أيّ مال دخل عليك بغير حق فتخلص منه، ردّ الحقوق إلى أهلها، تخلص من التبعات ما دمت قادرًا في هذه الدنيا قبل أن ينزل بك الموت وترى ملائكة الجبار وترى ملك الموت، عندها تتمنى ساعة تعيش في الدنيا لترد المظالم وتتخلص من الحقوق ولا ينفعك ذلك.

فيا أخي المسلم، أنت المحاسب، أنت المعذَّب، أنت المعاقب، إن ما أكلت من مظالم العباد ينساها الناس، ولكنها محفوظة عند الله، ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

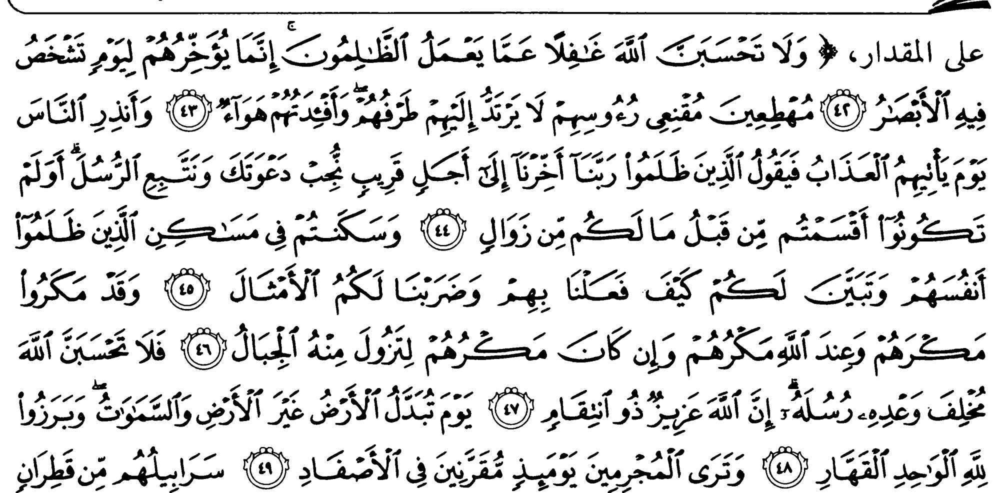
(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨).

كل مذكور سيُنسى، وكل ملبوس سيبلى، وكل مدخور سيفنى، ليس غير الله يبقى، من علا فالله أعلى، فإياك والمماطلة، وإياك والتسويف، وإياك واللجوء إلى الحيل والخداع، خلص نفسك فإنه لا ينقذك إلا أن تخلص نفسك في الدنيا قبل الوقوف بين يدي الله، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧].

أيها الظالم: ثمة مواقف تمرّ بها ضعها في بالك حين ولوغك في الظلم، حين تبلغ الروح منك الحلقوم، يوم تعالج سكرات الموت وكرباته، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، فأين النصير؟! وأين المعين؟! وأين الرفيق؟! فلا أحد ينجيك إلا الله. وموقفٌ في القبر حين يفرش لك فراش من جهنم، وتغطى بغطاء من جهنم، فيما تصعد روحك فتوصد أبواب السماء دونها، فترد إلى سجّين وأسفل سافلين، ويفرش لك فراش من النار، قال الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١]، ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥]. فهل فكرت يا عبد الله في هذه المواقف؟! وهل فكرت في وقوفك أمام الجبار وسؤاله لك عن هذه المظالم؟! فهل ستعتذر أم ستفتدي نفسك أم ستطلب الرجعة إلى دار الدنيا لتتخلص من المظالم؟! كل ذلك محال وبعيد.

لماذا تظلم يا عبد الله؟! أهي قدرتك وقوتك؟! فسوف يسلط الله عليك من هو أقدر منك، أم هي عزتك ومالك وجاهك؟! فكل ذلك صائر إلى الذل والهوان، أم هو إمهال الله لك وإغداقه عليك النعم؟! فاتق الله، وأقلِع عن ظلم المسلمين، وكُفَّ عن التعدّي عليهم في أموالهم وأعراضهم ودمائهم قبل أن تلقى الله بهذا الظلم الشنيع.

الويل لأهل الظلم من ثِقل الأوزار، وذكّرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار، يكفيهم أنهم وُسموا بالأشرار، ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار، انتقلوا إلى دار العقاب ومَلَكَ غيرهم الدار، وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار، ولا مغيث ولا أنيس ولا جار، ولا راحة ولا سكون ولا قرار، سالت دموعهم على ما جرى منهم من الظلم كالأنهار، شيّدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار، فإذا قاموا في القيامة زاد البلاء

على المقدار، 
﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٥٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

الخطبة الثانية:

الحمد لله ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وبارك على نبيه وصفيه محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون: الظلم والفساد قرينان، بهما تخرب الديار، وتزول الأمصار، وتقل البركات، ويحل الغش محلّها، والظلم ظلمات، في غياهبه تزل الأقدام وتضل الأفهام ويظهر الفساد وتمحق البركة، وكيف يقدس الله قومًا لا يُؤخذ من شديدهم لضعيفهم؟! عن جابر بن عبد الله قال: لما رَجَعَتْ إلى رسول الله مهاجِرةُ البحر أي: الحبشة عام خيبر قال: «ألا تحدّثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» قال فتية كانوا منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهَابِينِهِم تحمل على رأسها قُلةً من ماء، فمرّت بفتًى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قُلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسيَّ وجمع الله الأولين والآخرين وتكلّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم من أمري وأمرك عنده غدًا، قال: قال رسول الله: «صدَقَت صدقت، كيف يقدِّسُ اللهُ أمةً لا يُؤخذ من شديدهم لضعيفهم؟!»(1).

قد يستبطئ الظالم العقوبة فيتمادى في ظلمه، ولا يتذكّر أن الله سبحانه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

أيها الظالم: إن الخير يُقفل في وجهك، وإن الشر والبؤس والخذلان حليفك، ألا تعلم أنّ هناك دعوات تنطلق بالأسحار، فإذا هي تخترق الحجب فتصل إلى باريها وناصرها، فيقول لها: «وعزّتي وجلالي، لأنصرنّك ولو بعد حين»(2).

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٥٥).

(٢) صحيح الجامع (١١٧).

تقول أستاذة جامعية: حدثت قصتي مع الظلم قبل سنوات، كنت متزوجة فطُلقت، وبعد طلاقي قررت الزواج بأحد أقاربي الذي كان ينعم بحياة هادئة مع زوجته وأولاده، حيث اتفقت مع ابن خالتي الذي كان يريد زوجة هذا الرجل على اتهامها بخيانة زوجها، وبدأنا في إطلاق الشائعات بين الأقارب ومع مرور الوقت نجحنا، حيث تدهورت حياة الزوجين وانتهت بالطلاق، وبعد مضي سنة تزوجت المرأة برجل آخر ذي منصب، أما الرجل فتزوج امرأة غيري، وبالتالي لم أحصل مع ابن خالتي على ما كنا خططنا له، ولكنا حصلنا على نتيجة عكسية، وهي نتيجة الظلم، حيث أُصبت بسرطان في الدم، أما ابن خالتي فقد مات حرقًا بسبب التماس كهربائي في الشقة التي كان يقيم فيها، وذلك بعد ثلاث سنوات من القضية. لا إله إلا الله: «وعزتي وجلالي لأنصرنّكِ ولو بعد حين»، «إنّ الله لَيُمْلي للظالم حتى إذا أَخَذه لم يُفلِته»[1].

أيها الظالم: اعلم أنّ من مات قبل ردِّ المظالم أحاط به خُصومه يومَ القيامة، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصِيته، وهذا يتعلّق برقبته، هذا يقول: ظلمَني فغَشّني، وهذا يقول: ظلمني فبخَسني، وهذا يقول: ظلَمني فخَدعني، وهذا يقول: ظلمني فقذَفني، وهذا يقول: ظلَمني فأكل مالي، وهذا يقول: اغتابني، وهذا يقول: كذب عليّ، وهذا يقول: شتَمني، والجار يقول: جاوَرَني فأساء مجاورتي، وهذا يقول: رآني مظلومًا فلم ينصرني، وهذا يقول: رآني على مُنكر فلم ينهَني، وهذا يقول: جَحَد مالي، وهذا يقول: مَطَلني حقّي، وهذا يقول: باعني وأخفى عنّي عيب السّلعة، وهذا يقول: شهِد عليّ بالزور، وهذا يقول: سخِر بي، وهذه زوجة تقول: ظلمني في النفقة ولم يُحسِن عِشرتي، وتلك تقول: لم يَعدِل بيني وبين زوجته الأخرى، وهذا يقول: تعدّى على محارمي، وهذا يقول: غدَر بي، وهذا يقول: خانَني، وهذا يقول: دلّس عليّ، وهذا يقول: كادني، فبينما أنت على تلك الحال المُخيفة التي لا يُرى فيها بعضك من كثرة من تعلّق بك من المظلومين الذين أحكموا فيك أيديَهم وأنشبوا فيك مخالبهم، وأنت مُتحيِّرٌ مضطرب العقل من كثرتهم ومُطالبتهم حقوقَهم، فلم يَبْق منهم أحد ممن عاشرته في الدنيا

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

وظلمتَه إلا وقد استحقّ عليك مَظلَمة، وقد ضعُفت عن مقاومتهم ومددتَ عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله أن يخلّصك من أيديهم إذا قَرَع سمعك نداء الجبّار جلّ وعلا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر:١٧]، فعند ذلك ينخَلعُ قلبك، وتضطرب أعضاؤك من الهيبة، وتوقن نفسُك بالخسران، وتتذكّر ما أنذرك الله تعالى به على لسان رُسُله حيث قال: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى:٤٤-٤٥]، فيا لها من مصيبة، وما أشدّها من حسرة في ذلك اليوم، فعند ذلك تؤخذ حسناته التي تعِب عليها في عُمُره ليلًا ونهارًا حضرًا وسفرًا، وتُعطى للخُصَماء عِوَضًا عن حقوقهم، فلينظر العاقل إلى المصيبة في مثل ذلك اليوم الذي رُبَّما لا يبقى معه شيء من الحسنات، وإن بقي شيء أخذه الغُرماء، فكيف يكون حالك أيها العبد إذا رأيت صحيفتك خالية من حسنات طالما تَعِبت عليها، فإذا سَألت عنها قيل لك: نُقِلت إلى صحيفة خصمائك الذين ظلمتهم؟! وكيف بك إذا رأيت صحيفتك مشحونة مملوءة بسيئات لم تعملها، فإذا سَألت عنها: من أين جاءت؟! قيل: هذه سيئات القوم الذين طالما اغْتَبْـتَهُم وتناولت أموالهم بالباطل وشتمتهم وخُنْـتَهم في البيع والجوار والمعاملة.

فيا من ظلمت أحدًا بغيبته أو الطعن في عرضه، يا من شتمت أو لعنت أو أهنت صاحبًا أو جارًا أو قريبًا، تحلل ممن استطلت في أعراضهم، ادعُ بظهر الغيب لهم إن تعسّر عليك الاعتذار منهم؛ فإن الله لا يدع مظلوما يوم القيامة إلا انتصف له، حتى يقاد للشاة الجلحاء -غير ذات قرون- من الشاة القرناء.

يا من قطعت رحمًا، يا من ضيّقت على مسكين، واستقويت على ضعيف، كفاك، ارحم نفسك، وبدّل شدتك برحمة، وغلظتك برفق ورأفة، لعل الله أن يرحمك، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

يا من قسوت على من هم تحت يدك من أهل وألاد، أو طلاب أو عمال، اعلم أن الله أقدَر عليك منك عليهم، يا من أخذت المال من غير حله، يا من أكلت أموال الناس بالباطل،

الله الله، تدارك نفسك بردّ حقوق الآخرين قبل أن يكون لا دينار ولا درهم، وإنما هي الحسنات والسيئات، والنعيم والعذاب، والجنة والنار.

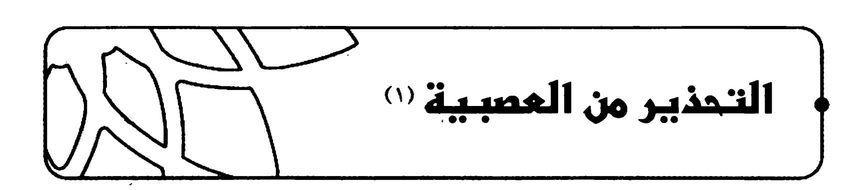
لا تَظْلِمَنَّ إذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا	فالظُّلْمُ آخِرُهُ يُفْضِي إلى النَّدَمِ
واحْذَرْ أُخَيَّ مِنَ المَظْلُومِ دَعْوَتَهُ	لا تَأْخُذَنْكَ سِهَامُ الليلِ فِي الظُّلَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ	يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

نسأل الله تعالى أن يُجنِّبنا الظلم وأن يكفينا شر الظالمين، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

اللهم إنا نعوذ بك أن نظلِم أو نُظلَم، أو نضِل أو نُضَلّ، أو نجهل أو يُجهل علينا.

اللهم أحينا على ما يرضيك، ولا تتوفنا إلا وأنت راضٍ عنا، وليس في أعناقنا دين أو مظلمة لمسلم.





التحذير من العصبية [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله شرح بفضله صدور أهل الإيمان بالهدى، وأضل من شاء بحكمته وعدله، فلن تجد له وليًا مرشدًا، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا فردًا صمدًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، كرم أصلًا وطاب محتدًا، خصه ربه بالمقام المحمود وسماه محمدًا، ﷺ وبارك وعلى آله وأصحابه، هم النجوم بهم المهتدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتدى.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أنما الخيرية بالتقوى، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

عباد الله: عقيدة التوحيد تجمعنا ودار الإسلام تؤوينا، لا فخر لنا إلا بطاعة الرحمن، ولا عزة ولا كرامة إلا بالإيمان، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

معاشر المصلين، قضية اجتماعية، بسببها انتشرت البغضاء، ومنها نبعت الأحقاد، ولأجلها رفعت الشعارات الشيطانية، وتعددت الحزبيات العنصرية، ووجدت رواجًا عند ضعاف الإيمان واستغلها الأعداء أبشع استغلال.

لم تدخل في مجتمع إلا فرقته، ولا في صالح إلا أفسدته، ولا في كثير إلا قللته، ولا في قوي إلا أضعفته، ما نجح الشيطان في شيء مثلما نجح فيها بين المجتمعات المسلمة، شب عليها الصغير وشاب عليها الكبير، وتبناها حُثالة المجتمع.

---

(١) حسين بن غنام الفريدي.

مجالس الدهماء تروجها، وأشعار الصعاليك ترددها، كلما خبت نارها جاء من يسعرها، ويحذر من نسيانها والغفلة عنها. إنها العصبية المقيتة، إنها الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، إنها الفخر بالأرض والتراب، إنها الفخر بالعرق واللون.

إنها دعوى الجاهلية تأصلت فيمن رَقَّ إيمانه وضعف يقينه وطُمس على قلبه وغَفَل عن أَصله وحقيقته، الجاهلية التي كانت تنشب بين أهلها الحُرُوب الطَّاحنَة لأتفه الأسباب، حميّة للأنسَاب والأحساب!

يقول الله تعالى ذامًا أهل الحمية لغير الدين: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]، وجاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[١].

وجاء أيضًا عن النبي ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[٢].

وروى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله قد أذهب عنكم عُبّية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[٣].

روى حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، ولينتهين قومٌ يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجِعلان»[٤].

عباد الله: قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات:١٣]، جعلناكم شعوبًا وقبائل لتتعارفوا لا لتتفاخروا، ولا تتكبروا على غيركم، ولا لتحتقروا من سواكم، فالله سبحانه يقول ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ وليس لتفاخروا وتعاظموا، فليس عيبًا أن يعرف الإنسان نسبه

---

(١) رواه أبو داود وسكت عنه وضعّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٥١٢١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٨٦٥).

(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٩٥٥).

(٤) صححه الألباني كما في صحيح الجامع (٤٥٦٨).

حتى يتحقق التعارف بين الناس شعوبهم وقبائلهم، ولكن العيب أن يكون ذلك مدعاة للتعاظم والتعالي على غيرهم. فما بال أقوام ينحون هذا المنحى ويدعون بهذه الدعوى والله سبحانه قد وضع الميزان الذي لايختل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]؟!

ولقد حسمت هذه الآية موضوع التفاخر بتأصيل ثلاث ركائز:

الأولى: أن أصل خلق الناس جميعًا واحد. وقد روي أن عيسى ابن مريم سئل: أي الناس أفضل؟ فقبض قبضتين من تراب وقال: «أي هاتين أفضل؟ ثم قال: الناس خُلقوا من تراب، فأكرمهم أتقاهم».

الثاني: أن ما يحتج به الناس بانتسابهم إلى شعب كذا أو قبيلة كذا مما لم يأذن به الله لأجل التفاخر، وإنما أذن به لأجل التعارف فحسب، لما يترتب عليه من حقوق وواجبات. وأما التفاخر فلا مسوّغ له؛ لأن كل أحد لم يختر نسبه ولا أصله ولا أمه ولا أباه، بل ربك يخلق ما يشاء ويختار، فليس للإنسان حق في أن يفتخر بما لم يكن له فيه يد، ولا له فيه فضل. ولو قال قائل: نحن نفتخر بفضل الله علينا، فالجواب: إن الذي تفضّل عليك بهذا جعله وسيلة تعارف ونهاك عن التكبر والتفاخر.

الثالث: أن الكرم والتفاضل والتقدم إنما هو لأهل التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وما أجمل ما قاله أحد المفسرين لهذه الآية، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سببٌ ضخمٌ للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله. وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من العصبية للجنس والعصبة للأرض والعصبية للقبلية والعصبية للبيت، وكلّها من الجاهلية وإليها تتزيا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء، وكلّها جاهلية عارية من الإسلام).

عباد الله: إن المسلم العاقل ليقف حائرًا أمام هذه الجاهلية التي تستهدف أخوة الدين، وتمزق نسيج الأمة، وتقدح بالاعتصام بالكتاب والسنة، إما بإثارة النعرات القبلية، أو تنقُّص

الناس باسم الوطنية، فمن كان من وطنك أحبه سواء كان برًّا أو فاجرًا، في حين لا تحمل هذا الشعور تجاه أخ مسلم من غير بلادك ولو كان من أتقى الناس.

وإنه ليزداد العجب من إنسان يفخر بشيء لا جهد له فيه ولا كسب، وهو النسب، ثم يهمل ما له فيه يد وحيلة، من التقوى والأدب والخلق والفضل، وقد قيل:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... تغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

وهناك من يفتخر بأصله وفصله، وحسبه ونسبه، لكن لا يد له في المكرمات ولا نصيب له في الفضائل، فلا هو الذي ترك الفخر، ولا هو الذي اكتسبه بالفضل، كما قيل:

إذا افتخرتَ بآباءٍ ذوي شرفٍ ... قلنا صدقتَ ولكن بئسما ولدوا

عباد الله: ربما هناك في بعض البلاد الإسلامية من يعيشون فيها وليسوا من أهلها، يواجهون صلفًا في التعامل وغلظة في القول، وهمزًا ولمزًا يغرس الحقد ويولّد البغضاء ويتسبب في الإيذاء، لا لشيء إلا لأنهم ليسوا من أهل تلك البلاد، فيصيبهم من أذى العنصرية والعصبية ما لا يليق بمسلم، بل بإنسان عاقل، وإنه لمن المؤسف أن مثل ذلك قد لا يحدث في كثير من بلاد الكفر، بل يُعامَل الناس فيها سواسية بلا تمييز ولا عنصرية، من مبدأ الإنسانية، والمسلمون أحق بذلك من غيرهم لو كانوا يعلمون.

إن الأخوة الإسلامية تفوق جميع الصلات وتتجاوز بذلك الحدود الجغرافية والروابط الأرضية، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وفي الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان»[1]، «المسلم أخو المسلم»[2]، هذا هو الشعار الذي يجب أن يرفع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة؛ فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٩٥١) ومسلم (٢٥٦٤).

وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، غضب الرسول ﷺ لذلك غضبًا شديدًا فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم! دعوها فإنها مُنتنة»[1] انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أيها الآباء.. أيها المربون: اتقوا الله في أنفسكم، لا تُنْشِئُوْا صغاركم على التعصب والافتخار لغير الإسلام، بل ربّوهم على المبادئ الكريمة والخصال الحميدة التي دعانا إليها ديننا القويم، وحثوهم على الاتصاف بها.

لسنا وإن أحسابنا كرمَتْ	يومًا على الأحساب نتكلُ
نبني كما كانت أوائلنا	تبني ونفعل مثلما فعلوا

يا من تطعنُ في الأنساب، وتفتخر بالأحساب، يا من حقّرت الناس وتنقصتهم، ألا تعلم حقيقتك؟! ألا تعلم أن أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وتحمل في جوفك العذرة؟! ألا تذكر قول الله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠]. فعلام الكبرياء وعلام التعالي.

إن احتقار الآخرين والحمية لغير مرضاة الله توقع المرء في الغَيْرة لغير الإسلام والغضب لغير الله، وتؤدي إلى ظلم العباد، والقطيعة والعقوق، ومنع الحقوق، والانتصار للباطل وأهله، لا لشيء إلا بسبب تمكّن العصبية من النفوس، كما قال أحدهم:

وهل أنا إلا من غُزيّة إن غوَت	غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٣].

أسأل الله تبارك وتعالى أن يؤلف بين قلوبنا، وأن يسلل سخائم صدورنا، وأن يجعلنا متحابين فيه، متآخين فيه، متباذلين فيه، فلا نعمة بعد الإسلام أعظم من ذلك.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم...

---

(١) رواه البخاري (٤٩٠٥) ومسلم (٢٥٨٤).



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا هو تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه وخلانه.

أما بعد:

فإننا أمة تؤثر فينا تقاليدنا وموروثاتنا الاجتماعية وأعرافنا تأثيرًا كبيرًا، حسنها وسيئها، فقد ورثنا إلى جانب المروءة والشجاعة والكرم، العصبية التي تكاد تعصف بكل موروثاتنا الحميدة الأخرى. حيث أضحت تصنيفًا اجتماعيًا قاسيًا يؤخذ به أكثر من العدالة الاجتماعية الإسلامية في الزواج والعمل والتعليم، بل وحتى في التعامل اليومي بين أفراد المجتمع، فهذا فلاني وذاك علاني، والثالث لا هذا ولا ذاك، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا الحق في تقسيم الناس تقسيمًا لم يقره هو سبحانه، ولم يسنّه لنا النبي ﷺ، وأصبحت لنا شريعة أخرى غير شريعة الله وبتنا نخشى الناس والمجتمع أكثر من خشيتنا الله.

عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارًا غير سرًا يقول: «إنَّ آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنَّما وليي الله وصالح المؤمنين»[1].

إنَّ النسب الشريف، والحسب المنيف؛ بدون تقوى الله عَزَّوَجَلَّ لا ينفع، والنسب الوضيع مع وجود التقوى أفضل وأشرف وأرفع؛ فهذا بلال الحبشي لما أسلم وحقق التقوى لله رفع الله قدره، وأعلى منزلته، وبل وسمع النبي ﷺ دفَّ نعليه في الجنة، وأبو جهل المخزومي في أسفل سافلين.

خَذَلَتْ أبا جهلٍ أصالتُه ... وبلالُ عبدٌ جاوز السحبا

وهذا سلمان الفارسي لما خالط الإيمان بشاشة قلبه، واتقى خالقه، وخاف سيده ومولاه، أيضًا رفعه الله، وحصل في الدنيا مبتغاه وتقلّد جائزة: (سلمان منا آل البيت).

---

(١) صحيح مسلم.

وقد ذُكِر أنّ سلمانَ الفارسيَّ لمّا سُئِل عن نسبه قال:

أبي الإسلامُ لا أبَ ليْ سِواه إذا افتخروا بقَيْسٍ أو تميمِ

وفي المقابل: هذا أبو لهب القرشي لما كذب وأبى، واستكبر وطغى، وضعه الله في الدنيا والأخرى، وأنزل فيه آيات إلى يوم القيامة تتلى، قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد:١-٥].

لعمُركَ ما الإِنسانُ إِلا بدينهِ فلا تتركِ التقوى اتكالًا على النَّسَبْ

فقد رفعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ وقد وَضعَ الشِّرْكُ الشريفَ أبا لهب

إن الإسلام والتقى ليرفع وضيع النسب، ويهبط رفيع الحسب.

أيها الناس: إنَّ الأُخوةَ الدينيةَ بين الشعوبِ الإسلاميةِ هي أقوى الوشائجِ والروابطِ التي تشُدُّ الأمةَ وتُؤَلِّف بينها؛ لتكونَ قويةً متماسكةً في وجوه أعدائها المتربصين بها من الكفار والمنافقين. إنَّ الله سبحانه امتن على نبيه ﷺ بنعمة التآلف بين قلوب المسلمين، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

وامْتَنَّ اللهُ بها على المسلمين جميعًا رجالًا ونساءً، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

فاتقوا الله عباد الله، واحذروا وساوس الشيطان، فإنه إياكم يكيد، ولتفريق شملكم يريد، فقد صح بذلك الوعيد، أخبر به أنصح العبيد للعبيد عليه الصلاة والسلام فقال: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»(١).

فلا عصبيةَ في الإسلام، بلْ أخوةٌ إسلاميَّةٌ، وإن من المؤسف أن تجد الرجل يقيم شعائر

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢٨١٢).

الدين، ويبكي من خشية الله، وفيه خير كثير، ثم تجده بعد ذلك قدْ ملئ قلبه بالعصبية والكبر، فلأجلها يحب ومن أجلها يعادي، ألا يعلم قول الرسول ﷺ: «الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان»(١).

والحب من العبادات، فينبغي علينا أن نحب ما يحبه الله وأن نبغض ما يبغضه، والله تبارك وتعالى يبغض العصبية والحمية لغير دينه، وهو سبحانه بيده العزة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

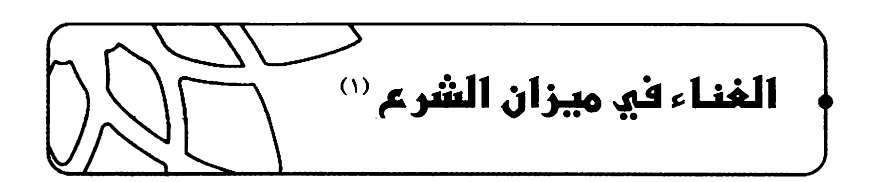
وسيأتي يوم لا تُعرف فيه الأنساب: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، بل يتنكر فيه المرء لأحب الناس إليه ويفر من أقرب الناس إليه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]. فهل ينفع في ذلك اليوم ما يُرى من هذه العصبية بين القوم؟ وهل يغني الإنسان أن يكون من بني فلان أو فلان؟ ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]. نسأل الله أن يصلح بالأخوة أحوالنا، ويصلح بالإيمان قلوبنا، ويوحد على الحق صفّنا..

هذا، وصلوا على من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه..



---

(١) قوّاه الألباني بمجموع طُرقه في كتاب النصيحة (٢٤٠).



الغناء في ميزان الشرع [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله السميع البصير، العليم الخبير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، أحمده سبحانه أرسَل رسولَه لإنارة البصائر، وأشكره على ما أَنعَم به من سَمْعٍ للسامع وعين للناظر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، خاتَم المرسلين، وسيِّد المتَّقين، اللهم صلِّ وسلم وبارِك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها الناس: إن القلوب إذا ضعف إيمانها، وأقدمت على المنكر مرة بعد مرة، آنسته واطمأنت إليه، وأصبح لديها أمرًا مألوفا، لا تشعر منه بحرج ولا إثم، وذلك مصداق قول النبي: «إن العبد إذا أذنب ذنبًا، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع صُقل منها، وإلا امتدت حتى تعلو قلبه»[2]، وذلك الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] فإذا علا القلوب ذلك الران، أصبحت لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا، حتى لو عَرفتْ قُبح ذلك الفعلِ وتحريمه، وهي عقوبةٌ بالغة لأصحاب المنكرات والمعاصي، تجُرِّؤهم على حدود الله، وتشجعهم على انتهاك حرمات الله، وتعمل على إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

---

(١) محمد بن عبد الله الهبدان.

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٤١).

إنه سماع الغناء من الكلمات الماجنة المصحوبة بالموسيقى، الغناء الذي ملأ الفضاء بالهراء، وأغرى السفهاء بالبلاء، الغناء الذي يدور أصحابه حول فلك الشهوة التي لا تتقيد بـآداب، ولا تحتكم إلى قيَم، ولا تنضبط بشرع، كم أفسد من قلوب، وكم أركس من فِطَر، وكم أردى حليمًا فصار به سفيهًا.

الغناء ينافي روح الإسلام، ويضاد الفطـرة السـوية الطـاهرة، والقـيم الكريمـة والآداب الرفيعة، ومع ذلك فقد ألفه كثير من المسلمين وتعلقوا به أشد من تعلقهم بالقرآن العظـيم أو حديث الرسول الكريم، بل هو عند بعضهم أليف، أقرب من القرآن والحديث، وإن البعض تمر عليه الأيام والأسابيع والشهور ولا يكاد يكون له نصيب من تلاوة أو سماع القرآن، وأمـا مزمور الشيطان، ومنكرات الألفاظ والصور والألحان، فلا يكاد يمر عليه يوم وليس له منها نصيب، والله المستعان.

ولقد بلغ الحال بالبعض أن يسهروا على الأغاني الماجنة والصور الفاتنة الليـالي الطـوال، ودموعهم على خدودهم، يتجاوبون مع التأوهات والألحان، التي خلع أصحابها رداء الحيـاء والخوف من الله سبحانه.

وإنك لتفكر حين تتأمل ما وصل إليه حال البعض من هذه الأمة، فتتساءل: كيف يتسنى لأمة هذا حال أبنائها أن تبني مجدًا، أو تستعيد عزًا، أو تدفع عن نفسها عدوًا أو طامعًا؟

يكفيك هذا، لتحكم على هذا المنكر وأثرِه المدمر في الأمم، وما أكثر ما تميع أخلاق الأمة، على موائد اللهو والطـرب، ومـن هنـا، تعـرف لمـاذا يركـز اليهـود في مخططـاتهم الإجراميـة ومشـــروعاتهم الإعلاميــة لإفســاد العــالم، عــلى نشــر الغنــاء والموســيقى، وتشـجيع محترفيها، والدعاية لهم.

ومن هنا أيضا تعرف خطأ بعض الآباء في ذلك، من حيث يعلمون أو لا يعلمون، فبـدلًا من أن يوقظوا في أبناءهم العزة الإسلامية، والكرامة القرآنية، ويشـعلوا فـيهم حماسـة العلـم النافع والعمل الصالح، ونفض الغبار عن أمتهم التي سامها عـدوها سـوم العـذاب والـذل والهوان، بدلًا من ذلك، يشجعونهم على استماع الغنـاء، والـترنّم بالألحـان، ظـانين أن ذلـك سبيل الفلاح والنجاح، والعلو والرفعة.

أيها الأحبة: لقد مدح الله عباده المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون، ومدح عباده المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، ونوّه بذكر عباده الصالحين الذين يذكرونه قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، وهلم جرّا من تلك الصفات التي هي صفات أولي الألباب، وأرباب النهى والعقول، التي ترفع أصحابها درجات، وتنزّههم عما انحطّ فيه أصحاب اللهو من الدركات..

إلى هؤلاء نسوق حكم الله ورسوله في هذا المنكر، الذي أصبح اليوم معروفا، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان:٦-٧]. قال الواحدي وغيره: (أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء قاله ابن عباس وعبدالله بن مسعود). قال أبو الصهباء: سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [لقمان:٦] فقال: «والله الذي لا إله غيره هو: الغناء - يرددها ثلاث مرات-».

وروى الإمام البخاري في صحيحه معلقا بصيغة الجزم عن أبي مالك الأشعري قال ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»[1]، وهذا الحديث رواه البخاري بصيغة الجزم، وهو في اصطلاحه صحيح ثابت، وقد روي متصلًا صحيحًا في كتب أخرى من كتب السنة، فرواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وأحمد وغيرهم، ولو لم يكن في تحريم هذا المنكر إلا هذا الحديث لكفى، لقوته وصحته.

ومن دلائل النبوة فيه: أنه ﷺ قرن مع المعازف الزنا والخمر؛ لأنه طريق لها وباعث عليها، فالغناء رقية الزنا، أي موصل إليه ومشجع عليه، نسأل الله السلامة والستر والعافية.

وعن عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي قال: «نُهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة؛ لهو ولعب ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة؛ لطم وجوه وشق

(١) رواه البخاري معلّقًا بصيغة الجزم، برقم (٥٥٩٠).

جيوب»[1]، فهل يؤخذ بعد ذلك قول أحد؟! إلا أن يكون الدافع إلى ذلك الهوى والشهوة.

وإنا نعوذ بالله من زيغ الهوى، وتحكم الشهوة، وما أعظم على الناس فتنته وما أشد على الدين محنته، وهل أبقت الشريعة لقائل مقالا، أو لمتصرف بعدها مجالا؟!

ولقد فهم العلماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ من هذه النصوص وغيرها، تحريم ذلك وخطره على الأمم والشعوب، فاتفق الأئمة الأربعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على حرمته، وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة والغناء، فقال في فتاويه: (أما إباحة هذا السماع وتحليله فليُعلم أن الدف والشبابة والغناء إذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين، ولم يثبت عن أحد ممن يُعتد بقوله في الإجماع والاختلاف أنه أباح هذا السماع).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فإنهم متفقون - أي: الأئمة الأربعة - على تحريم المعازف التي هي آلات اللهو كالعود ونحوه).

وقد نهى الله جَلَّ جَلَالُهُ المرأة أن تحرك رجلها حتى لا يُسمع صوتُ خلاخلها، فكيف بمن تعرض نفسها للناس وقد تزينت كما تتزين المرأة لزوجها، ثم تتكسر في غنائها، وتتميع في كلماتها، وتخضع بالقول لتُطمع من في قلبه مرض، وتُمرض كل من لسماعها عرَض؟!

وقد نص الإمام أحمد على كسر آلات اللهو كالعود والطنبور وغيرها، إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرُها، فكيف بهذا النوع السائد اليوم، الذي يحرض على الفاحشة، ويشحذ الشهوات، ويستحث الغرائز للحرام، ويشجع على هتك الحرمات، والتعدي على الأعراض.

قال الإمام القاسم بن محمد: (الغناء باطل، والباطل في النار). ويقول الفضيل ابن عياض: (الغناء رقية الزنا). وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى مؤدب ولده: «ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه

---

(١) صحيح الجامع (٥١٩٤).

بلغني عن الثقات من أهل العلم أن صوت المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء».

وقد قال يزيد بن الوليد يعظ بنّي عمومته: (إياكم والغناء، فإنه يُذهب الحياء، ويزيد الشهوة، ويهدم المرؤة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السُّكْر، وجنّبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا).

وذلك لأن غناء الرجل ذو أثر كبير على عواطف المرأة ومشاعرها، لا سيما مع ما جُبلن عليه من الضعف، وما شاع فيهن من قلة العلم والفقه، وضعف الديانة في العصور المتأخرة.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها -أي: سماع غنائها- فهو سفيه تُرد شهادته. وأغلظ القول فيه، وقال: هو دياثة، فمن فعل ذلك كان ديوثًا). قال القاضي أبو الطيب: (وإنما جعل صاحبها سفيها، لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل، كان سفيها فاسقًا). وقد سمع سليمان بن عبد الملك صوت غناء، فاحضر المغنيين وقال: (إن الفرَس ليصهل فتستودق له الرمكة، وإن الفحل ليهدر فتضبع له الناقة، وإن التيس لينبّ فتستحرم له العنز، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة، ثم أمر بخصائهم).

فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا؟! وكم من حر أصبح به عبدا للصبيان و الصبايا؟! وكم من غيور تبدل به اسما قبيحا بين البرايا؟! وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا؟! وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا؟! وكم جرّع من غصة، وأزال من نعمة، وجلب من نقمة، وذلك منه من إحدى العطايا، وكم خبأ لأهله من آلام منتظرة، وغموم متوقعة، وهموم مستقبلة.

ألا نرى ما هو منتشر في مجتمعاتنا اليوم، من تعلق بعض البنات بالمطربين والمغنين والممثلين، وتفاخرهن بذلك في المجالس والمدارس والبيوت، فأي رجل بعد هذا، يملك في نفسه شيئا من الغيرة والرجولة على محارمه ونسائه، يرضى باستماعهن إلى غزل الفارغين من المطربين، الذين لا همّ لهم إلا الشهرة والمال، والضرب بالقيم والآداب عرض الحائط.

أفلا يتق الله أولئك الآباء، الذين يرضون بذلك في أهلهم، ويصغون له تاركين شرع الله وراءهم ظهريا، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦] ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

أقول ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورًا، سبحانه خلق السمع والبصر والفؤاد وقال: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]، أحمده وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أيها المؤمنون: إن الأمة لا بد أن تستيقظ من سباتها وتستفيق من غفلاتها؛ فلقد كثر انتشار الأغاني بين الناس، واستحواذها على القلوب، وصدّها عن ذكر علام الغيوب، وحثّها على الرذائل والعيوب؛ الأمر الذي يُبعِدُ عنا رحمته ويجلب سخطه، وما أحوجنا اليوم لأن نقترب من رحمته ونبتعد عن سخطه.

أيها الأخوة في الله: هذه رسائل أوجهها إلى من لا زالوا حريصين على مرضاة ربهم، واتباع آداب نبيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

الرسالة الأولى: إلى محب الغناء! أخي الحبيب.. ها أنت قد علمت ما للغناء من أثر، وكيف أنه يعارض ما أراده رب البشر، من تعبيد القلب ولهجه بذكر الله، وصون الأعراض، وحفظ الفرج، وغض للبصر، أنت تدرك أيها اللبيب أن مؤدى الغناء يضاد ويحاد الله ورسوله، ويناقض مراد الله في قوله: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور:٣٠]، ثم أنت تدرك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النور:١٩]، وتعلم مدى نصيب هذه الملاهي والمعازف والكلمات والصور مما تعنيه هذه الآية.

ثم أخي الغالي.. إذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن في قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء بسماعهم، فإنه من المعلوم، أن من أحب حبيبًا كان كلامه وحديثه أحب شيئا إليه، فأين أنت من محبة القرآن، وكم نصيبك منه؟

إن كنــــت تــــزعم حبـــي ... فلِـــم هجـــرتَ كتـــابي

أمـــا تأملـــتَ مـــا فيـــه ... مـــن لذيـــذ خطـــابي

وإن حب القرآن وحب الغناء في قلب مؤمن لا يجتمعان أبدًا.. يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حـب الكتـاب وحـب الحـان الغنـا ... في قلـب عبـد لـيس يجتمعـانِ

ثقـل الكتـاب علـيهم لمـا ... رأوا تقييـده بشـرائع الإيـمانِ

واللهـو خـف علـيهم لمـا رأوا مـا ... فيـه مـن طـربٍ ومـن ألحـانِ

يـا لـذة الفسـاق لسـت كلـذّةِ ... الأبـرار في عقـلٍ ولا قـرآنِ

فإذا وجدت شهوة وميلًا للغناء في قلبك ورغبةً ومحبة لسماعه، فارجع على الفور وتفقّد مصحفك، ستجد أن ذلك الميل لم يكن إلا بسبب ما يعيشه قلبك من الجدب والقحط وعدم الارتواء من كلام الله، فشغله الشيطان بالباطل من كلام الناس، حين لم ينشغل بالحق من كلام الله، وأعيذك بالله أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ثم اعلم أن المعازف قرينة اللهو واللغو والغفلة عن ذكر الله، وأهلها لا يسلمون من التعدي على حدود الله، وذلك نذير شؤم على الفرد والمجتمع، فعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال: «إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور»[1]، وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليشربنّ ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رءوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»[2].

أما تخشى سوء الخاتمة فإن من أسبابها الإصرار على الذنوب فلربما غلب عليك حب الغناء عند سكرات الموت فيظفر بك الشيطان عند تلك الصدمة، ويتخطفك عند تلك الدهشة، عياذا بالله من ذلك، وإذا كان الشيطان قد استطاع عليك وأنت في حال قوتك

(١) السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٩٣).

(٢) صحيح ابن ماجه (٣٢٦٣).

ونشـاطك، فكيـف في حـال ارتخـاء اليـدين وامتـداد السـاقين وثقـل اللسـان، نسـأل الله السلامة والعافية.

الرسالة الثانية: إلى الذين يروّجون للأغاني الماجنة والحفلات التي لا تخلـو مـن انحـلال وسفول في الصوت والصورة، أما إنكم قد ساعدتم عـدوكم في إفسـاد أبنـاء أمـتكم، شـبابا وصغارا، ذكورا وإناثا، في نشر الرذيلة بينهم، فكم من أعراض قد انتهكت بسبب مـا يهيجـه الغناء؟!! وكم من شباب ضاعوا بسبب الغناء؟! وكم من أموال قد أهدرت؟!! وفضيلة قـد تلاشت؟ وكم من خصال رفيعة قد ضُيعت؟!! وكم من سجايا حميدة قد أُهملت؟! فلا تنشـر شيئًا يرجع عليك بالإثم عند الله تعالى، حتى وإن ابتُليت بذنب فلا أقل من أن تندم على فعله، وتسلم من مضاعفته بالدلالة عليه.

قال عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجـر مـن عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا»[1]، فلماذا تحمل نفسك ما لا تطيق؟! يقـول الله جَلَّجَلَالُهُ عـن قـوم: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥]، وقال تعـالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

الرسالة الأخيرة، للشباب والدعاة والآباء والمربّين، إنكم مطالبون بأداء الأمانـة، وتربيـة الجيل، بنين وبنات، وبذل الجهد، وإفراغ الوسع في تعويد الناشئة مكارم الأخلاق، ومحاسـن الطباع، وإسماعهم ما يغرس فيهم الفضيلة والأدب، من حسن الكلام، وجيد الشعر، وبليـغ الحكم، ليرضعوا من صـغرهم الصـدق والأمانـة، والعفـة والصـيانة، والنخـوة والشـهامة، والكرم والمعروف، لا أن يعتادوا على الفحش ومرذول القول وسيء الطبـاع، وإن الله سـائلٌ كل راعٍ عما استرعاه، حفظ ذلك أم ضيّع؟

(١) صحيح ابن ماجه (١٦٩).

عـوّد بنيـك عـلى الآداب في الصـغرِ ... كـيما تقـرّ بهـم عينـاك في الكـبرِ

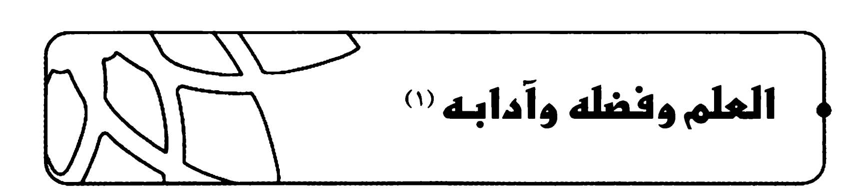
فإنما مثل الآداب تجمعها في عنفـوان ... الصـبا كـالنقش في الحجـر

وإن كل أب وأم، ومعلم ومُرَبٍّ، يدرك ما لهذه الأغاني والملاهي من أثر عكسـي، وتأثير سلبي على منظومة الآداب والقيم، والخصال والسجايا، ومن هنا ندرك أنه من الأهمية بمكان لفت نظر الشباب والصغار إلى أفضل القدوات، وتكرار القصـص والمواقـف لخيرة النـاس وقادة الأمم وسادات الصالحين والعلماء الذين لهم لسان صدق، ومنشـور فضـل، وصـفحة ناصعة في التاريخ، لئلا تنحرف بوصلة الناشئة فيبحثوا عن القدوات في غير أماكنها، ويلهثوا وراء كل ناعق، ممن لم يكن له أثر علمي أو عملي، ديني أو دنيـوي، فيعـود بـالكرة الخـاسرة، والصفقة البائرة، يقول أحد العلماء: (كان من أهم أسباب انصرافي للعلم والجد والنبوغ، تلك القصص التي كانت تسردها عليّ جدتي قبل نومي من السيرة النبويـة، والمواقـف المحمديـة، وأنا في سن السابعة من عمري!).

ما أجمل أن يُعوّد الصغير، ولدًا كان أو بنتًا، على حب الله، وترتيل كتاب الله، والتشـرُّب لسيرة رسول الله، وقصص الصحابة الكرام، والأتقيـاء الأنقيـاء، والعلـماء والخـبراء، لينشـأ صالحا مصلحًا، نافعًا لنفسه وأهله ومجتمعه وأمته...

هذا وصلوا رحمكم الله على البشير النذير، والسراج المنير...





العلم وفضله وآدابه [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، له الحمد على نعمه الظاهرة والباطنة علمنا بعد الجهل وجعل لنا سمعنا وأبصارًا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيءٍ عليم لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، بيده الضَرُ والنفع، والخفضُ والرفع، وبيده الملك ومقاليدُ السماوات والأرض وهو عليمٌ بذات الصدور.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أزكى البرية، ومُعَلِّمُ الإنسانية ختم الله به النبوةَ والرسالة، وأعطاه الحوض والكوثَر والشفاعة صلوات الله وسلامة عليه وعلى آله وأصحابه وجميع السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان.

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ:

فيا أيها الأخوة المسلمون: اتقوا الله عَزَّوَجَلَّ واخشوه سبحانه فإن هذا هو الفوز والفلاح وهو العلم والنجاة، بالخشية والتقوى يحصل الرزق والفرج، وتكفيرُ السيئات ورفع الدرجات.

أيها المسلمون:

إن أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان ولهذا قرن الله سبحانه بينهما في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦].

---

(١) صالح بن عبدالرحمن الخضيري.

وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١][1].

إن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع للعلم ومؤتم به فكل عملٍ لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه كما قال بعض السلف:

(من عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلح). اهـ[2].

ولقد أخبر الله سبحانه بأن العلم النافع سبب لخشيته سبحانه فقال -جَلَّ ذكره-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

فأهل العلم العاملين هم أكثر الناس خشية لله وتعظيمًا له وهذه هي ثمرة العلم والفقه.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الفقيه مَنْ يخاف الله عَزَّوَجَلَّ).

نعم، فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يَقذف في القلب يفهم به العبدَ الحق ويميز به بينه وبين الباطل.

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليس طلب العلم فلان عن فلان إنما طلب العلم الخشية لله عَزَّوَجَلَّ)، وقال أيضًا: (إنما يطلب العلم ليتقى الله به فمن ثم فُضِّلَ. فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء، إن العلم إن لم ينفعك ضرك).

إنه لا شيئًا أفضل من طلب العلم وتعليمه لمن خلصت نيته لله وصلح قصده.

أما من تعلم العلم للريا والمفاخرة والوصول إلى المناصب وأكل الأموال والتطاول على الناس فهو متوعّد بوعيد مناسب لقصره السيء.

روى أبو داود وابن ماجه عنه ﷺ قال: «من تعلّم علمًا مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها[3].

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص١٣٨).

(٢) مفتاح دار السعادة.

(٣) صحيح الترغيب (١٠٥).

ومن هذا الفعل ونحوه حَذّر أسلافنا فقال سفيان يوصي رجلًا: (إياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله أو ينشر قوله فإذا ترك ذاك منه عرف فيه، وإياك وحب الرئاسة فإن الرجل يزهد في الدينار والدرهم وتكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء والسماسرة والحمار).

ولهذا ضرب الله في القرآن مثلًا لعالم السوء في موضعين شَبهه في أحدهما بأخس الحيوانات فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

وقال في الآخر: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

أيها المسلمون: تعلّموا علم القرآن والسنة واعملوا بما تعلّمتم فإن المرء لا يزال عالمًا ما طلب العلم واجتهد في تحصيله فإذا ظن أنه قد استغنى من طلب العلم وجمعه فقد جهل وَدَبَّ إليه داء الغرور الكاذب، والعجب المهلك والعاقل لا يمنعه من طلب العلم كبر السن أو الخجل فإن هذا من أساليب الشيطان والعلم لا يقاس بالعمر ولا بالمنصب ولكنه نورٌ يقذفه الله في قلب من شاء وعلى هذا فلا يجوز للمرء أن يحتقر من هو أصغر منه سنًا إذا وهبه الله علمًا بل عليه أن يتعلم منه وأن يجلس إليه وإن يسأله وأن يجانب الحسد والاحتقار فإنهما خلقان مذمومان فهكذا يصنع الجهل بأصحابه.

عباد الله: مَنْ عرف العلم وفضله لم يقض نهمته منه، ولم يشبع من جمعه طول عمره كيف لا وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٤].

كيف لا؟ وقد استشهد الله سبحانه بأولي العلم على أجل مشهودٍ عليه وهو توحيده فقال عَزَّ من قائل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

وطلب العلم الشرعي بصدقٍ وإخلاص من أسباب دخول الجنة فلقد صَحَّ عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهَّل الله له طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في جوف الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر»[١]

وقوله: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» معناه: أنها تدعو له وتعطف عليه[٢] وتتواضع لطالب العلم تعظيمًا له أو أنها تنزل عند مجالس العلم وتترك الطيران[٣].

ومَنْ أراد الله به خيرًا وَفّقه لتعلم ما ينفعه ويُبصره بأحكام دينه.

وروى[٤] عنه ﷺ قال: «مَنْ يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

بالعلم يصلح الإنسان زيفه وفاسده، ويرغم عدوَّه وحاسده ويقوّم عوجه ومَيْلَه ويصحح نيته وأملَه.

ومن وصايا لقمان لأبنه قال:

(يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب الميتة بالحكمة كما يحي الأرض الميتة بمطر السماء).

إن من العلم أيها المسلمون: ما هو واجب لا عُذر لأحدٍ بتركه كمعرفة الأحكام الضرورية من العقائد والعبادات والمعاملات ومنه ما سوى ذلك واجب كفاني ينوب فيه بعض المسلمين عن بعض.

---

(١) صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) هذا ما ذهب إليه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص ٥، ٦).

(٣) ذكره الخطابي كما في منهاج القاصدين.

(٤) رواه البخاري (٧٣١٢) ومسلم (١٠٣٧).

أيها الأخوة:

إننا ونحن نستقبل عامًا دراسيًا جديدًا ليحسن بنا أن نتذكر سرعة مرور الليالي والأيام وأنها هدمٌ لأعمارنا، وتقريبٌ من آجالنا فما أسرع مرورَ الأيام وانقضاءَ الشهور والأعوام وإن في هذا لذكرى لكل لبيبٍ حازم بأن لا يَغْتَرَّ بشباب ولا بصحة إن الأيام قُلَّبٌ ن والموتُ يأتي بغتةً، ورأس مالك هو عملك الصالح ممن قَدّم شيئًا عليه ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤].

أيها المدرسونَ والطلابُ والآباء: ليتذكر كل منكم واجبه، وليجاهد نفسه على أداء الأمانة بإخلاص وإن من القيام بأمانة العلم:

مجاهدةَ النفس على العمل به فهذا هو ثمرة العلم وذلك بلزوم التواضع وإساءةِ الظن بالنفس، والمحافظة على الجمعة والجماعة، وبر الوالدين والحرص على نوافل العبادات والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون ممن فتح الله بصيرته وأنار قلبه وزاده علمًا وهدى ومن عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم، وحفظ علمه من النسيان، وأصبح كلامه وتوجيهه مقبولًا.

أَمَّا من كان يجيد التوجيه بالقول فقط وفعله ومظهره يخالف ذلك فإنما يؤبخّ نفسه، ويقيم الحجةَ على شخصه وقد استعاذ النبي ﷺ: «من علمٍ لا ينفع»[1].

إذا العلم لم تعمل به كان حجةً	عليك ولم تُعذر بما أنت حاملُ
فإن كنت قد أبصرت هذا فإنما	يصدِّق قول المرء ما هو فاعلُ

فعلى مَنْ تصدّر لتعليم أبناء المسلمين: إن يتقي اللهَ فيهم، وأن يتعاهدهم بالتوجيه وأن يغرس في قلوبهم العقيدة الصحيحة وأن يذكرهم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه وما فيها من دروسٍ وعبرٍ وأن يكون قدوة لطلابه في مظهرة ومخبره وأن يحذر طلابه -دائمًا- من جلساء السوء ومن فتن الشهوات والشبهات فإنهم عنده أمانة والله المسئول أن يوفق أهلَ العلم

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

وشبابَ الأمة وجميع المسـلمين إلى أحسـن الأقـوال والأعـمال وأن يـرزقهم الفقـه في الـدين والبصيرةَ فيه وأن يعيذ الجميع من فتن الشبهات والشـهوات إنـه هـو السـميع العلـيم هـذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله لا شيء قبله ولا شيء بعده.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى اللهُ وسلم عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

العلم مبلغُ قومًا ذروة الشرفِ ... وصاحب العلم محفوظ من التلفِ
يا صاحب العلم مهلًا لا تدنسه ... بالموبقات فما للعلم من خلفِ
العلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرفِ

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (تَدْرِي مَا العِلْمُ النَّافِعُ؟ هوَ ما نزلَ بِهِ القُرآن، وَفَسَّرهُ الرَّسُولُ ﷺ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَلَمْ يأتِ نَهْيٌ عنْهُ).

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ طَلَبَ العِلْمَ خَالِصًا، يَنْفَعُ بِهِ عِبَادَ الله، وَيَنْفَعُ نَفْسَهُ؛ كَانَ الخُمُولُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ التَّطَاوُلِ، فَذَلِكَ الذِي يَزْدَادُ فِي نَفْسِهِ ذُلًّا، وَفِي العِبَادَةِ اجْتِهَادًا، وَمِنَ الله خَوْفًا، وَإِلَيْهِ اشْتِيَاقًا، وَفِي النَّاسِ تَوَاضُعًا، لاَ يُبَالِي عَلىَ مَا أَمْسَى وَأَصْبَحَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا).

ومما جاء في الحرص عَلَى العِلْمِ: قَالَ أَبُو الوَفَاءِ بن عَقِيل: (عَصَمَنِي اللهُ في شَبابِي بأنواعٍ مِنَ العِصْمَةِ وَقَصَرَ مَحَبَّتِي عَلَى العِلْمِ وَماَ خاَلَطْتُ لَعَّابًا قَطُّ، ولاَ عَاشَرْتُ إلاَّ أَمْثَالِي مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ وَأَنَا فِي عَشْرِ الثَّمانِين أَجِدُ الحِرْصَ عَلَى العِلْمِ أَشَدّ مِمَّا كُنْتُ أَجِدُهُ ابْنَ العِشْرِين).

قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: (لاَ تكون عَالِمًا حتَّى تكُونَ فيكَ ثلاث خِصالٍ: لاَ تَبغِي عَلىَ مَنْ فوقكَ، وَلاَ تحقرْ مَنْ دُونَكَ، وَلاَ تأخذْ عَلىَ عِلْمِكَ دُنْيَا).

فاتقوا الله رحمكم الله واجتهدوا في تَعلُّم الأحكام الشرعية عن طريق السؤال والمذاكرة، والجلوس إلى أهل العلم في المساجد والمعاهد والجامعات وعن طريق القراءة والاستماع فلقد توفّرت في هذا العصر بحمد الله وسائل التعلّم التي كان يرحل من أجلها سلفنا الصالح شهورًا وسنوات، ويقطعون الفيافي والقِفار، ويتعرضون للجوع والأخطار ومَنْ أراد تحصيل



علمٍ غزير فليهجر الراحةَ وتضييعَ الأوقات فإن العلم لا يستطاع براحة الجسد، وهو لا يعطيك بعضَه حتى تعطيه كُلَّك.

فيا هذا: إن كنت ترغب في عظيم الأجر وسمو القدر ونباهة الذكر وارتفاع المنزلة بين الخلق وتلتمس عزًا لا تثلِمُهُ الليالي والأيام فعليك بالعلم الشرعي فاطلبه في مظانه تأتك المنافع عفوًا واجتهد في تحصيله مدة من الزمن ثم تَذَوّقْ حلاوة الكرامة مدة عمرك وتمتّعْ بلذة الشرف فيه بقية أيامك واسْتَبِقْ لنفسك الذكرَ به بعد وفاتك(١).

ما الفخرُ إلا لأهل العلم إنهُمُ ... على الهدى لمن استهدى إدلاءُ

وقدر كلِّ أمرئٍ ما كان يحسنُهُ ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

فَفُز بعلمٍ تعشْ حيًا به أبدًا ... الناسُ موتى وأهل العلم أحياءُ

أيها الطلاب: تأدبّوا بآداب العلم وأقرءوا ما كتب عن فضل العلم وآداب الطلب، واعرفوا للمعلِّم قدره، واحترموا مَنْ تتعلمون منه واحتملوا قسوته للمصلحة:

من لم يحتمل ذُل التعلّم ساعةً ... تجرع كأس الجهل طول حياته

وحذارِ من العجب والكبر فهما خلقان ذميمان ولكنهما في أهل العلم وطلبته أقبح وأشدُّ ذمًا.

والعلم حربٌ للفتى المتعالي ... كالسيل حربٌ للمكان العالي

وعلى طالبِ العلم أن يثبّت علَمه بالعمل ومما أُثر عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «هتف العلم بالعمل فإن إجابة وإلا أرتحل».

وطالب العلم قدوةٌ لغيره فعليه أن يصون نفسه على مجالس المنكر ومن يهتكون أستار الأدب، ويجتمعون على اللهو المحرم.

---

(١) الحث على طلب العلم لأبي هلال العسكري.

أيها الآباء: شجعوا أبناءكم على التحصيل العلمي وحفّظوهم كتاب الله فإنه أساس العلوم، وحَذِّروهم من جلساء السوء، واسألوا عنهم في المدرسة وامنعوا عنهم وسائل الشر والفساد، وادعوه بالصلاح والهداية لتقرَّ أعينكم بهم وتنتفع الأمة منهم.

وإياكم أن تركّزوا في أذهان الطلاب والطالبات بأن الرزق والوظيفة من الدراسة فحسب، بل علّموهم التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ فكم من دارس مقير وكم من عامي غني.

إن الدراسة سببٌ لطلب العلم ورفع الجهل لمن استطاعها ووفّق إليها، أمَّا من لم يستطيع مواصلة الدراسة ووجدَ له عملًا فلينصرف إليه بعدما أخذ من العلم الشرعي ما يقيم به دينه كما قيل:

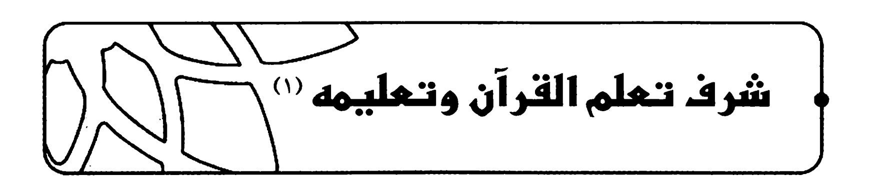
إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيعُ

أن من أولياء الأمور من يقيس أبناءه بدراستهم لا بمحافظتهم على صلاتهم.

لذا ترى اهتمامهم بدراسة الأولاد وأعظم من اهتمامه بصلاحهم وصلاتهم وعفتهم وهذا انتكاس خطير وبلاءٌ كبير، فنعوذ بالله من علمًا لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع.

اللهم صل على محمد وآله وصحبه.





شرف تعلم القرآن وتعليمه (1)

الخطبة الأولى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (4) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:1-5].

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريكٌ في الملكِ، ولم يكن له وليٌّ من الذُّل وكبرهُ تكبيرًا، وأشهدُ أنّ سيدنا محمدًا عبدُ الله ورسولُهُ، وصفيه من خلقه وخليله، بعثهُ ربُّهُ مُبَشّرًا ونذيرًا، وهاديًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلًا كبيرًا، وأنذر الكافرين من النار ساءت مستقرًا ومصيرًا، فالصلاةُ والسلام عليك يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله؛ عدد حبّات المطر، وعدد أوراق الشجر، وعدد أنفاس أهلِ الجنة، وكلما ذكَرَكَ الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، أما بعد:

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم وطاعته، وأنهاكم ونفسي عن عصيانه ومخالفة أمره ونهيه فان الله تعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:102].

أيها الكرام: لا يخفى على كل فرد منكم ما يتبوأه العلم والتعليم في الإسلام من درجة عظيمة، ومرتبة سامية كبيرة، ترتفع به الأقدار، وتحاز به المغانم الكبار؛ يقول الله جلّ وعلا في محكم كتابه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(1) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

[المجادلة:١١]، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «العلماء فوق المؤمنين مئة درجة، ما بين الدرجتين مئة عام»(١)، وقال وهب بن منبه: (يتشعب من العلم الشرفُ وإن كان صاحبه دَنِيًّا، والعزُّ وإن كان صاحبه مهينًا، والقرب وإن كان قصيًّا، والغنى وإن كان فقيرًا، والمهابة وإن كان وضيعًا)(٢).

والعلم طريق إلى الجنة معبد، ودرب للفلاح ممهد أخبر بذلك المصطفى ﷺ عندما قال: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنّة»(٣).

وفضل العلم حقيقة، وشرفه أمهر وأشهر من أن يذكر، وأوضح من أن ينكر، ويكفي في ذلك النظر، وكيف لا يكون العلم بهذا الفضل وفيه حفظ دين الرسول، وكيف لا يكون بهذه المنزلة الرفيعة وبسببه يحصل كل خير مأمول.

إن العلم لنور يستضيء به العبد فيعرف كيف يعبد ربه، وكيف يعامل عباده، فتكون مسيرته في ذلك على علم وبصيرة.

ولقد حضت هذه الشريعة الغراء ودعت إلى تعلم العلم وتعليمه -إذ هو منبع كل فضيلة، ومنبت كل فسيلة- يقول النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٤).

وإن من أشرف العلوم تعلمًا وتحفظًا وتفهمًا هو ما حث الله عَزَّوَجَلَّ، وحث رسوله ﷺ على تلاوته وتدبره وتعلمه، ورتب على ذلك المقامات الكريمة، والمنازل السامقة الرفيعة ذاك هو: القرآن الكريم الذي قال الله في أوصافه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، وقال أيضًا: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (٢٧).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (٣٤).

(٣) رواه مسلم (٤٨٦٧).

(٤) رواه ابن ماجه (٢٢٠)، وصححه الألباني في صحيح (١/ ٢٩٦).

وإذا كانت العلوم تفضل لأنها تخدم كتاب الله، فما بالك وأنت تتعلم هذا الأصل الأصيل، وهذا النور القويم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

عبادَ الله: لقد أنعم الله تبارك وتعالى علينا بالقرآن العظيم الذي فيه نبأُ من قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزل، من تَرَكَهُ تجبُّرًا قصمهُ الله، ومن ابتغى الهدى في غيرِهِ أضلّهُ الله، هو حبلُ الله المتين، ونورهُ المبين، والذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم الذي لا تزيغُ بِهِ الأهواء، ولا تلتبسُ بِهِ الألسنةُ، ولا تتشعّبُ معهُ الآراء، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يَمَلُّهُ الأتقياء، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تَنْتَهِ الجنّ إذ سَمِعَتْهُ أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١]، من عَلِمَ عِلْمَهُ سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عَمِلَ به أُجِر، ومن دعا إليه هدى إلى صراطٍ مستقيم.

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أحب القرآن أحب الله ورسوله»، ويقول عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم».

تقرأ المصنفات، وتطالع المؤلفات؛ فإذا كتاب الله الأكمل والأجمل، تصادفك الشوارد، وتلهيك الفرائد؛ فإذا القرآن العظيم الأحسن والأنبل، يخاطب القلب فيخشع، والعين فتدمع، ولو نزل على جبل لتصدع يقول جل شأنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

أتى على سفر التوراة فانهزمت ... فلم يفدها زمان السبق والقدم

ولم تقم له للإنجيل قائمة ... كأنه الطيف زار الجفن في الحلم

فهو أشرف دستور، وأبهى نور، ولذا جاء الأمر بالاعتصام به يقول سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، وفي هذه الآية يأمُرُنا الله تبارك وتعالى أن نتمسك بحبل الله، وفي التفسير إنه القرآن، وإنما سمي به لأن المعتصم به في أمور دينه يتخلص به من عقوبة الآخرة، ونكال الدنيا، كما أن المتمسك بالحبل ينجو من الغرق والمهالك.

أيها المؤمنون: إن الذي نلاحظه في أنفسنا والمسلمين عامة هو قلة الاهتمام بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والإعراض عنه، والاستغناء بكتب البشر عن كلام رب البشر، واتسعت فجوة الصدود والإعراض إلا ممن رحم الله - وقليل ما هم -، وضعفت الهمم عن حفظ القران وتدبره، وكثرة المشاغل حتى بين طلبة العلم فلا تجد إلا القليل النادر ممن يحفظ القرآن، أو يحفظ بعضه، وإذا كلف أحدنا بحفظ شيء من القرآن استصعب ذلك حتى كأن جبال الدنيا على كاهله، ومعنى ذلك هزيمة الإسلام والمسلمين، وذهاب الإيمان، فوالله لا نصر ولا تمكين ولا عزة إلا بهذا القرآن، والله متى تركناه ونسيناه ابتلينا بكل خزيٍ، وفضيحةٍ في الدنيا والآخرة.

يقول أحد أعداء الإسلام: (من لي بمن يخرج القرآن من صدور أبناء الإسلام)، فيرد أحد الأشقياء ويقول: نأتي إلى المصحف فنمزقه: قال: (لا، لا ينفع، نريد أن نمزقه من قلوبهم، وقلوب أبنائهم).

ويقول عدو آخر للإسلام: (ثلاث ما دامت عند المسلمين فلن تستطيعوا إخراجهم من دينهم: القرآن في صدورهم، والمنبر يوم الجمعة، والكعبة التي يرتادها الملايين من المسلمين، فإذا قضي على هذه قضي على الإسلام والمسلمين)، ولذلك جاء أعداء الإسلام يهودٌ وأذنابهم من شيعة وباطنيين ورافضة؛ إلى القرآن فهونوا من شأنه، وقالوا: إنه مختلق، بل ادَّعُوا نقصه وتحريفه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]، وأتوا إلى منبر الجمعة فأرادوا تعطيله؛ ليتحول إلى مناقشة قضايا تافهة لا تمت إلى الإيمان بصلة لكنهم يكيدون ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٢٥].

عباد الله: لن نغض الطرف عن أمل يحمله الواقع في طياته، فهناك عودة حميدة من أبناء هذه الأمة وشبابها صوب القرآن، تبشر بفجر للإسلام قادم، وفخر للأمة ماثل، ولا أدل على ذلك من انتشار حلق القرآن في شتى الأصقاع، ومختلف البطاح والبقاع من هذه المعمورة، لكن ما زال هذا العدد ضئيلًا إذا ما قارناه بأمة تعددها المليار والنصف، فلهولاء المتقاعسين ممن لم يكن لكتاب الله من حياتهم حظ ولا نصيب هذه الكلمات، عساها أن تحرك ما سكن،

وتوقظ ما ركد ورقد؛ ليعودوا للنبع الصافي، والكتاب الهادي، وليجددوا عهدهم مع القرآن، وهي لأولئك الأشاوس الذين تشرفت حلق القرآن بانضمامهم إليها، ليواصلوا مسيرة الهدى بين أفياء القرآن، ومراتع كلام المنان أقول:

لقد أثنى الرب سبحانه وتعالى على من عاش مع كتابه فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩]، وأولى نبيكم محمد ﷺ هذا القرآن عناية خاصة لمعلمه ومتعلمه، فجعل خير عباد الله معلم ومتعلم له جاء من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1]، أتدري لمه؟ لأنهم التقوا على أشرف مائدة، ومع أقدس كتاب ألا وهو القرآن العظيم، فإذًا أشرف الوظائف بدلالة هذا الحديث هي الانشغال بتعليم القرآن وتعلمه، ومن أجل هذا الحديث قعد الإمام الجليل أبو عبد الرحمن السلمي أربعين سنة يقرئ الناس القرآن بجامع الكوفة مع جلالة قدره، وكثرة علمه، ولما سئل سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ أيها أفضل الجهاد أم تعليم القرآن؟ فقال: (تعليم القرآن)، واستدل بقوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

بل كان ﷺ يولي القرآن الكريم اهتمامًا عظيمًا جدًا، وعلى هذا ربى أصحابه الغر الميامين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأول ما عمد إليه النبي ﷺ في إبلاغ دعوته الكبرى هو تعليم القرآن للداخلين في هذا الدين، فكان مبعوثوه إلى مختلف الجهات أول ما يقومون به إقراء الناس القرآن، وكتب النبي ﷺ لعمرو بن حزم حين وجهه إلى اليمن كتابًا أمره فيه بأشياء منها: أن يعلم الناس القرآن، ويفقههم فيه[2]، وروى البخاري عن أبي إسحاق عن البراء قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم؛ فجعلا يقرئاننا ويحفظاننا القرآن، وكان الرجل من المسلمين إذا هاجر من المدينة دفعه النبي ﷺ إلى رجل من الحفظة ليعلمه

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٩).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٥).

القرآن»[1]، ولما فتح النبي ﷺ مكة ثم أراد الرجوع إلى المدينة؛ استخلف عتاب بن أسيد، وخلَّف معه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرئهم القرآن، ويفقههم في دينهم.

وأوصى النبي ﷺ بإكرام أهل القرآن إكرامًا خاصًا ومتميزًا، حتى إنه ﷺ سماهم اسمًا ينبض بأعظم المعاني حيث سمى أصحاب القرآن وأهل القرآن «أهل الله وخاصته» جاء من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إن لله آهلين من الناس» قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»[2].

وكان النبي عليه الصلاة والسلام كثيرًا ما يميز بين الناس، ويرتبهم ترتيبًا يخضع لحفظ كل منهم من القرآن الكريم، ففي إمامة الصلاة يقول: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»[3]، حتى عند دفن الموتى كان يقدم أكثرهم قرآنًا، وعندما اختار أميرًا على مجموعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اختار ذلك الصحابي الذي كان يحفظ سورة البقرة وقال: «أنت أميرهم»، وقال ﷺ: «إن من إجلال الله - يعني: من علامات تعظيم الله سبحانه وتعالى وإجلاله - إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[4]، ففضل الاشتغال بالقرآن الكريم تعلمًا وتعليمًا لا يدانيه فضل.

وينبغي لنا يا كرام أن نتميز باهتمامنا بالقرآن العظيم لما شرف الله به حامله يقول النبي ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»[5].

واسمع أي رتبة يحظى بها حامل كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يقول النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارتق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[6]، فإذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فاعرف منزلة القرآن في قلبك، إن كنت تسمع القرآن فتفرح به وتستأنس

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣١).

(٢) رواه ابن ماجه برقم (٢١١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٨٠).

(٣) رواه مسلم (١٠٧٨).

(٤) رواه أبو داود (٤٢٠٣)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: (حسن صحيح) (٣٤٣).

(٥) رواه مسلم (١٣٥٣).

(٦) رواه الترمذي (٢٨٣٨)، وأبو داود (١٢٥٢)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (٥/ ٢٨١).

فاعلم أن الله يحبك، وإن كانت الأخرى فتلك علامة الشقاء، فإن القلب الذي لا يعي شيئًا من القرآن قلبٌ مخذول ملعون، محروم مغلوبٌ عليه.

والقرآن - عباد الله - يغني صاحبه عن كل حسب ونسب جاء في بعض التفاسير لقول النبي ﷺ: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا»[1] أن الإنسان إذا نال شرف القرآن فعليه أن يستغني به عما عداه، عليه ألا ينزل إلى مرتبة التنافس مع الناس في الدنيا، وألا يذل نفسه وقد حمل القرآن الكريم، وأن يكون عزيزًا، فالقرآن يغني صاحبه عن كل حسب ونسب، ويكفي أنك إذا شرفت بنيل إجازة من أئمة القراءة فقد حزت شرفًا عظيمًا لا يدانيه شرف، ويكفي أنك تحمل سلسلة تتدرج من شيخك إلى شيخ شيخك، إلى التابعين، إلى الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم إلى جبريل عليه السلام، ثم إلى رب العزة، فكأنه حبل طرفه عندك والطرف الآخر عند الله عز وجل ، الله أكبر فهل يعلم أحد شرف ونسب أعظم من هذا النسب؟.

يا حاملي هذا القرآن تضلعوا ... ما أنتم وسواكم بسواء

ويقول عليه الصلاة والسلام من حديث أبي أمامة الباهلي: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»[2]، وفي لفظ «اقرءوا سورة البقرة وآل عمران، اقرءوا الزهراوين فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أوكأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرقان من طيرٍ صواف، تحاجان عن أصحابهما»[3]، فيا من أراد أن يستظل بذاك الظل في يوم الشمس والكرب والخوف؛ استظل بآيات الله تبارك وتعالى.

وها هو ﷺ يستثير الهمم؛ لتطلب الأجر والثواب من عند باريها فيقول: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول» ﴿الٓمٓ﴾ «حرف، ولكن ألف

(١) رواه البخاري (٦٩٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه مسلم (١٣٣٧).

حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1] فعُدَّ يا عبد الله واقرأ واحتسب الأجر عند الله، فإنك تأتي يوم القيامة وقد نصب لك في الجنة سلمًا بدرجات، يقول الله لك - بلا ترجمان -: «اقرأ وارتق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» فمن كان يقرأ من القرآن كثيرًا رقى حتى يصبح كالكوكب الدري في سماء الجنة، ثم هم على منازل، وهم درجات عند الله، والله بصيرٌ بما يعملون.

عباد الله: من حفظ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحي إليه، لا حسد في الدنيا ولا في مناصبها ولا في أموالها إلا في تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وفي صدقات توصلك إلى العزيز الجبار.

ومن تأمل حالنا وجد حقيقة تقصيرنا في الاهتمام بحفظ القرآن ومدارسته، فلا بد من عودة صادقة إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قبل أن يفوتنا قطار المكرمات والفضل، نسأل الله أن يشرفنا بحفظ كتابه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا إنه ولي ذلك والقادر عليه، قلت قولي هذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٣٥).

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله، الحمدُ لله الصادقِ في القِيل، الهادِي إلى الحقِّ بالحُجَّة والدليل، أحمدُه سبحانه وأشكرُه على إنعامِه الوافِر وفضلِه الجَزيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو حسبِي ونِعمَ الوكيل.

وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه المُؤيَّدُ بمُعجِزات التنزيل، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آلِهِ وأصحابِه سارُوا على النَّهج واستقامُوا على السبيل، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: جاء في تفسير ابن أبي حاتم أنه ﷺ مر في سكة من سكك المدينة فسمع عجوزًا تقرأ، وهي تردد من وراء الباب في الليل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١] تقف عندها وترددها، وتقول: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١]، والخطاب للرسول ﷺ فوضع رأسه يبكي ويقول: «نعم أتاني، نعم أتاني»(١).

أيها الكرام: هؤلاء العجائز فأين رجالنا من هذه العجوز في تدبرها وتهجدها وتلاوتها؟ أين الرجال، وأين شباب الأمة الذين أعرض الكثير منهم - إلا من رحم الله - عن معايشة هذا القرآن؟ إننا أمة خالدة، لا خلود لنا إلا بكتابنا العظيم، ولا بقاء لنا إلا بشريعة نبينا ﷺ، فإن هجرناه وتركناه؛ ضعنا والله، وأخذتنا المبادئ الهدامة، واستولت علينا الأمم الحاقدة التي تحقد على بلاد المسلمين، وعلى شريعتهم ومقدساتهم، فلا ملجأ لنا إلا الله، ولا كافي لنا إلا الله، وأي حلٍ آخر فمعناه الخسارة والندامة، ولذلك يقول المستشرق المجري جولد زيهر كما أسلفنا: (لا يستطيع أن يُغلب هؤلاء العرب ما دامت فيهم ثلاث - وهو يعني المسلمين فلا عروبة عن الإسلام، ولا إسلام إلا لمن أسلم وجهه لله -: صلاة الجمعة، والكتاب العظيم - كتاب الله -، وحرم القبلة الشريف)، فإذا بقيت هذه الثلاث، بقينا إن شاء الله، إذا آمنا بشرع الله، وأسلمنا قيادنا لله تبارك وتعالى.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم - تفسير سورة الغاشية.

يا أيتها الأمة الخالدة! يا أبناء من وزع الهداية على الإنسانية، يا أحفاد من نشروا لا إله إلا الله، وساروا بها مهللين ومكبرين مشرقين ومغربين: إن هذه الأمة أمة ريادة، تعطي الناس من القرآن ولا تأخذ منهم شيئًا، وتوجه الناس إلى الحق ولا تتوجه بهم.

يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث - والي عمر بن الخطاب على مكة - لقي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعسفان، فقال له عمر: «من استخلفت على أهل الوادي؟» - لأنه كان أمير مكة من قبل عمر الخليفة - قال: تركتها لابن أبزى، قال عمر: «ومن ابن أبزى هذا؟» قال: مولى يا أمير المؤمنين، قال: «ثكلتك أمك، ومولى أيضًا»، قال: يا أمير المؤمنين إنه عالمٌ بكتاب الله، عالمٌ بالفرائض، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»،[1] فصلى الله عليه وسلم من معلم، لقد جربنا أطوارنا مع التاريخ، كلما تمسكنا بالقرآن انتصرنا، وكلما تركناه خذلنا، وفي القرن السابع لما ترك وتُرِكَ العمل به، وأخلي العمل به؛ جاء الرافضة، ومن وراءهم من التتر المغول، مع جنكيز خان، فقتلوا في ثمانية أيام ثمانمائة ألف، ودمروا مساجدنا، وأحرقوا مصاحف، وقتلوا أبناءنا ونساءنا.

لما أضعنا هدى القرآن حلَّ بنا ... ما حلَّ حتى عن الأقصى تلهَّينا

وضيعتنا شعارات نرددها ... من جانب الغرب جاءتنا لتلهينا

لو عاد فينا أبو حفص لأنكرنا ... وقال لستم بأحفاد الميامين

لقد كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ من الصحابة ومن بعدهم أشد الناس حرصًا على تعلم القرآن وإتقانه والعمل به، كان أحدهم يمكث في تعلم السورة من القرآن السنين الطويلة، فابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مكث في تعلم سورة البقرة ثمان سنين، وقيل: مكث اثنتي عشرة سنة، قال أبو عبد الرحمن السلمي: (كان الذين يقرئوننا القرآن من صحابة رسول الله ﷺ: عثمان وأُبي بن كعب وغيرهما يقولون: كنا على عهد النبي ﷺ لا نتجاوز العشر آيات حتى نعرف ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٧).



هكذا كان صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، ابن مسعود يقول: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن». وروى مالك أن ابن عمر رضي الله عنه تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا رضي الله عنه، وهذه المدة الطويلة ليست فقط لحفظ ذلك وضبطه من جهة اللفظ، بل إن المظنون فيهم رضي الله عنهم أنهم أسرع حفظًا من المتأخرين، لكنهم كانوا يتفقهون، وينظرون إلى ما تضمنه هذا الوحي من الخير العظيم، الذي به حصل لهم الفقه، فكلامهم رضي الله عنهم قليل لكنه كثير البركة؛ لأنه نابع عن فقه ونظر دقيق، أما كلام المتأخرين فهو كثير لكنه قليل البركة.

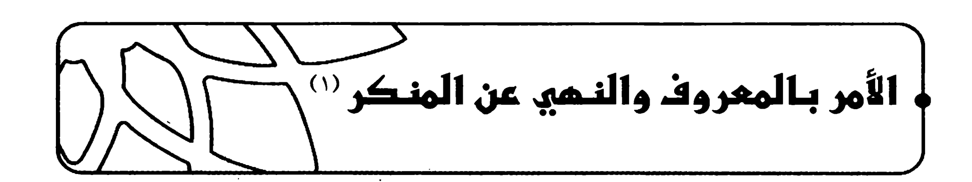
وأما في تلاوتهم، فقد كان منهم من يختم القرآن في سبع، ومنهم من يختم في ثلاث، يقول عثمان بن عفان رفيق القرآن: لو طهرت نفوسنا ما شبعت من كلام الله.

وهذا أحد الصالحين حين حضرته الوفاة بكت ابنته، فقال: (لا تبكي يا بنية، فوالله لقد ختمت القرآن في هذه الزاوية أربعة آلاف ختمة). لله درُّهم، فبالله كم ختمته أخي منذ أن وعيتَ إلى اليوم؟ كم ختمته هذا العام؟ كم ترجو أن تختمه مرات حتى تموت؟ كيف أنت مع التدبر لآياته والعمل بأحكامه؟

يا أمة محمد: من يقرأ القرآن إن لم تقرؤوه، من يتدبره إن لم تتدبروه، من يعمل به إن لم تعملوا به، فهل من عودة يا شباب الأمة، ويا شيبها، يا رجالها ويا نساءها؟ فعودةً يا أمة الإسلام إلى الله، وعودةً يا أحفاد أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، يا أحفاد فاتحي الدنيا ومعلمي الإنسانية.

أضيئوا بيوتكم بالقرآن، وأحيوا قلوبكم بتدارس القرآن، عمَّر الله قلوبنا وقلوبكم بكتابه، وأحيا الله أرواحنا وأرواحكم بآياته، وردنا إليه ردًا جميلًا، وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.





الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرف هذه الأمة؛ فجعلها خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، أحمده تعالى وأشكره على ما أولاه، وأشهد أن لا إله إلا الله، كتب الخيرية والفلاح لدعاة الخير والإصلاح.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله حامل لواء الدعوة والجهاد والكفاح، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه الذين ساروا على نهجه، وترسموا خطاه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم نلقاه.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها المسلمون: إن الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والدعوة إليه، والنصح والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، وإشاعة الخير والفضيلة بين الناس، ومحاربة الشر والرذيلة والفساد واستئصاله من المجتمع - من أبرز سمات هذه الأمة، أمة محمد ﷺ، التي فاقت بها سائر الأمم، يقول الله جل وعلا: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

لذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القطب الأعظم في هذا الدين، والمهمة الكبرى للأنبياء والمرسلين والصالحين، بل قد عدَّه بضع أهل العلم ركنًا سادسًا من أركان الإسلام، كل ذلك لما يشتمل عليه من الفضل العظيم، والخير العميم، والفوائد والمصالح العاجلة

---

(١) عبدالرحمن السديس.

والآجلة، ولما يترتب على تركه من استشراء الباطل وانتشار الفساد، وغلبة المعاصي وهيمنتها، وهي الجالبة لسخط الله، المنذرة بمقت الله وعاجل عقوبته على الأفراد والأمم.

أمة الإسلام: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمارة الإيمان، وإن تركه علامة النفاق: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧] ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٧١].

وهما من أعظم أسباب النصر على الأعداء والتمكين في الأرض، قال عز من قائل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

وهما طوق النجاة وسربال الحياة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

وبالجملة؛ فهما من أفضل الأعمال، وآكد الفرائض، وأوجب الواجبات، وألزم الحقوق، وقد جاء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بما يؤيد ذلك، يقول أصدق القائلين: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وروى مسلمٌ عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(١) وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٢).

وروى الترمذي وغيره عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

(٢) رواه مسلم (٥٠).

(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٦٩).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتقِ الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض -ثم قال-: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩]».

إخوة العقيدة: أرأيتم لو أن فردًا أصيب بمرضٍ عضال في جزءٍ من جسمه فأهمله، أوليس يستشري المرض في جسده كله، فيتعسر علاجه ويتعذر شفاؤه، كذلكم المنكر -يا عباد الله- إذا ظهر وتُرك فلم يغير، فإنه لا يلبث أن يألفه الناس ويعتادوه، وعندئذٍ يصبح من العسير تغييره وإزالته، فتعم المنكرات، وتنتشر الفواحش، وتغرق سفينة الأمة.

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثالًا مثاليًا على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1].

أيها الإخوة في الله: المعروف الذي جاء الشرع بالأمر به: اسمٌ يجمع كل ما أمر الله به ورسوله، من العقائد والأقوال والأفعال، كالإيمان وشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة ونحوها.

والمنكر: ما أنكره الله ورسوله، وأقبح ذلك وأعظمه منكرات العقائد، والأمور المبتدعة في الدين، وكبائر الذنوب، وسائر المعاصي.

أمة الإسلام: يا خير أمة أخرجت للناس! إن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مقصورًا على أحدٍ بعينه من الأشخاص أو الهيئات، ولكنه واجب كل مسلم وكل على

(١) رواه البخاري (٢٤٩٣).

قدر استطاعته، وبحسب منزلته ومكانته، بيد أن على أهل الحل والعقد من الدعاة والعلماء، والوجهاء والمختصين ما ليس على غيرهم، فالأب مسئولٌ عن أسرته وأهله وأولاده، والمعلم في مجاله، والموظف في دائرته، والتاجر في سوقه، وهكذا كل على ثغرة من ثغور الإسلام: «وكلٌّ راعٍ ومسئولٌ عن رعيته».(١)

بل المسلم الحق حيثما حل وقع أفاد ونفع؛ لأنه عضوٌ في جسد هذه الأمة، له مكانته وعليه واجباته، وهو مطالب بالتفاعل مع مجتمعه، والألم لألمه، والنشاط في محيطه، نشرًا للخير والصلاح، ودرءًا للشر والفساد.

فلنتق الله -يا عباد الله-، وليكن كل واحدٍ هنا هيئة بذاته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولنتعاون في تحقيق هذا المبدأ العظيم، ولنكن يدًا واحدة على من يريد خرق سفينة أمتنا بالشر والفساد، رائدنا في ذلك الإخلاص، والحكمة والشفقة، والرفق والأناة والرحمة؛ فتلك أبرز الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها من يتصدَّى لهذا الأمر العظيم.

فهم دعاة خيرٍ ورحمة، وحرصٍ وشفقة، وغيرة على دين الله القويم، وخوفٍ على إخوانهم المسلمين، ومن كان بهذا المثابة، فأولى أن يساند ويعاضد، ويشجع، ويآزر ويكرم ماديًا ومعنويًا.

يا خير أمةٍ أخرجت للناس: إنه إذا أفلت زمام هذا الأمر وطوي بساطه، وقَلَّ أنصاره وأخفقت رايته، وأهمل علمه وعمله، فشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وفسدت البلاد، وهلك العباد.

وإن الناظر فيما أصاب المجتمعات المعاصرة من تفاقم المحرمات، وانتشار المنكرات، مما تعجز عن وصفه الكلمات، ويترجم عنه الحال في كثيرٍ من الجوانب العقدية والشرعية؛ والأخلاقية والفكرية، مما ذهبت معه الغيرة، وهتكت من أجله الأعراض، وانتشرت الأفكار الهدَّامة، والمبادئ المنحرفة، وتطاول فيه الفساق من الرجال والشباب والنساء، ليتساءل: أين

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٨) ومسلم (١٨٢٩).

الغيرة الإسلامية؟! وأين الحمية الدينية؟! بل أين النزعة الإنسانية، والشهامة العربية، والرجولة الأصلية؟! هل نزعت من القلوب، واضمحلت من النفوس؟!

إنه إذا كثر الخبث وانتشر الفساد ولم يُغيَّر، عمَّ العذاب الصالح والطالح، فعن أم المؤمنين زينب بنت حش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[1]، ومع ذلك كله، فلا يزال ولله الحمد والمنة في أرض الله من هو قائمٌ لله بحجته، وصادعٌ بدعوته.

ولا نيأس من روح الله، بل نتفاءل خيرًا إن شاء الله، ولكن الأمر بحاجة إلى المزيد من الجهود الإسلامية المتظافرة؛ لتحقيق هذا المبدأ العظيم، ونشره في بلاد المسلمين، ليعم الخير وينتشر، ويتوارى الباطل ويندحر، وما ذلك على الله بعزيز.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم وبسنة سيد المرسلين، وهدانا صراطه المستقيم، وتاب علينا أجمعين، إنه هو التواب الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٩٨) ومسلم (٢٨٨٠).



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

لقد كان العلماء والصالحون السابقون أحرص الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة، قال شجاع بن الوليد: (كنت أخرج مع سفيان الثوري فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا).

قال أبو الدرداء: «لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم. قال حذيفة عندما سئل عن ميت الأحياء؟ هو الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه».

قالت أم الدرداء: «من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه».

قال سفيان الثوري: (إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق).

وعن يعقوب بن شيبة قال: قال لنا الأوزاعي: (لما فرغ عم السفاح من قتل بني أمية، بعث إليّ، فقال لي: أخبرني عن الخلافة، وصية لنا من رسول الله ﷺ؟ فقلت: لو كانت وصية من رسول الله ﷺ ما ترك علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدًا يتقدمه، قال: فما تقول في أموال بني أمية؟ قلت: إن كانت لهم حلالًا، فهي عليك حرام، وإن كانت عليهم حرامًا، فهي عليك أحرم. فأمرني فأُخرجت).

وقال إبراهيم بن الأشعث: (كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي حتى لكأنه يودِّع أصحابه ذاهب إلى الآخرة..).

وكان الفقيه الواعظ أحمد الغزالي يدخل القرى والضياع، ويعظ أهل البوادي تقربًا إلى الله.

فاتقوا الله -عباد الله- وقوموا بما أوجب الله عليكم من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد عرفتم منزلته ومكانته في هذا الدين، والأدلة عليه، والوعيد الشديد على من تركه وأهمله، وأدركتم ما وصل إليه الحال، وبان لكم أسباب ذلك ونتائجه الوخيمة.

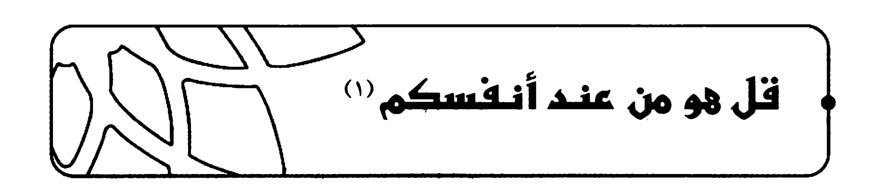
ووقفتم على وصفة من علاج ذلك الأمر، وصفات من يقوم به، فلم يبقَ إلا العمل الجاد المخلص، المبني على أسسٍ سليمة، وقواعد محكمة حكيمة، وترك التواني والتواكل والتلاوم، وإلقاء التبعة على الآخرين.

فلو قام كلٌّ منا بواجبه، وعرف دوره ورسالته، وتعاون مع إخوانه، لم يجد الباطل سبيلًا، ولم يلق الفساد رواجًا، ولكنها سنة الله في خلقه، لينظر من يجد ويعمل، ممن يترك الحبل على الغارب ويهمل.

ولكم في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة، فقد كان أشد الناس غيرة على دين الله، وحرصًا على تبليغ رسالة الله، وغضبًا إذا انتهكت حرمات الله.

ألا فصلوا وسلموا عليه صلاة متبعٍ له مقتدٍ به، مهتدٍ بهديه، كما أمركم الله بالصلاة والسلام عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].





قل هو من عند أنفسكم[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله، الحمدُ لله الذي خلقَ الخلـقَ وبـرأ، وأحسـنَ كـلَّ شيءٍ خلقَـه وذرَا، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه:٦]، أحمدُه سبحانه وأشكُره، وأتـوبُ إليهِ وأستغفِرُه، على نعمٍ تتكاثَر، وآلاءٍ تترَى.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ الحقِّ واليقينِ والإخـلاص، بـلا شـكٍّ ولا امتِراء، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه، المبعوثُ من أمِّ القُـرىَ، صـلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آلِه الطيبين الطاهرين، وأصحابِه الغُـرِّ الميـامين، وأزواجِـهِ أُمَّهَـاتِ المؤمنين، خيرِ القُرون وسادةِ الوَرَى، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسـليمًا كثـيرًا مـا صبحٌ أقبلَ، وليلٌ سرى.

أما بعد: فأُوصِيكم - أيُّها الناس - ونفسي بتقوَى الله، فاتَّقوا الله - رحمكم الله -، فالميزانُ عند الله التقوَى، وليس الأغنَى وليس الأقوى.

أما بعد:

فإن النصيحة المبذولة لي ولكم عباد الله هي تقوى الخالق جل شأنه، فهي عدة الصابرين، وذخيرة المجاهدين، وسلوان المصابين، ما خاب من اكتسى بهـا، ولا نـدم مـن اكتنفهـا، بهـا النجاة في الأولى، والفوز في الأخرى، لا يسألكم الله رزقًا فهو يرزقكم، والعاقبة للتقوى.

أيها الناس: لعل المسلمين في ثنايا هذه العصور المتأخرة هم أكثر الناس آلامًا، وأوسـعهم جراحًا، ولعل أرضهم وديارهم وأموالهم هي التي يستنسـر بهـا البُغـاث وتستأسـد الحُمُـر، والمسلمون مع ذلك يتجرعون هذه الجراحـات في صياصـيهم وهـم لا يكـادون يسـيغونها،

---

(١) سعود الشريم.

ويحملون معها أثقالًا إلى أثقالهم، إنهم يُدَعُّون إلى الاستكانة والاستذلال دعًّا، وتتقاذفهم مضارب الغالبين إلى أن يعترفوا بأن حقهم باطل، وباطلَ غيرهم حق، يُزجُّ بهم في كل مضيق من أجل أن يقلبوا الحقائق، ويتقبّلوا أضدادها على مضض، حتى ينطق لسانهم بالرسم المغلوط والفهم المقلوب، فتكون عبارتهم لعدوهم بلسان حالهم:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكمُ ... وتخطئون فنأتيكم ونعتذرُ

والحق أيها المسلمون هو أن المتأمل في هزائم المسلمين المتلاحقة وضعفهم الحثيث واستكانتهم المستحوِذة عليهم أمام أعدائهم يجدُ أنها لم تكن بدعًا من الأمر، ولا هي نتائج بلا مقدمات، ولم تك قط قد قفزت هكذا طفرةً دونما سبب، وإنما هي ثمرة خللٍ وفتوق في ميدان الأمة الإسلامية وتقصير ملحوظٍ تجاه خالقها ورسولها ودينها، وهذه الثغرات والفتوق هي التي أذكاها أعداء الإسلام بما يبثونه عبر سنين عديدة من المكر والخديعة واللَّتِّ والعجن منذ زمن على الإسلام والمسلمين.

وبسبب نقمتها هذه اختبأت وراء صور الاستعمار المتنوعة، تناولُ من خلاله ما تشاء من الأساليب، فإذا احتاج الأمر إلى المكر لانت، وإذا احتاج الأمر إلى القسوة بطشت، وهي في لينها تبثُّ السم في العسل، وفي شدتها تحترف الهمجية والجبروت، وهي في كلتا الحالتين لا تنام عن غايتها أبدًا، ولو نامت بإحدى مقلتيها فإنها بالأخرى يقظانة ساهرة، وهذا سرُّ أسفنا المتصاعد عباد الله.

أيها المسلمون: إن الكثيرين منَّا ليتساءلون إثر كل بلية تحل بدار الإسلام: ما السبب؟ وكيف؟ ولم؟ وممّ؟ وعمَّ؟ كل صور الاستفهام تتناثر صيحاتها في مسامعنا حينًا بعد آخر، ولكن هل نجعل هذا التساؤل جديدًا على أسماعنا؟ أو أن في أفئدتنا وما أعطانا الله من صلةٍ بكتابه العزيز ما يذكِّر بسؤال مماثل للرعيل الأول في أزمة هي من أشد الأزمات التي حلَّت بهم، ألا وهي هزيمتهم في معركة أحد، يندُبون حالهم، ومن ثم يتساءلون فيقول الله عنهم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران:١٦٥]، فيجيبهم الله بخمس كلمات، لم ينسب ولا في كلمة واحدة سبب الهزيمة إلى جيش، ولا إلى عدة، ولا إلى تحرُّفٍ في قتال، وإنما قال لهم بصريح العبارة: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٦٥].

يقول الله لهم ذلك ليبين لهم ولمن بعدهم بوضوح أن خواتيم الصراعات والمدافعات بين الأمم على كافة الأصعدة لا يمكن أن تقع خبْط عشواء، وإنما هي وفق مقدمات أثمرت النتيجة بعد استكمال أسبابها، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى:٣٠].

تقع الهزائم ليستيقظ الناس، وتتوالى الضربات لتحل المحاسبة محل النفس، ويتضح مثلُ هذا بما أتبع الله الآية بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧].

لقد كتب الله سبحانه على نفسه النصر لرسله وأوليائه فقال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [المجادلة:٢١]، ولكن الله سبحانه علّق هذا النصر بتحقيق الإيمان في القلوب واستيفاء مقتضياته في كل مناحي الحياة، وهذه هي سنة الله في النصر، وسنة الله لا تحابي أحدًا.

وحين تُقصِّر الأمة وتفرِّط فعليها أن تقبل النتيجة المُرّة لأنها مع كونها مسلمة إلا أن ذلك لا يقتضي خرْق السنن وإبطال النواميس.

أيها المسلمون: إن على رأس الضعف الأصيل البعدَ عن تشخيص الأحداث بصورتها الحقيقية، مع الاكتفاء بمجرد التلاوم وإلقاء التبعة على الغير، فعامة الناس يلقون باللائمة على العلماء والمصلحين والمثقفين، وهؤلاء بدورهم يلقون باللائمة على الساسة والقادة الآخرين، وما القادة والساسة والعلماء والمصلحون والعامة إلا جزءٌ من كل، ولا استقلال في اللوم لصنف دون آخر، وإلا كان جُرمًا واستكبارًا وخروجًا عن الواقعية، فرسول الله يقول: «كلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته»[1]. ولا شك أن كلًا عليه من التبعة بقدر ما حُمل من المسؤولية.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

عباد الله: لأجل أن نصل إلى حال راقية من المكاشفة والوضوح في الطرح، ولأجل أن نحسن تشخيص الداء لنستجلب الدواء، فإن ثمت مفاهيم ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا طرفة عين حتى تصل إلى المقصود ويتحد الهدف.

فمن هذه المفاهيم أن الناس إن لم يجمعهم الحق شعَّبهم الباطل، وإذا لم توحِّدهم عبادة الرحمن فرَّقتهم غواية الشيطان، وإذا لم يستهوهم نعيم الآخرة اجتالهم متاع الدنيا فتخاصموا عليها، ولو غلغلنا النظر في كثير من الانقسامات لرأينا حب الدنيا والأثرة العمياء تكمن وراء هذه الحزازات، وهذا هو سرُّ الوهن العظيم الذي سُئل عنه النبي حين قال: «وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن»، قيل: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

ويظهر هذا الأمر جليًا في سبب من أسباب هزيمة المسلمين في أُحُد حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما علمت أن معنا في أُحُد من كان يريد الدنيا إلا لما نزلت هذه الآية»، ولأجل هذا عباد الله كانت هذه الهزيمة، حينما لم يستجب أقوام منهم لوصية الله تبارك وتعالى في أول عظة للمسلمين بعدما انتصروا في معركة بدر بأن يوحدوا صفوفهم ويلموا شملهم، حيث قال سبحانه: بِسْمِ اللهَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]، أنزل الله عليهم هذه الآية ليقطع على النفس مطامع الدنيا وغلبةَ حب الغنيمة على حب نصر دين الله ورفعته.

ومن المفاهيم التي يجب أن تُعرف هو أن منطق الأعداء الحاقدين واحد، وهو برمَّته ليس جديدًا على الساحة العامة، كما أن قلب الحقائق وتشويه صورة المسلمين ليست هي بدعةً العصر الحديث، فمنطق المجرمين واحد ولو تطاولت القرون، وإن شئتم يا رعاكم الله فاسمعوا قول فرعون عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ

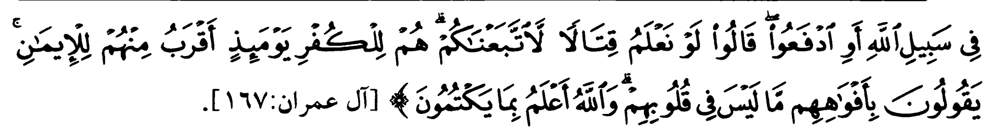
(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٩٧).

أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦]، هـذا هـو منطـق فرعـون الأول، يُظهر غيرته على دين الناس وأمنهم، فهو يخاف عليهم من إفساد موسى في الأرض، فيقرِّر أن موسى يُرهب أهل الأرض جميعًا، فهو لا يستحق البقاء، هـذا هـو منطق فرعـون الأمس، وها هو التاريخ يعيد نفسه، وما أشبه الليلة بالبارحة، فهل يتعظ المسلمون ويقولـون من بعد ذلك: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥].

إن استجابة النفس للدعاوى الأفاكة والاستسلام لشيوعها والتي تصل بسبب قـوة طرحها والتأثير الإعلامي لها إلى درجة الرضا بها والقبول لها، ومـن ثَـمَّ يتحـول الافـتراء إلى حقيقة مسلَّمة وواقع لا مماراة فيه، ولنضرب مثالًا على هـذا فنقـول: نحـن نعلـم أن حقـوق المسلمين ودماءهم في أقطار كثيرة تُهدر وترخُص، حتى لو داهمهم مغتصب واستولت عليهم يد معتدٍ فأبدوا مقاومة واهنة أمام المغـير علـيهم، ودفعـوا براحـاتهم أفتـكَ أنـواع السـلاح، ارتفعت صيحاتٌ وشِنشِنات أخزمية تقول: المسلمون معتدون، المسلمون إرهابيون، ومن ثمَّ يكون هذا تبريرًا للـدبابات والمجنـزرات في أن تصـبَّ جـام غضـبها عـلى أمـة لا تملـك إلا الحجارة، ويبدو أن مثل هذا الإفـك لا ينقطـع أبـدًا، وأن الإصرار بـأن المسـلمين إرهـابيون أكذوبة كبرى، فهي كما يقول علماء النفس: (نوع من الإسقاط الذي يدفع المرء إلى اتهام غـيره بما في نفسه هو من شر)، وقديمًا قيل: (كل إناء بما فيه ينضح).

ومع ذلك كله تصاب أمة الإسلام بصدمة عنيفة من قبل آراء عالميّة تصف المالك الطريد إرهابيًا لا حق له، وتجعل اللصَّ الغالب ربَّ بيت محترمًـا، ثـم بعـد ذلـك يقـول المسـلمون: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥].

ومفهومُ رابع يتجلى في الحذر من المغرضين وبني جلدة المسلمين، والذين يُعرفون في لحن القول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٦]، هم سِرٌّ في ضعف المسلمين، وثغرة صارخة في صفوفهم، يُعدّ أمثالهم في دول كبرى طابورًا خامسًا حسب قواميسهم، فهم يتَّقونهم في مجتمعاتهم وبكل ما يملكون من سبل، وإن معرفة مثل هؤلاء والوقاية منهم سبب رئيس في تحصيل القوة، والبعد عن الهزيمة. وعلينا أن نعلم جميعًا أن الله سبحانه وتعالى فعل ما فعل بالمسلمين في أُحُد لِحِكم ظاهرة، منها قوله جل وعلا: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟


فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٧].

ومفهوم خامس عظيم، وهو أن تغيير هذا الواقع المرير إلى واقع رفيع مرهـون ولا شـك بتغيير واقع الناس أنفسهم، وهذا يعني بداهة أنه متى دبّ الضعف وتأخر النصر فـإن هنـاك أسبابًا تؤخره بلا ريب، ورأس هذه الأسباب هو أن الباحثين عن نصـر الله وتغـيّر حـالهم لم يغيّروا ما بأنفسـهم، ولـذلك كـان الغُـنْم بـالغُنْم، والغُـرم بـالغرم، والله جـل شـأنه يقـول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد:١١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياك بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صوابًا فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الكبير المتعال، له الحمد على كل حال، وله الشكر بالغدوّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شديد المحال، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي المفضال، صاحب النوال، وسديد المقال، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه والآل.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون: واعلموا أن ثمت مفهومًا مهمًا ينبغي أن لا يُغفل عنه، لأنه لبٌّ في الموضوع، وعمود ارتكاز في التصحيح، ألا وهو المعصية وما لها من أثر وشؤم وموقع عظيم في تحديد معايير النصر والهزيمة.

وإن من يلقي النظر إلى غزوة أُحد وإلى السبب الرئيس للهزيمة لوجد أنه يكمن في المعصية، والتي تلقَّى المسلمون بسببها لطْمة موجعة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلًا، على رأسهم سيد الشهداء حمزة رضي الله تعالى عنه، فردتهم الهزيمة إلى المدينة وهم يعانون الأمرّين من جرائها وشماتة كفار قريش.

وإن تعجبوا عباد الله فعجبٌ أمر هذه المعصية في أُحد، إنها لم تكن في فشوِّ زنًا بينهم، ولا في احتساء خمرةٍ مسكرة، ولم تكن في إقصاء شريعة وتحكيم قوانين خارجة عنها، ولا في فساد امرأة أو انحراف شباب، بل إنهم خرجوا إلى أُحد ومعهم إيمانهم بالله وحبهم لرسوله ودفاعهم عن الحق وطلبهم رفعة الدين ونصرته، وكل ذلك في الواقع يرشّحهم بأقوى أنواع الترشيح في أن ينتصروا ولا يُهزموا، ولكن يَبْلو الله المؤمنين في أحد، فينزل الرماة عن الجبل، لا لقصد عصيان الرسول، ولكن لِما رأوه من الانتصار للمسلمين، فخاف بعضهم فوات حظه من الغنائم، ثم كانت الكارثة، هزيمة موجعة، فاجعة مهولة، وأثابهم الله غمًا بغم، وكُسرت رباعية الرسول، وشُج رأسه، وقتل سبعون شهيدًا.

فالله أكبر ما أعظم أثر المعصية على واقع المسلمين حتى في أحلك الظروف، تلك هي معصيتهم فما هي معاصينا إذا؟! إنه لسؤالٌ صعب، والجواب عنه أشد من لعق الصَّبِر، ولا

حول ولا قوة إلا بالله. يقول الرسول: «إذا تبايعتم بالعِينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلًا، لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم»(1).

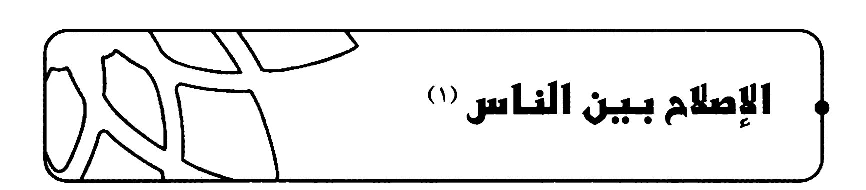
إن شؤم المعصية، يعمُّ مهما قلَّ حجمه، أو ضعف الاكتراث به، يمحق البركة، ويفسد العمل..

فرحماك يا رب رحماك، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

هذا وصلوا رحمكم الله على خير البرية وأزكى البشرية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بذلك في كتابه، فقال عز من قائل عليم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].



(1) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٤٦٢).



الإصلاح بين الناس [1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله، الحمدُ لله مُصرِّف الدهور، ومُيسِّر الأمور، ومُقلِّب الأيام والشهور، لا إلـه إلا هو له الحمدُ في الأولى والآخرة وإليه النشور، أحمدُه سبحانه وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفرُه، أعطَى وأجزَل، وأنعمَ وتفضَّل، ووقَى من الشُّرور، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريـك له شهادةً خالصةً صادقةً هي الشفاءُ لما في الصدور.

وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه قام بحقِّ ربِّـه حتـى تفطَّـرَت قـدَماه فهـو العبدُ الشَّكور، صلَّى الله وسلَّم وبارَكَ عليه، وعلى آله وأصحابِه آمَنوا بربِّهم، واتَّبَعـوا رسـولَه وما أُنزِل معه من النور، والتابعين ومـن تـبِعَهم بإحسـانٍ، وسـلَّم تسليمًا كثيرًا مـا تعاقـبَ العشيُّ والبُكور.

أما بعد:

فأُوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكـم الله -؛ فقـوارِعُ الأيـام داهِية.. فهل من أُذُنٍ لعِظاتها واعِية؟! ونوازِلُ الحِمام فاجِعة.. فهل القلوبُ لوقعَتها مُراعِية؟! ومقادِيرُ الآجال جارية.. فهل النفوسُ في الاستِعداد ساعِية؟!

أين الآباءُ الأكابِر.. وأين الأبنـاءُ الأصـاغِر.. وأيـن الصـديقُ المُعاشِر.. وأيـن الغريـبُ وأين القريب.. وأين الغائِب وأين الحـاضِر.. لقـد عثَـرَت بـالجميع العـواثِر.. ودارَت علـى أصحابها الدوائِر، ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:١٠٢].

---

(١) محمد بن علي السعوي.

أيها المسلمون: جاء الإسلامُ ليُطهِّر البشريةَ من أدران الجاهلية وأمراضها، ويُقوِّم السلوكَ ليستقيمَ على الفِطرة السويَّة. والرابطةُ بين أهل الإسلام هي رابطةُ الدين، وأُخُوَّة الإيمان، ولهذه الرابِطة معالِمها، من حُسن المُعتقَد، والمحبَّة، والسرور، وحب الخير للناس والفرح به، واجتِناب ما يُكدِّرُ على ذلك ويُشوِّشُ عليه، من الحسد والشحناء، والتهاجُر، والتباغُض، والسِّباب، والتنابُز بالألقاب. والناصِحون من عباد الله، المُحبُّون لخلق الله أهلُ أدبٍ ورحمة، وحبٍّ ومودَّة، وصدقٍ ووفاء.

معاشر الإخوة: وقد استوعبَت الشريعةُ في شُمولها وعلاجِها كلَّ أمراض النفوس ومعايِبها، أقوالًا وأفعالًا، ومشاعِر وانفِعالات. وإن في مُستجدَّات العصر وتقنيَّاته ما وسَّع ذلك كلَّه ووسِعَه ابتلاءً وعلاجًا.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

معشر المسلمين: كثير ما يكون بين الناس منازعات وخصومات، وذلك نتيجة لاختلاف الأهواء والرغبات والاتجاهات، ومن ثم فإن المنازعات والخصومات تسبب البغضاء والعداوات، وتفرق بين المسلمين والقرابات، ومطلوب منا أن نسعى إلى الإصلاح بكل الوسائل والإمكانات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

أيها المسلمون: لقد أرسل الله تعالى نبيه محمدا ﷺ رحمة للعالمين؛ ليجمع على الإيمان قلوب المؤمنين، ويزيل من قلوبهم كل أسباب الشحناء، ويطهر نفوسهم من كل أسباب البغضاء، ليكونوا إخوانا متحابين، فإذا وجد بين بعضهم خصومة وشحناء ونزاع وبغضاء أمروا أن يتقوا الله، وأن يصلحوا ذات بينهم، وعلى المسلمين أن يسعوا في الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وقد كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رد الخصوم حتى يصطلحوا فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن»[1].

وقد قال تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]، أي أصلحوا ما بينكم من أحوال الشقاق والافتراق حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، ليكون المسلمان المتشاحنان متعرضين لمغفرة الله والجنة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس لكل عبد لا يشرك بالله شيئا وفي رواية: تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين فيغفر الله -عَزَّ وَجَلَّ- في ذلك لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»[2]

أيها المسلمون: لقد اهتم الإسلام بإصلاح ذات البين حفاظا على وحدة المسلمين، وسلامة قلوبهم، وإن الإصلاح يعتبر من أعظم وأجل الطاعات، وأفضل الصدقات، فالمصلح بين الناس له أجر عظيم، وثواب كريم، إذا كان يبتغي بذلك مرضاة الله تعالى، فأجره يفوق ما يناله الصائم القائم، المشتغل بخاصة نفسه، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»[3] ومعنى الحالقة: أي تحلق الدين. فهل يبخل أحد على نفسه بمثل هذا الفضل والأجر في الإصلاح بين الناس؟

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ سُلامى مِن النَّاسِ عليهِ صدقةٌ كلَّ يومٍ تطلعُ فيهِ الشَّمسُ. قال: تعدِلُ بين الاثنينِ صَدقةٌ. وتُعينُ الرَّجلَ في دابَّتِه فتحمِلُه علَيها أو تَرفعُ لهُ علَيها مَتاعَه، صدقةٌ. قال: والكلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدقةٌ. وكلُّ خُطوةٍ تَمشيها إلى الصَّلاةِ صدقةٌ وتُميطُ الأذى عَن الطَّريقِ صدقةٌ»[4].

---

(١) من تفسير القرطبي (٥/ ٣٨٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٥).

(٣) صحيح أبي داود (٤٩١٩).

(٤) رواه البخاري (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩).

قوله: (تعدل بين الاثنين) أي: تصلح بينهم بالعدل.

أيها المسلمون: إن الإصلاح بين الناس تفضل فيه النجوى، وهي السر ودون الجهر والعلانية، ذلك أنه كلما ضاق نطاق الخلاف كان من السهل القضاء عليه، لأن الإنسان يتأذى من نشر مشاكله أمام الناس، فالسعي في الإصلاح يحتاج إلى حكمة، وإلا فإن الساعي أحيانا قد يزيد من شقة الخلاف وحدته، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

أيها المسلمون: ولأهمية الإصلاح بين الناس رخص فيه الكذب، وذلك إذا كان سبيلا للإصلاح ولا سبيل سواه، عن أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا»[1]، قوله: «ينمي خيرا» أي: ينقل الحديث على وجه الإصلاح، وفي صحيح مسلم: قال ابن شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إنه كذب إلا في ثلاث: الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها).

فأما الكذب في الحرب فإن الحرب خدعة، ومن ثم فإن الأمر يستدعي التمويه على الأعداء، ويتحدث بما يقوي به أصحابه ويكيد به عدوه مثل أن يقول جيش المسلمين كبير وجاءهم مدد كثير.

وأما الكذب في الإصلاح بين الناس، فمثل أن يحاول المصلح تبرير أعمال كل من المتخاصمين وأقوالهما بما يحقق التقارب، ويزيل أسباب الشقاق والخلاف، وأحيانا ينفي بعض أقوالهما السيئة فيما بينهما، وينسب إلى كل منهما من الأقوال الحسنة في حق صاحبه مما لم يقله مثل أن يقول: فلان يسلم عليك ويحبك، وما يقول فيك إلا خيرا ونحو ذلك، وأما الكذب بين الزوجين، فقد قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقا عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها). وذلك أن الكذب بينهما قد يحتاج إليه

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢).

أحيانا بحيث يخفي كل واحد منهما عن الآخر ما من شأنه أن يوغر الصدور، أو يولد النفـور، أو يثير النزاع والفتن، ويزرع الشقاق والإحن، فمثلا لكـل واحـد مـنهما أن يخاطـب الآخـر بمعسول القول ما يزيد الحب، ويسر النفس، ويجمل الحياة بينهما، وإن كان ما يقال كذبا، قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كذب الرجل على زوجته مثل أن يعدها ويمنيها ويظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه؛ ليستديم بذلك صحبتها، ويصلح بها خلقها).

أسأل الله أن يجعلنا من الصالحين المصلحين، وأن يوفقنا لحسن العمل وصالح الأخلاق، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنـه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي بين سبل الفلاح، ورتب الرحمة على التقوى والإصلاح، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له سبحانه وبحمده بالغدو والرواح، والمساء والصباح، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، جعله الله أسوة في الصلاح والإصلاح، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سعدوا بالفلاح والنجاح، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليما.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

أيها المؤمنون: إن أطيب حياة يعيشها المؤمن والمؤمنة في هذه الدنيا، هي حينما يكون مراقبا لله حسن الطوية لعباد الله. فأصلح - أيها المسلم - ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الناس، واحذر أسباب الشحناء والبغضاء، وإذا جاء إليك أخوك معتذرا فأقبل معذرته ببشر وطلاقة؛ بل ينبغي أن تسعى أنت إلى إنهاء الشحناء وإن كان لك الحق، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أعقل الناس أعذرهم لهم»، وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لو أن رجلا شتمني في أذني هذه واعتذر إلي في أذني الأخرى لقبلت عذره)[1]، وروي أن الحسين بن علي كان بينه وبين أخيه محمد بن الحنفية خصومة - عليهم رضوان الله - وبعد أيام كتب محمد بن الحنفية رسالة ضمنها اعتذاره منه، فما إن وصل الكتاب إلى الحسن حتى قام لساعته وذهب إلى أخيه محمد، فالتقيا في منتصف الطريق، فتعانقا وبكيا وتصالحا.

أيها المسلم: إذا علمت أن بين اثنين من إخوانك أو قرابتك أو أرحامك أو أصحابك أو جيرانك شحناء أو قطيعة، فعليك أن تبذل وسعك وغاية جهدك في الإصلاح بينهما، وإياك أن تتكاسل عن هذا العمل الجليل من أجل الاستماع إلى إيحاءات الشيطان، وأقوال المخذولين الذين يقولون: أنت في عافية فلا تكلف نفسك فيما لا شأن لك به، بل عليك - وأنت تقدر

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٣٤٠).

على ذلك - أن تسعى لإزالة أسباب التفرق والشحناء بين أخويك، فالصلح خير وذلك رحمة بهما وشفقة عليهما وطمعا في فضل الله ورحمته التي وعدها من أصلح بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

قال ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»، وذلك لما ينتج عنه من المفاسد، ولو لم يكن من شؤم الهجر والقطيعة إلا ما صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال ﷺ: «تُفتَح أبوابُ الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكلِّ عبد لا يُشرِك بالله شيئًا إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شَحناء، فيُقال: أَنظِروا هذين حتى يَصطَلِحا».

إنَّ الصلح بين المسلمين من الصدقات التي ينبَغِي أنْ يتقرَّب بها المؤمن كلَّ يوم إلى ربه؛ شكرًا له على أنْ عافاه في بدنه، كما في الحديث السابق المتفق عليه أنَّ النبي ﷺ قال: «كلُّ سُلامَى من الناس عليه صدقةٌ، كلَّ يومٍ تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة».

أيها المسلمون: لقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فلقد كان ﷺ يسعى بنفسه للصلح بين المتشاحنين مؤكدا بذلك أهمية الإصلاح بين الإخوة المؤمنين، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم. حتى أوشك أن تفوته صلاة الجماعة، وفي رواية قال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم»[1].

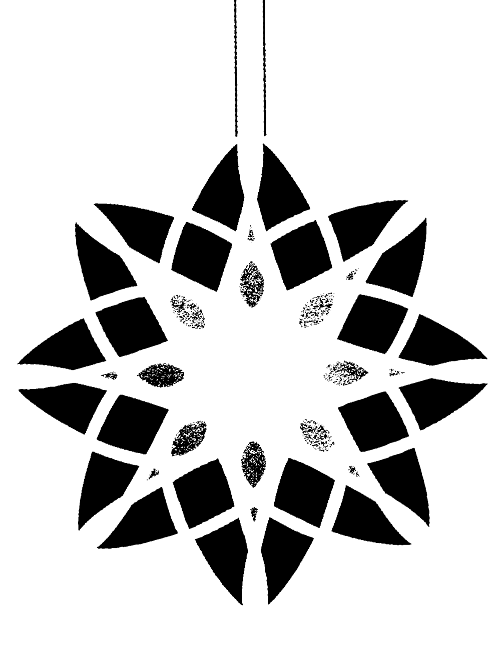
فاتَّقوا الله أيُّها المؤمنون ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]، وتغافلوا عن زلل بعضكم، واسعوا لتقوية النسيج الاجتماعي المسلم، فإن ذلك من مراضي الله، جعلني الله وإياكم من أهل محبته ومرضاته..

اعدلوا بين إخوانكم عند الاختِلاف، وتوسَّطوا بينهم عند النِّزاع والبغي، ولا سيَّما قراباتكم، ولا تتركوهم للشيطان وقُرَناء السوء يؤججون بينهم العداوات فيضلُّونهم عن سواء السبيل، ويهدونهم طريقَ الجحيم، أَصلِحوا بينهم تحفَظوا لهم دينهم، وتُحافِظوا على نعمتهم قبلَ زوالها، وتَفُوزوا من الله بالأجر العظيم والثواب الكريم.

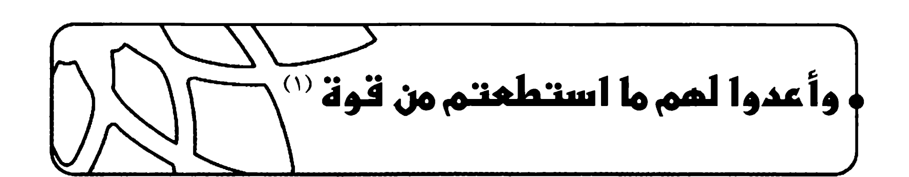
هذا وصلوا وسلموا..

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٣).



الفضائل والسير



وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله؛ بلطفه تنكشف الشدائد، وبصدق التوكل عليه يندفع كيد كل كائد، ويُتقى شر كل حاسد، أحمده سبحانه وأشكره على جميع العوائد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له في كل شيء آية تدل على أنه الأحد الواحد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، جاء بالحق وأقام الحجة على كل معاند، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه السادة الأماجد، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

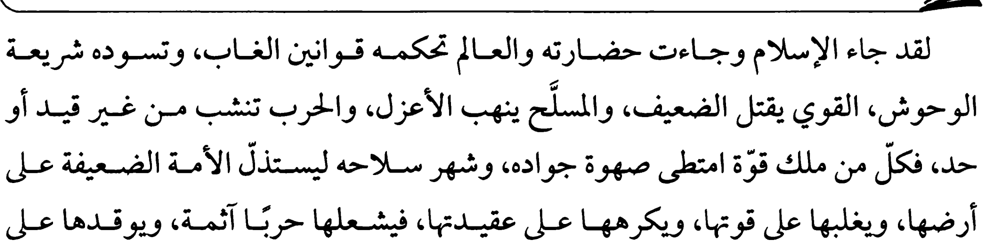
أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، فبتقواه تُنال الدرجات، وتزكو الأعمال، وتزوّدوا من ممرِّكم لمقرِّكم، فأنتم في فترة الإمهال، فالدنيا غرّارة مكّارة، والموت آت لا محالة، والأجل قريب، والأحمال ثقال. فاغتنموا رحمني الله وإياكم سُويعات أعماركم، فالأيام فانية، ولسوف يندم أصحاب القلوب القاسية، وطهِّروا درن الذنوب بفيض العبرات، واستثيروا رقّة القلوب بذكر يوم الحسرات، فالناس فيه سكارى من طول الوقوف، حيارى من هول يومٍ مخوف، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨].

أيها المسلمون: لقد جاء الإسلام وأممُ الأرض تشتبك في حروب لا تُحصى، ولأغراضٍ من المطامع شتى، دولٌ في القديم كبرى كان القتال بينها سجالًا، فنيت فيها جيوشها، وناءت بمغارمها شعوبها، لم يكن وقود تلك الحروب إلا مطامعَ الكبار، ولم يشعل فتيلَها إلا شهوةُ التوسع والمباهاة في الاستبداد.

---

(١) صالح بن حميد.



لقد جاء الإسلام وجاءت حضارته والعالم تحكمه قوانين الغاب، وتسوده شريعة الوحوش، القوي يقتل الضعيف، والمسلَّح ينهب الأعزل، والحرب تنشب من غير قيد أو حد، فكلّ من ملك قوّة امتطى صهوة جواده، وشهر سلاحه ليستذلّ الأمة الضعيفة على أرضها، ويغلبها على قوتها، ويكرهها على عقيدتها، فيشعلها حربًا آثمة، ويوقدها على الضعفاء نارًا تلظّى.

وأما العرب أنفسهم في تلك الأحقاب فقد أكلتهم غاراتهم، فكان الاقتتال لهم طبعًا، والقتل بينهم عادةً، حتى إذا لم يجدوا غارةً على البعيد أغاروا على القريب، فهم على بكرٍ أخيهم إن لم يجدوا إلا أخاهم.

كما قال قائلهم:

وأحيانًا على بكرٍ أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

في هذه العصور المظلمة والظروف الكالحة تفجّر ينبوع الإسلام، فلانت القلوب الصلدة، وترطّبت العصور الجافة، وأقبل فيه العالم على دينٍ جعل الإيمان صنو الأمان، والإسلام قرين السلام، فانحسرت مطامع النفوس، وتجافت وساوس الشيطان، وتقاصرت العدوان على الحقوق، وكان النداء لأهل الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة:٢٠٨].

بهذه الروح وبهذه المبادئ انتشر الإسلام في سنواته الأولى، حتى بلغ مشارق الأرض المعمورة ومغاربها في أقلّ من قرن من الزمان، ومن المعلوم قطعًا أن المسلمين لم يكن لهم في ذلك الوقت من القوة العددية ولا من الآلات العسكرية ولا من تقنيات الاتصالات ولا من وسائل المواصلات ما يمكّنهم من قهر الشعوب على ترك دينها، ولا فرض الحكم على الديار التي دخلوها، لولا أنه دين حقّ، وحضارة سلام، وسياسة عدل. فالشعوب المفتوحة لم تدِن بالإسلام ولم تتعلم لغة القرآن ولم تخضع للمسلمين إلا لأنه لامس القلوب لِما ظهر لها فيه من الحق والرحمة والعدل الموصِل لسعادة الدنيا والأخرى.

إن الإسلام دين الفطرة، سمتُه البارزة وعلامته المسجّلة نشرُ الحق وفعل الخير وهداية الخلق، ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمـــران:١٠٤]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج:٧٧]. تلكم من حقيقة الإسلام ووظيفته التي يجب أن تُعرف في أروقة الأمم ومحافل الدول ومجامع العالم.

أيها المسلمون: والإسلام في غايته والدين في مبادئه لا ينظر إلى مصلحة أمةٍ دون أمة، ولا يقصد إلى نهوض شعب على حساب آخر، ولا يهمّه في قليل أو كثير تملّكُ أرض أو سيادةُ سلطان هذا أو ذاك، بل كان يقر كل حاكم على بلده كما هو سيدًا مطاعًا، إن هو آمن بالله ودان بشريعة الإسلام وساس رعيته بالعدل، فمقصود الدين وغايته سعادةُ البشرية وفلاحُها وبسط الحق والعدل فيها، وكل توجُّهٍ غير هذا وكل هدف سوى هذا لا اعتبار له في الإسلام، بل إذا كانت التوجهات تتضمّن ظلمًا أو تقود إلى غمط حق فلا بد حينئذ من مقاومتها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فالأرض كلها لله، ويرثها الصالحون من عباد الله.

أمة الإسلام: ولئن كان الإسلام دين رحمة وعدل وسلام فإنه في الوقت نفسه دين قوةٍ وإباء ضيم؛ لأنه دين عملي يأخذ الحياة من واقعها، ويعامل الخلائق من طبائعها، وفي الحياة والطبائع ميلٌ إلى المشاحنات وتوجهٌ نحو المنازعات ودخول في المنافسات، من أجل ذلك وبجانب عدله ورحمته أمر بإعداد القوة التي تحمي الحق، وتبسط العدل، وتزرع الخير، وتنشر السلام، بل إن القوة العادلة أقوى ضمان لتحقيق السلام، وحذر من أن يفهم الناسُ أن السلام معناه القعود عن الاستعداد ما دام في الدنيا أقوامٌ وفئاتٌ لا تعرف قيمة السلام، ولا تحترم حرية غيرها في أن تعيش آمنةً مطمئنة في بلادها.

ومن أجل ذلك كله أُمر المسلمون بإعداد القوة وأخذ الأهبة، والقوة المأمور بها قوةٌ شاملة تُحشد فيها كل مصادر القوة، الاقتصادية منها والساسية، والاجتماعية والعسكرية، والأخلاقية والمعنوية، وقبل ذلك وبعده قوةُ الإيمان والاستمساك بالشرع المتين، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠].

والأمة القوية والدولة القوية تُحفظ مهابتها ما دامت صفة القوة ملازمةً لها، وتلكم سنةُ إلهية من السنن التي تبنى عليها الحياة، فلا خير في حق لا نفاذ له، ولا يقوم حق ما لم تحُط به

قوةٌ تحفظه وتسنده، وما فتئت أمم الأرض ودولها تُعدُّ نفسها بالقوة، بمختلف الأنواع والأساليب، حسب مقتضيات العصر ومتطلبات الظروف في الزمان والمكان.

أيها المسلمون: ولعل من المناسب الوقوف عند صورة من صور القوة، تلكم هي قوة الروح المعنوية. إن من يقلِّب النظر في تاريخ الأمم التي تتمتّع بالعزّ والسيادة يجدها لم تبلغ ما بلغت إلا بما تربّت عليه من قوّة الروح قبل البناء العسكري، فبقوة الروح وارتفاع المعنويات بإذن الله تَسلم من خطر يمتدّ إليها من الخارج، ويستتبّ لها الأمن من الداخل، وتكون ذات شوكة ومهابة، ولا عجب أن يُولي القرآن الكريم ذلك ما يستحق من عناية، فتنزّلت الآيات التي تربّي النفوس على خلُق البطولة وتحفز الدواعي لإعداد الوسائل واتباع النظم، فالظفر بعيد عن الجبناء، وبعيد عن المهازيل، ولقد توجّهت الآيات الكريمة إلى النفوس تنقّيها من رذلية الجبن والإحجام، وتنذرها بسوء عاقبة الجبناء، اقرؤوا وتدبروا قول الله عزو جل: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة:٨]، إن الآية صريحة في أن الجبان يُبتلى بذي قوة لا يعرفُ للعهد رحمة، ولا يقيم للعدل وزنا، ولا يعرف للحق طريقًا.

ولقد سجّل الشجعان وصدّقت الحكماء أن الموت في مواطن البطولة أشرف من حياة يكسوها الذل ويغمرها الهوان، والحر يلاقي المنايا ولا يلاقي الهوان، ومن العجز أن يموت الفتى جبانًا.

وآيةٌ أخرى في كتاب الله تفضح فئات من الجبناء الخوارين، أنكروا رجولتهم، ودفنوا كرامتهم، وقعدوا مع فئات لم تُخلق للضرب ولا للطعان، ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ [التوبة:٨٧]. ولا يتوارى عن هواتف الشرف أو دواعي البطولة إلا من كان حظه من الرجولة ضئيلًا، ومن الكرامة منقوصًا.

وبثُّ القوة الروحية أيها المسلمون ورفع المعنويات يكون بتربية النشء على خلُق الشجاعة وصرامة العزم والاستهانة بالموت. وإخواننا وأولادنا في فلسطين المحتلة قد ضربوا من ذلك بسهم وافر، أعلى الله قدرهم، ورحم شهداءهم، وشفى مرضاهم، وعوَّضهم ما فقدوا، وحقق لهم النصر على عدوّنا وعدوِّهم.

إن الأمة التي تأبى الضيم بحق هي الأمة التي تلد أبطالًا، وتبذل كل مجهود في إعداد وسائل الدفاع، لا يقعُد بها بخل، ولا يُلهيها ترف.

إن تفاضل الأمم في التمتّع بالحرية والسلامة من أرجاس الضيم لا يتبيّن إلا بقدر ما فيها من شهامة الرجال، وما تدّخره من أدوات الرمي والطعان، فإذا ما اجتمع للأمة رأي وسيف وعزّة تجافت عنها المظالم.

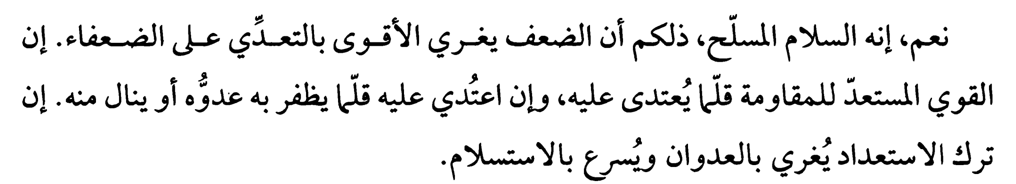
إن العزة وإباء الضيم خلقٌ عظيم، ومركب عزيز، أول ما يقع في نفوس الرجال الموكولِ إليهم تدبيرُ شؤون الأمة، وتنفيذ آمالها، وتحقيق طموحها، ورسم خططها.

إن إباءَ الضيم يدفعها إلى أن تذود عن حياضها، وتدافع عن حماها، ولو كان خصمها أعزَّ نفرًا وأقوى جندًا وأكثر نفيرًا، بل تقف موقف الرجولة والاحتفاظ بالكرامة ولو غلب على ظنّها أنها ستُغلب على أمرها، تفعل هذا إيثارًا لحياة العزة على حياة المهانة، وتجافيًا عن خزي وعار تتناقله الأجيال: الخصوم يبغون الفتنة وهم يبغون السلام.

بإباء الضيم تكون الأمة قوية القنى، جليلة الجاه، وفيرة السنا، تزحزح سحائب الظلم والاستعباد، لا تستكين لقوة، ولا ترهب لسطوة.

أمة الإسلام: ذلك شيء مما يتعلق بالقوة المعنوية والعزة النفسية، أما القوة المادية فلا تحتاج إلى مزيد حديث. إنها إعداد ما يتطلبه الدفاع من وسائل الانتصار على العدو، ولقد تفتقت أذهان أبناء العصر عن مكتشفات ومخترعات لأنواع من القوى وأساليب من الاستعداد والإنذار فاقت كل تصوّر.

أيها المسلمون: إن الاستعداد بالقوة يمنع الحرب من أن يتّقِد أوارها، ويجعل الأمة المستعدة في منعةٍ من أن تهضَم حقوقها، إعدادٌ واستعدادٌ من أجل اتقاء بأس العدو وهجومه. ولقد جاء هذا العرض جليًا واضحًا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، إنه استعداد ليكون سببًا في منع الحرب قبل أن يكون استعدادًا عند نشوبها واشتعالها.



نعم، إنه السلام المسلّح، ذلكم أن الضعف يغري الأقوى بالتعدِّي على الضعفاء. إن القوي المستعدّ للمقاومة قلّما يُعتدى عليه، وإن اعتُدي عليه قلّما يظفر به عدوُّه أو ينال منه. إن ترك الاستعداد يُغري بالعدوان ويُسرع بالاستسلام.

إن أخطر ما تتعرض له الأمة هو الغفلة عن الخطر المحدق بها، والتقاعس عن إعداد القوة القادرة على الدفاع.

إن على الأمة الأبية أن تعُدَّ ذلك مسألة حياة أو موت، اقرؤوا قول ربكم في محكم كتابه: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢]. ومن دقائق تعاليم ديننا وآدابه وشريف غاياته أن العدو إذا عدل عن العدوان وأرهبه السلام المسلَّح كان التوجه حينئذ نحو السلم والحرص عليه وقبوله، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١]، وإن أبى العدو إلا الحرب والقوة فالقوة لا تُدفع إلا بالقوة، والعدوان لا يرد إلا بمثله، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [البقرة:١٩٠]، ففي آداب القتال عندنا: لا يقاتل غيرُ مقاتِل، ولا يُحاسَب إلا المعتدي.

وبعد عباد الله إنما تسقط الأمم في هاوية الذلة إذا صغرت همة رجالها، فلا يُحسون بظلم، ولا يأنفون لعزة، ولا يأثرون لكرامة، يُساقون بذلتهم ومهانتهم إلى جهل ونفرة وشقاق، العاجز لا يُرجى لدفع ملِمَّه، ولا يُؤمَّل في النهوض بهمَّة، كما أنه ليس من العقل ولا من الحكمة الوقوف مع الهزائم، واستعادة الأحزان، والتعثرُ في عقابيلها، وتبادل كلمات اللوم وآهات التحسر: ليت ولو أن، فما كان ذلك من أخلاق الأقوياء، ولا من مسالك ذوي العزة والأنفة وأباة الضيم، وفي التنزيل العزيز حثٌّ لأهل الإيمان أن لا يكونوا مثل أصحاب هذه المسالك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٦-١٥٨].

نعفني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمد، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الإله الحق، لا تُحصى دلائل وحدانيته ولا تُعد، أحمده سبحانه وأشكره، لا ينتهي كرمه ولا يحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تنزّه عن الصاحبة والولد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله أشرف من ركع وسجد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان وسلك مسالك الرَشَد.

أما بعد:

لا تزال الأمم تستبق في إعداد القوة، لكن هل كل من أعد القوة عُدّ ناجحًا؟ وهل كل من ملكها استعملها في حقها؟ كلا، ولكن ينبغي لأصحاب الحق أن يكونوا أحرص على الأخذ بالأسباب وإعداد القوة؛ ليستخدموها في حقها ويضعوها في محلها، فإن القوة متمدَّحَة حين تكون في طرق الخير ووجوه المنافع للنفس والأهل والناس أجمعين، قوةٌ تحقّ الحق وتبطل الباطل، تسير في المسار الصحيح والغايات الشريفة.

أما حينما توظَّف القوةُ في سبيل الشر والأنانية والمصالح الضيقة وإيذاء الناس وبسط النفوذ المستكبر تكون وبالًا على البشرية، بل إنها في المآل وبالٌ حتى على أصحابها، ولقد قالت قوم عادٍ الأولى: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وقال لهم نبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ محذِّرًا ومنذرًا: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٣٠-١٣١].

وفي مراجعة القوة في العصور الراهنة، تلك القوة المتسلطة التي صحبت عهود الاستعمار، إنها قوى شر تسلطت على أمم ضعيفة، جاسوا خلال الديار، يفتشون عن الثروات ويقطعون طرق التجارات، ويستأثرون بالمنافع، في قلوب ملأى بالجشع، ونفوس مفتوحة بالشره، تتقدّمها معدات مُجَنْزَرة، وتظلِّلها طائرات مُزمجِرةً، في عساكر مدربة وإرساليات ماكرة، يقطعون على أهل البلاد أرزاقهم، ويكدِّرون على الوادعين أمنهم، لم تكن تلك القوى في سبيل الله، ولم تكن لإعلاء كلمة الله، بل كانت للشهوات والمصالح الضيقة.

ولقد علم من استقرأ التاريخ أن الحروب المعاصرة أشدّ حروب البشر ضراوة، وأقساها معاناة، وأضرّها أثرًا، ولا يزال كثير من الدول الكبير منها والصغير تنفق على الاستعداد

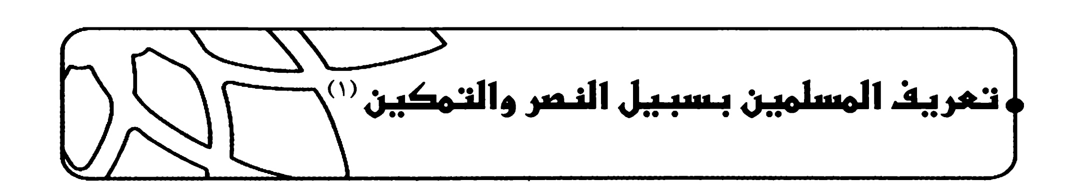
للحروب فوق ما تنفق على المصالح الأخرى الضرورية للدولة وللأمة، بل إن فيها من يُرهق شعوبه بالضرائب لأجلها.

ولولا سوء النية وفساد الطوية في بعض النفوس وقلة الثقة المتبادلة بين كثير من الدول لأمكن الاتفاق سرًا وجهرًا على ما ينادي به الفضلاء ويقترحه العقلاء من تقليل الاستعداد لهذه الحروب المدمّرة، والتي كثرت أسبابها، واتسعت اختراعاتها، وتنوّعت تقانياتها، فصارت خطرًا على غير المقاتلين، تُهلك الحرث والنسل، بل تقضي على كل آثار الحضارة والعمران، ولكن مع الأسف إذا ساد قانون الغاب فلا يُسمع لضعيف قول، ولا يُعترف له بحق، ولو أقام كلَّ البراهين وأدلى بكل الصحيح من الحجج. وحينما يكون العقل لشريعة الاستبداد فالقول قول القوي، والنافذ فعل الظالم، يأخذ وينهب، وليس معنيًا بحجة، ولا سائلًا عن برهان.

ألا فاتقوا الله أيها المسلمون ما استطعتم، وأعدوا من قوة الخير والحق ما استطعتم، ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد نبي الرحمة والملحمة، فقد أمركم بذلك ربكم فقال في محكم تنزيله وهو الصادق في قيله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر والخُلُق الأكمل، وعلى آله الطيبين الطاهرين...





تعريف المسلمين بسبيل النصر والتمكين [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله العزيز الحميد، القوي المجيد، أنذر الطغاة بطشه الشديد، وأذل بالقهر كل جبار عنيد، نحمده ونستنصره وهو على كل شيء شهيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يبدئ ويعيد، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله، أنذر بالقرآن من يخاف وعيد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة لا تزال على كر الجديدين في تجديد، وسلم تسليمًا يكثر ويزيد.

أمّا بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله فإنَّ تقواه أفضَل عِدّة عند البلاء وأمضى مكيدَةٍ عند اللّقاء، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

أيها المسلمون: الأمم تتقلب في أطوار وأطباق، ما بين عزة وذلة، وكثرة وقلة، وغنىً وفقر، وعلم وصناعة، وجهل وإضاعة، وأحوال متقبلة مشاعة. والأمة الواعية مهما عانت من ضراء، وعالجت من بلاء، وكابدت من كيد أعداء، فإنها سرعان ما تُفيق من غفلتها، وتصحو من رقدتها، فتقيم المائد، وتقوِّم الحائد، وترتق الفتق، وترقع الوهى والخرق، لتعود عزيزة الجانب لا يتجاسر عليها غادر، ولا ينالها عدو ماكر.

والأمة المسلمة لا تزال تعايش حروبًا ثائرة وشرورًا متطايرة، تشتت نظامها، وتشعب التئامها، حروب قذرة، يقودها قوم كفرة فجرة، غدرة مكرة، خونة خسرة، لا يرقبون في مؤمن إلا وذمة.

أنّى اتجهت إلى الإسلام في بلدٍ   تجده كالطير مقصوصًا جناحاهُ

(١) صلاح البدير.

فهذه فلسطين المباركة، تصبح وتمسي تحت مرارة الفادحة، وألم الفازعة، وصور المأساة، ومشاهد المعاناة، وصرخات الصغار، وصيحات التعذيب والحصار، ولوعات الثكالى، وآهات اليتامى، تصبح وتمسي على صفوف الأكفان المتتالية، وتشييع الجنائز المحمَّلة، والبيوتات المهدَّمة، والمساجد المنتهَكة، أحداثٌ جسام، تُدمي القلوب وتفطِّر الأكباد، ويقشعر لهولها الفؤاد. أحداثٌ تنادي المسلمين وتستنفرهم، تستصرخهم وتستنصرهم، فهل من مجيب لهذا النداء؟! وهل من مغيث لتلك الدماء والأشلاء؟! هل يليق بالمسلمين وهم أكثر الناس عددًا وأغناهم موارد أن يُسلموا إخوانهم لعُصبة الضلال ويهود البغي والاحتلال، النفوسِ الغاوية، والذئاب العاوية، ليصبحوا هدفًا للدبابات والبارجات، وصدفًا للصواريخ والطائرات، وطعمة للكافرين ونهبة للجائرين؟!

إن تلك الأحداث والصور ما هي إلا صرخات إيقاظ واعتبار واتعاظ، ليعرف المسلمون واقعهم ومواقعهم، ويفيدوا من مآسيهم الدروس والعبر، ويقفوا على أسباب النصر والظفر، بعيدًا عن ردود الفعل الوقتية التائهة، والهتافات الضعيفة الضائعة، ويصلحوا المسار، ويتجنبوا أسباب الذل والخسار.

أيها المسلمون: لله أن يفعَلَ ما يشاء، ويسلّط مَن يشاء على من يَشاء إذا شاءَ، تقويةً وإقدارًا وتغليبًا وإظهارًا، بما رَأى من الحكمة وسبَق من الكَلِمة، إمّا عقوبةً ونِقمة وعذابًا، وإمّا تمحيصًا وابتلاء واختبارًا، قال جل في علاه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾ [النساء:٩٠]، وقال جل في علاه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، إلاّ أن يصيبوا من الذّنوبِ ما يكون سببًا لتسليط الأعداء وحلولِ البلاء ونزول البأساء والضّرّاء، وما تقاعسَ قومٌ عن التوبةِ وتواصوا بالباطل ولم يتناهَوا عن إذاعَةِ المنكر وظهور المعاصِي والشرّ إلا أحلّوا أنفسَهم الخُسرَ والخذلان والذّلّ والهوان، فعن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسولَ الله يقول: «إذا تبايَعتُم بالعينة وأخَذتم أذنابَ البقر ورضِيتم بالزرع وتركتم الجهادَ سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزِعه عنكم حتى ترجِعوا إلى دينِكم»[1]، ويقول

(١) رواه أبو داود وصححه الألباني (٣٤٦٢).

رسول الهدى: «يا معشرَ المهاجرين: خمسٌ إنِ ابتليتم بهن ونزَلنَ بكم أعوذ بالله أن تدركوهنّ: لم تظهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قطّ حتى يُعلِنوا بها إلاّ ظهر فيهم الطّاعونُ والأوجاع التي لم تكن مضَت في أسلافِهِم، ولم ينقُصوا المكيالَ والميزان إلاّ أخِذوا بالسنين وشدّةِ المؤونة وجَور السلطان عليهم، ولم يمنَعوا الزكاةَ إلاّ مُنعوا القطرَ من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا، ولم ينقُضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلاّ سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم وأخَذوا بعضَ ما كانَ في أيدِيهم، وما لم تحكُم أئمَّتُهم بكتابِ الله إلاّ ألقى الله بأسَهم بينهم»[1].

ووقع صِدقُ الخبر وصَدَق سيّدُ البشر محمّد، فها هي قوَى الظّلمِ المخذولَة وقد حلّت في العُقر والدّار وغَلَبت على الأرضِ والذِّمار في عدَدٍ من الأمصار والأقطار..

أيها المسلمون: إن الواجب على الأمة أن تعلَم أن ما أصابها فإنما هو بسبب تقصيرها في جنب ملك الملوك، وتفريطها في الحكم بشريعته، واحترام أحكامها ومعالمها، والوقوف عند حدودها، وعدم تصدِّيها لرياح الإفساد ومسيرة التغريب التي نخرت في الأمة وشبابها وفتياتها، حتى صارت تعاني ويلات الانحراف المرّ في صفوف ناشئتها، بعد أن خان المستأمن، وفرط المستحفَّظ، وغش المستودَع، ودلَّس المستشهَد، في أعظم وديعة وأغلى أمانة، وهي حفظ الدين وتحصين مجتمعات المسلمين من عاديات التغريب وحملات التخريب.

أيها المسلمون: إن الناظر بعين البصر والبصيرة يرى الفرق الشاسع والبون الواسع بين مبادئ الإسلام وقيمه ونظمه، وبين واقع المسلمين اليوم. وإن من أمانة الكلمة وصدق الحديث وصراحة المنطق وواجب النصح والبيان القولَ بأن الأمة ما لم تعترف بتقصيرها الكبير وتفريطها الخطير وأثره المستطير على حاضرها ومستقبلها، وتقم بواجب المراجعة والمعالجة والإصلاح، فإن الحديث عن استرداد ديارها المستباحة وأموالها المجتاحة وإيقاف الاعتداءات الآثمة لا يعدو أن يكون إمعانًا في الوهم، وإسرافًا في الظن، ومغالطة فاحشة، تجرُّ على الأمة آثارًا سيئة لا يُعرف مداها ولا منتهاها. وإذا كان أصحاب رسول الله قاموا بمخالفةٍ واحدة لأمره في غزوة أحد، فأصابَهم ما أصابهم، وهم أفضل جيش تحت قيادة

(1) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٣٢) (٤٠١٩) والحاكم في المستدرك، والبيهقي، وحسنه الالباني.

أفضل الخلق؛ فما بالكم بما يقترفه أبناء الأمة اليوم من المنكرات الفاضحة، والمخالفات الواضحة!

أيها المسلمون: إن أرادت الأمة نصر الله وتأييده، وأن يعود لها التأثير في مجريات الأحداث، فعليها أن تُعيد صياغة الحياة في بلادها وفق رسالة الإسلام، وأن تسوس الدنيا بالدين، وتمحو آثار المفسدين، وتجفِّف منابع الشر، وتحسِم مواد الإفساد، وأن تعمل على تحقيق أهدافها، وبناء قوتها واستعدادها، وأن تسعى لتربية الجيل وإصلاح أوضاعها إصلاحًا شاملًا كاملًا، عقديًا وأخلاقيًا وسلوكيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، حتى لا تتحول جهودها في مواجهة التحدِّيات والمؤامرات سلسلةً من الذل والإحباطات، والصدمات والانتكاسات، وإن الإصلاح الصادق ليس إصلاحًا تحرِّكه بواعث وقتية، أو ملابسات ظرفية، وإنما هو إصلاح صادر عن إيمان راسخ وعقيدة صادقة، واستشعار بأنها مسؤولية أمام الله عَزَّوَجَلَّ، يوم يسأل كل عبد عما استرعاه مولاه: أدَّى أم تعدي؟ يقول رسول الله: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته» رواه البخاري[1].

أيها المسلمون: إن أعداء الدين من اليهود والنصارى والملحدين لا يألون إقدامًا ولا ينكسون إحجامًا في التخطيط لإقصاء الإسلام عن الحياة، وإزاحته عن أرض الواقع، ومحاولة تهميشه وحصره وقصره، وتطويع العالم الإسلامي بتبعية الحياة الغربية، يساندهم في ذلك فسّاق مستغربون، ومنافقون علمانيون، تارةً بتأويل نصوص الوحيين ولوي أعناقها، وتارةً بالنيل من علماء الإسلام، وتارة بالنيل من الدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وغمزهم ولمزهم والتطاول عليهم، واتهامهم بما ليس فيهم، وتارةً بالدعوة إلى الاختلاط، وتحرير المرأة، ونبذ قوامة الرجل عليها، جهالاتٌ مطبقة، وأفكار موبقة، تثير البلبلة، وتخلق الخلخلة، وتزرع بذور الفرقة، يلبسون ثياب الإصلاح على أفئدة عشعش فيها النفاق، فهم كالثمرة الفجَّة الملقاة، انفصلت من شجرة الطهر والعفاف والحياة، فسقطت

(١) رواه البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩).

وتعفّنت، وأنتنت وفسدت، فأنّى يستفاد منها، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١١-١٢].

فعلى الأمة وهي تتلمّس معالم الإصلاح ومنهجيته ومقوّماته وأسسه ووسائله أن تحذر أدعياء الإصلاح الذين تربّوا في حجر الأعداء، فلم تجن الأمة من جهودهم إلا كل حنظل، ومن أفكارهم إلا الأحساك والأشواك والهلاك. وعلى الأمة أن تأخذ الرأي والمشورة من علمائها الأمناء الذين ليس لهم بائقة، ولا يُخاف منهم غائلة، وهم ضمير الأمة وغيظ عدوِّها، وحُرّاس عقيدتها والفضيلة فيها، حتى يصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع، يقول الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن ملكة بلقيس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، وفي صحيح البخاري: (كانت الأئمة بعد النبي يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة، ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدَّوه إلى غيره اقتداءً بالنبي ﷺ)[1]. ويقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأي الواحد كالخيط الواحد، والرأيان كالخيط السحيل، والثلاثة كالحبل».

أيها المسلمون: إن معرفة مكامن الداء وبواعث التجاوزات والأخطاء، مع العمل على سدها وصدّها من أعظم وسائل الإصلاح والبناء، وإن استعمال غير الأكفاء الأمناء الأقوياء وإسداء الأمور والثغور إلى من لا يُؤْمَنُ في توجُّهه وأفكاره وولائه وانتمائه هو جرثومة الفساد، وخراب العباد والبلاد، وقد قال رسول الهدى: «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة» قيل: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2]. يقول ابن بطال: (معنى «وأسند الأمر إلى غير أهله»: أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلَّدوا غير أهل الدين فقد ضيَّعوا الأمانة التي قلَّدهم الله تعالى إياها)[3].

---

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨].

(٢) رواه البخاري (٥٩).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٣٤).

وعلى كل من ولاه الله أمرًا من أمور المسلمين خلافةً أو وزارة أو أمارة أو قضاءً أو رئاسة أو قيادةً أن يتخذ بطانة صالحة وجماعة ناصحة، تحثه على الخير والرشاد، وتنهاه عن البغي والفساد، يقول رسول الله الهدى: «ما بعث الله من نبي ولا كان بعده من خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالًا أي: لا تقصِّر في إفساد أمره فمن وُقي شرها فقد وقي»[1] وزاد: «وهو إلى من يغلب عليه منهما»[2].

أيها المسلمون: وعلى الأمة أن تعمل جاهدةً وهي تلتمس الحلول والمخارج أن لا تنطق الرويبضة أو الفويسقة من الناس في أمورها العامة، وأحداثها الهامة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «سيأتي على الناس سنوات خداعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»[3].

أيها المسلمون: إن الواجب على الأمة أن تقدِّم مقتضيات العقيدة وموجبات الشريعة ومصلحة الدين وحب الله ورسوله على كل أواصر القربى ومناصب الدنيا ولذائذها، في كل مواقفها وعلائقها، وفي جميع أمورها وشؤونها، وأن تكون على يقين لا يساوره شك أن ذلك سبيل صلاح دنياها وانكشاف بلواها. وإن لا تفعل ذلك فهي على خطر أن ينالها ذلك الوعيد الذي تنقدُّ منه الضلوع والتهديد الذي تنماث منه القلوب وتسيل الدموع، الوارد في قوله جل في علاه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، وقوله: «من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدِّر له»[4].

---

(١) رواه البخاري (٧١٩٨)، والنسائي (٤٢٠٢) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

(٢) هذه الزيادة عند النسائي في البيعة (٤٢٠١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٩١)، وابن ماجه (٤٠٣٦) وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٦٥) السلسلة الصحيحة (٩٤٩، ٩٥٠).

ومن نقض عهد الله وعهد رسوله سلط الله عليه عدوه فأذلّه وأخذ بعض ما في يده، يقول رسول الهدى: «يا معشر المهاجرين، خمسٌ إن ابتلِيتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوَّهم من غيرهم، وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم»[1].

فاتقوا الله عباد الله: وكونوا ممن آمن بربه حق الإيمان وأسلم، وفوَّض أمره إلى مولاه وسلَّم، وانقاد لأوامره واستسلم، فقد أسال عليكم من وابل الآلاء وأزال عنكم من وبيء اللأواء وأسبل عليكم من جميل الغطاء وواسع العطاء ما يوجب الخجل منه والحياء.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وغيره، وصححه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (١٠٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها المسلمون: إن الأمة المسلمة لا يجوز أن تقيس مسيرتها السلوكية والتربوية والأخلاقية بمن هم دونها من حثالة البشر، ولا يجوز لها أن تبرِّر تقصيرها بذلك، ولكن عليها أن تعرض أوضاعها الحاضرة وحياتها المعاصرة على نصوص الوحيين الشريفين؛ لأنها الميزان الحق والمقياس الصدق على تقدّم الأمم وتأخرها، وزينها وشينها، قال بعض أهل العلم: (من لم يزن أفعالهُ وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة فلا تعدّه في ديوان الرجال). وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن حمدي زين وإن ذمِّي شين، فقال النبيُّ: «ذلك الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

أيها المسلمون: وواجب على الأمة أن ترعى في مسيرتها الإصلاحية المباركة قاعدة سدّ الذرائع والوسائل المفضية للمفاسد، سواءً كانت موضوعةً للإفضاء إلى مفسدة، أو موضوعةً للمباح قُصد بها التوصل إلى مفسدة، أو موضوعةً للمباح لم يُقصد بها التوصل إلى مفسدة، ولكنها مفضية إليها غالبًا، ومفسدتها راجحة على مصلحتها.

أيها المسلمون: أليس صلاح الأمم بصلاح أبنائها، علمًا وأدبًا، قولًا وفعلًا؟

إذا ليَقُم كل واحد منكم بواجبه في مسيرة الأمة الإصلاحية، بإصلاح نفسه؛ لأن مسيرة الإصلاح تبدأ بإصلاح الذات، ثم نتصدى لإصلاح الأهل والأولاد ومن استطعنا من

---

(١) صحيح الترمذي (٣٢٦٧).

القرابات، ومن ثم إلى سائر الفئات والطبقات، من كان يظن أن أم أحمد ابن حنبل ستُخرج للأمة علمًا من أعلامها؟ وكذلك أم البخاري، وأم سفيان الثوري التي كانت تقول لابنها: يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي، فإذا تعلمت عشرة أحاديث، فانظر هل يزيد إيمانك وخشيتك لله، وإلا فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك. أي: أنها ستكون حجة عليه!

من كان يظن أن ذلك العالم المربي الذي ربّى محمدًا الفاتح، سوف يصوغ شخصية هي التي فتحت مدينة قيصر التي عجز عن فتحها القادة المسلمون الأوائل؟

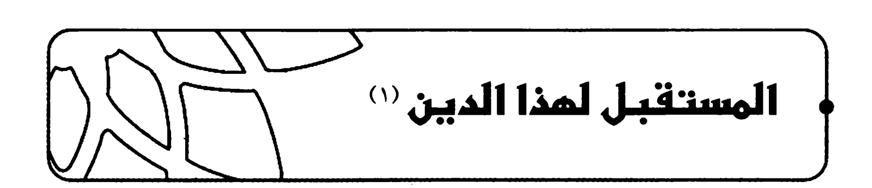
إن على المربين وعلى العلماء والدعاة والمصلحين أن يقوموا بدورهم في نشر العلم والأدب، وغرس الفضائل والقيم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهمّة لا تعرف الفتور، وعزيمة لا تعرف العجز، وقوة لا تعرف الضعف، وحكمة وحنكة لا تعرف التهور، لعل الله سبحانه أن يستنقذ بنا الجيل ويصلح بنا النشء، فإن تحقق الهدف كان هذا هو المطلوب، وإن حان أجلٌ قبل بلوغه كانت النية أبلغ من الأمل، وكما قيل:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المطالبُ

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥].

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية، وأزكى البشرية، فقد أمركم الله بذلك فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].





المستقبل لهذا الدين [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله المُتفرِّد بكمال الذَّات والصِّفات، أحاطَ علمُه بجميع الكائِنات، أحمَدُه سبحانه وأشكرُه على ما أولاه من النِّعَم والخيرات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُبلِغ بفضلِه ومنِّه عاليَ الدرجات، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه ذو الفضلِ والشَّرف والمكرُمات، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آلِه وأصحابِهِ الطيبين الطاهِرين الكرام السادات، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ما دامَت الأرضُ والسماوات، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد:

فاتَّقوا الله عباد الله، اجعَلوا تقواه شعارًا لكم ودِثارًا، واستشعِروا مراقبتَه سرًّا وجهارًا، يفتحِ الله لكم بها من الخير أبوابًا وسدودًا، ويَحُلُّ بها من الضّيق أوثقةً وقيودًا، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وبعد:

أمّة الإسلام، أمّةَ الهادي محمد بن عبد الله، أمّةَ الصحابة الفاتحين والسّلف البانِين، أمّةَ العلم والحضارة والسِّلم والإغارة، تمرُّ أمّتكم اليومَ بعصرٍ ليس هو أحلكَ عصورها، وسنينَ ليست هي أتعسَ سنينها، لقد رَأت هذه الأمّة في تاريخها الطويل من مواقفِ النّصر والهزيمة

(١) صالح آل طالب.

والنَّحس والسّعْد ما تراه كلُّ أمّة، ولكنَّ الخاتمةَ الثابتة في كلِّ حسنُ العاقبة وخير المآل. وأعيدوا النظرَ في التاريخ تجِدوه ناطقًا بهذا بأبلغِ لسانٍ وأوضح بيان.

ألم يرمِنا الشّرقُ بدواهيه، فساق إلينا جيوشَ التّتَر كالسّيل الأطمّ، يحطُّ على بلدان الإسلام العامِرة، كما يحطّ الجرادُ على الحقول الزّاهرة، حتّى أبادت هذه الجيوشُ الممالك، وبلغَ هولاكو عرشَ الخليفة ببغداد، فذبح الخليفَة، وهدَّ العرش، وقوّض الدّولة، فإذا بغدادُ العظيمة حاضرةُ الدنيا وعاصمة الإسلام دمارٌ بعد عمار، وخرابٌ وأطلال، ثمّ ساحوا في الأرض لا يردُّهم شيء، حتّى حسِب الضّعفاء أنّها نهايةُ الإسلام، فنُعِي الإسلام على المنابر، ورُثي المسلمون في الدّفاتر، حتّى قال مؤرّخ الإسلام ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (لقد بقيتُ عدّةَ سنين معرِضًا عن ذكرِ هذه الحادثةِ استعظامًا لها، كارِهًا لذكرها، فمَن الذي يسهُل عليه أن يكتُب نعيَ الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكرُ ذلك؟! فيا ليتَ أمي لم تلِدني، يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيا. هي الحادثةُ العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمَت الليالي والأيام عن مثلِها، عمَّت الخلائقَ وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل: إنَّ العالَم منذ خلق الله تعالى آدمَ إلى الآن لم يُبتَلَوا بمثلها لكان صادقًا، فإنَّ التواريخ لم تتضمَّن ما يقارِبها، ولا ما يدانيها) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولكنَّ الذي لم يدرِكه ابنُ الأثير ولم يُلحِقه بمقولتِه تلك أنَّ الإسلامَ طوى التّتر تحتَ جناحِه، وظلّلهم برايتِه، وانطوَوا تحتَ لوائِه، فانطلقوا فاتحين لبلادِ الهند، فألحقوها بدِيار الإسلام وأهلَها بالمسلمين، وصارَ منهم الملوكُ العادلون والقادَة الفاتحون، وغدَوا عُمقَ أمّتِنا في المشرق، ونُسِيت المصيبة حتّى لا يدري أكثرُ النّاس اليومَ ما خبرُ التّتَر.

ألم يقذِف إلينا البحرُ المتوسِّط سفائنَ النصارى تحمِل السيفَ والصّليب، فبسطوا نفوذَهم على بلاد الإسلام، وأقاموا على كلِّ جبلٍ قلعة، وفي كلِّ وادٍ حامِية، فما هي إلا سنواتٌ حتى ساقتهم الجيوش المسلِمة إلى أسوارِ فِينَّا عاصمةِ النّمسا.

ألم يأتِ الغزاةُ في العصور المتأخِّرة إلى بلاد المسلمين بزعمهم مستعمرين، ولم تبقَ أرضٌ لم تطأها أقدامُهم إلا وسطَ جزيرة العرب، واستحكمت غربةُ الدّين، وغابت أو ضعُفت علومُ

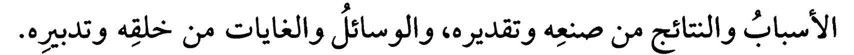
المسلمين، ثمّ حال بهم الحال إلى أن كانوا كسحابٍ استدبرته الريح، فعادَ في السّماء مِزَعًا، وقامت على أطلالِهم صَحوةٌ دينيّة، وأعقبت جلاءَهم تخَطِّينا في مراقي المدنيّة.

فكم لهِذِه الأمّة من وثباتٍ بعد كبَوَات وإغارات بعد غَفَوات، كيف لا؟! وهي الأمّة المرحومةُ المنصورة التي لا يُدرَى خيرها في أوّلها أو في آخرها، كما نطق بذلك المعصوم. فهي أمّة تمرض ولا تموت، وتُجرَح ولا تُذبَح.

أيّها المسلمون: إنَّ أعظمَ ما يُمكِن أن يواجِهه المسلم في وقتِ الأزمات والفِتن خلخلةُ قناعتِه بهذا الدّين وضعفُ ثقته بربِّ العالمين، فهذه وربِّي الطعنةُ النّجلاء، والتي يهون دونَها سلبُ الدّيار وفوات الأعمار.

إنَّ مِن سنن الله تعالى في خلقه بقاءَ الصّراع بين الحقِّ والباطل؛ ليميزَ الله الخبيثَ من الطيّب، وليصطفيَ بالتّمحيص أهلَ الإيمان، وليرفعَ بالابتلاءات درجاتِهم، وما يجري للأمّة مِن أحداثٍ ضِخام تنطوي على أمورٍ قد تكرهُها النّفوس وأحداثٍ تضيق بها القلوبُ سيكون مآلها الأخير بإذن الله النصرُ والعزّة للمسلمين، والتمكينُ لعباد الله المؤمنين، وانقشاع أسبابِ الذلّة والهوان، فهذه الأمّة ليست كغيرِها، فهي الأمّة الموعودَة بالنّصر والعاقبة، وهي الأمّة المحفوظة من الهلاكِ العامّ، وهي أمّة الاستعلاء رغم الجراح، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، قالها الله تعالى لجيش الإسلام وقد خرجَ للتَّوِّ من معركةِ أُحُد، وقد خلَّف سبعين شهيدًا من خِيرة رجالِه مجندَلين على سفحِ أحد، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ قالها الله سبحانَه لأمّة الإسلام وجراحُها تثعب ونبيُّها مشجوج الجَبين مكسورُ الرّباعية، وذلك لأنّ الله تعالى كتب العزّة والعلوّ والرِّفعة لهذه الأمّة في كلِّ أحوالها، في انتصارِها وانكسارِها، في قلّتها وكثرتِها، ما دامت مؤمنَة، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

أيّها المسلمون: إنَّ ممّا يجب اعتقادُه وتذكيرُ النّفسِ به خصوصًا في أوقات الشّدائد والمِحن أنّه لا يقع في هذا الكونِ حادثٌ صغير ولا كبير إلا بعلمٍ وتقدير وتدبيرِ اللطيفِ الخبير، وأنّه لا يخرج عن قدَر الله وقدرتِه شيء في السموات ولا في الأرض، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].



الأسبابُ والنتائج من صنعِه وتقديره، والوسائلُ والغايات من خلقِه وتدبيرِه.

إذا علمنا ذلك كان لِزامًا علينا الفرارُ إلى الله والاعتصام بحبلِه وطلب النجاةِ والنصر من عنده، فهو سبحانه الذي يعطي ويمنَع ويخفض ويَرفع، وقد جعل في خلقِه نـواميسَ وسُـننًا، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

ومِن سننِه سبحانه أن يبتليَ عبادَه ويمحِّصَهم، ثمّ يجعل العاقبة لهم، ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة:٢١٤]، ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

وما يقَع على الأمّة من بلايا ومِحن ومصائبَ وفِتن لهِي حلقةٌ في سلسلة التّمحيص، وطريقٌ إلى التمكين، فلا يجوز أن تكونَ هذه الأحداثُ سبيلًا إلى اليَأس والإحباط، وإن تداعَت علينَا الأممُ كما تداعَى الأكلَة على قصعتِها، بل إنّه بقدْر ما فيها من شدّة وضيق فإنَّ في طيَّاتها خيرًا كثيرًا، وفي ثناياها لله حكمةً وتدبيرًا، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

ولقد كانَ من هدْيِ النّبيّ في الشدائد التبشيرُ والتّشجيع وضربُ المثلِ بالسباقين إشارةً إلى سنّة الله تعالى في خلقه، يقول خبّاب بن الأرتّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شكَونا إلى رسـول الله وهـو متوسِّـدٌ بردَةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصِر لنا؟! ألا تدعو لنا؟! فقال: «قد كان مَـن قـبلكم يُؤخذ الرجلُ فيحفَر له في الأرض، فيجعَل فيها، فيُجاء بالمِنشار، فيوضَع على رأسه، فيجعَـل نصفين، ويمشَط بأمشاطِ الحديد ما دونَ لحمِه وعظمه، فما يصدّه ذلك عن دينه. والله، ليتمَّنَّ الله هذا الأمرَ حتى يأتي الراكب من صـنعاء إلى حضـرموت لا يخـاف إلا الله والـذئبَ عـلى غنمِه، ولكنّكم تستعجلون»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤٣).

والنبيّ يبيِّن لنا بذلك أن المستقبلَ لهذا الدين، وأنَّ العاقبة للإسلام والمسلمين، ولا يجوز إطلاقًا أن نشكَّ في ذلك، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، عن تميم الداريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتَ مدَرٍ ولا وبَر إلا أدخله الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليل، عزًّا يعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يذلّ الله به الكفر»[1].

أمّةَ الإسلام، إنَّ يقينَنا بالنّصر وثقتنا بوعد الله تعالى وظهور البشائر بذلك لا يعني القعودَ والاتكال، كما لا يعني غضَّ الطرف عن الخطأ والخللِ والنّقص والتقصير الذي لا زال موجودًا في الأمّة، بل الواجب مع إذكاءِ جانبِ الثقة بوعدِ الله العودةُ الصّادقة إلى الله سبحانه، فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة، والله تعالى لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم. إذًا فالتّغيير يأتي من الدّاخل ومن إصلاح الذات، وسنةُ الله لا تتخلّف.

إنَّ أمّةً نزل البلاء في نواحيها واستهدفها العدوُّ في دينها وأراضيها يجب أن تكونَ أبعدَ الناس عن اللهو والترفِ والركون إلى الدنيا وزينتِها، وأن تصرفَ جهودَها وطاقاتِها للتقرّب إلى خالقها وباريها، وأن تخلِصَ له الدّين، وتوحِّد لله ربِّ العالمين، وأن تقلِعَ عن المعاصي والشهوات، وتهجُر الذنوبَ والمنكرات، فهي التي أبحرت بفئامٍ من الأمّة إلى بحارٍ من الظّلمات، كما يجِب على كلّ مسلمٍ أن يتذكّر دائمًا أنّه لا طريق لسعادةِ الدنيا والآخرة ولا سبيلَ إلى الفوز والفلاح والأمن والنّجاح إلا بالتمسّك بصراط الله المستقيم، وتحكيمِ أمر الله ونهيه، وتقديمِ حكمِه وشرعِه في كلِّ التصرّفات والتصوّرات في النّفس وفي الجماعة، وأنَّ العبدَ لا يكون مؤمِنًا حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به النبي، وهذا يقتضي عودةً صادقة إلى منهَل الوحي الصّافي، وتمسُّكًا حقيقيًّا بالكتاب والسنّة، واتّباعًا لهدي النبيّ في كلِّ الأمور، بعيدًا عمّا تمليه أذهانُ البشر، أو معارضةِ الوحي بالاستحسان والنظر.

---

(١) رواه الحاكم (٥/ ٦١٥) وغيره، وصححه الألباني في تحذير الساجد (١٥٨).

إنَّ الإسلامَ أيها المسلمون دينٌ حيٌّ يبعث الحياةَ فيمن يحسِن الأخذَ به، فإذا أتى جيلٌ معرِض أو مُغرض احتفظ الدّين بحيويّته حتّى يسلمَها إلى جيلٍ ما زال في سُدُف الغَيب ورحِم المستقبَل، ليأخذَ الكتاب بقوَّة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

بارك الله لي ولكم في القرآنِ العظيم، ونفَعنا وإيّاكم بما فيه من الآيات والذّكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنب وخطيئة، فاستغفِروه وتوبوا إليه، إنّه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ومنَّ علينا ببعثةِ خيرِ الأنام، أحمده تعالى على نعمِه العِظام، وأشكره على آلائِه الجسام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهَد أنّ نبيّنا محمَّدًا عبده ورسوله القدوة الإمام، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح للأمّة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فاتَّقوا الله عبادَ الله، واعلموا أنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهديِ هدي محمّد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة.

أيّها المسلمون: لقد أظهرتِ الأيامُ الخوالي إفلاسَ الحضارةِ الجوفاء من الدّين، أظهرَت إفلاسَها من القيَم والأخلاق، ومخالفتَها للعهود والمواثيق، وخواءَها من الرّحمة والعدل؛ لأنَّها ببساطةٍ لم تُضبَط بميزان الشرع، ولم تستمدَّ تعاليمَها من نور الوحي. وهذه حقيقةٌ أعلنَها علماءُ الإسلام منذ بداية النهضةِ الحديثة، وها هي تجلَّت أكثرَ من ذي قبل في التّعامل مع قضايَا المسلمين مِن قبلُ ومن بعدُ. وهي فرصة ليتنبَّه المسلمون لواقعهم، ويعرِفوا حقيقةَ عدوِّهم، ويزدادوا ثقةً بإسلامِهم وصدقِ وعدالةِ ما نحن عليه من دينٍ وأحقِّيَّة وخيرية ما نطالبُ به من قضايا، ولنتَّجهَ جميعًا إلى ربّنا لنستمدَّ منه النصرَ، ونطلبَ منه أسبابَ الحياة، لا مِن غيره.

أيّها المسلمون: وممَّا يجدر التذكيرُ به وإعادتُه والتأكيدُ عليه خصوصًا في الأزماتِ والفِتن الالتزامُ بالمنهج الشّرعيّ عند وقوعِ الفتن من الصبر والمصابرة، ولزوم جماعة المسلمين، ونبذِ الفرقة والخلاف، والبعدِ عن الاستعجال في المواقف، والمحافظة على أمنِ بلاد المسلمين ووَحدتها، وأن لا يكونَ المسلم مِعوَل هدمٍ لإيقاع الفتنة في بلادِ المسلمين من حيث يشعُر أو لا يشعر، فإنَّ مصلحةَ العدوِّ المتربِّص أن يرى الفتنَ في بلاد المسلمين قائمة، وأن يشتغل بعضُهم ببعض، ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣].

كما يجب حفظُ اللسان عن الوقوع في أعراضِ المسلمين أو الاستهانة بالحكم على الآخرين، «وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم؟!»[1]. وحين تُنشر الصّحف ستعرفُ ما نطقَ به فاك وما كتبته يداك.

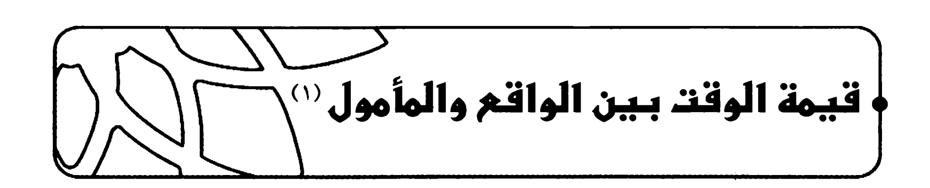
عباد الله: الزَموا التضرّع إلى الله وسؤالَه ودعاءه ورجاءه، ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

واعلموا أن هذه الأمة تمرض، لكنها لا تموت، وتخبو لكنها لاتنطفئ، ولقد جاء التتار في حقبة من حقب التاريخ كالريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، حتى ظن البعض أن أمة الإسلام قد قُضي عليها، أو أن القيامة قد قامت.. وما هي إلا مدة يسيرة حتى ابتلعهم الإسلام، فأسلم كثير منهم، ومن بقي منهم هُزموا شر هزيمة وولوا عن ديار الإسلام مدبرين، وانتهت أسطورة: إن التتار قوة لا تُغلب، وهكذا كل قوة ذاهبة إلا قوة الله، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]، فلا تيأسوا ولاتقنطوا، ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين..

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية..



(١) صحيح الترمذي (٢٦١٦).



قيمة الوقت بين الواقع والمأمول[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله، الحمدُ لله طاعتُه أفضلُ مُكتَسَب، وتقوَاه أعلَى نَسَب، أحمدُه سبحانه وأشكرُه، لا مانِعَ لما أعطَى، ولا مُعطيَ لما سَلَب، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أرجُو بها النَّجاةَ، يوم الشدائد والكُرَب.

وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه، النبيُّ المُنتَجَب، والرسولُ المُنتَخَب، صلَّى الله وسلَّم وبارَكَ عليه، وعلى أصحابه حازُوا أعلى المقامات وعالِيَ الرُّتَب، والتّابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مزيدًا، ما أضاء شِهاب ونجمٌ غرَب.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، ألا تطمعون في اللحاق بالصالحين؟! ألا تتسابقون في الخيرات مع المُتسابقين؟! كم بين الساعي والقاعد والراغب والزاهد؟! السابقون السابقون شغلَهم حبُّ مولاهم عن ملذَّات دنياهم، والمُتنافِسون المُتنافِسون دموعُهم على وَجَناتِهم تتدفَّق، يشتاقون إلى الحبيب، والحبيبُ إليهم أشوق، ما أبهى منظرهم في ظُلمات الدُّجَى ونورُهم قد أشرق، تعرفهم بسيماهم وللصدق نورَق.

أيها الناس: لقد عني القرآن والسنة بالوقت من نواحٍ شتى وبصور عديدة، فقد أقسم الله به في مطالع سور عديدة بأجزاء منه مثل الليل، والنهار، والفجر، والضحى، والعصر.

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١-٢]، ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ [الفجر:١-٢]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ﴾ [الضحى:١-٢]، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾

---

(١) خالد بدير بدوي.

[العصر:١-٢]. ومعروف أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه دلَّ ذلك على أهميته وعظمته، وليلفت الأنظار إليه وينبه على جليل منفعته.

وجاءت السنة لتؤكد على أهمية الوقت وقيمة الزمن، وتقرر أن الإنسان مسئول عنه يوم القيامة، فعن معاذ بن جبل أن رسول الله قال: «لنْ تَزُولَ قَدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَرْبَعِ خِصالٍ عن عُمُرِهِ فيمَ أَفْناهُ؟ وعَنْ شَبابِهِ فيمَ أَبْلاهُ؟ وعَنْ مالِهِ من أينَ اكْتَسَبَهُ وفيمَ أَنْفَقَهُ؟ وعَنْ علمِهِ ماذا عمِلَ فيهِ»[1]. وأخبر النبي أن الوقت نعمة من نعم الله على خلقه ولابد للعبد من شكر النعمة وإلا سُلبت وذهبت. وشكر نعمة الوقت يكون باستعمالها في الطاعات، واستثمارها في الباقيات الصالحات، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»[2] ومعنى قوله ﷺ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:١٨] أيْ الذي يُوَفَّقُ لذلك قليلٌ فقد يكون الإنسانُ صحيحًا، ولا يكون متفرِّغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا، ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا - الصحةُ والفراغُ - فغَلَبَ على الإنسان الكسلُ عن الطاعة فهو المغبونُ، والغبنُ أنْ تشتريَ بأضعافِ الثمنِ، وأنْ تبيعَ بأقَلَّ مِن ثمنِ المِثْلِ.

فالآيات والأحاديث تشير إلى أهمية الوقت في حياة المسلم؛ لذلك فلابد من الحفاظ عليه وعدم تضييعه في أعمال قد تجلب لنا الشر وتبعدنا عن طريق الخير، فالوقت يمضي ولا يعود مرة أخرى.

إن الإنسان إذا عرف قيمة شيء ما وأهميته حرص عليه وعزَّ عليه ضياعه وفواته، وهذا شيء بديهي، فالمسلم إذا أدرك قيمة وقته وأهميته، كان أكثر حرصًا على حفظه واغتنامه فيما يقربه من ربه، وها هو الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يبين هذه الحقيقة بقوله: (وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مرَّ السحاب، فمن كان وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس

(١) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤١٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤١٢).

محسوبًا من حياته.... فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير من حياته).

ويقول ابن الجوزي: (ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل).

إن الوقت أغلى من المال لأن الإنسانُ حينما يَحرقُ مبلغًا كبيرًا مِنَ المال يُحكَم عليه بالسَّفَهِ، ويُحْجَر على تصرفاتِه، ولأنه مركَّبٌ في أعماقِ الإنسانِ أنّ الوقتَ أثمنُ مِنَ المالِ، بدليلِ أنه يبيعُ بيتَه الذي يسكنُه ولا يملكُ شيئًا سِوَاهُ ليُجريَ بثمنِه عمليةً جراحيةً، متوهِّمًا أنّها تزيدُ في حياتِه سنواتٍ عدةً، فالوقتُ عندَ كلّ إنسانٍ أثمنُ مِنَ المال، وبناءً على هذه المُسَلَّمَةِ فإنّ الذي يُتلفُ وقتَه أشدُّ سَفَهًا مِنَ الذي يُتْلِفُ مالَه.

قال الحسن البصري: (يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا ذهب يوم ذهب بعضك). وقال: (يا ابن آدم، نهارك ضيفك فأحسِن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بذمّك، وكذلك ليلتك). وقال: (الدنيا ثلاثة أيام: أما الأمس فقد ذهب بما فيه، وأما غدًا فلعلّك لا تدركه، وأما اليوم فلك فاعمل فيه).

لذلك كانوا لا يندمون إلا على فوات الوقت الذي لم يرفعهم درجة، قال ابن مسعود: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزدد فيه عملي».

وقال ابن القيم: (إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها).

وقال السري بن المفلس: (إن اغتممت بما ينقص من مالك، فابكِ على ما ينقص من عمرك).

أحبتي في الله: هذه قيمة الوقت وأهميته فعلينا أن نستغل الأوقات وأن نجعل حياتنا كلها لله، فلا نضيع من أوقاتنا ما نتحسر عليه يوم القيامة، فالوقت سريع الانقضاء فهو يمر مر السحاب.

أيها المسلمون: لقد حرص السلف الصالح علي وقتهم بما يعجز عنه الوصف والتعبير، وصفهم الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم.

ونقل عن عامر بن قيس من التابعين: (أن رجلًا قال له: تعال أكلمك، قال: أمسك الشمس)، يعني أوقفها لي واحبسها عن المسير لأكلمك، فإن الزمن سريع المضي لا يعود بعد مروره، فخسارته لا يمكن تعويضها واستدراكها.

قيل لسفيانَ الثوري: اجلس معنا نتحدث. قال: (كيف نتحدثُ والنهارُ يعملُ عملَه، ما طلعت الشمسُ إلا كانت شاهدةً على العبادِ فيما فعلوا؟!!).

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حالة راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره)[1].

فانظر كيف يستغل وقت طعامه وراحته في إعمال فكره فيسطره بعد قضاء حوائجه الشخصية؟!!!

ويقول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما» وقال بعضهم: (من أمضى يومًا من عمره في غير حقٍ قضاه، أو فرض أداه، أو مجدٍ أصله، أو حمد حصله، أو خيرٍ أسسه، أو علمٍ اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه).

فكم نضيع من أوقاتنا بلا فائدة في ديننا أو دنيانا، ومن أقوال الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللًا لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة. وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (صحبتُ الصوفية فما انتفعتُ منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون: الوقتُ سيفٌ، فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسُك إن لم تشغلها بالحقِّ شغلتك بالباطل).

حتى إن ساعات الأكل لقوام حياتهم ومعاشهم كانت ثقيلة عليهم، فقد سألوا الخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما هي أثقل الساعات عليك؟ قال: (ساعة آكل فيها). وكَانَ دَاوُدُ

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ١٤٥).

الطَّائِيُّ يَشْرَبُ الْفَتِيتَ وَلَا يَأْكُلُ الْـخُبْزَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: (بَيْنَ مَضْغِ الْـخُبْزِ وَشُرْبِ الْفَتِيتِ قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً)(١).

يا الله!! كم نضيع من الساعات في اللهو واللغو وما لا يرضي الله؟! إذا كانوا حريصين على الوقت في طعامهم وشرابهم ويعتبرونه مضيعةً فكيف بنا؟!! يا الله! لطفك بنا يا رحمن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها)(٢).

وهناك قصة طريفة للشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع النجَّار وباب المكتبة، تبين مدى حرصهم على الوقت، فقد نادى النَجَّار -نَجَارًا من النَجَّارين ناداهُ مرةً- قال لهُ: (أريدُ أن تقلِبَ بابَ المكتبة، بَدَلْ من أن يَفتح على الجهة اليمين تجعله يفتح على الجهة الشِمال. نظر إليه النجار - يعني ما السِّر؟ قال يا شيخ يعني يمين أو شمال ما المشكلة؟ قال-يعني الشيخ الألباني-: تستطيع؟ قال-النجار- طبعا أستطيع لكن قل لي ما السبب؟ قال-الشيخ الألباني-أنا وضعت مكتبي هنا فإذا كان الباب يفتح هكذا سأضطر أن أمشي خمس خُطُوَات زَائِدَة كي أصِل إلى المكتب، فأنا أخرج من المكتب خمس صلوات في اليوم والليلة؛ وقد أخرج مشوارًا لأغراض البيت أو لمحاضرة أو كذا فهذه سبع مرات كل مرة بين ذهاب وإيَّاب، هاذي حوالي ربع ساعة أو ثلث ساعة ضاعت مني، في الأسبوع كم سيضيع؟! في الشهر كم سيضيع؟! لكن إذا فعلنا هكذا تكون رجلٌ في الباب ورجلٌ على المكتب فلا أُضيع وقتي).

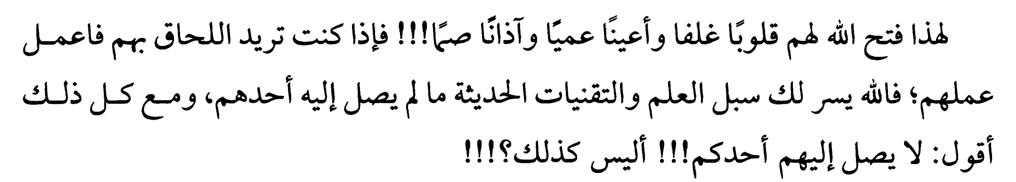
والوَقْتُ أنفَسُ ما عُنِيتُ بحفظِهِ وأُرَاهُ أسْهَلَ مَا عَلَيَّ يَضِيعُ

يقول عبد الرحمن ابن الإمام أبي حاتم الرازي: (ربما كان أبي يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه) فكانت ثمرة هذا المجهود وهذا الحرص على استغلال الوقت كتاب الجرح والتعديل في تسعة مجلدات وكتاب التفسير في مجلدات عدة وكتاب السند في ألف جزء.

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (١/ ٣٤٦).

(٢) الفوائد (ص ٤٤).



لهذا فتح الله لهم قلوبًا غلفا وأعينًا عميًا وآذانًا صمًا!!! فإذا كنت تريد اللحاق بهم فاعمل عملهم؛ فالله يسر لك سبل العلم والتقنيات الحديثة ما لم يصل إليه أحدهم، ومع كل ذلك أقول: لا يصل إليهم أحدكم!!! أليس كذلك؟!!!

لقد ضرب لنا السلف الصالح أروع الأمثلة في اغتنام الأوقات حتى آخر رمق في حياتهم، سواءً كان العمل دنيويًا أم أخرويًا، فمن العمل الدنيوي ما أخرجه الطبراني في الجامع الكبير: عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: «ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غدا فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها، فقال عمارة: فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي».

ومن العمل الأخروي ما روى عن الجنيدِ ابنُ محمدٍ أن الوفاةَ حضرتُه، فأخذ يقرأُ القرآنَ في سكراتِ الموتِ ويبكي، فقالوا له تقرأُ القرآن وأنت في سكراتِ الموتِ! قال: (سبحانَ الله، من أحوجُ مني بقراءةِ القرآنَ وقد أصبحت لحظات تعدُ عليَّ).

لذلك قال سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأمقت الرجل أن أراه فارغا ليس في شي من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة».

ولذلك شكى وبكى الصالحون والطالحون ضيقَ العمر، وبكى الأخيارُ والفجارُ انصرامَ الأوقات، فأما الأخيارُ فبكوا وندموا على أنهم ما تزودوا أكثر، وأما الفجارُ فتأسفوا على ما فعلوا في الأيامِ الخالية.

قال أهلُ السيرِ: (حضرت الوفاةُ نوحا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقيل له يا نوحُ كيف وجدت الحياة؟ قال والذي نفسي بيدِه ما وجدتُ الحياةَ إلا كبيتٍ له بابان دخلتُ من هذا وخرجتُ من الآخر. فيا ابنَ الستينَ والسبعين أنت ما عشت ألفَ سنة، فكيفَ تصفُ الستينَ والسبعينَ في معاصي الله، وفي انتهاكِ حدودِ الله، وفي التجرؤ على حُرماتِ الله؟!!).

عباد الله: إن تقارب الوقت والزمن وسرعة مروره دون فائدة علامة على قرب الساعة، فقد أخرج الترمذي عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ

الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ»[1] وفي رواية «وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ الْخُوصَةُ»[2] أي ورق الجريد اليابس، وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ. قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ الْقَتْلُ»[3] فهذه العلامة من علامات الساعة من أوضح العلامات وأظهرها اليوم؛ إذ أننا نشهد وقوعها اليوم ونراها واضحة جلية، فالوقت يمر على الناس بصورة سريعة تدعو للدهشة والتأمل، فلا بركة في الوقت؛ حتى يخيل إلى الواحد أن السنة كالشهر والشهر كالأسبوع والأسبوع كاليوم؛ ولا أصدق من وصف النبي ﷺ. قال ابن حجر: (قد وجد ذلك في زماننا هذا ، فإننا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا).

قلت: كيف لو رأى زماننا اليوم ! فنحن اليوم نشهد بوضوح هذه المعاني لتقارب الزمان فلا يوجد بركة في الوقت وأصبح الناس يتحدثون عن السنوات وكأنها أشهر ناهيك عن الأيام والأسابيع !

نسأل الله التوفيق لمرضاته..

---

(١) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٣٢).

(٢) حسّنه الوادعي في الصحيح المسند (١٤٦٠).

(٣) رواه البخاري (٧٠٦١) ومسلم (١٥٧).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أحبتي في الله: تعالوا بنا إلى تطبيق واقعنا المأمول، وكيف نستثمر وقتنا كما فعل سلفنا الصالح، وذلك من خلال الأسباب التي تعين على حفظ الوقت وتتلخص فيما يلي:

أولًا: محاسبة النفس: وهي من أعظم الوسائل التي تعين المسلم على اغتنام وقته في طاعة الله. وهي دأب الصالحين وطريق المتقين، فحاسب نفسك أخي المسلم واسألها ماذا عملت في يومها الذي انقضى؟ وأين أنفقت وقتك؟ وفي أي شيء أمضيت ساعات يومك؟ هل ازددت فيه من الحسنات أم ازددت فيه من السيئات؟!

ثانيًا: تربية النفس على علو الهمة: فمن ربَّى نفسه على معالي الأمور والتباعد عن سفسافها، كان أحرص على اغتنام وقته، ومن علت همته لم يقنع بالدون، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

ثالثًا: صحبة الأشخاص المحافظين على أوقاتهم: فإن صحبة هؤلاء ومخالطتهم، والحرص على القرب منهم والتأسي بهم، تعين على اغتنام الوقت، وتقوي النفس على استغلال ساعات العمر في طاعة الله، ورحم الله من قال:

إذا كنتَ في قومٍ فصاحِب خِيارَهم ... ولا تصحبِ الأردى فتردى مع الرَّدِي

عن المرءِ لا تَسَلْ وسَلْ عن قرينهِ ... فكلُّ قرينٍ بالمقارَن يقتدِي

كما يجب الابتعاد عن صحبة مضيعي الأوقات فإن مصاحبة الكسالى ومخالطة مضيعي الأوقات، مهدرة لطاقات الإنسان، مضيعة لأوقاته، والمرء يقاس بجليسه وقرينه، ولهذا يقول عبد الله بن مسعود: «اعتبروا الرجل بمن يصاحب، فإنما يصاحب الرجل من هو مثله».

رابعًا: معرفة حال السلف مع الوقت: فإن معرفة أحوالهم وقراءة سيرهم لَأكبر عون للمسلم على حسن استغلال وقته، فهم خير من أدرك قيمة الوقت وأهمية العمر، وهم أروع

الأمثلة في اغتنام دقائق العمر واستغلال أنفاسه في طاعة الله، وقد سبقت صور مشرقة لذلك.

خامسًا: تنويع ما يُستغل به الوقت: فإن النفس بطبيعتها سريعة الملل، وتنفر من الشيء المكرر، وتنويع الأعمال يساعد النفس على استغلال أكبر قدر ممكن من الوقت.

سادسًا: إدراك أن ما مضى من الوقت لا يعود ولا يُعوَّض: فكل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر، ليس في الإمكان استعادتها، وبالتالي لا يمكن تعويضها. وهذا معنى ما قاله الحسن: (ما من يوم يمرُّ على ابن آدم إلا وهو يقول: يا ابن آدم، أنا يوم جديد، وعلى عملك شهيد، وإذا ذهبت عنك لم أرجع إليك، فقدِّم ما شئت تجده بين يديك، وأخِّر ما شئت فلن يعود إليك أبدًا).

سابعًا: تذكُّر الموت وساعة الاحتضار: فحين يستدبر الإنسان الدنيا، ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو مُنح مهلة من الزمن، ليصلح ما أفسد، ويتدارك ما فات، ولكن هيهات هيهات، فقد انتهى زمن العمل وحان زمن الحساب والجزاء. فتذكُّر الإنسان لهذا يجعله حريصًا على اغتنام وقته في مرضاة الله تعالى.

ثامنًا: تذكُّر السؤال عن الوقت يوم القيامة: فحين يقف الإنسان أمام ربه في ذلك اليوم العصيب فيسأله عن وقته وعمره، كيف قضاه؟ وأين أنفقه؟ وفيم استغله؟ وبأي شيء ملأه؟ فتذكرُ هذا يعين المسلم على حفظ وقته، واغتنامه في مرضاة الله.

تاسعًا: الحرص على الاستفادة من الوقت: فإذا كان الإنسان شديد الحرص على المال، شديد المحافظة عليه والاستفادة منه، وهو يعلم أن المال يأتي ويروح، فلابد أن يكون حرصه على وقته والاستفادة منه كله فيما ينفعه في دينه ودنياه، وما يعود عليه بالخير والسعادة أكبر، خاصة إذا علم أن ما يذهب منه لا يعود. ولقد كان السلف الصالح أحرص ما يكونون على أوقاتهم؛ لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها، وكانوا يحرصون كل الحرص على ألا يمر يوم أو بعض يوم أو برهة من الزمان وإن قصرت دون أن يتزودوا منها بعلم نافع أو عمل صالح أو مجاهدة للنفس أو إسداء نفع إلى الغير، يقول الحسن: (أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم).

عاشرًا: تنظيم الوقت: بين الواجبات والأعمال المختلفة دينية كانت أو دنيوية بحيث لا يطغى بعضها على بعض، ولا يطغى غير المهم على المهم. يقول أحد الصالحين: (أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية. ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية: فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنَّة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، ومن كان وقته المعصية فسبيله التوبة والاستغفار، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا والصبر).

السبب الحادي عشر لحفظ الوقت: اغتنام وقت فراغه: الفراغ نعمة يغفل عنها كثير من الناس فنراهم لا يؤدون شكرها، ولا يقدرونها حق قدرها، يقول أحد الصالحين: (فراغ الوقت من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر العبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجرَّ في قِياد الشهوات، شوَّش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء قلبه). فلابد للعاقل أن يشغل وقت فراغه بالخير وإلا انقلبت نعمة الفراغ نقمة على صاحبها، ولهذا قيل: (الفراغ للرجال غفلة، وللنساء غُلْمة) أي محرك للشهوة.

أحبتي في الله: هيا إلى اغتنام الأوقات والعودة إلى رب الأرض والسماوات، وإياكم والتسويف فإن التسويف آفة تدمر الوقت وتقتل العمر، قال الحسن: (إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غدًا لك فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم). وللأسف فقد أصبح ضياع الوقت والكسل والتأجيل شعارًا لكثير من المسلمين وطابعًا لهم، فإياك أخي المسلم من التسويف فإنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد، وإن ضمنت حياتك إلى الغد فلا تأمن المعوِّقات من مرض طارئ أو شغل عارض أو بلاء نازل، واعلم أن لكل يوم عملًا، ولكل وقت واجباته، فليس هناك وقت فراغ في حياة المسلم، كما أن التسويف في فعل الطاعات يجعل النفس تعتاد تركها، يقول عبد الله بن عمر: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك».

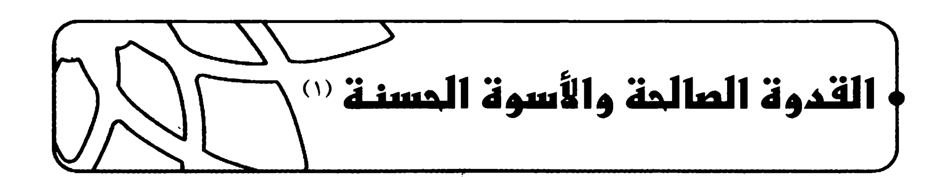
تــزوَّد مــن التقــوى فإنــك لا تــدري إذا جــنَّ ليــلٌ هــل تعــيشُ إلى الفجــرِ

فكــم مــن ســليمٍ مــات مــن غــير عِلَّــةٍ وكم من سقيمٍ عـاش حِينًـا مـن الـدهرِ

وكــم مــن فتــىً يمســـي ويصــبح آمنًــا وقــد نُســجتْ أكفانُــه وهــو لا يــدري

فبادر أخي المسلم باغتنام أوقات عمرك في طاعة الله، واحـذر مـن التسـويف والكسـل، فكم في المقابر من قتيل سوف. والتسويف سيف يقطع المرء عـن اسـتغلال أنفاسـه في طاعـة ربه، فاحذر أن تكون من قتلاه وضحاياه.





القدوة الصالحة والأسوة الحسنة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله ليس لفضلِه مُنتهى، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه:٥-٨]، أحمده سبحانه وأشكرُه، نعمُه لا تُحصَى، وجودُه لا يُستقصَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمدُ في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه المبعوثُ بالرحمة والهُدى، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، سلَّم عليه الشجر، وسبَّح بين يدَيه الحصَى، وعلى آله السادة الطيبين النُّجبَاء، وأصحابِه الغُرِّ الميامين الأصفِياء، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ وسارَ على نهجِهم فاهتدَى.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

أيها الناس: القُدْوة الحسنة أو القدوة الصالحة، أو المثل الأعلى في دنيا الناس..

يقول تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢١].

لقد فطر الله الناس على أن يتشبه بعضهم ببعض، قال ابن تيمية: (كم من الناس من لم يُرد خيرًا ولا شرًا حتى رأى غيره - لا سيما نظيره - يفعله ففعله؛ فإن الناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض؛ ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه).

---

(١) عبدالرحمن هوساوي.

ومن هنا كانت حاجة الناس ماسةً إلى القدوة، فاختار الله برحمته لهم أفضل الخلق ليكون لهم أسوة.

إن منهج الإسلام يحتاج إلى بشر يحمله ويترجمه بسلوكه وتصرفاته، فيحوِّله إلى واقع محسوس وعمل ملموس، ولذلك فالمسلم لا يتخبط في اختيار قدواته كما يتخبط غيره، لأن الله قد اختار له أفضل قدوة على الإطلاق، خير البشر وأكملهم خُلقًا وأرجحهم عقلًا وأصدقهم حالًا ومقالًا، أرحم الخلق بالخلق وأتبعهم للحق، بعد أن وضع في شخصيته الصورة الكاملة للمنهج- ليترجم هذا المنهج ويكون خير قدوة وأفضل أسوة لكل الأمة. فمن كان يرجو لقاء ربه والفلاح في الدنيا والآخرة فلا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

لقد أرسل الله نبيه محمدًا ﷺ ليغير مجرى التاريخ، ويبيض وجه الأرض، وينظم شؤون الحياة، بالوحي الذي جاء به من عند الله، فتجمعت في شخصه الكريم كل الصفات الحميدة، والأخلاق الحسنة التي تفرقت في البشر السوي... !! كان ﷺ مع ربه العبد الطائع، وكان مع الناس الفقير الجائع، وكان مع زوجاته المحب الودود، وكان مع جيرانه الكريم الجواد وهذه إنما تتوفر في القائد القدوة.

إن رحمة الله نالت رسول الله ﷺ ونالت كذلك صحابته الكرام فجعلته رحيما بهم، لينا معهم، ولو كان فظا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم... ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]

لقد كان أبا روحيا ورب أسرة يقوم على شؤونها لا المادية فقط وإنما النفسية والاجتماعية، والأخلاقية والسلوكية. «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» صحيح.

كما كان رجلًا عابدًا لله عَزَّوَجَلَّ وكأنه ما خلق إلا للعبادة وحدها فيقوم الليل حتى تتورم قدماه، فيُسأل في ذلك فيقول «أفلا أكون عبدا شكورا» ومن هنا يجب أن يكون هو القدوة لكل من أراد أن يقتدي ويقود، لمن أراد أن يهتدي ويسود، لمن أراد أن يَصلُح ويُصلِح.

إن محمدا عليه الصلاة والسلام هو الإنسان الفذ الذي يستطيع بمنهاجه أن يقود العالم، ويستطيع بسيرته أن يحشد خلفه الشعوب، والقاسم المشترك بينه وبين الناس هو العقل الصاحي والقلب السليم، واشتراك الأرض مع السماء في التسبيح بحمد الخالق والثناء عليه بما هو أهله، وإعلان السمع والطاعة له وحده.

كان عليه الصلاة والسلام فصيحًا بليغًا في قوله، صادقًا سويًا في فعله. قال عنه أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «طفت العرب وسمعت إلى فصاحتهم فلم أجد أفصح من رسول الله لسانًا». وقالت عنه السيدة عائشة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «كان خلقه القرآن، أو كان قرآنا يمشي على الأرض». وقالت له السيدة خديجة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتَقْري الضيف، وتُكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق» متفق عليه.

وقال عنه القرآن: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥] فهو النور، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] وكان وصف الرسول عليه الصلاة والسلام في التوراة «أنت عبدي ورسولي. سميتك المتوكل. ليس بفظٍّ و لا غليظ. ولا صخاب في الأسواق. ولا يدفع السيئة بالسيئة. ولكن يعفو ويصفح. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا»، أخرجه الإمام البخاري في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

إن محمد ﷺ هو القدوة الصالحة التي أصلحت الكون كله سياسيا واجتماعيا وصحيا واقتصاديا ونفسيا، وفي كل شؤون الحياة، فانتشر الأمن والأمان، وعم العدل الإحسان، حُفظت الحدود، وتحققت العهود، وأديت الحقوق، وعلا القران، زاد الإيمان، فمن أراد أن يقتدي ومن أراد أن يُصلح ومن أراد أن يغير.. !! من هنا يبدأ الإصلاح. ! ومن هنا يبدأ



التغيير.. !! ومن هنا يبدأ الحل لكل مشاكل الحياة... !!! ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

إن حاجة العالم إليه ﷺ الآن حاجة المريض إلى الشفاء، والعطشان إلى الماء، والعليل إلى الدواء، والنظر تتمناه العين العمياء. ولقد صدق أحد أشهر الأدباء الغرب حين قال بعد أن استقرأ السيرة العطرة للنبي الخاتم: (لو كان محمد حيًا لحلّ مشاكل العالم كله وهو يحتسي فنجانًا من القهوة!).

لقد كانت حياة النبيّ ﷺ نموذجًا بشريًا متكاملًا في جميع المراحل وفي جميع جوانب الحياة العملية، ونموذجًا عمليًا في صياغة الإسلام إلى واقع يشاهده الناس ويقتدون به، كانت حياته قبل البعثة وبعدها حياة شريفة، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهًا وتكرمًا حتى صار معروفًا بالأمين. لقد نشأ سليم العقيدة، صادق الإيمان، عميق التفكير، غير خاضع لترهات الجاهلية، فما عُرف عنه أنه سجد لصنم، أو تمسح به، أو ذهب إلى عرّاف أو كاهن، بل بُغِّضت إليه عبادة الأصنام، والتمسح بها. وكذلك بُغِّض إليه شرب خمرًا قط، فلم يتناوله قط.

هذا هو النبي العظيم، الذي أحب أمته وأحبته أمته، فلا بد من اتخاذه قدوة مثلى وتقديم محبته وأقواله وأوامره على من سواه: ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه مما سواهما..: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩] وفي الحديث «المرء مع من أحب» البخاري. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]. إن محبة الرسول ﷺ أصل من أصول الإيمان الذي لا يتم إلا به: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدُكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين». البخاري.

إن القدوة المُطْلَقة هو النبيُّ ﷺ وغَيْرُ النبيِّ ﷺ يُقتَدى بهم على قدْر موافقتهم لما جاء به النبيُّ ﷺ فيُقتدى بهم على قدْر إِرْثهم من العَمل النبويِّ، وخيرُ مَن يُقتدى به بعد النبي ﷺ الصحابةُ، الذين جَمَعوا بين العلم والعمل، ومَن أتى بَعدهم من الصادقين من هذه الأُمَّة.

فيا شباب الإسلام، لا تسيروا دون إرادة ولا تفكير وراء أي قدوة.. فقدوتك لا تحدِّد فقط مصيرك في دنياك، بل تؤثر -وبصورة أكبر- على آخرتك، فاختر رفيقك تختر طريقك، وحدد قدوتك تحدد مصيرك. أسأل الله لنا جميعًا الهداية والرشاد.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه، وبعد:

يذكر أنه انتقل امام أحد المساجد في بريطانيا الى لندن، وكان يركب دائمًا من منزله الى المسجد، وخلال تنقله بالحافلة كان كثيرًا ما يركب نفس الحافلة فيلتقي بنفس السائق، وذات مرة دفع أجر السائق وجلس فاكتشف أن السائق أعاد له ٢٠ بِنسًا زيادة عن المبلغ المفترض.

فكر الامام وقال في نفسه: عليّ ارجاع المبلغ الزائد لأنه ليس من حقي، ثم فكر مرة اخرى وقال في نفسه: المبلغ زهيد وضئيل ولن يهتم به أحد، كما أن الحافلات تحصل على الكثير من المال ولن ينقص عليهم شيئًا هذا المبلغ وسأحتفظ به واعتبره رزقا من الله وأسكت..

توقفت الحافلة عند المحطة التي يريدها هذا الإمام، ولكنه قبل أن يخرج من باب الحافلة قرر أن يردّ المبلغ الزائد للسائق، فمد يده وأعطى السائق العشرين بنسًا وقال له: تفضل، اعطيتني اكثر مما استحق من المال. سأله السائق: لماذا أعدت هذا المبلغ الزهيد؟ قال الامام: لأنه ليس من حقي وأنا رجل مسلم، والمسلم ملزم بأن يكون أمينا وأن لا يأخذ من مال غيره بغير حق حتى وإن كان مبلغا زهيدًا.. عندها ابتسم السائق وسأله: ألستَ الإمام الجديد في هذه المنطقة؟ قال: بلى. قال السائق: إني أفكر منذ مدة في الذهاب الى المسجد لأنني أحببت الإسلام وأفكر في اعتناقه والدخول فيه، وقد أعطيتك المبلغ الزائد عمدًا لأرى ما يأمركم به دينكم من الأخلاق والقيم، وكيف سيكون تصرفك!

عندما نزل الإمام من الحافلة شعر بضعف ووهن في ساقيه وكاد أن يقع أرضا من هول الموقف، فاستند إلى أقرب جدار ونظر الى السماء ودعا باكيًا: يا الله كم قدّمت للإسلام بعشرين بنسًا، بعد أن كدتُ أتسبب في صدّ عبدٍ من عبادك عن الدخول في دينك!!

أيها الأحبة: لقد انتشر الاسلام في أصقاع كثيرة وبلاد متفرقة فقط عن طريق القدوة الصالحة والتعامل الحسن، وهذه هي مضمون دعوته ﷺ..

وللأسف فإنّه لما قلّ وجود القدوات الصالحة وغُيّب الموجود منها، استطاع دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد أن يغزونا في عُقْرِ دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر إعلامهم

حتى وجد في أبناء الجيل من فتيانِنا وفتياتنا من يقلّد الساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، ويتلقّون عنهم كل شيء دون مراعاة للحدود الشرعية والآداب المرعية.

إنّ هذه المظاهرَ لهي أوضح دليل على الشعور بالنقص والانهزام النفسي لدى هؤلاء المقلدون والأتباع، وصدق ابنُ خلدون في قوله: (المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا).

ومن هنا ندرك أن القدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، وفي كل دعوة ومنهج، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء بمن سبق من الأنبياء فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها. فالمسلمُ الذي يعيش بين ظهراني الكفرة ينبغي أن يكون قدوة لهم وممثّلًا للإسلام؛ لعله أن يكون سببًا في دخولهم الإسلام كما حصل في تاريخ الإسلام. وأهلُ الطاعة ينبغي أن يكونوا قدوة لأهل المعصية؛ بظهور أثر الطاعة وثمارها كالأمن النفسي والأخلاق الفاضلة.

إن الشباب في أمة الإسلام يعانون من افتقاد القدوة الصالحة.. وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات، وفعل رجل في ألف رجل خيرٌ من قول ألف رجل في رجل..

إن المربي الذي يخالف فعله قوله واهمٌ في اعتقاده أنه يربي.. بل هو يهدم، وإن كانت كلماته هي كلمات البناء؛ ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف:٣].

فأيّ هدم للقيم يتسبّب فيه المدرس بانحيازه لبعض الطلاب؟! والأب لأبنائه، فأيّ هدم للقيم يباشره الأب حين يكذب أمام أبنائه مهما كان المبرّر؟! والحاكم لشعبه، فأيّ مصيبة تقع عندما يظلم الحاكم شعبَه أو لا يقيم العدل بينهم؟! والرئيس لمرؤوسيه، فأي دعوة للتسيب يبثها الرئيس بين موظفيه بتأخره عن الدوام دائمًا؟! والداعية لمن يدعوه، فأي فتنة يحدثها الداعية للمدعو حين يعاهده ويخلف؟!

فهؤلاء الأصناف لا مندوحة لهم ولا خيار لهم أن لا يكونوا قدواتٍ صالحةً؛ لأنهم تحت المجهر والمراقبة شاؤوا أم أبَوا، وخطؤهم ليس كخطأ فرد بل هو خطأ تظهر نتيجته على جماعة، فهل يكونون أهلًا للتحدي؟! وهل يستشعرون مسؤولياتهم؟! وهل يحسبون خطواتهم؟!

ما الظن بأبٍ يأمر أولاده بعدم التدخين -مثلًا- والسيجارة لا تفارق يده؟! أو كيف يأمره بحسن معاملة الجار وهو في شجارٍ دائم مع جيرانه؟ أو بحفظ اللسان وهو يتناول كل من أغضبه بالسباب والشتائم؟ أو بالحلم وهو غضبان؟ أو بالعدل وهو ظالم؟

كيف يمكن للوالدين أو للدعاة أن يأمروا الجيل بالانسجام والتآخي والتآلف، والخلافات والشجارات تسود أجواء البيوت والمحاضن التربوية والدعوية؟!

كيف يمكن لحاكم أو شرطي أن يأمر الناس بعدم العنف بينما هو يتعامل بكل قسوة وعنف وبطش وإرهاب مع عموم الناس؟! كيف يمكن أن تكون هناك تربية بغير قدوة؟!

أخي، إذا كنتَ قُدوة حسنة، فأنت تَدْعو الناس إلى الخير، وتحُثُّهم عليه بِحالك ولو من غير قول، فكنتَ داعيًا إلى الخير بِحالِك، فدخلتَ في عموم قوله ﷺ: «من دَعا إلى هدًى، كان له من الأجر مثلُ أُجور مَن تَبِعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَن تَبِعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[1].

أيها المسلمون: إن الحاجة إلى القدوة الحسَنة ماسة في كل زمان، وفي هذا الزَّمن أحوَجُ مما مَضى، فبالقدوة الحسنة تحصل المُحاكاة وتترسَّم الخُطى من الصَّغير والكبير، شاهِدوا حال الصِّغار، ذُكورًا وإناثًا، وهم يُحاكون تصَرُّف آبائهم وأمهاتهم؛ إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

إن القدوةَ أعظم أثرًا وأكثر إقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ الله رسلًا من البشر ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبر التاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، ودليلٌ على واقعيةِ الشرع، وحجةٌ على البشر الذين هم مثلهم.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرَغ من قضية الكتاب أي: بنود الصلح قال رسول الله لأصحابه: «قوموا، فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا غمًّا[1].

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفَه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

أيها الناس: محلُّ القدوة إذا بدر منه تقصير وخطأ، كان من حكمة الشَّرع التغليظُ في العقوبة على مثله، وقد قال الله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٠]، وهذا الحُكْم الإلهي اتَّخذه عمر منهجًا له في تعامُلِه مع أقاربه، فرُبَّما احتَمَوا بقرابتهم، فحَصل منهم تعَدٍّ يُجرِّئ غيرهم على المخالفة، فجعل عليهم مُضاعفة العقوبة؛ فعن عبدالله بن عُمَر قال: «كان عمر بن الخطَّاب إذا نهى النَّاس عن شيء دخَل إلى أهله - أو قال: جمَع - فقال: إنِّي نهَيْتُ عن كذا وكذا، والناس إنما يَنْظُرون إليكم نظَر الطَّير إلى اللَّحم، فإن وقَعْتُم وقَعوا، وإن هِبْتُم هابوا، وإنِّي والله لا أُوتَى برجل منكم وقع في شيء مما نهَيْتُ عنه الناسَ، إلاَّ أضعفت له العقوبة؛ لِمَكانه منِّي، فمن شاء فليتقدَّم، ومن شاء فليتأخَّر»[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) رواه عبدالرزَّاق (٢٠٧١٣) بإسناد صحيح.

أيها الأحبة: خمسة أمور هي الحدّ الأدنى لما ينبغي أن يتحلى به القدوة من محاسن الصفات:

أولها: الاستقامةُ على منهج الله؛ وذلك بسلامة المعتقد وأداء الفرائض والتخلق بأخلاق الإسلام واجتناب الكبائر.

الثاني: موافقةُ الأفعالِ للأقوال، ويكفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣].

الأمر الثالث: البعدُ عن مواطنِ الشبهات، قال رسول الله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[(١)]، وإذا رُئي في موطن الشبهة بيِّن ذلك، فقد فعله من لا يشَكّ فيه البتّة سيدُ المرسلين، فعن أم المؤمنين صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسولُ الله ﷺ مُعتكِفًا فأتيتُه أزورُه ليلًا، فحدَّثتُه ثم قُمتُ فانقَلَبتُ، فقام معي ليَقلِبَني، وكان مَسكنُها في دارِ أسامةَ بن زيدٍ، فمرَّ رجلانِ منَ الأنصارِ، فلما رأَيا النبيَّ ﷺ أسرَعا، فقال النبيُّ ﷺ: على «رِسلِكما، فإنما هي صَفِيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ». فقالا: سُبحانَ الله يا رسولَ الله[(٢)]، قال: «إنَّ الشيطانَ يَجري منَ الإنسانِ مَجرى الدمِ، وإني خَشيتُ أن يَقذِفَ في قلوبِكما سُوءًا»، أو قال: شيئًا.[(٣)]

الأمر الرابع: التقليلُ من الترخّصِ وتغليبُ الأخذِ بالعزائم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

الخامس: إتقانُ التخصّصِ ومتابعةُ التطويرِ والإبداعِ، ويكفي قولُ المصطفى: «إن الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»[(٤)].

أيّها المقتدي: يجب أن تعلم أن القدوة مهما حرص على الكمال فهو بشر غير معصوم، وعملُه ليس حجة على الإسلام، بل الحجة قال الله قال رسوله، فالتمس لأخيك العذر عند

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أي: أنشُكّ فيك؟.

(٣) رواه البخاري (٣٢٨١) ومسلم (٢١٧٥).

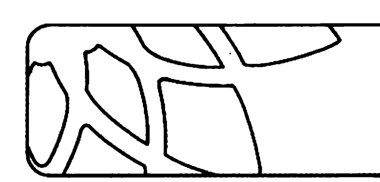
(٤) حسّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).

التقصير، وإذا أبيتَ إلا اللوم فلُم نفسك أولًا، فقد قال الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة:١٤-١٥].

فخذ الخير من أهله، واكتسب الفضائل من أصحابها، وما رأيت من خلل أو زلل فليس ذلك بحجة لك في اتباعه، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١].. فمن كان يرجو لقاء ربه فليكن محمد قدوته في حله وترحاله، وليكن هو مقياس لسائر القدوات في شتى المجالات، ليأخذ منها ما ينفعه في دينه ودنياه... نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعلنا هداة مهتدين.







دروس من غزوة أحد[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين؛ يبتلي عباده بالسراء وبالضراء؛ ليجزيهم على صبرهم أعظم الجزاء، نحمده كما ينبغي له أن يحمد، ونشكره فقد تأذن بالزيادة لمن شكر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ عظيم في ملكه وربوبيته وألوهيته، حكيم في مقاديره وأحكامه، لا يقضي قضاء لمؤمن إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ ابتلي بالسراء فشكر، وبالضراء فصبر، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ بذلوا أنفسهم وأموالهم، وأُخرجوا من ديارهم وأبنائهم في سبيل الله تعالى، وابتغاء مرضاته، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله تعالى حقَّ التقوى، واستمسِكوا من الإسلام بالعُروة الوُثقَى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨].

أيها المسلمون: في يوم السبت، السابع من شوال، في السنة الثالثة للهجرة، والذي يصادف الثالث والعشرين من مارس لعام ٦٢٥م، كانت غزوة أحد.

ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري، ومع ذلك نجد جسر النور والهدى والعطاء في السيرة النبوية المشرفة، من عهد النبي ﷺ إلى وقتنا الحاضر، نستنبط منها بعض الدروس والعبر مما جرى من الأحداث التي وقعت في تلك الغزوة، والتي تكشف لنا حقائق الواقع

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

المعاصر، وتبين لنا ما ينبغي أن نعلمه تجاه ما نواجه في هذه الحياة الدنيا من العبر والعظات، والدروس والوقفات.

الدرس الأول من دروس هذه الغزوة: الشورى: فحين علم النبي ﷺ بقدوم أهل مكة وأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة للأخذ بثأر قتلاهم في بدر، استشار أصحابه في الخروج للقائهم خارج حدود المدينة أو البقاء في المدينة والتحصن بها؛ حتى إذا دخل عليهم أعداؤهم فيها كانوا أبصر بما يعوقهم عن الدخول وبما ينزل فيهم الهزيمة.

وقد كان رأيه ﷺ البقاء في المدينة، إلا أنه جعل الأمر شورى بينه وبين أصحابه؛ امتثالًا لأمر ربه، وبيانًا للأمة من بعده وللولاة والقادة من بعده أنه لا بد لهم أن يستخلصوا الآراء، وأن يعرفوا ما ينبغي أن يعرفوه من أهل الحل والعقد وأهل العلم والرأي والمشورة.

وفي هذه المشورة غلبت آراء الذين كانوا يتحفزون للخروج للقاء الأعداء؛ رغبة منهم في إظهار الحمية لدين الله والاعتزاز بدينه، وتطلُّعًا منهم في الاستشهاد في سبيل الله، وشغفًا ممن لم يشهد بدرًا أن يلقوا أعداءهم، فيعوضوا ما فاتهم من الجهاد والاستشهاد في بدر.

ثم دخل النبي ﷺ بعد أن رأى هذا الرأي من أصحابه أو كثرةٍ منهم، فلبس عدته ولأمته، ثم خرج فرأى القومُ أنهم قد أكرهوه ﷺ على ما لا يحب، فرجعوا عن رأيهم، وجعلوا الأمر إليه ﷺ، فما كان منه إلا أن قال لهم ﷺ: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمَته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، انظروا ما أمركم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله تعالى، فلكم النصر ما صبرتم»[1].

ومضى النبي ﷺ على عزمه الذي قضت به الشورى؛ وذلك حتى يكون للشورى أصحابها ومقامها، وحتى لا يعود هناك استخفاف بالرأي، ولا تهوين ولا تسفيه للقول، فالنبي المؤيد بالوحي جعل الأمر شورى بينه وبين أصحابه، فكيف بمن هو أدنى منه منزلة، وأقل منه علمًا، وأبعد عن التثبيت والإلهام والتوجيه والتسديد الذي كان يؤتاه النبي ﷺ،

---

(١) السلسلة الصحيحة (٣/ ٩١).

وهو الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ في قوله وفعله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، فمن سواه -وكل الناس أدنى منه منزلة- أجدر بأن يلتزموا الشورى بينهم وبين قادتهم وعلمائهم.

ومن تأكيدات الله عَزَّوَجَلَّ لأمر الشورى أنه بعد أن ظهرت النتائج في غزوة أحد، وبعد أن ظهر ذلك الرأي ومع ما فيه من علة، وبعد أن ظهر أثر المخالفة لأمر النبي ﷺ جاءت الآيات التي نزلت في أعقاب غزوة أحد، لتؤكد مرة أخرى على الشورى؛ لكي لا تكون النتيجة السلبية أو التطبيق الخاطئ يقودان إلى إلغائها وعدم الاكتراث بها، فيقول الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، اعف عنهم عما كان من إكراه لك في الرأي، واستغفر لهم عما كان منهم من معصية بعضهم في الغزوة، ولا يمنعن ذلك أن تأخذ رأيهم وأن تلزم الشورى معهم.

إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته، ولا يفرض على الأمة الوصاية السياسية من فرد أو جماعة بحجة تربية الأمة وإعدادها لتحمل المسؤولية، وإن الأخطاء في مزاولة الشورى مهما بلغت من الجسامة لا تبرر إلغاء مبدأ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] ؛ إذ إن للشورى على أقل تقدير ميزتين مهمتين:

أولًا: الاستدراك للأخطاء والاستكمال للنقص قبل الشروع في العمل؛ إذ مهما بلغ الرجل أو القائد من ذكاء مفرط وعلم غزير ورأي حصيف؛ فإن رأيه قد يقصر، وعلمه قد يغيب، وذهنه قد ينسى ويكل، فمن هنا تأتي الشورى بالآراء الأخرى لتنظر للأمور من جهات أخرى، فتقوم الخطأ، وتكمل النقص، وتذكر بالنسيان، فحينئذ تكون الأمة قد استجمعت كل الشروط التي ينبغي استكمالها لإعداد العدة للعمل واستكمال شروط النجاح.

ثانيًا: توزع تحمل المسؤولية؛ فلئن كان هذا رأي الجماعة كلها، ولئن كان هذا رأي الشورى وأهل العلم منهم؛ فإن وجد فيها خطأ فليس هو خطأ فرد، وليس هو مما يتحمله إنسان بعينه، بل تشترك الأمة كلها في تحمل تبعته، وهذا أدعى إلى أن تقوم قائمتها مرة أخرى، ولا تتلاوم فيما بينها، ويحصل الشقاق في صفها.

ومن ثم نخرج بهذا الدرس العظيم من غزوة أحد، وهو أن الشورى ليست أمرًا عارضًا، وليس هوىً متبعًا لقائد أو أمير أو إمام بحيث يفعله متى ما يحلو له أو يدع، وليس أمرًا له أن يختار منه ثم يتركه، وليس مبدأ مرتبطًا بالنتائج والأخطاء التي قد تقع في بعض تطبيقاته، بل حتى لو نتج عنه خطأ فإنه أقلّ خطئًا من عدمه، وفوق كل ذلك فهو أمر إلهي لا محيص عنه ولا حياد عنه، تؤكده سيرة النبي ﷺ التي ترعاها آيات القرآن الكريم.

الدرس الثاني من غزوة أحد: الحزم والجزم: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن ترددا

ويظهر ذلك في موقف النبي ﷺ الذي ذكرناه عندما ندم الناس على رأيهم بالخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، وظنوا أنهم قد أكرهوا نبيهم ﷺ على ما لا يحب، فقال ﷺ قولته المشهورة: «لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يقاتل عدوه»[1]. فعلى مثل هذا يجب أن تكون القيادة الإسلامية؛ إذ ينبغي أن تكون صورتها صورة الحزم والعزم والقوة والمضي، لا التراجع والتردد، فالنبي ﷺ عندما رجعوا عن رأيهم، لم يرجع عن رأيه، وإلا كانت هذه صورة من صور القيادة المهزوزة التي تكون ألعوبة في أيدي الذين يترددون بعد أن تقدموا، أو من يقولون: نعم، ثم يقولون: لا... وهكذا؛ لئلا الظان أن ذلك نوع من الجبن والخوف، وعندما تكون القيادة مَقُودة لا قائدة؛ فإن ذلك هو عين الفوضى والاضطراب، وهذا درس عظيم مفاده أن يعلم المرء أن أمر اتخاذ الموقف والحزم والجزم هو سمة من السمات القيادة الفذة.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم..

---

(١) صححه الألباني في الصحيحة وفي فقه السيرة (٢٥٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

الدرس الثالث: آثار التنازع والمعصية: لقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في أعقاب معركة أحد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، والدرس هنا أن مخالفة يسيرة في أمر واحد من فئة قليلة أوجبت هذا الدرس القاسي الذي قضى فيه سبعون من خيرة الصحابة شهداء، والذي شُجّ فيه وجه النبي ﷺ وكُسرت رباعيته، فلم يجامل الله أفضل جيش تحت قيادة أفضل قائد، فكيف بمخالفات كثيرة من الأمة في أوامر عديدة من كثرة كاثرة وفيرة؟! أفلا يستحق لأجلها المسلمون الخذلان والضعف وتسلط الأعداء وتوالي الهزائم؟!

لقد تركَت معركةُ أُحُدٍ آثارًا غائِرةً في نفس النبي ﷺ ؛ أُصيبَ في بدنِه إذ كُسِرَت سِنُّه، وجُرِحَ وجهُه، وشُجَّ رأسُه، فلم تزَل دماؤُه الزكِيَّةُ تسيلُ على وجهه الطاهِر حتى أُحرِقَت قطعةٌ من حصيرٍ فأُلصِقَت به فكف عنه الدم، وأجهدَه العطشُ حتى جعلَ يقعُ على رُكبتَيْه، وأُصيبَ في أتباعِه؛ إذ أودعَ في سفْحِ الجبل سبعين رجلًا من أعزِّ الناس عليه وأقربهم إلى قلبه، وفيهم أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب، الذي قُتل ومُثل به، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، فكان ذلك من أشد المواقف وأقساها على النبي ﷺ في حياته.

أيها الأحبة: إن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بأصحاب النبي ﷺ أن أوقع بهم العقوبة عند حصول المخالفة؛ حتى يكون التصحيح أولًا بأول، وليس كما يكون أحيانًا لمن لم يحب الله عَزَّوَجَلَّ أن ينبهه ويحذره، فيستدرجه ويملي له ليبقى في غيه وفي ضلاله دون أن تحل به عقوبة تذكره، فيبقى سادرًا في غيه، مقيمًا على المعاصي حتى يأخذه الله عَزَّوَجَلَّ أخذ عزيز مقتدر، فكان هذا من لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهم، ليكونوا أشد حذرًا ويقظة وتحرزًا من أسباب الخذلان.

كل هذا التخلف عن طاعة الرسول ﷺ رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أرشدنا بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وبيّن أن اتباع النبي ﷺ دليل المحبة الصادقة لله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران:٣١]، ثم جاء التحذير والوعيد من المخالفة: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، فليس هناك خيار عند مخالفة أمر النبي ﷺ إلا وقوع الفتنة والهزيمة، وما أكثر الفتن في صفوف المسلمين، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وما أكثر العذاب الذي صبه الله عَزَّوَجَلَّ على المسلمين جراء مخالفتهم لأمر المصطفى ﷺ، وحتى على المستوى الفردي قد بيّنت لنا السيرة النتيجة المباشرة والعذاب المباشر لمخالفي أمر النبي ﷺ؛ ورد في صحيح مسلم أن رجلًا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كل بيمينك»، قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»، ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه[1]. شُلت يده فما استطاع أن يحركها؛ لأنه خالف أمر النبي ﷺ لا عن تقصير وغفلة، بل عن كبر واستهانة، أعاذنا الله من ذلك..

ونحن الآن يجب أن نعي هذا الدرس جيدًا؛ لأننا إذا نظرنا في واقع الأمة الإسلامية، نرى مقدارًا عظيمًا من المخالفات للرسول ﷺ، ومن التخلف عن طاعته، بل والمجاهرة بمعصيته؛ ما استوجب حرمان الأمة من النصر، وحلول الخذلان والهزيمة بها.

إننا حين نتأمل كيف أنه بمعصية واحدة هُزم أفضل جيش ومعه أفضل قائد بل أفضل البشر وسيد المرسلين بمعصية واحدة، فكيف بمعاصينا ومخالفاتنا وغفلتنا، لا نقول هذا يأسًا ولكن تذكيرًا لأنفسنا بحتمية الرجوع إلى الله تعالى.

أيها المؤمنون.. يقول تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠، ١٤١]. إن تعاقُب الشدَّة والرخَاء تكشِفُ معادِن النفوس وطبائِع القلوب، ودرجة الهلَع فيها والصبر، ومدَى الثِّقة فيها بالله أو القُنوط.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢١).

وإن من مصلَحة الأمة أن تُصابَ برجَّاتٍ عنيفةٍ تعزِلُ الخبَثَ عنها، وقد اقتضَت حكمةُ الله أن يقعَ هذا التمحيصُ في أُحُـد، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

فالنفسُ لا تنتصِرُ في الحروبِ إلا حين تنتصِرُ في القِيَم والمبادِئ، والذين تولَّوا يوم التقَى الجمعَانِ في أُحُد إنما استزلَّهم الشيطانُ ببعضِ ما كسَبُوا من الذنوب، فالذنوب سبب ما يحصل للعبد من الزلل والخلل، والذين انتصَروا في معارِك العقيدة وراء أنبيائِهم هم الذين بدؤُوا المعركةَ بالاستِغفار من الذنوب، والالتِجاء إلى الله، والتطهُّر من المعاصِي.

ولعلَّ ما ترتَّبَ على عِصيان الرُّماةِ لأمر الرسول القائِدِ في معركة أُحُد درسٌ عميقٌ يتعلَّمُ منه المُسلمون في كلِّ مواجهةٍ قيمةَ الطاعة، وأن الجماعةَ التي لا يحكُمُها أمرٌ واحدٌ ويغلِبُ على أفرادِها وطوائِفِها النزاعاتُ الفردية لن تنجحَ في معركةٍ، ولن تُفلحَ في مُواجهةٍ، ما لم تتَّفِق على رغبةٍ واحِدةٍ ووِجهةٍ واحِدةٍ، وما لم تُخمِدْ كلَّ شُذوذٍ يحصُلُ في صُفُوفِها، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولما دُهِشَ المُسلِمون للكارِثة التي قلَبَت عليهم الأمورُ قال الله لهم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥].

ومع ذلك فإن المُؤمنين مهما أصابَهم في سبيلِ الله فإنهم لا يفقِدون صِلتَهم بربِّهم، وثِقتَهم بوعدِه الصادقِ لجُندِه بأنهم هم الغالِبون، وأن لن يخذُلَهم؛ بل سوف ينصُرُهم ويُؤيِّدُهم ويُعلِيهم ويُظفِرُهم بأعدائِهم، ويُظهِرُهم عليهم.

لقد ترفَّقَ القرآنُ الكريمُ في خِطابِ المُؤمنين بعد ما أصابَهم في أُحُدٍ؛ لكي لا يتحوَّل انكِسارُهم في الميدان إلى قُنوطٍ يفُلُّ قُواهم، وحسرةٍ تشُلُّ إنتاجَهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩، ١٤٠].

فجمعَ سبحانه في خِطابِه لهم بين تشجيعِهم وتقويةِ نُفوسِهم، وإحياءِ عزائِمِهم وهِمَمهم، وبين حُسن التعزِيَة وذِكر الحِكَم الباهِرَة التي اقتَضَت إدالَـةَ الكفـار علـيهم، وعـزَّى اللهُ نبيَّـه وأولياءَه عمَّن قُتِلَ منهم في سبيلِه أحسنَ تعزِيَةٍ وألطَفَها، وأدعاها إلى الرِّضـا بـما قضـاهُ لهـم، وأخبرَهم بما نالُوه من ثوابِه وكرامَته؛ ليُنافِسُوهم فيه، ولا يَحزَنوا عليهم، وأعلَمَهم أن سـببَ المُصيبةِ من عند أنفُسِهم ليحذَروا، وأنها بقضائِه وقدَرِه ليُوحِّدُوا ويتَّكِلوا، ولا يخـافُوا غـيرَه، وسلاَّهم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدرًا وأعظمُ خطرًا مما فاتَهم من النصر والغنيمةِ.

فلقد كانت حصيلةُ معركة أُحُدٍ ومن بعدها التوجيهات القُرآنية بعد الأحداث أكـبرَ مـن حصيلةِ النصر والغَنيمة، ولقد علِمَ المُؤمنون أن الهزيمةَ حين تقَع؛ فإنها جارِيـةٌ عـلى سُـنَّة الله وفقَ ما يقعُ من تقصيرٍ وتفريطٍ، وأنها تُحقِّقُ غاياتٍ يُقـدِّرُها الله بحِكمتـه وعلمِـه لتمحـيصِ النفـوس، وتمييـز الصـفوف، وتجلِيَـة الحقـائِق، وإقـرار القِـيَم، وإقامَـة المـوازين، وجلاء السُّنن للمُستبصِرين.

أيها الأحبة: لئن تكلَّف المُسلمون الأوائل عشـراتٍ مـن الرِّجـال وأشـهرًا مـن الزمـان، ليستفيدوا من أخطائهم ويستعيدوا قوَّتَهم ويتفوَّقُوا في الوقائع اللاحِقة؛ فإن المُسلمين في هذا الزمان استنزَفوا الملايين من أرواحِهم وعقودًا من أعمارهم، ولم يتغيَّر حالُهم، وكـان الفـارِقُ بينهم وبين سلَفِهم هو الفرقُ في تعلُّمهم الدروس واستِلهامِهم العِبَر.

لئِن كان المُسلِمون الأوائلُ بعد كل خسارةٍ يثُوبون لدينِهم، ويلجؤُون لـربِّهم، ويُحيطُـون بنبيِّهم ﷺ ؛ فإن المُسلمين اليوم يُذادُون عن دينهم، ويُقصَون عـن شريعـتِهم، ويُحـالُ بيـنهم وبين وسائل النصر ومَدَده. ولك أن تُجيلَ بصرَكَ في كثيرٍ مـن بـلاد المُسـلمين خـلال القـرن الماضي بعد استِعمارهم من قوى الكفر وذهاب شوكتِهم وحتى اليوم، لقد جرَّبُوا كلَّ طريـقٍ، وطرَقُوا كلَّ بابٍ، وأخذوا من العلوم العصريَّة، وسـالَت تحت أيـديهم كُنـوزُ العـالَم، ونبـعُ وقوده. ومع ذلك أصبَحوا ولا يسيلُ من الدماء إلا دمـاؤُهم، ولا تُجتـاحُ إلا أراضِـيهم، ولا يُقهَرُ إلا رِجالُهم. بل حتى في بلادِهم تتحكَّمُ أقلِّيَّاتُ الطوائِف في مصائِرِهم.

يا أيها المسلمون: لهيبُ الأحداث يسُوقُكم لدينِكم، وسِياطُ المقـادير تُلجِـئُكم لخـالِقِكم، وفجائِعُ الدهر تُنادِيكم: أن هلُمُّوا لما عزَّ به سلَفُكم، واستقوَى به أوائلُكم، فلن يصـلح آخـر

هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فهلّا راجعنا أنفسنا؟ وهلا اعتبرنا بماضينا وحاضرنا؟ وهلا سعينا لاستحقاق نصر الله لنا؟!

أيها المسلمون: راجِعوا أنفُسَكم، وابنوا جيلكم، وربُّوا على الفضيلة أبناءكم؛ ففي الفضاء إعلامٌ وقنواتٌ لا تنتمِي لماضٍ مُحافِظٍ، ولا تُبالِي بواقعٍ مُؤلِمٍ، وفي الناس غفلةٌ، والجِراحاتُ في كل وادٍ تسيلُ.

كيف يكونُ السَّرَفُ والتَّرَفُ وفي المُسلمين أوجاعٌ، وبهم جِياعٌ؟! ألم تروا أن الأيام دُوَلٌ، والدهرُ قُلَّب؟!

إن النصرَ لا يتنزل إلا على المؤمنين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٥١]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وإنه لا يتوقَّفُ إلا على نُصرة ربِّ العالمين؛ فمن نصرَه اللهُ فلا غالِبَ له من الناس، ولن يضُرَّه خُذلانُ الخاذِلين. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠]. وفي كل هذا دروسٌ وعِبَرٌ للمُسلمين هذا اليوم في كل أرضٍ وتحت كلِّ سماءٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

نسأل الله أن يُعلي كلمته، وينصر أولياءه، وأن يجعلنا ممن يُنصرون ولا يستبدل بنا غيرنا..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



وفاة الحبيب ﷺ (1)
(أعظم مُصاب أصيبت به الأمة)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المُتفرِّد بالخلق إيجادًا وإفناءً، أحمده سبحانه وأشكره، هو القيوم دوامًا وبقاءً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو بها اتباعًا واهتداءً، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا عبدُ الله ورسوله خيرُ البرية سيرةً بلجاءً، وسريرةً مُطهَّرةً زهراء، اللهم صلِّ وسلِّم عليه صلاةً تُوفِّي حقَّه كفاءً، وبارِك يا ربنا على آله السامين زكاءً وصفاءً، وصحبه الكرام حبًّا وولاءً واصطفاءً، ومن تبعهم بإحسان يرجو في الجنان ارتقاءً، وبالأبرار التقاءً.

أمّا بعد:

فخيرُ ما يُستَفتَحُ به الكلام: الوصيةُ بتقوَى الله علَى الدَّوام، وطاعةِ الملك العلاّم، ولزوم سنة سيِّد الأنام، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢].

عبادَ الله: كلُّ قضيَّة إلى نسيانٍ ودُروس، وكلُّ أمرٍ مُلِمٍّ إلى انمحاءٍ وطُموس، وكلُّ اعتلاءٍ إلى ارتدادٍ ونكُوص، ولكنَّ دينَ الإسلام العالميّ الربانيّ بفضل الله إلى ثباتٍ وخلود وانطلاق، وسيرةَ المصطفى ﷺ في انتشار وامتدادٍ وائتلاق، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

أمّةَ الإسلامِ: السِّيرةُ النبويّة المباركةُ هي المعينُ السّلسَال، والأنموذَجُ المُشرِقُ في الكمال، الهادي دونَ مَباءَة الضّلال، وهي النورُ الوضَّاء لكلِّ المجتمعاتِ والأجيال، وإنَ التواردَ على حِكَمها وآدابها، وفقهها ولُبابها، والذَّبَّ عن مقاصدها وآرابها، لمن دلائلِ النُّجحِ والتوفيق، والاهتداء إلى أقومِ طريق.

---

(١) عبدالرحمن السديس.

بَيْد أنَّ مِن جوانبِ السيرةِ العَطِرة حَدثًا عظيمًا أثَّر على مجرَى التاريخ، وكانت به خاتمة السيرة العطرة، إنه حدثٌ يذهبُ بالألباب ويطيشُ بالحِجا والصواب، إنّه رُزْءٌ مُفجِّعٌ فادِح، وجَلَلٌ مُفزِّعٌ قادح، هزَّ الآفاق وقرَّح الأحداق؛ إذ لم يعرفِ التاريخُ خطبًا هزَّ العالمَ مثلَه، ولم تُصَبِ الأمة برزيَّةٍ أعظمَ منه؛ ذلكم هو مُصابُ وفاة النبي وفراقه، ونبأ موته والتحاقه، بأبي هو وأمّي ﷺ.

فالتذكير بمُصابِ خيرِ البشَر إنما يرِد لاستكنَاهِ العِظةِ والعِبَر، لا لاستجاشَةِ الدموعِ الدِّرَر، فكما كانت حياتُه ﷺ متدفِّقةً دَعوةً وهِدايةً وبِناءً، فكذَلك كانت وفاتُه عليه الصلاة والسلام نضَّاخَةً دروسًا وعِبرًا واقتداءً، تستخلِص الأمّة عَبَقَ معازيها، وتترسَّمُ شُمَّ معاليها؛ إذ كَيف لأمَّةِ الاتباع والهداية أن تُحدِث في إشراقةِ البداية وتغفُل عن مواطن الادِّكار في النهاية؟! بل كيف تذهَلُ العقول عن فاجِعة الوفاةِ في إعراضٍ وانجفال، وتُيمِّمُ شطرَ المولد للإحداثِ والاحتفال؟! فيا لله العَجَب! كيف يكونُ الفرحُ بيوم حياته أولَى منَ الحزنِ على يومِ وفاته؟! والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، والمصطفى ﷺ يؤكِّد ذلك بقوله: «من عمل عملًا ليس عَليه أمرُنا فهو ردٌّ»(١).

أيُّها المؤمنون: بعدَ أن أكمل الله الدين وأتمَّ على عباده النعمة، وبلَّغ نبيُّه الأمانة، وأدَّى الرسالة، وهدى البشريّة من الضلالة وعلَّمها من الجهالة، وانتحى بها إلى قِمم المجد والعزِّ والجلالة؛ أنزل الحقُّ عليه سورةَ النصر؛ ناعيًا إيّاه في أوّل مقدِّمات الوفاة، فليس بعد الكمال إلا النقصان، وكلُّ أمرٍ اكتمل واستتمّ فالتسبيحُ والاستغفار عقِبَه خيرُ مُختَتَم، وفيه أيضًا أنَّ الاستغفارَ ساعةَ الانتصارِ دَليلُ الشكرِ والذّلِّ والانكسار، وقد أومأ ﷺ لأصحابِه بدُنُوِّ أجلِه، وعرَّض باقترابِ فِراقه، ففي حجَّة الوداع من السنة العاشرَة خَطَبَ عليه الصلاة والسلام الناس وودَّعهم، قائلًا: «لِتأْخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلِّي لا أحُجُّ بعدَ حَجَّتي هذه»(٢).

---

(١) خرَّجه مسلمٌ (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧).

إخوةَ الإسلام: لقد ناضل ﷺ في إبلاغ دعوة ربه، وجاهد في الله حق جهاده، فمنذ أن بُعث في رأس الأربعين من عمره، مكث بعدها بمكة ثلاثة عشر عامًا، ثم هاجر إلى المدينة فظل فيها عشرة أعوام إلى السنة العاشرة من هجرته من مكة، وكان عمره إذ ذاك قد بلغ ثلاثًا وستين سنة.

ولما حضرَتِ الحبيبَ ﷺ الوفاةُ أخذَه ألمٌ في رأسِه، ثم ثقُل عليه الوجع، فكانت حُمَّى شديدة تنتاب جسدَه الشريفَ، فعن أبي سعيد الخدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجَ رسول الله ﷺ في مرضِه الذي ماتَ فيه وهو مَعصوبُ الرأس، فقام على المنبرِ فقالَ: «إنَّ عبدًا عُرِضَت عليه الدّنيا وزينتُها، فاختار ما عندَ الله»، فلم يفطَن لها أحدٌ من القومِ إلا أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: بأبي وأمي، بل نَفديك بأموالِنا وأنفسِنا وأولادِنا[1].

وفي البخاري: خطب النبي ﷺ فقال: «إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ابن مسعود: فقلت في نفسي: ما يُبكي هذا الشيخ إن يكن الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمَنا، قال: «يا أبا بكر لا تبكِ، إن أمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لأتخذتُ أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقَيَنّ في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر»[2].

فلم يفهَمِ المرادَ غيرُ حفيِّه ونجيِّه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وأعلَمُ الأمّة بمقاصدِ رسولِ الله صلواتُ الله وسلامه عليه، ولا غروَ فهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، فأكرِم بصدِّيق هذه الأمّة صفيِّ النبيِّ المختار.

ولما تفاقمَ المرضُ بالمصطفى ﷺ استأذَنَ زوجاتِه أن يُمرَّضَ في بيت عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذلك من خُلُقه العظيمِ ووُدِّه المكين، فخرج من بيتِ ميمونة يتوكّأ بين الفضلِ بن عباس وعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، لا يستطيع مسيرًا. ومع اشتدادِ الألمِ كانت زهرةُ حياته فاطمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَلتاع

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٥٩٣).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦).

فتقول: واكَربَ أبتَاه! فيقولُ ﷺ: «ليس على أبيكِ كَربٌ بعد اليوم»(١). وفي ذلك عزاءٌ لأهلِ المحَن وتسلية واصطبارٌ، قال الإمام القرطبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أحَبَّ اللهُ أن يبتليَ أصفياءَه؛ تكميلًا لفضائلهم، ورفعةً لدرجاتهم، وليس نقصًا في حقِّهم، مع رضاهم بجميلِ ما يُجريه عليهم).

معاشرَ المسلمين: وثقُلَت وطأةُ الداءِ بالجسَد الطاهرِ الكريمِ حتى أنهَكَته دونَ الخروج، فكان يسأل عن المسلمين وصلاتِهم، كما جاء عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قالَ عليه الصلاة والسلام: «أصَلَّى الناس؟» قلنا: هم ينتظرونك يا رسولَ الله، فقال: «ضَعوا لي ماءً في المِخضَب»، ففعلوا فاغتَسل، ثم ذهب لينوء أي: ليقومَ فأُغمِيَ عليه، ثم أفاقَ فقال: «أصَلَّى الناس؟» قلنا: هم ينتظرونك يا رسولَ الله، فقال: «ضَعوا لي ماءً في المِخضَب»، ففعلوا فاغتَسل، ثم ذهب لينوء فأُغمِيَ عليه، ثم أفاقَ فقال: «أصَلَّى الناس؟» قلنا: هم ينتظرونك يا رسولَ الله، فقال: «ضَعوا لي ماءً في المِخضَب»، ففعلوا فاغتَسل، ثم ذهب لينوء فأُغمِيَ عليه، فقال: «مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناس»(٢). وفي ذلك إشارةٌ لأهليَّة الصدِّيق وأوَّليَّته بالخلافة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

وفي تلك الأيّامِ الحزينة المُعتكِرة الأليمة، بلياليها السَّاجية الثقيلة التي آذنَت بانقطاعِ الوحي من السّماء وغروب شمس النبوة، كان ﷺ يُحذِّر من قضيّة خطيرة لا تزال الأمة تنوء بكَلْكَلِها؛ وهي الشركُ بالله، فقد كانت عليه خميصةٌ إذا اغتمَّ كشفها عن وجهه، فقال: «لعنَ الله اليهودَ والنصارى؛ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد»(٣)؛ يُحذِّر ما صنعوا. وذلك هو التأكيد الأكيد على دعوة التوحيد ونبذ الشرك والتنديد.

ومِن معاقد الخير التي أرشَد إليها وحث عليها وهو في شِدّةٍ غالبة، وعلّةٍ كالبة، ما ورَد عن أنسِ بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كانَت عامّة وصيَّة النبي ﷺ: «الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم»، يُغرغر بها صدرُه، وما يكاد يفيض بها لسانُه(٤).

---

(١) خرَّجه البخاريّ في صحيحه (٤٤٦٢).

(٢) رواه البخاري (٦٨٧) ومسلم (٤١٨).

(٣) رواه البخاري (١٣٩٠) ومسلم (٥٢٩).

(٤) رواه أحمد (٣/ ١١٧) وغيره، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢١٧٨).

فيا أمّةَ الإسلام: اللهَ اللهَ في حفظِ عمودِ الإسلام؛ فإنها وصية خير الأنـام، ومفتـاح الخير والسعادَة، ومعراج الروح والإفادَة، وركنُ الإسلام الذي رحِم الله به عباده. وأما ما ملكـت أيمانكم فمن نساءٍ وبنـين وخـدمٍ ومـأمورين، فاجتهـدوا في معـاملتهم بالحسـنى واللّطـف، واحتسِبوا الأجر فيهم بالرفق والعطف، فذو المرتبَة يحنو على ذي المتْرَبَة، وصولًا إلى المجتَمَع الإسلاميّ المتراحم المتلاحم.

أحِبّةَ المصطَفى ﷺ.. وعن آخرِ النظرَات لسيِّد البريّات التي تُجهِش باللّوعات والزّفرات، يصِفُ لنا أنسُ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَشهدًا مهيبًا ومُطّلعًا للحَبيب رغيبًا، لله ما كانَ أنـداه وأبهـاه وأروَعه، وما كان أزكاه وأسناه وأبدعـه! يقـول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حتـى إذا كـان يـومُ الاثنـين وهـم صفوفٌ أي: الصحابة الكرام في الصلاة، كشف النبي ﷺ سِتر الحُجرة ينظر إلينا وهو قـائمٌ، كأنَّ وجهَه ورَقة مصحَف أي: في الحُسن والاستنارة، ثم تبسَّم ﷺ يضحَك، فهَمَمنا أن نفتتنَ من الفرح برؤيته، فتأخَّر أبـو بكـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليصِـلَ الصـفَّ، فأشـار إلينـا النبـيُّ ﷺ أنْ أتمُّـوا صَلاتكم، وأرخَى السِّتر، فتُوفِّيَ من يومِه عليه الصلاة والسلام».

ومُـــدَّت أكُـــفٌّ للـــوَداع تَصـــافَحَت ... وكـــادَت عيـــونٌ للفـــراقِ تســـيلُ

هَمَمـــتُ بتودِيـــع الحبيـــبِ فلـــم أُطِـــق ... فودَّعتُـــه بالقلـــبِ والعـــينُ تـــدمعُ

إخوة الإيمان: إثرَ ذلك حُمَّ القضاء، وأُبرِم في الأرضِ ما قـدَّره الله في السّـماء، واشـتدَّت بحبيبنا حُمَّاه، واستباح الموتُ حِماه، قالَت أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكانت بين يدَيه ﷺ رَكوَة، فجَعَل يُدخِلُ يدَيه في الماء، فيمسح بها وجهَه، ويقول: «لا إلهَ إلا الله، إنَّ للموت لسكَرات»، ثم نصَب يدَه فجعَل يقول: «اللّهمّ في الرفيقِ الأعلى، اللّهمّ في الرفيق الأعلَى»، يُردِّدهـا حتـى قُبِض ومالت يدُه[1].

فيا لله ما أعظَمَها من فاجِعة، وما أشدَّها من واقعة!

لا إلهَ إلاَّ الله، بتِلك الكلماتِ من دُررَ الخلود وبتلك المعاني من نفحـات النـور والقُـدُس التحق حبيب القلوب ورسول علاَّم الغيوب بالرفيق الأعلى. قال الحافظ ابـن حجـر رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) رواه البخاري (٦٥١٠) ومسلم (٢٤٤٤).

(قولُه ﷺ: «إنّ للموتِ لسكَرات» دليلٌ على جوازِ توجُّع المريضِ، والمُعوَّل في ذلكَ على عمَل القلب، لا على نطق اللسان، فكم من ساكتٍ وهو ساخِط، وكم مِن شاكٍ وهو راضٍ).

خَطْـبٌ أجـلُّ أنـاخَ بالإِسـلامِ ... بـينَ النَّخيـل ومَعقِـد الآطـام

قُـبِضَ النّبـيّ محمّـدٌ فعيونُنـا ... تـذرِي الـدّموعَ عليـه بالتَّسْـجَامِ

وسَرى خبرُ الفاجعة بينَ الجموع، وانحدَرت العَبرات والدّموع، وغدَت المحاجِر في انهمَارٍ وهُموع، واستحكَم الذهول بالعقول، لوفاةَ أعظم نبيٍّ وأكرم رسول..

يقول حسّان:

فبكّـي رسـولَ الله يـا عـينُ عَـبْرةً ... ولا أَعرِفَنْـكِ الـدّهرَ دَمعُـك يجمُـدُ

ومـا فَقَـد الماضـون مثـلَ محُمـدٍ ... ولا مثلُـه حتَّـى القيامـة يُفقَـد

وانفتل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متَّجهًا شطرَ رسول الله ﷺ، فوجَده مُسجًّى بثوبِ حَبِرة، فقبَّلَه وبَكى، وقال: «بأبي أنتَ وأمّي، طِبتَ حيًّا وميتًا». وخرج على الناس وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مأخوذٌ بهَول الخَطْب، يرعد ويهدد كل من يزعم أن النبي قد مات، وحالُ الصَّحب الكرام في هذه الرزيَّة كالغنم المطيرةِ في الليلة الشاتية؛ لا تهتدي سبيلًا، فقام أبو بكر خطيبًا، وقال قولتَه الشهيرَة: «من كان يعبد محمَّدًا فإنَّ محمَّدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت»، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، فكأنَّ الناسَ لم يعلمُوا هذهِ الآيةَ حتى تُلِيَت عليهم. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي صدره من غُصَص الأسى ما يُذهِبُ الحَشا: «والله، ما هو إلا أنْ سمعت أبا بكرٍ تلاها فعُقِرتُ حتى ما تُقِلُّني رِجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض، وعلِمتُ أن النبيَّ ﷺ قد مات»(١).

أيُّها المسلمون: تُوفِّي سيِّد الأنام عليه الصلاة والسلام في السّنة الحاديةَ عشرةَ من الهجرة، عن ثلاثة وستين عامًا، قضاها في الدعوةِ والبلاغ والهداية والإصلاحِ، وغُسِّل في ثيابِه كرامةً له، وصُلِّي عليه أرسالًا؛ الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، دون أن يؤمَّهم أحد، ودُفِن حيثُ

---

(١) رواه البخاري.

قُبِض، صلَوات رب البرية، عليه بكرةً وعشيّة، وفارَق الصّحبَ الكرام من كان لهم نورًا وضياء وسراجًا منيرًا.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما كانَ اليومُ الذي قدِم فيه النبي ﷺ المدينةَ أضاء منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلمَ منها كلّ شيء، وما نفَضنا أيديَنا من الترابِ وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا».

تكدَّر من بعدِ النبيّ محمدٍ — عليه سلامٌ كلُّ ما كان صافيا

فلو أنّ ربَّ العرشِ أبقاك بيننا — سعِدنا ولكن أمرُه كان ماضيا

وأبلغُ من ذلك وأعزّ، قولُ المولى جلّ وعزّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

تقول فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه، جنّة الفردوس مأواه»، ثم قالت: يا أنس، أطابَت أنفسُكم أن تحثُوا على رسولِ الله الترابَ؟!

وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نَبيُّهم — وقد ذهبَت منهم ظهورٌ وأعضُدُ

و هل عدَلَت يومًا رزيَّةُ هالكٍ — رزيَّةَ يومِ ماتَ فيه مُحمّدُ؟!

ولكن إلى الرفيق الأعلى؛ حيث المآب الكريم والثواب العظيم، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

صلواتُ ربي الزكية، وتسليماته السنيّة، على خير البرية، وأزكى البشرية، وعلى آله أُولي المناقب العليَّة، وصحبه أُولِي السجايا الرضية، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، امتنَّ علينا ببعثةِ خيرِ البشَر، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةَ من خضع لله وائتمَر، وأشهد أن نبيّنا وسيّدنا محمّدًا عبده ورسوله إمام المرسلين الغُرر، الشافع المُشفع في المحشَر، صلى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آلِه وصحبِه السّادات الخِيَر، ومن تبعهم بإحسانٍ ما تآلَفَ خُبْرٌ وخَبَر، وما همى سحاب بمطر، وما اتَّصلت عينٌ بنظر، وأذنٌ بخبر. أمّا بعد:

اصبر لكلِّ مُصيبةٍ وتجلَّدِ ... واعلَم بأن الْمرءَ غيرُ مُخلَّدِ

وإذا أتَتك مُصيبةٌ تُشجَى بِها ... فاذكر مُصابَك بالنبِيّ محمدِ

أيها المسلمون: لقد توفي النبيُّ ﷺ الدنيا وهو أكرمُ مخلوق على الله، ولم يترك دينارًا ولا درهمًا ولا مالًا إلا بغلتَه البيضاء وسلاحَه، وتوفي ﷺ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديّ في شعير، توفي وما شبع ثلاثةَ أيام تِباعًا، ذاق اليُتم، وتحمل أعباء الرسالة، وواجه في سبيل الله التكذيب والأذى، والمطاردةَ وفراق الأوطان، صبرَ وصابر، واجتهد وجاهد، وعفا وسامح، وربَّى أمّة خالدة، فيها الهدايةُ والإيمان والشريعةُ الباقية، تركَ أمّةً هي خير الأمم وأوسَطُها، ترك سيرة عطرةً لتكون منهاجا للأمة إلى يوم القيامة.

أمّةَ السيرةِ الزكيّة والمسيرةِ السنيَّة، لقد التَحق المُجتبى ﷺ بالرّفيقِ الأعلَى، وإنَّ حبَّه حيٌّ في قلوبِنا مَغروس، وسيرتَه تُعطِّر الأَرجاءَ والنّفوسَ، وقد أورَثنا شَريعةً خالدةً وقرآنًا، وأمّةً خيرَ الأمَم بُرهانًا.

فبالرّغم مِن عِظَم المصيبة بموتِ النبي ﷺ وشدتها على المسلمين إلا أنهم لم يضعفوا في تبليغ دينهم ولم يتوانوا في إعلاء كلمة الدين ورفع لواء الشريعة، بل انطلقوا بدينهم الحق يتخطون الحدود والسدود، ويعلون الوِهاد، ويطوون الأرض، حتى بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربها، وأظهَره الله على الدينِ كلّه، ولئن ضعُف حال المسلمين في يومٍ فإن الجولةَ الأخيرة للإسلام، والنصرَ آت لا محالة.

وإنّه لمن العزّةِ والنّصر والثباتِ في الأمر أن نعلّم أنفسَنا وأجيالَنا قصة السيرةِ النبويّة، والآداب المحمدية، والشمائل المُصطفويّة، وأن تكونَ مَرفأً لانطلاقنا عقيدةً وعلمًا وخُلُقًا وسلوكًا، وأن نطبعَ أنفسَنا وقِيَمنا على غِرارها، وحياتَنا على هديِها ومَنارها؛ لأنها للعالمين الأوّلين والآخرين النور الوهّاج والهدَى البهّاج، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]. فهلّا تفقّدنا سلوكنا وآدابنا، وأقوالنا وأفعالنا، بما أحبه النبي الرؤوف الرحيم، الذي لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا بخيلًا ولا كذابًا، ولا مغتابًا ولا نمامًا، ولا شتّامًا ولا لعّانًا، ولا صخّابًا بالأسواق، كان أرحم الناس، وأرأف الناس، وأكثرهم رفقًا ولينًا وحلمًا وتواضعًا؟ هلّا أحيينا في أنفسنا الاعتزاز بأن لدينا أفضل البشر قدوة، فلا نتخبط في اختيار القدوات؟: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

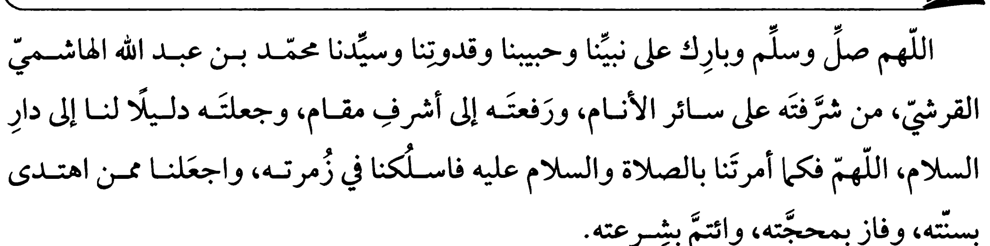
إخوةَ الإسلام: إنَّ محبّةَ النبيِّ ﷺ من أصول الإيمان، والشوقَ إلى لقائه من دلائلِ الإحسان، ومن أحبَّ لقاءه فليتبَع سنّتَه حتى يوافِيَه على الحوض، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

عبادَ الله: هذه شَذَراتٌ مِن حادثةِ وفاةِ سيِّد البشر، لنأخذ منها الدروس والعِبَر، ولا بد في ختام هذه الحياة من الموت وهجمته، والقبر وضجعته، فاحذروا غرورَ الدنيا ومكائدَها، وفِتَنَها ومصائِدها، ملتزِمين سنّة خيرِ البرية، مُتدرِّعين بالصبرِ عند كل محنةٍ وبليّة، وبالشكر عند كل نعمة وعطية.

هذا، واعملوا وفّقكم الله أنّ من دلائل الحبِّ والاقتداء، دوامَ الصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وسيد الأتقياء، فمن داوم على ذلك كشَف الله عنه همومًا لا تُحصَى، ونفّس عنه كروبًا لا تُستقصَى.

فيا فوزَ من صلّى عليهِ منَ الورى ... فذاك بتثقيلٍ لميزانه خُصّا

وقد قال المولى عَزَّوَجَلَّ قولًا كريمًا، تشريفًا لنبيِّنا وتكريمًا، وإرشادًا للعباد وتعليمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



اللّهم صلِّ وسلِّم وبارِك على نبيِّنا وحبيبنا وقدوتِنا وسيِّدنا محمّد بن عبد الله الهاشميّ القرشيّ، من شرَّفتَه على سائر الأنام، ورَفعتَه إلى أشرفِ مقام، وجعلتَه دليلًا لنا إلى دارِ السلام، اللّهمّ فكما أمرتَنا بالصلاة والسلام عليه فاسلُكنا في زُمرته، واجعَلنا ممن اهتدى بسنّته، وفاز بمحجَّته، وائتمَّ بشِرعته.

اللهم أكرِمنا بشفاعته، وأورِدنا حوضَه، واسقِنا بيدِه الشريفة شربةً لا نظمأُ بعدَها أبدًا، واجزِه عنّا خيرَ ما جزيتَ نبيًّا عن قومِه.

جزى الله عنّا كلَّ خيرٍ مُحمّدًا فقد	كان مَهديًّا وقد كان هاديًا
وكان رسول الله روحًا ورحمةً	ونورًا وبُرهانًا من الله باديًا





أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الهادي إلى صراطٍ مستقيم، أحمده سبحانه على إحسانه القديم وفضله العَمِيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الإله الحق المبين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبدُ الله ورسوله إمام المتقين وخاتم النبيين، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه الغُرِّ الميامين، والتابعين ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عبادَ الله حقَّ التقوى، فتقوَى الله ذِكرَى لكلّ أوّابٍ ونجاةٌ للعبادِ من العَذاب.

أيّها المسلِمون: تسعَد المرأةُ المسلِمة باقتِفاءِ أثرِ خَيرِ نِساءٍ عِشنَ في أفضلِ القرون، وتربَّين في أَجلِّ البيوتِ: بيتِ النّبوّة، أعلَى الله مَكانتَهن، وأجَلَّ قَدرَهن، ونزَل القرآن بالثّناءِ عَليهنّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٢] فهن زَوجاتٌ مبارَكات، ونِساء عظيمات.

أُولاهنّ تلك المرأة العاقِلَة الحاذِقة، ذاتُ الدين والنسب، خديجة بنت خُويلدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، نشأت على التخلُّق بالفضائلِ والتحلِّي بالآدابِ والكرَم، واتَّصفت بالعفّة والشرف، كانت تُدعَى بين نساءِ مكّة بالطاهرة. تزوَّجَها المصطفى ﷺ فكانت نِعمَ الزوجة له، آنسته بنفسِها، وواسته بمالها، وناصحته ورجَاحةِ عقلها، وفي أحزانِه ﷺ كان يأوِي إليها ويبُثّ إليها هُمومَه. نزل عليه الوحيُ أوّلَ نزوله فرجَع إليها يرجُف فؤادُه من هَول ما رأى، وقال لها: «ما لي يا خديجة؟! لقد خشِيتُ على نفسي»، فتلقَّته بقَلب ثابت وقالت له: كلاَّ والله، لا يخزيك الله أبدًا،

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتُكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1].

لاحَ الإسلام في دارِها فكانت أوّلَ من آمن من هذه الأمة، قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (خديجة أوّلُ خلقِ الله إسلامًا بإجماعِ المسلمين، لم يتقدَّمها رجلٌ ولا امرَأَة).

عظُمَت الشّدائِد على النبيّ ﷺ في مطلَع دعوتِه، واشتدَّ الإيذاء، فكانت له قلبًا حانيًا ورأيًا ثاقبًا، لا يسمَع من الناسِ شيئًا يكرهه ثم يرجِع إليها إلاّ ثبَّتته وهوَّنت عليه، يقول النبيّ ﷺ: «آمنت بي إذ كَفَر بي النّاس، وصدّقتني إذ كذَّبني الناس، وواسَتني بمالها إذ حرَمني الناس، ورزَقني الله ولدَها إذ حرمني أولادَ النساء»[2]. عظيمة بارّةٌ بزوجِها وأمّ حنون على أولادها، جميع أولادِ النبيّ ﷺ منها سوَى إبراهيم، أدبُها رفيعٌ، وخُلُقها جَمّ، لم تراجِع المصطفى ﷺ يومًا في الكلامِ، ولم تؤذِه في خِصام، يقول النبيّ ﷺ: «أتاني جبريل فقال: بشِّرها ببيتٍ في الجنة من قصب أي: لؤلؤ مجوَّف لا صخَبَ ولا نصَب»[3]، قال السُّهيليّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنما بشَّرها ببيتٍ في الجنة؛ لأنها لم ترفَع صوتَها على النبيّ ﷺ، ولم تُتعِبه يومًا من الدهر، فلم تصخَب عليه يومًا، ولا آذته أبدًا).

كانت خديجة راضيَةً مرضيّة عند ربِّها، يقول ﷺ: «قال لي جبريل: إذا أتتك خديجة فأقرِئ عليها السلام من ربِّها ومنّي»[4] قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهي فضيلةٌ لا تُعرَف لامرأةٍ سِواها). أحبَّها الله وأحبَّتها الملائكة وأحبَّها النبيّ ﷺ، يقول ﷺ: «إنّي رُزِقت حبَّها»[5]. وكان إذا ذكرَها أعلَى شأنَها وشكَر صُحبتَها، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبيّ ﷺ إذا ذكَر خديجةَ لم يكن يسأَم من ثَناءٍ عليها واستغفارٍ لها. حفِظ لها وُدَّها ووفاءها، فكان يُكرِم صاحِبَاتها بعدَ وفاتِها، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وربَّما ذبح الشاةَ، ثم يقطِّعها أعضاءً، ثمّ يبعثها إلى صويحبات خديجة،

---

(١) رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

(٢) رواه أحمد (٢٤٩٠٨) قال شعيب الأرناؤوط: (حديث صحيح).

(٣) رواه البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٣).

(٤) رواه البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٣).

(٥) رواه مسلم (٢٤٣٥).

فربما قُلتُ له: كأنّه لم يكن في الدّنيا امرأةٌ إلاّ خديجة! فيقول: «إنها كانت وكانَت، وكان لي منها ولد»[1]. وكان النبيُّ ﷺ إذا سمع صوتَ أختِها بعد وفاتها هشَّ لذلك وذكر صوت خديجة، كما في الصحيحين: عن عائشة قالت: استأذنت هالةُ بنتُ خويلدٍ، أختُ خديجةَ، على رسولِ الله ﷺ، فعرف استئذانَ خديجةَ فارتاح لذلك فقال: «اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ»[2].

كمُلَت في دينها وعقلِها وخلُقها، يقول ﷺ: «سيِّداتُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ بعد مريمَ بنتِ عمرانَ: فاطمةُ، وخديجةُ، وآسيةُ امرأةُ فِرعونَ»[3].

سبقَت نساءَ هذه الأمة في الخيريّة والشرف والسناء، يقول ﷺ: «خيرُ نِسائِها أي: في زمانها مريمُ بنت عمران، وخير نسائِها أي: مِن هذه الأمّة خديجة بنت خويلد»[4]. صَلُحَت في نفسِها وأصلَحَت بيتَها، فجَنَت ثمرةَ جُهدها، فأصبحَت هي وابنتُها خيرَ نساء العالمين في الجنّة، يقول ﷺ: «أفضَلُ نِساء أهلِ الجنّة خديجةُ وفاطمة ومريمُ وآسية»[5]. كانت عظيمةً في فؤادِ النبيّ ﷺ، فلم يتزوّج امرأةً قبلَها ولم يتزوَّج امرأةً معها ولا تسرَّى إلى أن قضَت نحبَها، فحزِنَ لفَقدِها، يقول الذهبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (كانت عاقِلةً جليلةً، ديِّنةً مَصونةً، كريمةً من أهلِ الجنة).

ومن خير أزواج النبي ﷺ: عائشة بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي ولدت في بَيتِ صّدقٍ وتقوَى، ونشأت في دار إيمان، فأمُّها صحابية، وأختُها أسماء ذاتُ النطاقين صحابيّة، وأخوهَا صحابيّ، ووالِدُها صِدّيق هذه الأمة. ترَعرَعت في بيتِ عِلم، كان أبوها علاَّمةَ قريشٍ ونَسَّابَتها، منحَها الله ذكاءً متدفِّقًا وحفظًا ثاقِبًا، قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لم يكن في الأمَم مثلُ عائشَةَ في حفظها وعلمِها وفصاحتِها وعَقلها). فاقَت نساءَ جِنسها في العِلم والحكمة، رزِقَت في الفقه فهمًا، وفي الشعر حِفظًا، وكانت لعلومِ الشّريعة وِعاءً، يقول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أفقهُ

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٨).

(٢) رواه البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧).

(٣) السلسلة الصحيحة (٤/ ١٣).

(٤) رواه البخاري (٣١٧٨) ومسلم (٤٤٥٨).

(٥) رواه أحمد.

نساءِ الأمّة على الإطلاق، ولا أعلَمُ في أمّة محمد بل ولا في النّساء مطلقًا امرأةً أعلَم منها، سمَت على النساء بفضائِلِها وجميلِ عِشرتها، يقول المصطفى ﷺ: «فضل عائشةَ على النساء كفضلِ الثريد على سائر الطعام»(١). أحبَّها النبي ﷺ، وما كان ليحبّ إلا طيّبًا، يقول عمرو بن العاص: أيّ النّاس أحبّ إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة»، قلت: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»(٢)

لم يتزوَّج بِكرًا غيرَها، ولا نزَل الوحيُ في لحافِ امرأةٍ سواها، عَفيفةٌ في نفسها، عابدة لربِّها، لا تخرُج من دارِها إلاّ ليلًا لئلا يراها الرّجال، تقول عن نفسِها: كنّا لا نخرُج إلاّ ليلًا، محقّقةً قولَ الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]) قال القرطبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والشريعةُ طافِحَةٌ بلزوم النّساءِ بيوتَهنّ والانكفافِ عن الخروج منها إلا لضرورَة.. فإن مَسّت الحاجةُ إلى الخروجِ فَليكُن على تبذُّلٍ وتستُّر تامّ. والله يبتلِي من يحِبّ، والابتلاء على قدرِ الإيمان، بُهِتَت رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا وعُمرُها اثنَا عشرَ عامًا، قالت: فبكَيتُ حتى لا أكتحِل بنوم ولا يَرقأ لي دَمع، حتى ظنَّ أبواي أنّ البكاءَ فالِقٌ كبِدي، واشتدَّ بها البلاء، قالت: حتى قلَصَ دمعي فلا أحسّ منه قطرة). قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فغارَ الله لها، وأنزَل براءتها في عشرِ آيات تُتلَى على مر الزمان، فسمَا ذكرُها وعلا شأنها؛ لتسمَعَ عَفافها وهي في صباها، فشَهِدَ الله لها بأنها من الطيّبات، ووعَدَها بمغفرةٍ ورزق كريم. لم تزل ساهِرةً على نبيِّنا ﷺ، تمرِّضُه وتقوم على خدمتِه، حتى توفِّيَ في بيتها، وفي ليلَتِها، وبين سَحرِها ونحرِها).

وقد اختلف أهل العلم في التفضيل بين خديجة وعائشة، قال ابن عثيمين: (وفصّل بعضهم فقال: إنّ لكل منهما مزية لم تلحقها الأخرى فيها، ففي أول الرسالة لا شك أن المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة، ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذلك، وبعد موت الرسول ﷺ حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة مالم يحصل لخديجة، فلا يصح أن تفضل إحداهما على الأخرى تفضيلًا مطلقًا، بل نقول: هذه أفضل من

---

(١) رواه البخاري (٣٤١١) ومسلم (٤٥٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٢).

وجه، وهذه أفضل من وجه، ونكون قد سلكنا مسلك العدل، وعند التفصيل يحصل التحصيل، وهما وبقية أزواج الرسول في الجنة معًا).

وسَليمَةُ القلب سَودةُ بنت زمعَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أوّلُ من تزوّجَ بها النبيّ ﷺ بعد خديجَة، وانفردَت به نحوًا من ثلاثِ سنين، كانت جليلةً نبيلَة، رزِقَت صفاءَ السّريرةِ، وَهَبت يومَها لعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رِعايةً لقلب النبي ﷺ تبتَغِي رِضَا ربِّها.

والقوّامَةُ الصّوّامة حفصةُ بنت أميرِ المؤمنين عمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نشَأت في بيتِ نُصرةِ الدين وإظهارِ الحق، سَبعةٌ مِن أهلها شهدوا بدرًا، تقول عنها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هِي التي كانت تُسامِيني من أزواجِ النبيّ ﷺ.

والمُنفقةُ زينبُ بنت خُزيمة الهلاليّة، ذاتُ البذلِ والمسارعة في الخيرات، مكثَت عند النبيّ ﷺ شهرَين ثم توفِّيَت.

والمهاجرة المحتسِبَة أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ليس في أزواجِهِ مَن هي أقربُ نسبًا إليه منها، ولا في نسائِه مَن هي أكثرُ صَداقًا منها، ولا فيمَن تزوَّج بها وهي نائِيَة الدارِ أبعَدَ منها، عقَدَ عليها وهي في الحبَشَة فارّةٌ بدينها، وأصدَقَها عنه النجاشي صاحِبُ الحبَشَة وجهَّزها إليه.

والصّابِرة الحيِيَّة أمّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هندُ بنت أبي أميّة مِنَ المهاجرات الأوَل، ولمّا أرادتِ الهجرةَ إلى المدينة مع زوجِها أبي سلمة فرَّق قومُها بينها وبين زوجِها وطِفلِها، قالت: فكُنتُ أخرج كلَّ غداة وأجلس بالأبطَح، فما أزال أبكي حتى أمسِي، سنةً كاملة أو قريبًا منها، حتى أشفَقوا عليَّ فأعادوا إليَّ طفلي. يقينُها بالله راسِخ، توفِّيَ عنها زوجها أبو سلمة فأمرها النبي ﷺ أن تدعو بدعاء عظيم، فعوَّضها الله برسول الله ﷺ زوجًا لها، تقول: سمعتُ النبيَّ يقول: «ما مِن مسلم تصيبُه مصيبةٌ فيقول: إنّا لله وإنا إليه راجعون اللّهمّ أجُرْني في مصيبتي وأخلِف لي خيرًا منها؛ إلا أخلَفَ الله له خيرًا منها»، قالت: فلمّا مات أبو سلمة قلت: وأيُّ المسلمين خير

من أبي سلمة؟! أوّل بيت هاجر إلى رسول الله؟! ثمّ إني قلتها فأخلَف لي رسولَ الله ﷺ[1]. فاجعَل هذا الدعاءَ ذُخرًا لك عندَ حلولِ المصاب يعوّضْك خيرًا من مصيبتِك.

وأمّ المساكين زَينبُ بنتُ جَحش، بنت عمّةِ رسول الله ﷺ، نَعِمت بالحسَب والنّسب والشرف والبَهاء، زوَّجَها الله نبيَّه بنصِّ كتابِه من فوق سبع سموات، بلا وليٍّ ولا شاهد، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧]. زواجُ النبيِّ ﷺ بها بركةٌ على المسلمات إلى قيامِ الساعة، حين فُرِض الحجابُ على بناتِ حوّاء بعد أن تزوَّجها؛ ليكونَ صِيانةً للشَّرف والعفاف والنقاء، سخِيَّة العطاءِ للفقراءِ والضّعفاء، كثيرةُ البرّ والصدقة، ومع شريف مكانتِها وعلوِّ شأنها كانت تعمَل بيدها، تدبَغ وتخرزُ وتتصدَّق من كسبِها، قالت عنها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رأيتُ امرأة خيرًا في الدّين من زينب؛ أتقَى لله وأصدَق حديثًا، وأوصَل للرّحم وأعظم صدقة.

والعابدة جويرية بنت الحارث المصطلقية، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، من بني المصطلِق، أبوها سيِّدٌ مطاع في قومه، وهي مبارَكَةٌ في نفسها وعلى أهلها، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رأيتُ امرأةً كانت أعظمَ بركةً على قومِها منها. كثيرةُ التعبُّد لربِّها، قانتةٌ لمولاها، كانت تجلِس في مصلاَّهَا تذكرُ الله إلى نصفِ النّهار، تقول: أتى عليَّ رسول الله ﷺ غُدوةً وأنا أسبِّح، ثم انطلَقَ لحاجته، ثمّ رجع قريبًا من نصف النهار، فقال: «أما زِلتِ قاعدة؟» يعني: تذكرِينَ الله، قالت: نعم. قال: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلتِ لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنه عرشه، ومداد كلماته»[2].

والوجيهةُ صفيّة بنت حيَيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مِن ذرّيّة هارونَ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانت شريفةً عاقلة ذاتَ مكانةٍ ودين، وحِلم ووقار، قال لها النبي ﷺ: «إنك لابنةُ نبيّ أي: هارون، وإنَّ عمَّك لنبيّ أي: موسى، وإنّك لتحتَ نبيّ»[3]. وكانت وليمةُ النبيّ ﷺ عليها في زواجِها السّمن والأقِط والتمر، فكان زواجًا ميسَّرًا مباركًا.

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٩٤).

وواصِلة الرّحِم أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلاليّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من عظماءِ النساء، منحَها الله صفاءَ القلب، ونقاء السريرة، وملازمةَ العبادةِ، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أما إنَّها كانت من أتقانَا لله وأوصلِنا للرحم.

رضي الله عن أمهات المؤمنين، زوجات خير المرسلين، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعَني الله وإياكم بما فيهِ من الآيات والذّكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانِه، والشّكر له على توفيقِه وامتنانه، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له تعظيمًا لشأنه، وأشهَد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلّم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

أيّها المسلمون: زوجاتُ النبيِّ ﷺ عِشن معه في بَيتٍ متواضِع، في حجراتٍ بُنِيت من اللّبِن وسَعَف النخل، ولكنه مِلِيء بالإيمان والتقوى، صبَرن مع النبيّ ﷺ على الفقرِ والجوع، كان يأتي عليهنّ الشهر والشهران وما يوقد في بيوتهنّ نار، وتأتي أيّامٌ وليس في بيوتهنّ سِوى تمرة واحدة، ويمرّ زمنٌ من الدّهر ليس فيها سِوى الماء بدون طَعام، وهن صابرات محتسبات، قد اخترن اللهَ ورسوله والدار الآخرة، قناعةٌ في العيش وصَبر على موعودِ الله، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]. أجورهنّ مُضاعفة مرتين: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣١].

خمسٌ منهنّ تزوَّجهنّ عليه الصلاة والسلام وأعمارهنّ مِن الأربعين إلى الستّين عامًا، حقَّق بذلك رعايةَ الأراملِ وكفالة صبيانهنّ الأيتام، فتزوَّجَ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا وعمرها أربعون عامًا ولها ثلاثةُ أولادٍ من غيره، وهو لم يتزوَّج بعد، وتزوَّجَ زينبَ بنت خزيمة وهي أرملةٌ ناهزَت الستّين من عُمرِها، وتزوّج أم سلَمَة وهي أرمَلَة ولها ستّة أولاد، وتزوَّجَ سودَةَ وهي أرملةٌ وعمرها خمسَةٌ وخمسون عامًا.

تزوّج من الأقارب من بناتِ عمّه وعمّاتِه، وتزوّج من الأباعد، وكان لهنّ زوجًا رحيمًا، برًّا كريمًا، جميلَ العِشرة معهنّ، دائمَ البِشر متلطِّفًا بهن، فمن طلَب السعادةَ في بيته فليجعَل خيرَ البشَر قدوةً له، وقد قيل: ينال المسلم مع أهله من السعادة، بقدر اقتدائه بالنبي ﷺ وأدبه ورفقه وتعامله مع أزواجه، فقد كان خير الناس لأهله، وأرفقه بزوجه، وأكثرهم إغضاءً عن أخطائهن، وكان إذا دخل بيته لم يدخل عابسًا متجهّمًا، ولا غليظًا مستكبرًا، ولا متتبعًا للعثرات، منقبًا عن العيوب والزلات، بل يكون في مهنة أهله، فيكنس بيته، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، وهو رسول الله ﷺ، قائد الدولة، ومعلم الناس، وصاحب

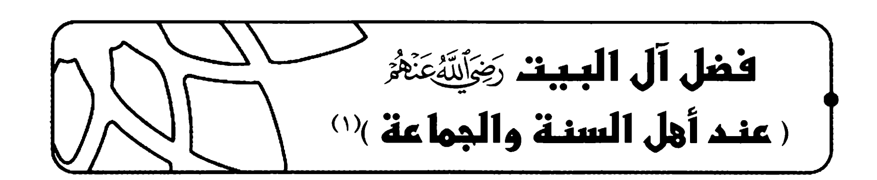
الحكم. كان ﷺ يتغافل عن واضح الخطأ، ويستر صريح الزلة، ويطلب مواطن الثناء والشكر، وينتقي أطيب الكلام، فصلوات ربي وسلامه عليه.

ولتلحَقِ المسلمة بركابِ زوجاتِه الصالحات، فلا فلاحَ للمرأة إلا بالاقتفاءِ بمآثرهنّ في السترِ والصلاح، والصبر والتقوى، والإحسان إلى الزّوج والولد.

ينبغي الاقتداء بالمؤمنات الصالحات، عبادة وعملًا، وأدبًا وخُلقًا، وصبرًا وقناعة، وسترًا وعفة، وعناية بالبيت، ورعاية للعيال، وتلطفًا مع الزوج، وطلبًا لمواطن الرضى منه، وتحريًا لما يحب ويرضى، وتباعدًا من كل ما يكدر عليه عيشته، قولًا وفعلًا، فإنها بذلك تنال رضى الله تعالى وتوفيقه وحسن العاقبة منه.

ثم اعلَموا أن الله أمَركم بالصلاة والسلام على نبيه، فقال في محكمِ التّنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].





فضل آل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (عند أهل السنة والجماعة)[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفي للشرف من شاء من الأخيار، شرّف رسوله محمدًا ﷺ على كل البرية، وجعل ذريته أشرف ذريّة، أحمد ربي تعالى وأشكره وأثني عليه وأستغفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله نتقرب إلى الله تعالى بمحبة رسوله وأصحابه، وآله وعترته الطاهرة الزكية، صلى الله وسلم وبارك عليهم وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فوصية الله تعالى للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]. أيها المسلمون.. الشريف في ذاته يفيض بالشرف على من حوله، والكريم في معدنه يسري كرمه في المحيطين به، انظر إلى زجاجة العطر كيف تبقى فوّاحة بعد نفاد ما فيها، تطلّع إلى جوار المصباح وكيف استحال هالة من نور، وسوارًا من ضياء، وكذلك البشر تفيض بركة السعداء منهم وتتعداهم إلى غيرهم. فكثير من سلالة إبراهيم الخليل غدوا أنبياء وأصحاب عيسى صاروا حواريين ورفاق محمد ﷺ شرفوا بالصحبة وأزواجه أمهات للمؤمنين. ونسله استحقوا وصف الشرف والسيادة، كيف لا وفيهم من دمائه دم، وفيهم من روحه نبض، ومن نوره قبس، ومن شذاه عبق، ومن وجوده بقية صلى الله عليه وصلى على آله وأزواجه وصلى على صحابته وسلّم تسليمًا كثيرًا.

ولا شك أن القلب إذا أحب أحدًا أحب مَن يشبهه أو يخالطه، ومن أعظم المحبة في الإسلام بعد محبة الله تعالى، محبة النبي ﷺ، ومن محبة النبي ﷺ محبة آل بيته، أبناء النبي وبناته

---

(١) صالح بن محمد آل طالب.

وعمه العباس وحمزة رضوان الله عليهما، وأبناء أعمامه من المسلمين كعليّ بن أبي طالب وابن عباس -رضوان الله عليهما-، وكذا أزواجه الطاهرات -رضي الله عنهن جميعًا-، فكل هؤلاء امتداد لعبقه وذكراه ونوره.

ولكرم النبي ﷺ كرمت ذريته، ولشرفه شرف آل بيته، وكانت مودتهم ومحبتهم جزءًا من شريعة المسلمين، فاعتقدوا المودة لهم ومحبتهم وموالاتهم، شهدت بذلك كتبهم المدونة وتفاسيرهم المبسوطة وشروحات السنن ومسائل الفقه. كيف لا، وهم وصية نبينا محمد ﷺ هم وصيته وهم بقيته، إذ يقول: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[(١)] وكل بيته ﷺ هم أزواجه وذريته وقرابته الذين حرمت عليهم الصدقة هم أشراف الناس، وقد قال النبي ﷺ كما روت ذلك عائشة الصدّيقة في صحيح البخاري: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[(٢)].

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني»[(٣)]. وفي رواية فيهما أيضًا: «فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»[(٤)].

وروى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت مني وأنا منك»[(٥)]، كما قال النبي ﷺ عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[(٦)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال للحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه»[(٧)]. وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم وقرآنه العظيم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣٧١٤) ومسلم (٢٤٤٩).

(٤) رواه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٥) رواه البخاري (٤٢٥١).

(٦) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٧) رواه البخاري (٥٨٨٤) ومسلم (٢٤٢١).



ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣] ومعلوم أن هذه الآية نزلت في أزواج النبي ﷺ؛ لأن ما قبلها وما بعدها كله خطاب لهن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُنَّ، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لأصحابه: قولوا: «اللهم! صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[1]. وهذا يفسر اللفظ الآخر للحديث: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد؛ فالآل هنا هم الأزواج والذرية في الحديث الأول.

عباد الله: هذه بعض فضائل آل بيت النبوة كما حفظتها كتب السنة والتزمها المسلمون منذ صدر الإسلام الأول وأنزلوهم منازلهم اللائقة من غير إفراط ولا تفريط. ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «ارقبوا محمدًا في أهل بيته»[2].

وفي الصحيحين أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «والذي نفسي بيده! لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي»[3]. وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شهد بالرضا لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ والسبق والفضل، ولما وضع الديوان بدأ بأهل بيت النبي ﷺ، وكان يقول للعباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «والله! لإسلامك أحب إلي من إسلام الخطاب؛ لحب النبي ﷺ لإسلامك»، كما استسقى بالعباس وأكرم عبد الله بن عباس وأدخله مع الأشياخ في مجلسه وهو غلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: (ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم، ويحفظون وصية رسول الله ﷺ فيهم حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»)[4].

وقال الطحاوي رَحِمَهُٱللَّهُ: (ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. ومَن أحسَن القول في

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٠) ومسلم (٤٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٧١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٢٤٠) ومسلم (١٧٥٩).

(٤) رواه مسلم (٢٤٠٨).

أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس؛ فقد برئ من النفاق).

عباد الله: إن مما ينبغي على كل مسلم اتباع سنة رسول الله ﷺ وسنة آل بيته وتعظيمهم ومحبتهم واقتفاء أثرهم والدفاع عنهم وعن منهجهم ودينهم الحق. واتخاذ ذلك دينًا وقربة إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وتحمل طعون الطاعنين ولمز الشانئين في سبيل هذا المنهج العدل، ولا ينبغي أن يزيده ذلك إلا ثباتًا على الحق وتمسكًا بمنهج الوسط، واتباعًا لسنة آل البيت حقًا، وليس أحدٌ أتبع لمنهجهم اليوم من أهل السنة عامتها وعلمائها. قال الإمام المجدد محمد بن سليمان التميمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لآله ﷺ حق لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر قريش.. وقريش يستحقون ما لا يستحقه غيرهم من القبائل).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: (وقد أوجب الله لأهل بيت رسول الله ﷺ على الناس حقوقًا، فلا يجوز لمسلم أن يسقط حقوقهم ويظن أنه من التوحيد، بل هو من الغلو والجفاء، ونحن ما أنكرنا إلا ادعاء الألوهية فيهم) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومع كل الكلام المتقدم إلا أنه ينبغي أن نعلم أن الله ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب ولا قرابة، وأن الله الملك الحق يجازي كل عبد بعمله، ولذلك فإن الإنسان لا يبلغ الدرجات العُلى والفضل العظيم عند الله تعالى إلا بعمله الصالح، وإن نسبه -ولو كان من آل البيت- لا يُغني عنه من الله شيئًا إذا كان فاسقًا فاجرًا، يعمل الموبقات والمعاصي، ويترك الواجبات من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك، بل قد يكون وبال ذلك عليه أكثر من غيره.

وقد سئل الإمام الشوكاني -رَحِمَهُ اللَّهُ وأكرم مثواه- عما قيل في أن العصاة من أهل بيت النبوة لا يُعاقَبون على ما يرتكبون من الذنوب، بل هم من أهل الجنة على كل حال تكريمًا وتشريفًا! هل ذلك صحيح أم لا؟

فأجاب بقوله: (أقول: لا شك ولا ريب أنَّ أهل هذا البيت المطهَّر لهم من المزايا والخصائص والمناقب ما ليس لغيرهم، وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية شاهدة لهم بما خصهم الله به من التشريف والتكريم، والتبجيل والتعظيم، وأما القول برفع العقوبات عن عصاتهم، وأنهم لا يُخاطَبون بما اقترفوه من المآثم، ولا يُطالَبون بما جنوه من

العظائم، فهذه مقالة باطلة ليس عليها أثارةٌ من علم، ولم يصح في ذلك عن الله ولا عن رسوله ﷺ حرف واحد.

وجميع ما أورده علماء السوء المتقربون إلى المتعلِّقين بالرياسات من أهل هذا البيت الشريف فهو إما باطل موضوع، أو خارج عن محل النزاع؛ بل القرآن أعدل شاهد وأصدق دليل على زجر قول كل مكابر جاحد، فإنه قال عَزَّوَجَلَّ في نساء النبي ﷺ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٠]، وليس ذلك إلا لما لهن من رفعة القدر، وشرافة المحل بالقرب من رسول الله ﷺ، إلى أن قال: ولو كان الأمر كما زعم هذا الزاعم لم يكن لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، معنى ولا كبير فائدة.

وإذا كان المصطفى يقول لفاطمة البتول -التي هي بضعة منه، يغضبه ما يغضبها ويرضيه ما يرضيها-: «يا فاطمة بنت محمد لا أُغني عنكِ من الله شيئًا»[1]، فليت شعري مَنْ هذا مِن أولادها الذي خصه الله بما لم يخصها، ورفعه إلى درجة قصَّرت عنها؟! فأبعد الله علماء السوء وقلَّل عددهم؛ فإن العاصي من أهل هذا البيت الشريف المطهر إذا لم يكن مستحقًا على معصيته مضاعفة العقوبة، فأقل الأحوال أن يكون كسائر الناس.

فيا من شرفه الله بهذا النسب الشريف! إياك أن تغتر بما ينمقه لك أهل التبديل التحريف) انتهت الفتوى[2].

إن مجرد الانتساب إلى بيت النبوة لا يكون شرفًا بحد ذاته، إذا لم يصاحبه عمل صالح يقرب صاحبه من الله تعالى، وكم من أناس صالحين من خارج النسب النبوي أفضل من كثير ممن هم من سلالة آل البيت الذين لا يعرفون من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه! وهل أغنى عن أبي لهب قربه من الرسول ﷺ؟! وهل أغنى عن أبي طالب قربه من رسول الله وقد مات على ملة الأسياد والآباء من قريش؟! وقد قال الحسن بن الحسن لرجل يغلو فيهم:

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) إرشاد السائل، نقلًا عن مجلة البيان عدد (١١٥) (ص١٦).

«ويحك! أحبونا لله، فإن أطعنا الله فأحبونا، وإن عصينا الله فأبغضونا، ولو كان الله نافعًا أحدًا بقرابة من رسول الله بغير طاعة، لنفع بذلك أباه وأمه، قولوا فينا الحق، فإنه أبلغ فيما تريدون، ونحن نرضى منكم»[(١)].

وقد قرر النبي ﷺ قاعدة واضحة في ذلك فقال: «ومَن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه»[(٢)]، فمَن أخَّره عملُه عن دخول الجنَّة لم يسرع به نسبه إلى دخول الجنَّة؛ لأنَّ المعتبَر في ذلك الإيمان والتقوى، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، قال ابن رجب: (معناه أنَّ العملَ هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢]، فمَن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات؛ فإنَّ الله رتَّب الجزاءَ على الأعمال لا على الأنساب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١])، إلى أن قال: وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالًا على النسبْ

لقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارس ... وقد وضع الشركُ الشقيَّ أبا لهب

فما الحسب الموروث إن در دره ... لمحتسبٍ إلا بآخر مكتسب

إذا الغصن لم يثمر وإن كان شُعبةً ... من الثمرات اعتدّه الناس في الحطب

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة، ونفعنا بما فيها من الآيات والحكمة. أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

---

(١) رواه اللالكائي (٧/ ١٤٠٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

الخطبة الثانية:

الحمد لله طاعته أشرف مُكتَسَب، وطاعته أعلى نسب، سبحانه وبحمده لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما سَلَب، وأشكره على مِنَحه العُظمى، ونعمه الكبرى تفوق عدَّ العادِّين وحساب من حَسَب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً أرجو بها النجاة يوم تشتد الكُرَب، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله عليُّ المقام وعالي الرُّتَب، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه المتقين الأبرار، ومن إلى دين الحنيفية انتسب، وسلَّم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

أيها المسلمون.. نبي الإسلام محمد -صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم-، فهو المختار المصطفى، والنبي المُجتبى، صادق اللهجة إذا تحدَّث، طَلَق اليد إذا بَذَل، واسع الحلم إذا أُوذِي، عظيم النفس، راجح العقل، قد امتلأ رحمةً وبِرًّا، وحكمةً وحِجَى، لم يُخالط شيئًا من سيرته شائبةُ عبثٍ أو لهو، إخلاصٌ شديد، وجِدٌّ راسخ، لم يُؤثَر عنه قولٌ ولا عمل يدل على حبٍّ في الرئاسة، أو تطلُّع إلى زعامة، منحه ربُّه من العقل والفهم والإدراك في تدبير بواطن الخلق وظواهرهم، وسياستهم العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سيرته، علوٌّ في الذات، وعلوٌّ في القدر، ومقامٌ أرفع في خُلُقٍ كريم، وسيرةٍ حميدة، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

إن محمدًا -صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- لم يَخُصَّ آل بيته بوسائل التنعُّم الأسرية، ولم يجعل لهم مزايا دنيوية خاصة؛ بل رباهم على حياة الزهد والقناعة والإيثار، حتى إنه لم يرضَ أن يتخذ عليٌّ وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خادمًا، وأرشدهم إلى الاستعانة بذكر الله والتسبيح والتحميد، ولقد فقِهَ آل بيت رسول الله ﷺ ورضي عنهم وأرضاهم، فقهوا عن نبيهم وأبيهم

محمد ﷺ ذلك، فكانوا في سيرهم وتاريخهم رضوان الله عليهم كانوا بعيدين كل البعد عن كسب الدنيا بانتسابهم وأنسابهم.

لقد كانوا غيارى على نزاهة الرَّحِم الذي يصِلُهم برسول الله ﷺ، فما كانوا يستغلُّون هذا النسب لمصالح دنيوية، شأن المعتاد في أبناء أسر الوجهاء والكُبَراء، يقول جويرية بن أسماء - وهو من أخص خَدَم سيدنا علي بن الحسين زين العابدين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعن آبائه- يقول جويرية: (ما أكل عليُّ بن الحسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهمًا قط).

وفضل أهل بيت رسول الله ﷺ من المعلوم بالاضطرار عند أهل الإسلام في سيادتهم، وفضلهم، وفُضلائهم، وحسن سيرهم، وأخلاقهم، وعلو هممهم وعزائمهم، فهم السادة أهل البيت، أسباط رسول الله ﷺ، وأولاد أسد الله وأسد رسوله الإمام الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكرم وجهه- ورضي عن العترة الطاهرين، وعن الصحابة الأكرمين أجمعين-.

أهل البيت لهم مكانتهم في مرتبتهم الدينية ومقامهم العلمي، فالأمة تحفظ لهم الحب والتقدير، والاحترام والمودة، على حد قوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣]، هذا هو محمد ﷺ، وهؤلاء هم آل بيته سرٌّ من أسرار هذا الدين وبقائه، وحفظه، وعلوه، وحُجَّته، وبرهانه.

فالإسلام دين الله، ومحمد رسول الله، ورسالته خاتمة الرسالات، تولَّى الله حفظ الدين، وتكفَّل بخلود كتابه، وأحاط مبادئه وشعائره ومقاصده بحياطته الصمدية، وحفِظَها ويسَّرها غضَّةً سليمة، سهلةً تبهر الناس بكمالٍ لا يُدانيه كمال، وصلاحية لا يُخالطها بِلَى، وتجدُّدٍ لا يُنازعه تقادُم.

وإن المسلمين إنما أحبوا أصحاب النبي ﷺ لما لهم من صلة بالنبي سببًا، وإنما أحبوا آل بيته لما لهم من صلة به نسبًا، فكان ذلك الحب إنما هو ترجمةٌ لحبهم دينهم ونبيهم.

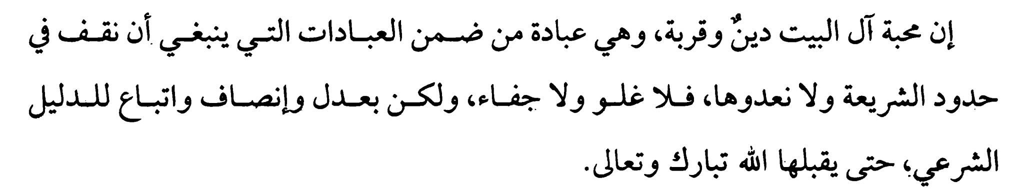
ولأن آل بيت نبينا محمد ﷺ ومحبتهم، أمر تهفو إليه النفوس وشعور تجثو عنده العواطف، وحس يتحرك له الوجدان فقد دخل من هذا الباب من استغله وتاجر به واستخدمه من

ادّعى خدمته، تحت شعار محبة آل البيت والانتصار لهم، فتستروا خلف ادعاء حب آل البيت وموالاتهم، وغلوا فيهم حتى اشترطوا لذلك سب أصحاب النبي ﷺ وبغضهم وتكفيرهم، وادّعوا لبعض الآل من صفات الكمال ما لا يليق إلا بالله ذي الجلال، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرًا.

فظهرت فيهم النُّصب والمشاهد على القبور، وادعوا الولاية للمقبورين في هذه الأضرحة، وعظموها وطافوا بها، وادعوا أن لأصحابها تحكم في أمور الناس ومصائرهم، فوقعوا في شرك عظيم بذبحهم وتوسلهم وسؤالهم من دون الله من لا يملك ضرًا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٦].

وفي الوقت الذي ينكر فيه المعروفون من آل البيت تلك العقائد الدخيلة، تنشط في الوقت نفسه عناصر ليسوا عربًا ولا من نسل العرب، في الحديث باسم آل البيت وممارسة طقوس واحتفالات وبدع ومحدثات، لم يثبت عن أئمة آل البيت منها شيء، لا في كتبهم ولا في كتب غيرهم!

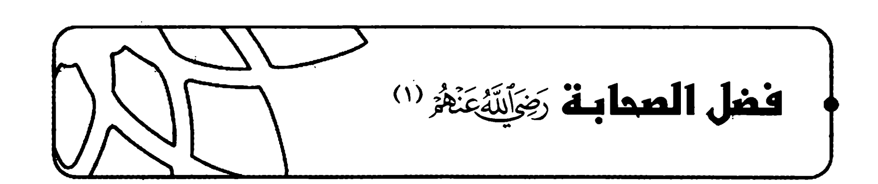
ويقودنا هذا إلى تأكيد على دور العلماء وطلبة العلم خاصة من النسل الشريف وآل البيت المنيف ممن جرت في عروقهم الدماء الزكية أن يملكوا زمام المبادرة في الحفاظ على عقيدة جدهم ﷺ، وألا يتركوا الصوت العالي يذهب لغيرهم ممن يتاجر باسمهم ويتسلق على ظهورهم وينتفع بالحديث عنهم، مفسدًا أديان الناس وعقائدهم. إن عليهم وعلى عموم الأمة مسؤولية عظمى لهداية الناس وتبصيرهم بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ واكتمل بوفاته، وتنقية فطر المسلمين من لوثات الغلو والجفاء لئلا تحيد بهم الأهواء عن صراط الله الذي قال فيه سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].



إن محبة آل البيت دينٌ وقربة، وهي عبادة من ضمن العبادات التي ينبغي أن نقف في حدود الشريعة ولا نعدوها، فلا غلو ولا جفاء، ولكن بعدل وإنصاف واتباع للدليل الشرعي، حتى يقبلها الله تبارك وتعالى.

اللهم ارزقنا حب نبيك وأصحابه وآل بيته، وألحقنا بهم في عبادك الصالحين..

ثم اعلموا رحمكم الله أن الله تعالى أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه فقال جل في علاه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].



فضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (1)

الخطبة الأولى:

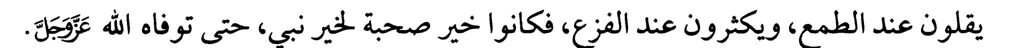
الحمد لله طاعته أشرف مُكتَسَب، وطاعته أعلى نسب، سبحانه وبحمده لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما سَلَب، وأشكره على مِنَحه العُظمى، ونعمه الكبرى تفوق عدَّ العادِّين وحساب من حَسَب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أرجو بها النجاة يوم تشتد الكُرَب، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله عليُّ المقام وعالي الرُّتَب، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه المتقين الأبرار، ومن إلى دين الحنيفية انتسَب، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله- فالموعد يوم المعاد، والحشر يوم التناد، يوم يُنفخ في الصور، ويُنقَر في الناقور، أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرَّم الله، وصدق النية فيما عند الله، والسعيد من وُعِظ بغيره، والمال قد يجمعه غير آكله، ويأكله غير جامعه، والقوي من داوَم على طاعة الله، والضعيف من غلبه هواه فانتهك محارم الله، ورأس التقوى مخافة الله، ورأس الفضائل حفظ اللسان، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أيها المؤمنون: إنّ الله اصطفى محمدًا على سائر الأنبياء والمرسلين، وجعله رسولًا للعالمين أجمعين، فاختار له صحابة أخيارًا صالحين، آمنوا به حين كفر الناس، وأقدموا حين أحجم الناس، ونصروه حين خذله الناس، واتبعوه وآزروه وعزروه وفدوه بالنفس والنفيس، صبروا على الشدة واللأواء، والبأساء والضراء، طلبًا لرضى الله، ويقينًا بوعد الله، هم القوم

(١) يزيد بن الخضر بن قاسي.



يقلون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع، فكانوا خير صحبة لخير نبي، حتى توفاه الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم بعد وفاته قاموا بدعوته خير قيام، فرفعوا لواء الملة في الأقطار، ونشروا مبادئ الشريعة في الأمصار، حتى اتسعت دولة الإسلام في أقل من قرن من جدار الصين إلى بحر الظلمات المحيط الأطلسي.

قامت على أكتاف أولئك الرجال دولة الإسلام حِقَبًا عديدة، ودهورًا مديدة، فأشرقت بنور الحق، ودخلت القلوب بدين الفضل، ومبادئ النُّبْل، وضياء الهدى، فلم يترك دينُ الله بيتَ مَدَرٍ ولا حجرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بالغًا ما بلغ الليل والنهار، دين الحق قبِلَت لغتَه الأرواح قبل الأشباح، تتبعُ فتوحاته الحضارةُ والمدنية، والعدل والرحمة، والعلوم النقلية والعقلية، على أيدي هذه الأمة الأمية حديثة العهد بالعلم، التي كانت خير أمة أُخرجت للناس، وقدوة لهم في الرخاء والبأس.

إنهم صحابة رسول الله ﷺ، هذا الجيل العظيم الذي رباه النبي ﷺ وأحسن تربيته، فأصبحوا صدارة هذه البشرية بعد الأنبياء والرسل، تحقق فيهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ما لم يتحقق في غيرهم منذ بدء الخليقة، ولن يتحقق في غيرهم حتى قيام الساعة.

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ»[(١)]، وقال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله عَزَّوَجَلَّ لصحبة نبيه ونقل دينه»[(٢)].

لقد اجتمع في أصحاب محمد ﷺ من عوامل الخير ما لم يتجمع في جيل قبلهم، ولن يتجمع في جيل بعدهم، فتعالوا لنسمع ما وصفهم الله به في كتابه، وما شهد لهم رسول الله ﷺ به في سنته.

---

(١) الصحيح المسند للوادعي (٨٥٦).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥-٣٠٦).

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح:٢٩].

هكذا يصف القرآن محمدًا ﷺ وأصحابه، ذلك الجيل القرآني المثالي، فقد كانوا كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، ووصفهم الله بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها مع احتساب جزيل الثواب عند الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، ثم قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: ترى في وجوههم السمت الحسن والخشوع والتواضع، لكثرة صلاتهم وسجودهم، فما من شيء يحسن الله به الوجه مثل الصلاة والسجود، وكما قال بعض السلف: (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار). ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾، لقد عظّم الله فضل الصحابة وكبّر شأنهم بأنْ نوّه بذكرهم في الكتب السماوية السابقة التوراة والإنجيل، فمثلهم الله فيها بالزرع، فقال سبحانه: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: مثل الصحابة في قوة وجودهم، وامتدادهم، ونصرتهم، وتآزرهم، وتأييدهم، وجهادهم؛ كمثل الزرع الذي يتفرع وينتشر، ويزداد ويقوى، ويطول ويشتد ساقه، فيعجب أهله الذين غرسوه، ليغيظ بهم الكفار، وهل هناك أغيَظ على اليهود وغيرهم من الكفار وأشد حنقًا على قلوبهم ما رأوه من نصرة الصحابة للنبي ﷺ، وجهادهم لأعداء الله، حتى هزموا المجوس والروم، وأذلوا أهل الشرك وطواغيت الكفر في الأرض جميعًا.

ومما جاء في بيان فضلهم من الآيات قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقد أخبر الله العظيم أنه رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض بعضهم أو سب بعضهم).

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:١٨-١٩].

فهذه بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية، وعدد المبايعين فيها من الصحابة ألف وخمسمائة، فأخبر الله أنه قد رضي عنهم جميعًا، وعلم ما في قلوبهم من الصدق والإيمان، وفي صحيح مسلم قال ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد؛ الذين بايعوا تحتها»(١).

والصحابة عباد الله هم الجيل الذي وصفه النبي ﷺ بالخيرية والأفضلية المطلقة على سائر الأجيال، فقد روى البخاري عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٢).

وهذه الخيرية تجعل من جيل الصحابة مثلًا عاليًا للمسلمين في كل زمان ومكان، فهم يتطلعون إليهم، ويعتزون بهم، ويترضّون عليهم، ويسترشدون بسيرهم، تلك السير المتنوعة في الحرب والعبادة والمجاهدة والمعاملة، مما يكفل للمسلمين في مختلف العصور نماذج متنوعة صالحة للاقتداء.

فالصحابة كانوا في السلم هُداة معلمين، مصلحين عاملين، وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم أمَنة لأمته، ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبتْ النجوم أتى السماء ما تُوعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»(٣).

ولقد كان الصحابة في الحرب مؤمنين محتسبين مجاهدين ثابتين، وما أجمل موقفهم في نصرة النبي ﷺ حين لقي العدو في بدر على غير ميعاد، وعلى غير استعداد، فقام رسول الله ﷺ خطيبًا فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس»، فقام الصديق فقال وأحسن القول، ثم قام عمر

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٦).

(٢) رواه البخاري (٣٦٥١).

(٣) رواه مسلم (٢٥٣١).

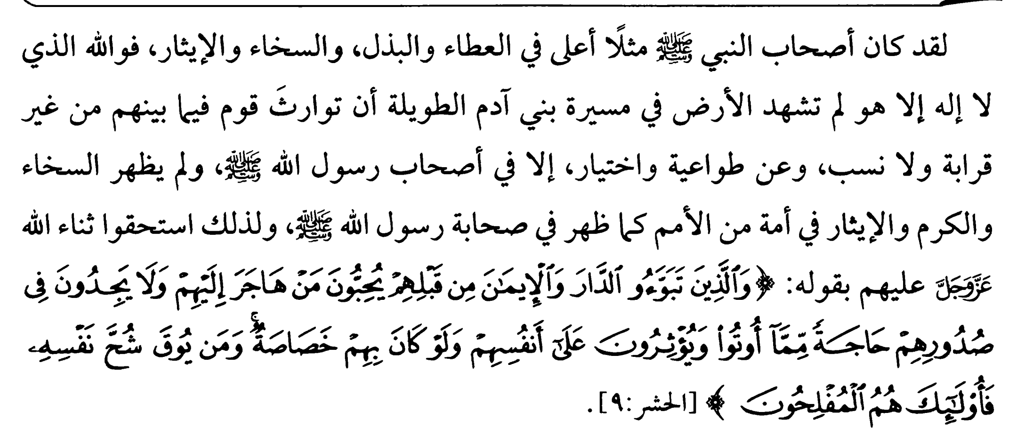
فقال وأحسن القول، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امـض لمـا أراك الله فـنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هـا هنـا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغِمَاد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه. ولا زال عليه الصلاة والسلام يقول: «أشيروا عليّ أيها الناس». فقام سعد بن معاذ فقال: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل»، قال: فإنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإنّ الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[1].

وما أجمل ما وصفهم القرآن به بعد غزوة أحد، حين همّ المشركون أن يهجموا عليهم إلى المدينة بعد انصرافهم من غزوة أحد، فيباغتوهم فيها، فلما علم النبي ﷺ بأن قريشًا قد أجمعت أمرها على ذلك، دعا أصحابه للخروج إلى حمراء الأسد، ليرد كيد قريش، ويقذف الرعب في قلوبهم، فبادروا واستجابوا رغم أنهم كانوا مُثخنين بالجراح، فخرجوا حتى بلغوا حمراء الأسد، فلما علم كفار قريش بخروجهم ارتدوا على أعقابهم، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٤].

وكذلك أثنى الله على موقفهم في غزوة الأحزاب فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٢-٢٣].

---

(١) صححه أحمد شاكر في عمدة التفسير (٢/ ١٠٣).



لقد كان أصحاب النبي ﷺ مثلًا أعلى في العطاء والبذل، والسخاء والإيثار، فوالله الذي لا إله إلا هو لم تشهد الأرض في مسيرة بني آدم الطويلة أن توارثَ قوم فيما بينهم من غير قرابة ولا نسب، وعن طواعية واختيار، إلا في أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يظهر السخاء والكرم والإيثار في أمة من الأمم كما ظهر في صحابة رسول الله ﷺ، ولذلك استحقوا ثناء الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

ولم يكن الصحابة متساوين في الفضل والدرجة، بل كانوا يتفاضلون في السابقة والجهاد وكثرة البذل في سبيل الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد:١٠]، فلا يستوي من هاجر وجاهد وأنفق قبل فتح مكة، مع من جاهد وأنفق بعد الفتح، ومع ذلك فقد قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء:٩٥] أي: الجنة، وهذه فضيلة اختُصوا بها دون غيرهم، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم.

وقد فصلت الأحاديث الشريفة مقامات الصحابة وتفاضلهم ودرجاتهم، وقد بشر رسول الله ﷺ العديد من أصحابه بالجنة، مما يدل على سبقهم وفضلهم، فقال ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة» وعاشرهم سعيد بن زيد راوي الحديث، فهؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة(١).

أصحاب رسول الله ﷺ هم الكوكبة الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ليتلقوا الوحي غضًّا طريًّا من رسول الله ﷺ، ليكونوا المُبلِّغين الأوائل عن الله وعن رسوله، إنهم القوم الذين سعِدوا بتربية المصطفى عليه الصلاة والسلام، إنهم جيلٌ لم يكن للإنسانية به عهد، دُعُوا إلى الإسلام فقَبِلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه وحكَّموه، واستُنفِروا للجهاد فسلُّوا السيوف من

---

(١) رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٤٩).

أغمادها، فأخذوا بأطراف الأرض زحفًا زحفًا، وساروا إلى الهيجاء صفًّا صفًّا، لا يُبشَّرون بالأحياء، ولا يُعزَّون في الموتى، بِيض العيون من البكاء، خُمص البطون من الصيام، على وجوههم صلاح الخاشعين، وعملهم عملُ الوجِلين.

هم حفظَة الدين وأُمناؤه، رعيل الإسلام الأول، قلَّ نظيرهم، وعزَّ مثيلهم، أوفياء لله ولرسوله، محوا رسوم الجهل، وهدموا أنصاب الكهانة، هجروا الديار والأموال، وتبوؤوا الدار والإيمان، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، استقامةٌ على الدين، ولزوم المنهج، ومحاسبةٌ للنفس، في تربيةٍ نبوية لا تطاولها تربية الحكماء، ولا خبراء التعليم، ولا معلمي الأخلاق، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح:٢٩].

اللهم صل على محمد وآل محمد، وارض اللهم عن أصحابه الكرام، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وعلى أصحابه الغُرّ الميامين، وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

وبعد:

اعلموا أيها الأحبة أنّ الصحابي هو كل من رأى النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على الإسلام. وقد بلغ عدد الصحابة يوم فتح مكة عشرة آلاف صحابي، وقد توفي رسول الله ﷺ وترك ما يزيد عن مائة ألف صحابي من رجل وامرأة، ولم يمض القرن الأول الهجري حتى مات جميع أصحاب النبي ﷺ، وقد كان آخرهم وفاة واثلة بن الأسقع الليثي سنة ٨٥هـ.

لقد خرج أصحاب النبي ﷺ إلى الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى دين الله وتعليم الناس في مختلف بقاع الأرض، فغادروا أوطانهم وهي عزيزة عليهم، وخرجوا إلى أراضٍ لا عهد لهم بها، وذهبوا إلى أمم لا نسب لهم بها، ولا ألفة بينهم وبين أهلها، فبذلوا في سبيل نشر دين الله قصارى جهدهم، سهروا وضحوا من أجل تبليغ كلمة الله تعالى ونشرها ليلًا ونهارًا، دون ملل ولا كلل، بل كانوا كما قال الله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آل عمران:١٤٦]، حتى أعز الله دينه، ونصر جنده، وأعلى كلمته، وانتشر الإسلام في بقاع الأرض، حتى قال الله فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]. ولقد نزلت هذه الآية على النبي وأصحابه، فكانوا هم المعنيون بهذا الثناء قبل غيرهم، حيث أثبت الله عَزَّوَجَلَّ لهم الخيرية على سائر الأمم.

ولقد أجمع الصحابة على تقديم أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم بقية العشرة المبشرين، ثم البدريين أي: من شهد بدرًا، ثم أهل بيعة الرضوان، ثم بقية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

يقول الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان).

وهذه هي العقيدة الصحيحة في أصحاب النبي ﷺ. وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا نذكرهم إلا بخير) فيه إشارة إلى الكف عن أعراضهم، وعدم الخوض فيما شجر بينهم، وأن ذلك فتنة وابتلاء من الله لهم بعد وفاة النبي ﷺ، فهم أحق من غيرهم بقول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، وقد أخبرهم النبي ﷺ من قبل في حياته بوقوع ذلك، فالصحابة لم يكونوا معصومين ألبتة، وكانوا مجتهدين في ذلك، ومعذورين عند الله، ومنزلتهم ثابتة، وخيرهم سابق، وفضلهم غالب.

فنحن نحب الصحابة لأن الله رضي عنهم وزكاهم في القرآن، وشهد لهم النبي ﷺ بالخيرية والأفضلية، وقد بوّب الإمام البخاري في صحيحه أبوابًا في فضائل الصحابة والمهاجرين، ثم قال: (باب حب الأنصار من الإيمان)، وخرّج فيه حديثًا عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ قال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[1].

لقد حرص الصحابة على ملازمة النبي ﷺ حتى أخذوا عنه الكتاب والسنة، ثم نشروا دين الله في الأمصار، وبلغوه إلى سائر الأقطار، فهم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين كل الأمة ممن جاء بعدهم. فمن قدح في تلك الواسطة فقد قدح في الدين وسعى للتشكيك في الرسالة، يقول عليه الصلاة والسلام كما في صحيح البخاري: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه»[2]، وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلَمقام أحدهم ساعة يعني مع النبي ﷺ خير من عمل أحدكم أربعين سنة»!

أيها المؤمنون: كم يعرف الأولاد والشباب، من مواقف الأصحاب؟ وكم تعرف البنات والأمهات، من قصص الصحابيات؟ هلّا تساءلتم لمَ يتخبط الجيل في اختيار القدوات، حتى نراه يتيه هنا وهناك، فيلهث وراء الممثلين والممثلات، والساقطين والساقطات؟ ذلك لأننا لم

(١) رواه البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣).

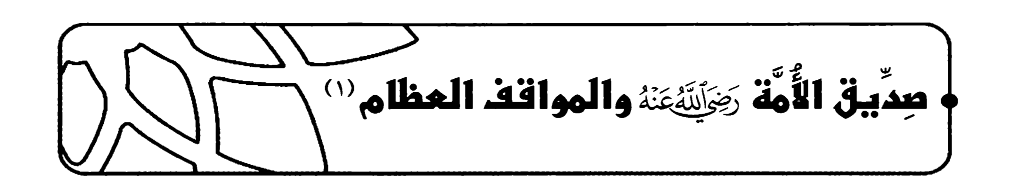


نغرس في قلوبهم حب الفضلاء والعظماء، ولم نقصّ عليهم قصص العلماء والحكماء، وأهل الصلاح والمروءات، وأصحاب النبوغ في شتى المجالات، فالله الله في حسن التربية، فكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته.

علّموا أولادكم سيرة النبي ﷺ، وقُصّوا عليهم بطولات الصحابة الكرام، والعلماء الأعلام، اغرسوا محبتهم في قلوب أبنائكم، وازرعوا شمائل وفضائل الصحابيات وأمهات المؤمنين في قلوب بناتكم، لعلنا أن نُنير للنشْء طريق الحق والعدل، والعلم والفضل، والأدب والنُّبل.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيكم محمدٍ رسول الله، فقد أمركم بذلك ربُّكم، فقال في محكم تنزيله، وهو الصادق في قيله، قال قولًا كريمًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].





صِدِّيقُ الأُمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمواقف العظام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرح بفضله صدور المؤمنين بالهدى، وأضل الظالمين بحكمته وعدله فلن تجد له وليًا مرشدًا، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا فردًا صمدًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، كرم أصلًا وطاب مَحْتِدًا، خصه ربه بالمقام المحمود وسماه محمدًا، ﷺ وبارك وعلى آله وأصحابه، هم النجوم بهم يُهتدَى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتدى.

أما بعد:

فأوصيكم أيّها الناس ونفسي بتقوى الله، فإنّ تقوى الله خلفٌ من كلّ شيء، وليس من تقوى الله خلف، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها المسلمون: ما كان حديثا يُفترى، ذلك الحديث الذي روى به التاريخ أنباء أعظم ثلّة ظهرت على وجه الأرض في دنيا الناس، إن التاريخ الإنساني بطولِهِ وعرضه لم يشهد من الصدق والتوثيق وتحرّي الحق والحقيقة مثل ما شهد تاريخ الإسلام في سير رجاله السابقين، أولئك القوم الذين ناصروا سيد الأنام، وعلى أكتافهم قامت دولة الإسلام.

إن التاريخ الإنساني لم يشهد رجالًا اشتدت بالله عزائمهم، وصدقت لله نواياهم ولرضاه نذروا حياتهم، كما شهد الرجال الأبطال صَحْبَ رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم أجمعين.

---

(١) فيصل الشدّي.

نعم، فتحوا الفتوح مجاهدين، وحطموا أعظم إمبراطوريات العالم في بضع سنين، وشادوا بالقرآن وكلماته نظاما جديدًا، وعالمًا فريدًا، راع روعته الدنيا من أقصاها إلى أدناها، كل هذا يدعونا دعوة مُلحّة إلى أن نغوص في أعماق حياة أولئك الرجال، ونتمثل سيرهم وحياتهم التي صاغ الدين فضائلها وهذَّب بالقرآن سجاياها.

سائلوا التاريخ عنا كيف كنا نحن أسّسنا بناءً أحمديا

وإن أمر هذه الأمة يا رعاكم الله لن يصلح إلا بما صلح به أولها، ما أحوجنا إلى دراسة السير والتاريخ لسلفنا الصالح، لنقدم رجالاته ونساءه للجيل الناشئ وللأمة كلها لتعلم تاريخها، ومن هم آباؤها وأجدادها، وعلى أكتاف من قام تاريخها ومجدها.

ما أحوجنا إلى ذلك في زمن قلت فيه القدوات التي تُحتذى، بل لَمَّعت أبواق الشرّ أعدادًا من المغنين والمغنيات، والممثلين والممثلات، والتافهين والتافهات، ليكونوا قدوات للشباب الصاعد والجيل الواعد.

أيها الإخوة: إننا اليوم أمام سيرة رجلٍ من أعظم الرجال، رجل حقّ للأمة أن تفاخر بسيرته أمام الأمم، وأن تبز بحياته سائر متّبعي الملل، رجلٌ انتصر الإسلام بإسلامه، وأعز الله الدين بإيمانه، كاد عمود الدين أن يسقط فأقامه الله به، وارتدّت العرب فثبّت الله أصحابه به، إنه رجلٌ عظيم القدر، رفيع المنزلة، جليل المكانة، لكَمْ وكم جعل روحه فداء لرسول الله قولًا وفعلًا، إنه من نصر الرسول يوم خذله الناس، وآمن به يوم كفر به الناس، وصدّقه يوم كذبه الناس، إنه عبد الله بن عثمان بن عامر أفضل الصحابة، إنه أبو بكر الصديق، ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين والمرسلين خير من أبي بكر.

إنه أوّل من آمن من الرجال، إنه من لو وضع إيمان الأمة في كفة وإيمان أبي بكر في كفة لرجحت كفة أبي بكر، إنه الورع الفهيم، الحازم الرحيم، التاجر الكريم، أعلم الناس بأنساب قريش في الجاهلية والإسلام، وله اليد الطُّولَى في علم تفسير الأحلام، لم يُؤثَر عنه أنه شرب خمرًا قط، ولم يؤثر عنه أنه سجد لصنم قط، ولم يؤثر عنه كذبٌ قط، دُعي إلى الإسلام فما تردد ولا كبا، ولا تلعثم ولا نبا، وإنما بادر بالتصديق بما جاء به الصادق المصدوق، فأنزل الله:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣]، فالذي جاء بالصدق محمد ﷺ، والذي صدّق به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هو العتيق من النار، وهو ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة:٤٠]، وفي الاستباق للخير لا يُشق له غبار، يسابقه الفاروق فيأتي بنصف ماله متصدقًا، فيجد أبا بكر قد ذهب إلى رسول الله بجميع ماله سابقًا.

يعلنها النبي ﷺ من على المنبر خطيبًا فيقول: «إنّ مِن أمَنّ الناس على في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أُخوّة الإسلام ومودته، لا يبقى بابٌ في المسجد إلا باب أبي بكر»(١)، مكافأته يوم القيامة يقولها: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وكافيناه بها ما خلا أبا بكر، فإن له يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة»(٢).

يقدم أبو بكر يوم القيامة وفي ميزان حسناته ستة من العشرة المبشرين بالجنة قد أسلموا على يديه.

يقدم أبو بكر يوم القيامة وفي كفة درجاته عشرون صحابيًا أعتقهم من ربقة العبودية بأربعين ألف دينار هي لله وفي الله. يتقدم أبو بكر يوم القيامة ليُدعَى من أبواب الجنة الثمانية كلها.

عُذرًا أبا بكر، فإني أقف عاجزًا عن أن أوفيك حقك، أو أن أتكلم بفضائلك التي طفحت بها الكتب.

عُذرًا فأنا أمام بحرٍ لا يُدرك قاعه، ولا يُسبر غوره، ولكن سنرتشف رشَفات، ونقف وقفات، لنلتقط بعض الدُرر ونستلهم شيئًا من العبر، من حياة صدّيق الأمة، فيها الذكرى لمن تذكر، والعبرة لمن اعتبر.

الموقف الأول: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لما اجتمع أصحاب النبي وكانوا قرابة تسعة وثلاثين رجلًا ألحّ أبو بكر على رسول الله في الظهور وعدم الاختفاء، فقال: «يا أبا بكر إنا

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢).

(٢) صحيح الجامع (٥٦٦١).

قليل»، فلم يزل أبو بكر يلحّ حتى وافقه، وكان رسول الله والمسلمون تفرقوا في نواحي المسجد، وقام أبو بكر خطيبًا في الناس، فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله، فثار عليه المشركون، وثاروا على المسلمين معه، فضربوا أبا بكر ضربًا شديدًا، حتى إن عُتبة دنا منه وجعل يضرب وجهه بنعلين مخصوفتين، ثم نزَوا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، حتى جاء بنو تيم قوم أبي بكر وأجْلَوا عنه المشركين، فحُمل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُغمى عليه إلى بيت أهله وقد سالت دماؤه، ولم يُفق من غشيته إلا آخر النهار، وأمُّه عند رأسه تبكي بيدها الطعام والماء، وتفتح عينا أبي بكر وهو يرى أمه، فينسى جراحه وآلامه، فكان أول ما قال: أماه! ما فعل رسول الله؟ فتغضب أمّه وتقول: والله ما أوقعك فيما أنت فيه إلا صاحبك، ما لي علم به، فيقول: أماه، اسألي لي عن خبره، فأرسلت إلى أم جميل فاطمة بنت الخطاب، فقدمت وبشّرته بأنه سالم بحمد الله، فأقبلت عندها أمه بطعامها وشرابها علّه يشرب أو يأكل، فقال: يا أماه، لله علي أن لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى آتي رسول الله وأراه!!».

يا الله، أيُّ حبٍ هذا؟! أي ولاء هذا؟! هل سمع التاريخ بمثله؟! فلترَ الأمة كلّها كيف كان الإيمان العظيم والحب الكبير لرسول الله في قلب أبي بكر، ثم يُحمل أبو بكر ورجلاه تخطّ في الأرض إلى أن دخل على النبي ﷺ، فما إن يراه رسول الله ويرى جراحه ودماءه إلا وينكبُّ عليه ويقبله، فينكب عليه المسلمون يقبلونه.

فماذا يقول عندها أبو بكر لحبيبه وصفيه؟ يقول له: بأبي أنت وأمي، ليس بي من بأس إلا ما ناله الفاسق من وجهي يا رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، هذه أمي برّة بولدها وأنت مبارك فادع الله لها وادعها إلى الله أن يستنقذها من النار، فدعا لها ودعاها، فما أن رأت ذلك الحب وذاك المشهد حتى قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

الله أكبر! همُّه الدعوة، وهمُّه هداية الناس، يدعو أمه ويريدُ برها، وأعظم البر أن يدعوها لدين الله، وأن يستنقذها من عذاب الله، إنه أبو بكر لطالما اقترب المشركون في مكة من رسول الله يريدون أذيته فما يقف أمامهم إلا أبو بكر يدافع ويناضل عنه، إنه الإيمان الراسخ والحب الصادق، إنها الشجاعة والبطولة، يعترف بها علي بن أبي طالب إذ قال يومًا: «أخبروني بأشجع الناس، قالوا: أنت، قال: أما إني ما بارزت أحدًا إلا انتصفت منه، ولكنه أبو بكر، لقد

رأيت رسول الله وقريش تشده وتجرُّه، يقول علي: والله ما دنا منا أحد إلا أبا بكر يجاهدهم ويقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، ثم رفع علي عنه بردة كانت عليه وبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعة من أبي بكر خير منه، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا يعلن إيمانه»[1].

الموقف الثاني: من الذي له الشأن الأعلى والقدح المعلى في هجرة رسول الله إلا أبا بكر، يعرض الرسول الهجرة فيبكي، يا لله أيبكى لأنه سيفارق موطنه وملاعب صباه؟ أم يبكي لأنه سيفارق أهله وأمه وأباه؟ لا والله بل يبكي فرحًا، لا لأنه سيسير في موكب مهيب، بل لأنه سيرافق الحبيب، ﷺ، فيجهز راحلتين، ويعد النفقة، ويوظف مولاه، وابنته أسماء، ثم في الغار يدخل قبل النبي ﷺ ليتفقده، وعندما خرجوا إذا بأبي بكر يمشي عن يمينه وشماله، ويكثر التلفُّت خوفًا وقلقًا عليه، فداءٌ وتضحية، وإقدامٌ وشجاعة، حتى وصلوا إلى المدينة، فكان الصدّيق خير رفيق في خير طريق لخير صديق.

فاللهم ارض عنه وجازه عن الإسلام خيرا، واحشرنا معه، وأقر أعيننا برؤياه في جنات النعيم.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البزار، وأصل القصة في البخاري.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رفع قدر أولي الأقدار، وأشكره على فضله المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرار.

أما بعد:

فمن مواقف الصدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما جاء في صحيح البخاري عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنت جالسًا عند النبي إذ أقبل أبو بكرٍ آخذًا بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي: «أما صاحبكم فقد غامر»، فسلَّم وقال: يا رسول الله! إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ، فأقبلت إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثًا»، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبي فجعل وجه النبي يتمعَّر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلَم، والله أنا كنت أظلَم، فقال النبي: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟! فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!» مرتين، فما أوذي أبو بكر بعدها[1].

يا الله، إنه درسٌ عظيم في العفو والتسامح، إنه درس في صفاء القلوب، إنه درس في عظم منزلة الصديق عند رسول الله، وفي الحديث فوائد لمن استفاد، وذكرى لمن تذكر.

الوقفة الرابعة: في يومٍ عسير من أيام المسلمين، كادت فيه قاعدة الإسلام أن تموج، لكنّ رجل المواقف الصديق لها، ذاك يوم أن توفي رسول الله، وهاج الناس وماجوا وتضاربت الأقوال، وأُغلق باب النبي فلا يُفتح حتى يأتي أبو بكر، ويأتي والناس ينتظرون، فيدخل ويتّجه شطرَ رسول الله ﷺ، فيجده مُسجًّى بثوبٍ حَبِرة، فيكشف عن وجهه ويقبّله ويبكي قائلًا: بأبي أنتَ وأمّي، طِبتَ حيًّا وميتًا. ثم يخرج على الناس وعمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مأخوذٌ بهول

(١) رواه البخاري (٣٦٦١).

الخَطْب، لم يصدّق بعد ما سمع، بل يهدد ويتوعد كل من يزعم أن النبي قد مات، وحالُ الصَّحب الكرام في هذه الرزيَّة كالغنم المطيرةِ في الليلة الشاتية؛ لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا، فيقوم أبو بكر خطيبًا، ويقول قولتَه الشهيرَة: «من كان يعبد محمَّدًا فإنَّ محمَّدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت»، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤]، فوقعت هذه الآية على الناس كالصاعقة، وكأنَّهم لم يعلمُوا هذهِ الآيةَ حتى تُلِيَت عليهم، ويقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي صدره من غُصَص الأسى ما يُذيب الحَشا: «والله، ما هو إلا أنْ سمعت أبا بكرٍ تلاها فعُقِرْتُ حتى ما تُقِلُّني رِجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض، وعلِمتُ أن النبيَّ ﷺ قد مات».

وفي هذا الموقف الحاسم دليلٌ على شجاعةِ الصدِّيق ورسوخ إيمانه ورباطة جأشِه عند حلولِ المصائب، وهو الأسيفُ الرقيق، وذلك برهانٌ وَفرة علمه حيث كشف اضطرابَ الصحابة بنور الوحي والإصابة.

الموقف الخامس: بعد وفاة النبي مباشرة حدثت في الجزيرة العربية فتنة من أشد الفتن التي مرت على الأمة الإسلامية، وكأن الله يبتلي هؤلاء القوم بأمر بعد أمر، فابتلاهم أولا بوفاة الرسول، ثم بهذا الأمر الشديد والموقف العصيب، فما إن علمت العرب بوفاة الرسول، حتى نقضت عهدها، وتركت دينها، ولم يثبت من الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول إلا ثلاث مدن، وقرية واحدة. فارتدت قبائل بني حنيفة، وأسد، وعبس، وذبيان، وقضاعة، وكِندة، وتميم، وقبائل اليمن، وعمان، والبحرين، ومهرة، وتهامة، وغير ذلك من قبائل الجزيرة، ولم يبق على الإسلام إلا المدينة المنورة، ومكة، والطائف، وقرية جُوَاثا بشرق الجزيرة العربية..

وكان النبي ﷺ قد وجّه أسامة بن زيد بجيش إلى الشام، فلما نزل بذي خشب قُبض رسول الله، وارتدت العرب حول المدينة، فلما ولي أبو بكر اجتمع إليه أصحاب رسول الله، فقالوا: يا أبا بكر رُدّ هؤلاء، تُوَجّه هؤلاء إلى الروم، وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: «والذي لا إله غيره، لو جرّت الكلاب بأرجُل أزواج رسول الله ما رددت جيشًا وجّهه رسول الله، ولا حللت لواءً عقده رسول الله». ثم يأتيه عمر ويقول عن الأنصار: «أمروني أن أبلغك لو وليت

أمر الجيش من هو أقدم سنًا من أسامة حيث كان أسامة قريب الثمان عشرة سنة!»، فوثب أبو بكر وكان جالسًا وأخذ بلحية عمر وقال: «ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرني أن أنزعه؟!»، وأمر بالجيش فجمع وأوصاهم بوصاياه العظيمة في الحرب، ويركب أسامة فرسه وأبو بكر تحت عنقها يمشي معه يودعه ويوصيه، فقال له أسامة: «يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن»، قال: «والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما علي أن أغبّر قدمي في سبيل الله ساعة. لله دره من حزم وثبات وشجاعة وإقدام».

ثم يحارب المرتدين من العرب، ويبعث البعوث، ويعقد الألوية، ويجهز الجيوش، والصحابة يراجعون أبا بكر، وعمر يأتيه ويقول: «علام نقاتلهم؟! دعهم ما أقاموا الصلاة»، وأبو بكر يرفض، ويجأر بأعلى صوته: «والله لأقاتلنّ مَن فرّق بين الزكاة والصلاة، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه»، ويمضي جيش المسلمين لحرب المرتدين، ويعود مظفرًا منصورًا، فما كان من عمر بعدها إلا أن قبّل رأس أبي بكر وقال: «وجدتك والله أحسم مني وأمضى».

لقد كان من الممكن أن تكون لهذه الفتنة العظيمة آثار وخيمة، لولا أن الله مَنّ على الأمة في ذلك الوقت بنعمة عظيمة، تلك هي نعمة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لقد كان الصديق نعمة من الله أيد بها هذه الأمة، وحفظ بها الدين والقرآن، وقمع به المشركين والمرتدين، وحقّ لهذا الرجل أن يوزن بأمة، ولا سيما عندما نعلم أن هذا الموقف كان بعد أيام قليلة جدًّا من استلامه للحكم، ومن المعتاد أن قائد الدولة يحتاج إلى فترة للتأقلم على الوضع الجديد، ولاكتساب الخبرة، ولكن الصديق أدار الأمور بحزم وعزم وكفاءة واقتدار، وكأنه يحكم الدولة منذ سنوات، ثم إن مصيبة الردة جاءت بعد أيام قلائل من مصيبة أبي بكر بفقد حبيبه، ولا شك أن مصاب الصديق كان كبيرًا، فهو أقرب الناس إلى رسول الله، وأشدهم حزنًا على فراقه، ولكن الله رزقه الثبات، والثبات نعمة جليلة لا توهب إلا لمن كان مؤمنًا حقًّا ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

الموقف السادس: روي في السير عن عمر بن الخطاب قال: كنت أفتقد أبا بكر أيام خلافته ما بين فترة وأخرى، فلحقته يومًا فإذا هو بظاهر المدينة خارجها قد خرج متسللًا، فأدركته وقد دخل بيتًا حقيرًا في ضواحي المدينة، فمكثت هناك مدة، ثم خرج وعاد إلى المدينة، فقلت: لأدخلن هذا البيت، فدخلت فإذا امرأة عجوز عمياء وحولها صبية صغار، فقلت: يرحمك الله يا أمة الله من هذا الرجل الذي خرج منكم الآن؟ قالت: إنه ليتردّد علينا، ووالله إني لا أعرفه، فقلت: فما يفعل؟ فقالت: إنه يأتي إلينا فيكنس دارنا، ويطبخ عشاءنا، وينظف قدورنا، ويجلب لنا الماء، ثم يذهب، فبكى عمر حينذاك وقال: الله أكبر، والله لقد أتعبتَ من بعدك يا أبا بكر.

وتنتهي هذه الحياة الحافلة بالعطاء، ويمرض أبو بكر الصديق خمسة عشر يومًا، يثقل يومًا بعد يوم، ولما حضرته الوفاة إذ بالصدّيقة عائشة عند رأسه تبكي وتقول:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فيقول أبو بكر: «لا تقولي هكذا يا بنية، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]». ثم يموت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويدفن إلى جانب حبيبه رسول الله، وتأتي عائشة ابنته، فتقف على قبره والدموع في عينيها وتقول: نضّر الله وجهك يا أبتاه، وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مُذلًا بإعراضك عنها، وللآخرة معزًا بإقبالك عليها، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك، فأنا أنتجز من الله موعده فيك بالصبر عليك، وأستعيضه منك بالدعاء لك، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، وعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك.

رحم الله صدّيق الأمة أبا بكر، ورضي عنه، وجزاه عن أمة محمدٍ خيرًا، فإنا والله نتقرب إلى الله بحبه، ولسنا نحبه أو نحب أحدًا من أصحاب النبي إلا حبًا لنبيّنا ولديننا، فليست مكانتهم عندنا إلا لأنهم آمنوا بالله ورسوله، وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، ولولاهم بعد الله لما وصل إلينا دين الله، فلهم الفضل علينا بعد الله ورسوله، ومن أحبهم

فلحب الله ورسوله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وألحقنا بهم في عباده الصالحين، إنه بكلِّ جميلٍ كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل..

اللهم صلِّ وسلم على النبي المصطفى، والرسول المجتبى، اللّهمّ وارضَ عن الأربعة الخلفاء، الأئمة الحنفاء، ذوي القدر العليّ، والشرف الجليّ: أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعليّ، ومن سار على نهجهم واقتفى، يا خيرَ من تجاوز وعفا.



مواقف من سيرة الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله واهب النعم، ومؤتي الحكم، جعل في كر الأيام معتبرًا، وفي تقلب الزمان مزدجرًا. أحمده سبحانه وأشكره، يقلب الليل والنهار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء، وجعله قدوة الحنفاء، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آل بيته وأهل صحبته وأنصار دعوته، ما رقَّت القلوب، وراقبت ربها علام الغيوب، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها المسلمون- بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، وأقلوا الركون إلى الدنيا، فإن ما أمامكم عقبة كئود، ومنازل مخوفة لا بد من ورودها والوقوف عندها. فالمنية دانية، وأظفارها ناشبة، واحذروا التسويف وطول الأمل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧].

أيها الناس: إنّ هذه الأمة أمة عظيمة، كريمة مجيدة، ما شهد التاريخ مثلَها، وما عرف المخاض مولودًا أكرم على الله منها، أمّة تغفو ولكنّها لا تنام، قد تمرض ولكنّها لا تموت، أمّة أنجبت للدّنيا علماء فقهاء، وأخرجت للكون أبطالا عظماء، ولنا اليوم وقفةٌ مع تاريخِ هذه الأمة، لنقلّب الصفحات نلتمّس العبَر والعِظات.

اقرؤوا التاريخ إذ فيه العبرْ ... ظل قوم ليس يدرون الخبرْ

(١) سمير بن عبدالرحمن عبدات.

ووقفةُ اليوم مع علَم من أعلام هذه الأمة، ورجلٍ من خِيرة رجالاتها، صائم إذا ذكر الصّائمون، وقائم إذا ذكِر القائمون، وبطَل مِغوار إذا ذكِر المجاهدون، إذا ذكر الخوف من الله قيل: كان له خطّان أسودان من البكاء، وإذا ذكر الزّهد والإيثار قيل: لم يكن يأكل حتى يشبَع المسلمون، وإذا ذكِرت الشدّة في الحق قيل: هو الذي كان إبليس يفرَق من ظلّه، والشياطين تسلُك فجًّا غيرَ فجِّه.

أحسبكم قد عرفتموه، إنه الفاروق عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، صاحب رسول الله ورفيقُه في دعوتِه وجهاده، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنَّة، قوي الإيمان، ذو الفراسة والفطنة والذكاء، والهيبة والشجاعة والدهاء، من أشراف قريش في الجاهليَّة، وله المكانة الرفيعة عندهم، رجل مُلهَم، كلامه من أجمع الكلام وأكمله؛ ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، أسلم وعمره سبعة وعشرون عامًا، كان إسلامه بعد إسلام حمزة بأيام، وذلك بعد خروج المسلمين إلى الحبشة في هجرتهم الأولى في السنة الخامسة من البعثة، أعز الله به الإسلام، قال عبدالله بن مسعود: ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر.

أسلم عمر فأعزّ الله به الإسلام، وهاجر جهرًا، وشهِد مع رسول الله بدرا وأحدًا والمشاهد كلَّها، وهو أوّل خليفة دعِي بأمير المؤمنين، وأوّل من كتب التاريخ للمسلمين، وأوّل من جمع القرآن في المصحف، وأوّل من جمع الناس على صلاةِ التراويح، وأوّل من طاف بالليل يتفقّد أحوالَ المسلمين، فتح الفتوحَ، وحمل الدِّرّة فأدّب بها كل نفس جَموح، وضع الخراجَ، ومصَّر الأمصار، واستقضَى القضاة، ودوّن الدواوين، وفرض الأُعطيات، وحجّ بأزواج رسول الله في آخر حجّةٍ حجّها، قال ابن عمر: سمعت رسول الله يقول: «بينما أنا نائم أوتيت بقدح من لبنٍ، فشربت منه حتى إني لأرى الرِّيّ يجري في أظفاري، ثم أعطيت فضلِي عمرَ»، قالوا: فما أوّلتَ ذلك؟ قال: «العلم»[1].

كان يُحب الصلاة، ويأمر بها، وكان يقول: «لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة». قال سعيد بن المسيب: (كان عمر يحب الصلاة في جوف الليل). وكان إذا صلى بالناس فبكى، يُسمع نشيجه إلى آخر الصفوف.

---

(١) رواه البخاري (٧٠٠٦) ومسلم (٢٣٩١).

قال عبد الله بن مسعود: «إذا ذكِر الصالحون فحيّهلا بعمر، إنّ عمرَ كان أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله، كان عمر شديد الخوف من ربّه، عظيم الخشية له، وكان يقول: «لو مات جديٌ بطفّ الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر».

وعن عبد الله بن عامر قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تِبنة من الأرض فقال: «ليتني كنتُ هذه التّبنة، ليتني لم أُخلق، ليت أمّي لم تلِدني، ليتني لم أكن شيئًا، ليتني كنت نِسيًا منسيًّا».

وقال الحسن: (كان عمر يمرّ بالآية من وِرده فيسقطُ حتى يُعاد منها أيامًا). عرَف عمر ربَّه، وعرف قدرَ نفسه، فتواضع لله، فرفَع الله ذكرَه وأعلى شأنه، قال عبيد الله بن عمر ابن حفص: إنّ عمر بن الخطاب حمل قربةً على عنقه فقيل له في ذلك فقال: «إنّ نفسي أعجبتني فأردتُ أن أذلَّها».

بويع بالخلافة فكان سيفًا على أهل الباطل شديدًا عليهم، وسندًا لأهل الحقّ ليِّنا معهم، قام على الأرامل والأيتام، فقضى لهم الحاجات، وفرّج عنهم الكربات.

ولما رجع من الشام إلى المدينة انفرد عن الناس ليتفقّد أحوالَ الرعية، فمرّ بعجوزٍ في خِباء لها فقصدها، فقالت: يا هذا، ما فعل عمر؟ قال: «قد أقبل من الشام سالمًا، فقالت: لا جزاه الله خيرًا، قال: ولم؟ قالت: لأنّه والله ما نالني من عَطائه منذ تولّى أمرَ المسلمين دينارٌ ولا درهم، قال: وما يدرِي عمر بحالِك وأنت في هذا الموضع؟! فقالت: سبحان الله! والله ما ظننت أن أحدًا يلي على النّاس ولا يدري ما بين مشرِقها ومغرِبها، فبكى عمر وقال: واعمراه، كلّ أحدٍ أفقه منك يا عمر، حتى العجائز. ثم قال لها: يا أمةَ الله، بكم تبيعيني ظلامَتك من عمَر، فإني أرحمه مِنَ النّار، فقالت: لا تستهزئ بنا يرحمك الله، فقال: لست بهزّاء، فلم يزل بها حتى اشتَرَى ظلامتَها بخمسةٍ وعشرين دينارا. فبينما هو كذلك إذ أقبل عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فوضعَت العجوز يدَها على رأسها وقالت: واسوأتاه! شتمتُ أميرَ المؤمنين في وجهِه، فقال لها عمر: ما عليك يرحمك الله، ثم طلب رقعةً من جِلد يكتب عليها فلم يجد، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، هذا ما اشترى به عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين دينارا، فما تدّعي عند وقوفه في الحشر بين يدَي الله تعالى فعمر منه بريء.



شهد على ذلك علي وابن مسعود»، ثم دفع الكتاب إلى أحدهما وقال: إذا أنا متّ فاجعله في كفني ألقى به ربي».

فرحم الله عمر، جُمعت له الدنيا فأعرض عنها وزهد فيها، قال معاوية: «أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يرِدها». قال قتادة: (كان عمر يلبس وهو خليفة جُبّةً من صوف مرقوعا بعضها). وعن أبي عثمان النهدي قال: (رأيت عمر يطوف بالبيت وعليه جبّة صوف فيها اثنَتا عشرة رقعة).

وجيء بمال كثير من العراق فقيل: أدخِله بيت المال، فقال: «لا وربّ الكعبة، لا يُرى تحت سقفه حتى أقسمه بين المسلمين»، فجُعل بالمسجد وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار، فلما أصبح نظر إلى الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والدرّ يتلألأ فبكى، فقال له العباس: «يا أمير المؤمنين، ما هذا بيوم بكاء، ولكنه يوم بشرى، فقال: والله، ما ذهبتُ حيث ذهبتَ، ولكنه ما كثر هذا في قوم قطّ إلا وقع بأسهم بينهم، ثم أقبل على القبلة فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مُستدرَجا، فإني أسمعك تقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢]».

ويدخل عام الرمادة سنة ثماني عشرة للهجرة، فيقضي على الأخضر واليابس، ويموت الناس جوعًا، فحلف عمر ألاّ يأكل سمنًا حتَّى يرفع الله الضائقة عن المسلمين، وضرب لنفسه خيمة مع المسلمين حتَّى يُباشر بنفسه توزيعَ الطَّعام على الناس؛ عن طاووس عن أبيه، قال: «أجدب النَّاس على عهد عمر، فما أكل سمنًا ولا دسمًا حتَّى أكل الناس»، قال أسلم: «كنا نقول: لو لم يرفع الله الضَّائقة عام الرمادة، لظننا أنَّ عمر يموت همًّا بأمر المسلمين».

ومرض مرَّة فوصف له الأطباء العسل، وكان في بيت المال عُكَّة فيها شيء من العسل، فلم يأخذ منها حتَّى جاء المنبر، وقال للناس: «إن أذنتم لي فيها أخذت منها، وإلاَّ فهي عليَّ حرام»، فأذنوا له.

وروِي أنّه كان يقسِم شيئا من بيت المال فدخَلت ابنةٌ له صغيرة فأخذت دِرهما، فنهض في طلبها حتى سقطت مِلحفته عن منكبَيه، ودخلت الصّبيّة إلى بيت أهلها تبكي، وجعلت الدرهم في فمها، فأدخل عمر أصبعه في فمها فأخرج الدرهم وطرحه مع مال المسلمين.

وجاءته يومًا قافلة من مصر تحمل اللحم والسّمنَ والطعام والكِساء، فوزّعها على الناس بنفسه وأبى أن يأكل شيئًا، وقال لقائد القافلة: «ستأكل معي في البيت»، ومنَّى الرجل نفسَه وهو يظنّ أن طعام أمير المؤمنين خير من طعام الناس. وجاء عمر والرجل إلى البيت جائعَين بعد التّعب، ونادى عمر بالطعام فإذا هو خبز مكسّر يابس مع صحنٍ من الزيت، فاندهش الرجل وتعجّب، وقال: لِمَ منعتني من أن آكل مع الناسِ لحمًا وسمنا؟! فقال عمر: «ما أُطعمك إلا ما أُطعم نفسي»، فقال الرجل: وما يمنعك أن تأكل كما يأكل الناس وقد وزّعتَ اللحم والطعامَ عليهم؟! قال عمر: «لقد آليتُ على نفسي أن لا أذوقَ السمن واللحم حتى يشبعَ منهما المسلمون جميعا».

ومن ورعه وتقشّفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما روِي من أنّ امرأته اشتهَت الحلوى، فادّخرت لذلك من نفقةِ بيتها حتى جمعَت ما يكفي لصنعها، فلمّا بلغ عمرَ ذلك ردّ ما ادّخرته إلى بيت المال وأنقص من النفقة بقدرِ ما ادّخرت.

لله درُّك أيها الفاروق، فلقد أتعبتَ من بعدك، وكنت قدوة لكل مسلم صادق، وخليفة عادل.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

لقد كان للفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سياسةً خاصة مع نفسه، فقد كان أشد الناس على نفسه وأهله، وكان إذا أمر الناس بأمر أو نهاهم عن شيء جاء إلى أهله فصاح بهم: إني قد أمرت الناس بكذا، أو نهيتهم عن كذا، ووالله لا أُوتينّ بأحد منكم قد خالف ما عليه المسلمون، إلا أضعفتُ له العقوبة!

تلك هي السياسة العُمرية، التي مدارها على الترفُّع عن شهوات النفوس، ومخالفة أهوائها ونزواتها.

قيل إنه دخل يومًا على ابنه عبد الله، وإذا عندهم لحم، فقال: ما هذا اللحم؟

فقال: «اشتهيته. قال: أو كلما اشتهيت شيئًا اشتريته؟! كفى بالمرء سرفًا أن يأكل كلّ ما اشتهاه». ويخرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذاتَ مَرَّة إلى السوق، فيرى إبلًا سمانًا تميزت عن الإبل، فيسأل: إبل مَن هذه؟ فيقولون: إبل عبدالله بن عمر، فيرسل في طلبه، ويسأل عن الإبل، فيقول عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنها إبل هزيلة اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى الحِمى لأرعاها، فقال له عمر: «ويقول الناس حين يرونها: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين واسقوها، وهكذا تسمن إبلك، ويربو ربْحك يا ابن أمير المؤمنين، يا عبدالله، خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل، واجعل الربحَ في بيت مال المسلمين!».

يأتي الهرمزان مستشار كسرى لابسًا تاجًا من ذهب وزبرجد، وعليه الحرير يدخل المدينة فيقول: أين قصر الخليفة؟ قالوا: ليس له قصر. قال أين بيته؟ فذهبوا فأروه بيتًا من طين وقالوا له: هذا بيت الخليفة، قال أين حرسه؟ قالوا ليس له حرس.

طرق الهرمزان الباب، خرج ولده، قال له: أين الخليفة؟ فقال: التمسوه في المسجد أو في ضاحية من ضواحي المدينة، فذهبوا إلى المسجد فلم يجدوه، بحثوا عنه، فوجدوه نائمًا تحت شجرة، وقد وضع درّته بجانبه، وعليه ثوبه المرقع وقد توسد ذراعه، في أنعم نومة عرفها

زعيم. تعجب الهرمزان مما رأى، هو الذي فتح الدنيا ودرج الملوك والسلاطين، ينام بهذه الهيئة، تحت شجرة، وقال كلمته المشهورة: (حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر).

وراع صاحب كسرى أن رأى ... عمرًا بين الرعية عطلًا وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح ... مشتملًا ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حقٍ أصبحت مثلًا ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهمو ... فنمت نوم قرير العين هانيها
فمن يباري أبا حفصٍ وسيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها

حجَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمسلمين آخر حجة له، ووقف يوم عرفة، فخطب الناس، ثم استدعى أمراءَ الأقاليم، وحاسبهم جميعًا أمام الناس، واقتصَّ للناس منهم، وبعد أن انتهى ذهب ليرمي الجمرات، فرماه أحدُ الحجاج بحصاة في رأسه، فسال دمه، فقال عمر: «هذا قتلي - يعني: أنني سوف أقتل» قال سعيد بن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَـمَّا صدر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من منى، أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة من بطحاء، ثم طرح عليها رداءه، واستلقى، ثم مدَّ يديه إلى السماء، فقال: «اللَّهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرِّط».

فرجع إلى المدينة وهو يتمنَّى الشهادة، قالت له حفصة ابنته: يا أبتِ، موت في سبيل الله، وقتل في مدينة رسول الله ﷺ؟! إن من أراد أن يقتلَ، فلْيذهب إلى الثُّغور، فيجيب عمر: «سألت ربِّي، وأرجو أن يُلبي لي ربي ما سألت».

وَصَلَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة، ورأى في المنام أنَّ ديكًا ينقره نقرتين أو ثلاثًا، فعبروا له الرُّؤيا، فقالوا: يقتلك رجل من العجم، فقام وخطب الناس، وقدَّم نفسه للمُحاسبة، وجِسْمَه للقصاص، ومالَه للمُصادرة، وأعلن في الناس: إنْ كان ضيع أحدًا أو ظلم أحدًا أو سفك دَمَ أحد، فهذا جسمي، فليقتص منه، فلما فعل ذلك، ارتجَّ المسجد بالبكاء، وأحسَّ المسلمون أنَّه

يودعهم، ثُمَّ نزل من على المنبر، واستودع اللهَ الأُمَّة، وكانت هذه هي آخر جمعة يلتقي فيها أمير المؤمنين بأُمَّة محمد ﷺ.

فبينما عمر يصلّي بالناس صلاةَ الفجر إذ طعنه أبو لؤلؤةَ المجوسي، وطعن معه ثلاثةَ عشر رجلا، فقال عمر: «قتلني الكلبُ»، وتناول عمر يدَ عبد الرحمن بن عوف فقدّمه ليتمّ الصلاة، وأهلُ المسجد لا يدرون ما يجري إلا من كان خلفَ عمر، غيرَ أنهم فقدوا صوتَ عمر وهم يقولون: سبحان الله! سبحان الله! فصلّى بهم عبد الرحمن صلاةً خفيفة، فلمّا انصرفوا قال عمر: «يا ابن عباس، انظر من قتَلني»، فذهب ابن عباس ثم عاد فقال: قتلك غلامُ المغيرة، قال عمر: «قاتله الله، لقد أمرتُ به معروفا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتَتي بِيَد رجُلٍ يدّعي الإسلام»، فاحتمل إلى بيته فانطلَقنا معه وكأن الناس لم تصِبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميّت، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شابّ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله وقدمٍ في الإسلام ما قد علمت، ثمّ ولِّيتَ فعدَلت، ثم شهادة، قال عمر: «ودِدتُ أنّ ذلك كفاف، لا لي ولا عليّ»، فلما أدبر الشابّ إذا إزاره يمسّ الأرض، فقال عمر: «ردّوا عليّ الغلام، قال: ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك».

ثم دعا ابنه عبد الله فأمره أن يقضيَ ما عليه من الديون، ثم أمره أن ينطلقَ إلى عائشة ليستأذنها في أن يدفَنَ مع صاحبَيه، فأذنت له وآثرته بالمكان على نفسها، فلمّا رجع عبد الله وأخبر عمر الخبر قال عمر: «إن أنا قضيتُ فاحملوني ثم سلّم فقل: يستأذنُ عمر بن الخطاب، فإن أذِنت فأدخلوني، وإن ردّتني ردّوني إلى مقابر المسلمين».

قال عثمان بن عفان: «أنا آخركم عهدا بعمَر، دخلتُ عليه ورأسُه في حجر ابنه عبد الله، فقال له: ضع خدي على الأرض، فقال عبد الله: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟! فقال عمر: ضع خدّي بالأرض لا أمّ لك، وسمعتُه يقول: ويلي ويلَ أمّي إن لم تغفِر لي حتى فاضَت نفسه».

من بليغ مواعظه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «إن في العزلة راحلة من أخلاط السوء، أو قال من أخلاق السوء».

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين».

وكان يقول: «كلّ يوم يقال: مات فلان وفلان، ولا بد من يوم يقال فيه: مات عمر».

وقال له رجل: إن فلانًا رجل صدق. فقال له: «هل سافرت معه؟» قال: لا. قال: «فهل كانت بينك وبينه معاملة بالدينار والدرهم؟» قال: لا. قال: «فهل ائتمنته على شيء؟» قال: لا. قال:« فأنت الذي لا علم لك به، أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد».

وكان يقول: «لا تنظروا إلى صيام أحد ولا صلاته، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدث، وأمانته إذا ائتمن، وورعه إذا أشفَى، أي: قدر على ما تشتهيه نفسه من الحرام».

وهو القائل لأبي عبيدة حينما استقبله مع الناس في الشام، فرآه يخوض في الماء والطين حافيًا، وهو يقود بغلته، وغلامه راكب، فقال أبو عبيده: «يا أمير المؤمنين، ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك. فقال عمر: لو قالها غيرك يا أبا عبيدة! إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله».

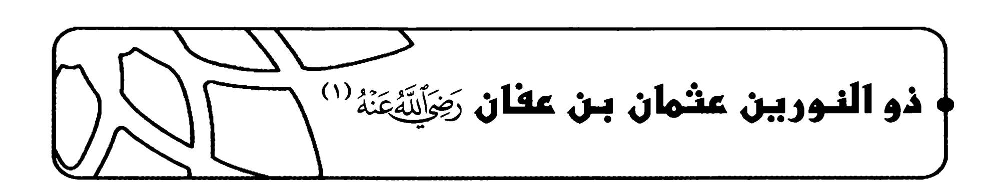
هذا هو عمر الذي عجَزت نساء الدنيا أن يلدنَ مثله، وقصرت أرحامهن أن تخرج للأرض رجلا على شاكلته، يلبس رداءه المرقع، ويتوسد حذاءه، ويضطجع تحت ظل شجرة، وبطنه يقرقر من الجوع، وهو رجل زلزل عروش الأباطرة، من الأكاسرة والقياصرة..

يا من يرى عمرًا تكسوه بُردته ... والزيت أُدمٌ له والكوخ مأواهُ

يهتز كسرى على كرسيه فرَقًا ... من خوفه وملوك الروم تخشاه

ما بلغ عمر وأصحابُه ما بلغوا إلاّ بهذا الدين الذي أعزّهم الله به، حين تأدبوا بآدابه، وصدقوا مع ربهم في تربية أنفسهم، ومخالفة أهوائهم، وكبح جماح شهواتهم، فكانوا هم الرجال حقًّا، ومن أراد أن يدرك الركبَ فليأخذ بما أخذوا، وليلتَزم ما التزموا، ومن يفعَل ذلك فقد هدِي إلى صراط مستقيم.

فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إنّ التشبّهَ بالكرام فلاح



ذو النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله - حق التقوى، واستمسِكوا من الإسلام بالعُروة الوُثقى.

أيها المسلمون: لقد اصطفَى الله لهذه الأمة خيرَ الرسل، واختار سبحانه لصُحبة نبيه خيرَ رجالٍ في أمته لا كان ولا يكون مثلهم، غفر الله ذنبَهم ورفع مكانتهم ورضِيَ عنهم؛ بإيمانهم وإخلاصهم وصُحبتهم وصدق نُصرتهم للنبي ﷺ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٠].

ومما يزيد في الإيمان: معرفةُ سير من اتَّصَف بالصُّحبة وبادَر إلى التصديق وآزر النبيَّ ﷺ ونصرَه، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن السنة: ذِكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين).

والدعاء لهم قُربة، والاقتداء بهم وسيلة، ومحبتهم من أصول الدين، قال الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونحب أصحابَ رسول الله ﷺ ولا نُفرِطُ في حب أحدٍ منهم، ولا نتبرَّأ من أحدٍ منهم).

---

(١) عبدالمحسن القاسم.

وأفضل أولئك الجيل الفَذِّ: أبو بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أرسخهم إيمانًا وأغزرهم علمًا، وأكثرهم ملازمةً للنبي ﷺ.

ثم عمر الفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يليه في الفضل والخلافة كان حِصنًا حصينًا للإسلام في قوة سيرته وكمال عدله، وما لقِيَه الشيطان قطُّ سالكًا فجًّا إلا وسلكَ فجًّا غير فجِّه.

وثالثُهم عظيم اليد كريمُ النفس: أبو عبد الله عثمان بن عفان بن أبي العاص، ذو النورين أمير المؤمنين، وثالثُ الخلفاء الراشدين، وصاحبُ الهجرتين، وأحدُ العشرة المُبشَّرين بالجنة، له مزيّة لا يشاركه فيها أحد من العالمين، إذ لم يتزوَّج رجلٌ من الأولين والآخرين ابنتَيْ نبيٍّ غيره.

وسوف نقف اليوم وقفات مع سيرة هذا الإمام الصالح، والخليفة الراشد، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه.

يجتمع عثمان مع النبي ﷺ في جدِّه الثالث، وهو حفيدُ عمة النبي ﷺ البيضاء بنت عبد المطلب، أسلم قديمًا على يدي أبي بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فكان رابعَ أربعةٍ في الإسلام، وبايَع عنه ﷺ بيده في بيعة الرضوان وقال: «هذه يدي وهذه يدُ عثمان»؛[1].

هو أطول الخلفاء الراشدين خلافة، مكثَ أميرًا للمؤمنين اثنَيْ عشر عامًا، كانت كلها أمنًا ورخاءً، وعدلًا وسخاءً، كثيرُ العبادة خاشعٌ لله، لما نزل قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ [الزمر:٩]، قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «هو عثمان».

مُطيعٌ للنبي ﷺ مُقتفٍ أثرَه، وفِيٌّ له ولصاحبَيْه أبي بكرٍ وعمر، قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «صحبتُ رسولَ الله ﷺ وبايَعتُه، فوالله ما عصيتُه ولا غششتُه حتى توفاه الله عَزَّوَجَلَّ، ثم أبو بكر مثلُه، ثم عمر مثلُه»؛ رواه البخاري.

قال عبدالرحمن بن سمُرة: «تُوفِّي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ».

وجِلٌ من ربه، يتذكَّر آخرتَه، كثيرُ الزيارة للمقابر، إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتلَّ لحيتُه، ثابتٌ بيقينه قدوةٌ لغيره، أمر النبيُّ ﷺ بالاقتداء به عند حلول الفتن، ووصفَه بالأمين،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠٨) وصححه أحمد شاكر.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنكم تلقون بعدي فتنةً واختلافًا»، فقال له قائلٌ من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه» وهو يُشير إلى عثمان بذلك (١).

ومن تعرَّف على الله في الرخاء عرَفَه في الشدة وعصمَه من الفتن، ذكر النبي ﷺ الفتنَ ذات يومٍ، فقال: «هذا يومئذٍ على الهُدى» - وأشار إلى عثمان (٢). سليمُ الصدر لا يحمِل حسدًا أو حقدًا على أحد، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣]».

عفيفٌ حافظٌ لدينه، يقول: «والله ما زنيتُ في جاهليةٍ ولا إسلامٍ». دمثُ الأخلاق، وهبَه الله علمًا وحلمًا، فكان الصحابة يرجعون إليه، قال ابن سيرين: (كانوا يرَون أعلمَهم بالمناسك عثمان).

ومنَحَه الله إيمانًا راسخًا وعقلًا راجحًا، بعثَه النبيُّ ﷺ يُفاوِض قريشًا في الحديبية، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لو كان أحدٌ أعزُّ ببطن مكة من عثمان لبَعَثه مكانَه»؛ رواه البخاري. قال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (كان عثمان في قريشٍ مُحبَّبًا يُوصون إليه ويُعظِّمونه).

وجعله عمرُ أحدَ أصحاب الشورى الستة من بعده، فكان خيرَهم، فاختاروه خليفةً للمؤمنين ولم يعدِلوا به أحدًا، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بايَعوه بالخلافة: «بايَعنا خيرَنا ولم نألُ».

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (لم يجتمعوا على بيعةِ أحدٍ ما اجتمعوا على بيعة عثمان).

والإنفاق في مرضاة الله من علامات صدق الإيمان ومحبة المؤمنين والتوكُّل على الله، ولعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اليدُ الطُّولَى في البذل والعطاء، نظر النبي ﷺ في وجوه القوم يوم جيش العُسْرة، والمسلمون يومئذٍ في شدَّةٍ وفاقَة، قال: «من يُجهِّز هؤلاء غفر الله له»، فجهَّزهم عثمان حتى ما يفقِدون خِطامًا ولا عِقالًا (٣).

---

(١) رواه أحمد (١٦/ ٢٢٤) وصححه أحمد شاكر، والألباني في الصحيحة (٣١٨٨).

(٢) صحيح الترمذي (٣٧٠٤).

(٣) مسند أحمد (١/ ٢٤٨) وصححه أحمد شاكر.

واشترى بيتًا لتوسعة مسجد النبي ﷺ في عهده عليه الصلاة والسلام لما سمع النبيَّ ﷺ يقول: «من يُوسِّع لنا بهذا البيت في المسجد ببيتٍ في الجنة»؛[1].

وأعتقَ من المماليك ما لا يُحصَى، كان يقول: «ما أتَتْ عليَّ جمعة إلا وأنا أعتِق فيها رقبةً منذ أسلمتُ»، ومن ورعه في سفك الدماء، قوله لمواليه يوم أن حُوصر في الدار: «من أغمَدَ سيفَه فهو حرٌّ».

والحياءُ خُلُقٌ رفيعٌ يجمعُ المروءات، وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان حيِيًّا حتى مع نفسه، يكون في بيته وحده والبابُ مُغلقٌ عليه فما يخلعُ عنه ثوبَه ليُفيضَ الماءَ عليه، ويمنَعه الحياءُ أن يُقيمَ صُلبَه وهو يغتسل، وليس في هذه الأمة من يُدانيه في حيائه.

وكان النبي ﷺ يستحيِ منه، قعد عليه الصلاة والسلام ذات يومٍ في مكانٍ فيه ماءٌ قد انكشَف ثوبُه عن ركبتَيْه، فلما دخل عثمان غطَّاها[2].

والملائكةُ تستحِي منه، كان عليه الصلاة والسلام مُضطجِعًا على فراشه، فلما دخل عثمان جلس وقال: «ألا أستحِي من رجلٍ تستحِي منه الملائكة؟!»[3].

وبعد أيها المسلمون:

فواجبٌ محبة صحابة النبي ﷺ والذبُّ عنهم ولزومُ طريقتهم، فقد حفِظوا دينَ الله وشريعتَه، وكانوا أكمل الناس حبًّا للنبي ﷺ وتعظيمًا له وتأسِّيًا به.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنبٍ، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠٨) وصححه أحمد شاكر.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم (٢٤٠١).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي لم يزل حميدًا مجيدًا، والصلاة والسلام على محمد الذي بعثه ربه قائلًا قولا سديدا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد:

أيها المؤمنون: القرآن كلام رب العالمين، وصَفَه الله بالبركة والكرم والهدى، من قرُبَ منه نالَته البركة وعلَت عند الله درجتُه، ولقد كان عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أشد الناس حبًا لكلام الله، قال الحسن: «ما مات عثمان حتى خَلِقَ مصحفُه» -أي: بلي- من كثرة ما يُديمُ تقليبه والنظرَ فيه. وقرأ القرآن كاملًا مرارًا في ركعةٍ من العشاء إلى الفجر، وكان يقول: «لو أن قلوبَنا طهُرَت ما شبِعْنا من كلام ربنا».

ومن حسناتِه العظيمة: جمع الناس على قراءةٍ عظيمة، وكَتْبُه المصحف على العَرْضَة الأخيرة التي دارَسَ فيها جبريلُ النبيَّ ﷺ في آخر حياته، فأمرَ عثمان زيدَ بن ثابتٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يكتب المصحَف كاملًا بخط يده ويُفرِّقَه في الأمصار، وسُمِّي نوع خط المصحَف باسمه فقيل: الرسم العثماني؛ نسبةً إلى أمره وزمانه وإمارته، نفعَه القرآن ونفعَ الناسَ به، ولا فلاحَ لهذه الأمة إلا بالقرآن والعمل به.

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وفي عصر عثمان بن عفان امتدَّت الممالكُ الإسلاميةُ إلى أقصى مشارِقِ الأرض ومغارِبها، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظِ القرآن).

ولتعلُّقه بكتاب الله فقد كانت خاتمتُه بين يديه، فقُتِل والمصحف في حجره وسال الدمُ على مصحفه، ومع عبادته وخشيته لله كان خليفةً راشدًا مُحنَّكًا، فتح الله على يديه كثيرًا من الأقاليم والأمصار، واتَّسَعت رقعة المسلمين، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله زوَى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقَها ومغارِبها، وإن أمتي سيبلُغ مُلكُها ما زوَى لي منها»؛[1].

قال ابن كثير في البداية والنهاية: (وهذا كله تحقَّق وقوعه وتأكَّد وتوطَّن في زمان عثمان).

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).



وكان الناس في خِلافته في عيشٍ رغيدٍ، وأمنٍ وطيدٍ، وفي أُلفةٍ واتفاق، وصفَ الحسَنُ حالَهم بقوله: «الأُعطياتُ في خلافته جارية، والأرزاقُ دارَّة، والعدو مُتَّقى، وذات البين حسن، والخيرُ كثير، وما مؤمنٌ يخافُ مؤمنًا، من لقِيَه فهو أخوه من كان».

ونَهْجُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سلامةُ قلوبهم لبعضهم، ومحبتهم لبعضهم، وتوقير أحدهم الآخر، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُجِلُّونه في حياة النبي ﷺ وبعد مماته، وكان مُفضَّلًا عندهم، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كنا نعُدُّ ورسولُ اللهُ ﷺ حيٌّ وأصحابُه متوافرون: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان».

وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة أبي بكرٍ وعمر: «كان عثمان خيرَنا وأحسنَنا طهورًا».

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنه لأوصلُهم للرَّحِم وأتقاهم للرب».

وكان يحب صحابةَ رسول الله ﷺ، فكنَّى نفسَه باسم أبي بكرٍ عبدَ الله، ومن أبنائه من اسمُه عمر، ومن بناته من سمَّاها: عائشة.

ولما عمَّ الرخاء ورسَخَ الأمنُ وانتشر الإسلامُ في الأرض في خلافته استعجَل مرضَى القلوب موتَه، واستطالوا حياتَه، فثاروا عليه وحاصروه في داره، مستغلين غياب أكثر الصحابة في الحج، وورع الخليفة العادل الرحيم، الذي كان أشد الناس حرصًا على أن لا يلقى الله بدم مسلم، ثم دخلوا عليه وقتلوه، وكان عمره إذ ذاك اثنان وثمانون عامًا، وهو صائم والمصحف في حجره وهو يتلو كتابَ الله، وكان مقتله أول الفتن في هذه الأمة، قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أول الفتن قتلُ عثمان، وآخرُ الفتن الدجَّال».

وقد حزِنَ الصحابةُ لمقتله، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم مقتل عثمان: «أنكرتُ نفسي»، ولما بلغَ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خبرَ قتله استغفرَ له وترحَّم عليه ودعا على من قتله بقوله: «اللهم أندِمهم ثم خُذهم»، وكان سعدٌ مُجابَ الدعوة. وقد أقسمَ بعضُ السلف أنه ما مات أحدٌ من قتلة عثمان إلا مقتولًا.

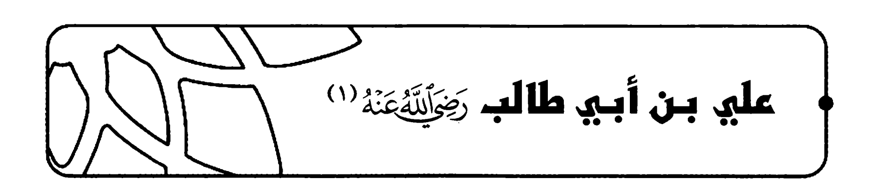
أيها المسلمون: وإن من العبر في سيرة عثمان، أن نعلم أن من بركة المؤمن أن يكون نفعُه مُتعدّيًا لغيره، وما قدَّمه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنفسه وللإسلام وللمسلمين من الأعمال والفتوحات

ودخول الناس في الدين وجمعه القرآن، كل ذلك حسنةٌ من حسنات أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ هو الذي دعاه للإسلام، فكان أحدَ السابقين ومن الخلفاء الراشدين المأمور بالاقتداء بهم.

فما أجمل أن يكون الإنسان قدوة لغيره، داعيًا للناس إلى الخير، لعله أن يكون مباركًا يلقى الله بطاعاتٍ لا تُحصى، فالسعيد من إذا مات تموت معه سيئاته، وتبقى له حسنات، وأعمال دلّ غيره عليها، من تعليم قرآن، أو سنة، أو آداب، أو طاعات، فلأَن يهدِيَ الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمر النعَم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ثم اعلموا أن الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيه، فقال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].





علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله أوجد الكائنات فأبدعها صنعًا، وأحكمها خلقًا، وهدى عباده النجدين، فأسعد فريقًا وفريقًا أشقى، أحمده سبحانه وأشكره، وأثني عليه بما هو أهله، لم يزل للشكر مستحقًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعبدًا ورقًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله هو الأخشى لربه والأتقى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه المقدمين فضلًا وسبقًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ومن نصر دين الله حقًا وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

معاشر المسلمين: إن جيل الصحابة رضوان الله عليهم خير جيل ظهر على وجه الأرض، هم الذين وضعوا أنفسهم بين يدي رسول الله ﷺ لكي يعلمهم ويربيهم، ويوجههم ويصوغهم، فتلقوا تلكم التربية النبوية الكريمة، حتى خلَت نفوسُهم من حظ نفوسِهم، وجنّدوا أنفسهم لنصر الشريعة ورفع لواء الدين، فخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من ربهم ورضوانًا وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون.

ومن بين هؤلاء الصحب الكرام صحابي جليل أحبه الله، وأحبه رسول الله ﷺ، هو الإمام إذا عُدّ الأئمة، وهو البطل إذا عُدّ الأبطال، هو الشجاع المِقدام والبطل الهُمام، هو الشهيد الذي قُتِل غدرًا، ولو أراد قاتله قتله مواجهة ما استطاع، ولكن عادة الجبناء حيلة الغدر، والطعن في الظهر. فمن هو -يا ترى- صاحب هذه الصفات؟

(١) عدنان بن عبدالله القطان.

إنه أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عمّ رسول الله ﷺ، وأخوه بالمؤاخاة، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وزوجه فاطمة بنت محمد بن عبد المطلب بن هاشم.

ولد الإمام علي بن أبي طالب قبل البعثة بعشر سنين، وتربى في حجر النبيّ ﷺ وفي بيته، أول من أسلم بعد خديجة وهو صغير. كان الإمام علي يلقّب حيدرة، وكنّاه النبيّ ﷺ أبا تراب. أحد العشرة المبشرين بالجنة، زوّجه النبي ﷺ ابنته فاطمة الزهراء، وهو أبو السبطين الحسن والحسين سيّدَي شباب أهل الجنة، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين، اجتمع له من الفضائل الجمّة ما لم يجتمع لغيره، فمن ذلك ما روي عنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قوله عن نفسه:

محمدٌ النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمّي

وجعفرٌ الذي يمسي ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمي

وبنت محمد سكني وعِرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي

وسبطا أحمدٍ ولداي منها ... فأيُّكمُ له سهمٌ كسهمي؟!

ولّما هاجر النبيّ ﷺ من مكة إلى المدينة أمر عليًّا أن يبيت على فراشه، وأجّله ثلاثة أيام ليؤدي الأمانات التي كانت عند النبيّ ﷺ إلى أصحابها ثم يلحق به إلى المدينة، فهاجر الإمام علي من مكة إلى المدينة المنورة ماشيًا.

شهد الإمام علي المشاهد كلها مع النبيّ ﷺ إلا غزوة تبوك حيث استخلفه الرسول ﷺ في أهله وقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟»[1] وأعطاه اللواء يوم خيبر ففتحها، واقتلع باب الحصن.

فضائله جمّة لا تُحصى، ومناقبه كثيرة لا تعد، كان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه غزير العلم، زاهدًا ورعًا شجاعًا، وقد ورد عن الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ أنه قال: (لم يُنقل لأحد من الصحابة من الفضائل ما نقل لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ).

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٤).

جمع إلى جانب مهارته في القضاء والفتوى العلم بكتاب الله وفرائده، والفهم لمعانيه ومقاصده، فكان من أعلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأسباب نزول القرآن ومعرفة تأويله؛ يشهد لهذا ما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب». فإذا كان هذا شأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ترجمان القرآن، فكيف والحال كذلك بمن أخذ عنه؟!

روى الإمام مسلم في فضائل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي فلق الحبة وبرأ النَّسَمَة، إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليّ أنه «لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق». وقال عنه ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه»[1].

دعاه الرسول ﷺ وزوجته فاطمة وابنيه الحسن والحسين وجلّلهم بكساء وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهِب عنهم الرجس وطهِّرْهُم تطهيرًا»[2] وذلك عندما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣].

ولقد كانت أخلاقه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبسًا من نور خلق النبي ﷺ الذي تربى في حجره وعاش على مائدة مكارم النبوة، حتى شب عن الطوق، واكتملت رجولته، وزاد من ذلك مصاهرته للنبي ﷺ، حيث كان يتعاهده وفاطمة الزهراء بالمواعظ والآداب العظيمة، فتنامت أخلاقه شموخًا، وسجاياه علوًا ورفعة، وظلت فضائله وأخلاقه ومكارمه حية متألقة في روحه حتى فارق الدنيا، ولقد أجاد ضرار بن ضمرة الكناني في وصف تلك الأخلاق الباهرة والمكارم النادرة، وأبان عن جوهرها ومكنوناتها عندما سأله معاوية أن يصف عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «كان -والله- بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، ويتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان -والله- غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفيه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، كان -والله- كأحدنا، يُدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان

---

(١) مسند أحمد (٢/ ١٩٥) وصححه أحمد شاكر.

(٢) صحيح الترمذي (٣٧٨٧).



مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يميل في محرابه، قابضًا على لحيته، يضطرب ويتقلب تقلب الملسوع، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه ثم يقول للدنيا: إليَّ تعرّضتِ؟! إليّ تشوّفتِ؟! هيهات هيهات! غُرّي غَيري، قد طلقتكِ ثلاثًا، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آهٍ آهٍ من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق»، فوكفت دموع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على لحيته ما يملكها، وجعل ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء وهو يقول: هكذا والله كان أبو الحسن.

أيها المسلمون: لقد اشتهر الإمام عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالفروسية والشجاعة والإقدام، وكان اللواء بيد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أكثر المشاهد، في غزوة خيبر قال الرسول ﷺ: «لأُعْطينّ الرايةَ غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويُحبه الله ورسوله، يفتح الله عليه أو على يديه»، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو المُعْطَى وفُتِحَت على يديه[1].

بارز عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيبة بن ربيعة يوم بدر فقتله، وكان أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقسم قسمًا إن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة.

وفي أُحد قام طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين فقال: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي إلى الجنة أو يعجلني بسيفه إلى النار؟! فقام إليه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجلني بسيفك إلى الجنة»، فضربه عليّ فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال: أنشدك الله والرحم يا ابن عمّ، فكبّر رسول الله ﷺ، وكبر المسلمون بتكبيره، وقال أصحاب عليّ لعلي: ما منعك أن تُجهز عليه؟ قال: «إن ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه».

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦).

وبارز مَرْحَبًا اليهودي يوم خيبر، فخرج مرحب يخطر بسيفه قائلًا:

قــد علمَــت خيــبر أني مرحــبُ شــاكي الســلاح بطــلٌ مجــرّبُ

إذا الحــروب أقبلــت تلتهــبُ

فقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أنــا الــذي ســمّتني أمــي حيــدرةْ كليــث غابــاتٍ كريــهِ المنظــرة

أوفــيهم بالصــاع كيــل الســندرة

ففلق رأس مرحب بالسيف، وكان الفتح على يديه.

ومما يدلّ على شجاعته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه نام مكان النبي ﷺ لما أراد رسول الله ﷺ الهجرة، ومع شجاعته هذه فهو القائل: «كُنا إذا احمرّ البأس، ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه». فما أحد أشجع من رسول الله ﷺ.

ورضي الله عن أمير المؤمنين الإمام الشهيد علي بن أبي طالب وأرضاه، وعن جميع الآل والأصحاب، وجمعنا الله بهم في دار كرامته وبحبوحة جنته، إنه على كل شيء قدير.

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي سيد المرسلين، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رفع قدر أولي الأقدار، أحمده سبحانه وأشكره على فضله المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار، من المهاجرين والأنصار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله رحمكم الله، واقتدوا بالعظماء والصالحين من عباد الله، وخذوا الدروس والعبر من سيرهم، واجعلوهم لكم نبراسًا ينير لكم الطريق في حياتكم وينفعكم في آخرتكم. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

عباد الله: لما توفي رسول الله ﷺ بايع عليٌ أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكان أحد وزرائه ومستشاريه، وظل طيلة حياة أبي بكر نعم العون والوزير، يساهم في إدارة الدولة وتصريف الشؤون بصدق وإخلاص، وكذلك كان مع عمر، فقد كان له وزير صدق، حتى زوّج عمر بابنته أم كلثوم، وكثيرا ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها، وكان في عهد عمر من كبار رجال الدولة الذين تعقد عليهم الآمال، حتى جعله عمر من الستة الذين اختير منهم الخليفة من بعده، ويروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «لولا علي لهلك عمر»، ويروى عنه كذلك أنه قال: «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لستَ فيهم يا أبا الحسن».

ولما استُخلف عثمان بايعه فيمن بايع من جمهور الصحابة، والتزم نصحه ومؤازرته، وكان موقفه منه حين ثارت الفتنة موقف الناصح والمدافع عنه، ولما أطبق الثوار على قصر الخليفة الشهيد أرسل علي ولديه الحسن والحسين بسيفيهما، حتى نفذ قضاء الله.

بويع له بالخلافة بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شديدا في الحق، مقيما للعدل، خاشعا لله، مجتهدا في نصح الأمة، يولي الأخيار، ويحاسب المقصرين، ولا يجامل في الحق أبدا، ولا يخاف في الله لومة لائم، زاهدا في الدنيا، بعيدا عن الترف.

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذا ذكاءٍ لمّاح، وعبقرية فذة، وبديهةٍ حاضرة، وفراسة صادقة، ينظرُ في وجه المرءِ فيقرأ فيه مخبوء نفسه، ويسمع الكلام فيشم منه رائحة صدقِه أو كذبِه، ويأتيه السائل المتعنت، فلا يجد من علي إلا الحجة الدامغة والجواب الشافي.

جاءه رجلٌ يومًا وكان يكره عليًا فأطراه ومدحه، فقال له عليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لستُ كما تقول، وأنا فوق ما في نفسك». وقال له رجلٌ آخر وكان يبغضه أيضًا: ثبتك الله، فقال عليٌ: «على صدرك». وقال له قائل: ما بال خلافة أبي بكر وعمر كانت صافية، وخلافتك أنت وعثمان متكدرة؟! فقال: «إنّ أبا بكر وعمر كنتُ أنا وعثمان من أعوانهما، وكنت أنت وأمثالك من أعواني وأعوان عثمان». وجاءه رجلٌ من يهود فقال له: ما أتى عليكم بعد نبيكم إلا نيّفٌ وعشرون سنة حتى ضرب بعضكم بعضًا بالسيف، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فأنتم ما جفّت أقدامُكم من البحر حتى قلتُم: يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة».

أيها المؤمنون: إن الباحث المنصف المحقق في كتب ومراجع الطوائف الإسلامية يجد أن الإمام عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مع سابقيه من الخلفاء الراشدين على الأخلاق التي رباهم عليها رسولُ الله ﷺ، يحبهم ويبجِّلهم، ويسمي أبناءه بأسمائهم، ويعترف بفضلهم على رؤوس الأشهاد، وكان لهم ردءًا يصدقهم بما يقولون، ويصْدُقُهم بما يقول، ويبذل لهم رأيه ومشورته الناصحة، ويقف معهم صفًا واحدًا أمام الملمات والمواقف العصيبة.

ولقد فُجِع الإمام عليٌ بموت رجل الإسلام الكبير أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، فوقف يرثيه متوجعًا، وقال: «رحمك الله يا أبا بكر، كنت -والله- أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدَهم يقينًا، صدّقتَ رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، كنت والله للإسلام حصنًا، وللكافرين ناكبًا، لم تَهِن حُجَّتُك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك». بل إن عمر كان يأتي إلى علي يطلب منه الموعظة والتذكير، فقال له ذات مرة: عظني يا أبا الحسن، قال: «يا أمير المؤمنين، لا تجعل يقينك شكًا، ولا علمك جهلًا، ولا ظنك حقًا، واعلم أنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، وقسمت فسويت، ولبست فأبليت، قال عمر: صدقت يا أبا الحسن». ولما قُتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وغسل وكفن وسُجّي بثوبه، نظر إليه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «ما أحدٌ أحب إلي من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجّى».

ولما قُتل عثمانُ وجاء الخبرُ عليًا قال: «تبًّا لهم آخر الدهر». ودخل على عثمانَ فوقع عليه، وجعل يبكي حتى ظنّ منْ هناك أنه سيلحقُ به، وتبرأ إلى الله من دمِه في مواقفَ ومناسبات كثيرة، ثبت عنه ذلك من طرقٍ تفيد القطع، وعندما بلغه أن القتلة قد ندموا على فعلتهم تلا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦].

وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أكثر الناس إنصافًا لخصومه، فقد رأى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في واد مُلقى أي: مقتولًا، فنزل فمسح التراب عن وجهه وقال: «عزيزٌ عليّ -أبا محمدٍ- بأن أراك مجدلًا في الأودية تحت نجوم السماء، إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري»، يعني: سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي. وقال طلحة بن مُصرّف: انتهى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد مات، فنزل عن دابته وأجلسه، ومسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه، وقال: «ليتني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة». وكان يقول: «إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]».

ومن إنصافه ورسوخ علمه أنه لم يكن يكفّر مخالفيه، حتى من الخوارج الذين ذمّهم رسول الله ﷺ، فلما سأله أصحابه عن أهل النهروان من الخوارج: أمشركون هم؟ قال: «من الشرك فرُّوا»، قيل: أمنافقون؟ قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا»، فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: «إخواننا بَغَوا علينا، فقاتلناهم ببغيهم علينا، فهم وإن كانوا فئة باغية، اضطروه إلى قتالهم، إلا أنه لم يأت عنه أبدًا أنه كفّرهم أو لعنهم».

وكما كانت حياة الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جهادا فقد كان موته استشهادا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث طعنه الشقي عبد الرحمن بن ملجم الخارجي وهو يصلي الفجر في مسجد الكوفة، فكان استشهاده في شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، حيث خرج علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبلَ صلاة الفجر؛ ليوقظَ المسلمين للصلاة، ثم دخل المسجد، فوجد عبدالرحمن بن مُلْجم الخارجي، وجده منبطحًا

على بطنه، وقد جعل سيفَه ممَّا يلي الأرض مسلولًا، فركله عليٌّ برجله، وقال: «لا تنمْ على بطنك، فإنَّها نومةُ أهل النار»، وافتتح عليٌّ ركعتين، فوثب عليه الخارجي عدوُّ الله، فضربَه بالسيف على صدغه فانفلق، فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الله أكبر، لله الأمر من قبلُ ومن بعد».

ويُحمل ودماؤه تنزف، ويوصي بألا يعذبوا قاتله، بل: إن متُّ فاقتلوه بي، وإن بقيتُ فسأرى رأيي فيه.

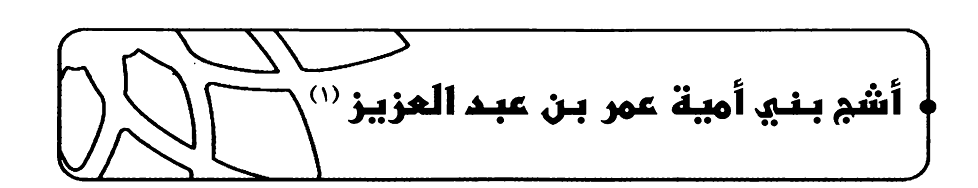
﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]. وقد دُفن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأُخفي قبره، قال شيخ الإسلام: (المعروف عندَ أهل العِلم أنَّه دفن بقصر الإمارة بالكوفة، وأنَّه أُخفي قبرُه؛ لئلا ينبشَه الخوارج الذين كانوا يُكفِّرونه، ويَستحلُّون قتله، فإن الذي قتله واحدٌ من الخوارج؛ وهو عبدالرحمن بن ملجم المرادي، وكان قد تعاهد هو وآخرانِ على قتلِ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقتل معاوية، وقتل عمرو بن العاص، فإنَّهم يُكفِّرون هؤلاءِ كلَّهم، وكلَّ مَن لا يوافقهم على أهوائهم). وأمَّا القبر الذي يزوره الشيعة الآن بالنَّجف، ويَدَّعون أنَّه قبر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فليس هو قبر علي على الحقيقة، قال ابن تيمية: (وأمَّا المشهد الذي بالنَّجف، فليس بقبر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأهل المعرفةِ متَّفقون على أنَّه ليس بقبر عليٍّ، بل قيل: إنَّه قبر المغيرة بن شعبة، ولم يكن أحدٌ يذكر أنَّ هذا قبرُ علي، ولا يقصده أحدٌ أكثرَ من ثلاثمائة سنة، مع كثرة المسلمين من أهلِ البيت والشِّيعة وغيرهم، وحُكمهم بالكوفة).

أيها المؤمنون: إن مما ينبغي لكل مسلم أن يجعل أصحاب النبي قدوته وأسوته، وأن لا يكون طعانًا ولا لعانًا ولا فاحشًا ولا متفحشًا، لعله أن يلقى الله وقد سلم لسانه من ذلك، لا سيما فيما شجر بين أصحاب النبي ﷺ، فإنها كانت فتنة عصم الله منها سيوفنا، فلتسلم منها ألسنتنا، ولنتبع منهج القرآن في ذلك: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

فسلام الله عليك يا أبا الحسن، يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حيًا..

هذا وصلوا وسلموا على محمد...





أشج بني أمية عمر بن عبد العزيز [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، الحمد لله الذي خلق الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أرجو بها النجاة من عذابه يوم القيامة، وأصلي وأسلم على من بعثه الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا. اللهم صل على محمد وآله، وأصحابه وزوجاته، وذريته والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم اللهم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

عباد الله: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا ربكم، وأنيبوا إليه، واستغفروه، وتوبوا إليه؛ يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى، ويؤت كل ذي فضله.

عباد الله: جاء في أخبار الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما حدَّث به مولاه أسلم، قال: «كنت أنا وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ليلة من الليالي، وهو يعس بالمدينة» يتفقد أحوال الناس ويبحث عن المحتاجين والفقراء والمساكين «فأعياه المشي؛ فاتكأ على جدار ليرتاح، فإذا به يسمع خلف جدار هذا البيت امرأة تقول لابنتها: يا بنية، قومي فامْذِقِي اللبن بالماء» أي اخلطيه بالماء حتى يزيد، ولعلهم كانوا يبيعون هذا للناس «فقالت البنية: يا أماه، أما علمتِ بعَزْمَة أمير المؤمنين؟!

قالت: وما عزمة أمير المؤمنين يا بنية؟ قالت: إن منادي عمر قد نادى في الناس: أن لا يُشَاب اللبن بالماء، فقالت أمها: قومي - يا بنية - فامذقيه بالماء؛ إنك الآن في موطن لا يعلم بك عمر، ولا منادي عمر، فقالت هذه الفتاة الصالحة التي تربّت على خوف الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى

---

(١) عبدالله بن محمد العسكر.

مراقبته، قالت: والله يا أمتاه، ما كنت لأطيعه في العلن وأعصيه في السر، إن كان عمر لا يرانا، فإن رب عمر يرانا!».

المراقبة الصادقة لله عَزَّوَجَلَّ في مواقف الخلوات كمواقف الجلوات، لا فرق بينهما، فلما سمع عمر هذا الكلام العجيب، قال لمولاه أسلم: «يا أسلم، علِّم على الباب»؛ لأن عمر كان يريد أن يعرف مَنْ أهل هذا البيت، فلما جاء الصباح قال عمر لمولاه أسلم: «اذهب إلى ذاك البيت، فاسأل عن حالهم، وعن تلك الفتاة، هل هي ذات بعل أم لا؟» فذهب أسلم وسأل، فإذا الفتاة أَيِّمٌ لا زوج لها، فجمع عمر بنيه، وقال: «يا بَنِيَّ! هل منكم أحد يحتاج إلى امرأة فأزوجه؟» قال عاصم ابنه: أنا يا أبتاه ليست لي زوجة؛ فزوجني، فخطب عمر لابنه عاصم تلك الفتاة الصالحة[1].

لم يسأل عمر عن جمالها، وعن نسبها وحسبها، إنما كان الأهم عند عمر أن يزوج ولده بامرأة صالحة، ورعة تقية، فتزوجها عاصم، ومرت الأيام، فوُلِد لهم، ثم تمر الأيام وتدور دورتها، فتكبر بنت عاصم، فتُزوجُ بعبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، فتنجب منه فتى كان علمًا من أعلام الإسلام، وعظيمًا من عظماء هذه الأمة. يقول فيه الإمام الذهبي: (كان من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين).

ويقول عنه: كان (حسن الخَلْق والخُلُق، كامل العقل، حسن السمت، جيد السياسة، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أواهًا منيبًا، قانتًا لله حنيفًا)[2].

ولعلكم عرفتم -عباد الله- من هو هذا الفتى، ومن هو هذا العظيم الذي هو من نسل عمر بن الخطاب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه-، إنه: أشجُّ بني أميه، عمر بن عبد العزيز ابن مروان رَحِمَهُٱللَّهُ.

---

(١) بتصرف من أخبار أبي حفص للبغدادي (١/ ٤٨-٤٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤، ١٢٠).

كان هذا الرجل عظيمًا بحق؛ لأنه كان قمة في كل خلق حسن، لم يكن زاهدًا فحسب، أو عادلًا فحسب، أو أوابًا عابدًا فحسب، بل جمع تلك الصفات جميعًا، فكان عبدًا لله، أوابًا منيبًا، صالحًا تقيًا، نقيًا ورعًا، عدلًا إمامًا، لا يُذكر العدل والصلاح والتقى إلا ويُذكر عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ.

يحدث عن نفسه وعن طبيعته، فيقول: «إن لي نفسًا تَوَّاقَة، لم تنل شيئًا إلا تَاقَت إلى ما هو أعلى منه، وإني اليوم قد نلت الخلافة» وهل بعد الخلافة شيء؟! وهل بعد هذه المنزلة منزلة؟! فهل توقفت نفس عمر عن أن تطمح إلى ما فوق ذلك؟ كلا، بل إنها النفس التواقة، قال: «فلما نلت الخلافة تاقت نفسي إلى الجنة»(١).

وهي والله منتهى الآمال، وغاية المنى، جعلنا الله وإياكم ووالدينا من أهلها.

أجل، لقد تاقت نفس عمر إلى الجنة؛ فرخُصَت عنده الدنيا جميعًا، الدنيا التي أتت إليه بكل ما فيها، فهو يملك - لو شاء - خزائن المال، وكنوز الذهب والفضة! ولكنه كان يخشى الله تعالى، ويخاف من ربه عَزَّوَجَلَّ؛ فزهد في الدنيا وتركها كلها، يقول مالك بن دينار -العالم الزاهد العابد-: (يقول الناس عني: مالك زاهد، مالك زاهد! وأي زهدٍ زهدُ مالك، وليس لمالك إلا جُبّة وكساء؟! إنما الزاهد عمر بن العزيز؛ الذي أتته الدنيا راغمة فأعرض عنها)(٢).

إن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكن ليصل إلى هذه المنزلة العظيمة من الذكر الحسن الذي تتذاكره الأجيال جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، لم يكن ليصل إلى هذه المنزلة السامية العلية لولا أنه يمتلك قدرًا من الصفات العظيمة التي صنعت شخصيته، وصقلت ذاته، فبلغ هذا المنزلة السامية.

لقد كان من أجلِّ صفات عمر خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ ومن الحساب بين يديه، ولم يكن خوف عمر إلا من الله تعالى؛ لأنه كان الخليفة، فإذا كان خليفةً فهل سيخاف من أحد من أهل

---

(١) بتصرف من وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٣٠١).

(٢) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ٢٠٩).

الأرض؟! خاصة وأن خلفاء المسلمين في ذلك الزمن كانوا هم سادة الدنيا، وكانت تذِل لهم ملوك الشرق والغرب، فمِمَّنْ يخاف عمر إذًا؟!.

ولقد بلغ الخوف في قلب عمر مبلغًا عجيبًا! تُحدث عنها زوجته فاطمة رَحِمَهَاٱللَّهُ، وهي أقرب الناس إليه، تقول: «كان عمر يذكر الله في فراشه، فينتفض كما ينتفض العصفور، ثم يستوي جالسًا يبكي حتى أخاف أن يصبح المسلمون ولا خليفة لهم»[1].

تخاف أن تخرج روحه، وأن يموت لِما ترى من شدة بكائه وخوفه -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه-، تقول رَحِمَهَاٱللَّهُ: «في ليلة من الليالي - بعد أن فرغ عمر من قضاء حوائج الناس - أطفأ السراج، ثم صلى ركعتين لله عَزَّوَجَلَّ، ثم قعد جالسًا، ووضع يده تحت خده مطرقًا متأملًا، فما هو إلا قليل حتى بدأت الدموع الغزار تنفجر من عيني عمر، وإذا به يبكي وينتحب وينتفض». فتقوم زوجته فزعةً، أتت إلى زوجها، إلى خليفة المسلمين الذي يبكي هذا البكاء العجيب، فقالت له: «يا أمير المؤمنين، ما الذي أبكاك؟!». ما الذي تظنون -يا عباد الله-: أن يبكي عمر؟ وأخاف عمر فجعله لا يهنأ بنوم، والناس على فرشهم نائمون؟! قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «إني تذكرت رعيتي، فذكرت الأسير المقهور، واليتيم الجائع، والأرملة الثكلى؛ فخشيت ألا أكون قد قمت بحقهم، وعلمت أن حجيجي فيهم هو محمد ﷺ؛ فخفت ألا تثبت لي قدم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ»[2]. هذا الذي أبكى عمر! ثقل الأمانة، واستشعار المسؤولية هو الذي جعل عمر يبكي هذا البكاء العجيب، فيا ليت من ولي من أمر المسلمين شيئًا يستشعر أي أمانة ثقيلة حُمّل.

لقد كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يذكر الآخرة، فكأنه يرى مشاهدها ويبصر أهوالها، كأنه يرى أهل النار وهم يعذبون ويتضاغَوْن فيها، لقد كان عمر عابدًا لله، خائفًا منه، مراقبًا له في سره وعلانيته.

---

(١) بتصرف يسير من لطائف المعارف لابن رجب ص (٢٥٤).

(٢) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ١٩٧).

يحدّث عبد الأعلى بن أبي عبد الله قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة، فلما صعد المنبر خطب بالناس، فقرأ قول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١] ثم قال: «وما شأن الشمس؟ ثم قرأ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢] حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير:١٢-١٣]» قال: فبكى، وبكى أهل المسجد جميعًا حتى رأيت كأن حيطان المسجد تبكي معه![1]. إنه الصدق في الموعظة، وسلامة السريرة، وعظيم الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ.

أما عدل عمر، فما ظنك برجل بلغ خوف الله منه هذا المبلغ؟! كيف سيكون عدله؟! رجل لا يخاف إلا الله أتظن به الظلم والبغي والاعتداء على حقوق الناس وأموالهم؟!

حينما تولى الخلافة دعا زوجته فاطمة، فقال لها: «يا فاطمة، الحُلِي والذهب الذي عندك تعلمين من أين هو؟ فهما أمران: إما أن أُرجِع هذا الحلي إلى بيت المال، أو فخذيه وفارقيني، فو الله لا أجتمع أنا وهو في دار واحدة!»، قالت: لا والله - يا أمير المؤمنين - لا أُوثر على صحبتك شيئًا، فردّته رحمها إلى بيت مال المسلمين، فلما مات عمر، وجاء أخوها يزيد بن عبد الملك رد إليها الحُلِي، وقال: هو لكِ، قالت: لا والله لا آخذه وقد أخذه مني عمر! فأخذه يزيد، وقسمه على بناته[2].

أتاه أحد أبناء عمومته - وهو عنبسة بن سعيد، وكان سليمان بن عبد الملك الخليفة السابق لعمر قد أمر لعنبسة هذا بعشرين ألف دينار إلا أنه مات قبل أن يُمضِيَها، يقول عنبسة: فلما وليَ عمر دخلت عليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ سليمان قد أمر لي بعشرين ألف دينار، وإنه مات قبل أن أقبضها، وأنت أحق من أمضى عطاءه، فانتفض عمر، وقال: «عشرون ألف دينار؟! تكفي لأربعة آلاف من المسلمين!». انظر -عبد الله- إلى الحساب العجيب عند عمر! حتى هذا الرقم لم يكن عمر ليعرفه بهذه السرعة لولا أنه كان دائمًا يمارس هذه العملية، كم يحتاج الفقير؟ كم يحتاج المسكين؟ فعمر غضب، وقال: «عشرون ألف دينار تأخذها تكفي لأربعة آلاف من المسلمين! لا والله لا أعطيكها أبدًا».

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ص (٩٠).

(٢) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٠/ ٣١).

فولى عنبسة حزينًا مكسور الخاطر، فلما دنى من الباب، يقول: ناداني عمر، فقال: «يا أبا خالد! قال: فخطر في قلبي أنه رحمني، وأنه سيعطيني» خاصة أن عمر وعنبسة كانا صديقين، وكان بينهما ألفة ومحبة، لكن عمر لم يكن يحابي في دين الله أحدا، لم يكن يقرب فلانًا وفلانًا لأجل قرابته ولمحبته، كلا إنما هو العدل والميزان الذي لا يختلف فيه الناس، قال: «فقال: يا أبا خالد، يا أبا خالد، اذكر الموت؛ فإنه ما ذُكر في قليل إلا كثَّره، ولا في كثير إلا قلَّله!»[1]. الله أكبر! هكذا كانت أُعطيات عمر، هذه جوائز عمر، مواعظ وكلمات تنير الدرب، وتقرب العبد من الله جل وعلا.

لقد ضرب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثلًا عاليًا في العدل، ومنارة سامِقَة في سمائه البَهِيَّة؛ اسمعوا -عباد الله- إلى هذه القصة التي حدثت في عهد عمر، والتي تدل على عظيم عدله -رَحِمَهُ اللَّهُ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أرسلت إليه امرأة فقيرة من الموالي رسالة من مصر، تقول فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، من فرتونة السوداء إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز». تأملوا، واسمعوا إلى هذا الخطاب، وما هي القضية التي ستُكلم بها أمير الدنيا، وأعظم رجل في ذلك الوقت: «من فرتونة السوداء إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، أما بعد: فإن لي جدارًا على حائطي انهدم بعضه؛ فأصبح الغلمان يعبرون على حائطي، فيسرقون دجاجي»!. انظر إلى القضية التي كانت تُشغل بال هذه المرأة، وكيف جَرُأت أن تكتب خطابًا لأمير المؤمنين، وخليفة المسلمين بهذه القضية اليسيرة؛ ولولا أنها تعلم تواضع عمر، وعدل عمر، وإلا لما كتبت إليه، فما كان من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا أن رد عليها بقوله: «من عبدِ الله عمرَ بن عبد العزيز إلى فرتونة، أما بعد: فإني قد أمرت عاملي» أي الأمير على مصر «أن يقيم لك الجدار، والسلام»[2]. هكذا بلغ عدل عمر وحرصه حتى على هؤلاء الذين ربما لا يعلم بهم أقرب الناس إليهم.

أما زهد عمر، فقد كان مضرِب المثل، كيف كانت معيشة عمر؟ وكيف كان عمر في بيته؟

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم المصري، ص (٥٥)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٤).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم المصري ص (٦٢).

لما تولى عمر الخلافة تغير حاله، فكان شيئًا عجبًا! تخلى عن مظاهر الدنيا، تخلى عن نعيم الدنيا بأسره، حتى تغير شكله، وشحب وجهه، وثار رأسه، دخل عليه محمد بن كعب القُرَضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلما رآه بعد أن تولى الخلافة بأيام إذا به ينظر إلى وجه شاحب، وبدن ناحل، ورأس أشعث، وهيئة رثة، وهو خليفة المسلمين! كنوز الأرض تحت قدميه! ينظر إلى رجل كأن جبال الدنيا على عاتقه يحملها -وهي هموم المسلمين-؛ هي التي فعلت والله بعمر هذا الفعل، فجلس متعجبًا ينظر إليه، ففطن فيه عمر، وقال: «ما لك يا ابن كعب تنظر إليَّ؟!» فقال: «يا أمير المؤمنين، عجبت والله من حالك!».

وقد كان عمر قبل الخلافة ناعم البشرة، بهي الطلعة، رقيق الثياب، وكان يُضرب به المثل حتى في مشيته، وفي لباسه، فلما تولى الخلافة -وكان من المتوقع أن يزداد من هذا النعيم- إذا به يتحول هذا التحول المذهل، فيراه محمد بن كعب، وقد تغير حاله، فيقول: «الذي جعلني أعجب هو حالك -يا أمير المؤمنين-». فقال عمر: «يا محمد! كيف لو رأيتني بعد ثلاث من دفني، وقد سالت العينان، وانخسفت الوجنتان، وأتى على الجوف الديدان؟! أما لو رأيتني عند ذلك لكنت لحالي أشد عجبًا، وكنت لي أعظم إنكارًا! فبكى محمد، وضج المجلس بالبكاء!»[1].

عباد الله: دعونا نتأمل كيف كان عمر يعامل أولاده؟ هل كان أولاد الخليفة يخبطون في مال المسلمين، ويأخذون ما يشاؤون بحجة أنهم أبناء الخليفة؟

كلا، ليس هذا منهج عمر أبدًا، بل كان يسير السيرة العُمرية، التي كان يسيرها جده عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فكان يقيم العدل على أهل بيته قبل الناس، وكان يضع فيهم ميزان العدل قبل غيرهم، بل ربما شدد عليهم أكثر من غيرهم.

كان من عادة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه إذا صلى العشاء رجع إلى بيته، وجلس مع بنياته الصغار، وفي ليلة دخل كعادته ليسلم ويجلس مع بناته، فلما رأينه قد دخل ابتدرن الباب جميعًا، وقد

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٢٨٨).

وضعن أيديهن على أفواههن، فعجب عمر، ما الذي جعلهن يهربن ويمضين لما رأينه على غير العادة؟!

فسأل الحاضنة، وقال: «ما شأن بنياتي؟ لِمَ خرجن وقد وضعن أيدهن على أفواههن؟» قالت: يا أمير المؤمنين. اسمعوا -عباد الله- كيف كان حال أبناء الخليفة وبناته؟ يا أمير المؤمنين، إنه لم يكن عندهن شيء يأكلنه إلا العدس والبصل، فأكلنه؛ فخشين لما دخلت أن تجد منهن رائحة البصل، فهذا الذي جعلهن يهربن من بين يديك!. فبكى عمر رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم قال: «يا بنياتي، ما ينفعكن أن تأكلن ألوان الطعام، ثم يؤمر بأبيكن إلى النار»، فبكين حتى علت أصواتهن، ثم انصرف بعد ذلك[1].

بلغه عن أحد أبنائه -ممن كان له مال ورثه من قبل أن يتولى عمر الخلافة- بلغه أنه اشترى خاتمًا فِصُّه بألف درهم، فاستدعاه عمر، وقال له: «أعزم عليك بالله إلا بعت فصك هذا، وأشبعت به ألف بطنٍ جائع، واشتر خاتمًا فصّه بدرهم، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه!»[2].

هكذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتعامل مع أهل بيته، يقيم فيهم العدل، وهكذا كان عمر في هيئته وملبسه، يلبس متواضع الثياب التي لا يملك غيرها، وقد كان عماله وسعاتُه يسيحون في الديار يحملون الزكاة لا يجدون من يقبلها؛ لأن المال قد فاض، والخير قد انتشر، فلم يعد هناك فقراء[3].

لقد عَرف عمر بحقٍّ قدر نفسه؛ فرفع الله منزلته، وأعلى شأنه، فأصبحنا نذكره على المنابر بعد مئات السنين! رحم الله عمر، وغفر له، وجمعنا به في الجنة مع أحبابنا ووالدينا، وأزواجنا ونبينا الكريم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) بتصرف من سيرة عمر لابن عبد الحكم المصري، ص (٥٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٣٠٥).

(٣) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ٢١٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه واقتفى سنته إلى يوم الدين، وسلم اللهم تسليمًا كثيرًا.

عباد الله: لقد عاش عمر بن عبد العزيز بين المسلمين وكان لسان حاله أعظم واعظ، وأفصح معلم، كان وعظه بمقاله غاية في البيان، ثم كان يتبع ذلك بفعال تبرهن صدق كلامه، لم يكن ينمّق الخطابات، ويتحدث أمام الناس بعبارات يعلم الناس أنها محض كذب، كلا، بل لقد كان يقول ويفعل، كان ينصح، فينكفئ على نفسه، فيكون أشد لها نصحًا وتوبيخًا.

خطب مرة خطبة على المنبر، وكانت خطبةً نورانيةً بهية، خرجت من قلب معمور بخشية الله، مملوءة بالزهد والإعراض عن الدنيا، فكان مما قال في خطبته: «أيها الناس، إنكم لم تُخلقوا عبثًا، ولم تُتركوا سدى، وإنه لا يأمن غدًا إلا من حَذَر الله وخافه، وباع نافذًا بباق، وقليلًا بكثير، وخوفًا بأمان.

إنكم تُشَيِّعون في كل يوم غاديًا ورائحًا إلى الله قد قضى أجله، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهَّد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب؛ فاتقوا الله وموافاته، وحلول الموت بكم! أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، ثم خنقته العبرة؛ فأخذ طرَف ردائه، فوضعه على وجهه، فبكى وأجهش بالبكاء، وأبكى الناس، ثم نزل من منبره ذلك، فكانت تلك الخطبة هي آخر خطبة خطبها»[1].

ويذهب في جنازة، فيرى بعض الناس يستظلون من حر الشمس، ويتقون الغبار والتراب، فيقول:

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ٢١٣) بتصرف يسير.

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشَّين والشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثا

في ظل مقفرةٍ غبراء موحشةٍ يطيل ... تحت الثرى في ظلها اللبثا

تجهّزي بجهازٍ تبلغين به يا نفس ... قبل الردى لم تُخلقي عبثا

وتدور الأيام دورنها ثم ينزل بعد ذلك بعمرَ الموت، الذي طالما كان يستعد له عمر، الذي طالما كان يذكره ويزين به مجلسه، فلما دنا أجله، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، فقال: (يا أمير المؤمنين، إنه قد نزل بك ما أرى، وإنك قد تركت صبيةً صغارًا لا مال لهم؛ فأوص بهم إليَّ، أو اقسم لهم من هذا المال) لقد مات عمر وهو لم يبلغ الأربعين من عمره، فكان أطفاله صغارًا لا يملكون شيئًا، فقال وهو على فراش الموت-: «ادعوا إلي بَنِيَّ»، فجيء بهم، وكانوا بضعة عشر صبيًا، كأنهم أفراخ، فنظر إليهم عمر، نظر إليهم بحنان الوالد، وعطف الأبوة، نظر إلى ضعف الطفولة، وإلى براءة أعينهم، فقال متألمًا حزينًا: «بنفسي مَن تركتهم ولا مال لهم، أيْ بَنيَّ! إن أباكم قد كان خُيِّر بين أمرين: إما أن يُغنيَكم ويدخل النار، أو يُفقِرَكم ويدخل الجنة؟ وإن أباكم قد اختار أن يُفقركم ويدخل الجنة، إن وليِّي عليكم الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، انصرفوا عني، فانصرفوا». فجعل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يبتهل إلى الله في دعاء خاشع، يقول: «رباه، أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن أفضل ما أقول: لا إله إلا الله». ثم قال لمن حوله: «اخرجوا عني؛ فإني أرى خلقًا ما هم بإنس ولا جن، يزدادون كثرة» فخرجوا من عنده، فجعل عمر رَحِمَهُٱللَّهُ يلهج بالقراءة، يلهج بآيات كتاب الله التي طالما قام بها في الليالي والناس نيام، طالما وقف في ظلمات الليل يناجي ربه خوفًا من هذه الساعة-، فجعل يردد هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

ثم هدأ الصوت وسكن، وانقطع الكلام، فدخلوا عليه، فإذا هو رَحِمَهُٱللَّهُ قد مات، وقد أغمضت عيناه، ووُجِّه إلى القبلة[١].

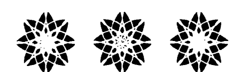
(١) انظر: موارد الظمآن للسلمان (٤/ ٩١) والمحتضرين لابن أبي الدنيا، ص (٨٤).

لقد أسلم عمر روحه لله، وفارق الدنيا بعد أن ضرب المثل في العدل والزهد، والصلاح والتقى.

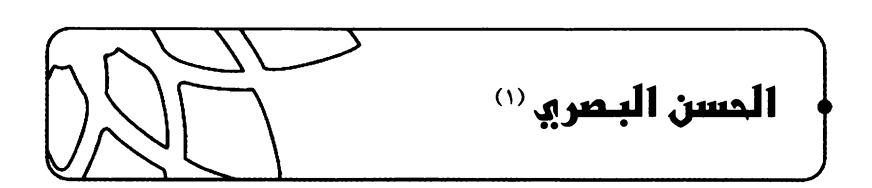
لقد مات عمر وقد حقق ذلك كله في سنتين وخمسة أشهر وبضعة أيام فقط، بهذه المدة الوجيزة صنع عمر هذا التاريخ المذهل، وجاء الفقهاء إلى زوجته فاطمة يعزونها، ثم قالوا لها: «رحمك الله إن أعلم الناس بالرجل أهل بيته؛ فحدثينا كيف كان عمر، فقالت: والله ما كان عمر بأكثر صلاة ولا صيامًا منكم، ولكن والله ما رأيت أحدًا أشد خوفًا لله من عمر! لقد كان فيما ينتهي إليه سرور الرجل بأهله، يعني حين يكون معها على الفراش- فيتذكر الأمر من أمر الآخرة؛ فيقوم ينتفض وينتحب، فأطرح عليه اللحاف رحمة به وشفقة عليه، وأنا أقول: يا ليت بيننا وبين الإمارة بعد المشرقين، والله ما رأينا خيرًا منذ دخلنا فيها»[1].

رحم الله عمر، وأعلى ذكره في المهديين، وجمعنا به في جنات النعيم.

ألا وصلوا وسلموا على إمام العادلين الزاهدين محمد بن عبد الله؛ فقد أمركم الله جل وعلا بذلك في محكم التنزيل، فقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].



(١) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ٢٣٦).



الحسن البصري[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لم يزل واحدًا أحدا، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا، أحمده سبحانه وأشكره، لا نحصي لنعمه عددا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي من الردى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله أشرف متبوع وأفضل مقتدى، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الدجى، ومصابيح الهدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان صلاة وسلامًا على مر الزمان أبدا.

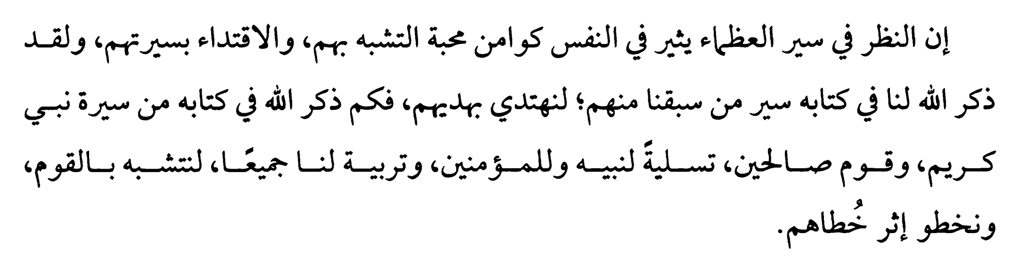
أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله ما استطعتم، وتداركوا بالتوبة النصوح ما فرطتم، ازجروا النفوس عن هفواتها، واغتنموا أعماركم بالأعمال الصالحة قبل فواتها.

أيها المسلمون: إن النفوس البشرية يصيبها الملل والسآمة والفتور، فكلَلٌ عن العمل، وفتور عن الطاعة، لكنها ما أن يحدوها الحادي، ويقودها الساعي، ويذكّرها الذاكر سِيَرَ أولئك الأفذاذ، وأخبار الأتقياء، وإخبات الصالحين، وخشوع الناسكين، إلا وتنشط ويبدأ عملها من جديد، فإذا الفتور يصبح حماسًا، والكلل صار عملًا، ولذلك قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: (سِيَر الصالحين أحب إلينا من كثير من الفقه). ذلك لأن الفقه ودراسة العلوم وحدها لا تكفي، دون مواعظ تلِين لها القلوب، أو تذكرة ترقّ لها الأسماع، فتصبح القلوب أوعية للعلم ولا عمل، وقد تصبح قاسية كالحجارة أو أشد قسوة، فما أحوجنا -أيها الأحبة- لسِيَر الصالحين وآدابهم، واتباع سيرهم، والاقتداء بسمتهم ودلّهم.

---

(١) ناصر الأحمد.



إن النظر في سير العظماء يثير في النفس كوامن محبة التشبه بهم، والاقتداء بسيرتهم، ولقد ذكر الله لنا في كتابه سير من سبقنا منهم؛ لنهتدي بهديهم، فكم ذكر الله في كتابه من سيرة نبي كريم، وقوم صالحين، تسليةً لنبيه وللمؤمنين، وتربية لنا جميعًا، لنتشبه بالقوم، ونخطو إثر خُطاهم.

وهذه الأمة -عباد الله- تملك من رجالها ونسائها رصيدًا ضخمًا قد امتلأت به كتب السير، ولكن أين الذين يقرؤون؟! وإذا وجدنا الذين يقرؤون فأين الذين يقتدون ويعملون بما يقرؤون ويسمعون؟!

أيها الأحبة.. سنتحدث اليوم عن سيد من سادات التابعين، وكلهم سادة.

مَن تلقَ منهم تقُل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

نقف اليوم مع رجل منهم قال عنه الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (كان سيد أهل زمانه علمًا وعملًا). حقًّا إنه علم من أعلام الصالحين، وإمام من أئمتهم، ورجل من رجالتهم، ما أن يُذكر اسمه إلا ويذكر الزهد، وما أن يذكر الزهد إلا ويذكر اسمه، رجل هو الزهد، والزهد هو. فمن هو هذا الجبل يا ترى؟! إنه الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

كان أبوه عبدًا من سبي ميسان بالعراق، وكان مولى لزيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأبوه عبد من العبيد، والابن سيد من سادات التابعين، إنه دين الله، كتاب الله، ذلك الذي يرفع الله به مكانة الرجل أو يضعها، وتلك هي المعايير التي كان يقاس بها الرجال، لا النسب ولا الحسب ولا المال ولا الجاه، إنه الدين: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

لقد كانت حياته تطبيقًا عمليًّا لما يقول وينصح به الناس، إن الذي رفع قدر الحسن هو عمله بعلمه وليس علمه فقط، كان على درجة من الفطنة والذكاء، والخشية والإنابة، والعقل والورع، والزهد والتقوى، ما جعله يشبه الصحابة الكرام، بل قال عنه علي بن زيد: (لو أدرك أصحاب رسول الله ﷺ وله مثل أسنانهم ما تقدّموه).

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عالمًا عاليًا رفيعًا، فقيهًا ثقة مأمونًا، عابدًا ناسكًا، كبير العلم فصيحًا، جميلًا وسيمًا، قال عنه أحد الصحابة: «لو أدرك أصحاب رسول الله ﷺ لاحتاجوا إلى رأيه».

كانت أمه (خيرة) مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وكان مولده قبل نهاية خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بسنتين، وكانت أمه تخرج إلى السوق أحيانًا، فتدعه عند أم سلمة، فيصيح جوعًا، فتلقمه أم سلمة ثديها لتعلله به، إلى أن تجيء أمه، وإذا برحمة الله تنزل على الثدي، فيدر لبنًا، فيرضع الطفل حتى يرتوي، فإذا هو يرتوي حكمة وفصاحة وتقى، فما أن شب إلا وينابيع الحكمة تنبع من لسانه، وجمال الأسلوب ورصانة العبارة وفصاحة اللسان تتحدر من كلامه.

نشأ الحسن البصري في المدينة النبوية، وحفظ القرآن في خلافة عثمان، وكانت أمه -وهو صغير- تخرجه إلى الصحابة فيدعون له، وكان في جملة من دعا له عمر بن الخطاب، فقال: «اللهم فقهه في الدين، وحببه إلى الناس». فكان الحسن بعدها فقيهًا، وأعطاه الله فهمًا ثابتًا لكتابه، وجعله محبوبًا إلى الناس.

لازم أبا هريرة وأنس بن مالك، وحفظ عنهما أحاديث النبي ﷺ، فكان كلما سمع حديثًا عن المصطفى ﷺ ازداد إيمانًا وخوفًا من الله، إلى أن أصبح من نُسّاك التابعين ومن أئمتهم، ومن وُعّاظهم ودعاتهم، وصار يُرجع إليه في مشكلات المسائل، وفيما اختلف فيه العلماء؛ فهذا أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، سُئل عن مسألة فقال: «سلوا مولانا الحسن»، قالوا: يا أبا حمزة: نسألك وتقول: سلوا الحسن؟! قال: «سلوا مولانا الحسن، فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا».

وقال أنس بن مالك أيضًا: (إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين). وقال قتادة: (وما جالست رجلًا فقيهًا إلا رأيت فضل الحسن عليه). وكان الحسن مهيبًا يهابه العلماء قبل العامة؛ قال أيوب السختياني: (كان الرجل يجالس الحسن ثلاث سنين ما يسأله عن مسألة؛ هيبة منه).

وكان الحسن البصري إلى الطول أقرب، قوي الجسم، حسن المنظر، جميل الطلعة. قال عاصم الأحول: قلت للشعبي -وهو من علماء التابعين-: (ألك حاجة؟! قال: نعم، إذا

أتيت البصرة فأقرئ الحسن مني السلام، قلت: ما أعرفه، قال: إذا دخلت البصرة فانظر إلى أجمل رجل تراه في عينيك، وأهيبه في صدرك، فأقرئه مني السلام). قال: فما عدا أن دخل المسجد فرأى الحسن والناس حوله جلوس، فأتاه وسلّم عليه. وكان الحسن صاحب خشوع وإخبات ووجل من الله، قال إبراهيم اليشكري: (ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن، وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة). وقال علقمة بن مرثد: (انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، فأما الحسن البصري فما رأينا أحدًا من الناس كان أطول حزنًا منه).

وكان يقول -أي الحسن-: (نضحك ولا ندري لعل الله قد اطّلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئًا، ويحك يا ابن آدم، هل لك بمحاربة الله طاقة؟! إن من عصى الله فقد حاربه، والله لقد أدركت سبعين بدريًّا، لو رأيتموهم قلتم: مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب)! قال مطر الوراق: (الحسن كأنه رجل كان في الآخرة ثم جاء يتكلم عنها وعن أهوالها، فهو يخبر عما رأى وعاين).

وقال حمزة الأعمى: (وكنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكي، وربما جئت إليه وهو يصلي، فأسمع بكاءه ونحيبه، فقلت له يومًا: إنك تكثر البكاء، فقال: يا بني: ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبكِ؟! يا بني: إن البكاء داعٍ إلى الرحمة، فإن استطعت أن تكون عمرك باكيًا فافعل، لعله تعالى أن يرحمك. ثم نادى الحسن: بلغنا أن الباكي من خشية الله لا تقطر دموعه قطرة حتى تعتق رقبته من النار).

وقال حكيم بن جعفر: (قال لي من رأى الحسن: لو رأيت الحسن لقلت: قد بُث عليه حزن الخلائق، من طول تلك الدمعة، وكثرة ذلك النشيج). قال يزيد بن حوشب: (ما رأيت أخوَف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تُخلق إلا لهما). وقد أرسل عمر بن عبد العزيز مرةً إلى الحسن: «أما بعد؛ عِظني وأوجِز؟» فكتب إليه الحسن: (أما بعد؛ اعصِ هواك، والسلام!)، وعن حفص بن عمر قال: (بكى الحسن، فقيل له: ما يبكيك؟! فقال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي).

لله ما أطهر هذه القلوب، وما أزكى هذه النفوس، بالله عليك قل لي: هل أرواحهم خلقت من نور؟! أم اطَّلعوا على الجنة وما فيها من الحور؟ أم عايشوا النار وما فيها من الثبور؟! أم أنه الإيمان يُكسى صاحبه فيكون كالنور؟! ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

سبحان الله، ما الذي تغيّر؟! هل لهم كتاب غير كتابنا؟! أم نبي غير نبينا؟! أم أرواح غير أرواحنا؟! أم لهم أرض غير أرضنا؟! لا والله، لكن لهم بصائر غير بصائرنا، وغايات غير غاياتنا، وهمم غير هممنا، قلوبنا تغيرت، ونفوسنا أَمِنَتْ، وأجسادنا تنعّمت، غيرتها الذنوب المعاصي، وقيدتها الأهواء والشهوات فكأنها آخذة بالنواصي، فأصبحنا لا نرى هذه الصور الإيمانية، ولا النفوس القرآنية، وصرنا نذكرها كفقير يذكر غناه! أين إخبات الصالحين؟! أين خشوع المؤمنين؟! أين دموع التائبين؟! أين أنين الخائفين؟!

أيها المسلمون: لقد كان الحسن البصري صاحب مواعظ وتذكير، ولكلامه أثر في النفوس وتحريك للقلوب. قال الأعمش: (ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها). وكان أبو جعفر الباقي إذا ذكره يقول: (ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء).

ومن كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: (إن قومًا ألهتهُم أماني المغفرة، رجاء الرحمة، حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة). وجاء شاب إلى الحسن فقال: أعياني قيام الليل -أي: حاولت قيام الليل فلم أستطعه- فقال له: (قيّدتك خطاياك).

وجاءه آخر فقال له: إني أعصي الله وأُذنب، وأرى الله يعطيني ويفتح عليّ من الدنيا، ولا أجد أني محروم من شيء، فقال له الحسن: (هل تقوم الليل؟!) فقال: لا، فقال: (كفاك أن حرمك الله مناجاته).

وكان يقول: (من علامات المسلم قوة دين، وجزم في العمل، وإيمان في يقين، وحكم في علم، وحسن في رفق، وإعطاء في حق، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وطاعة معها نصيحة، وتورع في رغبة، وتعفف وصبر في شدة، لا ترديه رغبته، ولا يبدره لسانه، ولا يسبقه بصره، ولا يغلبه فرجه، ولا يميل به هواه، ولا يفضحه لسانه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته). الله أكبر ما أجمعها من نصيحة! لو وعاها المسلم لكانت له خطبة كافية وموعظة شافية.

وقال رجل للحسن: إن قومًا يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلًا -أي يتصيدون الأخطاء- فقال: (هوّن عليك يا هذا، فإني أطمعت نفسي في الجنان فطمعت، وأطمعتها في النجاة من النار فطمعت، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلًا، فإن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم، فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم؟!) هذه -يا عباد الله- بعض أقواله، وذاك الذي سبق ذكره عنه حاله وعمله، فانظروا -رحمني الله وإياكم- كيف تطابق القول والعمل.

أما حاله مع المال فكان يقول: (والله ما أعَزّ أحدٌ الدرهم إلا أذلّه الله).

وقال بعض السلف: سمعت الحسن يقول: (بئس الرفيقان: الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقانك).

هذا هو الفقه والفطنة والعقل والنظر السليم، فالمال لا ينفع الإنسان إلا إذا فارقه، فذهب في حاجة الأهل، أو صلة للرحم، أو وقع في يد فقير محتاج لا يجد ما يسد به رمقه ورمق عياله، أو ذهب ليد مدين معسر، قد أثقلت الديون كاهله، لا يستطيع سداد ما عليه؛ فلا يدري أين يذهب، أو لبناء بيت من بيوت الله، أو كفالة طالب علم يطلب علم الشريعة ليصبح من علماء الأمة، فينفع الله به الكثير، ويهدي على يديه الجم الغفير، أو لكفالة حلقة تعليم للقرآن، أو داعية إلى الله يسيح في بلاد الله الواسعة، يدعو إلى الله ويبلغ دينه، فذلك المال -أيها المؤمنون- هو الذي ينفع صاحبه.

أيها المسلمون: توفي الإمام الحسن البصري وعمره ٨٨ سنة، ولما مات رَحِمَهُ اللَّهُ جاء رجل إلى محمد ابن سيرين فقال: مات الحسن، فترحم عليه محمد، وتغير لونه وتوقف عن الكلام، فما تكلم حتى غربت الشمس. قال الذهبي: (وما عاش ابن سيرين بعد الحسن إلا مائة يوم).

وقد وكانت جنازته مشهودة، صلوا عليه عقيب الجمعة، في غُرة رجب، فشيّعه الخلق، وازدحموا عليه، حتى إن صلاة العصر لم تُقَم في الجامع.

رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فسيح جنانه، وجمعنا وإياه في دار كرامته.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد:

أيها المسلمون: هذه سيرة رجل من رجالات هذه الأمة، وما أكثرهم، وإمام من أئمتها، وما أعظمهم، جبل من جبالها، ومنارة من مناراتها، أضاءت به الدنيا حينًا، وارتوت من معين علمه وخلقه ودينه، فلله كم لهذه الأمة من قمم شامخة، فأين المقتدون؟! ولله كم لهذه الأمة من منارات هدى فأين المهتدون؟!

لكن البلاء -معاشر المؤمنين- أننا ما عدنا نعرف القدوة الصالحة من القدوة السيئة، وما عدنا نفرق بين البطولة والبطالة، وبين أهل الرفعة وأهل السفالة، إننا اليوم -عباد الله- نعيش أزمة قدوات، لكنها والله أزمة مفتعلة، ننظر إلى قدوات ما هي إلا سراب بقيعة، يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، أما القدوات الحقيقية التي تستحق النظر والتأسي فهي حبيسة التعتيم والتجهيل، حتى إننا نرى أبناء الجيل يجهلون الكثير من رجالات هذه الأمة من الأئمة الصالحين، بل ومن الصحابة والتابعين، لا يعرفون سيرتهم وبطولاتهم، وما قدموه لهذا الدين من تضحيات، بل إنهم لا يعرفون عن سيرة نبيهم إلا القليل، ويجهلون كثيرًا مما يجب عليهم معرفته من أحكام دينهم؟!

يدخل مدرّس السيرة النبوية في المرحلة الثانوية يومًا على طلابه، فيسألهم عن أسماء أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ؟ فيجيب أحدهم: خديجة، وآخر يقول: عائشة، فيقول: أحسنتم، ثم من؟ فيسكت الطلاب، وحين يرون الحزن والاستنكار بادٍ على أستاذهم يبادر أحدهم لينقذ الموقف قائلا: آمنة! فيجيبه أستاذه: هذه أمه وليست زوجه عليه الصلاة والسلام. فيقول آخر: فاطمة يا أستاذ! فيقول: وهذه ابنته.. ثم يغير السؤال فيسألهم عن أسماء لاعبي أحد فرق كرة القدم، فيقوم أحد الطلاب ليسرد عليه أسماء جميع اللاعبين، مع الاحتياط! وليته كان فريق كرة وطني، بل أجنبي، وأسماء لاعبيه أعجمية غريبة، ومع ذلك فقد سردها دون أي خطأ أو تلعثُم، حتى إنه كان يسخر من الأستاذ حين ينطق بعض الأسماء

بطريقة غير صحيحة! والمشكلة أن هذا هو أسوأ أنواع التقليد والتبعية، حين تُحفظ أسماء لاعبي تلك الفرق، وتُعلق صورهم، ثم تشب نار العصبية بين الشباب، وتثور المشكلات والخلافات، والجدل والخصومات، إلى درجة كيل السباب والشتائم، كلٌ مع فريقه المفضل، وهذا فقط ما جنوه من هذه الرياضة، فلا هم الذين تفوقوا فيها، ولا هم الذين تركوا التعصب لأصحابها!

إن هذا الفصام النكد الذي تعيشه الأمة بين ماضيها وحاضرها، وبين رجال الأمس ورجال اليوم، سبب كبير -ضمن أسباب أخرى- أدت إلى ضعف الأمة الإسلامية، وضياع مجدها وعزها السابق.

وأما تلك القدوات السيئة فإنها تُفرض على هذه الأمة في وسائل إعلامها على أنها القدوة التي تستحق التقدير والإجلال، من فنان ماجن، أو ممثل مهرّج، أو لاعب جاهل، وهكذا من قائمة الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، ممن لا يملكون رصيدًا من النبوغ والعظمة، ولا ينتفع بهم الجيل في دين أو دنيا، إنما غاية ما أتوا به هو اللهو واللغو، وضياع الأوقات فيما لا يفيد، وزيادة الغفلات عن الحميد المجيد، سبحانه وتعالى.

وليت الأمر وقف عند هذا، بل لقد تعدى ذلك لتصبح القدوة من بلاد الكفرة أعداء الدين.

لماذا -أيها المسلمون- يعرف اليوم شبابنا الكثير عن سيرة المهرجين والمهرجات، والممثلين والممثلات، والمغنين والمغنيات، الأحياء منهم والأموات، والمصيبة أنك حين تتأمل سيرة كثير منهم، وما حفلت به مسيرة حياتهم من العطاءات الجبارة، التي يسمى أحدهم بسببها: الفنان الكبير، أو الممثل القدير، أو البطل النحرير، تجد كثيرًا منهم إنما كانت أعمالهم تصب في هدم منظومة القيم والأخلاق في الأمة، وتهييج الشهوات والنزوات، وإشاعة الفواحش والمنكرات، والتأصيل للتمرد على الأحكام الشرعية والآداب المرعية. وهل يقال غير ذلك فيما ينشرونه من مشاهد فاضحة، ومسلسلات مُنحلّة، وألبومات ماجنة، وحفلات راقصة؟ إنه ليُخشى عليهم وعلى من يروج لهم من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

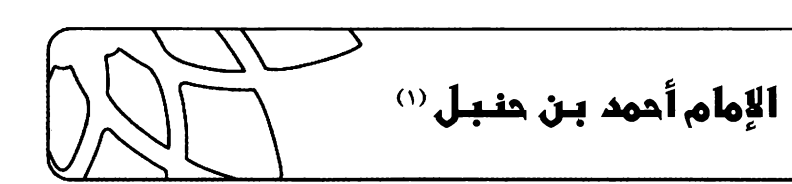
كم نتمنى لو أن هذه الأموال الطائلة التي تُصرف على توافه الإعلام ومساوئ القنوات والمهرجانات والمسلسلات صُرفت للعلوم أو التقنية أو الهندسة، لينتفع بها الناس، لكن لا يستغرب الأمر إذا علم أن من غير المسلمين من يديرون كثيرًا من تلك القنوات ويُبرزون كثيرا من نجوم الفن والمسلسلات، لغزو الجيل وتمييع أبناء الأمة وحرفهم عن مجد أسلافهم من أهل القيادة والسيادة والريادة.

ومن هنا وجب على الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات، إبراز أفضل القدوات، من الصالحين والصالحات، وغرس محبتهم في قلوب الأبناء والبنات، لترتقي هممهُم لعلهم أن ينهلوا من شمائل أهل الفضل والمروءات، وينبغوا في مختلف المجالات، ويحفظوا الساعات والأوقات، ويعمروها بالعلم والعمل، والعزم والحزم.. فإن النفوس مجبولة على تقليد من تحب، والتشبه بمن تهوى، وللناس فيما يشتهون مذاهبُ.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يأخذ بنواصينا للبر والتقوى..

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير، والسراج المنير...





الإمام أحمد بن حنبل(1)

الخطبة الأولى:

إِنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَهْدِيهِ، ونَشْكُرُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ ونَتُوبُ إِلَيْه، ونَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ، ورَفَعَ شَأْنَ العُلَماءِ عَلى مَنْ دُونَهُمْ فَلاَ يَسْتَوُونَ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الواحِدُ الأَحَدُ، الفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً ولا وَلَدًا، وأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وحَبِيبَنا وعَظِيمَنا وقائِدَنا وقُرَّةَ أَعْيُنِنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وصَفِيُّهُ وحَبِيبُهُ الَّذِي أَرْشَدَنا إِلى طَرِيقِ الخَيْرِ والهُدَى والنُّور، وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ الخَيْرَ، وأَرْشَدَهُمْ إِلى ما فِيهِ صَلاحُهُمْ وفَلاحُهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وعَلى آلِهِ وصَحابَتِهِ الطَّيِّبِينَ الطاهِرِين.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، عباد الله.. إن في تاريخ العظماء لخبرا، وإن في سير العلماء لعِبرا.

وإذا كانت أمتنا الإسلامية أمة أمجادٍ وحضارة، فإن سجلّها الحافل ازدان بكوكبة من الأئمة العظام، والعلماء الأفذاذ الكرام، هم عقد جيدها وتاج رأسها.

العلماء شموس في الفضل ساطعة، ونجوم في العلم لامعة، هم أنوار الهدى، ومصابيح الدجى، تضيء بمنهجها المتلألئ وعلمها المشرق، غياهب الظُلَم، وتبددها بأنوارِ العلوم والحكم.

---

(١) سامي بن خالد الحمود.



أيها الناس.. في تاريخ الإسلام علماء ربانيون وأئمة مهديون، وإن ارتباط الأجيال اللاحقة والناشئة المعاصرة بسلفهم من العلماء الأفذاذ، لهو من أهم الأمور الملحة في هذا الزمان، ينتفعون بسيرتهم ويسيرون على منهجهم ويقتبسون من نور علمهم وفضلهم في أعقاب زمن حيث كثرت في الفتن وطمت فيه المحن، واستحكمت فيه الأزمات، وعمت فيه الخلافات.

ولهذا قال بعض أهل العلم: (سِيَر الرجال أحب إلينا من كثيرٍ من الفقه)، غير أن لا عصمة لأحدٍ من سائر الناس، والتعصب للرجال مذموم، وخير الهدي هدي من لا ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤].

وحديثنا اليوم عن أحد الأئمة الأعلام، جبلٌ أشمّ، وبدرٌ أتم، عالم حبرٌ، وعلّامةٌ بحر، طودٌ شامخ، وعلَمٌ باذخ، يُعدّ بجدارة إمامَ القرن الثالث الهجري، فريد عصره، ونادرة دهره، قَلَّ أن يجود الزمان بمثله، إنه أئمة في إمام، وأُمة في رجل.

قال عنه شيخه الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (خرجت من العراق فما خلّفت فيها رجلًا أفضل ولا أعلم ولا أتقى لله منه)، وقال عنه الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عالم العصر، وزاهد الدهر، ومحدّث الدنيا، وعَلَمُ السنة، وباذل نفسه في المحنة، قَلَّ أن ترى العيون مثله، كان رأسًا في العلم والعمل والتمسّك بالأثر، ذا عقلٍ رزين، وصدقٍ متين، وإخلاصٍ مكين، انتهت إليه الإمامة في الفقه والحديث والإخلاص والورع، وهو أجلُّ من أنه يمدح بكلِمِي أو أن أَفُوه بذكره بفمي).

إنه إمام أهل السنة، الإمام المفضل، والعالم المبجل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، من عرفته الدنيا، ذاع ذكره وشاع صيته في الآفاق، كان إمامًا عالمًا فقيهًا محدثًا مجاهدًا صابرًا لا يخاف في الله لومة لائم، يتحمل المحن في سبيل الله والذب عن سنة رسول الله، ويقارع الباطل بحكمة نادرة، لا تزعزعه الأهواء، ولا تميد به العواصف، حتى قال عنه رفيقه الإمام يحيى بن معين: (أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد، لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد).

عباد الله: على ثرى بغداد، وفي سنة مائة وأربعة وستين للهجرة ولد الإمام أحمد، ومن أصلٍ عربيٍ أصيلٍ انحدر نسبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعلى عصامية اليُتم تربى ودرج في صباه، مما ساعد على سمو نفسه وعلو همته.. وقد كان أسمر شديد السُّمرة، ذا هيئة وهيبة، توفي والده وهو ابن ثلاث سنين، فكفلته أمه، ونشأ وترعرع في بغداد.

لم تكن بغداد في ذلك الوقت كما هي في هذا الزمان والله المستعان، كانت بغداد حاضرة العالم الإسلامي، ومهد العلوم والحضارة، تموج بأنواع الفنون والمعارف، وقد تميز عصر الإمام أحمد بنضوج الفقه وظهور المدارس الفقهية، وتميز أيضًا بعدم استقرار الحالة السياسية وكثرة الفتن، فكان توجه الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تحصيل العلم ولزوم السنة، فلم يحرض على فتنة، ولم يواجه ذا سلطان، مع قوة في الحق وحب للخلق، وذبٍ عن السنة، وتحذيرٍ من البدعة.

أقبل الإمام أحمد ينهل من العلم، فحفظ القرآن، ثم أقبل على الحديث والأثر، حتى حفظ مئات الألوف من الأحاديث، وما كتابه العظيم (المسند) إلا دليلٌ على طول باعه في علم السنة، وسعة حفظه وإتقانه، فقد جمعه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث، واستغرق في جمعه أكثر من خمس عشرة سنة، أما في الفقه فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حريصًا على فقه السنة، والعناية بالدليل والأثر، والأخذ بفتاوى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

رحل الإمام أحمد في طلب العلم إلى كثيرٍ من البلدان، حتى قال عنه ابن كثير: (لقد طاف في البلاد والآفاق ليسمع من المشايخ، وكانت له همة عالية في الطلب والتحصيل، فما ترك لحظة من لحظات شبابه وكهولته إلا حَرِص فيها على سماع حديث أو تصحيح رواية، وما قصته في سماعه من عبد الرزاق بن همام الصنعاني في مكة وسفره معه إلى بلاده مع بعد الشقة وانقطاع النفقة إلاّ دليلٌ على علو الهمة ومضاء العزيمة، حتى عده الأئمة حافظ زمانه). قال ابن المديني: (ليس في أصحابنا أحفظ منه)، وقيل لأبي زرعة: من رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ؟ قال: (أحمد بن حنبل؛ حزرت كتبه في اليوم الذي مات فيه فبلغت اثني عشر جملًا وأكثر، كلها يحفظها عن ظهر قلب).

ومع هذا العلم الجمّ فقد كان الإمام أحمد يخاف على نفسه البروز والشهرة والتصدر، فلم يجلس للتدريس إلا بعد الأربعين من عمره، وما ذاك إلا مراعاة لسن النضج والاستيثاق من العلم.

وكان من شدة ورعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يحدث إلا من كتاب، خشية الزلل، مع قوة حافظته وشدة عارضته، قيل: إنه لسعة علمه أجاب عن ستين ألف مسألة بـ(قال الله وقال رسوله) وفتاوى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ومع هذا فقد كان لا يسمح بتدوين فتاويه تواضعًا.

كانت حياته حياة زهد وقناعة، لم يكن يقبل هدايا الخلفاء والسلاطين، وكان لا يأكل إلا من عمل يده، وإذا اشتدت به الحاجة كان يؤجر نفسه للحمالين في الطريق.

عباد الله: إن من أهمّ الصفات في شخصية الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، منهجَه في العقيدة والتزامَه نهج الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة في التوحيد والصفات ونزول القرآن، وأنه كلام الله منزّل غير مخلوق، حتى أوذي في ذلك وامتُحن، وسُجن وضُرب، فصبر وصابر ولم يتزحزح عن قول الحق، بل ضرب أروع الأمثلة في الثبات على المبدأ، والصبر أمام الفتن، وذلك في فتنة القول بخلق القرآن، وقد روي أن الإمام أحمد رأى الرسول ﷺ في المنام فقال له: «يا أحمد، إنك ستُبتَلى فاصبر، يرفعِ اللهُ لك عَلَمًا إلى يوم القيامة».

بدأت أحداث المحنة بعدما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم، وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف، وقاضيه أحمد بن أبي دؤاد من زعمائهم، فاعتنق المأمون هذه العقيدة الفاسدة وهي القول بخلق القرآن، لكنه تردد في إلزام الناس والعلماء بها، وخاف من الفتنة، فأشار عليه ابن أبي دؤاد وجلساء السوء بإظهار القول بخلق القرآن، وإلزام الناس بذلك، فكتب المأمون إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم أن يجمع من بحضرته من القضاة والعلماء، ويلزمهم بالقول بخلق القرآن، ومن أبى حبسه أو عزله أو قتله. واشتعلت الفتنة في العراق، وحُبس وعُذب وقتل فيها خلائقُ لا يُحصَون.

واشتدت الفتنة، ولم يثبت فيها سوى أربعة من العلماء، الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، واثنان آخران ما لبثا أن تراجعا وقالا مثل ما قال الناس، فأمر المأمون أن

يُقبض على الإمامِ أحمدَ بن حنبل ومحمدِ بن نوح، وأن يُرسلا إليه، فأُرسلا مقيدين على بعير واحد، فأما محمد بن نوح فمات رَحِمَهُ اللَّهُ في الطريق قبل أن يصل إلى المأمون في طَرَسوس.

وبقي الإمام أحمد بن حنبل وحده، فجاءه رسول من قبل المأمون في الطريق، فقال له: إن الخليفة قد أعد لك سيفًا لم يقتل به أحدًا، فقال الإمام أحمد: (أسأل الله أن يكفيني مؤنته، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ في أثناء الطريق أن لا يريه وجه المأمون وأن لا يجتمع به)، فاستجاب الله عَزَّوَجَلَّ دعاءه، وجاء الصريخ بأن المأمون قد هلك، فأعيد الإمام أحمد إلى السجن مرة أخرى.

ثم تولى الخلافة المعتصم بعد المأمون، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد، والاستمرار بالقول بخلق القرآن، وأخذ الناس بذلك، وكان الإمام أحمد في السجن، فاستحضره المعتصم من السجن، وعقد له مجلسًا للمناظرة، وجلسوا يناقشونه في خلق القرآن، والإمام أحمد يستدل عليهم بالنصوص الواردة، ويقول لهم: أعطوني دليلًا من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وانفضَّ المجلس ذلك اليوم دون شيء، واستمرت المناظرات ثلاثة أيام، والإمام أحمد ثابت على الحق، يقولون: ما تقول في القرآن؟ فيقول: كلام الله غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، قال: وقول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن:١-٢]، ولم يقل: خلق القرآن.

وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة، فناظروه بحضرته ثلاثة أيام، وهو يدمغهم ويحجُّهم بالحجج القاطعة، فقال المعتصم: (قهرنا أحمد، عند ذلك تحدث الوشاة عند الخليفة من علماء السوء، فقالوا: سيقول الناس إن أحمد قد غلب خليفتين، فثار المعتصم، ثم أُخرج الإمام في رمضان وهو صائم، فجعلوا يضربونه ضربًا شديدًا، وأتى المعتصم بجلادين كلما ضرب أحدهم الإمام أحمد سوطين تأخر وتقدم الآخر لئلا يضعف الضرب، والمعتصم يقول: شدُّوا عليه قطع الله أيديكم، ثم جردوه من ثيابه ولم يبق عليه إلا إزاره، وصاروا يضربونه حتى يُغمى عليه، فيفيق، ثم أخرجوه ونقلوه إلى بيته، وهو لا يقدر على السير من شدة ما نزل به.. فلما برئت جراحه خرج إلى المسجد، وصار يدرس الناس، ويملي عليهم الحديث، وهدأت الفتنة).

يقول علي بن المديني: (لقد أعز الإسلام برجلين: بأبي بكر يوم الفتنة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة). ولم يكن الإمام أحمد بمعزلٍ عن الأمة والمجتمع، بل كان عالمًا عاملًا، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، يسلك مسلك الرفق والحكمة، ملتزمٌ بالطاعة، موافقٌ للجماعة.

ثم توفي المعتصم واستخلف من بعده الواثق، فحرّضه قضاة السوء، ابن أبي دؤاد وغيره، فعادت الفتنة مرة أخرى، إلا أن الواثق لم يتعرض للإمام أحمد، لكنه أرسل إليه: لا تساكنّي بأرض، فاختفى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى مدة خلافة الواثق، وهي خمس سنوات تقريبًا.

يقول حنبل بن إسحاق: (اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله يعني: الإمام أحمد فقالوا: يا أبا عبد الله، إن الأمر قد تفاقم وفشا أي: إظهار القول بخلق القرآن ولا نرضى بإمارة الواثق وسلطانه، فناظَرهم أحمد في ذلك، وقال: عليكم بالإنكار في قلوبكم، ولا تخلعوا يدًا من طاعة، لا تشقّوا عصا المسلمين، ولا تسفِكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريحَ بَرٌّ ويُستراحَ من فاجر).

وسبحان الله! ففي آخر خلافة الواثق منّ الله عليه فرجع عن القول بخلق القرآن، وكان سبب هدايته: (أنه جيء إليه بالشيخ عبد الرحمن الأَذْرُمِي مقيدًا بالأغلال، في جملة من يؤتى بهم، فيُكرههم على القول بخلق القرآن، فإن أبوا قتلهم. فلما دخل الأذرمي على الواثق، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلمك الله، فقال له الشيخ: إن الذي أدبك ما أحسن تأديبك -يشير إلى ابن أبي دؤاد فهو شيخه، وكان عنده حاضرًا- قال الشيخ: إن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء:٨٦]، وأنت يا أمير المؤمنين ما حييتني بأحسن منها ولا رددت بمثلها. فتعجب الخليفة، وأمر ابن أبي دؤاد أن يناظر الشيخ، فقال له ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: ما أنصفتني يا ابن أبي دؤاد، أنا الذي أبدأ بالسؤال. فقال الخليفة: دعه يسأل، فقال الشيخ: ما تقول أنت في القرآن يا ابن أبي دؤاد؟ قال: مخلوق. فقال الشيخ: مقالتك هذه التي حملتَ الناس والخلفاء عليها، هل قالها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر أم لم يقولوها؟ فقال ابن أبي دؤاد: ما قالوها. فقال له: هل كانوا جاهلين بذلك أم عالمين؟ قال: كانوا جاهلين بها. فقال الشيخ: سبحان الله! شيء يجهله رسول الله وأبو بكر وعمر، تعلمه أنت يا ابن أبي دؤاد؟! فقال: لا، بل كانوا عالمين. فقال الشيخ: هل

وسعهم أن يسكتوا أم أنهم حملوا الناس على ما حملتَهم عليه، فقال: لا بل سكتوا، فقال الشيخ: شيء وسع رسول الله وأبا بكر وعمر ما وسعك أنت؟! فسكت ابن أبي دؤاد، وقام الواثق فاختلى بنفسه في غرفة، ثم صار يفكر ويردد قول الشيخ: شيء وسع رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر ما وسعك أنت؟ ثم خرج وأمر بإطلاق سراح الشيخ، ورجع عن القول بخلق القرآن، ولم يمتحن أحدًا بعدها، وارتفعت الفتنة عن الأمة بحمد الله).

ثم توفي الواثق، وتولى بعده المتوكل، فأعلن السنة، وكتب إلى العلماء في الآفاق: (بأن يمنع الناس من الخوض في هذه المسألة، وأصدر إعلانًا عامًا في كافة أنحاء الدولة، نهى فيه عن هذه البدعة، فعم الفرح في كل مكان، وزالت بذلك هذه المحنة، وانتصر الحق على الباطل، ولهذا لما قيل للإمام أحمد أيام المحنة: يا أبا عبد الله، انتصر الباطل على الحق، قال: والله ما انتصر الباطل على الحق).

لقد أوذي أحمد بن حنبل وسُجن، وضُرب وأهين، فلم يتغير له رأي، ولم تلِن له قناة، ولم يتزحزح عن الحق، مُسطّرًا أعظم الدروس للعلماء والمصلحين في كل زمانٍ ومكان.

لم يتأثر بالأهوال التي حاطت به، ولا بالمؤامرات التي أحيكت ضده، ولم يُبال بالسياط التي كانت تلهب ظهره، ولا بالحديد الذي كبل فيه، ولا بالسجن الذي أودع به، فكل ذلك هيّنٌ ما دام في سبيل الله، وصيانة كتابه من تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

لقد وضع الله له القبول في قلوب العباد، وطار ذكره في الآفاق والبلاد، ودعا له المسلمون وتقربوا إلى الله بحبه، وهو مع هذا كان في تواضع جم، يفر من الشهرة، ويخاف على نفسه الاستدراج.

عباد الله.. تلكم هي مقامات العظماء، ومناهج العلماء الحكماء، وهي القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لنا ولأبنائنا.. نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الاقتداء بهم، والتأسي بأخلاقهم، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على عباده الذين أصطفى، أما بعد:

عباد الله: وفي صفحات أخرى من حياة هذا الإمام الهُمام، تشرق صفحة التألُّه والعبادة، وتزكية النفس بالصلاة والذكر، والدعاء والتلاوة، وفي صفحة أخرى يتجلى الخلق الرفيع والسجايا الحميدة، زهدٌ وحياء، وتواضعٌ وورع، وتعففٌ وكرم، حبٌ للفقراء والمساكين، وبعدٌ عن الشهرة وأبواب السلاطين.

لقد كان أحمد بن حنبل صاحب قيام ليل، وكثرة نافلة، فقد كان يصلي في كل يوم وليلة ثلاثِمِئة ركعة تطوعًا، فلما ضُرب وحُبس ومرض، كان يتحسر بعدها أنه لا يصلي إلا مئةً وخمسين ركعة.. لله درُّهم كيف كانت هممهُم وهمومهم!

قال ابنه عبد الله: (كان أبي أحرصَ الناس على الوِحدة، لم يره أحدٌ إلا في المسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق، ولا يدع أحدًا يتبعه).

كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ كثير العفو عمن يسيء إليه، أساء إليه رجل، ثم عاد إليه نادمًا، وقال له معتذرًا: يا أبا عبد الله، إن الذي كان مني على غير تعمد، فأنا أحب أن تجعلني في حل، فقال الإمام أحمد: (مازالت قدماي من مكانها حتى جعلتك في حِلٍّ).

وحينما نقلب صفحة أخرى من حياة هذا الإمام نرى التميز في الجانب الأسري وتربية الأولاد، فلم تشغله هموم العلم والدعوة عن أسرته وحسن العشرة لأهله وزوجه، فقد كان من خير الناس لأهله، يقول الإمام عن نفسه: (تزوجتُ أم صالح فأقامت معي ثلاثين سنة، ما اختلفت أنا وهي في كلمة واحدة! ولقد خلّف الإمام أحمد وراءه أبناءً بررة، وعلماء سفرة، كانوا من ثمرات هذا البيت الصالح).

وفي صفحة أخرى من حياته يظهر إنصافه للمخالف، وسلامة صدره للمسلمين، وتقديره لأهل العلم وإن اختلف معهم، ولما عتب عليه بعضهم وأرادوا إثارة الخلاف بينه وبين الشافعي قال: (مَهْ -أي: كُفّوا- ما رأت عيناي مثل الشافعي، وقال: إني لأدعُو الله للشافعي في صلاتي منذ أربعين سنة).

وفي سنة مِئَتين وإحدى وأربعين هجرية، أصيب الإمام أحمد بالحمّى، وحضرته الوفاة، يقول ابنه عبد الله: (لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده، فجعل يُغشى عليه ثم يُفيق، ثم يفتح عينيه ويقول بيده: لا بعد، لا بعد، لا بعد، ثلاث مرات، ففعل هذا مرة ثانية وثالثة، فلما كانت الثالثة قلت له: يا أبتِ، إنك قلت كذا وكذا، فقال: ما تدري، هذا إبليس قائم حذائي عاضٌّ على أنامله يقول: فُتَّني يا أحمد، وأنا أقول: لا بعد حتى أموت. قال صالح: فجعل أبي يحرك لسانه بالشهادة حتى توفي رَحِمَهُ اللَّهُ، وله سبعٌ وسبعون سنة وأيام. وانتشر الخبر في بغداد، فكان يومًا كئيبًا حزينًا على أهل بغداد).

وقد شهدت جنازته جمعًا غفيرًا، قيل إنه لم يُشهد مثله في الجاهلية والإسلام، حتى بلغ من حضر جنازة الإمام أحمد سبعمائةَ ألف من الرجال، وستين ألفًا من النساء، هذا سوى من كان على السفن في الماء، حتى قيل: إن بعض غير المسلمين أسلموا ذلك اليوم لما رأوا هذا الجمع الكبير وهذه الجنازة المهيبة.

وصدق الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عندما كان يقول في حياته: (قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز).

تلكم أيها الأحبة صفحاتٌ ناصعة، وإشارات سريعة من حياة هذا الإمام الجليل، وما أروع الوقوف مع أمثال هذا الإمام، كأبي حنيفة ومالك والشافعي، والبخاري، وابن تيمية، وابن القيم، وصلاح الدين، وغيرهم من الأئمة العلماء، والقادة النبلاء، والصالحين الأتقياء، رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعًا ورضي عنهم.

فمن الجدير أن نقف مع سيرهم، وننهل من شمائلهم، ونربط الجيل بأخلاقهم وصفاتهم التي ورثوها من المنهج النبوي، واستقوها من معين الكتاب والسنة، لعلنا أن ننهض بما نهضوا به، ونتّصف بما اتصفوا به، من علو الهمة، وسمو النفس، والتسامي على الأهواء والشهوات، والترفُّع عن السفاسف والتُّرَّهات، فإن في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب، وفي تأمل أحوالهم إصلاح للأبناء والشباب.

أولئك آبائي فجِئني بمثلهم ... إذا جمعَتنا يا جريرُ المجامعُ

ألا وصلوا وسلموا رحمكم الله على خير البرية، وأزكى البشرية...





من أيام الله [1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله المُتفرِّد بخلقِه وأمرِه، المُتوحِّد في عزِّه وقهرِه، لا إله إلا هو المُنتقِمُ ممن خالَفَه، والمُهلِكُ لمن آسَفَه، أحمدُه سبحانه حمدَ شاكرٍ لما أولاه، المُعترِف بما امتنَّ به وأسدَاه.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ حقٍّ ويقينٍ لا شكَّ فيه، وقولِ صدقٍ وجزمٍ لا ريبَ يعتَريه، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه ألَّف الله به بين القلوب المُتنافِرة، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى عِترتِه الطاهِرة، وعلى أصحابِه الأنجُم الزاهِرة، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مزيدًا إلى يوم البعثِ في الآخرة.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها المؤمنون: أقف معكم في هذه الجمعة مع بعض أيام الله، أيام حصلت فيها انتصارات أهل الحق، فإن في ذكرها والوقوف عندها إحياءً للنفوس، وملئ للقلب بالتفاؤل، ويجعلها توقن أن النصر حليف المؤمنين، وأن جند الله لن يزالوا غالبين، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

كم نحن بحاجة لتذكُّر بعض أيام الله خصوصًا في هذه المرحلة من عمر الأمة، التي تكالب عليها الأعداء وتداعت عليها الأمم من كل حدبٍ وصوب.

---

(١) ناصر بن محمد الأحمد.

إن تاريخنا الإسلامي مفعم بالذكريات، وفي تاريخنا أخبار لرجال عظماء مخلصين، من علماء وقادة ومجاهدين، كانت لهم مواقف بطوليه، ومآثر نضالية، سطّرها التاريخ، وحفظتها الكتب.

فاقرأ التاريخ إذْ فيه العبَرْ ضلّ قومٌ ليس يدرون الخبَرْ

في أواخر القرن الرابع الهجري كانت العاصمة بغداد تئن من وطأة البويهيين، أولئك الجفاة الذين انحدروا من إقليم الديلم في شمال إيران، وتسلطوا على الخلافة فلم يعد للخليفة من أمر إلا المظاهر والشكليات، في هذه الفترة التي بدأ ظل الإسلام يتقلص في بغداد، كان الإسلام يزدهر ويتقدم في منطقة خراسان وأفغانستان، وهذا مصداق حديث رسول الله ﷺ: «أمتي كالمطر لا يُدرى آخره خير أم أوله»[1]، فمن وعود الله لهذه الأمة أن لا يستأصلها عدو، وأن يكون فيها الخير والظهور حتى تقوم الساعة، فمن عجائب تاريخ الإسلام أنه كلما تقهقر في جهة تقدم في أخرى، وما أن يتخلى عنه أناس إلا سخر الله له آخرين، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، ففي فترة الضعف التي كانت تعيشها الخلافة في بغداد نبتت قوة في (غزنة) جنوب غربي كابل من بلاد أفغانستان على يد أسرة تركية عميدها (سبكتكين) الذي بدأ الجهاد في أرض الهند، ثم جاء ابنه محمود الذي أظهر كفاءة عالية وشخصية قوية، فجمع إقليم خراسان كله تحت إمرته، ووصل إلى الري وأذربيجان، وبارك الخليفة القادر بالله هذه السلطة السنّيّة القوية، ووجدها سندًا ضد البويهيين.

كان السلطان محمود من أولئك الملوك المتدينين الذين يهتمون بالعلم ويقربون العلماء، ولاشتهار أمر السلطان في العالم الإسلامي حاولت الدولة الفاطمية الرافضية في مصر أن تستميله إليها، فأرسلت أحد دعاتها ليكلم السلطان، ولكن السلطان أدرك مغزى دعوتهم، وقتل هذا الداعية، وأهدى بغلته التي كان يركبها إلى شيخ مدينة (هرات) وقال: (كان يركبه رأس الملحدين، فليركبه رأس الموحدين).

---

(١) صحيح الجامع (٥٨٥٤).

إن أعظم مناقب السلطان محمود هو حبه للجهاد، فكان يغزو كل سنة، وكانت وجهته الهند، وقد وُفّق لفتح أقاليم كبيرة، وتعرف أهلها على الإسلام، ثم إنه بلغ السلطان أن الهنود يقولون: إن الذي خرب بلاد الهند وأضعفها هو غضب الصنم الكبير على سائر الأصنام، وكانوا يقولون عن هذا الصنم: إنه يرزق ويحيي ويميت، ويحجون إليه، وقد تجمّع عند هذا الصنم مال كثير مما يقدمونه من قرابين، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية، وخدمه من البراهمة ألف رجل، وبين قلعة هذا الصنم وبلاد المسلمين مسيرة شهر، ومفازة قليلة الماء، فعزم السلطان محمود واستخار الله في غزو هذا الوثن، وسار يطوي القفار ومعه ثلاثون ألف فارس وخلقٌ من الرجّالة، وخرج ثاني يوم الفطر سنة ٤١٦هـ، ووصل إلى القلعة في الرابع عشر من ذي القعدة، فلما رأى الهنود تصميم السلطان بذلوا له أموالًا جزيلة ليترك لهم هذا الصنم، وأشار بعض الأمراء معه على أخذ الأموال وإبقاء هذا الصنم لهم، نظرًا لضخامة ما بذله الهنود من الأموال الجزيلة، لكن السلطان رفض قائلًا: إني فكرت في هذا الأمر فرأيت أنه إذا نُوديت يوم القيامة: أين محمود الذي كسر الصنم؟ أحب إليّ من أن يقال: الذي ترك الصنم لأجل ما ينال من الدنيا.. ! وكان على الصنم من الحلي والجواهر ما لا يوصف، فدخل السلطان وزعزع الصنم وضربه بالمعاول حتى خر صريعًا، ثم أحرقه وفرّق ما كان عليه وحوله من الأموال على قادته وجنوده، ثم عاد إلى قريته غزنة من بلاد أفغانستان في صفر سنة ٤١٧هـ. ثم أرسل السلطان محمود البشارة بهذا الفتح إلى الخليفة في بغداد، يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند، ويقول: (إني فتحت قلاعًا وحصونًا وأسلم زهاء عشرون ألفًا من عباد الأوثان). فرحم الله هذا السلطان، وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين، توفي ودفن في أفغانستان، كان فتحه وكسره للأصنام يومًا من أيام الله.

إن هذا الدين لا يحابي أحدًا، ولا يُهزم أبدًا، إن تخلى عنه أهل الشرق أقامه الله على أيدي أهل الغرب، وإن تخلى عنه أهل الشمال أقامه الله على أيدي أهل الجنوب.. وهكذا، من كان يطرأ على باله أن تظهر قوة ودولة في أفغانستان بعد أن كانت قيادة الأمة في بغداد، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

ولننتقل من الشرق إلى الغرب:

في القرن الخامس الهجري انفرط عقد وحدة الأندلس وانقسمت إلى ممالك صغيرة، كل مدينة تُعتبر دولة تحكمها أسرة من الأسر الأندلسية، كما قال الشاعر:

مما يُزهّدني في أرضِ أندلسٍ	ألقابُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها	كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولةَ الأسدِ

وكان أوسعهم مملكةً وقوة: محمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، وقد تتعاون هذه الدول أحيانًا أمام الزحف الآتي من الشمال من نصارى إسبانيا، وقد يختلفون ويستعين بعضهم بالعدو لمحاربة أهل ملّته وجيرانه، فالوضع العام لا يدعو إلى التفاؤل، أرسل له أمير أحد الممالك: (أيها الملك إن الروم إذا لم تُغز غزت، ولو تعاقدنا مخلصين فَللنا حدّهم)، وكان ملك النصارى قد قوي أمره وبدأ يزحف على المدن الإسلامية، وكانت طُليطلة من أول مدن الأندلس العظيمة التي أخذها الإسبان صلحًا من القادر بن يحيى بعد حصار دام سبع سنين، وكان ذلك في سنة ٤٧٨هـ؛ وبسبب تفرق ملوك الطوائف فإنهم كانوا يدفعون ضريبةً لملك النصارى، وكان ابن عباد يدفع الضريبة أيضًا، ولكن ملك النصارى لم يرض، وطلب المزيد من القلاع والحصون، وأرسل وفدًا كبيرًا إلى ابن عباد وعلى رأسهم يهودي، وفرض شروطًا مُذلّة واستفزازية، فضرب ابن عباد رئيس الوفد على وجهه حتى برزت عيناه، ورفض هذه الشروط، وبدأ كل فريق يستعد للقتال.

سمع علماء قرطبة بما جرى ورأوا قوة النصارى وضعف المسلمين واجتمعوا وقالوا: (هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها النصارى، ولم يبق فيها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت الأندلس نصرانية كما كانت، وساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد ابن أدهم فقالوا له: ألا تنظر ما فيه المسلمون من الذلة وعطائهم الجزية، وقد رأينا رأيًا نعرضه عليك، قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب أفريقية تونس وما جاورها، ونبذل لهم فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله، فقال: المرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا، قالوا له: فكاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، واطلب منه ليعبر إلينا،



وقدم عليهم المعتمد بن عباد وهم يتكلمون حول خطر النصارى فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه، فقال له ابن عباد: (أنت رسولي إلى ابن تاشفين)، فسار ابن أدهم وأبلغ الرسالة إلى ابن تاشفين وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف.

أدرك ابن عباد ضرورة حشد كل القوى لمواجهة نصارى الشمال، وعندما علم بعض ملوك الأندلس بعزم ابن عباد طلب العون من ابن تاشفين خوفوه وقالوا: إذا دخل ملك المغرب الأندلس أخذها وتملّكها، فقال ابن عباد قولته المشهورة: (لأن أرعى الإبل عند ابن تاشفين، خير لي من أرعى الخنازير للنصارى)، يقصد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه مستعد للتضحية بملكه ولو بلغ به الأمر أن يرعى الإبل عند ابن تاشفين، فإن هذا خير من أن يتغلب النصارى على بلاد الأندلس ويسوموا المسلمين سوء العذاب.

عندما التقى ابن تاشفين برسول ابن عباد، وكان في مدينة (سَبتة)؛ وافق وأمر فورًا عساكره بالعبور إلى الأندلس ثم طلب بقية الجيش من مراكش حتى إذا تكاملت كل قواته عبر المضيق، والتقى بابن عباد الذي أكرمه إكرامًا يليق به، وأمر أن توضع الجزيرة الخضراء جنوبي الأندلس تحت تصرفه، وتسامع المسلمون في الأندلس بوصول ملك المغرب فخرجوا من كل البلاد يطلبون الجهاد في سبيل الله، لقد كان يومًا من أيام الله، وهكذا النصارى في كل زمان ومكان لا يصمدون لو اجتمع لهم المسلمون.

ولما علم ملك النصارى بوصول ابن تاشفين وأن معه جيش كبير، جمع فرسانه وسار من طليطلة، وكتب إلى أمير المسلمين يُغلظ له القول ويخوفه بما عنده من القوة والعدد، فكتب إليه أمير المسلمين: (الذي يكون ستراه)، فلما قرأها ارتاع لها، وعلم أنه بُلي برجل له عزم وحزم.

قام المعتمد بن عباد بتنظيم كافة الإجراءات واتخاذ كافة التدابير مثل تنظيم الحراسة، ومراقبة تحركات العدو، وأشرف بنفسه على كل ذلك، وكان عنده قوات استطلاع منظمة، أمكن لها التوغل حتى قلب معسكر النصارى، واستطاعت إنذار ابن عباد في الوقت المناسب.

وفي فجر يوم الجمعة منتصف رجب عام ٤٧٩هـ بدأت معركة (الزلاقة)، وتلقى ابن عباد وفرسانه الصدمة الأولى، وأحاطت جيوش النصارى به من كل مكان، وكان عسكر

ابن تاشفين يبعد قليلًا، ولم يلتحم مع جيش الأندلس بعد، وصبر ابن عباد وظهرت شجاعته وأثخنته الجراح وطُعن في أحد جنبيه، وعُقر تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قُدّم له آخر، ثم وصلت طلائع جيش ابن تاشفين، واقتحمت جيش العدو، وخففت الضغط عن ابن عباد فاستعاد ترتيب جيشه، والتقى مع ابن تاشفين وقاتل الطرفان قتالًا شديدًا، وصبر المسلمون صبرًا شديدًا، وعندما حان وقت الزوال، ظهرت بوادر النصر وولى النصارى ظهورهم، واستحرَّ فيهم الطعن والقتل، ونصر الله دينه، وكان نصرًا مؤزرًا كبيرًا، واستشهد في هذا اليوم جماعة من كبار العلماء؛ فقد كانوا يقاتلون في مقدمة جيش المسلمين.

لم يرض ابن تاشفين أن يأخذ شيئًا من الغنائم وكتب بالفتح إلى بلاد المغرب وإلى مسلمي شمال أفريقيا فعمت الفرحة في جميع البلاد وأخرج الناس الصدقات شكرًا لله تعالى.

شكر ابن عباد ابن تاشفين على نجدته للإسلام والمسلمين، وأعجب ابن تاشفين بصبر ابن عباد وحسن بلائه، وعاد أمير المسلمين قافلًا إلى بلاده، وكان حقًا يومًا عظيمًا من أيام الله أعز الله فيه دولة الإسلام، وأذل فيه دولة النصارى.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، وجعلني وإياكم بآياته من العاملين.

أقول ما قلت، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، وأستغفر الله إنه كان غفارًا...

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الأيام والوقائع العظيمة في تاريخ الإسلام كثيرة، وإن ما فيها من الأحداث والعبر عجيبة مثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١]، ويقول تعالى لنبيّه: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم:٥].. وقال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

أيها الأحبة: كانت فرنسا وبريطانيا تتنافسان للسيطرة على البحار والمواقع المهمة في العالم، ومن هنا جاءت فكرة القائد الفرنسي نابليون لغزو مصر حتى يقطع الطريق على بريطانيا في السيطرة على البحر المتوسط، فاستطاع نابليون دخول مصر بعد مقاومة شعبية من أهالي الإسكندرية، وعندما اقترب من القاهرة انهزم المماليك في أول معركة اصطدموا بها مع الفرنسيين؛ لأنهم كما وصفهم المؤرخ الجبرتي حريصون على حياتهم ورفاهيتهم، معتزون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مختلفة آراؤهم.

دخل نابليون القاهرة وزين له جواسيسه أن يكتب منشورًا يتظاهر فيه بحب الإسلام لعله يخدع أهل مصر، لكن رغم أنه فعل إلا أنه لم يصدقه أحد.

فشلت القيادة السياسية العسكرية في مقاومة الغزو الفرنسي فانتقلت قيادة الأمة إلى علماء الأزهر، فلما عرف نابليون هذا الأمر استدعاهم، فلما استقروا بين يديه نهض وبيده العلم الفرنسي، فوضعه على كتف الشيخ الشرقاوي كبير العلماء، فرمى به الشيخ على الأرض، فقال الترجمان: قصده تعظيمكم بوضع هذه الشارة وبذلك يعظمكم الناس، لكن الحيلة لا تنطلي على مثله.

تحرك العلماء وقادوا الثورة ضد الفرنسيين، وعمت هذه الثورة كل المناطق شمالي القاهرة، وسمع أهل الحجاز بدخول الفرنسيين مصر فقام أحد العلماء وهو الشيخ الكيلاني وكان مجاورًا بمكة يحث الناس على مساعدة إخوانهم، فقَدِم منهم ستمائة من المجاهدين، وانضم إليهم أهل ينبع وجملة من أهل الصعيد، وقاوموا الفرنسيين في جنوب مصر.

فوجئ نابليون بهذه الثورة فأمر بأن تدك المدفعية الجامع الأزهر وما حوله من الأحياء؛ لأن الأزهر كان يمثل قيادة الأمة، واستمر الضرب في منتصف النهار وحتى المساء؛ وفي اليوم الثاني دخل جنود فرنسا الأزهر وهم راكبون الخيول، وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة، ونهبوا الأواني ورموا المصاحف على الأرض، وأعدم نابليون ثلاثة عشر من علماء الأزهر، منهم الشيخ أحمد الشرقاوي وعبد الوهاب الشبراوي وغيرهم، رَحِمَهُمُ اللَّهُ وتقبّلهم.

رجع نابليون إلى فرنسا، وقامت ثورة ثانية في القاهرة يقودها علماء آخرون، وقاوم الشعب المصري مقاومة كبيرة، واستطاعوا إنشاء المصانع لإصلاح الأسلحة وصنع المدافع، وأقدم طالب أزهري من مدينة حلب على قتل القائد الفرنسي (كليبر)، فرحل بعدها الفرنسيون بعد أن احتلوا مصر فقط لمدة ثلاث سنوات؛ لأنها كانت جحيمًا عليهم.

إنه يوم عظيم من أيام الله، يشبهه أيامٌ عظام، وأحداث ضخام، ندرك من خلالها حقيقة أعداء الله الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧]، لا بد من التذكير بأخلاقيات قوم لا يألونكم خبالًا، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة..

ليست أحداث ليبيا بعيدة عن أحداث مصر، وكيف كان احتلال إيطاليا، وما كان لعمر المختار معها من أيام، وكذلك أحداث الجزائر لم تكن بعيدة عن ليبيا ولا عن مصر، وكيف أن الفرنسيين أيضًا فعلوا الأفاعيل، ولم يدّخروا جهدًا في إعمال آلة القتل في الناس بدون أدنى رحمة، لقد كانوا يتصيدون الناس للمتعة، لا يفرقون بين مدني وعسكري، ولا بين مقاتل وأعزل، وبين شاب وشيخ كبير، وطفلة وامرأة عجوز، ولا زالت الفيديوهات والصور المنشورة المشهورة تحتفظ بأبشع المَشاهد التي لا يتحمل رؤيتها المُشاهد، ولقد كانت حصيلة هذا الغزو قتل الملايين من أبناء هذا الشعب المسلم المضطهد.

ويا سبحان الله! نجد منهم اليوم من يتقوّل على الفتوحات الإسلامية، التي شهد لها المؤرخون الغرب قبل غيرهم، بأنها أَنزَهُ الحروب عبر التاريخ، لا سيما حين تُقارن بغيرها، سواء في عدد القتلى، أو في معاملة الجيوش الإسلامية لأهل البلاد التي يدخلونها.

أيها الناس: إن هذه الأمة تمرض، لكنها لا تموت، وتخبو لكنها لا تنطفئ، وإن دين الله باقٍ ما بقي الليل والنهار، وإن الله مُتمُّ نوره ولو كره الكافرون، وسيُظهره على الدين كله، ويجعل العاقبة لأهله.

ولكن الجاهلية المنظمة لا يغلبها إلا إسلام منظم، فعلى الأمة أن تستفيق من غفوتها، وتستعيد مكانتها، وتُعلم أبناءها كل ما من شأنه أن يرفع شأنها ويعلي قدرها بين الأمم، العلم العلم، والأدب الأدب، والأخلاق الأخلاق، ابنوا الأجيال، وربُّوا الرجال، واصنعوا الأبطال، وانهضوا بهم علمًا وعملًا، قولًا وفعلًا، أين يقضي الشباب أوقاتهم؟ وماذا يتعلم الصغار من والديهم ومعلميهم؟ كيف تعلو أمةٌ أضاعت شبابها بين شهوة وشبهة؟ وكيف ترتقي أمةٌ غرقت فتياتها بحب المعازف والملاهي، والانشغال بما لا ينفع دينًا ولا دنيا؟ لا بد من النهوض بالأمة في جميع مجالاتها لتتفوق على أعدائها، فلم يعد هناك جدوى من الجهود الفردية، ولا من العبثية والفوضوية، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦].

انهضوا بأمتكم، أعدّوا المعلم تستطيعوا إعداد الأجيال، وأعدّوا الأمهات تتمكنوا من صناعة الأبطال، واهتموا بأوقات الشباب تبلغوا الأسباب، وتعانقوا بهم السحاب، نظّموا الأولويات، واستغلوا الأوقات، واحشدوا الطاقات، واشحذوا الهمم لصعود القمم العاليات.. فإنّ العدو لا يرحم أمةً ضيّعت أوقاتها، وأهملت تعليمها، وفتنت شبابها، باللهو واللغو، والطرب والصخب.. يقول أحمد شوقي:

قُمْ للمعلّمِ وَفِّهِ التبجيلا ... كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا
أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي ... يبني وينشئُ أنفسًا وعقولا
ربُّوا على الإنصافِ فتيانَ الحِمى ... تجدوهمُ كهفَ الحقوقِ كُهولا
فهوَ الذي يبني الطباعَ قويمةً ... وهوَ الذي يبني النفوسَ عُدولا
وإذا المعلّمُ لم يكنْ عدلًا مشى ... روحُ العدالةِ في الشبابِ ضئيلا
وإذا المعلّمُ ساءَ لحظَ بصيرةٍ ... جاءتْ على يدِهِ البصائرُ حُولا

وإذا أصـــيبَ القـــومُ في أخلاقِهـــمْ فـــأقمْ علـــيهم مأتمًـــا وعـــويلا

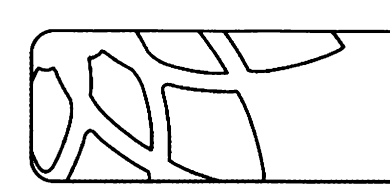
وإذا النســـاءُ نشـــأنَ في أُمّيَّـــةٍ رضـــعَ الرجـــالُ جهالـــةً وخمـــولا

لـــيسَ اليتـــيمُ مـــن انتهـــى أبـــواهُ مـــن هـــمِّ الحيـــاةِ، وخلّفـــاهُ ذلـــيلا

إنَّ اليتـــيمَ هـــوَ الـــذي تلقـــى لَـــهُ أمًّـــا تخلّـــتْ أو أبًـــا مشـــغولا

هذا وصلّوا وسلّموا على النبي الهادي، والبشير الحادي...





استقرار البيوت[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله خلقَ وأمَر، وملكَ فقهَر، وأراد فقدَّر، أحمده سبحانه وأشكرُه وهبَ وأعطى، وأغنَى وأقنَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمدُ في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه صفوةُ الأخيار وقُدوةُ الأبرار، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابِه أهل الفضل والتُّقى، ما وهَنوا لما أصابَهم في سبيل الله وما ضعُفُوا وما استكانُوا، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، فالتقوى وصية الله للأولين والآخرين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

عباد الله: ما مِنْ أَحَدٍ إلا وينشد الاستقرارَ له ولأسْرته، وَيَتَمَنَّى أن تُرَفْرِفَ السعادةُ على بيتِه، فينشأ الأولادُ في جوٍّ تَسُودُه المحبَّة والاحترامُ، فيؤثِّر ذلك في أخْلاقِهم، وفي تعامُلهم فيما بينهم، وفي تعامُلهم مع أهْل حيِّهم وأقاربهم.

والرجلُ قد شَرَّفَهُ الله تعالى وكلَّفَهُ بالقوامة على أهْل بيته، فهو ربان السفينة، فبالصبرِ والحكمةِ وترسُّم هدْي النبي يَعْبُر بأسرته - بإذن الله - إلى برِّ الأمان.

فمِن أسباب استقرار الأسْرة: الاحترامُ المتبادَل بين الزوجَيْنِ.

ومما يزيد الألْفة بين الزوجَيْن: الترفُّق بالزوجة ومناداتها وتكْنيتها بما تُحِب من الكنى، وتلقيبها بالألْقاب الحسنة التي فيها ميزة على غَيْرِها منَ النساء؛ مِن صلاح دين، أو حُسْن

(١) أحمد الزومان.

خُلُق، أو زيادة جَمال، أو حُسن تدْبير في بيتها، أو غير ذلك مما تمْتاز به عنْ غيرِها مـن النسـاء، وترخيم اسمها عند ندائِها، وذلك بحذْف أواخِر الاسْم؛ تمْليحًا لهـا، وإظْهـارًا لقَـدْرِها عنـد زَوْجِها؛ فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قال رسـول الله ﷺ: «يـا عـائش، هـذا جبريـل يُقرئـك السلام»، قلت: «وعليه السلام ورحمـة الله، قالـت: وهـو يـرى مـا لا نـرى» رواه البخـاري (٦٢٠١)، ومسلم (٢٤٤٧).

فالعربُ تُرخِّم المنادَى لأغراضٍ بلاغيةٍ، منها: تَمْليح الاسـم، فيُستبعد مـنَ المـرأة حينـما تسمع الكلام الطيب من زَوْجِها أن تُسْمِعه كلامًا يسوءُه؛ بل غالبًا تُسمعه خـيرًا مما سـمعتْه منه، وهذا الكلامُ الطيب الذي يزيد الألْفة والمحبَّة بين الزوجَيْن، ويَحُول بين كثير من المشاكل التـي قـد تقـع بـين الـزوجين؛ بسـبب الملاسَـنة - فهـذا الكـلام الطيـب عبـادةٌ وقربـة يؤجَر عليه الزوجان.

أيها الناس: حينما تجْتهد المرأةُ في عملِها في البَيْت، ثم تخفـق في صـنْعة طعـام، أو تـدريس لولد، أو علاج مشكلة، أو غير ذلك، فليس مـن الحكمـة إظهـار الامتعـاض ونقْـدها؛ بـل الأفْضَل التغاضِي عن هذا الخطأ؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما عاب النبي ﷺ طعامًا قـط، إن اشتهاه أكله وإلا تَرَكَهُ»[1].

لكن لو سألتِ المرأةُ واستفسرتْ، بيِّن لها الخطأ بأُسْلوب لا يَجْرح مشاعِرها؛ فحينما امتنع النبيُّ ﷺ عنْ أكل الضبِّ، سألَهُ أصحابه، فبَيَّنَ لهم سبب تَرْكه.

فعن عبد الله بن عباس، قال: دخلْـتُ أنـا وخالـد بـن الوليـد مـع رسـول الله ﷺ بيـت ميمونة، فأُتي بضب محنوذ، فأَهْوى إليه رسول الله ﷺ بِيَدِه، فقال بعض النسوة اللاتي في بيت ميمونة: أخبروا رسول الله ﷺ بما يريد أن يأكل، فرفع رسول الله ﷺ يده، فقيل: أحرامٌ هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكنه لم يكنْ بأرض قومي، فأجـدني أعافـه»، قـال خالـد: فاجتررتـه فأكلْته، ورسول الله ﷺ ينظر[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٥).

ومِن أسباب اسْتِقرار البيوت، وقلَّة المشاكل فيها: ترْك كثْرة العتب والتعنيف على مظاهِر القُصُور، التي تُرَى على الزَّوْجة والأولاد، وربما بعض هذه الأشياء لا كسْب لهم فيها، ويحب البعضُ أن يَتَجَاوَزَها؛ لكنه لا يستطيع؛ لأنها مما لا يُقدر عليها، فلننظرْ إلى النواحي الحَسَنَة فيهم، وهي كثيرة.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَى المَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل منَ الرجال كثيرٌ، ولم يكملْ منَ النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران»[1].

فالكمال في الرِّجال عزيزٌ، فكيف نطْلب الكمال في النساء والصغار؟! وحينما سأل النبي بريرة عن أم المؤمنين عائشة في قصة الإفْك، قالت: (والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أَغْمِصُهُ عليها قط أكثرَ من أنها جارية حديثة السِّن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله)[2].

فهذه عائشة تعجن العجينة لطَبْخ الطعام، فتنام عن العجينة، فتأتي الشاة في البيت فتأكل العجين، وفي الغالب أن النبي لن يأكل الطعام، أو سيتأخر طعامه، ولم ينقل عنه العتب عليها، فضلًا عن الشَّتْم والسَّبِّ، فضلًا عن الضَّرْب والتَّهديد بالطلاق.

إخوتي: لِين الكلام وطيبه عبادةٌ وقُربة نؤجَر عليها؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامَى مِنَ الناس عليه صدقة، كل يوم تطلُع فيه الشمسُ يعدل بين الاثْنَيْن صدقة، ويُعين الرَّجل على دابته فيحمل عليها أو يرْفع عليها متاعَه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خُطوة يَخْطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عنِ الطريق صدقة»[3].

فإذا كانت الكلمةُ الطيبةُ مع الأباعد صدقة، فكَوْنها صدقة مع الأقارب أَحْرى وأَوْلَى.

---

(١) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٠٧).

(٣) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).



لنحْرص على الدُّعاء، ومدْح مَن أَحْسن من أهْلِ البيت، ولنثْني على عمَلِه الحسن؛ سواء كان زوجةً أم ابنًا أم بنتًا، فبالثناءِ يشعر الممدوحُ أن له قدرًا، وله ميزة على غيره، فيحاول أن يزدادَ من الأعمال التي تزينه، وترفع قدره، وعلى أقل تقدير يُحاول أن يحافظَ على نظرة أهلِه إليه، بخلاف من يسمع التأنيب والذم، يستمرِئ ذلك، ويشعر أنه لا يوجَد عنده شيء يحرص على ألاَّ يخسره ويحافظ عليه.

معاشر الإخْوة: ربما وَقَع في نفْس البعْض: عَلامَ المدح والثناء على أمْرٍ واجبٍ؟! فلم يفعل أهْل البيت إلا ما وجب عليهم، فهو يظن أنه لا يستحق الثناء إلا مَن تطوَّع بأمْرٍ غير واجب عليه، ولا شك أنَّ هذا الفَهْم مجانِب للصواب، فلو تأمَّلْنا كتابَ ربِّنا، وسُنة نبينا، لوجَدْنا فيهما مدْحًا وثناءً على مَن فعل الواجبات، وتَرَك المحرَّمات، كما أن فيهما توبيخًا وتهديدًا لِمَن أخَلَّ بالواجبات، وارْتَكَبَ المحرَّمات، وهذا غاية في العدْل، فيمدح ويُثاب المحسن، ويوبَّخ ويعاقَب المُخْطئ؛ يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١-١١]، فامْتَدَحَ اللهُ في هذه الآيات المؤمنين، الذين يفعلون الواجبات، ويتْركون المنهِيَّات، ووَصَفَهُم بالمُفْلحين، وهي صِفة مدْح، وبَشَّرَهم بالخُلود في الفِرْدوس.

الخطبة الثانية:

الحمد لله نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، أحمده سبحانه وأشكره، وأسأله التوفيق والهداية، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أرشد الأمة بقوله: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المؤمنين، وقوموا بحقوق الله عليكم في أنفسكم وأهليكم، ولا تنسوا الفضل بينكم، واعلموا أن من آداب البيت المسلم التغافل والتغاضي، والعفو والصفح، والرفق والأناة، واللين والرحمة.

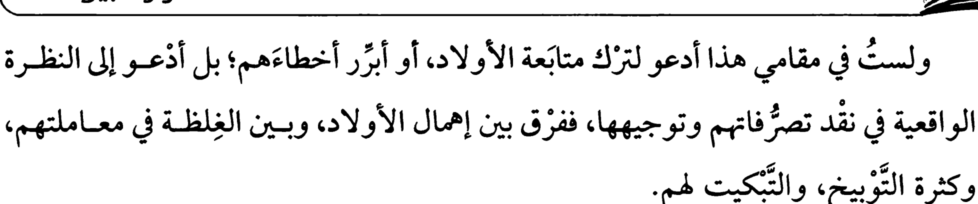
أيها الآباء والأمهات.. كثيرٌ مِن تصرُّفات الأبناء الخاطئة - سواء داخل البيوت أم خارجها - يجب أن ينظرَ إليها من غير معزل عن السن، فسن الصِّغَر سن يغلب عليه كثرة الحركة، والعَبَث، والتهرُّب من المسؤولية؛ فعن أنس قال: «خدمْت رسولَ الله ﷺ تسع سنين، فما أعلمه قال لي قط: لمَ فعلتَ كذا وكذا؟ ولا عابَ عليَّ شيئًا قط»[1].

فأنس خَدَم النبي حينما قدم المدينة، وكان صغيرًا، ويبدر منه ما يبدر منَ الصبيان، ومع ذلك لم يعاتبْه النبي ﷺ على ترْك ما يجب عليه فعْله، وعلى فعل ما يجب عليه ترْكه.

فالصَّغير لا يقدِّر عواقب كثيرٍ منَ الأعمال؛ فلذا في بعض الأحيان هو أول من يتضرَّر بتصرُّفاته الخاطئة، فلْتعالج هذه الأخطاء بشيءٍ من الصبر والحكمة، ولنوطِّن أنفسنا أننا لن نتمكَّن من أن نجعلهم يتصرَّفُون تصرُّفات الكبار، فلْنتحمّل بعض أخطائهم، ومَن يُكثر العتب عليهم، فلْيَرْجع بذاكرته إلى الوراء، وليتذكَّر ماذا كان يبدر منه ومن أتْرابه من تصرُّفات حينما كان صغيرًا، وأثناء فترة المراهقة، لا شك أن الأمر مختلفٌ بعض الشيء؛ لكن الاختلاف راجع إلى طبيعة العصر والأشياء المتاحة.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨٣)، ومسلم (٢٣٠٩).



ولستُ في مقامي هذا أدعو لترْك متابَعة الأولاد، أو أبرِّر أخطاءَهم؛ بل أدْعو إلى النظرة الواقعية في نقْد تصرُّفاتهم وتوجيهها، ففرْق بين إهمال الأولاد، وبين الغِلظة في معاملتهم، وكثرة التَّوْبيخ، والتَّبْكيت لهم.

وإن من أخطاء بعض الأبناء أنهم لا يتعامَلون مع الأب على أن له حقًّا افْترَضه الله عليهم، من طاعته، وبرِّه، والإحسان إليه، والقيام بمصالحه، فهُمْ أبعد مِن أن يدركوا ذلك في صغرهم، فهم يتعامَلون مع الأب وفْق المصالح، فإنْ كان الأب يوفِّر لهم بعض ما يطلبونه، بادَرُوا الأب بشيء من التقدير، والسَّمْع والطاعة، ومراعاته، وإن كانت الأخرى حصل التمرُّد والعصيان.

معاشر الأبناء: ليحرص الواحد منكم على ضبْط تصرُّفاته، ولْيتجنب ما يُؤذي الآخرين، فليس من العقلِ أن نسيءَ إلى مَن حولنا؛ لتقدِّروا مَن هم أكبر منكم سنًّا، لا تُسيئوا للأماكن العامة؛ كالمساجد، والمدارس، وغيرها، وكذا ممتلكات الآخرين، فلا تتسبَّبوا في إدخال الضَّرر على أحد من المسلمين.

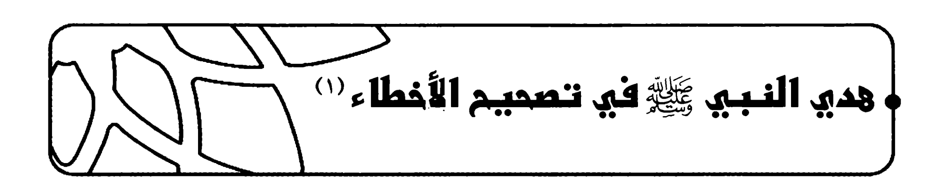
معاشر الأبناء: إذا لم تحسنوا للأبوين، فعلى الأقل لا تسيئوا لهما، فلا تكونوا مصدر هَمٍّ وقلق لهما، فلا تجعلوهما دائمًا في شغْل بكم؛ بحثًا عنكم، وانشغالًا بكم، لا تَتَسبَّبوا في إحْراجهما بعتب الناس عليهما؛ بسبب تصرُّفاتكم، فهل ترضى أن يتعرَّض أبوك وأمك إلى عتب الناس المباشر لهما، أو أن يتحَدَّثوا عنهما في مجالِسهم، ويصفوهما بالتقصير في تربيتك؛ بسبب ما يصدر منك من تصرُّفات يتأذَّى بها الناسُ.

أيها الشاب: إذا أردتَ أن تكون مستقرًّا، مرتاحًا، محبوبًا عند أهل البيت وعند الناس، وأن تكون محل ثنائهم وتقديرهم - فانظر إلى من هُمْ في سنِّك ممن يجلُّهم الناس ويقدرونهم لأدبهم وأخلاقهم، فاسلكْ مسلكهم، ولا تنس أن تؤدب نفسك بقراءة الكتب التربوية والاطلاع على سير الصالحين من العلماء والحكماء والصحابة والتابعين، فإن في ذلك تربية عظيمة للنفس وحثًّا لها على الفضائل.

تلك معالم بارزة وإشارات مختصرة قد تكون عونًا على استقرار البيوت إن روعيت بعـين التأمل والبصيرة، وأُخذت بمأخذ الجد والعمل والتطبيق، ولا شك أن البيوت تسـتحق منـا السعي الصادق والعمل على استقرارها وتأمينها، فصلاحها صلاح المجتمع والأمة بأسرهـا، وفقنا الله لما يرضيه، وهدانا لأحسن الأخلاق والآداب..

هذا وصلوا وسلموا....





هدي النبي ﷺ في تصحيح الأخطاء[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله خلقَ وأمَر، وملكَ فقهَر، وأراد فقدَّر، أحمده سبحانه وأشكرُه وهبَ وأعطى، وأغنَى وأقنَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمدُ في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه صفوةُ الأخيار وقُدوةُ الأبرار، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابِه أهل الفضل والتُّقى، ما وهَنوا لما أصابَهم في سبيل الله وما ضعُفُوا وما استكانُوا، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله- واعبدوه، اجتمِعوا على الرحمة والمحبّة والطاعة، ولا تتفرَّقوا على الشَّحناء والهوى والمعصية.

بطاعة ربِّكم تزيَّنوا، ومن الذنوب توبوا وتطهَّروا، وعن باب مولاكم فلا تبرَحوا؛ لعلَّكم في جنات عدنٍ أن تُحضَروا. من تفكَّر بعواقب الدنيا أخذَ بالحذَر، ومن أيقنَ بطول الطريق تأهَّب للسفر.

أيها الناس: لا يَخلو أفراد المجتمع منَ الأخطاء، فالخَطَأ والتقصير يَحْصُل في بُيُوتنا، وفي شوارعنا، وفي مدارسنا، وفي مَقرِّ أعمالنا، وفي مساجدنا، ومما لا يُختَلَف فيه أنَّ سَيِّد المُرَبِّين، وإمامَ المصلحين محمد بن عبد الله، قد بَعَثَهُ الله لإصلاح الدِّين والدُّنيا، فباتِّباعِ هَدْيِه يسعَدُ الناس في مَعَاشِهم ومَعَادِهم، وَلَعَلِّي أذْكُر طَرَفًا مِن مواقف النَّبِيِّ ﷺ في تصحيح بعض الأخطاء، ودَفْع الناس إلى التَّرَقِّي في صفاتِ الكمال.

---

(١) أحمد بن عبدالرحمن الزومان.

فمِنْ هَدْي النبي ﷺ: تصحيحُ الأخطاء، والتَّنبيه عليها، مِن غير ذِكْر مَن وَقَعَ فيها، فهذا مظنَّة الانتفاع أكثر، فلا يقع في نفس الشخص المُراد توجيهه شيءٌ، أو حَرَج، ولا يَتعَرَّض لِقَدْح مِن بعضِ الناس، وكذلك الخِطاب يكون عامًّا لكُلِّ مَن وَقَع في الخَطَأ، فيظنُّ أنَّه المقصود بالخطاب، بِخِلاف لو حدد الشخص؛ فعنْ أنس: أنَّ نَفَرًا مِن أصحاب النَّبي ﷺ سَأَلوا أزواج النَّبِي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أَتَزَوَّج النِّساءَ، وقال بعضهم: لا آكُل اللَّحْم، وقال بعضهم: لا أنام على فِراش، فحَمِدَ الله، وأثْنى عليه، وقال: «ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا!! لكني أُصَلِّي وأنام، وأصوم وأفطر، وأَتَزَوَّج النساء؛ فَمَنْ رَغِب عنْ سُنَّتِي فليْسَ مني»(١).

وهذا في كتاب ربِّنا كثيرٌ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ [التوبة:٥٨]، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [التوبة:٧٥].

ومِن هَدْي النَّبي ﷺ في تصحيح الأخطاء الاكتفاءُ بالتلميح، دون التَّصريح أحيانًا؛ فعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألتُ رسول الله ﷺ فأعطانِي، ثم سألتُه فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم: إنَّ هذا المال خضرة حلوة، فمَن أخذه بِسَخَاوَة نفس بورِكَ له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفس لَمْ يبارَكْ له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليدُ العليا خيرٌ منَ اليد السُّفلَى»، قال حكيم: فقلتُ: يا رسول الله: والذي بعثَكَ بالحق، لا أرزأ أحدًا بعدكَ شيئًا حتى أفارقَ الدنيا، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيمًا إلى العَطَاء، فيأبى أن يقبَلَه منه، ثم إنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاهُ لِيُعْطِيَه، فأبى أن يقبلَ منه شيئًا، فقال عمر: «إنِّي أُشْهِدكم -يا معشر المسلمين- على حكيم، أنِّي أعْرِضُ عليه حَقَّه مِن هذا الفَيء، فيأبَى أن يأخذَه». فلم يرزأ حكيم أحدًا منَ الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفِّي(٢).

فحينما كَرَّرَ حكيم المسألةَ، كَرِه له النَّبي ﷺ ذلك، لا سِيَّما مع غِناه، فلَمْ يُصَرِّح له النبي ﷺ بِكَراهةِ ذلك؛ بل رأى أنَّ التلميحَ كافٍ، فَلَمْ يَجْرح مشاعر حكيم بكلمة، وأَوْصَل ما يُريد إيصاله إليه؛ فلذا الْتَزَم حكيم بهذا التوجيه، ولم يأخُذْ حتى حَقَّه مِنَ العطاء.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) رواه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

إخوتي: الصغير تبدر منه الأخطاء مِن غير قصدِ الإساءَة، وتعمُّد إيذاء الآخرين، فلا ينبغي أن يُكْثَرَ معه العتب والتوبيخ، فضلًا عنِ العقاب، فَأَنَس بن مالك كان صغيرًا، وخَدَمَ النبي ﷺ حين قدِمَ المدينة حتى لحقَ بالرفيق الأعلى، وكان يَتَوَانَى بالحاجة أحيانًا، ويقع منه ما يقع منَ الصبيان، ولم يَكُن يعتب عليه النبي ﷺ أو يُوَبِّخه؛ فعَنْه قال: «خدمْتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفٍّ قط، ولا قال لي لشيءٍ فعلتُه: لم فعلتَ كذا، وهلاَّ فعلتَ كذا»[1].

وحينما يُخْطِئ الصغير، ويحتاج الأمرُ إلى تَنْبيهٍ وتوجيهٍ، كان مِن هَدْي النبي ﷺ التَّنبيه بكلماتٍ يسيراتٍ؛ ليتمَّ حِفْظها، وَوَعْيها مع اللُّطْف في العبارة، والرِّفْق بالتَّوجيه؛ فعن عمر بن أبي سلمة، قال: كنتُ غلامًا في حجْرِ رسول الله ﷺ، وكانتْ يدي تطيش في الصَّحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ: سَمِّ الله، وكُل بيمينكَ، وكُل ممَّا يليك». فما زالتْ تلك طعمتي بعدُ[2].

حين التوجيه وإصلاح الأخطاء تُذْكَرُ محاسن الشخص، وصفات الكمال التي فيه، وأنه قريبٌ منَ الكمال؛ لكنه ينقصه كذا وكذا، بِخِلاف تناسِي الحسنات، والتَّركيز على الأخطاء، فهذا مظنَّة عدم الاستجابة، فالمُوَجَّه يقع في نفسه أنه لا خير فيه، فلا يَحْرص على تصحيح الأخطاء، والتَّرَقِّي في درجات الكمال؛ فعن عبد الله بن عمر، قال: كنتُ غلامًا شابًّا، وكنتُ أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فَرَأَيْتُ في النَّوم كأنَّ مَلَكَينِ أَخَذَانِي، فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطويَّة كَطَيِّ البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلتُ أقول: أعوذ بالله منَ النار، قال: فَلَقِيَنا مَلَكٌ آخر؛ فقال لي: لم ترع، فَقَصَصْتها على حفصة، فَقَصَّتْها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «نِعْم الرَّجل عبد الله، لو كان يُصَلِّي منَ الليل». فكان بعدُ لا ينام منَ اللَّيل إلاَّ قليلًا[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) رواه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

حينما يُخْطِئ الشَّخص لا ينظر إلى هذا الخطأ بمعزل عن صاحبه، وبذله، وسابقته في الإسلام؛ بل ينظُر في حسناته، وهل له منَ الأشياء التي تشفع له، فحينما نَقَلَ حاطِب بن أبي بَلْتَعَة أخبارَ المسلمين إلى كُفَّار قريش، قال عمر بن الخطاب: إنَّه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فَدَعنِي أَضْرب عُنُقه، فقال النبي ﷺ: «يا عمر: وما يُدريكَ؟! لعلَّ اللهَ قدِ اطَّلَع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبتْ لكم الجنة»، قال: فدمعتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم[1].

فعذره النبي ﷺ بهذا الخطأ، الذي هو في اصطلاح المتأخرين الخيانة العظمى؛ لسابقته في الإسلام، وشهود بَدْر

(١) رواه البخاري (٦٢٥٩)، ومسلم (٢٤٩٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمينَ، والصلاة والسلام على مَن وَصَفَه ربُّه بِقَوْله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وبعدُ:

فأكثر المواقف تحتاج إلى قوَّة في ضبط النَّفس، وكَظْم الغيظ، والتغاضي وسعة الصدر، وعدم العمل وَفْق ما يدعو إليه الغَضَب؛ خصوصًا ما يَحْصُل منَ التَّصَرُّفات التي لا تُرْضَى منَ الأهل، وأكثر مسائل الطلاق، سببُها اختلافٌ على مشاكل يَسِيرة في الغالب، يُؤَجِّجُها الغَضَب؛ فلذا يُطَلِّق المُطَلِّق، ومِن ساعته يبحث عَنْ مخرجٍ؛ لترجعَ إليه زوجه، فمِن مواقف النبي ﷺ التي تُبَيِّن حسن تعامُله في مُعالَجة أخطاء الأهل، ما رواهُ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ عند بعض نِسائِه، فأرسلتْ إحدى أمهات المؤمنين بصَحْفَة، فيها طعام، فضربتِ التي النبي ﷺ في بيتها يدَ الخادم، فسقطتِ الصَحْفَة، فانفَلَقَتْ، فجمع النبي ﷺ فِلَق الصَحْفَة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصَحْفَة، ويقول: «غارت أمُّكم»، ثم حبس الخادم حتى أَتَى بصَحْفَة مِن عند التي هو في بيتها، فدفع الصَّحْفَة الصحيحة إلى التي كُسِرَت صحفتُها، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَتْ[1].

عالَجَ النبي ﷺ الموقفَ بالعدل، بعيدًا عَن الانفعالات والهَيَجَان، فلم يُحابِ عائشة حينما كسرتِ الصَّحفة، فضمَّنها الصَّحفة، وأعطى المرأة المكسورة صحفتُها صحفةَ عائشة السليمة، ولم يُؤاخِذ عائشة بما صدر منها؛ لأنَّ الغيراء في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدَّة الغضب الذي أثارَتْه الغَيْرة؛ بلِ الْتَمَسَ لها العُذر، وأشارَ بِقَوْله: «غارت أمُّكم» إلى أصحابه، ألاَّ يُؤَثِّر هذا الموقف في قدرها عندكم، فهي وإن كسرتِ القصعة فهي أمُّكم، لها قَدْرُها ومنزلتُها، التي بَوَّأَها الله، فلا تَبْخَسُوها قدرها. والله أعلم.

إخوتي: لو أنَّ هذا الموقف حَصَلَ لأحدنا، ماذا تظنون أنَّا نفعل؟!

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٥).

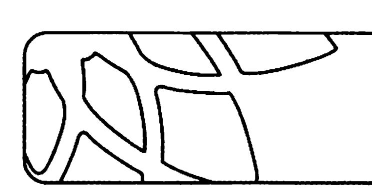
إخوتي: ما أحوجنا إلى مجاهَدَة أنفسنا ومغالبتها؛ حتى نَتَمَكَّنَ منها، فلا تبدر منا تصرفات في حال الغضب نندم عليها، ونحتاج إلى الاعتذار منها، فليستِ القوة بالعضلات المفتولة؛ بلِ القوة الحقيقيَّة قوة النفس والإرادة؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغَضَب»[1].

إخوتي: البعض لا يخلو مِن أحد يناصِبُه العداء، ويَتَرَبَّص به، ويَتَتَبَّع عثراته وزلاته بِسَببٍ وربما بِغَيْر سبب، والسلامة مِن هؤلاء بِمُصانعتهم، والعفو عن تجاوزاتهم، ومقابلة السيئة بالحسنة، فيقابل العبوس بالابتسامة، ويقابل الإعراض بالسلام، ويقابل التَّنَقُّص بالاحترام، ويقابل الغيبة بالعفو والثناء، وهكذا؛ فبعد حينٍ تنقطع الإساءة؛ بل تَتَبَدَّل محبة وإحسانًا، وهذا مشاهَدٌ في واقع الناس، وجُلُّ الناس ربما هم بِمُصانعة عدوه، وتَحَمُّل زلاته؛ لكن الأمر يحتاج إلى صبرٍ، وطول نَفَس؛ فلذا الأكثر ينقطع عنِ الدفع بالتي هي أحسن؛ بل ربما دَفَعَ السَّيئَةَ بالسيئة؛ ظنًّا منه أنَّ هذا الشخص لا يصلُح معه إلاَّ هذا الأسلوب في المُعامَلة، وهنا تزداد العداوة في القلوب، وتَسْتَفْحل المشكلة، وهذا ما يريده الشيطان، أمَّا ربنا عَزَّ وَجَلَّ فيُوَجِّهنا في حال وُجُود عداوةٍ بين أفراد المسلمين بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

هذا وصلوا وسلموا على النبي المصطفى والرسول المجتبى...



(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).



أولادنا والمسؤولية

الخطبة الأولى:

الحمد لله المنعم على خلقه، المتكفل لكل حي برزقه، أحمده سبحانه وأشكره على إنعامه الجزيل، وأستغفره وأستهديه وهو حسبنا ونعم الوكيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من وحد ربه، وملأ باليقين والإخلاص قلبه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، المبعوث بالهدى، والمنقذ بإذن ربه من الردى، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار، ما تعاقب الليل والنهار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

معاشر المؤمنين: وصية الله لنا وللمؤمنين في كل آن وحين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

إخوة الإسلام: قضيةٌ وقصةٌ وموضوعٌ في لقاء، لقيت مديرًا لإحدى الشركات يتحدث عن الفقر الأخلاقي في المعاملات ثم تطرق إلى قصة له وقعت مع أبناءه الكبار الذين يناهزون العشرين من العمر، إذ احتاج يومًا أن يقوموا بتبديل أنبوبة الغاز فكانت قصة وأسئلة وبحث وكيف نصنع وأين نذهب وكيف نقوم بالمهمة، قال: (إننا لم نعلمهم، لم ندربهم، لم نحملهم المسؤولية، نحن نبني أجيالًا اتكالية ليست مبالية لا تحسن تدبير أمر شؤونها ولا القيام بمسؤولياتها، تحمل المسؤولية أمر في غاية الأهمية).

وومضة سريعة أنتقل بها -حتى نعود مرة أخرى إلى واقعنا-، سيد الخلق -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- أمّر على جيش هو الأول الذي كان مقررًا أن يخرج خارج حدود



الجزيرة شابًا عمره سبعة عشرة عامًا، وكان في هذا الجيش -أي من أفراده- أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكبار الصحابة، أسامة بن زيد في السابعة عشر يوليه المصطفى ﷺ قيادة جيش كان المفترض أن يقوم بأول عمل عسكري خارج الجزيرة مع الروم.

ونقلة أخرى سريعة إلى زمن آخر في عام ٧٢هـ ولد محمد بن القاسم الثقفي، وفي عام ٩٠هـ كان يقود الجيوش التي فتحت بلاد السند وعمره ثمانية عشر عامًا.

وومضة ثالثة في جانب آخر: الإمام الشافعي حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، وبدأ يفتي وهو دون العشرين، صغار لكن كبار، منذ نعومة الأظفار خاضوا المجال وأتيحت لهم الفرصة، وأعطوا الثقة، وكان التشجيع وكانت الرعاية فظهرت تلك الشخصيات التي اليوم ربما نفتقدها إلى حد كبير إن لم نكن مبالغين فنقول إنه لا وجود لها في عصرنا.

ما القصة إذًا؟ تحمّل المسؤولية منذ الصغر منذ نعومة الأظفار، الدراسات العلمية تقول: (إن الوعي والإدراك بقدر المسؤولية في درجاتها الأولى يكون والطفل في الثالثة من عمره يبدأ شيئًا من التمييز)، والإمام البخاري في صحيحه في كتاب العلم ضبط سن التمييز بخمس سنوات، واستشهد بقول أحد الصحابة أنه يتذكر ويدرك مجة مجها النبي ﷺ في فمه وهو ابن خمس سنين.

إذًا نحن معنيون بأن نبدأ إلى التوجه في تحميل المسؤولية منذ ذلك العمر، وهل هنا أمر عجيب؟ وهل هنا مبالغة فجة؟ وهل هنا ثقل وعبء لا يحتمل؟ كلا، على سبيل المثال حتى نبدأ في إدراك هذا الموضوع في هذه السن الصغيرة لو أننا عوّدنا هذا الطفل على أن ينظم موضع حذائه ويضعه في مكان معين وعندما يضعه يجد الابتسامة المشجعة والكلمة المحفزة من والدته وإذا لم يفعل وجد شيئًا من التأنيب، صورة من المسؤولية الذاتية التي يكاد تغيب عنا فصار جميع الأفراد لا يحسنون أمرًا ولا يتقنون عملًا، بسبب الاتكالية وعدم التعود على حمل المسؤولية.

صورة قد يكون فيها مبالغة لكننا نريد تحمل المسؤولية، وقبل أن أبدأ في الصور العامة أشير إلى أن منهج كتاب الله وهدي رسول الله ﷺ يعمق المسؤولية الفردية تعميقًا لا مزيد

عليه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، ستسأل، وسيسأل كل أحد، صغيرًا كان أو كبيرًا بحسبه عند تكليفه، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وفي حديث المصطفى ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار سبعين خريفًا»[1]، وفي شأن الكفار يذكر الله جل وعلا قوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، والمحاسب هو الحق جل وعلا، هو الذي لا تخفى عليه خافية، هو الذي ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

والمحاسبة ليس فيها واسطة، والمسؤولية ليس فيها من يحمل أو يخفف، بل كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]، أي: مرتهنة، وفي حديث المصطفى ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[2] أي: إما أن يعتقها إذا أدّى ما عليه، أو يوبقها ويوردها الهلاك إذا قصّر في مسؤوليته وواجبه، والنصوص في هذا كثيرة، والأثر العملي لهذا عظيم، وحسبي أن أشير إشارات.

هذا سبط النبي ﷺ الحسن، وهو صغير ما زال دون البلوغ ودون التكليف وبين يدي النبي ﷺ بعض من تمر الصدقة بعد التوزيع فأخذ تمرة ليضعها في فمه، فضرب النبي ﷺ على يده وقال: «كخٍ كخٍ، أما شعرت أنّا لا نأكل الصدقة»، إنه لا يعي لا يدرك لا يعرف الأحكام، لكنها التغذية الأولية، ما يقع كما يقولون في العقل اللاواعي الذي دعانا النبي في سنته أن نؤذن في الأذن اليمنى ونقيم في اليسرى لماذا؟ لأن لهذه الكلمات أثرًا أثبت العلم أنه يبقى، لذلك لابد أن ندرك هذا، حتى لما جاءت المرأة وقالت لابنها: هاك اعطك، فلما جاء أعطته تمرة، قال: «أما إنك لو لم تعطه لكانت كذبة»[3]، لا تفكر به وأن عقله صغير أو إدراكه غير عميق، فكر بما تريد أن توصله لهذا الصغير منذ نعومة أظفاره.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٨) ومسلم (٢٩٨٨) بلفظ: «إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمةِ، ما يتبيَّنُ ما فيها، يهوي بها في النارِ أبعدَ ما بينَ المشرقِ والمغربِ».

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) السلسلة الصحيحة (٧٤٨).

المسؤولية هنا سنتناولها في جوانب ثلاثة مهمة:

الجانب الأول: هو جانب الأسرة، الأم والأب وبيئة الأسرة كلها، تحتاج أولًا إلى إعطاء الثقة، وذلك بالتشجيع والتحفيز، قل له: إنك كبير، قل له: إنك مسؤول، قل له: إنك تستطيع وتقدر، وشجعه حتى يكون ذلك منطلقًا لهذه المسؤولية.

والأمر الثاني: إعطاء الاستقلالية في اتخاذ القرار مع الرعاية والتقدير، دعه يقرر، نحن اليوم نقرر عن أبنائنا أين يدرسون، ونقرر عنهم في ماذا يتخصصون، ونقرر عنهم ماذا يلبسون، شيء عجيب هذه الرعاية الزائدة تفقد هؤلاء شخصياتهم وقدراتهم التي يمكن أن تكون نواةً لقوة وقدرة وشخصية مؤثرة في المستقبل.

والأمر الثالث: هو إعطاء الفسحة أو الفرصة للممارسة العملية في شتى الجوانب مع المكافأة أو المعاقبة بحسب الحال، إذا فعلنا ذلك سنجد أثرًا وسنجد تجربة وسنجد فرصة لجوانب مختلفة، ولكي يتحقق هذا لابد أولًا من تنمية الحوار والمشاركة، نحن لا نسمع أبناءنا ولا نصغي لهم، وإذا أرادوا أن يتكلموا قلنا: إننا مرهقين أو ابتعدوا فنحن الآن مشغولون، أو في وقت آخر، أو ما هذه القضية التافهة العارضة، فحينئذ لا يسمع لهم قول ولا يعتبر لهم رأي، ولا ينظر إليهم في قدر من الشخصية بحال من الأحوال، وهذه قضية أساسية مهمة.

والأمر الثاني: هو الأمر الذي يكون فيه نوع من التقدير الحقيقي الذي نعمله بتجربة مقصودة هادفة، عندما نكون على قدر كبير من التتبع والمتابعة الإيجابية لأبنائنا فعند كل إحسان نقدر ونحفز وعند كل تقصير ننبه ونشير إلى مواطن الخلل فيحصل حينئذ هذا التقدير في كل الجوانب.

مثلًا: ما يسمى بالإجازة، أو العطلة وإن كانت العطلة من العطالة، ماذا يصنع أبناؤنا بل كثير من أسرنا، الليل قصير يسهرونه في غير فائدة، والنهار طويل يقتلونه أو ينحرونه نومًا، وفيما بينهما فراغ يؤدي إلى فراغ ونعمل فيه فراغ وننتهي فيه إلى فراغ!

فلنعطي أبناءنا أولًا فرصة التعويد على المسؤولية بالواجبات الاجتماعية يكلفون بها ويحرصون عليها، هم الذين يعملون جداول الزيارات للأرحام، أو يرتبون للقيام بأعمال تريدون القيام بها، اجعلوهم يشعرون أن هذه مسؤولية وأنها من المهمات الواجبة ومن

الأعمال الفاضلة في شريعتنا الغراء، اجعلوهم يأخذون جانب آخر مع محيط الحي والجيران، مع بقية أقرانهم إن كانوا صغارًا أو إن كانوا كبارًا فليقوموا بمبادرات اجتماعية في تنظيف الحي أو في عمل شيء يعود على الجميع بفائدة يشعرون بالأثر ويقومون بنوع من المهمة بل كلفه بعمل وإن كان في داخل المنزل أو لصالح الأسرة ونحو ذلك، ليعتاد على المسؤولية.

وأضف إلى ذلك القراءة وأضف إلى ذلك الصلة بكتاب الله سبحانه وتعالى، كل ذلك لا ينبغي أن يمر دون أن يكون هذا التوجيه وتحميل المسؤولية.

أما الترتيب الشخصي لحاجياتهم وسررهم وغير ذلك فهذه قضية ينبغي أن تكون دائمة، لا ينبغي أن يُعود الأبناء على الاتكالية التي تولد عندهم شخصيات على جانبين من الخطورة في الناحية الفكرية والنفسية تنشأ شخصيات ليس لديها أي مبالاة بأي شيء، ومن الناحية العملية والسلوكية تنشأ شخصيات غير قادرة على عمل شيء، وكلا الأمرين خطير، أن تكون لدينا نفوس لا تتحمل مسؤوليات، ولا تعنى بشأن نفسها حتى تُعنى بشأن غيرها، وأين نحن حينئذ من هذه المسؤولية الكبيرة التي تضمنا جميعًا في شأن الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله ومسؤوليتنا عن كل هذه البشرية؟ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

كل ذلك قاعدته الأساسية ومنطلقه الأول، إن لبنته الأولى في هذه المسؤولية التي ترعى من البداية منذ الصغر بنوع من التحمل للمسؤولية حتى بالمسؤوليات داخل الأسرة، اجعل الأبناء الكبار يعلمون الأبناء الصغار، واجعل البنت الكبيرة تعتني بالأطفال الذين تقوم لهم بشأن كشأن الأم، مع التحفيز والتشجيع والتوجيه والترغيب، كل ذلك مطلوب حتى تصبح الأسرة كلها فاعلة، وليست كلها نائمة، كثير هو النوم في هذه الأيام بشكل عجيب وغريب وبنوع من صورة تدل على أننا ليس عندنا انتاجية وليس عندنا تحرك ولا تحرّق.

أيها الناس: إن من المؤسف أن تكون المجتمعات الإسلامية في كثير من جوانبه مجتمعات لديها قدر كبير من التخلف العلمي والتقني والسلوكي والمنهجي والإداري نحتاج إلى

استدراكه، «والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»[1] كما قال رسولنا ﷺ، ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:١٢]، ليس هناك تراخٍ، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران:١٣٣]، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، «بادروا بالأعمال ستًّا»[2]، كما قال النبي عليه -الصلاة والسلام-، كل ذلك يدل على التحفيز، أول ما خوطب النبي ﷺ بعد نزول الوحي في المرة الأولى ب ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ [الإسراء:١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:١-٢]، بقوة، بنوع من الأمر، ليس هناك مجالًا للنوم ولا للدعة ولا للكسل، فإن الحياة عمرها قصير وميدانها محدود، والحياة الأخرى هي الحياة الأعظم عند المؤمن، ينبغي هنا أن يحرث في كل لحظة في كل ثانية في كل ميدان في كل مجال مع كل إنسان حتى يستطيع أن يعمر حياته لتكون عمرانًا لآخرته.

والميدان الثاني: هو الميدان التعليمي، المعلمون أيضًا أن يسمعوا لتلاميذهم وأن يطلبوا مشاركاتهم، وأن يجعلوا التعليم بينهم وبينهم متفاعلًا، نحن نريد بيئة تجعل هؤلاء الطلاب يتحملون مسؤوليتهم، ويتعلمون كيف يحصلون العلم بذاتية وليس بتلقين أو فرض أو قسوة وغلظة، وأيضًا ليس بمساعدة دائمة في كل لحظة وآن؛ دون أن يكلف نفسه جهدًا أو أن يشعر بأنه يتعب أو يجتهد لأجل ذلك، وسبحان الله لو تأملنا من سير السلف الصالح ونماذج ما كانوا عليه لعجبنا ولرأينا عجبًا كبيرًا.

كان للإمام النووي وهو في مقتبل العمر وبداية الشباب ثلاثة عشر درسًا في ثلاثة عشر علمًا، يبتدئها قبل الفجر الأول إلى نهاية اليوم في الغروب، هكذا كانت الطاقات والمسؤوليات والأعمال التي كان ينجزها أسلافنا، ليس في هذا المجال العلمي أو الشرعي فحسب، بل في سائر المجالات.

وفي التعليم ينبغي أن يعود الأساتذة الطلاب على المواجهة وعلى الإلقاء والجرأة المنضبطة، وقد أقيمت تجربة كُلف فيها الطلاب بأن يحضروا مادة للمحاضرة أو للدرس بعد

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٧).

أسبوعين أو ثلاثة، فيستعدوا ثم هم يقومون بالتدريس ويحاورهم إخوانهم وزملاؤهم؛ فكانوا يجدون ثقة بالنفس ويذهبون حتى يحضروا تحضيرًا أقوى مما يمكن أن يحضره حتى المعلم أحيانًا.

نحتاج إلى بيئة تجعل الطلاب في المدرسة يحافظون على التعاون والنظافة والنظام، ويقومون بتنظيف مساجدهم ومدارسهم وبتجهيزها وتهيئتها ويعملون كخلية نحلٍ، نحتاج إلى صورة التعاون، التي يضرب مثلها النبي ﷺ بصورٍ رائعة: «كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[(١)]، «كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(٢)]، صورٌ ينبغي أن نترجمها في بيئات متنوعة وسيما بيئة التعليم فإنها من أبرز وأكثر البيئات التي تؤثر في طلابنا وفي أبنائنا ليكتمل هذا مع ذاك فيحسن حينئذ تحميل المسؤولية والتربية عليها كما يجب وكما ينبغي.

وهنا ومضات سريعة: في الصحيحين أنَّ رسولُ الله ﷺ أُتِيَ بشرابٍ. فشرب منه. وعن يمينه غلامٌ وعن يسارِه أشياخٌ. فقال للغلامِ: «أتأذنْ لي أن أعطيَ هؤلاءِ؟» فقال الغلامُ: لا. والله ! لا أُوثرُ بنصيبي منكَ أحدًا[(٣)]. هذه فرصة عظيمة، هذه مزية، هذا الغلام لو لم تكن له شخصية لو لم تكن له تربية لربما مع هيبة النبي ﷺ قال: نعم. وهذا ليس فيه سوء أدب، بل فيه كمال قوة وقدرة وكمال علم وفطنة، وكمال نظرٍ إلى الفائدة والمنفعة في كونه يقدم بتقديم رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-.

النبي ﷺ كان راكبًا على دابته وكان يردف خلفه ابن عباس وهو غلام صغير فالتفت إليه في الحديث المشهور: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله..»[(٤)]، هكذا الالتفات والانتباه والتعيين حتى وجدنا ابن عباس يفخر ويحفظ ويمتثل وهذا عبدالله بن عمر يقول: كان الصحابة يرون الرؤى

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٠٥) ومسلم (٢٠٣٠).

(٤) صحيح الترمذي (٢٥١٦).

فيقصونها على رسول الله ﷺ وهو صغير كان ابن الحادية عشر، قال: فوددت أن أرى رؤيا فرأيت رؤيا فقصصتها على حفصة، فقصتها على رسول الله ﷺ، فقال: «نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل»[1]، هذه كلها ومضات في التفات النبي ﷺ إلى هؤلاء الغلمان في صغر السن، فينبغي أن نلتفت لذلك.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا الأبناء الصالحين وأن يعيننا على تربيتهم وتنشئتهم على مراد الله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه البخاري (١١٥٦) ومسلم (٢٤٧٩).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

إخوة الإسلام والإيمان: أوصيكم ونفسي الخاطئة بتقوى الله، فإن تقوى الله أعظم زاد يقدم به العبد على مولاه، وإن من تقوى الله عَزَّوَجَلَّ استشعار الأمانة والمسؤولية في تربية الأبناء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

والدائرة الثالثة المهمة هي دائرة المجتمع: يوجد في مجتمعاتنا إلى حد كبير نوع من التهميش للصغار أو للشباب في مقتبل العمر، لا ينظر إليهم، لا يسمح لهم بمشاركة الكبار في مجالسهم، لا يطلب منهم رأي، لا ينتظر منهم إسهام، وهذا كثيرًا ما يحبطهم، ويسد الأبواب في وجوههم، ولا يتيح الفرصة لطاقاتهم، بينما نجد ذلك في تربية النبي ﷺ وفي تاريخنا على غير ذلك.

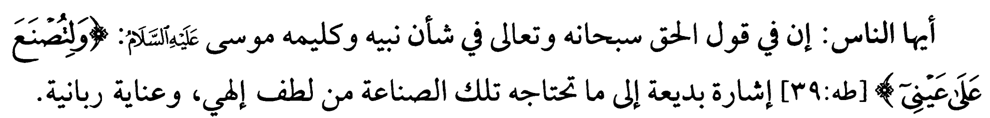
كلنا يعرف كيف كان عمر بن الخطاب يُدخِل إلى مجلسه الذي فيه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لماذا؟ لأنه كان ذا علم. ولما سألوا عنه وعن دخوله هذا المجلس مع كونه صغيرًا ولهم أبناء أكبر منه، سأله عمر بن الخطاب عن تفسير سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١]، ففسرها أولئك القوم ثم سأل ابن عباس فقال: «هي أجل رسول الله ﷺ نعي إليه»، قال: «ما أعلم منها إلا ما علمت»[1]، فأشار بذلك إلى تقديمه.

ومثل ذلك وقع أيضًا مع ابن عمر لما كان النبي ﷺ في مجلس فقال: «ما شجرة مثلها مثل المسلم» اضربوا لي مثلًا، قال: فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت وفي القوم أبو بكر وعمر، فقال النبي ﷺ: «إنها النخلة»[2]، فلما علم عمر قال: وددت لو أنك قلتها وليس لي بها ما في الدنيا وما فيها؛ لأنه كان يريد لابنه أن يتصدر أو أن يتقدم في هذا الموطن العظيم.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤) ومسلم (٤٨٤).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٢) ومسلم (٢٨١١).



أيها الناس: إن في قول الحق سبحانه وتعالى في شأن نبيه وكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] إشارة بديعة إلى ما تحتاجه تلك الصناعة من لطف إلهي، وعناية ربانية.

إن الرجال يصنعون صناعة أي صناعة! إن لكل أمة محترمة، ولكل شعب متحضر مبادئ وأعرافًا، وأحكامًا ونظمًا ترتب علاقاته بين أفراده، وعلاقاته مع الآخرين، كل أمة محترمة تضع الخطط والمناهج لإيجاد مناخ سليم لإعداد الأجيال الناشئة، لتلقي تلك المبادئ والنظم، والإيمان بها، والغيرة عليها، والدفاع عنها. إن ذلك كله لا يكون إلا بالتربية، إن التربية -أيها الإخوة- هي التكامل، وهي التطور، وهي الاستمرار، وهي التغير.

التربية بإذن الله تحدد طريق السعادة كما تحدد طريق الشقاء، إنها صورة مجتمع في قيمه وأعرافه، ومثله وأخلاقه.

التربية هي الإعداد للحياة، وصقل العقول، وتهذيب السلوك، وتنمية الذوق الرفيع، والتدرج في مراقي الكمال الإنساني، إنها غرس ودرس، وغاية ورعاية، وعطاء ونماء، تربية دقيقة جادة تقوم على بناء المجتمع، وتصحيح الخاطئ من مفاهيمه، وإقامة المعوج في سلوكه.

تربية تجمع بين سلامة المعتقد وتأديب النفس وتهذيب العقل وبناء الجسم.

التربية وسيلة توحيد الأمة، وربط أفرادها بغايات عليا، ومصير مشترك، تحفظ الماضي المجيد، وترسم المستقبل المأمول، إنها العقيدة والنظام، والقيم التي تميز الأمة وتأكد استقلالها، بل هي سبيل تميزها وتفوقها.

أيها الآباء: أيها المعلمون! أيها المربون! يُربى أبناؤنا على القدوة الحسنة، ونشدان الكمال، وعلى إحقاق الحق، وحب العدل، يجب البعد عن التناقض بين المبادئ الأصيلة الصحيحة من الإيمان والخير والطهر وبين مبادئ الكفر والظلم والقسوة والانحطاط الخلقي.

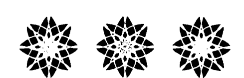
أيها المربون: ينبغي أن يعلم أن التقليد فطرة مغروسة في سلوك الطفل، فهو يقلد ما يراه، إن حسنًا فحسن، وإن سيئًا فسيء، ومن ثم فلا ينبغي أن تقع عين الطفل إلا على كل مظهر حسن، وعلى ألا تتلقى أذناه إلا كل لفظ مهذب، ولا ينمو رصيده من المشاهدات والمدركات والمعارف إلا على كل تصرف رشيد وكل عمل مفيد. والنفوس مجبولة على حب التملك والتفوق والثناء، فلا ينبغي أن يغفل الأب والمربي عن الحوافز المادية، والمشجعات الأدبية، فتتنوع الحوافز والجوائز فيُمنح مالًا، ويُهدى كتابًا، ويُشجع بالألفاظ المسموعة والمكتوبة،

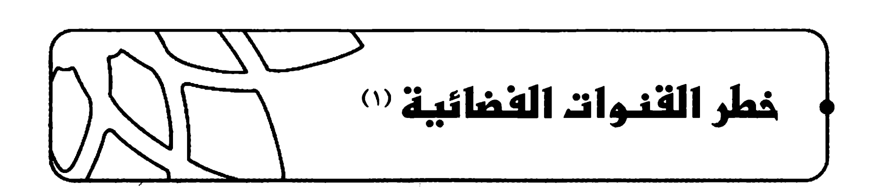
ناهيك بالحافز الأخروي، وربط الناشئة بما عند الله، فما عند الله خير وأبقى من عظيم الأجر وجزيل الثواب، وهذا يتناسب مع كبار الناشئة قبل صغارها.

يجب مع ذلك -على الكبار- العناية بالألفاظ، وأسلوب الخطاب، وترك الفظاظة والغلظة، مع مراعاة حسن الهيئة من الملامح المبتسمة، والقسمات المبتهجة، في أريحية وطلاقة وجه، فيكسب القلوب، ويملك المشاعر، ولا يسع الناس إلا طلاقة الوجه وبسط المحيا، وتبسمك في وجه أخيك صدقة.

ينبغي أن يسود في التربية احترام الكبير، ورحمة الصغير، وحفظ الحقوق، واحترام الممتلكات العامة والخاصة، والعطف على المحتاج، ورعاية المريض والعاجز، والرفق بالحيوان، والتنظف والتجمل، والشجاعة في القول، والرأي والعمل، و«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير».

أيها الإخوة: إنها التربية المتكاملة المتوازنة، تعصم بإذن الله من النزوات النفسية، وتحمي من سلطان الميول الجامحة، والأهواء المؤذية، وتنير للناشئة طريق الهدى والصلاح، فتقوم الحياة والعلاقات على الحب والطاعة والتعاون والمناصحة، وتنطبع النفوس على جميل الخصال وتدفع بالسلوك إلى أنبل الفعال، سدد الله الخُطى وبارك في الجهود وأصلح الأنفس والنيات والذريات، إنه سميع مجيب الدعوات.





خطر القنوات الفضائية [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله المستحق للحمد والثناء؛ أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأسأله السعادة في الدارين، وأعوذ به من حال أهل الشقاء؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن سيدنا ونبينا عبد الله ورسوله، أفضل الرسل وخاتم الأنبياء؛ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء؛ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله: أوصيكم أولا بوصية الله في الأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

أيها المسلمون: إنّ شياطينَ الإنس يستخدمون سلاحًا لا يقلّ خطورةً ولا يهون أثـرًا، ألا هو سلاح الشهوات، فتراهم يثيرون الغرائزَ في كلِّ نادي، ويهيِّجون الشهوات في كلِّ وادي، مشاهد مخلة بالآداب، أغانٍ ماجنة، ومسلسلاتٌ تسلسِل الألباب، وقنواتٌ إلى الفساد والرذيلة ممدودة، وعن الصلاح والفضيلة مسدودة، غناءٌ ماجن وفَنّ فاتِن، في عَرضٍ جمع بين الإزراء والإغراء، فلا زال مسلسل الإسفاف وتدمير الأخلاق والفضائل مستمرا، ولا زال شريط العهر والعري ونبذ القيم السامية والمثل العليا متواصلا.

إنها القنوات الفضائية المسمومة التي غزت البيوت وخربت العقول وقضت على الفضيلة وهيأت أسباب الرذيلة. إن أخطر ما يواجه المسلمون اليوم ذلك الغزو الوافد إلينا عن طريق

---

(١) سعيد بن سالم السناني.

القنوات الفضائية، إنه غزو الشهوات والملهيات، إنه غزو لعقيدة المسلمين في إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وأمور الغيب التي وردت في كتاب الله وصحت عن نبينا محمد، إنها حرب شعواء على كلّ الأصعدة الدينية والأخلاقية والاجتماعية، تهدم العقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والعادات الحسنة والشمائل الطيبة والشيم الحميدة والخصال الجميلة، ومتى تخلت الأمة عن عقيدتها وأخلاقها وقيمها سقطت في بؤر الضياع والانحلال.

أما آن لهذه الفضائيات أن تُكف عن هذا السيل العرم من المواد التي تعتمد على إثارة الغريزة ونشر الفاحشة؟! أما آن لها أن تتّجه إلى العمل الجاد والطرح المفيد الذي يدفع بالأمة إلى التقدم والازدهار والرقي؟! أما آن لها أن تكف عن زعزعة العقائد وتعميق الخلافات وإشاعة الفوضى في المجتمعات الإسلامية؟! لقد اعترف الجميع بخطورة تلك القنوات على جميع شرائح المجتمع وبخاصة الشباب والفتيات والأطفال.

إنها المصيبة الكبرى والداهية العظمى التي تهدد مستقبل الشباب والفتيات ونحن في زمن كثرت فيه المغريات وتنوعت الشهوات، وترك المفسدون في وسائل الإعلام مخاطبةَ العقول والأفهام، ولجؤوا إلى مخاطبة الغرائز وإثارة الحرام.

يقول أحد الكفرة من أعداء الإسلام وهو يخاطب قومه يقول: (إنكم إذا أعددتم جيلا من المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها أخرجتم المسلم من الإسلام وجعلتموه لا يهتم بدينه)، وقالوا أيضا: (كأس خمر ومغنية راقصة تفعل بالأمة الإسلامية ما لا تفعله الصواريخ ولا الدبابات). هذا ما قالوه قديمًا، ولا يزالون يعملون دون كلل أو ملل؛ لأنهم يرون ثمار مخططاتهم الخبيثة تزداد يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]، يستميتون لتحقيق غاياتهم، ينفقون من أموالهم ويبذلون من أوقاتهم، سعيًا في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا. لقد استطاع الأعداء من خلال الفضائيات والشبكات اقتحام ديارنا وبيوتنا، تُغزَى أَفكَارُ أَبنَائِنَا في عُقرِ دِيَارِنَا، وَيُحَارَبُ دِينُنَا بِأَموَالِنَا، وَتُهدَمُ أَسوَارُنَا بِسَوَاعِدِنَا، وتُخرَبُ بُيُوتُنَا بِأَيدِينَا، فَاللَّهُمَّ إِنَّا نَشكُو إِلَيكَ ضَعفَ قُوَّتِنَا وَقِلَّةَ حِيلَتِنَا.

انظروا مثلا إلى بعض البرامج والمسلسلات التي بسببها تنشأ الخلافات الزوجية، بل قد أثبتت الدراسات الميدانية وقوع حالات كثيرة من الطلاق والشقاق والخلافات الأسرية بما تصوّره تلك البرامج من خيانات زوجيه وعلاقات محرمة. هذا هو تأثير القنوات على الأسرة، لم نسمع يوما أن فيلما حلّ مشكلة زوجية أو أرسى قاعدة أخلاقية، فكم حولت هذه القنوات بأزواج من سمات الطهر والعفاف المودة إلى صفات الدناءة والوقاحة. نسأل الله العفو والعافية.

عباد الله: كيف يطالب المصلحون والمربون الشباب بالاستقامة وهذه الوسائل تبث سمومها ليلا ونهارا لتهدم منظومة القيم والأخلاق، وتفسد المروءات والآداب؟! أهذا هو التقدم والرقي والمدنية التي ننشدها؟! أهذا هو البناء الحضاري والتنموي الذي نريد إقامة قواعده وأسسه؟!

بل إن كثيرا من البرامج تضرب سمومها في عقيدة الولاء والبراء، فمن المعلوم في عقيدة الإسلام أن المسلم لا يحب إلا أهل الإيمان ولا يوالي إلا أهل الإسلام، لكن هذه الفضائيات قلبت الموازين، كيف لا وأنت ترى كثيرا من شباب المسلمين يحبّ هذا الفنان ولو كان فاجرا لا يؤمن بالله ورسوله، ويحب هذا المغني ولو كان لا يدين بالإسلام، ويوالي هذا اللاعب ولو كان كافرا ملحدا يسخر من الإسلام؟! والنبيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول فيما رواه أحمد: «لا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم»[(١)].

وتعمد هذه القنوات الماجنة جاهدة على إثارة الغرائز والشهوات في نفوس المشاهدين، فهي تدعو إلى الحب والغرام والعشق والهيام، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

كَم نَسمَعُ وَنَقرَأُ مِنَ القصصِ المُبكِيَةِ وَالمَوَاقِفِ المُحزِنَةِ التي سَبَّبَتهَا هَذِهِ البرامج والقَنَوَاتُ، والمسلسلات والحفلات! كُلُّهَا نَتَائِجُ وَاقِعِيَّةٌ وَتَطبيقَاتٌ عَمَلِيَّةٌ لِمَا رَأَوهُ وَيَرونَهُ وَمَا يُمَارِسُونَهُ في تِلكَ الأَجهِزَةِ، فَلِمَاذَا يَا أُمَّةَ الإِسلامِ لماذا نَترُكُ هَذِهِ القَنَوَاتِ الهَابِطَةَ وَتِلكَ

(١) صحيح الجامع (٣٠٢١).

الأَجهِزَةَ المُدَمِّرَة تُربِّي أَبناءَنَا وَبنَاتَنَا؟! هَل عَجزنَا نحنُ عَن تَربِيَتِهم أَم أَنَّنَا رَاضُونَ بِهَذِهِ التَّربِيَةِ الغَربِيَّةِ البَهِيمِيَّةِ الحَيَوانِيَّةِ؟! كيف نرجو خيرا لشبابنا وفتياتنا؟! وأي مستقبل زاهر ننتظره منهم؟! وأي عز ومجد ينتظر أن يصنعه هؤلاء الأبناء وقد أصبحت هذه الوسائل الإعلامية والتقنية هي المربي والموجه والمعلم لهم؟! عجبا أين دور الآباء والأمهات في التوجيه والإرشاد وقد سمحوا لأولادهم أن يتلقوا أخلاق الانحلال والإلحاد والضياع؟! قال رسول الله: «ما من عبد يسترعيه الله عَزَّوَجَلَّ رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته ماذا جزاءه؟ إلا حرم الله تعالى عليه الجنة»[1]. أَلَيسَ مِنَ الغِشِّ إِدخَالُ القَنَوَاتِ الهَابِطَةِ فِي المنزِلِ؟! أَلَيسَ مِنَ الغِشِّ تَوفِيرُ أَجهِزَةٍ تمثل سلاحًا ذا حدّين بيد الأبناء دُونَ أدنى رَقَابَةٍ أو ترشيد وَفِيهَا مَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ وَالبَاطِلِ؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧]، فالأب والأم مسؤولان أمام الله عن هذا التقصير والتفريط، «كلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته»[2].

والله لقد ضيع كثير من الناس الصلاة بسبب هذه الوسائل، وخاصة صلاة الفجر تشتكي من قلة المصلين، ما عذرك أمام الله أيها المسلم في ترك صلاة الفجر؟! مباريات، أفلام، مسلسلات، تصفح في مواقع الشبكات؟ كلها أعذار واهية، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]. ألم تسمع قول رسول الله: «لا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله»[3] بل ألم تسمع قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من سمع النداء فلم يجبه فلا صلاة له إلا من عذر»[4]

ومن آثار ذلك أيها الناس: إضعاف مستوى التعليم، فالطالب الذي يقضي معظم ساعات نهاره وليله في هذه الأمور كيف له أن يجد وقتا للبحث والدراسة والعمل الجاد نحو تحصيل علمي نافع؟! كم تعمل على تضييع الأوقات! كم من أوقات وساعات ضيعت في

---

(١) رواه البخاري (٧١٥١) ومسلم (١٤٢).

(٢) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٥٧٠).

(٤) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٠٣٥).

هذه الآفة! وكم من ليال سهرت في غير نفع؟ ولو أن هذه الأوقات استغلت في العلوم النافعة والصناعات المفيدة لارتفع شأن الأمة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

أيها الناس: وإن من آثار التساهل في هذه الوسائل والأجهزة انتشار المعاكسات الهاتفية والمراسلات اللاأخلاقية، حتى وصل الأمر إلى وقوع حوادث وخيمة، فكم من فتاة انتهك عرضها بسبب كلمة عابرة! وكم من أب وأم صرخوا بالآهات والويلات عندما حلت عليهم المصيبة!

أيها المسلمون: متى نستشعر أننا مستهدفون وأن أبنائنا في خطر عظيم؟ إننا نخشى أن ننتبه بعد فوات الأوان، وإذا بنا أمام جيل ربّته القنوات الأجنبية على كل رذيلة، وحارب كل ما لديه من فضيلة، جيل تحلّلت أخلاقه وانحرفت عقائده وتزعزعت مبادئه وقيمه، جيل همه شهوة بطنه وفرجه، فيضلّ الشباب، وتنحرف الفتيات، ويفسد الآباء، ويتمرد الأبناء، فيعصى الله الذي خلق، وتُكفر نعم الله الذي رزق. ولله در القائل:

إن الحصاد المرّ للفضائيات والشبكات الغير منضبطة وآثارها السلبية التي أفرزتها أعظم من أن تحويه هذه الخطبة، ولعلنا قد أشرنا إشارات سريعة إلى أم تلك الآثار السلبية، فلنتق الله ولنراقبه ولنستغل هذه الفضائيات في الأمور النافعة التي تنفعنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا، ولنعمل جاهدين على تطهير بيوتنا من قنوات الفساد والرذيلة.

هذه ذكرى للأمة؛ لعل فيها براءة للذمة وإقامة للحجة، وقد كثر الفساد وعم وطم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، واصرف عنا يا الله المحن وسوء الفتن ما ظهر وما بطن، اللهم أصلح شباب المسلمين واهدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الرسول المجتبى، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

إن من الأخطار التي تهدد كثيرًا من البيوت سوء استخدام الهاتف، وعدم مبالاة أولياء الأمور مع من يتحدث أبناؤهم ومع من تتحدث بناتهم، حتى وصل الأمر إلى وقوع حوادث وخيمة عن طريق المعاكسات الهاتفية التي عمت بها البلوى في كثير من مجتمعات المسلمين، ولعل المعاكسة أشهر وأسهل داء اجتاح المجتمع بأكمله، وأصبحت عن طريق الجوال بصفة خاصة ظاهرة ملموسة وخطيرة.

لقد أصبح كثير من المراهقين والمراهقات يستخدمون هذه الأجهزة فيما يضر ولا ينفع ويخفض ولا يرفع بدون رقابة من الوالدين، غافلون تماما عن أبنائهم، فالثقة بالأبناء أكثر من اللازم تطيح بالأسرة وتهدمها، والاعتدال خير مجال لتربية الأجيال..

أيها الآباء: إن هذه نعمة عظيمة، فبدل من أن تسخر في الشر وتقريب الفواحش والمنكرات! ينبغي أن تسخر في الخير والنفع والتطور مع شيء من التوجيه والرقابة والتشجيع والعناية.

أليس من المعيب أن نرى الغرب والشرق يصنعون الآلات والأجهزة المتطورة ويتفوقون بالصناعات والعلوم ونحن نغمس في السفاسف والرذائل والمغازلات والمعاكسات؟ نأخذ منهم الوسخ ونترك الذهب!

وإن من الشباب من انخرط في مثل هذه الأمور، وبعضهم انبرى لنشر ما لا يليق من المقاطع ونحوها فكان سببًا في فساد غيره، فلما جاءه الأجل تأتي الاستفتاءات عن حكم ذلك وكيف يتم التكفير عنه؟ نسأل الله العافية وحسن الخاتمة.

أيها الشباب: ماذا أعددتم للقبور الموحشة؟! هل أعددتم عشرين أغنية وثلاثين صورة خليعة وخمسين فلما محرما؟! ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦].

أيها الشاب: مهما بلغ تقصيرك، ارجع إلى ربك واندم صادقًا واستغفر، لكن إياك أن تنشر لأصحابك أو معارفك شيئًا لا يرضاه الله، لا تنشر شيئًا تخشى بسببه الإثم والفضيحة أمام الله يوم تلقاه، تكفينا خطايانا وذنوبنا، فلا ينبغي أن نضيف عليها ذنوب غيرنا، فنكون كمن قال الله فيهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]. إن السعيد من يموت فتموت سيئاته وتبقى حسناته جارية، وإن الشقي من يموت فتموت حسناته وتبقى سيئاته جارية، نسأل الله التوفيق والهداية.

أيها الناس: إن تطهير المجتمع من هذه الآفات مسؤولية الجميع، كل حسب طاقته، «كلكم راع، وكلم مسؤول عن رعيته»، وصح عن النبي أنه قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»(١).

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن هذه الأجهزة العصرية سلاح ذو حدين، فيها الخير والشر، والمسلم العاقل يستخدمها في الخير ويسخرها في نفع وطنه ومجتمعه، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير، والسراج المنير...



(١) رواه أحمد وصححه أحمد شاكر (١/ ٣١) والألباني في شرح الطحاوية (٥٠٤).

تكريم المرأة في الإسلام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، الذى له ملك السموات والأرض وخلق كل شيء فقدره تقديرا، أشهد أن لا إله إلا هو خلق الإنسان من نطفة أمشاج يبتليه فجعله سميعًا بصيرا، ثم هداه السبيل إما شاكرًا وإما كفورا.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله ربه بالحق هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها المسلمون: إن المستقرئ للتاريخ والباحث في أحوال الأمم وعن حال المرأة في ظل الجاهليات القديمة لها والحديثة، يدرك أنها تعيش تحت الذل والاستعباد، والكيد والقهر والتسلط، فكأني بها تحادث نفسها وهي تعيش مأساة حقيقية تقول: لِمَ خُلقَت أنثى ولم تُخلق ذكرًا قويًا جبارًا متسلطا؟! إن كانت هذه هي الحياة فبطن الأرض خير من ظهرها؛ لأنها لا إرادة لها ولا رأي ولا حق ولا قيمة.. !

---

(١) منصور الغامدي.

لقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام ينظرون إلى المرأة على أنها متاع من الأمتعة التي يمتلكونها، مثلها مثل الأموال والبهائم التي يتصرفون فيها كيفما شاءوا. وكانوا العرب لا يورّثون المرأة، ويرون أنها ليس لها حق في الإرث، وكانوا يقولون: (لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة!).

وكذلك لم يكن للمرأة على زوجها أي حق، وليس للطلاق عدد محدود، وليس لتعدد الزوجات عدد معين. وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد من غيرها فإن الولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من غيره، فهو يعتبرها إرثًا كبقية أموال أبيه، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه، فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها، أو يحبسها حتى تفتدي بصداقها، أو تموت فيذهب بمالها».

وقد كانت العدة للمرأة إذا مات زوجها سنة كاملة، وكانت المرأة تحد على زوجها لمدة عام كامل، فتلبس شر ملابسها وتسكن شر الغرف، وتترك الزينة والطيب والطهارة، فلا تمس ماء، ولا تقلم ظفرًا، ولا تزيل شعرًا، ولا تبدو للناس في مجتمعهم، فإذا انتهى العام خرجت بأقبح منظر وأزرى هيئة.

كما كانوا يكرهون البنات فيدفنونهن أحياء خشية العار كما يزعمون، وقد ذمهم الله وأنكر عليهم فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

هكذا كان حال المرأة في الجاهلية قبل الإسلام عند العرب، وكذلك كان حالها عند غير العرب، فكان اليهود مثلًا إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها ولا يجالسونها، بل ينصبون لها خيمة في وسط البيت، وكأنها نجاسة أو قذارة.

وكانتِ المرأة عندَ الإغريق محتقرةً مَهينة، وكانتْ كسقط المتاع تُباع وتشترَى في الأسواق.

وأما عند الهنود: فلم يكن للمرأة حقٌّ في الحياة بعْدَ وفاة زوْجها، بل يجب أن تموتَ يومَ مات زوجها، وأن تُحرَق معه وهي حيَّة على موقِد واحد، واستمرَّتْ هذه العادة إلى القرن السابع عشر.

وكذلك كان حالها عند الشعوب الأخرى كالفرس والرومان وغيرهم، بتفصيلات كثيرة ليس هذا مقام تفصيلها، ويكفي ما ذكرناه نموذجًا عن حال المرأة في تلك الحضارات والمجتمعات.

أيها المؤمنون: لكن الله الرحيم اللطيف بعباده لم يشأ أن يطول الظلام، وتستمر الظلامة على المرأة فجاء الله بالإسلام وأرسل محمدًا رحمة للعالمين ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، فأشرق وجه الأرض بالنور، وبدا ثغر الدنيا ضاحكا، وانطلقت أشعة الشمس في سباق محموم لتطرق على المرأة باب خدرها، فتقول: أبشري بخير يوم طلعت فيه الشمس عليك، ولتأخذها إلى عالم أكثر إنصافًا، وأعظم رحمة، وأهدى سبيلا، إنه موعد طالما انتظرته المرأة، موعدٌ مع السعادة الحقة، موعد مع التكريم والعزة، موعد مع الحرية الحقيقية والعدل المنشود.

لما جاء الإسلام ونزل القرآن رفع الله مكانة المرأة وأعزها وأكرمها، يقول أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئًا، فلما جاء الإسلام، وذكرهن الله، رأينا لهن بذلك علينا حقًا».

أيها الكرام: أنَّى لي أن آتي على كل مظاهر إعزاز وتكريم المرأة في ظل الإسلام؟ وكيف يتسع المقام في هذه الخطبة القصيرة؟ من أين أبدأ؟ وماذا عساي أن أقول؟ ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم.

لقد ساوى الإسلام في أغلب تكاليف الإيمان بين النساء والرجال، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما النساء شقائق الرجال»[1].

فلها ما للرجل من الحقوق، وعليها أيضًا من الواجبات ما يُلائم تكوينَها وفِطرتها، وعلى الرجل بما اختصَّ به من شرف الرجولة، وقوَّة الجلَد، وبسطة اليد، واتِّساع الحيلة، أن يلي رياستها، فهو بذلك وليُّها، يحوطها بقوته، ويذود عنها بدَمِه، ويُنفق عليها من كسب يدِه.

---

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيق الترمذي والألباني في صحيح الجامع.

ذلك ما أجمله الله، وضمَّ أطرافه، وجمع حواشيه، بقوله تباركتْ آياته: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

ولقد نَعِمتِ المرأة تحتَ دِين الإسلام العظيم بوُثُوقِ الإيمان، ونهلتْ مِن مَعِين العِلم، وضربتْ بسَهم في الاجتهاد، وشرع لها مِنَ الحقوق ما لَم يشرعْ لها في أمة مِن الأُمم في عصْر مِن العصور، فقد أمعنتْ في سبيلِ الكمال طلقةَ العِنان، حتى أحملتْ مِن بين يديها، وأعجزتْ من خلفها، فلم تشبهها امرأةٌ من نِساء العالمين في جَلال حياتها، وسناء منزلتها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

وعنْ أمِّ سلمة زوْج النبي ﷺ أنَّها قالتْ للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال، قالتْ: فلم يَرُعْني - أي: يفزعني ويُفاجئني - منه يومئذٍ إلاَّ ونداؤه على المِنبر، قالت: وأنا أُسرِّح شعري فلففتُ شعري، ثم خرجتُ إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلتُ سمعي عندَ الجريد - معناه: أنها رفعت رأسَها إلى جهة الجريد الذي هو سقْف المسجد إذ ذاك لقُرْب النبيِّ ﷺ - فإذا هو يقولُ عندَ المنبر: «يا أيُّها الناس، إنَّ الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] إلى آخر الآية ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]»[1].

وقد يظن ظان أن أجور الرجال أكثر عند الله لما يقومون به من شهود الجماعات، والجنائز، والجهاد وغيرها، والصحيح أن أجر المرأة كأجر الرجل متى قامت بأعمال يسيرة، فأخلصت

(١) أحمد (٢٦٥٧٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤١)، وصحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبي (٢/ ٤١٦).

لزوجها، وأحسنت القيام على بيتها وبنيها، قال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحصّنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت»[1].

ومن عظيم أجر المرأة عند ربها، «أن رسول الله عاد عبد الله ابن رواحة، فما تحوز له عن فراشه، أي: تنحى، فقال: أتدري من شهداء أمتي؟ قال: قتل المسلم، قال: إن شهداء أمتي إذًا لقليل، قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء، تموت وفي بطنها ولد شهادة، يجرها ولدها بسرره إلى الجنة»[2].

أيها الأحبة: لقد كان النبي ﷺ يوصي أمته بالنساء خيرا وأن يرفقوا بهن، قال عليه الصلاة والسلام: «إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم»[3]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عوانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «واستوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»[5].

أيها الاخوة الكرام: إن المرأة تمر بمراحل ثلاث: تكون بنتا ثم تكون زوجا ثم تغدوا أمّا، ولكل مرحلة من المراحل الثلاث التي تمر عليها تعيش المرأة قرر لها الإسلام أسمى مظاهر العطف والرحمة والعزة والرفعة.

فإذا كانت المرأة بنتًا فهي حجاب من النار وسبب لدخول الجنة، ولقد اعتنى بها الإسلام أيما عناية وصانها وحفظها وفرض لها حقوقا، وحث على حسن تربيتها ورعايتها، قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو. وضم أصابعه، أي معًا»[6]،

---

(١) صحيح الجامع (٦٦٠).

(٢) صحيح الترغيب (١٣٩٤) عن عبادة بن الصامت.

(٣) صحيح الترمذي (١١٦٢).

(٤) صحيح الترمذي (٣٠٨٧).

(٥) رواه البخاري (٥١٨٥) ومسلم (١٤٦٨).

(٦) رواه مسلم (٢٦٣١).

وعن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله يقول: «من كان لـه ثـلاث بنـات فصـبر عليهن وسقاهن وكساهن من جِدَتِه، [يعني ماله]، كن له حجابا من النار»[1] إن مـن يسـمع هـذا الثنـاء والإطـراء ليجتهـد ويجهـد في الإحسـان إلـيهن، والعمـل عـلى إحسـان تربيتهن تربية صالحة.

ومن الناس من إذا رُزق إناثا ولم يرزق الذكور تبرّم وتضجر، وتشاءم وحزن، وقـد نهـى الله تعـالى عـن كـل ذلـك فقـال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨] قال واثلة بن الأسقع: «إنّ مِن يُمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذَّكَر؛ لقوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] فبدأ بالإناث».

وكتب أحد الأدباء رسالة إلى صديق له يهنئه بالبنت فيقول: (أهلًا وسهلا بعقيلة النسـاء، وأم الأبنـاء، وجالبـة الأصـهار، والأولاد الأطهـار، والمبشـرة بـإخوة يتناسـقون، ونجبـاء يتلاحقون):

فلـــو كـــان النســـاء كمـــن ذكرنـــا لَفُضِّـــلت النســـاء عـــلى الرجـــالِ

ومـــا التأنيـــث لاســـم الشـــمس عيـــبٌ ومـــا التـــذكير فخـــرٌ للهـــلالِ

فها هي البنت تعيش جوهرةً مصونة، ودرة مكنونـة في كنـف دينهـا، تلقـى كـل الحـب والرعاية، وتتعلم التربية السوية الصالحة من أبويها لتكون غدًا زوجًا صالحةً مُصلحة.

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢٩٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وأكرمنا به، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

يا دُرّةً حُفظت بالأمس غاليةً ... واليوم يبغونها للّهو واللعبِ

يا حرةً قد أرادوا جعلها أمةً ... غريبة العقل، لكن اسمها عربي

هل يستوي مَن رسول الله قائدُهُ ... دومًا، وآخر هاديهِ أبو لهبِ؟!

وأين من كانت الزهراءُ أُسوَتُها ... ممّن تقفّت خُطى حمّالة الحطبِ؟

أنت ابنةُ العُربِ والإسلام عشتِ به ... في حضن أطهر أُمٍ من أعزّ أبِ

سبيلُ ربك والقرآن منهجهُ ... نورٌ من الله لم يُحجب ولم يغبِ

صوني حياءك، صوني العِرض، لا تهني ... وصابري واصبري لله واحتسبي

أيها الاخوة الكرام: وإذا غدت المرأة زوجة فقد سما بها الإسلام إلى العلياء، وجعل رباط الزواج من نعمه سبحانه على عباده، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١] وقد أوجب الإسلام هدية تكريم للمرأة حين إقبالها على بيت الزوجية، قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء:٤] فلا يجوز لأحد أكل مهرها أو التصرف منه بغير إذنها الكامل ورضاها الحقيقي، فإذا ما تزوجت فإن على الزوج أن ينفق عليها، والنفقة تشمل الطعام والشراب والملبس، وما تحتاج إليه الزوجة لقوام بدنها؛ لقوله تعالى﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [الطلاق:٧]، وعن معاوية بن حيرة قال: قلت يا رسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تقبح، ولا تضرب الوجه»[1] وقال عليه

---

(١) صحيح أبي داود (٢١٤٢).

الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»[1] وعن أبي هريرة قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجر الذي أنفقته على أهلك»[2].

ومن حقوق المرأة المتزوجة أن يكون لها مسكن تستظل بظلاله، وتنعم بالقرار فيه، وتحس أنها مديرة شؤونه، ومسؤولة عن كل صغيرة وكبيرة فيه، قال الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق:٦] فإذا وجبت السكنى للمطلّقة، فالتي في صلب النكاح أولى، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩] ومن المعروف أن يسكنها في مسكن.

ولم تكلف المرأة بشيء من الإنفاق، سواءً كانت أُمًا أو أختًا، أو كانت زوجةً، قادرة على العمل أو عاجزة عنه، غنية كانت الزوجة أو فقيرة، وسواء كان زوجها قادرا على العمل أو عاجزا عنه، غنيا كان أو فقيرا، فالرجل هو المسؤول عن النفقة البيتية، وليس من حق أحد أن يلزمها، إلا إذا رغبت في المساهمة بشيء من مالها استحبابًا لا وجوبًا عن طيب نفس.

ومن حقوق الزوجة التي كفلها الإسلام أن يعلمها زوجها أمور دينها فيعلمها أركان الإيمان وأحكام الطهارة والعبادات ولا سيما الصلاة، ويحثها على أدائها في أول وقتها وشروطها وأركانها مفسداتها؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، ومن وقايتها من النار تعليمها أمر دينها، وقد أثنى الله على نبيه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥] ومنها: المعاشرة بالمعروف، وقد أمر الله بها، كيف لا، وقد اجتمعت الأبدان والأرواح في مكان واحد، وأصبح المصير واحدا، والهم هم واحدًا، فإن كره منها شيئًا ندب له أن لا ينسى بقية فضائلها وجوانب الخير فيها لما قد يصدر منها من عيب أو تقصير، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩] وقيل في المعروف: أن لا يضربها، ولا يسيء الكلام معها، ويكون منبسط الوجه معها، ومن المعاشرة بالمعروف: أن يناديها بأحب الأسماء، وأن يكرمها في أهلها عن طريق الثناء عليهم.

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٩٢).

(٢) رواه مسلم (٩٩٥).

ومن حسن معاشرة النبي وبساطته مع أزواجه: ما جاء عنه أنه قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى، قالت: ومن أين تعرف ذلك، فقال: أما إذا كنت راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى لا ورب إبراهيم، قالت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك»[1].

ثم بعد حياة السعادة الزوجية تغدوا الزوجة أما وتحمل مسؤولية كبيرة في تربية ليوث المستقبل، ورجالات الأمة، فهي المحضن الخصب الذي يخرج منه إلى الحياة أولئك الأبطال.

ومما أوجب الله في حق الأم برها والإحسان إليها قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء:٣٦] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يريد البر بهما مع اللطف ولين الجانب، فلا يغلظ في الجواب، ولا يحد النظر إليهما، ولا يرفع صوته عليهما، بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدي السيد كلا لهما». وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣] فقد نهى الله أن يقول الابن لأمه: (أف) وهي أقل كلمة، فكيف بما هو أعظم منها؟ «جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»[2].

فالأم من أعظم الناس فضلا وأحق الناس بالإكرام والإحسان، ومن لا خير له في أمه فلا خير له فيمن هم دونها: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي أنه قال: «دخلت الجنة فسمعت قراءة فقلت من هذا؟ فقيل: حارثة بن النعمان. فقال رسول الله وكذلكم البر. كذلكم البر» وزاد عبد الرزاق في روايته، وكان أبر الناس بأمه»[3]. وجاء في الأدب المفرد أن رجلا يمانيا حمل أمه وراء ظهره يطوف بالبيت فرأى ابن عمر فقال: إني لها بعيرها المذلل إن أذعرت ركابها لم أذعر، الله ربي ذي الجلال الأكبر، حملت أكثر مما حملت، فهل ترى جازيتها يا ابن عمر؟ ثم قال: يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: «لا ولا بزفرة واحدة، ولكن قد أحسنت، والله يجزيك على القليل كثيرًا».

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٨) ومسلم (٢٤٣٩).

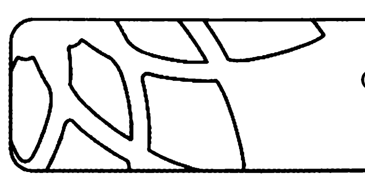
(٢) رواه البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨).

(٣) السلسلة الصحيحة (٩١٣).

أيها المسلمون: ها هي المرأة المسلمة التي رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، ها هي قد حُفت بسياج عظيم من التكريم، وأمطرت عليها سحب الرسالة فيضا من الحفظ والصون، والاهتمام والرعاية حتى عُدَّت مشارِكة قوية وفعالة في الحياة، لا تصلح الحياة إلا بصلاحها ولا تستقيم بدونها. وإن أقوامًا تمردوا على شرع الله، ومشوا في الأرض على غير هدى من الله، فهربوا من التفريط إلى الإفراط ومن الجفاء إلى الغلو، ولأن عندهم عقدة نقص مما فعلوه من اضطهاد وظلم للمرأة غلوا فأرادوا فرض المساواة المطلقة بينها وبين الرجل، فوقعوا فيما فرّوا منه، وظلموها من الناحية المقابلة، ذلك لأن مساواة المرأة بالرجل فيه إلغاء لخصوصياتها التي ميزها الله بها، وعدم مراعاة لحالاتها الخاصة التي راعاها الإسلام، وهذا من حكمة الله وعلمه بخلقه ولطفه بهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].







رسالة إلى العفيفات [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله قدَّر المقاديرَ فأحاطَ بها علمًا، وخلقَ الخلائقَ فأحكمَها خلقًا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ [غافر:١٣].

لا إله إلا هو أماتَ وأحيَا، وأضحكَ وأبكَى، وأسعدَ وأشقَى، أشكرُه على نعمائِه لا أُحصِي لها عدًّا، وأحمدُه على آلائِه لا أقضِي له بالحمد حقًّا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ حقٍّ ويقينٍ تعبُّدًا ورِقًّا.

وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه هو الأخشَى لربِّه وأتقَى، صلَّى الله وسلَّم وبارَكَ عليه، وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابِه الغُرِّ الميامين الأخيار، حازُوا المكارِم شرفًا، ونالُوا العُلَا سبقًا، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ما بلغَ هذا الدينُ مبلغَ الليل والنهار، وما رفرفَت أعلامُه غربًا وشرقًا، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد: فيا أيّها المسلمون، اتّقوا الله فإنّ تقواه أفضلُ زاد، وأحسنُ عاقبةٍ في معاد ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

أيّها المسلمون:

زعَمَ السفورَ والاختلاطَ وسيلةً ... للمجد قومٌ في المجانةِ أغرَقوا

كذبوا متى كان التعرُّضُ للخنَا ... شيئًا تعزُّ به الشعوب وتسبق؟![2]

قومٌ تعاظم حِقدهم، واشتدَّ عُدوانهم، ليأتيَ على الفضيلة أعنفُه وعلى الحِشمة أشنعُه وعلى الطّهارة أبشعُه؛ لأنّ العِفّة تثيرُ غيظَهم وتُمضّ أفئدتَهم وتحرِق قلوبهم.

---

(١) صلاح البدير.

(٢) من قصيدة (السفور والخلاعة) للشاعر محمد حسن النجمي.

ومـا عـلى العنـبَرَ الفـوّاحِ مـن حـرجٍ   أن مـات مـن شـمّة الزبّـالُ والجعَـل[1]

نشؤُوا في حضنِ الإسلام، وتربَّوا في بلاده، فلمّا شبُّوا عن الطّوق استساغوا علقـمَ العِـدا واستحبّوا العمَى على الهُدى وحمَلوا معاولَ الهدمِ ورفعوا لواءَ الكيدِ والمكر الصُّراح، فأيُّ خيرٍ يُرتجى ممّن سبَق للعِدا تعبيدُه ورِقُّه وتعـذر فكُّـه وعِتقُـه؟! فهـو الوكيـلُ المكـتَرى والمملـوكُ المشتَرى والخادمُ المرتَضى.

فُسولُ الرجال، الغَشَشَة الضُّلاَّل، أثاروها عجابةً هوجـاء، وخطّوهـا مقـالاتٍ خَرقـاء، ضـدَّ المجتمـعِ المسـلم الطـاهر، وضـدّ المـرأة المسـلمة، لإسـقاط حجابهـا وتـدنيسِ شرفهـا وإنزالهـا في ميـادينِ الرجـال وزجِّهـا في جميـع الوظـائفِ والأعـمال وتأسـيس الاخـتلاط وغَرس نبتَتِه الخبيثة ووضعِ لَبِنتـه النّجسـة، فقطعهـا الله مـن أكـفٍّ، وأخرسَـها مـن ألسُـن، وأخمَـدَها مــن أنفــاس ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبـة:١٠٧] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقـــــرة:١١] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢].

أيّها المسلمون: لقد وضَع الإسلام حدًّا وسَدًّا لحمايةِ المرأة من مُعابثة الفُسّاق ومطامِع أهل الرِّيَب والنفاق، وستظلّ بالإسلام في إطارِ الشّرَف والفِخار والإجلال والإكبار، درّةً مصونة وزعيمة شريفة وحرّة عفيفة وشقيقة كريمة. حجابها جمالُها، وسِترها جلالُها، وجلبابُها عِزُّهـا وكمالُها، مِن الإسلام تستمدُّ هديَها، وبسنّةِ رسول الله تشقُّ طريقَها.

وليخسأْ دعاةُ الافتراءِ المفضوح وأنصار المذهب المقبوح، فلن تجنيَ المرأة مـن الاخـتلاطِ والظهور والتكشُّف والحسُـور إلا النّظـرات المتلطِّخـة والتحرّشـات العابثـة والاعتـداءات الفاحِشة والكلالَ والنكالَ والوبال ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النســـاء:١١٩]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

---

(١) من لامية ابن سند.

أيّها المسلمون: لقد قامت هذه الدّعواتُ الآثمة والشّعارات المضلِّلة في غابرٍ من الزّمن في عددٍ من الأمصار والأقطار، ونجح أصحاب هذه الدعوات في إنزال المرأة من قصرها المنيع واستدراجها من حِصنها الرّفيع، فخلعت حجابَها، وغادرت حِصنها ومخدعَها، وتحرَّرت كما زعموا من سلطان الستر، وانطلقت في كلِّ مكان، وعملت في كلّ ميدان، فماذا كانت النتيجة؟! انحسارٌ في أخسّ دركاتِ العبَثِ والفجور، وانغِماسٌ في أسفل دَركات الخلاعة والمجون. بعد أن كانت درة مصونة، ولؤلؤة مكنونة..

وحُقّ لنا أن نتساءل: ماذا أضحتِ المرأة المتحرّرة كما زَعموها والمرأةُ الحديثة كما نعَتوها والمرأة العصريّة كما وصَفوها؟ لقد ابتُذِلت غايةَ الابتذال، واستغِلَّت غايةَ الاستغلال، واستُعبِدَت واستُرِقّت، وغَدت أداة لهوٍ وتسليةٍ في يد العابثين الفُجّار والفَسَقة الأشرار، تعمل بثدييها قبل يدَيها، راقِصةً في دورِ البِغاء، وعارضةً في دورِ الأزياء، وغانيةً في دور الدّعَارة والتّمثيل، فأينَ أُكذوبة تحريرِها وتكريمها؟! وصدق رسول الله: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء، فاتّقوا الدنيا واتّقوا النساء، فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

أيّها المسلمون: إنّ حتميَّة الفصلِ الدقيق والعميق بين الرجلِ والمرأة يُعدُّ ضرورةً أخلاقيّة وسلوكيّة واجتماعية وأمنية؛ لأنّ تمكينَ الاختلاط بين الرجال والنساء أصلُ كلِّ بليّة ونقيصة وأساسُ كلِّ شرٍّ ورذيلة، فعن عقبة بن عامر الجهنيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «إيّاكم والدخولَ على النساء» فقال رجل من الأنصار: يا رسولَ الله، أفرأيتَ الحموَ؟ قال: «الحموُ الموت»[2] وعن أمّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله إذا سلّم -أي: إذا فرَغ من الصلاة- مكَث قليلًا، وكانوا يَرونَ أنّ ذلك كيما ينفذ النساءُ قبل الرجال[3]. وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله: «لو تركنا هذا البابَ للنّساء»، قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى

(١) رواه البخاري (٤٧٠٦)، ومسلم (٤٩٢٣)، (٤٩٢٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣١)، ومسلم (٤٠٣٧).

(٣) سنن أبي داود (٨٧٦)، وهو عند البخاري (٧٩٣).

مات[1]. وعن أبي أسيد الأنصاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه سمع رسول الله يقول وهو خارجٌ من المسجد فاختلط الرّجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله للنساء: «استأخِرن، فإنّه ليس لكنّ أن تحقُقن الطّريقَ، عليكنّ بحافّات الطريق»[2] ويقول جلّ في علاه في كتابه العزيز وكلامه البليغ الوجيز: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

تلك أدلّةٌ من الكتاب والسنة تردُّ أباطيلَ كلِّ مارق وتحسِم أضاليلَ كلِّ ماذق ممّن عدَلَ عن مَوردهما العذبِ الزُّلال إلى آسِن قلّوطِ أهل الفِسق والضّلال.

يا فتاةَ الإسلام، كوني كما أرادَكِ الله وكما أراد لك رسولُ الله، لا كما يريدُه دعاةُ الفتنة وسُعاةُ التبرُّج والاختلاط، فأنتِ فينا مُربِّيةُ الأجيال وصانعةُ الرجال وغارسةُ الفضائل وكريمِ الخصال ومرضِعةُ المكارم وبانيةُ الأمم والأمجادِ، فحاشاك حاشاك أن تكوني مِعوَلَ هدمٍ وآلةَ تخريب وأداةَ تغيير وتغريب في بلادِ الإسلام الطّاهرة وربوعِه العامرة ضِدّ أمّة محمّد.

يا نساءَ المسلمين: إنّ الله رفعكنَّ وشرّفكنّ، وأعلى قدركنّ ومكانتكنّ، وحفِظ حقوقكنّ، فاشكُرنَ النعمة، واذكُرن المنَّة، فما ضُرِب الحجابُ ولا فُرِض الجِلباب ولا شُرع النقاب إلاّ حمايةً لأغراضِكن وصيانةً لنفوسِكن وطهارةً لقلوبكنّ وعصمةً لكنّ من دواعي الفتنة وسُبُل التحلُّل والانحِدار، فعليكنّ بالاختِمار والاستِتار، واغضُضنَ من أبصاركنّ، واحفظن فروجَكنّ، واحذَرن ما يلفِت الأنظارَ ويُغري مرضَى القلوبِ والأشرار ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]. استُرن وجوهكنّ وزينتكنّ ومحاسنكنّ عن الرّجال الأجانب عنكنّ.

ولتحذَر المرأةُ المسلمة الرقيقَ من الثيابِ الذي يصِف ويشفّ، والضيِّقَ الذي يبين عن مفاتِنها وتقاطيعِ بدنها وحجمِ عظامها، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله:

---

(١) سنن أبي داود (٣٩١، ٤٨٤)، ورواه عقِبه موقوفا على عمر بن الخطاب وقال: (وهو أصحّ)، وذكر الجزء المرفوع الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٣٩، ٥٣٤).

(٢) حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٣٩٢).

«المرأةُ عورةٌ، فإذا خرجت استشرَفها الشيطان، وأقرَب ما تكون من ربِّها إذا هِي في قعرِ بيتِها»[1].

ولتحذرِ المرأة المسلمةُ أن تمرَّ على الرجالِ متعطِّرةً متبخِّرة، يقول رسول الهدى: «إذا استعطَرت المرأة فمرَّت بالقومِ ليجدوا ريحَها فهي زانية»[2]، وعن عُبيد مولى أبي رُهم أنّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقيَ امرأةً متطيّبةً تريدُ المسجدَ، فقال: يا أمةَ الجبّار، أين تريدِين؟ قالت: المسجد، قال: وله تطيَّبتِ؟! قالت: نعم، قال: فإني سمعتُ رسول الله يقول: «أيّما امرأةٍ تطيّبت ثمّ خرجت إلى المسجد لم تُقبَل لها صلاةٌ حتى تغتسِل»[3]، وعن عمرةَ بنتِ عبد الرحمن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لو أنّ رسولَ الله رأى ما أحدثَ النساءُ لمنعهنّ المسجدَ كما مُنِعَت نساءُ بني إسرائيل، قيل لعمرةَ: نساءُ بني إسرائيل مُنِعنَ من المسجد؟! قالت: نعم[4].

ولتحذرِ المرأة المسلمةُ أن تخضعَ بقولها أو تترَقرَقَ في لفظها أو تتميَّع في صوتها أو تتنظّم وتتكسَّر في كلامِها مع الرجال، فتُطمِعَ فيها ضعيفَ الإيمان ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

والمرأةُ الشريفة العفيفَة لا تقبلُ أن تكونَ نبعَةَ إثارةٍ أو مثار فتنة للأعين الشرِهَة والنظراتِ الخائنة الوقحة والنفوس السافِلة الدنيئةِ والأقوال المهينةِ البذيئة، قال جلّ في علاه: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩].

فأين الامتثال؟! وأين الاستجابة في الحال؟! فعن أم سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩] خرج نساءُ الأنصار كأنّ على رؤوسهنّ

---

(١) صحيح ابن حبان (٥٥٩٨، ٥٥٩٩)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٧٣)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٦٨٨).

(٢) حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٥١٦).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٣٣).

(٤) رواه مسلم (٦٧٦)، وهو أيضا عند البخاري (٨٢٢).

الغربان من الأكسية. أخرجه أبو داود[1] وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كُنّ نساء المؤمنات يشهَدن مع رسول الله صلاةَ الفجر متلفّعاتٍ بمروطهنّ، ثم ينقلبنَ إلى بيوتهنّ [حين] يقضين الصلاة، لا يعرفهنّ أحدٌ من الغَلَس[2].

أيّتها المرأةُ المسلمة: تجلّي بأشرفِ إكليل وتلفّعي بأهدَى سبيل وانتمي إلى خيرِ قَبيل، تجلّي بالتقوى والإيمانِ والخشية والخوفِ والحياء من الرحمن، واحذري كلَّ متبرِّجةٍ داعِرة وكلَّ حاسِرة وسافِرة وكلّ ماجنةٍ وكافرة، وأرعِي سمعَك لقول رسولِ الهدى: «صنفان من أهلِ النار لم أرَهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقر يضرِبون بها الناس، ونساءٌ كاسيات عاريات مميلاتٌ مائلات، رؤوسُهنّ كأسنِمَة البُخت المائلة، لا يدخلنَ الجنة ولا يجِدن ريحَها، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرةِ كذا وكذا»[3] والطبراني وزاد: «العنوهنّ فإنهن ملعونات»[4].

هذا مصيرُ العاريةِ من خشية الله، العاريةِ من شكر نعمةِ الله، العاريةِ من الأخلاق الكريمة، هذا مصير من تبرّجت وترجّلت ومرجت وبرزت وتكشّفت وفتَنت وافتُتِنَت، فاحذَري سوءَ الخاتمة، ولا يحُل بينك وبين الخاتمة الحسنةِ والدارِ الطيبة في الجنّة العالية دعاةُ المخادنة وأعداءُ الشّرف وأنصار التحلُّل والتفسُّخ والانحدار.

أيّها المسلمون: كلّ ما أدّى إلى محذور فهو في الشّرع محظور، وإنّ من أعظم أسباب الفساد والحيدِ عن سبيل العِفّة والرشاد سَفَرَ المرأة وليس مَعها ذو محرم منها أو خلوتها بأجنبيّ عنها، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله يخطب ويقول: «لا يخلوَنّ رجلٌ بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافِر المرأة إلاّ مع ذي محرم»، فقام رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إنّ امرأتي خرجت حاجّةً وإني اكتُتِبتُ في غزوةِ كذا وكذا، فقال النبيّ: «انطلِق فحُجَّ مع امرأتك»[5]،

---

(١) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٤٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥٤٤)، ومسلم (١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢).

(٣) رواه مسلم (٣٩٧١).

(٤) المعجم الصغير (١١٢٥) والأوسط (٩٣٣١) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو أيضا عند أحمد (٢/ ٢٢٣)، وصححه ابن حبان (٥٧٥٣)، والحاكم (٨٣٤٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٦٨٣).

(٥) رواه البخاري (١٧٢٩)، ومسلم (٢٣٩١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ عمر بن الخطاب خطبَ بالجابية فقال: قام فينَا رسول الله مقامِي فيكم فقال: «لا يخلوَنّ أحدكم بامرأةٍ فإنّ الشيطان ثالثُهما»[1]. كلّ ذلك سدًّا للذرائع وحَسمًا للوسائل المفضِية إلى وقوع الفواحِش.

أيّها الآباء والأولياء: صونوا نساءَكم، واحفَظوا أعراضَكم وأنسابكم، واجتنِبوا التفريطَ والتشاغُل، وحاذروا التقصيرَ والتساهلَ الذي لا تُؤمَن لواحِقُه وتوابعُه وتواليه وعواقبه، بيدَ أنّ عاقبتَه بوار وخاتمته خَسار، كونوا أُباةَ العَار وحُماةَ العَرين، كونوا كمحافظٍ متنبِّهٍ لا يغفل، ومُراعٍ متيقِّظٍ لا يُهمِل. واعلَموا أنّ أشرفَ الناس أشدُّهم غيرةً على نفسِه وأهله وعِرضه، ومَن لا غَيرة عنده فبطنُ الأرض أولى به من ظهرها، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «إنّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمّا استرعاه: حفظ أم ضيَّع؟ حتى يسأل الرجلَ عن أهل بيته»[2]، وفي الصحيحين: «والرجلُ راعٍ على أهلِه ومسؤول عن رعيته، والمرأةُ راعية في بيت زوجها ومسؤولةٌ عن رعيّتها»[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

جعلني الله إيّاكم من الهداة المهتَدين المتّبعين لسنّة سيّد المرسلين، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) مسند أحمد (١/ ١٨)، وهو في صحيح سنن الترمذي (١٧٥٨).

(٢) صحيح ابن حبان (٤٤٩٢)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (١٣/ ١١٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).

(٣) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٣٤٠٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشّكر له على توفيقه وامتنانِه، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد:

فيا أيّها المسلمون، اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيّها المسلمون: إنّ ممّا يذيب القلبَ كَمدًا ويعتصِر له الفؤادُ ألًما ما يحدثُ من مخالفاتٍ في الأعراس والأفراحِ ومنكراتٍ عظيمة في حفلات النكاح، أفراحٌ تعُجّ وتضِجّ بالمخالفات والمنكرات، استماع للمغنّين والمغنّيات والمطربين والمطرِبات الذين يتغنّونَ بأشعارِ الفِسق والفجور، والبعض يستأجر هؤلاء بمبالغَ باهظة وتكاليفَ عالية، سَفهٌ وإسراف ورِياءٌ وتبذير، وإيذاء واعتداء ناتجان عن رفع الصوت بالغناء، ونساءٌ متبرِّجات يلبسنَ ثيابًا شفّافةً وضيِّقة ومجسِّمة وعارية وشبهَ عارية، ورقص كرقص العاهرات، واختلاط للرّجال بالنساء، وبذلٌ طائش وإسرافٌ فاحِش في المآكل والمشارب الذي لا يخفَى مصيرُها، وسَهرٌ لا خيرَ فيه ولا تُحصَى مساويه.

أمورٌ مخجِلة ومحزنة سَرت إلى صفوف المسلمين بطريقِ العدوى والتقليدِ الأعمى، فاتقوا اللهَ أيّها المسلمون، فما هكذا تُشكَر النِّعم وتستدفَع النِّقم، فانتَهوا عمّا نهيتُم، واستدركوا الفائتاتِ بالتوجُّع للعثرات والخروج من التّبعات والتوبة من السيِّئات، والله يتوب على التّائبين.

أيها الناس: إن الإسلام يقصد إلى بناء مجتمع كريم يلتزم قيمه ويتميز بآدابه، ويلتزم بأحكامه، مجتمع نقي من بواعث الفتن، ومواطن الريب؛ التزامٌ للملابس السابغة المحتشمة التي تكرم ابن آدم وتحميه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩] أدب غض

البصر، وكف العيون الخائنة من البحث عن العورات: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠- ٣١].

تحريم الخلوة بين الرجل والمرأة غير ذات المحرم طهارة لقلوبهم وقلوبهن. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

المباعدة بين مجالس الرجال ومجالس النساء، حتى في المساجد دور العبادة فللرجال صفوفهم وللنساء صفوفهن. منع الاختلاط المحرم في التعليم والعمل وكل مجال يقود إلى الفتنة، تيسير سبل الزواج، والتزام الاستئذان والحشمة حتى لا تقع على عورات.

ومن أعظم الآداب في هذا الباب الكف عن إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وهذا للأسف ما تفعله كثيرٌ من وسائل الإعلام، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور:١٩].

ألا فاتقوا الله رحمكم الله واستمسكوا بدينكم، والزموا آدابه وحدوده، عبوديةً خالصةً، وسلوكا لمسالك الطهر والعفة يصلح الفرد كما يصلح المجتمع، فتسعدوا في الدنيا، وتسلموا وتفوزوا في الآخرة وتفلحوا، ثم صلوا وسلموا على نبيكم نبي الرحمة والهدى فقد أمركم ربكم جل وعلا فقال عز قائلًا عليمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأزواجه وذريته.



الخمار المزيف[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله العظيم شأنه، العزيز سلطانه، الدائم بره وإحسانه؛ نحمده تعالى ونشكره، نجعل الحياء شعبة من الإيمان، ومن لا حياء له فناقصٌ إيمانه، ونشكره عَزَّوَجَلَّ أمر المرأة بالتزام الحجاب والآداب، وعليها يقوم أساس البيت وبُنيانه، ونعوذ به تبارك اسمه أن يحيف رجال زماننا ونساؤه.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حفظ حق المرأة وأعلى قدرها، وجعل الحياء شطرين بين الرجال والنساء، وما أسعد الحياة إذا حفظت المرأة شطرها.

ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أظهر للعالمين فخرها، صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا من الشريعة سرها، وحفظوا للنساء حقوقهن، وألزموا المرأة خدرها، وعلى التابعين لهم بإحسان، وسلم تسليمًا.

أما بعد:

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وبالإنابة والرجوع إليه.

أيها الناس: لقد كنا نظن أن هذه الأحداث، وهذه المحنة المحدقة بنا سيكون لها أثرًا بالغًا في نفوسنا، ونفوس أبنائنا وإخواننا وأخواتنا، ومجتمعنا، وسيرجع فيها الجميع إلى الله، ولكن حدث من البعض ما لم يكن بالحسبان، اشتعلت أفكار المفسدين وأقلامهم، وقنواتهم وإعلامهم.

أيها المسلمون: لا يخفى عليكم ما عمت به البلوى في كثير من البلدان من تساهل الكثير من النساء بالحجاب والستر، وسفورهن وعدم تحجبهن عن الرجال، وإبداء الكثير منهن من

---

(١) محمد المحيسني.

زينتهن التي حرم الله إبداءها، وحيث أن هذا الداء من المنكرات العظيمة، والمعاصي الظاهرة، ومن أعظم أسباب حلول العقوبات ونزول النقمات؛ ذلك لما يترتب على التبرج والسفور من ظهور الفواحش، وارتكاب الجرائم، وقلة الحياء وعموم الفساد، وحيث أن أفكار المفسدين وإعلامهم، ما زالت تعمل كذلك في هدم الإسلام، وفي هدم قيمه وأخلاقه، فقد كان الأولى أن يكون الموضوع مشتملًا على حكم الحجاب، وموقف الإسلام من تحرير المرأة.

أيها الناس: كانت المرأة مهضومة مظلومة، معدودة عند كثير من الرجال في سقط المتاع، وكانت أوروبا وقوانينها الآثمة تسمح للآباء والأزواج أن تؤجِر المرأة وتعار، وتشترى وتباع، وكان شريعة الرومان تكف فم المرأة عن الكلام، وتلحقها بالكلاب وضواري السباع، وكان العرب يمنعونها من الإرث، ويئدونها صغيرة.. إلى غير ذلك من الإهانات، فجاءت هذه الشريعة السمحة وأخرجت المرأة من الظلمات إلى النور، وصارت مكلفة متصرفة بتصرفات توافق طبيعتها، وتتناسب معها، وخُفف عنها من الأحكام ما تعجز عنه رقة العواطف وضعف الطباع.

كما أمر الإسلام بالرفق بها، وإسداء الخير لها، فقال ﷺ في الحديث: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[(١)]، وقال: «استوصوا بالنساء خيرًا»[(٢)].

ثم حد الإسلام لها حدودًا تحفظها، وتحفظ عفتها وكرامتها، فشرع الله لها الحجاب؛ ليحجز العابثين عنها، ولكن أدعياء المدنية، وأتباع الشيطان من مدعيي تحرير المرأة يعدون الحجاب هضمًا لحقها، وحكمًا برقها، وكذلك يدعي كل أفّاك أثيم، فلقد ظل أعداء الإسلام، وما يزالون يكافحون لإخراج المرأة المسلمة من دارها، ومن سترها وعفافها، وذلك تحقيقًا لمآربهم الخبيثة، وأغراضهم المشبوهة.

وأخذ كتابهم وشعراؤهم ينادون المرأة ويناشدونها خلع الحجاب، والتعري والسفور، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ

---

(١) الترمذي (٣٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٩٢٥).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٥) ومسلم (١٤٦٨).

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]، قال ابن الجوزي: (﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]، أي: يغطين رؤوسهن ووجوههن).

أيها الإخوة والأخوات: وحتى لا ينزلق البعض وينجرف في تيار دعاة الضلال من أهل الفن الماجن والإعلام الفاسد؛ لا بد أن نعرف حكم الحجاب معرفة مستمدة من الكتاب والسنة، فقد دلت الآيات والأحاديث على وجوبه وأهميته، من ذلك:

قول الله سبحانه : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

ومن ذلك: قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان الركبان يمرون بنا، ونحن محرمات مع الرسول ﷺ، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها على وجهها من رأسها، فإذا جاوزونا كشفناه»(١).

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «إنما النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لم تمر بأحد إلا أعجبته، وإن المرأة لتلبس ثيابها، فيقال: أين تريدين، فتقول: أعود مريضًا، أو أشهد جنازة، أو أصلي في مسجد، وما عبدت المرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها»(٢) وهذا فيه دليل على أن بقاء المرأة في بيتها خير من خروجها حتى للعبادات والقربات.

وروى البخاري في صحيحه: أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١] شققن مروطهن فاختمرن بها»، قال ابن حجر: (اختمرن. أي: غطين وجوههن)(٣).

ودخلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة، وعليها خمار رقيق فشقته عائشة، وقالت: «أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور، ثم دعت بخمار كثيف فكستها»(٤).

---

(١) حسّنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٢٦٢٢).

(٢) صححه الألباني موقوفًا في صحيح الترغيب (٣٤٨).

(٣) البخاري: (٨٩١٤)، وفتح الباري (٨/ ٤٩٠).

(٤) الموطأ: باب ما يكره للنساء من الثياب رقم (١٦٢٥).

ويقول عاصم الأحول: (كنا ندخل على حفصة بنت سيرين، وقد جعلت الجلباب هكذا، وتنقبت به، فنقول لها: رحمك الله، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ [النور:٦٠]، قال: فتقول لنا: أي شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ [النور:٦٠])، كبيرة في السن، وقد رخص لها في كشف الوجه، ومع هذا فتأبى لتنال بذلك رضا الرحمن، وزيادة الأجر منه.

أيها المسلمون: إن المرأة المسلمة لقيت عناية فائقة من الإسلام بما يصون عفتها، ويجعلها عزيزة الجانب، سامية المكانة، وإن الضوابط والآداب والأحكام التي دُعيت إليها في ملبسها، وزينتها، وعلاقاتها، لم تكن إلا لسترها وحمايتها وسد ذريعة استغلالها من قبل الطامعين في أن يروها سلعة رخيصة وبضاعة كاسدة معروضة لمن هب ودب، وإن أعداء الإسلام ليدركون تمامًا أن المرأة إذا انحرفت عن هذا السبيل، وحطمت تلك الحواجز، وتعدت تلك الضوابط، فثارت على البيت والولد، وانكشفت في المجامع والأندية والأسواق، فهنالك يحققون ما يشتهون، وهناك الويل والوبال، والفتنة والدمار، لمجتمعات الإسلام؛ لذلك يقول أحد المستعمرين: (كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرموها في حب المادة والشهوات).

ويقول أحد كبراء الماسونية: (يجب علينا أن نكسب المرأة، فأي يوم مدت إلينا يدها تبدد جيش المنتصرين للدين).

ولعلمهم: أن هذا لا يتأتى إلا بنزع الحجاب أولًا، وبالاختلاط ثانيًا، فقد ركزوا عليهما مستعينين على ذلك بسفهاء من أبناء جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويخالطوننا في مجالسنا.

ويبدأ المنتفعون في دورهم، فيكتبون كتاباتهم، ويسخرون إعلامهم ليبدلوا ويحرفوا ما أنزل الله؛ طاعة لأعداء الله، ولكن لا غرو وقد أخبر النبي ﷺ عن دعاة على أبواب جهنم، هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا يسعون لتمزيق ديننا وطمس هويتنا، وهؤلاء هم ممن قال الله فيهم: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٢٧].

أيها الإخوة والأخوات: إن الأعراض إذا لم تُصن وتحصن بالأسوار والسدود فستسقط لا محالة أمام هذه الإغراءات والدعايات الكاذبة؛ فاحذروا وصونوا بيوتكم وأبناءكم وأهليكم مما يكون سببًا في الفساد والانحراف.

أيها الفتاة المسلمة! حذارِ من التردي في المنحدر الذي تردت فيه المرأة الكافرة؛ فإن الكافرة لا تجد دينًا يوجهها ولا شرعًا يرشدها، وأما أنت فما عذرك وقد أنزل الله لك دينًا يحفظ لك العزة والكرامة؟

أيها الفتاة المسلمة! قولي لهم كما قالت المرأة الصالحة:

بيدي العفاف أصون عز حجابي ... وبعصمتي أعلو على أترابي

وبفكرةٍ وقادة وقريحة ... نقادة قد كملت آدابي

ما ضرني أدبي وحسن تعلمي ... إلا بكوني زهرة الألباب

ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بُلمتي ونقابي

أيتها المرأة المحافظة: إن المرأة الحرة الحصينة هي التي تدرك أن خالقها لا يأمر إلا بما يصلحها ويصلح غيرها، ولقد صور الشاعر المرأة بدون حجاب كأنها مدينة بلا أسوار، فقال:

إن المدينة يا ابنتي ... تبقى محصنة أمينة

ما دامت الأسوار ... تمنعها بأعمدة متينة

فإذا هوت جدرانها ... نفذ العدو إلى المدينة

أيها الإخوة والأخوات: إن رواد الإعلام الفاسد يحملون بأيديهم معاول التهديم في صرح كياننا المتين، وإن هذا الطريق الذي سلكوه لا يريدون به مصلحة الأمة ولا المجتمع، بل يريدون من ورائه إشباع غرائزهم واتباع أهوائهم، ولقد كان الأولى والأحرى بهم أن يكونوا من خلال الوسائل الإعلامية والإمكانيات التقنية رواد نهضة حقيقية تبعث في الأمة

روح الكفاح والأدب والعلم والتقدم، وتجند لها حياتها الأسرية الهانئة؛ ليكون المجتمع مجتمعًا متماسكًا، قوي البنيان، أصيل النشء.

فيا من سخرتم إعلامكم لتمييع الأخلاق وتدمير منظومة القيم لدى الأجيال، سخروا إعلامكم وجهودكم لإيجاد شباب صلاح وكفاح، وتعليم وعمل، ولإيجاد نساء معلمات مربيات أجيال؛ فإن الذين استقيتم منهم السم قد عزَّ عليهم أن تجود أمهاتكم وأخواتكم على أمتها كما جادت من قبل بالعلماء والمجاهدين، فصار همهم أن لا تلد المسلمة مثل عمر وخالد بن الوليد وصلاح الدين، فلقد ظلت المرأة المسلمة طيلة القرون الخالية مصونة متربعة على عرشها تهز المهد بيمينها، وتزلزل عروش الكفرة بشمالها؛ لذلك نصب أعداؤنا لها الشباك، واحتالوا عليها بشتى الحيل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على كل حال، ونعوذ به من أحوال أهل الضلال، ونسأله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الحال والمآل، ونعوذ به من فتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، وخروج النساء عن طاعة الرجال؛ نحمده تعالى وهو الكبير المتعال، ونشكره على نعمه، والله يحفظها من الزوال.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عالم السر والجهر، وبيده الخلق والأمر، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة وسلامًا دائمين بدوام الليالي والأيام.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله! واحفظوا ما استرعاكم عليه؛ فإنه سائلكم عنه يوم يقوم الأشهاد.

أحبتي في الله! إن الإسلام حين أمر النساء بالاحتجاب عن الرجال الأجانب؛ لأن منهم البر والفاجر، وفيهم الطاهر والعاهر، والحجاب حاجز يمنع الفتنة، ويحجز عن دواعيها، ويدعو إلى الحياء والعفة، ويبعد عن مظانّ التهمة، ويحفظ النساء من تعرض الفساق لهن في بالأذى والنظر السيئ، كما حرم على المرأة مخالطة الرجل؛ محافظة على الثقة والمودة بينها وبين زوجها من تدخل كل أفاك أثيم، يشعل الخصومة، ويثير الشكوك، ويفكك الأسر، ويهدم البيوت الآمنة، وحتى لا تعرض نفسها لأن تفتن أو تفتتن بأحد من الناس، أو أن تتعرض لوسائل الإغراء، وحبائل المكر فتتعثر، وقد تقع في لوثة الإثم ناقضة للعهد، وناكثة للوعد، وخائنة للأمانة.

ومن اللطائف أن رجلًا كان جالسًا في مجلس من المجالس، فسمع أحدهم يقول: (لماذا تبقى نساء الشرق متحجبات في بيوتهن مدى حياتهن من غير أن يخالطن الرجال، ويغشين مجامعهن، فأجابه قائلًا: لأنهن لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن)! فسكت وكأنه ألقم الحجر.

أيتها المسلمة: إن البيت للمرأة في نظر الإسلام كمحل اللؤلؤة، تزداد فيه نضارة وحسنًا، وبهاءً وضياءً، ونورًا وإيمانًا، وحين تخرج منه يخبو نورها، ويتضاءل ضياؤها، ويذهب

جلاؤها، فالبيت حصن المرأة الحصين، وملجؤها الأمين، ولقد سمى الله مكث المرأة في بيتها قرارًا، فقال سبحانه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب:٣٣].

أيها المسلمون: إن التبرج إذا سيطر على النفوس، واستعبد القلوب، وأعمى البصائر، جعل المرأة كالسلعة المعروضة لكل من شاء أن ينظر إليها، فحصل ما حصل من الأضرار، ومن ذلك:

الإعراض عن الزواج وشيوع الفواحش، وسيطرة الشهوات.

ثانيًا: اضمحلال الحياء.

ثالثًا: كثرة الجرائم.

رابعًا: فساد أخلاق الشباب.

خامسًا: تحطيم الروابط الأسرية، وانعدام الثقة بين أفرادها.

سادسًا: الإساءة إلى المرأة نفسها، فذلك يعرضها لأذية الأشرار.

سابعًا: تسهيل معصية الزنا والفاحشة.

ثامنًا: استحقاق نزول العقوبات العامة، وذلك بقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦].

تاسعًا: الوقوع في الوعيد الشديد، وذلك بقوله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»[١].

أيها المسلمون: وإنه لمن المؤسف جدًا أن ترى بعض من يدعين الحجاب قد ارتدت إحداهن خمارًا مزينًا مطرزًا، ثم تزعم صاحبة هذا الخمار أنها محجبة، وأي حجاب هذا؟! إن هذا خمار خداع وتزييف، حجاب زينة وفتنة، فالحجاب إنما وضع ليحجب الزينة، فكيف إذا كان زينة وفتنة في نفسه!

---

(١) رواه مسلم (٢١٢٨).

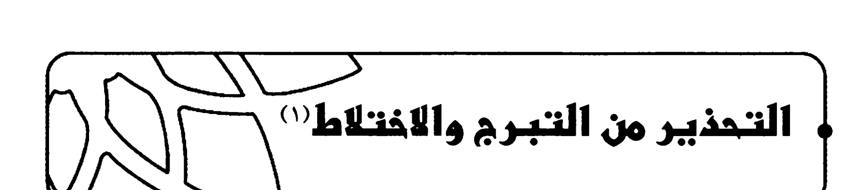
أيها الغيورون: إن معصية التبرج ليست معصية فردية، بل هي معصية جماعية تشترك فيها المتبرجة مع ولي أمرها الذي يسمح لها بذلك، ويشترك أفراد المجتمع الذين لا يبالون بزجرها وردها عن غيها، كما يشترك فيها ولاة الأمر إذا تركوا الحبل على الغارب، وذلك لقول الرسول ﷺ: «كلُّكم راعٍ ومَسؤولٌ عن رَعيَّته؛ فالإمامُ راعٍ ومَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، والرَّجلُ في أهلِه راعٍ وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّته...»(1).

اتقوا الله عباد الله: واعلموا أن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وأن أول نزول البلايا عليهم، والعقوبات العامة فيهم، إنما حلّت حينما خرجت نساؤهم كاسيات عاريات، نسأل الله أن يحفظ بنات المسلمين، وأن يستر نساء المسلمين، وأن يرزقنا العفاف والستر والصيانة، وصدق الإيمان والديانة.

عباد الله: صلوا وسلموا على خير العالمين محمد ﷺ، نبي ما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل منه، فقد أمركم الله بذلك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد...



(١) رواه البخاري (٢٥٥٨).



التحذير من التبرج والاختلاط[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الخلائق فأتقن ما صنع، وشرع الشرائع فأحكم ما شرع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا عبد الله ورسوله، أقام صرح الفضيلة ورفع، ودفع أسباب الرذيلة ووضع، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل التقى والحياء والزهد والورع، ومن سار على نهجهم واتبع، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تبارك وتعالى حق التقوى.

عباد الله: مقياس صلاح الأفراد والمجتمعات، ومعيار رقي الأمم والحضارات، عقيدةٌ تزكي النفوس، وإيمانٌ يقوِّم الأخلاق، ودينٌ يهدي إلى الفضائل، ويعصم من الوقوع في الرذائل، وعنوان نقاء المعدن، وزكاء العنصر، وحياة الضمير، وازع يمنعه من اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا.

وأرق الناس طبعًا، وأقواهم دينًا، وأنبلهم سيرةً، وأصلحهم سريرة من عاطفته حيةٌ متوقدةٌ، وضميره يقظ مُرهف، يترفع به أبدًا عن مقارفة الخطايا، ويستشعر الغضاضة من سفاسف الأمور، والاشمئزاز من كل المنكرات والشرور.

وقليل المروءة وبليد الشعور من لا يبالي بفضيلة، ولا يتورع عن فعل رذيلة، ينفلت من الأخلاق بلا مبالاة، ويتحرر من القيم بلا اكتراث، ويتحول وحشًا كاسرًا ينطلق وراء

(١) عبدالرحمن السديس.

شهواته، وينساق خلف ملذاته، ويدوس في سبيلها أزكى العواطف، وأنبل المشاعر والقيم، فلا وازع يردعه، ولا حياء يمنعه، بل ولا فطرة نقية وعقلية سوية.

هب البعث لم تأتنا رسله ... وجاحمة النار لم تضرمِ

أليس من الواجب المستحتم ... حياء العباد من المُنعمِ

أيها الناس: ولم يزل الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة مستمرًا، وقد بلغ أوج خطوته في عصر الانفتاح والانفلات، والانسياق وراء الشهوات، والاسترسال خلف الملذات، والتلاعب بالألفاظ والمصطلحات، ولقد كان التساهل بقضايا المرأة من الأسباب الرئيسة في حصول واقع منحرف، ومجتمع منجرف، وجيل عن تحصيل الخير منصرف، وإن الثالوث الخطير -الذي يمثل أخطر معاول الهدم والتدمير في المجتمع الإسلامي- كله يركز على المرأة، تبرجًا وسفورًا واختلاطًا، وذلك كله لم يأت مصادفةً، ولا اعتباطًا، وإنما نتيجة تخطيط دقيق، ومؤامرة شرسة ضد دين الأمة ومثلها وقيمها، حتى خدع كثير من المسلمين والمسلمات بشعارات براقة، ودعايات مضللة، تعد الالتزام بنهج الله وشرعه جمودًا ورجعيةً، والانفلات والإباحية حريةً وتقدميةً، والانسياق وراء الشهوات رقيًا وتحضرًا ومدنيةً، والتبرج والسفور والاختلاط موضة، والخلاعة والفجور والانحلال فنًا، والعلاقات المحرمة حبًا، مما يتطلب يقظة الأجيال والمسئولين عنهم من النساء والرجال، أداءً لحق القوامة والرعاية، وامتثالًا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

أيها الأحبة في الله: وما حرم الإسلام التبرج والسفور والاختلاط، وشرع الحجاب إلا تكريمًا للمرأة، وحفاظًا على مكانتها، وحرصًا على إقامة المجتمع النظيف، والجيل العفيف الذي لا تهيجه الشهوات، وتستثيره المغريات، وسدًا لذريعة الفساد، وحثًا على اتخاذ التدابير الواقية من الوقوع في الشر والانحراف، وذلك هو هدي الإسلام في صيانة المجتمع من المزالق، وهو أهدى سبيل لسعادة البشرية جمعاء بكل عزة وإباء في عيش خير، وحياة هنيئة يظللها الإيمان، ويرفرف على جنباتها الحياء؛ إذ بدونه يفسد العيش وتظلم الحياة.

فلا والله ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

أمة الإسلام: إن تبرج المرأة وزينتها واختلاطها بالرجال في الأماكن العامة تزاحمهم وتستهوي نفوسهم وتفتن قلوبهم، لهو دليل على ضعف الوازع الديني في نفسها، أو عدمه، وأمارة على موت الغيرة وبلادة العفة وقلة الحياء.

وإذا الحياء تهتكت أستاره فعلى الحياة من الحياء عفاء

إن المرأة المتبرجة المختلطة الخرّاجة الولاجة إن سلمت في نفسها، فإن الناس لا يسلمون من فتنتها، والافتتان بها، فكم فيهم من عزب لا يجد نكاحًا، بل وكم فيهم من ذئب محترف، ولص متفنن بسرقة الأعراض، بارع في أساليبها واقتناصها، وقد يكون فيهم عبدٌ صالح عفيف، ورجل تقي شريف أغواه الشيطان، فذل بعد العز، وتندس بعد العفة بفعل هذه الفاتنة المفتونة، وقد قال الأول:

قل للمليحة في الخمار الأسودِ ماذا فعلت بناسكٍ متعبدِ

قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى عرضت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه لا تفتنيه بحق دين محمد

معاشر المسلمين: اختلاط الرجال بالنساء أصل كل فساد وبلاء، ما سرى في مجتمع، ولا فشا في أمة إلا وأوردها موارد الهلاك، لما يسببه الاختلاط بين الجنسين من فتن وفظائع، ودمار يحول الديار براقع، إنه يحرك في النفوس كوامن الغريزة، ويشعل نار الشهوة الجامحة، ويؤجج عواطف الغرام، ويغري كلًا من الجنسين بالآخر، فيرخي العنان للشهوات التي لا حدود لها، يقترن بذلك مجون فاحش، في أغانٍ ماجنة، ومسلسلات هابطة، ولوسائل الإعلام في ذلك نصيب وافر، فينشأ الناشئة، ويتخرج الأجيال في هذا الجو المحموم، وهذا الوضع المسموم، الذي تغلي مراجله بصور الإغراء والإثارة، التي تغتال تربيتهم، وتدمر فيهم بُنية الآداب والقيم، والأخلاق والشيم، وتطفئ فيهم القوى الإيمانية والفكرية، وتقضي على صفاتهم الرجولية والأخلاقية والسلوكية، ولا يكادون يشبون عن الطوق ويبلغون الحلم حتى تغتالهم الشهوات البهيمية، لأن المظاهر مغرية، والنفس أمارة، والشيطان عدو يتربص، والشهوة

هائجة، والرقيب يغفل ويتشاغل، بل ويتكاسل ويتساهل، فيتحول المجتمع إلى لهو وعبث ومجون يعج بالفوضى والعشوائية الغريزية والفسق والإباحية، فتنذره بالويل والثبور، وتجره إلى الهلاك والعطب وعظائم الأمور. ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١] الآية.

إن الرجــال النــاظرين إلى النســا   مثــل الكــلاب تطــوف بــاللحمان

إن لم تصــن تلــك اللحــوم أســودها   أخــذت بــلا عــوضٍ ولا أثــمان

أيها الناس: إنه لا أحد أغيَر من الله أن يزني عبده أو تـزني أمتـه، ولـذا قـال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]، فنهى عن كل ما يقرب من الفاحشة، ومن ذلك أنه نهـى عـن الـدخول على النساء، فقد روى البخاري و مسلم عن عقبة بـن عـامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسـول الله ﷺ قـال: «إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار: أفرأيـت الحمـو يـا رسـول الله؟ قـال: الحمـو المـوت»[1] والحمـو: قريـب الرجـل كأخيـه، وابـن أخيـه، وعمـه وابـن عمـه وخاله وابن خاله.

والمعنى: أن خلوة الحمو أشد خطرًا من خلوة الغريب، لأنه أجرأ من غـيره، ودخولـه لا يثير ريبة، ولا يلفت الأنظار، والناس كثيرًا ما يتسامحون فيه، فشبهه بالموت في المفسـدة، فـالله المستعان، كيف استباح بعض الناس أمرًا كهذا حتى لكأنه مباح مألوفٌ! بل بعض النـاس لا يتــورع أن يســمح لزوجتــه، أو مُوليَتِــه، بمجالســة أصــدقائه واســتقبالهم، فهــل هذه أخلاق الإسلام؟!

أيها المؤمنون: لقد حرم الإسلام أيضًا الخلوة بالمرأة الأجنبية، فقد روى البخاري و مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يخلونَّ رجلٌ بامرأة إلا ومعها ذو محـرم، ولا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر إلا مع ذي محـرم»[2] وعنـد الترمـذي وغـيره

---

(١) رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٨٦٢) ومسلم (١٣٤١).

بسند صحيح أنه ﷺ قال: «ما خلا رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»[1] ولا يخفى على كل أحد ما عمت به البلوى من تساهل كثير من الناس في ذلك، ومن التساهل الملاحظ: مصافحة المرأة الأجنبية، وهو يحصل عند كثير من الناس بسبب الاختلاط، وهذا لا يجوز حتى لو كان المصافح ابن عم، أو ابن خال، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط»[2].

وقالت أميمة بنت رقيقة وصاحباتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ عند البيعة: ابسط يدك -يا رسول الله- نبايعك، قال لهنَّ: «إني لا أصافح النساء»[3] وعند البيهقي و الطبراني ورجاله ثقات «لَأَن يطعن في رأس أحدكم بمخيطٍ من حديد خيرٌ له من أن يمس امرأة لا تحل له»[4].

أختي المسلمة: يا فتاة الإسلام! يا سلالة الأكرمين! ويا حفيدة أمهات المؤمنين! إن بيتكِ لكِ حصن حصين، وملجأ أمين، وظل وارف، هو قوقعة الجوهرة، وصدفة اللؤلؤة، ومكنون الدرة، تزداد فيه نضارةً وبهاءً، وحسنًا وضياءً، وحين تخرج منه، يخبو نورها، ويتضاءل ضياؤها، ويذهب جلاؤها، اسمعي إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وإن الدعوة إلى اختلاط الجنسين، دعوة آثمة، يريد أصحابها تدمير أخلاق الأمة وقيمها، تصوروا وضع مجتمع مختلط، هائج مائج، نساؤه ورجاله في الشوارع والأزقة، والمدارس والدوائر والمؤسسات، والشواطئ والمنتزهات، تصوروا المرأة الضعيفة وهي تعمل آلة في مصنع، أو في ميدان حرب، أو تحمل الأمتعة، وتعقب في الدوائر، تصوروهن وقد أنهكهن العمل، أوليس هذا الوضع محزنًا ومؤلمًا لامرأة صانها الإسلام، وكرمها وضمن لها الحقوق؟!

ها هي المرأة الغربية، أما يكفي ذلك زاجرًا، ورادعًا وضع المرأة الغربية؟! هاهي تصيح وتنادي، ألا ما أحسن للمرأة من بيتها وزوجها وأولادها، تربي وتبني وتنشئ الأجيال، بعدما

---

(١) صحيح الترمذي (٢١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٢٨٨).

(٣) صحيح النسائي (٤١٩٢).

(٤) صحيح الجامع (٥٠٤٥).

عمت الإحصاءات وبلغت من الجرائم أرقاها وأعظمها، أرقامًا مذهلة من جراء الاختلاط والتبرج، ولكننا نعجب كل العجب حينما تطالعنا دعوات آثمة بأقلام مأجورة؛ لأناس يعيشون بين ظهور المسلمين، ومن بني جلدتهم، ويتكلمون بلغتهم، يطالبون بالاختلاط بين الجنسين في مراحل التعليم، وتوظيف المرأة جنبًا إلى جنب مع الرجل، فماذا يريد هؤلاء؟ وأي هدف يقصدون؟ ولربما اغتر بعضهم بثقافات وافدة، وأعجب بمؤهل يحمله، وشهادة زور يتصدر بها.

ولكن ولله الحمد والمنة أن هذه الدعوات الآثمة لم تعد تلقى القبول إلا من قلة قليلة لا اعتبار لها.

فيا أيها المرأة المسلمة: عودي إلى الله، والتزمي شرع الله، ولا تغتري ببريق الشعارات، وزائف الدعايات.

ويا أيها الرجال: أين القوامة والرعاية ، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]؟ أين القيام بالأمانة والمسئولية؟ ولا نبالغ حينما نقول: إن الاختلاط والتبرج الذي حل بالمجتمعات سببه موت غيرة بعض الرجال، وبلادة إحساسهم، وسُبات ضمائرهم! وإلا فهل يرضى صاحب العفة والغيرة، والشرف والمروءة أن تكون موليته لقمة سائغة، ومائدة مكشوفة تلاحقها نظرات الناس، تلتفت لكل هامس، ولا ترد يد لامس؟! وقد قال ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1].

ألا فاتقوا الله عباد الله! وخذوا على أيدي سفهائكم، ولا تتساهلوا بما أوجب الله عليكم، فكلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يهدي ضال المسلمين إلى الحق، وأن يحفظ مجتمعات المسلمين من أسباب الشر والفساد، بمنه وكرمه إنه جوادٌ كريم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين والمسلمات، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه مسلم (٢١٢٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله العظيم شانه، العزيز سلطانه، الدائم بره وإحسانه، نحمده تعالى ونشكره، وشكره دليل الصدق وعنوانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله! وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله، واعلموا أن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعةٍ ضلالة.

عباد الله: يتمسك بعض المفتونين بالاختلاط، بشُبهٍ هي أوهى من بيت العنكبوت، لكن قد يغتر بها بعض الجهال، ومن ذلك قولهم: إن الاختلاط موجود في عصر النبوة، فكان الرجال والنساء يختلطون في المساجد ونحوها، والحق أن ليس في ذلك مستمسك لهم، فقد كان النساء يصلين مع رسول الله ﷺ، وهن بكامل حجابهنَّ وحشمتهنَّ وحيائهنَّ، ثم قد كان ﷺ يحث النساء في الصلاة في آخر الصفوف، يقول ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها»[1]، كما كان ﷺ يثبت هو وأصحابه في المصلى حتى تخرج النساء، حتى لا يختلطن بالرجال[2]، وعند أبي داود أنه ﷺ أمر النساء بلزوم حافات الطريق حتى لا يختلطن بالرجال[3].

هذا هو الذي ينبغي للنساء، حتى لا يفتنَّ، أو يُفتن.

ومما ينبغي التنبيه عليه والتنويه إليه أن المرأة إذا صلت في المساجد، فعليها أن تلتزم الأدب الإسلامي، وأن ترعى حرمة هذه البقاع الطاهرة، حتى ترجع بالأجر والمثوبة، أما إذا

---

(١) رواه مسلم (٤٤٠).

(٢) رواه البخاري (٨٦٦).

(٣) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٥٢٧٢).

تساهلت بحجابها، ونبذت الحياء والحشمة، ووقعت في التبرج والزينة، فيخشى أن تكون مأزورة غير مأجورة.

ومما ينبغي ملاحظته، ضرورة تربية البنات منذ الصغر، على الحجاب والستر، والبعد عن الاختلاط بالرجال، حتى يتربين على العفة والفضيلة.

إن من الحياء المطلوب شرعًا وعرفًا احتشام المرأة وبعدها عن مواقع الفتن ومواطن الريب، وإن حجابها بتغطية وجهها محل الحسن والجمال ومواضع الزينة منها لهو من أكبر احتشام تفعله وتتحلى به، وقد اتفق أهل العلم على أنه إذا لم تؤمن الفتنة فيجب على المرأة بإجماع أن تغطي وجهها ومحاسنها، وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر ويغار على عرضه ومحارمه أن هذا العصر -بفتنه ومغرياته وشهواته وشبهاته- لا تؤمن فيه الفتنة؟ نعوذ بالله من الهوى وانتكاس الفطرة، ونسأله العصمة من الفتن.

أيها الإخوة والأخوات: هل هناك قضية بعد قضية اعتقادنا وتوحيدنا لربنا أهم من قضية الاهتمام بقيمنا ومثلنا، والتمسك بحيائنا وعفتنا وإبائنا، والثبات على أصالتنا وأخلاقنا وسلوكنا والغيرة على حرماتنا وأعراضنا، وإحاطتها بسياج منيع من الفضيلة، وصونها عن مستنقعات الرذيلة؟! لا والله، يستوي في ذلك الرجال ذو القوامة والرعاية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤] والنساء ذوات التوجيه والتربية والعناية ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤].

أيها المسلمون والمسلمات: أرأيتم إلى الجوهر المكنون، والدر المصون إذا حفظ من العبث والضياع، ولم تنله يد الهمج الرعاع، وحرص عليه فلم يعد من سقط المتاع، كيف تبقى لها نظارته وبهاؤه وسلامته وصفاؤه وتلألؤه ونقاؤه؟ أرأيتم إلى الزهرة المتفتحة، والوردة المتضخمة والريحانة الفواحة في الروضة الغناء، كيف يبقى لها شذاها وأريجها وطيبها ونسيمها في سلامة من الفساد والذبول والخراب والأفول؛ إذا صينت من عبث العابثين وكيد الكائدين؟

فذلكم مثل لوضع المرأة في هذه الحياة، فالمرأة أرفع قدرًا وأعلى شأنًا من أن تكون كلأ مباحًا وعرضًا مستباحًا، فهي مخلوق أكرمه الله بالعقل والإنسانية، وشرَّفه بحمل الرسالة

الإسلامية بعد أن كانت المرأة في ظل الجاهلية والديانات الوثنية مهيضة الجناح، مهضومة الحقوق، مسلوبة الكرامة، معدودة من سقط المتاع، تباع وتشترى، وتوهب وتكترى، ولا حق لها في الإرث والتملك، بل إنها تقتل وتوأد دون ذنب أو جريرة، فجاء الإسلام بحكمته وعدله فأعزَّ شأنها، وأعلى مكانها، ورفع قدرها، وحفظ حقوقها، وصانها من الابتذال والضياع، وجعلها شريكة للرجل في الحياة، شقيقة له في تحمل الأعباء والمسئوليات.

ولقد ذكر الله المرأة في كتابه مع الرجل في مواضع كثيرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]

ألا وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على الحبيب المصطفى، والنبي المجتبي، كما أمركم بذلك ربكم جل وعلا، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



غلاء المهور [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، لا إله بحقٍّ غيرُه يُعبَد، أحمدُه سبحانه وأشكرُه يرَى دبيبَ النمل على الصخرة الملسَاء في الليل البَهيم الأسوَد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحِدُ الأحد، الفردُ الصمدُ، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه رسولٌ لا يُكذَّب وعبدٌ لا يُعبَد، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آلِهِ وأصحابِه أهل الفضل والشرَف والسُّؤدَد، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ومن تعبَّد.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فاتقوا الله ربكم؛ فأهل النجاة والخلاص هم أهل التقوى والوفاء والإخلاص، الذين يوفون مع الله مواثيقه، ويخلصون له في يقينه وتصديقه؛ فيا ويح الغافلين؛ خف زادهم، وقل مزادهم؛ فطال عليهم السبيل، وحار فيهم الدليل، قصر أجل مع طول أمل وتقصير في عمل؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله؛ فالأجداد أبلتهم الأيام، والأبناء على ما بقي عنهم من الأنباء؛ ففيم الحرص؟! أعلى ضل زائل، ومقيل أنت عنه حائل؛ فاتقوا الله رحمكم الله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

أيها المسلمون: لقد جاءت الشريعة بالتيسير دون التعسير، وبالتبشير دون التنفير، ومن حكم الشريعة ومقاصدها تيسير مؤونة النكاح ليسهل البديل الشرعي ويتيسر على الناس، فأيسر النساء مؤنة هن الأكثر بركة، كما جاء عن الصادق المصدوق ﷺ..

---

(١) زهير بن حسن حميدات.

ولقد ازدادت مشكلة غلاء المهور، حتى صار الزواج عند بعض الناس من الأمور الشاقة والمستحيلة، وبلغ المهر في بعض البقاع حدًا خياليًا، لا يطاق إلا بجبال من الديون التي تثقل كاهلَ الزوج. ويؤسف كلَّ غيور أن يصل الطمع ببعض الأولياء أن يطلب مهرًا باهظًا من أناس يعلم الله حالهم، فيا سبحان الله، أإلى هذا المستوى بلغ الطمع وحب الدنيا ببعض الناس؟! وكيف تعرض المرأة المسلمة سلعة للبيع والمزايدة وهي أكرم من ذلك كله؟! حتى غدت كثيرات من العوانس مخدرات في البيوت حبيسات في المنازل بسبب ذلك التعنت الذي لا مسوغ له.

إخوة الإسلام: يقول الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا لا تغالوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى في الآخرة لكان النبي أولاكم بها؛ لم يصدق امرأة من نسائه ولم تُصدق امرأة من بناته بأكثر من ثنتي عشرة أوقية»، ولعله لا يزيد في عملتنا المعاصرة على عشرين دينارا فقط.

وجاءت امرأة إلى رسول الله فقالت: إني وهبت من نفسي، فقال رجل: زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل عندك من شيء تصدقها؟»، قال: ما عندي إلا إزاري، فقال: «إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك، فالتمس شيئًا»، فقال: ما أجد شيئًا، فقال النبي: «التمس ولو خاتمًا من حديد»، فلم يجد، فقال: «أمعك من القرآن شيء؟»، قال: نعم سورة كذا وكذا وسورة كذا، لسور سمّاها، فقال: «قد زوجناكها بما معك من القرآن»[(١)].

ولقد خطب أبو طلحة أم سليم فقالت: والله، ما مثلك يرد، ولكنك كافر، وأنا مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذلك مهري، ولا أسألك غيره، فكان كذلك، أسلم وتزوجها.

وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو من أغنى أهل المدينة، والذي توفي عن أربعة وستين مليون دينار، تزوج على وزن نواة من ذهب، صاحب الملايين تزوج على وزن نواة من ذهب.

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٠).

وهــذا ســعيد بــن المسـيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ســيد التــابعين، يتقــدم لخطبــة ابنتــه الخليفــة عبد الملك بن مروان لابنه الوليد ولي العهد، فيرفض، ويزوجها لتلميذ صالح صـاحب ديـن وخلق، اسمه عبد الله بن أبي وداعة، ماتت زوجته، فقال له شيخه: (وهل اسـتحدثت امـرأة غيرها؟ قال: ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟! فقال: أنا أزوجك، وزوجه بابنته على درهمين أو ثلاثة. يقول التلميذ عبد الله بن أبي وداعة: فدخلت بهـا فـإذا هـي مـن أجمـل النساء، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله، وأعرفهم بحق الـزوج، وبعـد شهر عاد إلى شيخه سعيد، فدفع له شيخه عشرين ألف درهم).

معاشر الإخوة: إن قصة سعيد بن المسيب وتلميذه عبد الله بن أبي وداعة توبيخ لمـن بـاع ابنته بالدرهم والدينار، واشترط لها أموالًا طائلة وتكاليف باهظة، لقد آثر سعيد ما يبقى على ما يفنى، والسعادة والله ليست في الأموال، وإنما في الإيمان بالله والعمل الصالح، قـال تعـالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

وقد أنكر الرسول على المغالين في المهور، فقد جاءه رجل يسأله فقال: يـا رسـول الله، إني تزوجت امرأة على أربع أواق من الفضة، فقال النبي: «أوّه، على أربع أواق من الفضة؟! كأنما تنحتون الفضة من عُرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك». ويقول عليـه الصـلاة والسـلام: «إذا أتـاكم مـن ترضـون دينـه وخلقـه فزوجـوه، إلا تفعلـوه تكـن فتنـة في الأرض وفسـاد عريض»[1]. هذا أمر رسول الله الذي خالفه بعض الأولياء هداهم الله، فخانوا الأمانـة التـي حُمِّلوها في بناتهم بمنعهن من الزواج من الأكفاء دينًا وخلقًا وأمانة، فقد يتقدم إليهم الخاطب الكفء فيماطلونه ويعتذرون له بأعذار واهية، وينظرون فيه إلى أمور شكلية وجوانب كمالية، يسألون عن ماله، وعن وظيفته، وعن وجاهته ومكانته، ويغفلون أمر دينه وخلقه وأمانته، بل لقد وصل ببعض الأولياء الجشع والطمع أن يعرض ابنته سلعة للمساومة وتجارة للمزايـدة والعياذ بالله، وما درى هؤلاء المساكين أن هـذا عضـل وظلـم، ألم يسـمع هـؤلاء بالقصـص

---

(١) حسّنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٣٠٢٦).

الواقعية لضحايا هذه الظاهرة؟! إنها صرخة نذير في آذان الآباء والأولياء، ورسالة عاجلة إليهم أن يتداركوا شرفهم وعفتهم وعرضهم قبل فوات الأوان.

أين الرحمة في قلوب هؤلاء الأولياء؟! كيف لا يفكرون بالعواقب؟! أيسرُّهم أن تلطَّخ سمعتهم مما يندى له جبين الفضيلة والحياء؟! سبحان الله، كيف يجرؤ مسلم غيور يعلم فطرة المرأة وغريزتها على الحكم عليها بالسجن المؤبد إلى ما شاء الله؟! ولو عقل هؤلاء لبحثوا هم لبناتهم عن الأزواج الأكفاء، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعرض ابنته حفصة على أبي بكر ليتزوجها، ثم على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. وهذا سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ سيد التابعين يزوج تلميذه أبا وداعة.

أيها المسلمون: يا أحباب محمد، إن الإسلام لم يشرع في نفقات العقد والزفاف سوى المهر للمرأة، والوليمة لحفلة العرس، وإكرام الضيف بما يناسب الحال. أما ما عداها من الهدايا والنفقات، كغرفة النوم وأثاث البيت والملابس والمال الذي يعطى لأب العروس وإخوتها وعمها وخالها، فهي ليست فرضًا واجبًا، وليس من شروط العقد والنكاح في شيء أبدًا.

يا أمة محمد: يا خير أمة أخرجت للناس، لم يشرع في الزواج إلا المهر، فمن أين جاءت تلك التكاليف الباهظة في بعض الأعراف؟! حتى توسعت عند البعض إلى أمور كثيرة، كهدايا لأقارب العروسين، العم والخال، وغير ذلك من تبعات الزواج!

فيا أولياء الأمور، تعاونوا على تخفيض المهور، ويا أيها العلماء، يا أئمة المساجد، يا أهل الدين، يا أهل الخير، يسّروا ولا تعسروا، وزوِّجوا بسنة محمد، فأنتم القدوة، وغيركم تبع لكم. سنة ميتة، من يحييها ويكون أهلا لها؟! من منكم يملك الجرأة الكافية والإيمان القوي لينتصر على نفسه وعلى تلك العادات الجاهلية الموروثة، فيثبت بذلك حبه لرسول الله، ويسن سنة حسنة، له أجرها وأجر من عمل بها؟!

أيها المؤمنون: يقول النبي: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1]. وهذا خطاب للرجال العقلاء، لا للنساء اللواتي قُلِّدن أمر الزواج في هذا المجتمع.

لقد كثرت العوانس، وغلت المهور، وتضاعفت نفقات الزواج. ولا شك أن المرأة بما جبلت عليه من فِعال وعاطفة، وبما تحبه من المظاهر والمفاخرة وحب الظهور أمام الناس، قد تفسد على نفسها، إلا إذا كانت تزن الأمور بميزان الشرع والدين، ومثل ذلك قليل. فكم سمعنا عن أمهات يفسدن زواج بناتهن؛ لأن الواحدة منهن تدعي أن ابنتها ليست بأقل من بنت فلان.

فاتقوا الله عباد الله فيمن تحت أيديكم من البنات، بادروا بتزويجهن متى ما تقدم الأكفاء في دينهم وأخلاقهم، «إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

بارك الله لي ولكم في الكتاب والسنة، ونفعني وإياكم بالآيات والحكمة، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولكافة المسلمين، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه كان حليمًا غفورًا.

---

(١) حسّنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٣٠٢٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي خلق من الماء بشرًا فجعله نسبا وصهرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، بعثه الله هاديًا ومبشـرًا ونذيرًا، وداعيًـا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أيها الأحبة: إننا نقولها وبصراحة: ماذا ينفع المرأةَ أهلها إذا بقيت عانسًـا قـد فاتهـا ركـب الزواج، وأصبحت أيِّمًا لم تسعد في حياتها بزوج وأولاد، يكونون لها زينة في الحياة، وذخرًا لهـا بعد الوفاة؟! وكم من امرأة فاتها قطار الزواج، وذهبت نضارتها، وذبلت زهرتها، وتمنت بعـد ذلك الموت لمن عطل زواجها، لأنها لم تسمع كلمة الأمومـة عـلى لسـان وليـدها، وكـم هـي الصـيحات والزفـرات الحـرَّاء التـي أطلقـت مـن مثـل هـؤلاء، فـأين الرحمـاء ببنـاتهم؟! أين العقلاء؟!

والله، إننا لنحزن على أخوات لنا ظلمهـن أوليـاؤهن ظلـما كبـيرا، فـلا هـن متزوجـات فيسعدن، ولا هن بميتات فيسترحن. فهذه فتاة تقدم إليها الخطاب، فرفض أبوها أن يزوجها، فلما تقدم بها السن، وحضرت أباها الوفاة، قـال لهـا: (يـا بنيـة، اجعلينـي في حـل، سـامحيني سامحك الله، فقالت له: والله، لا أسامحك، بل حسـابك عنـد الله كـما حرمتنـي مـن حقـي في الحياة). وهذا رجل آخر يزور أخته في المستشفى، وقد تقدم بها السن ولم تتـزوج، بعـد أن رد أخوها خُطابها، ولما كانت على فراش الموت في آخر لحظة من حياتها قالت لأخيهـا: (اقـترب مني يا أخي، فلما اقترب منها، قالت له: حرمك الله الجنة كما حرمتني من الزواج). هذه المآسي يا عباد الله بسبب المغالاة في المهور وتعسير أمور الزواج.

أمة الإسلام: لقد حث الإسلام على تسهيل الزواج وتيسير أموره، ونهى عـن المغـالاة في المهور، والمبالغة في تكاليفه، فهذا خير البشر محمد يزوج ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعلي بن أبي طالب بما يساوي أربعة دراهم. والإسلام اعتبر أن المرأة كلما كان مهرها قليلًا كان خيرها كثيرًا، قال

رسول الله: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة»[1]، وقال: «خيرُ النِّكاحِ أيْسَرُهُ»[2]. «يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير رحمها»[3].

فاتقوا الله عباد الله: يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وإياكم من الرغبة في المال دون الدين، فالمال عرض زائل وعارية مستردة، والبقاء للدين. وليست بناتنا بأكرم من بنات النبي ولا نسائه، فاحرصوا على من ترضون دينه وخلقه، اجعلوا مقياسكم هو الدين والخلق، والرجولة والأدب، مع ما تيسير من الصداق، ليستغني الشباب بالحلال عن الحرام، وفي ذلك البركة والتوفيق بإذن الله.

ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد، فقد أمركم بذلك ربكم فقال في محكم تنزيله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...



(١) ضعفه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٣٠٣٣).

(٢) السلسلة الصحيحة (١٨٤٢).

(٣) حسّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٣٥).

هادم البيوت (الطلاق)[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، هو الحكمُ العدل، خلقَ الذكرَ والأُنثى ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، أحمده سبحانه وأشكرُه على نعمٍ من ربِّنا لا تُعدُّ ولا تُحصى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُقرِّبُ لديه الزُّلفى، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه خاتمُ النبيين وسيّد الورَى، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ وسارَ على نهجِهم فاهتدَى.

أما بعد:

فيا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، اتقوه حق التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى واحذروا المعاصي، فإن أقدامكم على النار لا تقوى، واعلموا أن ملك الموت قد تخطاكم إلى غيركم وسيتخطى غيركم إليكم فخذوا حذركم. الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

عباد الله: يحكي واقع كثير من الناس اليوم، صورًا شتى من اللامبالاة، بقيم الألفاظ ودلالات الكلام وثمراته، ترى الكلمة تخرج من فم المرء، لا يلقي لها بالا، ربما أهوت به في مسالك الضياع والرذيلة، استحقر بعضهم حجم الكلمات، واستنكف عن معانيها، وما علم أولئك

أن النار بالعيدان تذكى وأن الحرب مبدأها كلام

أيها الناس: أيستغرب أحدكم لو قيل له: إن كلمة من الكلمات تكون معولا صُلبا، يهدم به صرح أسر وبيوتات؟ أيستغرب أحدكم لو قيل له: إن كلمة من الكلمات تنقل صاحبها من

---

(١) زهير بن حسن حميدات.

سعادة وهناء، إلى محنة وشقاء؟ أيستغرب أحدكم لو قيل له: إن كلمة من الكلمات تحرك أفرادا وجماعات، وتنشئ تزلفا وشفاعات، لرأب ما صدعت وجمع ما فرقت؟ أتدرون أي كلمة هذه؟

إنها كلمة أبكت عيونا، وأجهشت قلوبا، وروعت أفئدة، إنها كلمة صغيرة الحجم، لكنها جليلة الخطب، إنها كلمة ترعد الفرائص بوقعها، وتقلب الفرح ترحا والبسمة غصة، إنها كلمة الطلاق، إنها كلمة الطلاق، وما أدراك ما الطلاق؟! كلمة الوداع والفراق، والنزاع والشقاق، فلله كم هدمت من بيوت للمسلمين! وكم قطعت من أواصر للأرحام والمحبين! يا لها من ساعة رهيبة، ولحظة أسيفة، يوم تسمع المرأة طلاقها، فتكفكف دموعها، وتودع زوجها! يا لها من لحظة تجف فيها المآقي، حين تقف المرأة على باب دارها، لتلقي النظرات الأخيرة، نظرات الوداع على عش الزوجية، المليء بالأيام والذكريات! يا لها من لحظة عصيبة، حين تقتلع السعادة أطنابها، من رحاب ذلك البيت المسلم المبارك!

عباد الله: العِشرة الزوجية ضرب خاص من المحبة في النفس، ليس له في أنواعه ضريب، فهو الذي يسكن به الزوجان، وهو الذي يلتقي به بشران، فيكون كل منهما متمما لوجود الآخر، ينتجان بالتقائهما بشرا مثلهما ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل:٧٢].

إن اختلال العشرة بين الزوجين، يذكي نار الفرقة، وكثرة الخصام تضرم[1] أوارها[2]، ولو أحب الأزواج أنفسهم حبا صادقا، وسكن بعضهم إلى بعض، لود كل منها الآخر، وود لأجله أهله وعشيرته؛ لأن المودة بين الزوجين سبب من أسباب سعادة العشيرة، وسعادة العشيرة للأمة المؤلفة من العشائر، المؤلفة من الأزواج، فهذا التآلف والتأليف، هو الذي يتكون من مزاج الأمة، فما يكون عليه من اعتدال وكمال، يكون كمالا في بنية الأمة واعتدالا، وقرة عين لمجموعها، وما يطرأ عليه من فساد واعتلال، يكون مرضا للأمة، يوردها موارد

(١) تضرم: توقد (القاموس، مادة ضرم).

(٢) الأُوَار: حّر النار (القاموس، مادة أور).

الهلكة، فمن لا خير فيه لأهله لا خير فيه لأمته، قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» أخرجه الترمذي بإسناد صحيح[١].

عباد الله.. لقد قال المصطفى في الحديث المشهور: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٢].

هذه هي الزوجة التي يحث الشارع على تحصيلها والرضا بها، ويدعو على من أراد غيرها، وزهد فيها ورغب عنها. ومن المعلوم بداهة؛ أنه لا يرغب في الظفر بذات الدين، إلا من كان قلبه معلقا بالدين، وكانت نفسه من النفوس الزكية، ومن هذه حاله، فلا غرو أن يرزق المودة بينه وبين زوجه؛ لأنها من ثمرات المشاكلة في السجايا والصفات الفاضلة، وعلى العكس من ذلك، المشاكلة في الصفات الرديئة، والسجايا الدنيئة، فهي لا تثمر محبة، ولا تورث توددا.

قال رسول الله ﷺ: «خير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[٣].

إنه متى كان الدين بين كل زوج وزوجته، فمهما اختلفا وتدابرا، وتعقدت أنفسهما، فإن كل عقدة من العقد لا تجيء إلا ومعها طريقة حلها ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، وهو اليسر والمساهلة، والرحمة والمغفرة، وهو العهد والوفاء، وهو اتساع الذات، وارتفاعها فوق ما تكون به منحطة أو وضيعة.

ومن كانت هذه حاله، فلن يستنكف أن يكون ممتثلا لما خوطب به من قول المصطفى: «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذي وهو صحيح[٤]. وقوله: «استوصوا بالنساء خيرا»[٥].

وثمرة الدين في المرأة يظهر في مثل قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكم عليكن، لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بحر وجهها».

فما أحمق الرجل يسيء معاشرة امرأته! وما أحمق المرأة تسيء معاملة بعلها.

---

(١) صحيح الترمذي (٣٨٩٥).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٧).

(٤) سنن الترمذي ح (١١٥٩)، كما رواه أبو داود ح (٢١٤٠)، وابن ماجه ح (١٨٥٢).

(٥) رواه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (٦٠).

أيها الناس: الطلاق كلمة، لا ينازع أحد في جدواها، وحاجة الزوجين إليها، حينما يتعذر العيش تحت ظل واحد، وإذا بلغ النفور بينهما مبلغا، يصعب معه التودد، فالواجب أن يتفرقا بالمعروف والإحسان، كما اجتمعا بهذا القصد ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٣٠].

إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخلق الزوجين بطباع واحدة، والزوجان اللذان يظنان، أنهما مخلوق واحد، يعيشان في أوهام؛ إذ كيف يريد منها زوجها أن تفكر برأسه، وكيف تريد هي منه، أن يحس بقلبها ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

إن النسيم لا يهب عليلا داخل البيت على الدوام، فقد يتعكر الجو، وقد تثور الزوابع، وإن ارتقاب الراحة الكاملة نوع وهم، ومن العقل توطين النفس على قبول بعض المضايقات، وترك التعليق المرير عليها. ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]. وقال رسول الله: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر» رواه مسلم(١).

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة يجدها ... ولا يسلم له الدهرَ صاحبُ

بيد أن بيوتات كثيرة فقدت روح التدين، فهي تتنفس في جو من الشراسة والنكد، واكتنفتها أزمات عقلية وخلقية واجتماعية، فقد تطلق المرأة اليوم، في رطل لحم، علق الرجل به طلاقها إن قامت بشرائه، فيخبط هؤلاء خبط العشواء(٢)، ويتصرفون تصرف الحمقى؛ فيقعون في الإثم والحيف(٣).

عباد الله: لقد كثر الطلاق اليوم، لما فقدت قوامة الرجل في بعض المجتمعات، إبان غفلة تقهقر عن مصدر التلقي من كتاب وسنة، وركن فئام من الناس إلى مصادر مريضة، قلبت

---

(١) رواه مسلم ح (١٤٦٩).

(٢) يقال: خبطه خبط عشواء أي: ركبه على غير بصيرة. والعشواء: الناقة لا تبصر أمامها (القاموس، مادة عشو).

(٣) الحيف: الجور والظلم (مختار الصحاح، مادة حيف).



مفاهيم العشرة، وأفسدت الحياة الزوجية، من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وتولى كِبْرَ[1] تلك المفاهيم الإعلام بشتى صوره، من خلال مشاهدات متكررة يقعِّد فيها مفاهيم خاطئة، ومبادئ مقلوبة في العشرة الزوجية، حتى وضع الزوجات تاريخهن.

ولرب منظر يشهده ألف امرأة بمرة واحدة، فإذا استقر في وعيهن، وطافت بهنّ الخواطر والأفكار، سلبهن القرار والوقار، فمثلنه ألف مرة، بألف طريقة، في ألف حادثة، فلا تعجبوا حينئذ إذا استأسد الحَمَل، واستنوق الجمل! والعجب كل العجب، أنه في ثنايا المناقشة يقرر الإعلاميون أن دور الإعلام مع المرأة، إنما هو كالتلقيح بمصل بعض الأدواء المعدية، والتسليم بميكروبها، بزعم أنها تكسب صاحبها مناعة، تقيه من أن يعي بوبائها.

وحقيقة الأمر أنهم بالذي وضعوا زادت العقد، وإن ما يذكره الإعلاميون، هو التعرض لعدوى الوباء في عنفوان شدته، وصدق من قال:

وكانت دوائي وهي دائي بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

والواقع أيها المسلمون أن داخل البيت المسلم يتأثر بخارجه، وتيارات الميوعة والجهالة إذا عصفت في الخارج، تسللت إلى الداخل، فلم ينج من بلائها إلا من عصم الله.

الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولابد لكل اجتماع من رئيس يرجع إليه عند الاختلاف في الرأي والرغبة، والرجل أحق بالرياسة؛ لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ، بما أودع الله فيه من ذلك. وإن ما تتلقنه المرأة من الأجواء المحيطة بها، على منازعة الرجل قوامته، لمن الانحراف الصِّرْف، والضلال المبين.

وإن قوامة الرجل في بيته لا تعني منحه حق الاستبداد والقهر، فعقد الزوجية، ليس عقد استرقاق، ولا عقد ارتفاق لجسد المرأة، إنه أزكى من ذلك وأجل.

وكل من الزوجين بشر تام، له عقل يتفكر به، وقلب يحب به ويكره، فوجب الحق للمرأة حتى مع قوامة الرجل ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨]. كما أن قوامة الرجل، لا تعني استغناءه عن زوجه، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧].

---

(١) كِبْر الشيء: معظمه (مختار الصحاح، مادة كبر).

عباد الله: لقد كثر الطلاق اليوم، لما صار المطلق أحد رجلين: إما رجل أعمل سلطته وأهمل عاطفته؛ فكان في بيته سيدا، ولكنه لم يذق طعم المحبة والسعادة، ولا عرف الصفاء والهناء. وإما رجل تبع عاطفته فأطاعها، وأهمل سلطته فأضاعها، فعاش في داره عبدا رقيقا.

لقد الطلاق ضرورة حين يتأكد الزوجان بعد مزيد تأمل وتفكير، ومحاورة ومشاورة، أن استمرار العلاقة الزوجية أمر غير ممكن، أو أنه لن يزيد المشاكل إلا تفاقما، نظرًا لظروف خاصة، أو حالات معينة، ثم بعد ذلك إذا طلق أحدهم فتسريح بإحسان.

وقد روي عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه طلق امرأة فبعث إليها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق. ونقل عن بعض الصالحين أنه أراد تطليق امرأته، فقيل له: ما يريبك منها؟ فقال: (العاقل لا يهتك سرًا. فلما طلقها، قيل له: لم طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري؟!).

أما اليوم فقد كثر الطلاق لأتفه الأسباب لما كثر الحسدة والواشون، فنكسوا الطباع، وعكسوا الأوضاع، وصيروا أسباب المودة والالتئام، عللا للتباغض والانقسام. ولربما كان لأهل الزوجين مواقف ظاهرة، بدت سببا مباشرا في كثير من الخلافات، فقد يتدخل الأب، وقد تتدخل الأم أو الأخ، أو الأخت، فيحار الزوج من يقدم؟ والديه، الذين عرفاه وليدا، ورбياه صغيرا؟ أم زَوْجَهُ التي هجرت أهلها، وفارقت عشها من أجله؟ إن هذه لُمرتَقَيَاتٌ صعبة، أهونها أصعب الصعاب، وأحلاها أمرّ من المر.

إن مثل هذه التدخلات في الحياة الزوجية، لهي مكمن الخطر لدى كثير من الأسر، فما بال أولئك يهجمون على البيوت؟ فيأتونها من ظهورها، ويمزقون ستارها، ويهتكون حجابها، وينتزعون الجرائد من أكنافها، والفرائد من أصدافها، ويوقعون العداوة والبغضاء بين الأزواج. ماذا يكون أثر هؤلاء في البيوت التي تتكون منها الأمة، في الأمة المكونة من البيوتات؟! إنه لا يغيب عن فهم عاقل، أن شرهم مستطير، وأن ما يفعلونه فتنة في الأرض وفساد كبير.

عباد الله: إن العلاقات الزوجية، عميقة الجذور، بعيدة الآماد، فرحم الله رجلا محمود السيرة، طيب السريرة، سهلا رفيقا، لينا رؤوفا، رحيما بأهله، لا يكلف زوجته من الأمر شططا، وبارك الله في امرأة لا تطلب من زوجها غلطا، ولا تحدث عنده لغطا.

قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت» رواه ابن حبان[1].

وبهذا كله، يفهم الرجل أن أفضل ما يستصحبه في حياته، ويستعين على واجباته، الزوجة اللطيفة العشرة، القويمة الخلق، وهي التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره، إن هذه الزوجة هي دعامة البيت السعيد، وركنه العتيد.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

(١) صحيح، صحيح ابن حبان (الإحسان ح ٤١٦٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: إن أحدنا لتمر عليه فترات، لا يرضى فيها عن نفسه، ولكنه يتحملها، يتعلل بما يحضره من المعاذير، وإذا كان الأمر كذلك، فليكن هذا هو الشأن بين الزوجين، يلتمس كل منهما لقرينه المعاذير فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات؛ ولابد من غض الطرف عن الهفوات والزلات، حتى تستقيم العشرة،

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

ولا شيء يخفف أثقال الحياة، وأوزار المتاعب، عن كاهل الزوجين، كمثل أحدهما للآخر، ولا شيء يعزي الإنسان عن مصابه في نفسه وغيره مثل المرأة للرجل، والرجل للمرأة؛ فيشعر المصاب منهما بأن له نفسا أخرى، تمده بالقوة، وتشاطره مصيبته.

فهذه أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي، كانت له في المحنة قلبا عظيمًا، وكانت لنفسه كقول: (نعم)، فكأنما لم تنطق قط (لا)، إلا في الشهادتين، وما زالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تعطيه من معاني التأييد والتهوين، كأنما تلد له المسرات من عواطفها، كما تلد الذرية من أحشائها؛ بمالها تواسيه، وبكلامها تسليه «كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك تصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[1].

وحدث أنس بن مالك، عن أمه أم سليم، بنت ملحان الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: مرض أخ لي من أبي طلحة، يدعى أبا عمير، فبينما أبو طلحة في المسجد، مات الصبي، فهيأت أم سليم أمره، وقالت: لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه، فرجع من المسجد، وقد تطيبت له وتصنعت، فقال: ما فعل ابني؟ قالت: هو أسكن مما كان، وقدمت له عشاءه، فتعشى هو وأصحابه، ثم

(١) رواه البخاري ح (٣).

أتما ليلتهما على أتم وأوفق ما يكون، فلما كان آخر الليل قالت: يا أبا طلحة، ألم تر إلى آل فلان، استعاروا عارية فتمتعوا بها، فلما طلبت إليهم شق عليهم، قال أبو طلحة: ما أنصفوا. قالت: فإن ابنك فلانا، كان عارية من الله فقبضه إليه، فاسترجع وحَمِد الله وقال: والله لا أدعك تغلبينني على الصبر. حتى إذا أصبح، غدا على رسول الله فلما رآه قال: «بارك الله لكما في ليلتكما» متفق عليه[1].

الله أكبر! بمثل هذا فلتكن العشرة أيها الأزواج، بمثل هذا فلتكن الحياة الهانئة السعيدة، في النفس والولد والمال.

ثم اعلموا رحمكم الله أن لكلا الزوجين حقا على الآخر؛ فحقٌ على الزوج أن ينفق عليها، ولا يكلفها من الأمر مالا تطيق، وأن يسكنها في بيت يصلح لمثلها، وأن يعلمها، ويؤدبها، ويغار عليها، ويصونها، وألا يتخونها، ولا يلتمس عثراتها، وأن يعاشرها بالمعروف، قال رسول الله: «استوصوا بالنساء خيرا» متفق عليه[2].

وسئل: ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: «تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تُقَبِّح، ولا تهجر إلا في البيت» رواه أبو داود[3].

ومن حق الزوج على زوجته، أن تطيعه في المعروف، وأن تتابعه في مسكنه، وألا تصوم تطوعا إلا بإذنه، وألا تأذن لأحد في بيته إلا بإذنه، وألا تخرج بغير إذنه، وأن تشكر له نعمته عليها ولا تكفرها، وأن تدبر منزله وتهيئ أسباب المعيشة به، وأن تحفظه في دينه وعرضه. قال رسول الله: «إذا صلَّتِ المرأةُ خَمْسَها، وصامَت شهرَها، وحَفِظَت فرْجَها، وأطاعَت زَوجَها، دخَلتِ الجنَّةَ»[4] وصححه الألباني في صحيح الجامع.

هذا وصلوا رحمكم الله على خير البرية وأفضل البشرية...

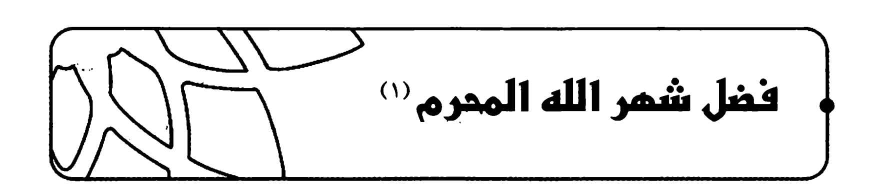
---

(١) رواه البخاري ح (٥٤٧٠)، ومسلم ح (٢١٤٤)، ورواه أحمد (٣/ ١٠٥-١٠٦) واللفظ له.

(٢) تقدم تخريجه أول الخطبة.

(٣) صحيح، سنن أبي داود ح (٢١٤٢). ورواه أيضًا أحمد (٤/ ٤٤٧) وابن ماجه ح (١٨٥٠).

(٤) رواه البزار (٧٤٨٠) من حديث أنس، ورواه ابن حبان (٤١٦٣)، والطبراني في الأوسط(٤٥٩٨) من حديث أبي هريرة..



فضل شهر الله المحرم[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونتوب إليه ونستغفره، ونشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار، الملك العزيز الجبار، الذي قضى بزوال هذه الدار، وهدم بالموت مشيد الأعمار، وجعل في تعاقب الليل والنهار عبرة لأولي الأبصار، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، المصطفى المختار، القدوة المثلى في العمل لحسن الخاتمة وعدم الركون إلى هذه الدار، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، وتابعيه الأخيار، إلى يوم البعث لدر القرار.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

يقول الله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

أيها الإخوة: أنتم في شهر الله المحرم أحد الأشهر الأربعة الحرم التي فضلها الله تعالى على غيرها من الشهور، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، حرمها الله سبحانه وأمر بالابتعاد فيها عن الظلم، فخص هذه الأربعة بقوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]، قال ابن عباس: «لا تظلموا أنفسكم في الشهور

(١) عبدالله بن فهد السلوم.

كلها، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حرامًا وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم»، وقال قتادة: (إن الظلم في الأشهر الحُرُم أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن اللهّ يعظم من أمره ما يشاء).

وقد كانت العرب في الجاهلية تُجلُّ هذه الأشهر وتحرِّم فيها القتال، ولكنهم كانوا أيضا يُغيِّرون ويبدلون هذه الأشهر كما يحلو لهم، فإذا احتاجوا أن يغزوا قوما أو يحاربوهم بدلوا الشهر الحرام بغيره، وهو ما يسمى عندهم بالنسيء أي: التأجيل، يقول شاعرهم:

ألسنا الناسئين على معَدٍّ شهور الحل نجعلها حراما؟!

فجاء الإسلام، وذم الله سبحانه في كتابه هذا الأمر فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٣٧]، ثم لم يمت رسول الله حتى عادت دورة الزمان إلى وضعها الطبيعي، وعادت الأشهر التي بدلها المشركون إلى موضعها الصحيح، فعن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»(١).

وهذا الشهر المحرم فيه من الفضائل ما ليس في غيره ومن ذلك فضل الصيام فيه، فصيامه هو أفضل الصيام بعد رمضان، كما جاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»(٢) ومن خصائص هذا الشهر أن فيه فضيلة صيام عاشوراء وهو العاشر من محرم ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «كان عاشوراء يومًا تصومه قريش في الجاهلية وكان

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥٠) ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه مسلم (١١٦٣).

النبي يصومه فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه فلما نزلت فريضة شهر رمضان كان رمضان هو الذي يصومه فترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء أفطره»[(١)]. واعلموا يا عباد الله أن شهركم هذا شهر نصر وعز لنبي الله موسى وقومه على فرعون الطاغية المتجبر رغم كثرة عددهم وعُددهم، وخيلائهم وجلدهم، فإن الله ينصر أولياءه الداعين إليه ولا يخذلهم ويجيب رجاءهم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]. وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرًا فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه»[(٢)] وعن سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ في يوم عاشوراء: «أمر رجلًا من أسلم أن أذن في الناس من أكل فليصم بقية يومه ومن لم يكن أكل فليصم فإن اليوم يوم عاشوراء»[(٣)] وعن أبي قتادة أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن صيام عاشوراء فقال: «احتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[(٤)]. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر يعني عاشوراء»[(٥)]، مخالفة لليهود، فاجتهد أيها المسلم في صيام التاسع مع العاشر وإن لم تفعل فصم العاشر في هذا الشهر الحرام واجتهد فيه بصيام غير عاشوراء كالاثنين والخميس وأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وتزود من الخيرات لتقدم لنفسك زادًا تجده غدًا أمامك والله يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧]

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠٤) ومسلم (١١٢٥).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤) ومسلم (١١٣٠).

(٣) رواه البخاري (٢٠٠٧) ومسلم (١١٣٥).

(٤) رواه مسلم (١١٦٢).

(٥) رواه مسلم (١١٣٤).

تــزود مــن الــدنيا فإنــك لا تــدري إذا جـنّ ليـلٌ هـل تعـيش إلى الفجـر
فكـم مـن فتـى يمسـي ويصبح لاهيًـا وقـد نسـجت أكفانـه وهـو لا يـدري
وكـم سـاكن عنـد الصـباح بقصــره وعند المسـا قـد كـان مـن سـاكني القـبر

فتفطّن أيها المسلم في هذا الشهر وأنت تصلي وتصوم لله وتسارع في الخيرات صائمًا مخلصًا تفطن أنك منصور وأن الله راض عنك يحفظك ويؤيدك واستشعر عندما تكون في طاعة ربك فإن الله يحبك وسيجزيك أحسن الجزاء لأن الله لا يوفق لطاعته إلا من يحب ولا يهدي إليه إلا من ينيب، فكم حرم من الخلق من حرم من نعمة الطاعة والعبادة، وأنت فرض الله عليك بتوفيقه فوهبك هذا الخير من العبادات التي أنت فيها وتأتي إليها مسرعًا حريصًا على مرضاة ربك، فافرح بهذا الخير واحرص عليه ولا تتهاون فيه، وخف عليه من الحبوط والرد والنقصان وخف من سوء الخاتمة واحرص على حسن الختام فإن الأعمال بالخواتيم.

قال رسول الله ﷺ: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١)، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه واتباع سنة نبيه، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وصلاة وسلاما على عبدك ورسولك محمد الداعي إلى رضوانك، وعلى آله وصحبه الذين أنعمت عليهم بفضلك وإحسانك.

أما بعد:

إخوة الإيمان: لقد فضّل الله سبحانه في هذه الدنيا بعض الأيام، فبارك فيها وجعل أجر الأعمال الصالحة فيها مضاعفا؛ لكي نتخذها وسيلة إلى مضاعفة الثواب ووسيلة إلى الجنة، وأمرنا سبحانه بالمسارعة والمسابقة إلى مغفرته وجنته، يقول سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، فلا شك أن العبد المؤمن يسعى إلى الخير والنور، ويحب أن يرضي الله سبحانه في أفعاله وأقواله، وأن يطيعه في الأمور التي رغب في فعلها أو الأمور التي حذر من فعلها.

عباد الله: إن من رحمة الله أن جعل الحساب الشرعي العربي مبنيًا على الشهور الهلالية؛ لأن لها علامة حسية يفهمها الخاص والعام وهي رؤية الهلال في المغرب بعد غروب الشمس فمتى رؤي الهلال فقد دخل الشهر المستقبل وانتهى الشهر الماضي، فابتداء التوقيت اليومي من غروب الشمس لا من زوالها، فأول الشهر يدخل بغروب الشمس.

ولقد كان ابتداء التاريخ الإسلامي منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث جمع الناس سنة ست عشرة أو سبع عشرة من الهجرة، فاستشارهم من أين يبدأ التاريخ، فقال بعضهم: «يبدأ من مولد النبي. وقال بعضهم: يبدأ من بعثته. وقيل: يبدأ من هجرته. وقيل: من وفاته». ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجح أن يبدأ من الهجرة؛ لأن الله فرق بها بين الحق والباطل، فجعلوا مبتدأ تاريخ السنين في الإسلام سنة الهجرة لأنها هي التي كان فيها قيام كيان مستقل للمسلمين وفيها تكوين أول بلد إسلامي يحكمه المسلمون، ثم شاور عمر الصحابة من أي شهر يبدؤون السنة فقال بعضهم: «من ربيع الأول لأنه الشهر الذي قدم فيه النبي مهاجرًا إلى

المدينة وقال بعضهم: من رمضان»، واتفق رأي عمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ترجيح البداءة بالمحرم لأنه شهر حرام ويلي ذي الحجة ويلي الشهر الذي بايع فيه النبي الأنصار على الهجرة، فكان أولى الشهور بالأولوية شهر المحرم.

عباد الله: إن علينا أن نشكر الله على ما يسره لنا من هذا الحساب البسيط الميسر في معرفة التاريخ اليومي الذي يبدأ من الهجرة (هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة) ومن هنا ينبغي علينا جميعًا فرادى وأمة مسلمة أن نعتز بديننا وتاريخنا، وأن نكون أمة متميزة بأخلاقها ورأيها ومعاملاتها تميزًا عن سائر الأمم، لنكون أمة عدل وخير وأمة صدق مع الله في كل تصرفاتنا، ليحصل لنا صلاح أحوالنا مع أنفسنا، فنعيش الرضى والطمأنينة والسكينة وانشراح الصدر، وقرة العين بالإيمان الصادق، ويحصل لنا صلاح أحوالنا مع الناس جميعًا، لأن من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن توكل على الله كفاه، ويحصل لنا النصر على أعدائنا، فتعيش الأمة حياة العزة والإباء، ويتحقق قول الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، فإن الخيرية والرفعة والسؤدد والتوفيق من الله إنما تحصل بالإيمان الصادق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، فجددوا أيها الإخوة إيمانكم، وتوبوا إلى ربكم وصلوا قلوبكم فيه تفوزوا بجنته ورضوانه في الدنيا والآخرة، فإن الله يحب المستجيبين لأمره، وينصرهم ويرحمهم، ويشرح صدورهم، ويقوي قلوبهم بالتوكل عليه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٤-٣٥].



الاحتفال برأس السنة الميلادية [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله المُتفرِّد باسمه الأسمى، أحمده سبحانه وسِع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأُثنِي عليه وأشكرُه أسبغَ علينا آلاءً وأفضالًا ونِعمًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً مُخلِصةً تكونُ لبلوغ رِضوانه سُلَّمًا، وأشهد أن سيدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله فتحَ به أعيُنًا عُميًا، وقلوبًا غُلفًا، وآذانًا صُمًّا، وآتاه من فضله علمًا وحكمةً وحُكمًا، صلَّى الله وسلَم وبارَك عليه وعلى آله وأصحابه هم الأرجحُ عقلًا وحلمًا، والأوفرُ علمًا وفهمًا، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

إخوة الإيمان: إن من يزور كثيرًا من بلاد المسلمين في هذه الأيام، ما إن تطأ قدماهُ أرضَهُ، ويتجولُ في شوارع مُدُنِها، ويُراقب سلوك الأفراد في مجتمعاتها، حتى يجِدَ أن الصورة التي كانت منطبعة في ذهنِهِ، قدِ انقلبت رأسًا على عقب. فما يراه من مظاهر الفرح والابتهاج في مدنهم، وما يلمسه في مختلِفِ فئات المجتمع من تأهب واستعدادٍ لاستقبال عيد الميلاد المسيحي، والاحتفال برأس السنة الجديدة يكذبُ ما كان يسمعه عن بلاد المسلمين وتشبثِ شعوبها بدينهم الحنيفِ.

حتى إنك تجد واجهات المتاجر والمقاهي والفنادق في بعض البلاد الإسلامية مزينة بالرسوم التي ترمز إلى ميلاد المسيح وحلول السنةِ الجديدةِ، والمصورون بلباس (بَابَّاهُم نويل)

---

(١) عبدالله العلوي الشريفي.

يجوبون الشوارعَ ويقفون في الساحات والحدائق؛ ليأخذَ الناسُ لهم ولأطفالهم صورًا تذكارية بالمناسبةِ.

وباعة الورد والزهور يتنافسون في عرض أقصى ما يستطيعون من أصناف بضاعتهم التي يتسابق الناس إلى شرائها بالغة من الثمن ما بلغت.

والإعداد قائم على قدم وساق في كلِّ جهة ومكان لإحياءِ الحفلات الصاخبةِ التي تقامُ في البيوت والفنادق بمناسبة ليلة الميلاد، وليلةِ رأس العام الجديد، وتساهم الفنادق السياحية بجهدٍ كبير في إغراءِ الناس بذلك، حيث تتكرَّمُ بتسهيلاتٍ وامتيازاتٍ لمن يقيم في أكنافها خلال هذه الفترة المشهودة.

وتشارك وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة في مظاهر الحفاوة هذه، فتعِدُّ برامجَ وأحاديثَ وملحقاتٍ للمناسبةِ. حتى إذا جاءت الليلة الموعودة سَهرَ من يحلو له السهرُ، بما يجبُ أن يكون في تلك الليلة من لهو ولغو، وقد يتعدى ذلك إلى فسق وفجور، وتفنُّن في ارتكاب شتى المنكراتِ، والله المستعان.

إخوة الإيمان: في الحقيقة، إن هذا التقليدَ الكليَّ لما هو غربيٌّ، ناتجٌ عن نقصان الثقة وضعف الإيمان بالله أو انعدامه، مع ضياع العقيدةِ الصحيحةِ أو انعدامها، وانسلاخ من مستلزمات التميز الإسلامي، ومنكر يُدخِلنا في دائرةِ من قَالَ فيهم رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[(١)]، وفي رواية أنه ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا، لا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَلا بِالنَّصَارَى..»[(٢)].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (... وهذا الحديثُ أقلُّ أحواله أنه يقتضي تحريمَ التشبُّهِ بهم، وإن كان ظاهرهُ يقتضي كفرَ المتشبِّهِ بهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١]).

وتشبُّهُ المسلمين بالكفار هبوط وسفولٌ؛ لأن المسلمَ أعلى من الكافر، فإذا قلدَهُ هبط من عليائِهِ ومنزلتِهِ، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وهذا كفرانٌ للنعمةِ وإهانة للإسلام،

---

(١) أبو داود (٤٠٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٩٥).

والإسلامُ يعلو ولا يُعلى عليهِ. وشريعتنا تقيمُ لنا هدْيًا مخالفًا للكفار من أهل الكتاب وغيرهم، فشريعتنا ناسخة لا منسوخة، وأمتنا متبوعة لا تابعة.

روي عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا. فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟، قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ»(١).

وعليه -أيها الإخوة- لا يَحِلُّ لمسلم أن يُحْيِيَ عيدَ رأس السنةِ، فليسَ عيدُنا -أهلَ الإسلام- هذا اليوم.

فعلى تجار المسلمين أن لا يساهموا في مظاهر الاحتفال، فيتشبهوا بالتجار من النصارى في نوع التجارة التي يروجون لها هذه الأيام، وتزيين الدكاكين بالأضواءِ ونحوها.

نقلَ الفقيه المغربيُّ ابنُ الحاج في كتابه المدخل، عن علماء المذهب المالكي أنه (لا يَحِلُّ للمسلمينَ أن يبيعوا للنصارى شيئًا من مصلحةِ عيدِهمْ، لا لحمًا ولا إدامًا ولا ثوبًا... ولا يعانون على شيءٍ من دينهم؛ لأن ذلك من التعظيم لشركهم وعونهم على كفرهم، وينبغي للسلاطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك. وهو قولُ مالكٍ وغيرِهِ، لم أعلمْ أحدًا اختلفَ في ذلكَ).

ونحن -أيها الإخوة- الواجب علينا أن نقاطع هذه الاحتفالات، ألا يستطيع كلُّ واحدٍ منا أن يَمْنعَ أولادَهُ وبناتِهِ وكلَّ من في بيتِهِ عن هذه الاحتفالاتِ الماجنةِ.

فبالله عليكم كيفَ يُعْقلُ من أبٍ مسلِم أن يرَى أولادَهُ وبناته يستعدون ويهيئون داخل بيته للاحتفال برأس السنة وهو لا يحرِّكُ ساكنًا.

بل من الآباء المسلمين من يشاركهمْ في احتفالهم فيشتري لهم كلَّ الحاجياتِ، ويهيئُ لهم الجوَّ المناسبَ، ويَعتَبِرُ كلَّ هذا شيئًا عاديًا لا حرَجَ فيه، وينسى أنه مسؤولٌ عن رعيته الخاصةِ وصيانتها؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

---

(١) صحيح أبي داود (١١٣٤).



فهل هذا الأب الذي لا يمنع أولاده من الاحتفال برأس السنة الميلادية، أو يشاركهم فيه، اتخذ لنفسه وقاية من النار؟!

ألا فاتقوا اللهَ -عبادَ الله- في أنفسكم فألزموها بطاعةِ الله، وأبعدوها عن معصيتهِ، وحُثوا زوجاتِكم وأولادَكم على الالتزام بأحكام الشرع، وساعدوهم على ذلكَ، وازجروهمْ عن ارتكاب المعاصي حتى لا تصيروا معهم إلى النار.

نفعني الله وإياكم بالقرآن المبين، وبحديث نبيه الصادق الأمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو التواب الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه.

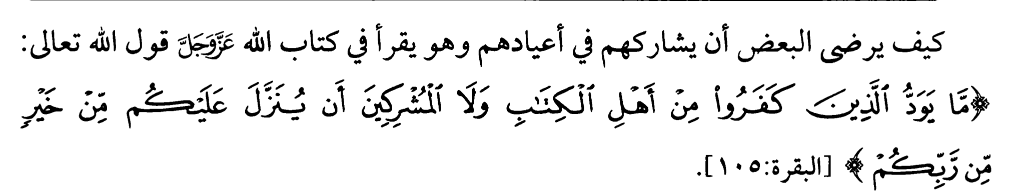
أما بعد:

فيا إخوة الإيمان: اعلموا أن كثيرًا من المسلمين سيشاركون في احتفالات عيد رأس السنة الميلادية، وما علم هؤلاء أن المشاركة فيها مشاركة في شعيرة من شعائر النصارى، والفرح بعيدهم فرح بشعائر الكفر وظهوره وعلوه، وفي ذلك من الخطر على عقيدة المسلم وإيمانه ما فيه؛ فكيف بمن شاركهم في شعائر دينهم وحضر قداسهم -زعموا-؟!

وقد يسأل البعض فيقول: هناك من النصارى من نعمل معهم وهم يحسنون التعامل معنا، وقد يقفون معنا في بعض قضايانا، ويحسنون ويقسطون إلينا، فكيف نتعامل معهم في هذا الموطن؟

والجواب: أن المسلم العاقل الموفق يدرك أنه حين يعايش أناسًا من هؤلاء ممن قد يكون بينه وبينهم حسن تعامل، وبر وقسط، فإنه يعلم أنه إن جاملهم وهنّأهم على شركهم وزاد في تضليل الضالين، فمن يدعوهم إلى الحق المبين؟ ويبين لهم الصراط المستقيم؟ فيمكن تبيين الأمر إليهم بصورة مؤدبة تجمع بين الاعتذار ولفت الانتباه إلى هذه المسألة الجدلية بطريقة تلفت انتباههم وتقدح التساؤل والبحث عن الحق في نفوسهم، وأما مسألة التعامل معهم بإحسان وقسط، فإن ذلك يمكن أن يكون في موطن غير موطن الإقرار لهم على كفرهم وشركهم بالله تعالى. وإن صاحب المبدأ يحوز على احترام الآخرين وتقديرهم.

وهل يرضى المسلم أن يهنئهم ويشاركهم في أعيادهم وهم يزعمون أنهم يحتفلون بميلاد ابن الرب؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، وتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا..؟! إن هذا الكذب والإفك المفترى تكاد تنشق له السموات والأرض وتخر الجبال هدًّا، يقول تعالى عند ذكر شركهم هذا في سورة مريم: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٠-٩٢].



كيف يرضى البعض أن يشاركهم في أعيادهم وهو يقرأ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قول الله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٠٥].

كيف يفرح البعض بعيد الكفار وهو يقرأ في القرآن قول الباري -جل وعز-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

كيف يجامل المسلم على حساب عقيدته ويشارك النصارى في شعائر كفرهم وهو يقرأ قول الله سبحانه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢].

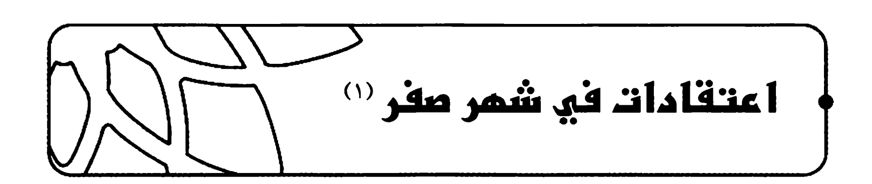
فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى، واشكروا نعمته عليكم أن هداكم للإسلام، وخَصَّكم بمحمد نبيِّ الرحمةِ عليه الصلاة والسلام، وجعلكم -إن تمسكتم بهذا الدين، واتبعتم هذا الرسولَ- خير أمة أخرجت للناس.

واعتزوا بدينكم، فدينكم غنيٌّ بالعقيدةِ الصحيحةِ، والشريعةِ العادلةِ، والأخلاق الفاضلةِ.

ولا تغتروا بما يفعله البعض من جهلة المسلمين، فهم يجهلون حَقِيقة الإسلام، وقاوموا هذه البدعَ والمنكراتِ التي غَزَتْ مُجتمعاتِنا بعدم المشاركةِ فيها ومقاطعتِها، وصَحِّحُوا نِسْبَتَكمْ إلى دينِكمْ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف:٣]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩]، واعملوا بما تسعدوا به في دنياكم وأخراكم.

هذا، وصلوا وسلموا على محمد سيد الأولين والآخرين، وأفضل الخلق أجمعين...





اعتقادات في شهر صفر [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله مُجيب من دعاه، وهادي من استهداه، أحمده وأشكره على جزيل مِنَحه ووافر عطاياه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره، ولا رب لنا سواه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا رسول الله وخليله ومُصطفاه، صلى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم أن نلقاه.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها المسلمون:

دخل علينا في هذه الأيام شهر جديد، ونزل ضيفا علينا، ألا وهو شهر صفَر، وشهر صفر هو أحد الشهور الاثني عشر الهجرية، ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦] وشهر صفر هو الشهر الذي بعد المحرم، وإنما سمي صفرا: لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا، وروي عن رؤبة أنه قال: (سموا الشهر صفرا لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل، فيتركون من لقوا صفرا من المتاع، وذلك أن صفرا بعد المحرم)[2]، ولقد كان للعرب في جاهليتهم وقبل الإسلام في شهر صفر منكران عظيمان:

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) تاج العروس(١/ ٣٠٦٧).

الأول: التلاعب فيه تقديمًا وتأخيرًا حيث (كانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا - أي: يوافقوا - عدة الأشهر الأربعة[1]) حتى لا تحول الأزمنة الفاضلة بينهم وبين ما يشتهون.

أما المنكر الثاني الذي يرتكبه العرب في هذا الشهر فهو: التشاؤم حيث يعتقدون أن شهر صفر شهر حلول المكاره ونزول المصائب، وقد كان المشركون يتشاءمون من شهر صفر لأنهم يعودون فيه إلى السلب والنهب والغزو والقتل بعد الكف عنها في الأشهر الحرم، حتى أنه لا يتزوج من أراد الزواج في هذا الشهر لاعتقاده أن لا يوفق، ومن أراد تجارة فإنه لا يمضي صفقته في شهر صفر خشية ألا يربح.

أيها المسلمون: إن من أوجب الواجبات على العباد معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده وعبادته والتوكل عليه، والحذر مما يناقض ذلك من الشرك، والخرافات والبدع؛ لأن التوحيد هو القاعدة والأساس في دين الإسلام فلا يقبل الله عملًا إلا به، وهو أصل الأصول الذي خُلقنا لأجله، والأعمال كلها متوقف قبولها واعتبارها على تحقيق هذا الأصل العظيم، ولقد تنادت الأدلة المتكاثرة، والحجج المتظافرة، والأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على عظم أمر التوحيد وخطر ما يضاده، فالشياطين ما فتئت تترصد لبني آدم تجتالهم وتغويهم، وإن مما يضاد التوحيد، ويناقضه ما اعتقده أهل الجاهلية، وأتباعهم في هذا الزمان من اعتقادات وبدع في بعض الأيام وبعض الشهور من العام، ومن ذلك ما يعتقده البعض في هذا الشهر من العام ألا وهو شهر صفر، وإذا كان أهل الجاهلية يعتقدون في بعض الأشهر الاعتقادات الباطلة فإن الناظر لحالهم قد يجد لهم عذرًا وهو جهلهم وبُعدهم عن الهدي الرباني السليم، والواضح فهم لا يعلمون، إذًا فما بال فئة من أمة محمد ﷺ ممن هم من أهل التوحيد، والهدي الرباني النبوي أبت أنفسهم إلا التشبه بأهل الجاهلية، والحذو حذوهم في بعض بدعهم واعتقاداتهم، فهناك من أمة محمد ﷺ من يتشاءم بهذا الشهر شهر صفر، وطائفة تمنع إقامة حفلات النكاح

---

(١) تفسير ابن كثير(٤/ ١٥٠).

في هذا الشهر تمسكًا بما عليه أهل الجاهلية من التشاؤم، وفي بعض البلدان توجد خرافات أخرى وخزعبلات لا يقرها عقل ولا شرع.

أيها الناس: لقد حارب النبي ﷺ هذه المعتقدات الباطلة، فقد ثبت عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ»[1] أراد ﷺ بهذا الحديث نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من الاعتقادات الباطلة التي تؤثر في القلب وتضعف الظن الحسن بالله عَزَّ وَجَلَّ، (فلا عدوى أي لا عدوى مؤثرة بطبعها؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن العدوى تؤثر بنفسها تأثيرًا لا مرد له، وتأثيرًا لا صارف له، ولا طيرة أي لا تشاؤم ومعناه لا تتطيروا ولا يقع منكم ذلك)[2].

(ولا صفر: وهو تأخير المحرم إلى صفر في النسيء، أو دابة بالبطن تعدى عند العرب، ويحتمل أن يكون نفيا لما يتوهم أن شهر صفر تكثر فيه الدواهي والفتن)[3].

فأبطل النبي ﷺ بهذا الحديث قضية التشاؤم في شهر صفر، وأنه ليس من الدين في شيء، وأن شهر صفر شهر من الأشهر التي عدها الله عَزَّ وَجَلَّ، وأيامه من أيام الله تبارك وتعالى فليس فيها ما يدعيه بعض الجهلة بالدين، من الذين لبس الشيطان عليهم.

أيها المسلمون: ومن البدع المنتشرة في هذا الشهر: الاعتقاد أن آخر يوم أربعاء من الشهر ينزل الله سبحانه فيه البليات، والمصائب، والكوارث حتى وصل الحال لدى بعضهم بأن يكون ذلك اليوم هو أصعب أيام السنة وأشدها، وعلى هذا فمن أراد الخلاص من شرور ذلك اليوم أن يصلي لله تعالى أربع ركعات بصفة معينة ثم يختم صلاته بدعاء معين ومنه: اللهم أكفني شر هذا اليوم وما ينزل فيه يا كافي المهمات، ويا دافع البليات،... الخ، وهذا من البدع المحدثة التي لا أصل لها في الدين الحنيف، والتي لم يثبت عن الرسول ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه -رضوان الله عليهم- منها شيء، ولا يوجد لها أصلٌ في الشرع لا من الكتاب ولا

---

(١) البخاري(٥٣١٦)، ومسلم(٤١١٦).

(٢) مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها(١/ ٦٣) بتصرف.

(٣) فيض القدير(٦/ ٥٦١).

من السنة، وقد روت أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»[1].

عباد الله: من البدع المحدثة في هذا الزمان ما يراه البعض، وهو معتقد بذلك أن من يقرأ في آخر أربعاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١] من قرأها كذا مرة فإنها تدفع الشر، وتزيل المكاره التي تنزل آخر شهر صفر، وهذا من الأمور التي لم تثبت في ديننا، وليس لها أصل، وبهذا أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وإليكم نص الفتوى حيث جاء في الفتوى:

هذه النافلة المذكورة لا نعلم لها أصلًا من الكتاب، ولا من السنة، ولم يثبت لدينا أن أحدا من سلف هذه الأمة وصالحي خلفها عمل بهذه النافلة، بل هي بدعة منكرة، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[2] وفي صحيح البخاري: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[3]، ومن نسب هذه الصلاة وما ذكر معها إلى النبي ﷺ أو إلى أحد من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمْ **فقد أعظم الفرية**، وعليه من الله ما يستحق من عقوبة الكذابين، وبالله التوفيق.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٩)، ومسلم (١٨٨).

(٢) مسلم(٣٢٤٣).

(٣) البخاري(٢٤٩٩)، ومسلم(١٨٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين معز من أطاعه، ومذل من عصاه، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على البشير النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير.

أما بعد:

أيها الموحدون: هل يؤثر الزمان بنفسه؟ هل يصرّف الدهر شؤونه؟ هل للوقت تأثير بذاته؟ فلماذا يعتقد الناس في يوم أو شهر أو سنة أو زمان أو مكان؛ بأنه يجلب خيرًا أو يدفع شرًا وضرًا؟ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٤٩-٥٠]، الله وحده خالق الخلق ومقدر الأقدار، وهو الدهر الذي يقلب الليل والنهار. إن من سلامة قلب المؤمن وصدق إيمانه أن لا يعقل قلبه بغير الله خوفًا ولا طمعًا، رغبة ولا رهبة، خشية ولا محبة، ولا يتكل على غير الله كائنًا ما كان ذلك الشيء.

وإن من البدع التي يعتقدها بعض الناس -هداهم الله- أن من يتزوج في هذا الشهر لا يوفق في زواجه، ومصيره إلى الفشل، فتراهم لا يقيمون فيه مناسبة ولا فرحًا، ولا يعقدون فيه ولا يتّجرون، وكل هذا يدل دلالة واضحة على أن من يتصف بهذه الصفة، ويعتقد هذا الاعتقاد أن هذا نتيجة جهلهم بالدين عمومًا، وضعف عقيدة التوحيد فيهم خصوصًا، وسبب ذلك الجهل، ونقص التوحيد، وضعف الإيمان، هو عدم انتشار الوعي الصحيح فيهم، ومخالطة أهل البدع والضلال، فينبغي على العبد الحذر كل الحذر من أن يوقع نفسه في الإثم، وأن تزل قدمه.

ومن العجيب أن هؤلاء لم يكتفوا بمخالفتهم للهدي النبوي، وللدين الإلهي، بل تراهم يستدلون على هذه البدع والخرافات بأحاديث مكذوبة، وموضوعة على النبي ﷺ.

من ذلك قولهم: «من بشرني بخروج صفر بشرته بالجنة» وهذا الحديث باطل لا أصل له قال الإمام الألباني عنه: (موضوع)[١].

وقال صاحب كتاب الفتاوى الهندية: (هو كذب محض)[٢].

---

(١) حجة النبي(١/ ١٠٤).

(٢) الفتاوى الهندية (٤٤/ ٣١٠).

إن على هؤلاء أن يتقوا الله عَزَّوَجَلَّ في أنفسهم، وأن يراجعوا أنفسهم، وعلاقتهم وإيمانهم بالله تبارك وتعالى وأن يعلموا علمًا يقينيًا حقيقة قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، ويؤمنوا إيمانًا صادقًا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

هذا هو حال المؤمن الصادق، والواثق بما عند الله عَزَّوَجَلَّ العالم علمًا يقينيًا لا يتطرق إليه شك أنه لن يقع إلا ما أراد الله في وقت رضيه تبارك وتعالى، وفق قضائه وقدره عَزَّوَجَلَّ، ويكون نصب عينيه حديث عَبْدِ اللهِ بن عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ قَالُوا يَا رَسُولَ الله مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ قَالَ أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(١).

فالمؤمن يجب عليه أن يتوكل على الله حق التوكل، وأن يعلم أن الطيرة باطلة، ولا أثر للأسباب إلا بقضاء الله وقدره، وإنما ذكر اللهّ تعالى الأسباب؛ لأن الشرائع تتعلق بها، والأحكام عائدة عليها بالثواب والعقاب، فالعبد لا بد أن يعتقد أنه لا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون سواه، وأن الرب الذي يرزق، ويشفي، ويحي، ويميت، بأسباب، وهو قادر على أن يرزق، ويشفي، ويحي، ويميت، من غير أسباب، ولكن الأخذ بالأسباب ركن من أركان التوكل على الله فلا يضر التصرف في أسباب العيش، والتكسب في أسباب الرزق، والأخذ بأسباب الشفاء، والنجاة من الهلاك لمن صحّ توكله، وهذا لا يقدح في مقامه ولا ينقص ذلك من حاله، فالموحد يعلم أن اللهّ تعالى قد جعل في الأسباب منافع خلقه، ومفاتح رزقه، وخزائن حكمته، ويعلم أنه بهذا مقتد في ذلك بنبيه ﷺ، ومتبعٌ لسنته.

عباد الله: إن بعض الناس يدفعه حبه لمنهجه فيقوم بمخالفة أهل الجاهلية في تشاؤمهم بشهر صفر فيقول في شهر صفر: إنه شهر الخير، وهذا الفعل يدخل في باب مدافعة البدعة بالبدعة؛ لأن هذا الشهر إنما هو كسائر شهور السنة، فلا يوصف بخير ولا بشر، بل يقع فيه ما

---

(١) احمد (٦٧٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٣/ ٥٣).

قدره الله عَزَّوَجَلَّ من المقادير، ولا يحصل فيه إلا ما قضاه وقدره الله، ولم يختص الله هذا الشهر بوقوع مكارم أو مكاره، فهو شهر من أشهر الله، وزمان من الأزمنة، والأزمنة لا دخل لها في التأثير ولا في ما يقدره الله سبحانه، إن التشاؤم بالأزمنة، أو بالأشهر، أو ببعض الأيام أمر يبطله الإسلام لما فيه من الظن السيئ بالرب -سبحانه-، ولما فيه من الاعتقاد الباطل الذي لا ينبني على دليل أو برهان، وهذا التشاؤم في هذا الشهر أو غيره من جنس الطيرة التي نهى عنها ﷺ.

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

نسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا أن يهدينا سواء السبيل، وأن يرزقنا اتباع منهجه القويم على النهج الذي يرتضيه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.



دروس من الهجرة [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، أحمده سبحانه العزيز الوهاب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله خيرُ من اتقى ربه وأناب، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.

أمَّا بعد:

فأوصيكم - عباد الله - ونفسي بتقوى الله، فهي أربح المكاسب، وأجزل المواهب، وأسمى المناقِب، وبها تُنال أعلى المراتب، وتتحقَّق أعظم المطالب.

عباد الله: تعيش الأمَّة الإسلاميَّة هذه الأيام إشراقةَ سنةٍ هجريَّة جديدة، وإطلالةَ عامٍ مباركٍ بإذن الله، بعد أن أَفَلَت شمسُ عامٍ كامل، مضى بأفراحه وأتراحه، فقوِّضت خيامه، وتصرَّمت أيامه، فالله المستعان عباد الله، ما أسرع مرور الليالي والأيام، وتصرُّم الشهور والأعوام! لكن الموفَّق الملهَم مَنْ أخذ من ذلك دروسًا وعِبرًا، واستفاد منه مُدَّكَرًا ومُزدَجَرًا، وتزوَّد من المَمَرِّ للمَقَرِّ، فإلى الله سبحانه المرجِع والمستقرّ، والكيِّس المُسَدَّد مَنْ حاذَر الغفلة عن الدَّار الآخِرة حتى لا يعيش في غمرة، ويؤخذ على غرَّة، فيكون بعد ذلك عظةً وعبرة، واللهَ نسألُ أن يجعل من هذا العام نُصْرَةً للإسلام والمسلمين، وصلاحًا لأحوالهم في كلِّ مكان، وأن يعيده على الأمَّة الإسلاميَّة بالخير والنَّصر والتَّمكين، إنه جوادٌ كريم.

إخوة الإسلام: حديث المناسبة في مطلع كلِّ عامٍ هجريٍّ: ما سطَّره تاريخنا الإسلاميّ المجيد من أحداثَ عظيمة، ووقائعَ جسيمة، لها مكانتها الإسلاميَّة، ولها آثارها البليغة في عزِّ

---

(١) عبدالرحمن السديس.

هذه الأمَّة وقوَّتها وصلاح شريعتها لكلِّ زمانٍ ومكان، وسعيها في تحقيق مصالح العباد في أمور المعاش والمعاد.

معاشر المسلمين: ما أجمل أن نشير إشارات عابرة لعدد من القضايا المهمَّة الجديرة بالإشادة والتَّذكير ونحن في بداية هذا العام الجديد، علَّها تكون سببًا في شَحْذ الهِمَم، واستنهاض العزمات للتمسُّك الجادِّ بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وحاملةً على الاتِّعاظ والاعتبار، ووقفاتِ المحاسبة الدقيقة، ونظراتِ المراجعة المستديمةِ في الأمَّة، تجديدًا في المواقف، وإصلاحًا في المناهج، وتقويمًا للمسيرة في كافَّة جوانبها.

وأوَّل هذه الإشارات - مع حَدَث السَّاعة وحديثها -: الحدث الذي غيَّر مجرى التاريخ، الحدث الذي يحمل في طياته معاني الشجاعة والتَّضحية والإباء، والصَّبر والنَّصر والفداء، والتوكُّل والقوَّة والإخاء، والاعتزاز بالله وحده مهما بلغ كيد الأعداء، إنَّه حَدَثُ الهجرة النبويَّة، الذي جعله الله سبحانه طريقًا للنَّصر والعزَّة، ورفع راية الإسلام، وتشييد دولته، وإقامة صرح حضارته، فما كان لنور الإسلام أن يُشِعَّ في جميع أرجاء المعمورة لو بقيَ حبيسًا في مَهْدِه، ولله الحكمة البالغة في شَرْعِه وكَوْنِه وخَلْقِه.

إنَّ في هذا الحدث العظيم من الآيات البيِّنات والآثار النيِّرات والدروس والعِبَر البالغات ما لو استلهمته أمَّة الإسلام اليوم وعملت على ضوئه وهي تعيش على مفترق الطُّرُق؛ لتحقَّق لها عزُّها وقوَّتها ومكانتها وهيبتها، ولعلمت علم اليقين أنَّه لا حلَّ لمشكلاتها ولا صلاح لأحوالها إلاَّ بالتمسُّك بإسلامها، والتزامها بعقيدتها وإيمانها، فوَالذي بعث محمَّدًا بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا ما قامت الدُّنيا إلا بقيام الدِّين، ولا نال المسلمون العزَّة والكرامة والنَّصر والتَّمكين إلاَّ لما خضعوا لربِّ العالمين، وهيهات أن يحلَّ أمنٌ ورخاءٌ وسلامٌ إلاَّ باتِّباع نهج الأنبياء والمرسلين.

إذا تحقَّق ذلك - أيُّها المسلمون - وتذكَّرتِ الأمَّة هذه الحقائق النَّاصعة، وعملت على تحقيقها في واقع حياتها؛ كانت هي السلاح الفاعل الذي تقاتل به، والدِّرع الحصين الذي تتَّقي به في وجه الهجمات الكاسحة والصراع العالمي العنيف، فالقوة لله جميعًا، والعزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

أمَّة التَّوحيد والوَحْدة: لقد أكَّدت دروس الهجرة النبويَّة أنَّ عزَّة الأمَّة تكمن في تحقيق كلمة التَّوحيد، وتوحيد الكلمة عليها، وأنَّ أيَّ تفريطٍ في أمر العقيدة أو تقصيرٍ في أخوَّة الدِّين مآله ضعف الأفراد وتفكُّك المجتمع وهزيمة الأمَّة، وإنَّ المتأمِّل في هزائم الأمم وانتكاسات الشُّعوب عبر التاريخ - يجد أنَّ مَرَدَّ ذلك إلى التفريط في أمر العقيدة والتَّساهل في جانب الثَّوابت المعنويَّة مهما تقدَّمت الوسائل الماديَّة، وقوَّة الإيمان تفعل الأعاجيب، وتجعل المؤمن صادقًا في الثِّقة بالله والاطمئنان إليه والاتكال عليه، لا سيَّما في الشَّدائد.

ينظر أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى مواضع أقدام المشركين حول الغار فيقول: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصَرَنَا! فيجيبه جواب الواثق بنصر الله: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟!»[1].

الله أكبر! ما أعظم لطف الله بعباده ونصره لأوليائه، وفي هذا درسٌ بليغٌ لدعاة الحقِّ وأهل الإصلاح في الأمَّة: أنه مهما اشتدت الأزمات واحْلَوْلَكَتِ الظُّلمات فوعد الله آتٍ لا محالة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠].

أمَّة الإسلام: ودرسٌ آخر من دروس الهجرة النبويَّة، يتجلَّى في أنَّ عقيدة التَّوحيد هي الرَّابطة التي تتضاءل أمامها الانتماءات القوميَّة والتمايزات القَبَلِيَّة والروابط الحزبيَّة، واستحقاق الأمَّة للتبجيل والتَّكريم مدينٌ بولائها لعقيدتها وارتباطها بمبادئها، يُقال ذلك - أيُّها المسلمون - وفي الأمَّة في أعقاب الزَّمن منهزمون كُثُر، أمام تيَّارات إلحاديَّة وافدة ومبادئ عصريَّة زائفة، لم يجنِ أهلها من ورائها إلا الذلَّ والصَّغار، والمهانة والتَّبار، والشَّقاء والبَوَار، فأهواءٌ في الاعتقاد، ومذاهبٌ في السياسة، ومشاربٌ في الاجتماع والاقتصاد، كانت نتيجتها التخلُّف المهين والتمزُّق المشين.

وفي خضمِّ هذا الواقع المُزرِي يحقُّ لنا أن نتساءل بحرقةٍ وأسى: أين دروس الهجرة في التَّوحيد والوَحْدة؟! أين أخوَّة المهاجرين والأنصار مِن شعارات حقوق الإنسان المعاصِرة

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).



ومدنيَّته الزَّائفة؟! فقولوا لي بربِّكم: أيُّ نظامٍ راعَى حقوق الإنسان وكرَّمه أحسن تكريمٍ وكفل حقوقه كهذا الدِّين القويم؟!

إن الهجرة النبوية تحوي دروسًا وعبرًا في التَّضحية والبَذْل والفداء، ومراعاة كرامة الإنسان والحفاظ على حريَّته وحقوقه، يجرُّ يا رعاكم الله إلى تذكُّر أحوال إخواننا في العقيدة في بقاعٍ شتَّى من العالم؛ حيث حلَّت بهم مصائب وبلايا، ونكبات ورزايا.

سائلوا بلاد الإسلام، وانظروا ما يعانيه إخوانكم هنا وهناك، سائلوا أرضَ النبوَّات ومهد الحضارات ومنطلَق الرسالات وبلاد المعجزات؛ فلسطين المجاهِدة: ماذا تعاني من صلفٍ يهوديٍّ سافر، علَّ دروس الهجرة النبويَّة تحرِّك نخوةً وتَشْحَذُ همَّةً وتستَنْهِض عزمًا، وما ذلك على الله بعزيز.

إخوة الإيمان: وفي مجال تربية الشَّباب والمرأة، وميدان البيت والأسرة - يبرز الأثر العظيم في حدث الهجرة المصطفَويَّة، على صاحبها أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم؛ ففي موقف عبدالله بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند الهجرة في خدمة ونُصْرَة صاحبها عليه الصَّلاة والسَّلام - بأبي هو وأمي - ما يجلِّي أثرَ الشَّباب في الدَّعوة، ودورهم في الأمَّة ونُصْرة الدِّين والملَّة. أين هذا ممَّا ينادي به بعض المحسوبين على فكر الأمَّة وثقافتها من تخدير الشَّباب بالشَّهوات، وفتنتهم بالأهواء والملهيات، وجَعْلِهم فريسةً لمهازل القنوات وشبكات المعلومات، في الوقت الذي يعدُّون فيه للاضطلاع بأغلى المهمَّات؛ في الحفاظ على الدِّين والقِيَم، والثَّبات على الأخلاق والمبادئ، أمام المتغيِّرات المتسارِعة؟!

أيُّها الإخوة والأخوات: وفي موقف أسماء بنت أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورضيَ الله عن آل أبي بكر وأرضاهم - ما يجلِّي دورَ الفتاة والمرأة المسلمة في خدمتها لدينها ودعوتها؛ فأين هذا من دعاة المدنيَّة الذين أجلبوا على المرأة بخيلهم ورَجْلِهم، زاعمين أنَّ تمسُّك المرأة بثوابتها وقِيَمها، واعتزازها بحجابها وعفافِها - تقييدٌ لحريَّتها وفقدٌ لشخصيَّتها، وبئس ما زعموا؟! فأخرجوها من البيت تبحث عن سعادةٍ موهومة وتقدميَّة مزعومة، لتظنَّها في الأسواق والشوارع والملاهي والمصانع، فرجعت مسلوبةَ الشَّرف، مدنَّسةَ العِرْض، مُغتصَبةَ الحقوق، عديمة الحياء، مؤودة الغَيْرَة، وتلك صورةٌ من صور إنسانيَّات العصر المزعومة وحريَّته



المأفونة ومدنيَّته المدَّعاة، وإن التفاتةً يسيرة إلى إحصائيات المجتمعات التي تسمى متحضرة متمدنة؛ يكشف ما تعانيه من مآسٍ لا تكاد تصدقها العقول ولا تتخيلها الأذهان.

أيُّها الأحبَّة في الله: وإشارةٌ أخرى إلى أمرٍ يتعلَّق بحَدَث الهجرة النبويَّة، في قضيةٍ تعبِّر بجلاءٍ عن اعتزاز هذه الأمَّة بشخصيتها الإسلاميَّة، وتُثبِت للعالم بأسره استقلال هذه الأمَّة بمنهجها المتميِّز المستَقى من عقيدتها وتاريخها وحضارتها، إنها قضيَّةٌ إسلاميَّةٌ، وسنَّةٌ عُمَرِيَّة أجمع عليها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنَّها التَّوْقيت والتَّأريخ بالهجرة النبويَّة المبارَكة، وكم لهذه القضيَّة من مغزًى عظيم يَجْدُر بأمَّة الإسلام اليوم تذكُّره والتقيُّد به، كيف وقد فُتِنَ بعض أبنائها بتقليد غير المسلمين والتشبُّه بهم حتى في تاريخهم وأعيادهم، أين عزَّة الإسلام؟! وأين هي شخصية المسلمين؟! هل ذابت في خضمِّ مُغرِيات الحياة؟!

نحن أمَّة ذات أمجاد وأصالة، وتاريخ وحضارة، ومنهج متميِّز مُنْبَثِق من كتاب ربِّنا وسنَّة نبيِّنا ﷺ فلسنا بحاجةٍ إلى تقليد غيرنا؛ بل إن غيرُنا - في الحقيقة - بحاجة إلى أن يستفيد من أصالتنا وحضارتنا، لكنَّه التَّقليد والتَّبعيَّة، والمجاراة والانهزاميَّة، والتَّشبُّه الأعمى من بعض المسلمين - هداهم الله - وقد حذر رسول الله ﷺ أمَّته من ذلك بقوله فيما أخرجه الإمام أحمد وأهل السُّنن: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1].

هذا هو الاتباع والتقليد حتى لو كلف دخول جحر الضب وراء سنن الأمم الأخرى، مع أنه ليس في جحر الضب ما يغري، لكنها التبعية العمياء، والاضمحلال الثقافي، والضعف الإيماني، والانهزام النفسي، الذي يقود إلى أن يمشي البعض مكبًا على وجهه، والله المستعان.

أيُّها الإخوة المسلمون: ومن هذه الإشارات: الإشارة إلى حدث عظيم في شهر الله المحرَّم، إذ فيه درسٌ بليغٌ على نصرة الله لأوليائه وانتقامه من أعدائه مهما تطاولوا، إنَّه حدث قديم، لكنَّه بمغزاه متجدِّدٌ عبر الأمصار والأعصار، إنه يوم انتصار نبيِّ الله وكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهلاك فرعون الطاغية، وكم في هذه القصة من الدروس والعِبَر والعظات والفِكَر للدعاة إلى

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٠)، وأبو داود (٤٠٣١)، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٧١)، وصححه الألباني في حجاب المرأة المسلمة (ص١٠٤).



الله في كلِّ زمانٍ ومكان، فمهما بلغ الكَيْد والأذى والظُّلْم والتسلُّط؛ فإن نصر الله قريبٌ، ويا لها من عبرةٍ لكلِّ عدوٍ لله ولرسوله ممَّن مشى على درب فرعون، أنَّ الله منتقمٌ من الطُّغاة الظَّالمين، طال الزمن أو قَصُرَ؛ فيوم الهجرة ويوم عاشوراء يومان من أيام النَّصر الخالدة. ألا فلتقرَّ أعين أهل الحقِّ ودُعاته؛ فالعاقبة للمتَّقين، وليتنبَّه لذلك قبل فوات الأوان أهلُ الباطل ودُعاته، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٦]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

إنَّ في الحوادث لعِبَرا، وإنَّ في التاريخ لحَبرا، وإنَّ في الآيات لنُذُرا، وإنَّ في القَصَص والأخبار لَمُدَّكَرًا ومُزْدَجَرا، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

اللهمَّ اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أعمارنا أواخِرها، وخير أيَّامنا يوم نلقاكَ.

اللهم اجعل حاضرنا خيرًا من ماضينا، ومستقبلنا خيرًا من حاضرنا، إنَّك خير مسؤولٍ وأكرم مأمول.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين والمسلمات، من كلِّ الذنوب والخطايا والسيئات، فاستغفروه وتوبوا إليه إنَّه كان توابًا.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الملك القدُّوس السلام، مُجري الليالي والأيام، ومُجدِّد الشهور والأعـوام، أحمده تعالى وأشكره على ما هدانا للإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جعل شـهر المحرَّم فاتحة شهور العام، وأشهد أنَّ نبينا محمدًا عبد الله ورسوله سـيد الأنـام، وبـدر التَّمام، ومِسْك الختام، صلَّى الله وسلَّم وبارك عليه وعلى آله البَرَرَة الكِرام، وصَحْبِه الأئمَّة الأعـلام، والتَّابعين ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ ما تعاقب النُّور والظَّلام.

أمَّا بعد:

فاتَّقوا الله - عباد الله - وتمسَّكوا بدينكم، فهو عصمةُ أمركم، وتاج عزِّكم، ورمزُ قوتِّكم، وسبب نصركم، واعلموا أنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهَدْي هَدْيُ رسـول الله ﷺ وشرَّ الأمور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ.

أيُّها الناس: إشارةٌ رابعةٌ إلى فاتحة شهور العام؛ شهر الله المحرَّم، إنه من أعظم شهور الله - جلَّ وعلا - عظيم المكانة، قديم الحُرْمَة، رأس العام، من أشهر الله الحرام، فيه نصَرَ الله موسى وقومه على فرعون وملئه، ومن فضائله: أنَّ الأعمال الصَّالحة فيـه لهـا فضـلٌ عظـيمٌ، لا سـيَّما الصِّيام؛ فقد روى الإمام مسلم في (صحيحه) من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسـول الله ﷺ: «أفضـل الصِّـيام بعـد رمضـان شـهر الله المحـرَّم، وأفضـل الصَّـلاة بعـد الفريضـة صلاة اللَّيل»[1].

وأفضل أيام هذا الشَّهر - يا عباد الله - يوم عاشوراء، وفي (الصحيحَيْن) عن ابن عبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قدم النبيُّ ﷺ المدينة، فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء؛ فقـال لهـم: «مـا هـذا اليوم الذي تصومونه؟». قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ، أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعـون وقومه، فصامه موسى شكرًا؛ فنحن نصومه. فقال: «نحـنُ أحـقُّ بموسـى مـنكم»؛ فصـامه وأمر بصيامه[2].

---

(١) رواه مسلم (١١٦٣).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

وفي (صحيح مسلم) عن أبي قَتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن صيام يوم عاشوراء؛ فقال: «أحتسبُ على الله أن يكفِّر السَّنة التي قبله»[1]. الله أكبر! يا له من فضلٍ عظيم لا يفوِّته إلا محروم.

وقد عزم على أن يصوم يومًا قبله مخالفةً لأهل الكتاب؛ فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصومنَّ التَّاسع»؛[2].

لذا فيستحبُّ للمسلمين أن يصوموا ذلك اليوم اقتداءً بأنبياء الله، وطلبًا لثواب الله، وأن يصوموا يومًا قبله أو يومًا بعده؛ مخالفةً لليهود، وعملًا بما استقرَّت عليه سنَّة المصطفى ﷺ فيا له من عملٍ قليلٍ وأجرٍ كبيرٍ وكثيرٍ من المُنعِم المتفضِّل سبحانه!

إنَّ ذلك - أيها الأحبَّة في الله - لَمِنْ شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه، واستفتاحُ هذا العام بعملٍ من أفضل الأعمال الصَّالحة التي يُرجَى فيها ثواب الله سبحانه وتعالى والكَيِّس الواعي والحصيف اللبيب يدركُ أنَّه كَسْبٌ عظيمٌ ينبغي أن يُتَوَّج به صحائف أعماله.

إن المؤمن الذي يدعو ربَّه قائلًا: اللهم اجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، والموتَ راحةً لي من كل شر، شديد الحرص على اغتنام فرصة العمر باستثمار الليالي والأيام في كل خيرٍ يُرضِي به ربَّه، ويعلو به قدرُه، وتطيبُ به حياتُه. ولذا فإنه يفرحُ بما منَّ الله عليه من نعمة الإمهال حتى بلَّغه العام الجديد ليستكثِر فيه من أسباب الزُّلفى إلى ربه، وليستدرِك ما فاته وما فرَطَ منه بالتوبة والإنابة، وهذا مصداقُ ما أخبر به النبي ﷺ أنه: «لا يزيدُ المؤمنَ عمره إلا خيرًا»[3].

فاتقوا الله - عباد الله -، واشكروا الله الذي بلَّغكم ما لم يُقدَّر لكثيرٍ من إخوانكم ممن طُوِيَت صحائفُهم، ووُسِّدوا الثَّرى فلم يستكمِلوا عامهم بعد أن كانوا فيه ملءَ الأسماع والأبصار.

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١١٣٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

هل الدنيا إلا دار ممر إلى دار مقر؟ وهل العمر إلا حبل كلما طال قصُر؟ فأين المعتـبرون؟ وأيـن التـائبون؟ وأيـن الـذين هـم لأنفسـهم محاسـبون؟ وعـلى إصـلاحها عـازمون؟ وعلى ربهم يتوكلون؟

أيها الناس: تفقدوا أعمالكم، واستدركوا أعماركم، واستغلوا أوقـاتكم، واعتـبروا بمـن مات من أقرانكم، وبما فات من أيامكم، فإن كل يوم خطوة إلى القـبر، وإن في تعاقـب الليـل والنهار لذكرى لأولي الألباب، وموعظة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورًا..

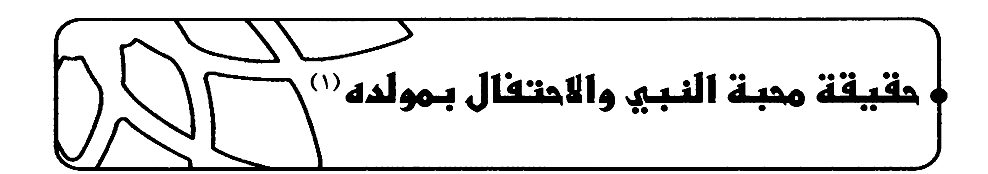
قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رُؤي بعض السلف في المنام فقال: ندِمنا على أمرٍ عظـيم: نعلمُ ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحةٌ أو تسبيحتان أو ركعةٌ أو ركعتـان في صحيفة أحدنا أحبُّ إليه من الدنيا وما فيهـا). وقـال بعـض السـلف: (كـل يـومٍ يعـيش فيه المؤمن غنيمة).

فاغتنموا – يا عباد الله –، اغتنموا فرصة العام الجديد في الاستزادة من كل خيرٍ عاجل أو آجِل تكونوا من المُفلِحين الفائزين المشمِّرين، نسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم منهم بمنِّه وكرمه.

هذا، واعلموا – رحمكم الله – أنَّ من أفضل الطَّاعات وأشرف القُربات كثـرة صـلاتكم وسلامكم على خير البريَّات، صاحب المعجزات الباهرات، والآيات البيِّنـات؛ فقـد أمـركم بذلك ربُّكم جلَّ وعلا فقال تعـالى قـولًا كـريمًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على نبيِّنا وحبيبنا وقدوتنا محمَّد بن عبـدالله، وارضَ اللَّهـم عـن خلفائـه الرَّاشـدين ذوي المقـام العـليّ، أبي بكـر وعمـر وعـثمان وعـليّ، وعـن سـائر الصَّحابة والتَّابعين...





حقيقة محبة النبي والاحتفال بمولده[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: اتقوا الله حق التقوى، وراقبوه في السر والنجوى، فبتقوى الله عَزَّوَجَلَّ تجتمع الكلمة، وتتم النعمة، وتتجلى الحكمة.

عباد الله: إن الله جَلَّجَلَالُهُ ذكَّر عبادَه المؤمنين منَّته عليهم وفضلَه عليهم بمبعثِ محمد، ليعرفوا قدرَ هذه النعمة، فيشكروا الله عليها، ويحمدوه عليها، ويلتزموا ما جاء به محمد علمًا وعملًا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]. أجل، إنها منة كبرى ونعمة عظمى لمن تدبَّر وتعقل.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالمؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله هم الذين يستشعرون هذه المنة، ويعرفون قدرَ هذه النعمة حقَّ المعرفة، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يعرفون حسبه، يعرفون نسبَه، يعرفون صدقَه، ما جُرِّب عليه كذب، وما عُرف بخيانة، ولا عُثر فيه على خلقٍ سيئ، بل هو محفوظ بحفظ الله من نشأته إلى وفاته، محفوظ بحفظ الله من كل سوء، ما عبد وثنًا، وما تعاطى مسكرًا، وما اقترف جريمةً، بل هو معروف عندهم بالصادق الأمين،

(١) عبدالعزيز آل الشيخ.

أدَّبه ربه فأحسن تأديبَه، وعلَّمه فأحسن تعليمَه، واختاره لهذا الأمر العظيم، لهذه الرسالة الكبرى، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، يتلو عليهم هذا القرآن، فيه خبر من قبلهم، وحكم ما بينهم، ونبأ ما بعدهم. يتلو عليهم هذا القرآن الذي هو سبب لإخراجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، يزكي أخلاقهم، يزكي نفوسهم، يزكي عقولهم بطهارتها من الشرك قليله وكثيرة، وطهارتها من رذائل الأخلاق وسفاسف الأعمال.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، علَّمهم القرآن، وعلمهم السنة، وإن كانوا من قبل مبعثه لفي ضلال مبين. أجل، كانوا قبل مبعث محمد في غاية من الضلال، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء. فلقد نظر الله حينئذ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمَهم إلا بقايا من أهل الكتاب. يقول جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخبرًا النجاشي لما سأله قال: «كنا عبادَ أوثان، نأكل الميتة، ونشرب الخمر، ونقطع الرحم، ونأتي الفواحش، حتى بعث الله فينا محمدًا، فأخرجنا الله به من الظلمات إلى النور»(١).

فهم قبل مبعثه في غاية من الضلال، قد اندرست أعلامُ الهدى، فليس الحق معروفًا، ولكن الله أنقذ هذه الأمة بمبعث محمد.

إن مبعثَه رحمةٌ للعالمين، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وكتابه نذير للعالمين، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، بعثه الله برسالةٍ للخلق كلهم، عربِهم وعجمهم، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية (٢/ ١٧٧-١٨٠)، ومن طريقه أحمد (١/ ٢٠٢، ٥/ ٢٩١) وصححه ابن خزيمة (٢٢٦٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٧): (رجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع).

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨]، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨].

فنسخ الله به كلَّ الشرائع، نسخ الله بشريعته كلَّ الشرائع، وألزم الخلقَ طاعتَه، وحكم على من خرج عن شريعته بالخسارة في الدنيا والآخرة: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، ويقول: «لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[١]، لأن الله جل وعلا ختم برسالته كلَّ الرسالات، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

أيها المسلمون: حقُّ نبينا علينا عظيم، فمن أعظم حقه أن نؤمن به، ونصدق رسالته، ونعتقد أنه عبد الله ورسوله، أرسله الله إلى الخلق كلهم. ومن حقه علينا أن نسمع ونطيع له، فإن طاعته طاعة لله، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وطاعته سبب للهدى، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور:٥٤]. ومن حقه علينا أن نحكِّم سنته، ونتحاكم إليها، ونرضى بها، وتطمئن بها نفوسنا، وتنشرح لذلك صدورنا، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، وإذا أمر بأمر أو حكم بحكم نقبله وليس لنا خيرة في ذلك، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]. إن طاعته سبب لدخول الجنة، يقول: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[٢].

أيها الناس: وإن محبة رسول الله عنوانُ الإيمان، محبةُ رسول الله المحبة الصادقة، بأن تحبَّه محبةً فوق محبة نفسك التي بين جنبيك، قال عمر: يا رسول الله، والله إنك لأحب الناس إليَّ إلا نفسي، قال: «لا والله، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، قال: لأنت الآن أحب إلي من

(١) رواه مسلم (١٥٣) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٠).

نفسي، قال: «الآن يا عمر»[1]. وأخبر أن محبته محبة فوق محبة الولد والوالد فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده»[2]. وأخبر أن العبد لا ينال كمال الإيمان حتى يحب هذا النبي محبة فوق محبة الأهل والناس أجمعين، فيقول: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله والناس أجمعين»[3].

أيها المسلم: إن ثمرة تلك المحبة أولًا: طاعة الله ومحبة الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فلا ينال عبدٌ محبة الله حتى يحبَّ هذا النبي الكريم محبةً صادقة من عميق قلبه. ومِن ثمرات محبته أن المحبَّ له يُحشَر معه يوم القيامة، ويلتحق به يوم القيامة، سأل رجلٌ النبي فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما أعددتَ لها؟» قال: حب الله ورسوله، قال: «المرء مع من أحب»، قال أنس: فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحَهم بقوله: «المرء مع من أحب»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإني لأحب رسول الله وأبا بكر وعمر، وأرجو الله أن يلحقني بهم وإن قلَّ عملي[4].

أيها الأحبة: إن لمحبة رسول الله علاماتٍ تدلّ على كمال محبة المسلم له، فليست المحبة له مجردَ ادعاء، ولكنها حقائقُ واقعة باتباع سنته وتطبيقها، والسؤال عنها ومحبتها، ومحاولة تطبيق المسلم سنةَ رسول الله في كل عباداته وأحواله، فما بلغه من سنته من شيء إلا أخذ بها وعمل بها وطبقها وفرح بذلك. إن محبتَه لا تكون بغلوِّ الغالين، ولا تكون بجفاء الجافين، ولا تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين. إن محبتَه تكمن في اتباعُ ما جاء به وتحكيمُ شريعته، وأعظم ذلك عبادةُ الله وحده لا شريك له، وصرف كل أنواع العبادة لرب العالمين، وأن لا يُصرف منها شيء لغير الله، وقد أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢]، وقال له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) رواه البخاري (١٤) بنحوه.

(٣) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) بنحوه.

(٤) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) بنحوه.

﴿وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وحذرنا أن نغلو فيه فقال: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[١]، وقال لنا: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[٢]، ولعن في آخر حياته اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وقال: «ولا تتخذوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني أين كنتم»[٣].

هكذا أرشدنا، هو مبعوثٌ لإقامة شرع الله، للدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، والعبادةُ لا حقَّ له ولا لغيره فيها، بل هي حقّ خالص لربنا جل وعلا، لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندا؟! بل ما شاء الله وحده»[٤].

أيها المسلم: إن علامةَ محبة النبي تكون كما سبق باتباع سنته، والعمل بشريعته، والاقتداء به [في] القليل والكثير، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. فالمحب له هو المعظمُ لسنته، العامل بها إذا بلغته، سواء في العبادات أو في المعاملات أو في كل الأحوال، يقتفي سنته، ويبحث عنها، ويسأل عنها، ويهتمُّ بها، ويقيم لها وزنًا، هكذا المؤمن المحب.

أيها المسلم: إن أصحابَه الكرام قد أظهروا من كمال محبتهم له وحرصهم على سنته ما لا يخفى، أظهروا من محبتهم له وشفقتهم عليه وحرصهم على الاقتداء به ما جعلهم خيرَ الخلق وأفضلَ الخلق على الإطلاق بعد الأنبياء عليهم السلام، فاسمع أخي إلى أنواع من محبتهم له تدلُّ على قوة الإيمان به، ومحبتهم له، رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٥) وغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود (٢٠٤٢)، وحسنه الألباني في تحذير الساجد (ص ٩٦، ٩٧).

(٤) رواه أحمد (١/ ٢١٤) بنحوه، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤-٦-١٣٠) واللفظ له، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٩، ١٠٩٣).

يومَ أراد المهاجرة من مكة إلى المدينة أتى الصديق في الظهيرة، فلما قيل للصديق: هذا رسول الله، قال: بأبي وأمي، ما أتى به إلا لأمرٍ جَلَل، فلما دخل عليه قال: «أُذِن لي بالهجرة»، فقال الصديق: الصحبةَ يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فبكى الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرحًا، تقول عائشة: وما كنت أظن الفرح يوجب البكاء بعد الذي رأيت من أبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه[1].

ومن ذلكم أن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما فطن لخُطبة خطبها النبي أنها توديعٌ لهم وإخبارٌ بقرب أجله بكى الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فخطب في آخر حياته قائلًا: «إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»، فبكى الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالوا: إن المخيَّر هو رسول الله، وإن الصديق كان أعلمنا بذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه[2].

ولما خطب بعد موت النبي بسنة، وأراد أن يقول: إن رسول الله خطبنا في هذا اليوم من العام الأول بكى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغلبه البكاء مرارًا، ثم قال: سمعت رسول الله يقول: «ما أوتي عبد بعد الإسلام خيرًا من العافية، فاسألوا الله العافية»[3].

ولما حضرت أبا بكر الوفاة، قال لهم: «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم الاثنين، قال: «إن متُّ مساءً فلا تنتظروا بي إلى الصباح، فإن أفضلَ يوم أو ليلة عندي أن ألحق بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4]»، فرضي الله عنه وأرضاه.

وهذا خليفته عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينما طُعن وعلم أنه قرب أجله قال لابنه: «يا بني، إن أهمَّ أمر علي أن أدفن بجوار محمد وصاحبه أبي بكر، فاذهب إلى عائشة فقل لها: يقرئك عمر السلام، ويستأذنك في أن يدفَن بجوار محمد وصاحبه، فذهب عبد الله إليها، وإذا هي تبكي

---

(١) رواه البخاري (٢١٣٨) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) بنحوه.

(٣) رواه أحمد (١/ ٣، ٥، ٧، ٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٤)، وابن ماجه (٣٨٤٩) وغيرهم، وصححه والألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٧).

(٤) رواه أحمد (١/ ٨).

على عمر حزنًا عليه، فقال: يقرئك عمر السلام، ويقول: أستأذنُ منك أن أدفَن بجوار محمد وصاحبه، قالت: لقد كنتُ أعدُّه لنفسي، وإني لأوثره على نفسي، فرجع عبد الله إلى عمر، فقيل: هذا عبد الله، فقال: أسندوني، ما وراءك؟ قال: ما يسرُّك يا أمير المؤمنين، لقد أذنَتْ أن تُدفَن بجوار محمد وصاحبه، قال: الحمد لله، إنه لأمرٌ كان يهمّني، ثم قال: يا عبد الله، إذا صليتُم عليَّ، فمرُّوا بجنازتي إلى عائشة، فلعلها أن تكون أذنت حياءً مني، فإني أذنتْ لي وإلا فضعوني مع المسلمين، فلما صلُّوا عليه مرّوا به فقالت: ما كنت لآذن له حيًا وأمنعه ميتًا»[1]، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم أجمعين.

وهؤلاء أنصارُ الإسلام الأوس والخزرج، كانت محبتهم لرسول الله محبةً صادقة حقًا، فلما قسم النبي غنائم حنين، ولم يعطهم ولا المهاجرين شيئًا، وخصّ بها المؤلفةَ قلوبهم، وجد بعضهم في نفسه شيئًا، فدعا الأنصار وقال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟! وعالة فأغناكم الله بي؟! ومتفرقين فألفكم الله بي؟!»، فكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: «يا معشر الأنصار، أترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون بالنبي إلى رحالكم؟!» قالوا: نعم، قال: «المحيا محياكم، والممات مماتكم، الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم اغفر للأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

ربيعة الأسلمي قدَّم للنبي وضوءَه فقال: «يا ربيعة، سلني»، فقال: أسألك مرافقتَك في الجنة، قال: «أوَغير ذلك؟!» قال: هو ذاك، قال: «يا ربيعة، أعني على نفسك بكثرة السجود»[3].

أيها المسلمون: محبةُ المسلم لرسول الله لا تكون بغلوٍّ فيه، ولا بإطرائه، ولا برفعه عن منزلته، ولا بإحياء مولدٍ أو أمثال ذلك مما ابتدعه المبتدعون وأحدثه الجاهلون، وإنما تكون

(١) رواه البخاري (١٣٩٢) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) بنحوه.

(٣) رواه مسلم (٤٨٩).

باتباع سنته والعمل بشريعته والطمأنينة إليها. إن صلة المسلم بنبيه صلةٌ دائمة، وصلة مستمرة، وصلة لا تنقطع، في كل أحواله، في كل حركاته وسكناته، فله صلة بنبيه، إن صلى فإن صلته برسول الله الاقتداءُ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1]، إن حجّ فصلته بنبيه: «خذوا عني مناسككم»[2]، وهكذا في صيامه وزكاته وفي أكله وشربه ونومه وبكائه وضحكه وغضبه ورضاه، في كل أحواله هو يقتدى بمحمد ﷺ، ويتحرى الاقتداءَ به والتأسيَ به في القليل والكثير.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٦٣١).

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى حق التقوى.

عباد الله: الأصلُ في عباداتنا أن تكون خالصةً لله، وأن تكون على وفق ما دل الكتاب والسنة عليه، فكل عبادة نتعبَّدها لا أصل لها في سنة النبي فإنها عبادة باطلة؛ لكونها غيرَ موافقة لطريقته. وإن أصحابه الكرام أقرب الناس إليه، عاشوا معه وعرفوا هديَه، وعرفوا عبادتَه، فكل عبادة ما تعبَّدوها فلنعلم أنها عبادة على غير هدى، إذ لو كانت عبادة حقًا لكانوا أولى الناس بها، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهم أسوتنا وقدوتُنا، ما نقلوا لنا عن محمد فهو الحق المقبول، وما لم ينقلوه في العبادة فالأصل أن كل عبادة لم يتعبَّدها أصحاب رسول الله نعلم أنها مبتدعة لكونها لا دليل عليها، وإنما الحق ما وافق هديه، وكل بدعة تُنشأ وتقام فلا بد أن يقابلها تعطيل لسنة من السنن.

إن أصحاب النبي ﷺ، يعلمون ليلة مولده، ويعلمون ليلةَ مهاجره، ويعلمون أيامَ انتصاره، ويعلمون ليلةَ موته، ويعلمون كلَّ هذه الأمور، فهل احتفلوا بشيء من ذلك؟ هل احتفلوا بالانتصار في غزوة بدر؟ هل احتفلوا بيوم فتح مكة؟ هل احتفلوا بغير ذلك من المواقف والمشاهد؟

لم ينقل عنهم شيء من هذا، فهذا رسول الله أحب الناس إليهم، وهم المحبون له على الحقيقة والكمال، ومع هذا ما علمنا شيئًا أحدثوه، ولو كان خيرًا لفعلوه، ولكنهم متبعون ومقتدون ومتأسون به، فليكن المسلمون على ذلك. حيث إن هذه حقيقة المحبة، حقيقة الإيمان والاتباع، السير على ما سار عليه، وعلى ما كان عليه أصحابه والتابعون وتابعوهم

السائرون على المنهج القويم والطريق المستقيم، وفي الحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1]، وفيه: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

إن المحيين لليلة المولد قد يكون قصدُ بعضهم خيرًا لكنه لم يوفَّق للصواب، ثم إنها تُعمَر بأذكار وقصائد ودعوات باطلة، فيها غلو ودعاء للنبي، واستغاثة به، ولا تسلم من الشركيات، كقول صاحب البردة:

فإن مِن جودك الدنيا وضرّتها ... ومن علومك علم اللوح والقلمِ

والبردة من أكثر ما يُنشد من القصائد، وفيها من هذا الغلو في مقام النبوة الشيء الكثير.

ولا شك أنه ﷺ يكره هذا الغلو والإطراء ويأباه ولا يرضاه، وأحب الناس إليه من أمته من كان متبعًا لسنته سائرًا عليها بعيدًا عن هذه البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، قال بعض السلف: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم)[3]، فالحق ما كان عليه أصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان، وهم المطبقون لسنته العاملون بها، جعلنا الله وإياكم من أتباعهم، إنه على كل شيء قدير.

فاتقوا الله عباد الله: وأحيوا سنة نبيكم، وانشروا آدابه وشمائله، وأحاديثه وسننه، وتفقهوا في دينكم، وبلغوا شرعة ربكم، وقوموا بما أوجب الله عليكم، ففي ذلكم الفلاح والنجاح والنجاة.

ثم اعلموا رحمكم الله أن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين، فإن يد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) هذا من كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه الدارمي عنه في مقدمة سننه (٢٠٥) وغيره، قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨١): (رجاله رجال الصحيح).

وصلوا رحمكم الله على محمد بن عبد الله، كما أمركم بذلك ربكم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].



شهر رجب
وتخصيصه بشيء من العبادات والاحتفالات[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله منشئ الأيام والشهور، ومفني الأعوام والدهور، ومكور الليل على النهار، ومقلب الأجواء من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ويديل الأيام بين عباده، عبرة لذوي العقول والأبصار. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولا ند ولا نظير ولا ظهير.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، الشافع المشفَّع، الذي عَمر سنينه وشهوره وأيامه ولياليه بطاعة ربه ومولاه، فغُفرت له جميع الذنوب والزلات، ونال المنازل العالية وجزيل المكرمات، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آل بيته وأصحابه الدائبين في طاعته، ما تكررت الأعوام والساعات، وتعاقب الليل مع النهار.

أما بعد:

أيها الناس: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

ها قد أوشك نصف عامنا على أن يذهب عنا ويرتحل، وانقضت عنا أيامه ولياليه إلى غير عودة، ونحن إلا من رحم الله في غفلة شديدة عن الآخرة، وتنافس كبير على العاجلة، وضعف وتقصير وتكاسل عن أعمال البِّر الطيبة، وتسويف وتباطؤ عن التوبة والإنابة، وما أكثر ما سمعنا: إن فلانًا قد قضى نحبه ومات، وترك ماله وأهله وخلانه، وأصبح في قبره رهين أعماله، وفيها الصالح أو السيئ من أقواله وأفعاله واعتقاداته.

---

(١) عبدالقادر بن محمد الجنيد.

ألا فهل من متعظ؟ ألا هل من معتبر؟ ألا هل من متذكر؟ ألا هل من تائب ومنزجر عن ذنوبه وآثامه، عن بدعه وضلالاته، عن مخالفته لما كان عليه نبيه ﷺ وأصحابه؟ قبل أن تأتي عليه ساعة سكرته، وتحل به لحظة منيته، ويعاني حشرجة صدره، ويكابد منازعة روحه، قبل أن ينطق فيقول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦].

أيها الناس: ما للعيون مع وعيد الله ووعده جامدة غير باكية؟ وما للقلوب عن الآخرة غافلة لاهية؟ وما للنفوس عن الخيرات كسلة متقاعسة؟ وما للألسن والأبصار والجوارح إلى مسالك الغفلة والفسق والبدع والعصيان مسارعة؟.

أما سمعت هذه النفوس قول خالقها ومليكها ومدبر أمورها معاتبًا لها: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وثبت عن نافع مولى ابن عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «كان عبد الله بن عمر إذا قرأ هذه» الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦] «بكى حتى يبل لحيته البكاء، ويقول: بلى يا رب».

أما سمعت قوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه:٧٤-٧٦].

أيها الناس: إنكم داخلون بعد أيام قليلة جدًا في أحد الأشهر الأربعة الحُرم، ألا وهو شهر رجب، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في إثبات حرمته وحرمتها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

أخرج البخاري ومسلم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ في (صحيحيهما) عن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا،

مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»(١).

ألا فاحذروا أشد الحذر سلمكم الله وسددكم أن تظلموا أنفسكم في هذا الشهر، وفي بقية الأشهر الحُرم بالسيئات والخطايا، والذنوب والمعاصي، والبدع والضلالات،، والفسق والفجور، والظلم والعدوان، والقتل والاقتتال، والغش والكذب، والغيبة والبهتان، والحسد والغِل، فإن الله جل شأنه قد زجركم ونهاكم عن ذلك فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

فإن السيئات من البدع والمعاصي تعظم وتشتد، وتكبر وتتغلظ في كل زمان أو مكان فاضل.

وقد ثبت عن التابعي قتادة بن دعامة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: (فَإِنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَعْظَمُ خَطِيئَةً وَوِزْرًا مِنَ الظُّلْمِ فِيمَا سِوَاهَا، وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ عَلَى كُلِّ حالٍ عَظِيمًا، وَلَكِنَّ اللهَ يُعَظِّمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ، ... وَإِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنَ الشُّهُورِ رَمَضَانَ وَالْأَشْهُرَ الْحُرُمَ، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَيَّامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَاصْطَفَى مِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَعَظِّمُوا مَا عَظَّمَ اللهُ، فَإِنَّمَا تُعَظَّمُ الْأُمُورُ بِمَا عَظَّمَهَا اللهُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ وَأَهْلِ الْعَقْلِ).

أيها الناس: هذه وقفات أربع يجدر بالمسلم أن يتنبَّه لها، ويفقه حكمها، ويتبصر بواقعها، لتسلم له عبادته من النقص والخلل، ونفسه من الإثم والوزر، وتقل في بلاده البدع والآثام.

الوقفة الأولى: حكم تخصيص شهر رجب أو أول يوم منه أو أول جمعة أو خميس منه بالصيام.

فقد جرت عادة بعض المسلمين رزقهم الله لزوم السنة النبوية على تخصيص شهر رجب أو أول يوم منه أو أول خميس أو أول جمعة فيه بالصيام.

وهذا التخصيص بالصيام ليس عليه أثارة من علم تدعمه، فإنه لم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم فعلوه، ولا دعوا الناس إليه، ولا رغَّبوهم في العمل به.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥٠) ومسلم (١٦٧٩).

بل لا زال العلماء ينكرون ما يُروى في ذلك من أحاديث وآثار ضعيفة أو مكذوبة، ويبينون للناس بطلانها وعدم صحتها، على اختلاف بلدانهم ومذاهبهم وأزمانهم.

فقال الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لم يرد في فضل شهر رجب ولا في صيامه ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه، حديث صحيح).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه).

بل إنه قد صح عن خَرْشة بن الحُر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «رأيت عمر يضرب أكُف الناس في رجب حتى يضعونها في الجفان، ويقول: كلوا فإنما هو شهر كانت تعظمه الجاهلية»[1].

وقال شيخ المالكية في وقته أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ عقب قول عمر هذا وغيره: (دلت هذه الآثار على أن الذي في أيدي الناس من تعظيمه يعني: شهر رجب إنما هي غبرات من بقايا عقود الجاهلية).

وأما من كانت له عادة بصيام يوم وإفطار يوم من كل الأشهر، أو صيام الأيام البيض أو الاثنين والخميس من كل شهر، فهذا لا حرج عليه في صيامه ذلك، لأنه لم يقصد تخصيص شهر رجب ولا تعظيمه على باقي الشهور بالصيام فيه.

الوقفة الثانية: حكم تخصيص شهر رجب ببعض الصلوات.

جرت عادة بعض الناس أرشدهم الله إلى اتباع السنة على تخصيص شهر رجب بصلاة تسمى (صلاة الرغائب)، وتكون في ليلة أول جمعة منه، بين المغرب والعشاء، وأول ما ظهرت هذه الصلاة في القرن الخامس الهجري. وهذه الصلاة لا يشرع للمسلم أن يفعلها أو يدعو الناس إلى فعلها، لأن الصلاة مرجعها إلى نصوص القرآن والسنة، ولم ترد آية في القرآن تدل على فعلها، ولا صح عن رسول الله ﷺ أنه فعلها أو رغَّب الناس فيها، بل إن الناس لم يسمعوا بها إلا بعد وفاته ﷺ ووفاة أصحابه بمئات السنين.

---

(١) صححه الألباني في إرواء الغليل (٩٥٧).

وقد قال فقيه الشافعية علاء الدين بن العطار الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والأحاديث المروية في فضلها، وفي الصلاة فيها كلها موضوعة باتفاق أهل النقل والعدالة).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به، والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من شهر رجب كذب وباطل لا تصح، وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء).

بارك الله لي ولكم فيما سمعتم، وجعلنا من التائبين المستغفرين، إنه جواد كريم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله العظيم الجليل، القوي المتين، خالق الخلق أجمعين، وصلواته وسلامه على نبيا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، وعلى آله وأصحابه وكافة أتباعه وأتباعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: فلا يزال الحديث معكم متواصلًا عن شهر رجب، وبعض ما يتعلق به، ويقع فيه من أمور.

الوقفة الثالثة: عن حادثة الإسراء والمعراج وهل وقعت في شهر رجب أم لا.

هذه الحادثة العظيمة، والآية الكبيرة، والمعجزة الظاهرة الباهرة، قد جاء إثباتها في القرآن العظيم، وتكاثرت واستفاضت بها نصوص السنة النبوية، إلا أنه مع ذلك لم يصح في تعيين وقت وقوعها حديث واحد ولا أثر، لا عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولا عن التابعين.

وقد اختلف المؤرخون وأهل السير وغيرهم في تحديد زمن وقوعها اختلافا كبيرًا، فمنهم من قال:(إنها كانت في شهر ربيع الأول، ومنهم من قال: في شهر ربيع الآخر، ومنهم من قال: في شهر رجب، ومنهم من قال: في شهر رمضان، ومنهم من قال: في شهر شوال، ومنهم من قال: في شهر ذي القعدة، ومنهم من يجعلها في أوائل الشهر، ومنهم من يجعلها في أوساطه، ومنهم من يجعلها أواخره).

ومن أضعف الأقوال قول من قال: (إنها كانت في شهر رجب في ليلة السابع والعشرين منه).

حتى قال الفقيه أبو الخطاب الأندلسي المالكي الشهير بابن دحية الكلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وذكَرَ بعض القُصَّاص أن الإسراء كان في رجب، وذلك عند أهل التعديل والتجريح عين الكذب).

وقال الفقيه الشافعي علاء الدين بن العطار الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد ذكر بعضهم أن المعراج والإسراء كان فيه، ولم يثبت ذلك).

وقال العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما ليلة الإسراء والمعراج فالصحيح من أقوال أهل العلم أنها لا تُعرف، وما ورد في تعيينها من الأحاديث فكلها أحاديث ضعيفة لا تصح عن النبي ﷺ، ومن قال: إنها ليلة سبع وعشرين من رجب فقد غلط، لأنه ليس معه حجة تؤيد ذلك، ولله الحكمة البالغة في إنساء الناس لها).

الوقفة الرابعة: عن حكم الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج والاجتماع لها.

حادثة الإسراء والمعراج معروفة مشهورة، ذكرها الله تعالى في كتابه، وذكرها النبي ﷺ في سنته، وأجمع على وقوعها أهل العلم، ومع هذا لم يرد الاحتفال بها والاجتماع لها لا عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من أهل القرون المفضلة، ولا عن أحد من الأئمة المتبوعين كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، بل هذا الاحتفال والاجتماع عند جميعهم متروك غير معمول به ولا معروف.

وهذا الترك من هؤلاء السابقين الأفاضل الأجلاء يكفي كل عالم بالحق، متثبت في دينه، محب لله ورسوله ومعظم وموقر، في أن لا يكون من المحتفلين والمجتمعين، ولا من الداعين إليه، إذ لو كان هذا الاحتفال من الخير والهدى، والرشد والصلاح، والطاعة والعبادة، وزيادة الدين وقوته، لما تركه أشد الناس تعظيمًا وانقيادًا ومحبة للنبي ﷺ، وأرغبهم في الخير والإكثار منه، ألا وهم أهل القرون الثلاثة الأولى، وعلى رأسهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين قال الله تعالى في شأن نبيه ﷺ وشأنهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

وقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[1].

ومن لم يسعه ما وسع النبي ﷺ وأصحابه وأئمة الإسلام الماضين من الترك لهذا الاحتفال والاجتماع وغيره من الاحتفالات والاجتماعات فليس على سبيل هدى، فإنه لا يسير إلا على غير طريق رشاد، ولا يمشي إلا في سبيل نقص من الخير لا ازدياد.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٢).

أيها الناس: اعلموا سددكم الله أن الأعمال التي يقوم بها الناس من صيام أو صلاة أو ذكر أو احتفالات أو غيرها تقربًا إلى الله تعالى، وطلبًا للأجر منه، ولم يأت دليل من القرآن والسنة في دعوة الناس إلى فعلها، ولا فعلها النبي ﷺ ولا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يطلق العلماء ويحكمون عليها بأنها بدعة، وهي الشيء المبتدع على غير مثال سابق، وقد قيل: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم، وكل خير فقد دلنا عليه خاتم الأنبياء، وسار عليه الصحابة والتابعون والعلماء.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: (من ابتدع في الإسلام بدعةً ورآها حسنة، فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣]، فما لم يكن يومئذٍ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا).

فإحداث البدع في الدين أو فعلها أو دعوة الناس إلى فعلها ونشرها في مجتمعاتهم ومساجدهم وبيوتهم ومجالسهم من المحرمات المنكرات، والسيئات المنهيات، فقد كان عن النبي ﷺ إذا خطب الناس يحذرهم من البدع، ويبين لهم بأنها ضلالة، فيقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(1)

فاللهم جنبنا الشرك والبدع والمعاصي، وارزقنا لزوم التوحيد والسنة والاستقامة، وأعنا على ما تحب وترضى، وخذ بنواصينا للبر والتقوى..



---

(1) رواه مسلم (٨٦٧).

شهر شعبان أحكام وفضائل [1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله ربكم، الذي شرع لكم مواسم الخير، وفتح لكم أبواب الخيرات، وأجزل عليها المثوبات، ويسر للعبد فعلها، وجعل له عليها أعوانا يشدون من أزره، فما أكرمه من إلهٍ عليٍّ قدير.

معاشر المسلمين: نحن في شهر شعبان، وهذا الشهر له أحكام وفيه فضائل، لا يقوم بها إلا من علمها ووفق لذلك، ولنعرض شيئا من ذلك.

شهر شعبان شهر يغفل الناس فيه عن العبادة، فهو بين رجب ورمضان، وأقرب موسم خير مر قبله هو صيام يوم عاشورا، فالناس في بعد عن مواسم الخير، ولهذا نبه النبي ﷺ عن فضل صيام شهر شعبان بقوله وفعله من حديث أسامة بن زيد يقول ﷺ عن شعبان: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»[2].

---

(١) خالد الشايع.

(٢) رواه أحمد والنسائي (٢٣١٧) وحسّنه الألباني.

ولهذا كان يصوم عليه الصلاة والسلام في شعبان كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت: «لم أره أكثر صيامًا في شهر قطُّ من صيامه في شعبان؛ كان يصوم شعبانَ كلَّه.. كان يصوم شعبان إلا قليلا»(١).

ويقول أنس: «وكان أحبُّ الصوم إليه في شعبان»(٢).

فصيام شعبان قبل رمضان؛ كالسنّة الراتبة القبلية والست من شوال كالسنّة الراتبة البعدية.

فينبغي للعبد أن يستغل هذا الشهر بالصيام، وأن لا يفوت الأيام الفاضلة فيه، كصيام الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر.

عباد الله: يتساءل البعض عن الصوم في النصف الثاني من شعبان هل يجوز أم لا؟

وقد ورد في ذلك حديث أبي هريرة: «إذا انتصف شعبان فلا تصوموا حتى يكون رمضان»(٣).

فيجاب عنه أنه قد أنكر هذا الحديث الإمام أحمد وابن مهدي وابن معين وابن المديني وأبي زرعة والأثرم وعدُّوه من الأحاديث المنكرة، بل قال أحمد: (لم يرو العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه أنكر من هذا الحديث)، وقال الأثرم: (الأحاديث كلها تخالف)، وقال ابن رجب: (أكثر العلماء على أنه لا يعمل بهذا الحديث).

وقد ذكر بعض أهل العلم كالحافظ ابن حجر وغيره، وكذا من المعاصرين ابن باز رحم الله الجميع: (أنه إنما يُنهى عن ذلك من يبتدئ الصوم في النصف الثاني من شعبان، كما لو كان من باب استقبال رمضان أو نحوه، أما من كان له صوم فليصمه، وكذا من أراد الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام في صيام أكثر شعبان).

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٩) ومسلم (١١٥٦).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٢٣).

(٣) صحيح الجامع (٣٩٧) وصححه ابن باز في مجموع فتاويه (٢٥/ ٢١٩).

فلا بأس على المسلم أن يصوم في النصف الثاني من شعبان ولو لم يكن قد صام في النصف الأول، غير أنه لا يجوز له أن يصوم آخر يومين من شعبان إلا لمن كانت له عادة؛ لما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لا تقدَّموا رمضان بيوم أو يومين إلا من كان يصوم صومًا فليصم»(١).

وللنهي عن تقدم صوم رمضان بصوم يوم أو يومين عدة حكم منها: الاحتياط لرمضان لئلا يزاد فيه ما ليس منه، ومنها الفصل بين صيام الفرض والنفل؛ لأن جنس الفصل بين النوافل والفرائض مشروع، ومنها التقوي على صيام رمضان فإن مواصلة الصوم قد تضعف عن صيام الفرض(٢).

ومن الأعمال الفاضلة في شعبان، قراءة القرآن، فإن في ذلك استعداد لرمضان وتهيئة للنفوس وتأهيل لها، لتدخل رمضان على نشاط وأُهبة، ثم هو للحفاظ محطة مراجعة ليتمكنوا في رمضان من كثرة التلاوة والصلاة بالليل من حفظهم عن ظهر قلب، وهذا أمر مجرب.

قال أنس: «كان المسلمون إذا دخل شعبان أكبوا على المصاحف فقرؤوها وأخرجوا زكاة أموالهم تقوية لضعيفهم على الصوم». وقال سلمة بن كهيل: (كان يقال شهر شعبان شهر القُرّاء).

وكان قيس بن عمر الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وأكب على قراءة القرآن.

وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: (هذا شهر القراء)(٣).

فالله الله بقراءة القرآن، فهو كلام الله وبه تحيى القلوب وتستنير العقول وتمتلئ الخزائن.

اللهم بلغنا رمضان وارزقنا فيه صالح الأعمال والأقوال.

---

(١) رواه البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢).

(٢) لطائف (٣٠٧-٣٠٩).

(٣) لطائف (٢٩٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: ها قد اقتربت أوقات الرحمة والمغفرة والعتق من النار، أفلا يجدر بنا أن نستعد لها.

إن شهر شعبان شهر تكثر فيه الغفلة، وذلك لبعده عن مواسم الخيرات، فيكون الذي يعبد الله في زمن الغفلة هذا أعظم أجرًا، ومما يشبه هذا أنه كان بعض السلف يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة ويقولون هي ساعة غفلة، أي: يغفل عنها الناس.

وفي إحياء الوقت المغفول عنه فوائد: منها أنه يكون أخفى وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل.

ومنها: أنه أشق على النفوس لقلة الموافقين، ومنها: أن المنفرد بالطاعة عن أهل المعاصي والغفلة قد يدفع البلاء عن الناس فكأنه يحميهم ويدفع عنهم.

وهكذا -أيها الإخوة- يكون العابد المجد في هذا الشهر قد حاز فضيلتين: حسن الاستعداد لرمضان، والذكر زمن الغفلة. فهل من مشمر لطاعة الله؟ هل من مبادر إلى الصالحات يا عباد الله؟

عباد الله: يعتقد البعض أن ليلة النصف من شعبان ويومها له مزية من بين الليالي والأيام، حتى إن بعضهم فضّلها على ليلة القدر، وأقول إن كل ما يروى في فضلها لا يصح عن النبي ﷺ، وأصح ما ورد فيها ما أخرجه ابن ماجة وابن أبي عاصم واللالكائي[1] من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان،

---

(١) وحسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٤٨).

فيغفر لجميع خلقه، إلا لمشرك أو مشاحن». واختلف في تصحيحه، وعلى القول بصحته فلا يدل على تخصيص الليل بالقيام والنهار بالصوم، بل فيه فضل التوحيد وسلامة الصدر. أما صوم يوم النصف من شعبان مفردًا باعتبار أن له فضيلة معينة، فلا أصل له، بل الحديث الوارد في ذلك موضوع.

وأما إحياء ليلة النصف من شعبان بالعبادة فلم يثبت في قيام ليلة النصف من شعبان شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه -رضوان الله عليهم-، ومن ثم اختلف أهل العلم أيضًا في مشروعية إحياء هذه الليلة بعبادة معينة كقيام ونحوه، والصحيح من أقوالهم أنه لا يشرع إحياء هذه الليلة بأي نوع من أنواع العبادة، سواء أكان إحياؤها جماعة أو فرادى، وهو قول أكثر علماء أهل الحجاز منهم: عطاء وابن أبي مليكة، ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك وغيرهم، ونسبه ابن حجر الهيتمي إلى الشافعية، وهذا اختيار ابن باز وابن عثيمين - رَحِمَهُمَاٱللَّهُ تعالى.

وجاء في كتاب [الحوادث والبدع لأبي بكر الطرطوشي (ص٢٦٣-٢٦٤)] وكتاب [الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (ص١٢٥)] أن ابن وضاح روى عن زيد بن أسلم قال: (ما أدركنا أحدا من مشيختنا ولا فقهائنا يلتفتون إلى النصف من شعبان، ولا يلتفتون إلى حديث مكحول، ولا يرون لها فضلا على ما سواها).

وختامًا: ينبغي لمن أراد إدراك فضيلة هذه الليلة أن يحقق التوحيد الخالص، وينأى بنفسه عن الشرك وذرائعه، ويصفح عما بينه وبين أخيه من عداوة وشحناء، حتى تشمله رحمة الله جل وعلا ومغفرته، وهذا غاية ما تفيده جملة الأحاديث الواردة في هذا الباب -إذا صحّت-، أما إحداث البدع فيها والتي ما أنزل الله بها من سلطان، فإن أهلها على خطر عظيم حتى يقلعوا عن بدعتهم.

أيها المؤمنون: إن شهر شعبان مقدمة وقنطرة إلى رمضان، فليكن شعبانكم هذا مختلف عما مضى، من أجل أن يختلف رمضانكم عما مضى من رمضانات، أليس من الغبن أن لا ينتبه أحدنا إلا وقد قيل له: غدًا رمضان، فإذا به لم يتأهب للطاعات والتلاوات والأذكار والصلوات، بل تتكاثر عليه الشواغل والأعباء، فلا يزال ينشغل يومًا بعد يوم في رمضان،

إضافة إلى ما يُقضى من الأوقات في النوم واللهو، حتى يخرج شهره ولم يقض منه وطره، ولا شك أن من أهم أسباب ذلك عدم أخذ الأُهبة من شعبان.

فمن كانت له أعمال في رمضان فليخففها على نفسه من الآن، ومن كان يريد شراء حاجيات، فليجهز نفسه في شعبان إن استطاع، ومن أراد شراء شيء للعيد فلا يترك ذلك لرمضان والعشر الأواخر، بل يحاول تفريغ نفسه من الآن لشهر الصيام والقرآن والغفران..

عباد الله: تأهبوا بصادق النيات، واستعدوا بالأعمال الصالحات، واسألوا الله أن يبلغكم شهر الصوم والقيام والقرآن، فمن بلغه منا جاءه مستعدًا متأهبًا، ومن لم يبلغه فإن نية المؤمن أبلغ من عمله، نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية...



خطبة عيد الفطر

الخطبة الأولى:

الحمد لله، عمَّنا نعمًا وإنعامًا، والله أكبر منَحَنا عقولًا وأفهامًا، والحمد لله لا رادَّ لما أراد، والله أكبر ما لرزقِه من نفاد، والحمد لله مُصرِّف الأوقات، والله أكبر مُيسِّر الأقوات، لا إله إلا الله قدَّر الأمور وقضاها، وعلى ما سبقَ من علمِه أجراها وأمضاها، سبحانه وبحمده خلق الإنسانَ وصوَّره، وكتبَ رزقَه والأجلَ قدَّرَه، وأشكرُه وأُثنِي عليه فله الحمدُ في الأولى والآخرة، والَى علينا نعَمَه وآلاءَه باطنةً وظاهرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مُقِرًّا بتوحيده ومُعترِفًا، جَلَّجَلَالُهُ لم يزَل بصفات الكمال مُتَّصِفًا، إذا وعدَ وفَى، وإذا أوعدَ عفَا، وأشهد أن سيِّدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله رفيعُ المقام جليلُ الجناب، اجتباه ربُّه واصطفاه، وقرَّبَه وأدناه، أنزل عليه ذكرًا حكيمًا، وهدَى به صراطًا مُستقيمًا، صلَّى الله وسلَّم وباركَ عليه، وعلى آله السادة الطيبين الأطهار، وأصحابه الغُرِّ الميامين الأخيار، المُهاجرين منهم والأنصار، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ما تعاقبَ الليلُ والنهار.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا، وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على سيِّدنا ونبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله-، اتقوه حقَّ التقوى، اتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله، يوم يُبعَث ما في القبور، ويُحصَّل ما في الصدور، يوم ينظر المرءُ ما قدَّمت يداه، يوم يعضُّ الظالمُ على يديه أسِفًا على ما اقترفَه وجنَاه.

فاتقوا الله -رحمكم الله-، وبادِروا إلى ما يُحبُّه ربُّكم ويرضاه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨].

الله أكبر، وهو أحقُّ من عُبِد، والله أكبر، وهو أحقُّ من ذُكِر، والله أكبر، وهو أحقُّ من شُكِر.

معاشر المسلمين: عيدُكم سعيدٌ ويومُكم مُبارَك، وتقبَّل الله منا ومنكم الصيامَ والقيامَ وصالحَ الأعمال، البَسوا الجديد، واشكُروا العزيز الحميد في فرحٍ لا يُشغِل، وبهجةٍ لا تُبطِر.

هذا يومُ العيد، يومُ الزينة، يومٌ عظَّم الله قدرَه، وأفاضَ علينا من النِّعم ما يُوجِبُ شُكرَه. فاحمَدوا اللهَ على التمام، واستقيموا على شرائع الإسلام. كلُوا واشرَبوا، وتزيَّنُوا وتجمَّلُوا، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦].

أيامُ العيد أيامُ بِشْرٍ وسُرور، وفرحٍ وحُبُور، فاستَديمُوا نِعَم الله بشُكرها. المُسلمُ كما يتَّصِلُ بربِّه عبادةً وشُكرًا يتَّصِلُ بخلقِه محبَّةً وإخاءً، ولُطفًا ومودَّة. يومُ فرحٍ وزينةٍ وعبادة. المسلم يؤمن بالله العظيم، ويحُضُّ على طعام المسكين.

ليس مطلوبًا أن تُذرَفَ الدموعُ في العيد بُكاءً على المآسِي، ولا أن يعلُو الحزنُ على المُحيَّا اشتغالًا بالهُموم. ليس العيدُ لإحياء الأحزان وتذاكُر الآلام؛ فهو يومُ الزينة، ويومُ الإحسان والبرِّ، ويومُ التزاوُر والتهادِي.

الله أكبر ما تنزَّلَت الرحماتُ من الكريم المنَّان، والله أكبر ما تواصلَت الصلوات على سيِّدنا محمدٍ سيِّد الثَّقَلَيْن الإنس والجان.

أيها المسلمون: لا يعيشُ المسلم فرحةَ العيد إلا حين يشعرُ بالبهجة في مشاعره، والسرور على مُحيَّاه، وقسَماتُ وجه المرء انعِكاساتٌ لدواخِله، والذي لا يُغيِّر ما بنفسِه لا يُغيِّرُ ما حولَه.

من حقِّ أهل الإسلام في يوم عيدِهم أن يسمعوا حديثًا مُبهِجًا، وكلامًا مُؤنِسًا. يقول ابن بطَّال: (جعلَ اللهُ من فِطَر الناس محبَّة الكلمة الطيبة والأُنسَ بها، كما جعل فيهم الارتياحَ بالمنظر الأنيق والمعين الصافِي وإن كان لا يملكُه ولا يشربُه).

بطبع الإنسان أن يبتهِجَ بالهيئة الحسنة والمكان الفَسيح والمنظر البَهيج، وإذا كان ذلك كذلك فإن الحديثَ عن الجمال والزِّينة في يوم الزِّينة يُسهِمُ في الإسعاد في يوم العيد، والإبهاج في يوم البهجة.

ما عيدك الفخم إلا يوم يغفر لك	لا أنت تجر به مستكبرًا حُللك
كم من جديد ثياب دينه خلق	تكاد تلعنه الأقطار حيث سلك
ومن مرقع الأطمار ذي ورعٍ بكت	عليه السماء والأرض حين هلك

كل يوم يمر بغير معصية لله فهو فرحة لك، العيد العودة للدين، العيد يذكرنا بكمال الدين، ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]. العيد فرحة بالنعمة، ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف:٣٢]. العيد فسحة، «حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة»[١]، هكذا قال عليه الصلاة والسلام: «لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا، إني أرسلت بحنيفية سمحة». هذه عبارات نبوية قالها في العيد، لما جاءهم في يثرب ولهم يومان يلعبون فيهما، فسألهم عنهما، ثم قال: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما يوم الأضحى ويوم الفطر»[٢].

الله أكبر، وربُّنا أحقُّ من حُمِد، والله أكبر، وربُّنا أجودُ من سُئِل، والله أكبر، وربُّنا أوسعُ من أعطى، والله أكبر كلما صلَّى المُصلُّون على صاحب اللواء والكوثَر.

اللهم بارك لنا فيما آتيتنا، واجعله عونًا لنا على طاعتك، اللهم إنا نسألك فعل الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين، اللهم ارزقنا حبك وحب كل عمل يقربنا إليك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه أحمد (٢٥٩٦٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٤٤٣).

(٢) صحيح أبي داود (١١٣٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله مُصرِّف الليالي والأيام، أحمده سبحانه على ترادُف الإنعام وتتابُع الإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك القدوس السلام، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه الأبرار الأتقياء الأعلام.

أما بعد:

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، والله أكبر وهو العظيمُ جُودُه، الكثيرُ موجودُه، المُتعالِي بعظمته ومجدِه، نزَّل الفُرقان على عبدِه ليكون للعالمين نذيرًا.

أيها المسلمون: احمدوا ربكم يا عباد الله على إتمام شهركم، وقد قال ربكم: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥]. فها أنتم أكملتم العدة، وكبرتم الله، وبقي علينا الشكر يا عباد الله، فعلًا ما أسرع تلك الأيام لقد انقضت ورحلت والله، فهل علمتم يا عباد الله كيف ذهبت؟ هل أحسستم كيف انقضت وتولت؟ صدق الله الذي قال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:١٨٤]. جمع قلة، مع أنه شهر كامل، ولكن والله لقد ذهب مثل الضيف، وولى مسرعًا كأنه طيف، ولكن هنيئًا لكم، فقد صمتم شهركم، هنيئًا لكم وقد قمتم لياليه، هنيئًا لكم وقد بلغتم آخره، وعدد قد مات ولم يتمكنوا من بلوغه، وآخرون ماتوا أثناءه ولم يتمكنوا من إكماله، فكل واحد منا من ذكر أو أنثى عليه نعمة كبيرة من الله.

عباد الله: إن يومكم هذا هو يوم بر وصلة، وصدقة وإنفاق، سواء صدقة الفطر، أو الصدقة المطلقة، وقد خطب النبي ﷺ العيد فجاء للنساء وقال: «تصدقن». فبسط بلال ثوبه، ثم قال: «هلم لكن فداءٌ أبي وأمي»، فجعلن يلقين الحلي في ثوب بلال[1].

أيها المؤمنون: إن الإسلام قد غرسَ حبَّ الجمال وإدراك الزِّينة في أعماق المُسلم، فيكون جميلًا ويُشاهِدُ الجمال، ويستمتِعُ بمباهِج الزِّينة مبثوثةً في الكون كلِّه تتجلَّى في صُنع الله الذي

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤).

أتقنَ كلَّ شيء، وفي خلقِه الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَه، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، والذي خلقَكم فأحسنَ صُورَكم، وجعلَكم في أحسن تقويم.

معاشر المسلمين: ومع هذا كلِّه ووضوحِه وجلائِه، إلا أن الجمالَ في الإسلام لا يرتبِطُ بالمظاهر الحسِّيَّة وحدَها، ولكنَّه مُرتَّبٌ ومُنظَّمٌ ومُرشَّد؛ فليس الجمالُ في جرِّ الرِّجال للإزار وإسبال الثياب كِبرًا ورياءً، ولا بتخلِّي المُؤمنات عن الحِشمة والعِفَّة والحياء.

الجمال المحمودُ منه ما أعانَ على طاعَة الله كما كان ﷺ يتجمَّلُ للوفود، والمذمومُ ما كان للدنيا والفخر والخُيَلاء، والتوصُّل إلى الشهوة المُحرَّمة، أو أن يكون غايةَ العبد وأقصَى همَّتِه ومطلبِه.

المطلوبُ أن يُجمِّلُ العبدُ قلبَه بالإخلاص لله ومحبَّته والتوكُّل عليه والإنابَة إليه. ولِسانَه بالصدق، وحُسن المنطق، وعُذوبَة اللَّفظ. والجوارِح بالطاعة، والعمل النافع. وبدنَه بإظهار نعَم الله عليه في لِباسِه، وتطهيرِه من الأنجاسِ والأوساخِ والمُستقذرَات.

إنه الجمالُ في مجالاته الحقَّة، والزِّينة في ميادينها النقيَّة، وليس إلا أهل الفضل والصلاح ليكونوا رموزَ الجمال، ونماذِج الزِّينة والبهجة، بهم يقتدِي أهلُ الهِمَم بالتوجُّه نحو العزائِم والأذواق الرَّفيعة، والتعامُل الكريم، وأخلاقِه العليَّة في كرمٍ وحلمٍ، وطهارةِ لسانٍ، وكفٍّ نديٍّ.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

الله أكبر كبيرًا، والحمدُ لله كثيرًا، وسبحان الله كثيرًا، وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبِه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-، واهنأوا بعيدكم، وأصلِحوا ذاتَ بينكم، تسامحوا وتصافحوا، وتزاوروا وتجاوروا، والبَسوا وتجمَّلوا، وكلُوا واشربُوا ولا تُسرِفوا، وأطيعوا اللهَ ورسولَه إن كنتم مؤمنين؛ فالعيدُ فرحةٌ وبهجةٌ، فمن أحبَّ أن يُسامِحَه الناسُ فليُسامِحهم، ومن أحبَّ أن يقبَلَه الناس فليتجمَّل لهم، ومن زادَ كبره وحبُّه لنفسِه ازدادَ كرهُ الناس له، الأُلفةُ دليلُ حُسن الخُلُق، والنُّفرةُ علامةُ سوء الخُلُق.

لا يسعَدُ بالعيد من عقَّ والدَيه وحُرِم الرضا في هـذا اليـوم المُبـارك السـعيد، ولا يسـعَدُ بالعيد من قطع رحمه، ولا من ترسخت الأحقاد في قلبه، أو من يحسُد الناسَ على ما آتاهم الله من فضله، وليس العيدُ لخائنٍ غشَّاشٍ يسعَى بالفساد بين الأنام؛ كيف يفرحُ بالعيد من أضاعَ أموالَه في مَلاهٍ مُحرَّمة وفسوقٍ وفجور، ليس له من العيدِ إلا مظاهِره، وليس له مـن الحـظِّ إلا عواثِرُه، السعيد مـن اتقـى الله ربـه، وشـكر نعـم الله باسـتعمالها في طاعتـه، وخـالق النـاس بالتواضع والخلق حسن.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

ثم اعلموا أن مـن مظـاهر الإحسـان بعـد رمضـان: اسـتِدامةُ العبـد عـلى نهـج الطاعـة والاستقامة، وإتباعُ الحسنة الحسنة، وقد ندَبَكم نبيُّكم محمدٌ ﷺ بأن تُتبِعوا رمضان بستٍّ مـن شوال؛ فمن فعل فكأنما صامَ الدهرَ كلَّه.

تقبَّل الله منا ومنكم الصيامَ والقيامَ وسائر الطاعات والأعمال الصالحات.

ثم صلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمدٍ رسول الله، فقد أمركم بذلك ربُّكـم، فقـال -عـزَّ قـائلًا علـيمًا-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد، وعـلى آلـه وأزواجـه وذريتـه، وارضَ اللهم عن الخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكرٍ، وعُمـر، وعُـثمان، وعـليٍّ، وعـن سـائر الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفـوك وجُـودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.



فضل عشر ذي الحجة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جَلَّ عن الشبيه والمثيل والكفء والنظير.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليلُه، وخيرتُه من خَلقِه، وأمينه على وحيه، أرسله ربُّهُ رحمةً للعالمين، وحُجَّةً على العباد أجمعين، فهدى الله تعالى به من الضلالة، وبصَّر به من الجهالة، وكثَّر به بعد القِلَّة، وأغنى به بعد العَيْلة، ولمَّ به بعد الشتات، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغُرِّ الميامين، ما اتصلت عينٌ بنظَر، ووعت أذن بخبر، وسلّم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها الإخوة الكرام: الحمد لله القائل لما ذكر جل وعلا خلقه في عباده قال سبحانه وتعالى عن تفضيله بين الناس في الخلق وتفضيله بعض الأيام على بعض، وتفضيله بعض الأشهر على بعض، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

فقد خلق الله تعالى الملائكة فاختار منهم جبريل ليكون أفضلهم، وخلق الله تعالى البشر فاختار الأنبياء ليكونوا أفضلهم، واختار الله تعالى الشهور فاختار منها رمضان ليكون هو أفضلها، وخلق الله تعالى الأيام فجعل هذا اليوم وما بعده مِنْ أيامٍ هي أفضلها؛



فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من أيامٍ أفضلُ عندَ الله من أيَّامِ عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ»(١). وفي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الذي رواه البخاري ومسلم، قال النبي ﷺ: «ما مِن أيامٍ العملُ الصالحُ فيهنَّ أحبّ إلى تعالى من عشر ذي الحجة»، العمل الصالح عموما، من ذكر لله تعالى، أو صدقة على الفقراء والمساكين، أو بِرٍّ للوالدين، أو صلةٍ للأرحام، أو صلاةٍ، أو صيامٍ، أو قيامٍ، أو جهادٍ، إلى غير ذلك من أنواعه. قال: «ما من أيامٍ العملُ الصالح فيهنّ أحب إلى تعالى من عشر ذي الحجة»، قال الصحابة: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟.

وقد كان متقررا عندهم، أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وأنـه مـا تقـرب عبـد إلى الله تعالى بعد تلفظه بالشهادتين بأفضل من أن يتقرب إلى الله تعالى بتقـديم روحـه في سـبيل الله، فقالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ فهم كانوا يسمعون الأحاديـث والآيـات في فضـل الجهـاد، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله»، يعنـي أن العمـل الصـالح في هذه الأيام لا يعدله حتى لو خرج إنسان مجاهدا، فأيام ذلك المجاهد هي أقلُّ أجرًا، وهي أنزل فضلا من المتعبد في هذه العشر.

ثم اشترط النبي ﷺ شرطًا، واستثنى حالة معينة، فقال: «إلا رجل خرج بنفسه ومالـه»، خرج بنفسه، وأخذ ماله، خرج بنفسه وماله، «ثم لم يرجع من ذلك بشيء»(٢).

أي: إلا رجل بذَلَ نفسَهُ وبذَلَ ماله لله عَزَّوَجَلَّ، وقلةٌ من المجاهدين مَن يأخذ أموالـه معـه، فإنهم في الغالب يخرجون بأجسادهم للجهاد في سبيل الله، وهناك من يتولى نفقـتهم، أو أنهـم ربما تركوا أموالهم وأخذوا بعضها نفقة، فقـال عليـه الصـلاة والسـلام: لا يفضـل المجاهـد الخارج في سبيل الله في عمله، عمل الذي هو قاعدٌ لكنه يتعبد في العشر، إلا إذا خرج المجاهد بنفسه واستشهد وخرج بماله كله في سبيل الله!

---

(١) صحيح الترغيب (١١٥٠).

(٢) رواه البخاري (٩٦٩) ولفظ البخاري: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه». قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء».

وروى الترمذي عنه عليه الصلاة والسلام: «ما مِن أيَّامٍ العمَلُ الصَّالحُ فيهنَّ أحبُّ إلى الله مِن هذهِ الأيَّامِ العَشر» فقالوا يا رسولَ الله ولا الجِهادُ في سبيلِ الله؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ «ولا الجِهادُ في سبيلِ الله إلَّا رجلٌ خرجَ بنفسِهِ ومالِهِ فلم يرجِعْ من ذلِكَ بشيءٍ»[1]

وفي صحيح الترغيب: قال عليه الصلاة والسلام: «ما من عملٍ أزكى عند الله ولا أعظمَ أجرًا من خيرٍ يعملُه في عَشرِ الأضحى». قيل: ولا الجهادُ في سبيلِ الله؟ قال: «ولا الجهادُ في سبيلِ الله، إلا رجلٌ خرج بنفسِه وماله فلم يرجِعْ من ذلك بشيءٍ». قال: فكان سعيدُ بن جُبَيرٍ إذا دخل أيامُ العشرِ اجتهد اجتهادًا شديدًا، حتى ما يكادُ يقدرُ عليه[2]

أيها المسلمون: دل هذا على أن فضل هذه العشر هو أفضل من التعبد في أيام رمضان، لا في لياليه، فإن ليالي رمضان أفضل من ليالي العشر، لكن أيام العشر، ما بعد صلاة الفجر إلى المغرب هي أفضل من أيام رمضان، بل هي أفضل من جميع أيام العام؛ لما تقدم في حديث جابر رضي الله تعالى عنه.

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما تكلم في فقه حديث ابن عباس: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من العشر»، قال الإمام ابن حجر: (وذلك لاجتماع رؤوس العبادات، أو قال أمهات العبادات في هذه العشر، فإنه يجتمع فيها الصدقة، ويجتمع فيها الصلاة، ويجتمع فيها الحج، ويجتمع فيها الصوم، أي: التطوع، وهذه الأربعة يستطيع أن يعملها الإنسان خلال هذه العشر؛ أما في رمضان فإنه يستطيع أن يعمل الصلاة، والزكاة، والصيام، لكنه لا يستطيع أن يحج).

وكذلك قُل غير ذلك في غيره من الأيام التي لها فضل، أما في هذه العشر فإن الله جل وعلا فضَّلَها فجعلها سبحانه وتعالى عشرا ولم يجعلها خمسا، فلو كانت تنتهي في الخامس من ذي الحجة فكان ليس فيها حج، لكنه لما مدّها ربنا جل وعلا وضمّنها يوم عرفة، وهو اليوم العظيم الذي ينظر إلى عباده وهم ما بين متعبد وداعٍ وباكٍ ومنكسر في أرض عرفات، فيباهي ملائكته بهم.

---

(١) صحيح الترمذي (٧٥٧).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (١١٤٨).

فدخول يوم عرفة في هذه العشر زاد من فضلها، ثم دخول يوم النحر، يوم الحج الأكبر الذي أكمل الله تعالى فيه الدين، وأنزل الشريعة، وأتم فيه النعمة.

ولقد بيّن النبي ﷺ فضل العشر الأوائل من ذي الحجة، وحث على اغتنامها، فحري بالمسلم إذا سمع من نبينا عليه الصلاة والسلام الكلام عن فضل شيء من الأعمال أن يُرى ذلك في عمله، وألا تكون المسألة عندنا فقط معلومات نجمعها دون أن يكون لها تأثير في حياتنا.

ما هو تأثير قول النبي عليه الصلاة والسلام لما مدحها فقال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه العشر»؟ كيف يؤثر فيك هذا الكلام؟ هل يدفعك فعلا إلى أن تصلي الضحى في هذه الأيام العشر، وتقول: ما دام أن صلاة الضحى في هذه العشر أفضل من صلاة الضحى في غيرها، إذًا فسأكثر فيها من صلاة الضحى وأداوم عليها.

ما تأثيرها عليك في قراءة القرآن؟ بعضنا ربما ختم القرآن في رمضان، ثم مَرَّ عليه الآن أكثر من شهرين وهو لم يختم القرآن مرة أخرى، ما تأثير الحديث الذي مدح هذه العشر عليك؟ هل دفعك إلى أن تختم القرآن خلال هذه العشر بإذن الله، فأقرأ في كل يوم ثلاثة أجزاء تستغرق أكثر من ساعة لتختم القرآن في هذه العشر؛ لأن قراءة القرآن أفضل وأعظم أجرًا من غيرها، هل يؤثر فيك هذا الحديث فعلا فيدفعك إلى أن تكثر من قراءة القرآن فيها؟ ما دام أنك تمسك المصحف وأنت تعلم أن الله يراك فتقول في نفسك: ما دام أن ربي يحب مني قراءة القرآن الآن في هذه العشر أكثر مما يحبه في غيرها، أكثر منها.

هل يدفعك هذا الحديث إلى الصدقة إلى البذل من مالِك؟ فتتفقد المساكين والمحتاجين، والأقارب والأرحام المعوزين، والجيران القريبين؟ تسأل عن أحوالهم، وتجود بما تستطيع ولو بالقليل، وتقول في نفسك: يا ربي، لما سمعت نبيك ﷺ يقول: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه العشر»، يا ربي، أنا أُسرع لأعمل بمحبوباتك ما دام أنك تحب الصدقة في هذه العشر أكثر من محبتك لها في غيرها، فانظر إليَّ الآن وأنا أتصدق تقربا إليك يا ربي.

وأفضل الصدقة كما بيَّن النبي ﷺ الصدقة على ذي الرحم الكاشح، يعني على ذي الرحم الذي ربما يعاملك معاملة سيئة، ومع ذلك أنت تحسن إليه وتتصدق عليه، ربما يكون عندك أخ يعاملك معاملة جافة أو أخت أو عمة أو خالة أو ربما كان أبا أو أما أيضا، كل مَن كان ذا رحم عندك فالسنّة أن تقدمه في الصدقة على غيره، فإن كان رحمًا كاشحًا ربما يعاملك معاملة جافة وأنت مع ذلك تحسن إليه فهذا أفضل الصدقة، لأن في ذلك ترفُّعًا عن حظوظ النفس والإخلاص فيه أجدر.

عن ميمونةَ، زوجِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: كانت لي جاريةٌ فأعتقتُها، فدخلَ عليَّ النَّبيُّ ﷺ، فأخبرتُهُ، فقالَ: «آجرَكِ اللهُ، أما إنَّكِ لو كنتِ أعطيتِها أخوالَكِ كانَ أعظَمَ لأجرِكِ»[1] فالعتق له فضل عظيم، لكن إعطاءها خادمتها لأخوالها أعظم أجرًا؛ لأنهم فقراء ويحتاجون إلى من يساعدهم في البيت، فجعل عليه الصلاة والسلام الإحسان إلى ذي الرحم والصدقة عليه والهبة له أفضل عند الله تعالى من العتق، مع ما في العتق من الأجر العظيم.

وما أجمل أن يعوِّد الإنسان نفسه أنه إذا رأى مسكينا في الطريق أو محتاجًا بادية عليه الحاجة فيحسن إليه، ويعوِّد أولاده على ذلك، يعطي ولده مبلغًا صغيرا من المال ويقول: اعط هذا يا ولدي، ليعتاد على البذل والكرم وفعل الخير.

والصدقة -أيها الأحبة- ينتفع بها المرء في حياته قبل مماته، وكم من مشكلة وقعت فيها يسر الله حلها بسبب صدقة تصدقت بها يوما! وكم من مصيبة نزلت بك فخففها الله عنك أو رفعها بسبب صدقة تصدقت بها! وكم من ظلمٍ كان سيقع عليك ثم رده الله تعالى عنك بسبب صدقة تصدقت بها! وكم من إنسان كان في كروبات فلما تعرف إلى الله تعالى برحمته لعباده أنزل الله تعالى عليه رحمته.

ونحن نحتاج أن نتعرف إلى الله ببعض الأعمال، حتى إذا وقعت في كربة كذا قلت: اللهم اكشف عني هذه الكُربة بعملي ذاك الذي قدمته بين يديك، (تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة).

---

(١) صحيح أبي داود (١٦٩٠).

أيضًا: أكثِر من قراءة القرآن، ف «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله كان له به حسنة، لا أقول: (لم) حرف، ولكن (ألف) حرفٌ، و(لامٌ) حرف، و(ميمٌ) حرف»، والحسنة بعشر أمثالها، أكثر من تلاوة القرآن، ورَبِّ أولادك على ذلك حتى لو جعلت لهم جوائز فهذا أمر حسن لترغيبهم وتشجيعهم، المهم أن يشعروا بأن هذه الأيام هي أفضل في القربة إلى الله تعالى من غيرها.

أيها الحبيب: أكثر من نوافل الصلاة أيضًا، قل: يا رب، ما دمت تحب صلاة النافلة والرواتب والضحى في هذه العشر أكثر مما تحبها في غيرها، فسأقطع عملي وأقوم وأتوضأ وأستقبل القبلة تقربا إليك بما أنت له أشد حبًا، فاقبلني واقبل مني، وأعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

اللهم ربي فعامِلْنِي بالحسنى، فوفقني لما تحب وترضى، وأكرمني بما أحب من الخير، وفقني لما تحب، لتكافئني بما أحب، فأنا أحب صلاح ولدي فأصلِحْ ولدي يا رب، يا رب أنا أحب البركة في مالي فبارك لي في مالي يا رب، يا رب أنا أحب سلامة جسدي من المرض يا رب فاصنع إلي ما أحب كما صنعتُ إليك ما تحب، وأنت إلى البر والكرم أسبق؛ فإن الله جل وعلا يعامل العبد بمثل ما يعامله العبد به وأكثر، قال الله جل وعلا: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢]، فمن أراد أن يذكره الله تعالى في السموات فليذكر الله تعالى في الأرض، وهكذا يكون العكس، كما قال الله جل وعلا عن قوم: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ [التوبة:٦٧]، فلما نسوا الله، كيف عاملهم الله؟ ﴿فَنَسِيَهُمۡ﴾، نسوا الله فلا يتصدقون ولا يذكرون ولا يتقربون، نسوا أن يتقربوا إلى الله، إنما ذكروا أنفسهم، ذكروا شهواتهم، ذكروا دنياهم، لكنهم نسوا الله فهنا يكون جزاؤهم كما يقول الله جل وعلا: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾.

وبيّن الله جل وعلا ذلك في كتابه في عدة مواضع من القرآن، بين أنه يصنع بالعبد كما يتعامل العبد معه، إلا أنه تعالى أرحم بالعبد، وأقدر على الإحسان إليه، فربما أساء العبد مع ربه ولا يزال الله تعالى يعامله بالإحسان فضلا وإمهالًا، وكرما وجودا، ورحمةً وإحسانا من ربنا جل في علاه.

أيها الإخوة الكرام: وكما أن العمل الصالح في هذه العشر عملٌ متنوِّع، فإن من أفضله أن يكثر الإنسان من ذكر الله جل وعلا، وهناك ذكرٌ مخصوصٌ، وهو أن يكثر العبد مِن التكبير، فيردد قائلا: الله اكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

يقولها من بداية أيام العشر من اليوم حتى تنتهي هذه العشر، فإن كان حاجا وأحرم بالحج في اليوم الثامن فيُسنّ له أن يكثر من التلبية، لا من هذا التكبير، وإن جمع بينهما فلا بأس، ثم إذا رمى الجمرة يوم العيد، وهي جمرة العقبة الكبرى، فإنه يقطع التلبية؛ لكنه يستمر في التكبير المقيد بعد الصلوات، أو المطلق أيضا، لا بأس به عليه، فأَكْثِرُوا من التكبير، أكثِروا من قول الله: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

وقد كان عمر رضي الله تعالى عنه يبكّر في الذهاب إلى مكة بالحج، ثم يقعد في خيمته في منى يقضي أمور الناس، ويحكم بينهم، ويفصل في خصوماتهم، ويفتيهم في مسائلهم، وهو يبكر من قبل يوم الثامن يذهب إلى منى، فكان رضي الله تعالى عنه وهو في خيمته يكبر: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد، فيسمعه الذين خارج الخيمة فيكبرون بتكبيره، يذكّرهم فيكبرون، قال فيسمعهم الذين وراءهم فيكبرون، حتى ترتج مِنى تكبيرا.

وكان ابن عمر وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهما كانوا يخرجون إلى السوق في أيام العشر، ويرفعون أصواتهم بالتكبير، فيسمع الناس تكبيرهم فيكبرون.

اجعل هذه سُنَّةً منشورة بسببك لا مهجورة إذا خرجت إلى السوق أو جئت إلى المسجد أو في أي موطن كنت فارفع صوتك بالتكبير، فإنه نشر للسنة، وتذكيرٌ للناس، وتنبيهٌ للغافل، وتعليمٌ للجاهل، لمن سوف يعجب يقول: لماذا يكبر هذا؟ فيقال له: هذه أيام العشر يُسَن فيها أن يكثر العبد من التكبير، عندها يكبر هذا الإنسان ويكون لك مثل أجره.

كبّر وعَلّ الصوت بالتكبيرِ ... لا تتصف بالشح والتقتيرِ

كبّر وكن لله عبدًا ذاكرًا ... فالله أكبر فوق كل كبيرِ

فالله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

أسأل الله جل وعلا أن يعيننا على اغتنام الأيام والساعات الفاضلات، وأن يجعلنا الله تعالى فيها من المقبولين، أستغفر الله العظيم الجليل من كل ذنب فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله أهل الحمد والثناء، أحمده سبحانه وأشكره في السّراء والضراء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأرض والسماء، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه البرَرَة الأتقياء، والتابعين ومن تبِعهم بإحسان إلى يوم القضاء.

أما بعدُ:

أيها الإخوة الكرام: ومن أفضل الأعمال في هذه العشرِ الصيامُ، فإن الله جل وعلا جعله خاصا به سبحانه، كما قال عليه الصلاة والسلام، يقول الله تعالى: «كل عملِ ابنِ آدمَ يُضاعفُ الحسنةَ عشرةَ أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ. قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: إلا الصومُ. فإنَّهُ لي وأنا أجزي بهِ. يَدَعُ شهوتَه وطعامَه من أجلي. للصائمِ فرحتانِ: فرحةٌ عند فطرِه، وفرحةٌ عند لقاءِ ربِّهِ. ولخُلوفُ فيهِ أطيبُ عند الله من ريحِ المسكِ»[1].

ولو لم يأت في الصوم في هذه الأيام فضيلة خاصة أو دليلًا خاصًا، إلا أنه من أحب الطاعات إلى الله تعالى، كما أنه من جملة الأعمال الصالحات التي هي أحب إلى الله في هذه الأيام.

أيها المسلمون: ومن أحكام هذه العشر أنَّ مَن أراد الأضحية في هذه العشر فإنه لا يأخذ من شعره ولا أظفاره شيئا، لا شعر رأسك ولا من شعرٍ آخر في الجسد، لا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئا، يحرم ويستثنى من ذلك مَن كان سوف يحُجُّ متمتعا أو قارنا وسوف ينحر هديًا في مكة، فإن الهدي يقوم مقام الأضحية، فإذا كنت سوف تحج قارنا أو متمتعا وسوف تذبح هديًا في مكة فليس عليك أضحية أصلا، وبالتالي لا بأس عليك خلال هذه العشر أن تأخذ من شعرك وأظفارك حتى يدخل عليك وقت الحج وتُحرم، عندها قف عن قص شعرك وأظفارك. هذه مسألة.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٩٢) ومسلم (١١٥١).

المسألة الثانية: الذي يجب عليه الإمساك عن شعره وأظفاره هو صاحب الأضحية المسؤول عنها، كالأب، فيُمسك دون أولاده، ولا يلزمهم أن يمسكوا، إلا إن كان الإنسان يفعل ذلك تبرعا عن مُتَوَفَّى، فإنه يمسك؛ لأنه هو الذي تتعلق به أحكام الأضحية.

وتكفي الأضحية لمن يسكنون في بيت واحد، والأضحية سنة وليست واجبة، وكذلك لو أن إنسانًا سافر إلى أهله في عيد الأضحى، هل تسن له الأضحية أم يدخل في أضحية أبيه، الجواب أنها سنة في حقه، لأنه مستقل طوال السنة، ومكوثه أيام الذبح مع أبيه لا يسقطها.

والنبي ﷺ بين أن أفضل ما يتقرب به العبد لله تعالى يوم العيد إراقة الدم، وهي تأتي يوم القيامة بقرونها وأظفارها وشعرها فتوزن للعبد، وفي حديث حسَّنه بعض أهل العلم أن للمضحي بكل شعرة حسَنة، فطيبوا بها نفسا كما قال عليه الصلاة والسلام.

أيها الأحبة الكرام: تقرّبوا في هذه الأيام إلى ربكم بالصالحات من أعمالكم، وأكثروا من ذكر الله في بيوتكم وطرقاتكم، وذكّروا أولادكم وأهليكم، وأمروهم بالصلاة واصطبروا عليها، يبارك لكم ربكم فيما رزقكم، ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ [التوبة:١٠٥]، بادروا إلى طاعة ربكم، واستغلال أعماركم، سارعوا، وسابقوا، وتنافسوا، ﴿ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

أسأل الله جل وعلا أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستثمرون الأيام والساعات الفاضلات، وأن يجعلنا الله تعالى من المقبولين.



خطبة عيد الأضحى[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات، وبعَفوِه تُغفَر الذُّنوب والسيِّئات، وبكرَمِه تُقبَل العَطايا والقُربَات، وبلُطفِه تُستَر العُيُوب والزَّلاَّت، الحمدُ لله الذي أماتَ وأحيا، ومنَع وأعطَى، وأرشَدَ وهدى، وأضحَكَ وأبكى؛ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء:١١١].

الله أكبر، الله أكبر ما لبس الحَجِيج ملابسَ الإحرام، الله أكبر ما رأوا الكعبة فبدَؤُوها بالتحيَّة والسلام، الله أكبر ما استلَمُوا الحجر، وطافُوا بالبيت، وصلُّوا عند المقام، الله أكبر ما اهتدوا بنور القرآن، وفرحوا بهدي الإسلام، الله أكبر ما وقَف الحجيج في صَعِيد عرفات، الله أكبر ما تضرَّعوا في الصفا والمروة بخالص الدعوات، الله أكبر ما غفَر لهم ربهم، وتحمَّل عنهم التَّبعات، الله أكبر ما رموا وحلَقُوا وتحلَّلوا ونحَرُوا، فتمَّت بذلك حجَّة الإسلام، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسُبحان الله بُكرةً وأصيلًا.

الحمدُ لله الذي جعَل الأعياد في الإسلام مَصدرًا للهناء والسُّرور، الحمد لله الذي تفضَّل في هذه الأيَّام العشر على كلِّ عبدٍ شَكُور، سبحانه غافِر الذنب وقابِل التَّوب شديد العِقاب.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسُبحان الله بُكرةً وأصيلًا.

ربنا لك الحمدُ سرًّا وجهرًا، ولك الحمدُ دومًا وكرًّا، ولك الحمد شعرًا ونثرًا.

لك الحمدُ يوم أنْ كفَر كثيرٌ من الناس وأرشدتنا للإسلام، لك الحمدُ يومَ أنْ ضلَّ كثيرٌ من الناس وهديتنا للإيمان، لك الحمدُ يوم أنْ جاعَ كثيرٌ من الناس، وأطعمتنا من رزقك.

---

(١) خميس النقيب.

لك الحمدُ يومَ أنْ غفل كثيرٌ من الناس، ووفقتنا لطاعتك.

وَالله لَوْلاَ اللهُمَّ اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فلك الحمدُ ربنا عددَ الحجَر، لك الحمدُ عدد الشجَر، لك الحمدُ عدد البشَر.

أيُّها المسلمون، عبادَ الله: الأعياد في الإسلام تبدأ بالتكبير، وتُعلن للفرحة النفير؛ ليعيشها الرجل والمرأة، ويَحياها الكبير والصغير، أعيادنا تهليلٌ وتكبيرٌ.

إذا أذّنا كبَّرنا الله، وإذا أقَمنا كبَّرنا الله، وإذا دخَلنا في الصلاة كبَّرنا الله، وإذا ذبَحنا كبَّرنا الله، وإذا وُلِد المولود كبَّرنا الله، وإذا خُضنا المعارِك كبَّرنا الله، وإذا جاء العيدُ بالتكبير استَقبَلناه، وقلنا: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلاَّ الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

كان لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبَّة في منى، فإذا جاء العيد كبَّر عمر فكبَّرت منى، فكبَّرت الأرضُ، وكأنَّك أمامَ أمَّة تُعلِن أنَّ الخنوع والخضوع لا يكون إلاَّ لله، وأنَّ الذلَّة والانكِسار لا يكونان إلاَّ لذات الله، وأنَّ الاستِمدَاد والاستِلهَام لا يكونان إلاَّ من الله، وأنَّ الاعتماد والتوكُّل لا يكونان إلاَّ على الله، وأنَّ الحفظَ والاستِعانة لا يكونان إلاَّ بالله سبحانه وتعالى.

العيد: هو كلُّ يومٍ فيه جمعٌ، وأصل الكلمة من عاد يَعود؛ قال ابن الأعرابي: (سُمِّيَ العيد عيدًا؛ لأنَّه يَعُود كلَّ سنة بفرحٍ مُجدَّد) [لسان العرب]، العيد في الإسلام كلمةٌ رقيقة عَذبة تملأ النفس أنسًا وبهجةً، وتملأ القلبَ صفاءً ونَشوَة، وتملأ الوَجه نَضارة وفَرحَة، كلمةٌ تُذكِّر الوحيدَ بأسرته، والمريضَ بصحَّته، والفقيرَ بحاجته، والضعيفَ بقوَّته، والبعيدَ ببلده وعَشِيرته، والجار بجاره، والصديق بصديقه، وذي الرحم برحمه، وتُذكِّر كلَّ هؤلاء بالله سبحانه وتعالى وأفضاله وإنعامه.

أيها الناس: الأعياد في الإسلام ليست انطِلاقًا وراءَ الشَّهوات، وليسَتْ سِباقًا إلى النَّزوات، وليست انتِهاكًا للمُحرَّمات، أو سَطْوًا على الحدود أو الحرمات.

عيد الفطر ارتَبَط بشَهرٍ رمضان الذي أُنزِلَ فيه القُرآن، وفيه الصوم الذي يذكِّر بهَدْي القرآن، موسم يُختَم بالشُّكر والتَّكبير؛ ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وعيد الأضحى ارتَبَط بفريضة الحج، موسم يُختَم بالذِّكر والتَّكبير؛ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة:٢٠٣]، عيد الفطر بعد اجتهاد في العشر الأواخر من رمضان، أفضل ليالي العام، وعيد الأضحى بعد العشر الأوائل من ذي الحجة، أفضل أيام السنة.

إنها ذكريات تتجدَّد عبرَ الزَّمان والمكان، وتَحياها الأجيالُ جيلًا بعد جيل، فتتعمَّق إيمانًا، وتتألَّق يقينًا، وتَزداد صَفاءً ولمعانًا، عشرة أيَّام، كل يوم بليلته يهبُّ على قلبك المكدود يضخُّ فيه الدِّماء، ويُنبِت فيه الحَياء، ويُجدِّد فيه الرُّوح، ويزيد فيه الإيمان، كل يوم يُنادِيك: يا باغِيَ الشر أَقصِر، ويا باغي الخير أقبِل، يا نُفُوس الصالحين افرَحِي، ويا قُلوبَ المتَّقِين اطمئني، يا عُشَّاق الجنَّة تأهَّبوا، ويا عباد الرحمن ارغَبُوا، ارغَبُوا في طاعة الله، وفي حب الله، وفي جنَّة الله.

فطُوبَى للذين صاموا وقاموا، طُوبَى للذين ضحَّوا وأعطَوْا، طُوبَى للذين كانوا مُستَغفِرين بالأسحار، مُنفِقين بالليل والنَّهار، مستغلين للأوقات والأعمار.

ما أعظَمَ هذا الدِّين! يدعو الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه لزيارة بيته الحرام، الذي جعَلَه مثابةً للناس وأمنًا؛ ليجمَعُوا أمرَهم، وليُوحِّدوا صفَّهم، ويشحَذُوا هممهم، وليقضوا تفَثَهم، وليوفوا نذورهم، وليطوَّفوا بالبيت العتيق، نفحات الله، ورحمات الله، كانت بالأمس القريب في أفضَلِ يوم، عرفات الله، يوم المناجاة، يوم المباهاة، يوم الذِّكر والدعاء، يوم الشكر والثَّناء، يوم النَّقاء والصَّفاء، يوم إذلال الشيطان المريد واندحاره، يوم وحدة المسلمين العُظمَى، يوم مؤتمر المؤمنين الأكبر، يجتَمِع فيه المسلمون من أجناس الأرض على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، على اختلاف لُغاتهم وأوطانهم، اجتمَعُوا في هذا المكان لهدفٍ واحدٍ ولربٍّ واحد، يَرجُون رحمته، ويَخافُون عذابَه، إنهم يَصنَعون وحدةَ الهدف، ويَبنُون وحدةَ العمل، إنهم جميعًا مُسلِمون، لربٍّ واحد يَعبُدون، ولرسولٍ واحد يَتَّبِعون، ولقبلةٍ واحدة يتَّجِهون، ولكتابٍ واحد يقرؤون، ولأعمال واحدة يُؤدُّون، هل هناك وحدة أعظم من هذه الوحدة؟! ليكن ذلك

سبيلًا إلى سلامة العبادة وصحَّة العقيدة؛ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢].

ليكنْ ذلك طريقًا لبلوغ التَّقوى وزيادة الإيمان؛ ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢]، الإسلام يُوحِّد الأمَّة، فلماذا تتشتَّت؟! الإسلام يعزُّ الأمَّة، فلماذا تذلُّ؟! الإسلام يُغنِي الأمَّة، فلماذا تفتقِر؟! الإسلام يهدِي الأمَّة، فلماذا تضلُّ؟! ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران:١٠١].

نعم، إنَّه يوم عرفة؛ ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [البقرة:١٩٨].

إنها مشاعر لا تُوصَف، وأحاسيس لا تُكتَب، إنما يتذوَّقها الذي يُؤدِّيها، ويستَشعِرها الذي يحضرها، ويحسُّها الذي يُلبِّي نداءَها، فينظُر الكعبة، ويُعانِق الحجر، ويُصلِّي عند المَقام، يَسعَى كما سَعَتْ هاجر عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ ويُضحِّي كما ضحَّى إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ويُطِيع كما أطاع إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ويَطُوف كما طافَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام عن حبٍّ ورغبةٍ وخضوع وإخلاص، لعلَّ قدمًا تأتي مكانَ قدمٍ، وطَوافًا يأتي مكانَ طواف، وسعيًا يأتي مكان سعيٍ، فيزداد الإيمان، ويَكون الغفران، وينتَشِر الأمان، ويحيى الجنان.

أيها المؤمنون: إن عيد الأضحى هو يوم التضحية والفِداء، يوم الفرَح والصَّفاء، يوم المكافأة من ربِّ السماء للنبيَّيْن الكريمَيْن إبراهيم وإسماعيل صاحبي الفضل والعَطاء، أراد الأعداءُ بإبراهيم سوءًا، لكنَّ الله خذلهم وأبعَدَهم، وجعَلَهم من الأسفَلِين، كما يجعَلُ كلَّ أعداء الدِّين إلى يوم الدِّين؛ ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [الصافات:٩٨].

إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يُمتحن؛ ليُمنَح، ويُختبر؛ ليَعلُو، ويُبتَلى؛ ليَسمُو؛ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾ [الصافات:١٠٢] بدَأ يَمشِي، وهنا أعظَمُ مرحلة الحب من الوالد لولده، لكنَّ الله أرادَ إخلاصَ قلبِه، وتمحيصَ فؤادِه، واصطِفاء نفسه، واجتِباء وجهته؛ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢].

رُؤيَا فيها ذبح الابن؛ طاعةً لله، ويُبلِّغ الابنُ من الوالد ذاتِـه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات:١٠٢]؛ ليَعِي دُعاة اليوم وعُلَماء التربيـة هـذا الأسـلوبَ الرائع، من الحب المُتبادَل، والأدب المُتبادَل، في أحلَكِ الظُّروف، وأشدِّ المِحَن، وأصعب المَواقِف، فيردُّ الغُلام بالمستوى نَفسِه من الشَّجاعة والإخلاص، من التضحِيَة والفداء، من الأدب الرفيع، والذَّوق العالي، وتقديم المشيئة؛ لأنَّ الموقف موقف فتنة واختبار، ولا ينتصر عليها المرء، ولا يخرج منها المبتلَى إلاَّ بـإذن الله، وعـون الله، وفضـل الله؛ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

وجاءَتْ لحظة الحسم؛ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، فكـان الاستِسـلام مـن النبيَّيْن لأمرِ الله، وكان الحب من الكريمين لطاعة الله بالمستوى نفسه، والأداء ذاته؛ ﴿أَسۡلَمَا﴾ وهُنا تكـون المفاجـأة، الله يشـهد الموقـف، ويصـدِّق عليـه، فنـادَى وجـازَى؛ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥].

امتحانٌ ما أشدَّه! اختِبارٌ ما أصعبَه! ابتِلاءٌ ما أعظَمَه! أن يُضجع فلذة كبده ليذبحه بيـده، فينجح في أعظم امتحان لإيثار ما يحب الله على مـا تحبـه الـنفس، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصـافات:١٠٦]، اجتاز إبراهيم عَلَيهِ السَّلَامُ الامتحان بامتِيازٍ مع مراتب الشَّرَف إن صح التعبـير، بتَوفِيق الله له مع مَنازِل الإخلاص، وبعون الله له مع مَقامات اليقِين، فكان الفِداء من السَّماء في يوم الفِداء، ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات:١٠٧]؛ ليَعلُو ذِكـرُ آل إبـراهيم في العـالَمين؛ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٧٨-٧٩].

أسرةٌ ثابتةٌ قدَّمت للإسـلام، وعاشَـت الإيـمان واليَقِـين، ألاَ مـن هـاجر جديـدة تَفـدِي الإسلام، وتُعلِّم المسلمين حقيقةَ التوكُّل، وروعة اليَقِين في الله ربِّ العالَمين، إذًا لـن يُضـيِّعنا، وكذلك جمالُ السَّعي إلى يوم الدِّين، ألاَ من إسماعيلَ جديد يُقدِّم رُوحَه ونفسَه وحياته طاعـةً لربِّـــه، وتَنفيــذًا لأمـــرِه، وطلَبـــا لرِضـــاه؛ ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].



فجاء التقديرُ والاصطِفاء لإبراهيم في الدنيا والآخِرة، ولِمَن لا يسفه نفسَه بالرَّغبة في طريقٍ آخَر؛ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ليت الأُمَّة تتعلَّم الفداء، والترفع عن الشهوات والأهواء، مرضاة لرب الأرض والسماء، أليس في ذلك عبرة وعظة لكل مؤمن؟ إنه ليس أحد يسرع في مرضاة الله بترك ما يهوى، إلا أسرع إليه فضل الله!

إن الإسلام أحوَجُ ما يَكُون الآن إلى مُضحِّين وفادِين، من أوقاتهم ومن أموالهم ومن أبنائهم، ومن كلِّ ما أعطاه الله لهم، حتى يَسمُو الفرد وتَعلُو الأمَّة، حتى ينتَصِر الدِّين، وتعلو رايَةُ الحقِّ المبين، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

إن العاملين للدِّين يربحون مع الله ولا يخسرون، فيُضاعِف أجرَهم، ويُسهِّل الله طريقَهم، ويَرفَع شأنَهم، ويُعلِي الله ذِكرَهم؛ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، فتذكُرهم الأجيالُ جيلًا بعدَ جيلٍ إلى أنْ يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها.

أقول قولي هذا.. وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر! أوجد الكائنات بقدرته، فأتقن ما صنع. الله أكبر! شرع الشرائع فأحكم ما شرع.

الله أكبر! لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى آله الأصفياء، وأصحابه النجباء، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

الله أكبر.. لا إله إلا الله.. والله أكبر.. الله أكبر.. ولله الحمد.

أما بعد:

أيها الناس: العيد في الإسلام فرحُ الأفراح، لكن لِمَن هذه الأفراح؟!

فرحة العيد لِمَن؟! إنها للذي جعَل يدَيْه ممَرًّا لعَطاء الله، راحَ يُنفِق بالليل والنَّهار سِرًّا وعلانية، بُكرَة وعَشِيًّا، للذي يهتمُّ بأمر المسلمين، فيُصلِح بين المتخاصِمين، ويضَعُ عن كاهل المُستَضعَفين، ويَدعو للمُحاصَرين، للذي كان وقَّافًا عند حدود الله لا يتعدَّاها، ولا يَنساها، إنما يَحفَظُها ويَرعاها.

للذي هو ليِّنٌ في طاعة الله، مِطواعًا لأمر الله، مُحِبًّا لرسول الله ﷺ عاملًا بمنهج الله، إذا قُرِئ عليه القُرآن سمع وأنصَتَ، وإذا نُودِي بالإيمان آمن ولبَّى؛ ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران:١٩٣].

للذي أحسَنَ إلى والدَيْه طائِعًا لهما في غير مَعصية، بارًّا ورَحِيمًا بهما، للذي يصل رحمه، ويحسن إلى جاره، للذي يَقرَأ القرآن بتدبُّر وتفكُّر، ويُصلِّي بخشوعٍ وخُضوع، ويَعمَل لدينه بفهمٍ صحيح.

للذي يُحافِظ على صلاة الجماعة، وخاصَّة صلاة الفجر التي تَشهَدها الملائكة، وتصغُرها الدنيا وما فيها، «ركعتَا الفجرِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»[1]، وإنه ليَفرَح الربُّ تعالى بمَشْيِ عبدِه

---

(١) رواه مسلم (٧٢٥).



إلى المسجد مُتوضِّيًا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عليه الصلاة والسلام: «لا يتوضأ أحد فيحسن وضوءه ويسبغه ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا تبشبش الله إليه كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته»[1]، وبّوب له ابن خزيمة في صحيحه: باب ذكر فرح الرب تعالى بمشي عبده إلى المسجد متوضيًا.

هؤلاء فَرِحُوا بطاعة ربِّهم، يُؤدُّون هذه الأعمال لا يملُّون ولا يكلُّون، وهم على عَهدِهم ووَعدِهم وأعمالهم لا ينقَطِعون ولا يُفرِّطون، وإنما على أعمالهم يستَقِيمون، لذلك هم أصحاب الفرح وملوكه، يفرَحُون فرحًا محمودًا، يفرَحُون فرحًا مَشروعًا، يفرَحُون بطاعة الله، يفرَحُون بفضل الله، ويفرَحُون برحمة الله؛ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

فطُوبَى لشابٍّ نشَأ في طاعةِ لله، وطُوبَى لرجلٍ ذكَر الله خاليًا ففاضَتْ عَيْناه، وطُوبَى لفتاةٍ أُمِرتْ بالحجاب، فقالت: لبَّيك يا الله، وطُوبَى لامرأةٍ أطاعَتْ زوجَها، وصامَتْ شهرَها، وصلَّتْ خمسَها حبًّا في الله، وطُوبَى لِمَن أطعَمَ أفواهًا، وكسا أجسادًا، ورحم أيتامًا، ووصَل أرحامًا، طوبى لمن عفا عمّن هفا، وتجاوز عمّن في حقه تجاوز، طوبى لمن وصل ما أمر الله به أن يوصل، واحتمل لأجل الله ما لا يمكن أن يُحتمل، فعفا وصفح، وتغاضى لأجل الله وسمح.

أيُّها المسلمون: أعيادُنا يوم أنْ تتحرَّر النُّفوس من الشَّهوات والملذَّات، ويوم أنْ تتحرَّر القلوب من الكذب والنِّفاق، ويوم أنْ تتحرَّر الصُّدور من الشَّحناء والبَغضاء، ويوم أنْ تتحرَّر الحقوق بالعدل من الفَساد والاستِبداد، فيبذل كلُّ ذي واجب واجِبَه غير مُقصِّر، ويأخذ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه لا يزيد.

أعيادُنا يوم أنْ يتحد المسلمون، ويتحرَّر الأقصى المبارك من بطْش اليهود.

أيُّها المسلمون: أنتم مأمورون بالفرحة، في هذا اليوم كنتم في طاعة وتنتقلون إلى أخرى، افرَحُوا بطاعة الله فرحًا يحبه الله، تؤجروا: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

---

(١) صحيح ابن خزيمة (١٤٩١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٣).

فاجعَلُوا هذه الأَيَّام أيامَ العيد فرحًا لا ترحًا، أَيَّامَ اتِّفاق لا اختلاف، أَيَّامَ سعادةٍ لا شَقاء، أَيَّام حب وصَفاء، لا بَغضاء ولا شَحناء، تسامَحُوا وتَصافَحُوا، توادُّوا وتحابُّوا، تَعاوَنُوا على البرِّ والتَّقوى، لا على الإثم والعُدوان، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، وارحَمُوا الأيتام، وتخلَّقوا بأخلاق الإسلام.. عسى أن تدخلوا الجنة بسلام، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

اللهم تقبَّل مِنَّا واقبلنا، واجعلنا من المقبولين، اللهمَّ ارزُقنا الإخلاصَ في القول والعمل..





أيام التشريق: فضائل وأحكام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، أحمده سبحانه وأشكره، فتح أبوابه للتائبين، ورحمته قريبٌ من المحسنين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، بعثه رحمةً للعالمين، أدّى الرسالة، ونصح الأمة، وبلّغ البلاغ المبين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته أجمعين، ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها المُسلمون: إن هذه الأيام هي أيام عظيمة عند الله جل وعلا، أعلى مكانتَها، ورفعَ قدرَها، وبيّن فضلَها ومكانتَها في الدين، وإن من أعظمها يوم عيد الأضحى الذي سمّاه: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة:٣]، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعظمُ الأيام عند الله يومُ النَّحر»[2].

وهو من الأيام المعلومات الفاضِلة التي قال ربُّنا جل وعلا فيها: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨].

---

(١) حسين بن عبدالعزيز آل الشيخ.

(٢) صحيح الجامع (١٠٦٤).

وفي المسند أن النبي ﷺ قال: «ما من أيامٍ أعظمُ عند الله ولا أحبُّ إليه العملُ فيهنَّ من هذه الأيام -يعني: أيام العشر-، فأكثِروا فيهنَّ من التهليل والتحميد والتكبير»(١).

ألا فلنتَّخِذ من هذا اليوم موسِمًا للتقرُّب بالطاعات، والعمل بالصالحات إلى المات، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:٢١].

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

إخوة الإسلام: في هذا اليوم العظيم يتقرَّبُ المُسلِمون إلى مولاهم بإراقة الدماء؛ استِجابةً لقول المولى جل وعلا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

ألا إن أهمَّ ما ينبغي أن يعلمَه المرءُ أن أبرزَ المقاصِد العُظمى لشعائر الإسلام كلِّها: إسلام الوجه لله جل وعلا، وتحقيقُ توحيده، والوصولُ إلى كمال محبَّته وغاية التذلُّل لله -عزَّ شأنه-، ولهذا يقول ربُّنا جل وعلا لنبيِّه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وفي ثنايا بيان أحكام الحجِّ وأحكام الهدايا يقول الله جل وعلا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٤-٣٥]، وبذلك يصِلُ المرءُ إلى العبادة الحقيقية التي أمَرَ الله جل وعلا عبادَه بها، وخلقَهم من أجلِها.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعبـــادةُ الـــرحمن غايـــةُ حبِّـــه	مـــع ذل عابـــده همـــا قُطبـــان
وعلـــيهما فلَـــكُ العبـــادة دائـــرٌ	مـــا دارَ حتـــى قامَـــت القُطبـــان
ومـــدارُه بـــالأمر أمـــرِ رســـوله	لا بـــالهوى والـــنفسِ والشـــيطان

(١) مسند أحمد وصححه أحمد شاكر (٧/ ٢٢٤).



ولهذا، فيا عباد الله: أعظمُ حِكَم مشروعية الأضاحي: تحقيقُ توحيد الله جل وعلا، وتعظيمه وإجلاله والمهابة منه، ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج:٣٧].

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

إخوة الإسلام: في هذه الأيام العظيمة التي يتقرَّبُ الحُجَّاجُ إلى ربِّهم في مناسِك الحجِّ المُتعدِّدة، وفي هذه الأيام التي يعيشُ أهلُ الإسلام في سائر البُلدان بالتقرُّب إلى الله جل وعلا بإراقة الدماء، تقرُّبًا إلى المولى عَزَّوَجَلَّ، فرِحين مُستبشِرين. فإنه ينبغي أن يعلمَ كلُّ مُسلمٍ أن من الفرض اللازم على كل أحدٍ بحسب طاقته، أن يعلَم أن مسؤوليَّته عظيمةٌ عند الله جل وعلا في الوقوف مع إخوانٍ له في الإسلام في بلدانٍ أصابَ المُسلمين فيها من اللأواء والضرَّاء والبلاء ما لا نشكُوه إلا إلى الله جل وعلا.

ولا يبخلن كل امرئ بما يقدر عليه، ولو بالدعاء، فإنه يدفع معظم البلاء، ونبيُّنا ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم كمثَل الجسد الواحد، إذا اشتكَى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسد بالسهر والحُمَّى»(١).

ويقول ﷺ: «المُؤمنُ للمُؤمن كالبُنيان يشُدُّ بعضُه بعضًا»(٢).

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

أيها المسلمون: في مثل هذا اليوم العظيم يتذكَّرُ المُسلِمون تلك الحجَّة العظيمة حجَّة النبي ﷺ المُسمَّاة بـ(حجَّة الوداع)، والتي قرَّر فيها النبي ﷺ أصولَ الإسلام العُظمى، وقواعدَ الدين الكُبرى، وعلّم مناسك الحج للناس.

ألا وإن مما عهِدَ به لهذه الأمة إلى يوم الدين: وصيةٌ عظيمةٌ تكفَلُ السعادةَ والحياةَ الطيبةَ، والعيشةَ الرضِيَّةَ في الدنيا وفي الآخرة، تكفَلُ لهذه الأمة العِزَّةَ والكرامةَ والرِّفعةَ والسُّؤدَدَ.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).

ألا وهي وصيةُ النبي ﷺ في خُطبة الوداع بقوله: «تركتُ فيكم أمرينِ؛ لن تَضلُّوا ما إن تمسَّكتُم بهما: كتابَ الله وسُنَّتي، ولن يتفرَّقا حتَّى يرِدا عليَّ الحوضَ»[1]، وبدون ذلك فستعيشُ الأمةُ في حياة الذلِّ والهوان، وسيتخطَّفُها الأعداءُ من كل جانبٍ، ولن تصِلَ إلى سعادةٍ، ولا إلى رخاءٍ، ولا إلى رغَد عيشٍ؛ إلا بعودتها إلى كتاب ربها وسنة نبيها.

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تكفَّلَ الله لمن قرأ هذا القرآنَ وعمِلَ به أن لا يضِلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ قول الله جل وعلا: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]».

بارك الله لنا في القرآن، ونفعنا بما فيه من الهدي والبيان، أقولُ هذا القولَ، وأستغفرُ الله لي ولكم ولسائرِ المسلمين من كل ذنبٍ، فاستغفِروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) حسّنه الألباني في منزلة السنة (١٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله.. الحمد لله الصادق في قيله الهادي إلى سبيله، أحمده سبحانه وأشكره على وافر إنعامه وجزيله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من عرف الحق بدليله، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله.. خيارٌ من خيار.. أكرم بشفيعنا وإمامنا حبيب الرحمن وخليله.. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.. صحبوا المصطفى في وحيه وتنزيله، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليمًا كثيرًا..

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: ما هي أيام التشريق؟ هي الثلاثة الأيام بعد يوم عيد الأضحى المبارك، وهي المُرادةُ بقول الله جل وعلا: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣]، وهي التي أمَرَ النبي ﷺ أن تُظهَر فيها شعائرُ الله من الذِّكرِ والشكرِ لله جل وعلا؛ يقول ﷺ فيما رواه مسلم: «أيامُ التشريق أيامُ أكلٍ وشُربٍ وذِكرٍ لله جل وعلا»[١].

وفي المسند: «لا تصُوموا هذه الأيام؛ فإنها أيامُ أكلٍ وشُربٍ وذِكرٍ لله جل وعلا»[٢].

وإن مما يُشرعُ فيها: الذِّكرُ المُطلقُ في سائر الأوقات، وكما يُشرعُ فيها أيضًا: الذِّكرُ المُقيَّد، التكبيرُ المُقيَّد بأدبار الصلوات المفروضات، وتستمرُّ هذه الشعيرةُ إلى صلاةِ العصرِ من آخر يومٍ من أيام التشريق.

فالهَجُوا بذِكر الله والحمد له والتعظيم له -عزَّ شأنه-.

وإن من أعظم ما يتقرب به من الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأيام الأضاحي، فهي سنة الخليلين إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وما عمل ابن آدم يوم النحر من عملٍ أحب إلى الله من إراقة دم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا.

---

(١) صحيح الجامع (٢٦٨٩).

(٢) صحيح الجامع (٧٣٥٥).



ولتعلموا -وفقني الله وإياكم لصالح العمل- أن وقت الذبح يبدأ من بعد صلاة العيد إلى غروب الشمس في آخر أيام التشريق، ولا يجزئ في الأضاحي المريضة البيِّن مرضها، ولا العوراء البين عورها، ولا العرجاء التي لا تطيق المشي مع الصحيحة، ولا الهزيلة التي لا مخ فيها، ولا الهتماء التي ذهبت ثناياها من أصلها، ولا العضباء التي ذهب قرنها أو قطعت أذنها، ولا الجدباء التي نشف ضرعها ويبس من الكبر.

ولا يجزئ من الإبل إلا ما تم لَه خمس سنين، ومن البقر ما تم له سنتان، ومن المعز ما تم له سنة، ومن الضأن ما تم له ستة أشهر، وتجزئ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، والشاة تجزئ عن الرجل وأهل بيته، ولا يبيع منها شيئًا، ولا يعطي الجزار أجرته منها.

فاتقوا الله عباد الله! وأنفقوا من مال الله الذي آتاكم، وأكثروا من ذكر الله، وصلوا الأرحام، وبروا بوالديكم، وأكرموا اليتامى والمساكين، وتصافحوا وتناصحوا وتسامحوا، وأزيلوا الغل والشحناء من قلوبكم، وتزاوروا وتهادوا، واحذروا الكبر والغيبة والنميمة، وكونوا عباد الله إخوانًا.

ثم صلوا وسلموا على المبعوث رحمةً للعالمين؛ فقد أمركم بذلك ربكم، فقالعز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



نهاية العام(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد القهار، جعل في تعاقب الليل والنهار عبرةً لأولي الأبصار، وأشهد أن لا إله إلا الله العزيز الغفار، حكم بفناء هذه الدار، وأمر بالتزود لدار القرار، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأطهار، وصحبة الأبرار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أمّا بعد:

فيا أيّها المسلمون: اتّقوا الله واشكرُوه على ما أولاكم من الإنعام وطوّل، وقصّروا الأمَل، واستعدّوا لبغتةِ الأجل، فما أطال عبدٌ الأمَلَ إلا أساءَ العمل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:18].

أيها الأحبة: بوابةٌ عجبًا لها ما أعظمها! ما أوسعها! ما أكبرها! اتسعت لملايين البشر على مر التاريخ، كلٌّ يدخل منها ويمضي، دخل منها آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والأنبياء كلهم -عليهم الصلاة والسلام-، دخل منها الأغنياء والفقراء، والكُبراء والحقراء، والرجال والنساء، اتسعت لملايين الأحداث، أممٌ تُباد ودولٌ تُشاد، حروبٌ طاحنة ونوازل ساخنة، عجبًا لها من بوابة، لم تضِقْ يومًا بالموتى ولا بالمواليد، ولا بالأفراح ولا بالأتراح، عجبًا لها من بوابة قد أشرعت أبوابها يوم أن حطَّ آدم قدمه على الأرض، وستغلق -بإذن ربها- يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويأذن الله بخراب الدنيا وزوال العالم.

نعم -يا رعاكم الله-، إنها بوابة الحياة الدنيا الفانية تلج من بوابتها السنون تلو السنين، وها هو العام الثلاثون بعد الأربعمائة والألف للهجرة قد أزف رحيله، وقرب تحويله، ها هو

---

(1) صالح بن عبدالمحسن العويد.

يطوي بساطه، ويقوِّض خيامه، ويشدُّ رحاله، يا لله! العام الثلاثون قطعناه مـن أعمارنـا، أيـن ليله؟! أين نهاره؟! أين يومه؟! أين شهره؟! أين صيفه؟! أين شتاؤه؟! أيـن أفراحـه؟! أيـن أحزانه؟! أين أنفاسه؟! أين لحظاته؟! إي وربي، إنها دوامة الحيـاة الـدنيا لا تقـف لأحـد، لا تنتظر أحدًا، لا تحابي أحدًا.

الإنسان منذ أن نزل من بطن أمه وهو يغذ السير في طريقه المقدر، ومرور الأيام والأعوام يدنيه شيئًا فشيئًا من نهاية الطريق، فهو اليوم أقرب منه أمس، وهو غدًا أقرب منه اليوم، وكما أن لعامنا هذا يومًا أخيرًا، فلكل حيّ من المخلوقين يـوم أخـير، فكـم مـن مسـتقبِل يومًـا لا يسـتكمله!! وكـم مـن مؤَمِّـلٍ لغـدٍ لا يدركـه!! والموفـق السـعيد لا يـركن إلى الخُـدَع، ولا يغترُّ بالطمع.

عباد الله: إن لكل شيء بداية ونهاية، ونهاية عامنا قد أوشكت عـلى الاقـتراب، فقـد آذن عامنا بالرحيل وولى الأعقاب، اثنا عشر شهرًا، عام كامل تصرمت أيامه وتفرقـت أوصـاله، وها هو يلفظ أنفاسه الأخيرة، يودعنا إلى الآخرة، وقد حوى بين جنبيه وفي خزائنه ما حوى، من الحِكم والعبر، والأحداث والغير، وأعمال الخير والشر، فلا إله إلا الله، كم شقي فيـه مـن أناس، وكم سعد فيه من آخرين!! كم من طفل قد تيتم، وكم من امرأة قد ترملت، وكـم مـن متأهل قد تأيم!! كم من مريض قوم قد تعافى، وسليم قوم في التراب توارى!! كم مـن أهـل بيت يشيعون ميتهم، وآخرون يزفون عروسهم!! دار تفرح بمولود، وأخرى تعزى بمفقود!! كم من دموع فرحٍ في العيون ترقرقت، وعـبرات حـزن عـلى الخـدود تحـدرت، آلام تنقلـب أفراحًـا، وأفـراح تنقلـب أتراحًـا، أيـام تمـر عـلى أصـحابها كـالأعوام، وأعـوام تمـر عـلى أصحابها كالأيام.

إنـــا لنفـــرح بالأيـــام نقطعهـــا	وكـل يـوم مضـى يـدني مـن الأجـل
فاعمـل لنفسـك قبـل المـوت مجتهـدًا	فـإنما الـربح والخسـران في العمـل

فالعاقل من اتعظ بأمسه، واجتهد لرمسه، والليالي والأيام خزائن الأعمال ومراحل الآجال، تبلي الجديد وتقرّب البعيد، أيام تمر فإذا هي أعوام، وأقوام تمضي في إثر أقوام، هذا مقبل وهذا مدبر، وهذا محسن، وهذا مسيء، والكل إلى الله يسير، فإليه المنتهى والمصير.

عباد الله: هذا العامُ مِن أعمارِكم قد تصرَّمَت أيّامه، وقُوِّضَت خِيامه، وغابت شمسه، واضمحلَّ هلاله، إيذانًا بأن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وأن ما بعدَها دارٌ إلى الجنّة أو النار، فاحذروا الدنيا ومكائِدَها، فكم غرَّت من راكن إليها، وصرعت من مُكِبٍّ عليها، فعن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخَذَ رسول الله بمَنكبي فقال: «كُن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتِك لموتك»[1].

ذهب عامُكم شاهدًا لكم أو عليكم، فاحملوا زادًا كافيًا، وأعِدّوا جوابًا شافيًا، واستكثِروا في أعمارِكم من الحسنات، وتدارَكوا ما مضَى من الهفَوات، وبادروا فرصةَ الأوقات، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبيَّ وهو يَعِظ رجلًا ويقول له: «اغتنم خمسًا قبلَ خمسٍ: شبابَك قبل هرَمِك، وصحَّتَك قبل سقمَك، وغِناكَ قبل فقرك، وفراغك قبلَ شغلك، وحياتك قبل مَوتِك»[2].

فيا من قد بَقِي من عمُره القليل، ولا يدرِي متى يقَع الرّحيل، يا مَن تُعدّ عليه أنفاسه: استدرِكها، ويا من ستفوت أيامه: أدرِكها، نفسك أعزُّ ما عليك فلا تهلِكها، فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «كلُّ النّاس يغدو، فبائعٌ نفسَه فمُعتِقُها أو موبقها»[3].

ويا من أقعده الحِرمانُ، وأركسه العِصيان: كم ضيّعتَ من أعوام، وقضيتَها في اللّهوِ والمنام، كم أغلقتَ بابًا على قبيح!! كم صَلاةٍ تركتَها، ونظرةٍ أصبتها، وحقوقٍ أضعتها، ومناهٍ أتيتَها، وشرورٍ نشَرتها!! راجع نفسك فلعله لم يبق من عمرك إلا ساعات أو أيام، فاستدرك

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) صحيح الترغيب (٣٣٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٢٣).

عمرًا قد أضعتَ أوّله، ألا تنظر فقد وهن العظم وابيض الشعر ورحل الأقران ولم يبق إلا الرحيل؟! عجيب حال هذا الغافل: يوقن بالموت ثم ينساه! ويتحقق من الضرر ثم يغشاه! يخشى الناس والله أحق أن يخشاه! يغتر بالصحة وينسى السقم! ويفرح بالعافية ولا يتذكر الألم! يزهو بالشباب ويغفل عن الهرم! يحرص على العاجل ولا يفكر في خسران الآجل! يطول عمره ويزداد ذنبه! يبيضُ شعره ويسودّ قلبه! قلوب مريضة عز شفاؤها، وعيون تكحَّلت بالحرام فقل بكاؤها، وجوارح غرقت في الشهوات فحقّ عزاؤها.

سبحان الله! ألم يأن لأهل الغفلة أن يدركوا حقيقة هذه الدار؟! فهل رحِم الموت منّا مريضًا لضعف حاله وأوصاله؟! هل تركَ كَاسِبًا لأجلِ أطفالِه؟! هل أمهَلَ ذا عِيال من أجلِ عِياله؟! أين من كانوا معَنا في الأعوام الماضية؟! أتاهم هادِم اللذات وقاطع الشهوات ومفرّق الجماعات، فأخلى منهم المجالِسَ والمساجد، تراهُم في بطون الألحاد صرعَى، لا يجِدون لما هم فيه دَفعًا، ولا يملِكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا.

فيا قوم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩].

فيا من تمرّ عليه سنَةٌ بعد سنة وهو في نوم الغفلة والسِنة، قل لي بربِّك: لأي يوم أخَّرتَ توبتك؟! ولأيِّ عام ادَّخرت أوبتك؟! إلى عام قابِل وحول حائل؟! فما إليك مدَّةُ الأعمارِ ولا معرفةُ المقدار، فبادِر التوبةَ واحذر التسويف، وأصلح من قلبك ما فسَد، وكن من أجَلِكَ على رصَد، فقد أزف الرحيل، وقرب التحويل، والعمر أمانَة، سيُسأل عنه المرء يومَ القيامة، فعن عبدِ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله قال: «لا تزول قدما ابنِ آدم يوم القيامة من عند ربِّه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟! وعن شبابِه فيم أبلاه؟! وعن مالِه من أين اكتسبه؟! وفيمَ أنفقه؟! وماذا عمِل فيما علِم؟!»(١).

ويقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما ندمتُ على شيء ندَمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي».

---

(١) الترمذي (٢٤١٦).



عباد الله: دعونا نتأمل في عامنا الماضي، دعونا نتساءل: كيف أمضيناه؟! وعن وقتنا: كيف قضيناه؟! ثم لننظر في كتاب أعمالنا وكيف طويناه، ونتبين ما قدمناه، فإن كان خيرًا حمدنا الله وشكرناه، وإن كان شرًّا تبنا إلى الله واستغفرناه، كفى تجرُّؤًا على حدود الله، كفى اقترافًا لمعاصي الله، كفى قسوة للقلوب وتفريطًا في جنب علام الغيوب، يا تاركًا للصلاة ومتهاونًا بها: كفاك تركًا لما يصلك بالله، أتى عليك المحرم ومن بعده صفر، وشهر إثر شهر، وأنت تنام عن الفجر والعصر، لم تعرف روضة المسجد لك مكانًا، فأنت دائمًا في صلاتك تقضي، وبسرعة منها تمضي، ما لحاليك لا يتغير؟! زدت في دنياك وتقدمت، ونقصت في آخرتك وتأخرت.

يا مطلقًا لسانه بالحرام: إلى متى وأنت تطلق لسانك يفري في أعراض الناس، ينهش لحومهم، غيبة ونميمة كذبًا وافتراءً؟!

يا رعاة البيوت، يا أمناء البيوت: جلبتم آلات اللهو في بيوتكم، ونشأتم عليها صغاركم ونساءكم، وجعلتم الأطباق الفضائية تاج عز فوق رؤوسكم، وعمن لا يصلي من أبنائكم ويفجر ويعصي غضضتم طرفكم، ألا تتقون مولاكم الذي ولاكم!!

يا من منَّ الله عليكم بالإسلام ومنَّ عليكم بالعلم: مضى عام كامل وأمتكم كثيرٌ من أبنائها يغرق في أوحال الشهوات والشبهات، ماذا قدمتم لدينكم؟! ثلاثمائة وستون يومًا كم كلمة فيها ألقيتَ؟! كم شريطًا وزّعتَ؟! وكم كتيبًا نشرتَ؟! وكم عاصيًا نصحت؟! كم اهتدى على يديك؟! ماذا قدمت لدينك؟! ماذا قدمت لأمتك؟!

عباد الله: وإننا -ونحن نودع هذا العام- لا ننسى ما يحل بإخواننا المسلمين في أكثر من بلاد، سل نفسك: كم مرة فكَّرت في حال المسلمين فاغتممت ففاضت عيناك؟! وكم مرة احترق قلبك وأنت ترى ما حل بالمسلمين؟! وكم مرة رفعت يديك في ضراعة وخشوع تدعو لإخوانك المساكين المستضعفين؟!

أخي الحبيب المبارك: كم حصلت من أحداث وكم مرت بنا من عبر فلا من مدكر ولا من معتبر!! فمن أعظم الغفلة أن يعلم الإنسان أنه يسير في هذه الحياة إلى أجله، ينقص عمره، وتدنو نهايته، وهو مع ذلك لاهٍ غافلٍ لا يحسب ليوم الحساب، ولا يتجهز ليوم المعاد، يؤمّل



الآمال، ويبني في الخيال، كم رأينا في هذه الحياة من بنى، وسكن غيره، وجمع من أجل وارثه، وتعب واستراح من بعده، فيا عبدَ الله: استدرِك من العمر ذاهبًا، ودع اللهـو جانبًـا، وقـم في الدُّجى نادِبًا، وقف على الباب تائبًا، فعن أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قـال رسـولُ الله: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوبَ مسيء النهار، ويبسُط يدَه بالنهار ليتوبَ مسيء الليـل، حتى تطلعَ الشـمس مـن مغربهـا»[1]. آنَ والله أن ترجـع الـنفس وتتـوب، وتتجـه لخالقهـا وتؤوب: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة، ونفعني وإياكم بما فيهما من الآيات والحكمة، أقـول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئـة فاسـتغفروه، إنـه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه مسلم (٢٧٥٩).



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا هو تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، و﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى:٤٧]. فحياة الإنسان مراحل، والناس في هذه الدنيا ما بين مستعدٍّ للرحيل وراحل، وكلّ نفسٍ يدني من الأجل، ودقّات قلب المرء تباعد عن الأمل، فالكيِّس الحازم من حاسب نفسه يومًا بيوم، وساعةً بساعة، فما ترون الناس إلاّ حيًّا أدركته منيّته، فواراه التراب، وصغير بل سنَّ الشباب، وشابّ امتدّت به الحياة حتى شاب، ومن وراء الجميع نقاش وحساب، فهنيئا لمن أحسن واستقام، والويل لمن أساء وارتكب الآثام، ويتوب الله على مَن تاب، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

أيّها المسلِمون: يحسُنُ التذكيرُ وتجدُر المحاسبَة حينَما تكون المناسبةُ، وها أنتم في مفتَتَح عامٍ، وقد ودّعتم عامًا قبلَه، وعامُكم المنصرِم جرَت فيه أحداثٌ وتجلّت فيه آيات، ولكنَّ الغفلةَ والركون إلى الأسباب والتعلّقَ بها تغلّظ من قساوةِ القلوب.

أيها الأحبة.. لينظر كلٌّ منا في نفسه، كم بلغ من العمر؟ هل كانت تلك السنون إلا كلمح البصر؟ كأننا لم نعش لحظة منذ ولدتنا أمهاتنا إلى اليوم، وكذلك ستنقضي بقية أعمارنا، طالت أم قصرت.

أيها الناس: لنتذكر بانقضاء العام انقضاء العمر، وبسرعة مرور الأيام قرب الموت، وبتغير الأحوال زوال الدنيا وحلول الآخرة، فالأيام تُطوى، والأعمار تَفنى، والأبدان تَبلى، والسعيد من طال عمره وحسن عمله، والشقي من طال عمره وساء عمله كما صح بذلك الخبر، والأعمال بالخواتيم، فمن أصلح فيما بقي غُفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أُخذ بما مضى وما بقي، الموتى يتحسّرون على فوات الحسنات الباقية، والأحياء يتحسرون على فوات أطماع

الدنيا الفانية، ما مضى من الدنيا وإن طالت أوقاته فقد ذهبت لذاته وبقيت تبِعاته، وكأن لم يكن إذا جاء الموت وميقاته.

عباد الله: ومما يجب التنبيه عليه أنه لا يجوز تخصيص آخر العام بشيء من العبادات، ولم يفعل النبي ﷺ ذلك ولا أحد من أصحابه، فمن جاء بعبادة يخصص لها وقتًا معينًا يحسب أن في ذلك فضيلة فعمله مردود عليه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1].

والمسلم عبدٌ لله في كل وقت وحين، فحياته كلها عبودية لله تعالى، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

فاتقوا الله -عباد الله-، وتمسكوا بكتاب ربكم وسنة نبيكم، واعلموا -رحمكم الله- أن من أفضل الطاعات وأشرف القربات كثرة صلاتكم وسلامكم على خير البريَّات، فقد أمركم بذلك ربكم في آيات بينات، فقال تعالى قولًا كريمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).



أولادنا والامتحانات[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، أعطى فأجزل، ومنَّ فأفضل، أحمده سبحانه وأشكره، أتم علينا النعمة ورضي لنا الدين وأكمل، وأتوب إليه وأستغفره من التقصير فيما أقول وأعمل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو الظاهر والباطن، والآخر والأول، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، والخلق الأفضل والأكمل، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما ليل أدبر وصبح أقبل، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، فبالتقوى كل حبلٍ يقوى.

معاشر المسلمين: في هذه الأيامِ نعيشُ حالةَ اهتمامٍ واسْتِنْفارٍ، تَضافرتْ فيها الجهود، واسْتُفْرِغَتْ الطَّاقات، صُدِّرتْ التعليمات، وكَثُرتْ التَّوجِيهات، وتعدَّدَت الإرشادات. قُدِّمت للمُجِدِّين الحوافزُ والتَّشْجعيات، ولوِّحت للمتهاونينَ الملامةُ والتوبيخات. إنها أيامُ الامتحانات، نعيشُها بما فيها من حلوٍ ومُرٍ، وفَرحةٍ وحُزْنٍ، مَشاعرُ مُختلفةٌ، ومواقفُ متباينةٌ، وكلٌّ يَجني ما زَرَع، ويَحصدُ ما بَذَر.

بَقْدرِ الكَدِّ تُعْطَى ما تَرُوم ... ومَنْ طَلَبَ العُلا ليلًا يقوم

نعم، أيامُ الامتحاناتِ أيامٌ قلائِل، لكنَّها مع قلَّتها معبَّأةٌ بكثيرٍ من التَّغيُّرات، مِنَ المُمكنِ أنْ نستثمرَها تربويًّا في توجيه أبنائِنا وشبابِنا، وتصحيحِ مسارِهم، وتقويمِ رؤيتِهم، فمِنْ أهمِ وأنفعِ التَّربيةِ: التَّربيةُ بالحَدَثِ.

---

(١) إبراهيم بن صالح العجلان.

فيا كلَّ والدٍ وأبٍ، يا كلَّ مُرْشِدٍ ومُرَبٍ، أَرْعِ لنا السَّمْعَ، واستجْمِع معنا القلبَ إلى حديث الأخْطاء - وكلّنا ذلك الخطَّاء - إلى (لاءات) سبع، نتعرَّفُها ونتَّقِيها، فمعرفةُ الخطأِ سبيلٌ للوصولِ إلى الصواب.

اللاءُ الأُولى: لا للكَسَلِ: نَرى في أيامِ الامتحاناتِ اشْتَعالَ العَزَائِمِ، وتَوَقُّدَ الهِمَمَ، يَطيرُ النَّومُ عنِ الأَجْفَانِ، ويَحُلُّ التَّحفزُ والاهتِمامُ، نفوسٌ كبيرةٌ، وهِمَمٌ عاليةٌ، تَنْشُدُ الذُّرى المَجيدة، والمعاليَ الرَّفيعة.

في مثلِ هذه الأيامِ يُقْتَلُ التَّسويفُ بسكينِ الجِّد، تُبْعدُ المُلْهِيات، وتُهْجَرُ الصَّوارفُ والمُشْغِلات، حتى لا تكادُ تَرى لها ذِكْرًا في قاموسِ الطُّلاب والطالبات.

الامتحاناتُ نَقْلةٌ نَوعيةٌ في حياةِ النَّاس، وبرنامِجِهم اليومي، ترى تنظيمَ الوقتِ واستغلالَه واقعًا ملموسًا لدى كثيرٍ من الشباب، وقد قيل: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

فحريٌّ بنا أنْ نربيَ ونتربى على هذه الجِّدية، وتلك المثابرةِ، وأنْ نَجْعلَها جزءًا من شخصيتِنا في هذه الحياة، إذ أنَّ عالمَ اليومِ، لا مكانَ فيه للكُسالى، وإنَّما هو لأولئِك الرِّجال، الذين يَسْري الجِّدُّ في أعماقِهم وأرواحِهم، من أجلِ تحقيقِ أهدافِهم.

وإذا كان الجدُّ عُنْوانَ شَخصيةِ المرءِ، ارتقى صاحبُه في سُلَّمِ الرِّيادة، وتبوَّأَ موقِعَه في المجتمعِ، وسَطر اسمَه في سجلِ أبناءِ المستقبل. وكتابُ ربنا يُوضِّح لنا الأخذَ بمبدأِ الجدِّ والمثابرةِ أتمَّ الإيضاحِ، قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢].

اللاءُ الثانية: لا للتفريطِ في جنب الله: في مثلِ هذه الأيامِ نَرى الإقبالَ على الخيرِ، تُعْمَرُ المساجدُ بالمصلين، وتَكْثُرَ الدعواتُ والابتهالاتُ، مع الإقلاعِ عن المعاصي، وتركِ المنكرات، وهذه أمورٌ تُثْلِجُ الصدور، وتدلُّ على أنَّ في النُّفوسِ الغافلةِ بقايا من الخيرية.

فما أجملَ أنْ نجعلَ أيَّام الامتحاناتِ موسمًا للطاعة، والمصافاةِ مع الله عَزَّوَجَلَّ، وما أجمل أن تكون النية صادقة على الاستمرار والمداومة في طاعة الله تعالى، لا كما قال القائل:

صلى وصام لأمرٍ كان يقصدهُ ... لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

ولنُذَكِّرَ أولئك العائدينَ والمتغيِّرين، بأنَّهم قد أصابوا الطريق، وساروا في المسارِ الصحيح، ليسمعوا منا عباراتِ الثناء، وكلماتِ التشجيع. لنُذَكِّرَهم بِسَعَةِ رحمة الله، وتوفيقِه لمن طلبَه ورجاه، وأنَّ الطاعة سهلةٌ ميسورة، وأنَّ كلَّ خيرٍ وصلاحٍ وتوفيقٍ في هذه الدنيا، مُرْتَهنٌ بطاعةِ الله، وأنَّ طاعةَ الله تعالى فوزٌ للعبدِ في دنياه قبل أُخراه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١].

اللاء الثالثة: لا تكُنِ الدنيا هي الغايةُ والمَقْصِد. يا أيها الأبُ الرحيمُ الحنون، الذي أَجْهَدَ نفسَه، وأَذْهبَ راحتَه من أجل نجاح ابنه.

أيها الأبِ المبارك: حَسَنٌ منك اهتمامُك بابنِك، وبَصيرتُك بمستقبلِه، إذ أنَّ الامتحاناتِ فيها ثمرةُ العلمِ، ويقظةُ الوعيِّ، وخُلاصةُ التجربةِ.... ولكنْ هل سألتَ نفسَك أيها الأبُ المباركُ، هل عَمَلتَ مع ولدِك لامتحانِ الآخرةِ ما تَعملُه الآنَ معه في امتحانِ الدنيا؟

هل بَذلتَ الجُهْدَ المتواصلَ في تعليمِه وإفهامِه ما يُعينُه على اجتيازِ امتحانِ الآخرة؟

قِفْ مع نفسِك بصراحةٍ وصدقٍ، وكلُّ إنسانٍ خصيمُ نفسِه: هل أيقظتَ ابنَك لصلاةِ الفجر، بنفسِ الحِرصِ الذي تُوقظُه لإدراكِ الإمتحان؟ هل تعتني بتوجيهِه وإرشادِه إذا أخطأَ في أمرٍ شرعي، كما تعتني بتصحيحِ أخطائِه في مذاكرتِه؟ هل ترغّبه في الأدب الرفيع والخلق الحسن والعمل الصالح، وما يقربه إلى الله، كما ترغبه في أمور دنياه؟

تذكر -يا رعاك الله- أنَّ أعظمَ مسئوليةٍ تَحَمَّلْتَها، وسَتَبْقَى تَبِعاتُها لك، أو عليك: هي ذريتُك وفلذاتُ كبدِك، ماذا قدَّمت لهم من النُّصحِ والتَّوجيه، والتربيةِ والتأديب ما يقوِّمُ أخلاقَهم، ويُهذِّبُ سلوكَهم، ويَغْرسُ في قلوبِهم شجرةَ الإيمان، ومحبةَ الله ورسوله.

وينشأُ ناشئُ الفِتيانِ منَّا ... على ما كان عوَّدَه أبُوهُ
وما دَانَ الفَتَى بِحِجَىً ولكنْ ... يُعوِّدُهُ التديُّنَ أقربُوهُ

اللاء الرابعة: لا تَنسَ امتحانَ الآخرة: كم نحنُ بحاجةٍ ونحنُ نرى رهبةَ الامتحاناتِ في نفوسِ الأبناءِ والشباب، أنْ نستغل هذه الوقفة التربوية فنربُطَهم بامتحانِ عصيبٍ في يومٍ عظيم، سل نفسَك كم من المواعظ سمعها منك ابنك عن امتحان الآخرة؟ ذلك الامتحان

الذي تجثو من هولِه الركبُ، وتشيبُ له مفارقُ الصبيان، امتحانٌ فَصْل، وما هو بالهزل، لا يستوي فيه من آمن وعملَ صالحًا، ثم اهتدى، ممن أغفل قلبَه عن ذكرِ ربه واتَّبع هواه وكان أمره فرطًا.

امتحانٌ سيقف فيه جميعُ المخلوقين، صالحُهم وطالحُهم، إنسُهم وجنُّهم، بل وحتى صفوتهم من الأنبياء والمرسلين ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٦]، امتحان.. ليس في فصلٍ دراسيٍّ أو منهجٍ محدد، بل لجميعِ سنواتِ العمر، وأيامِ الحياة ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٩٢].

سؤالٌ عن كلِّ كبيرٍ وصغير، وعظيمٍ وحقير، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥٣].

امتحانٌ للجوارحِ والضمائر ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩-١٠].

اختبارٌ يمتحن فيه الصادقون ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٨].

وتُسأل الأممُ ماذا أجبتم المرسلين ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥].

امتحانٌ لا ظلمَ فيه ولا تَظلُّمَ، ولا اعتراض ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

امتحانٌ لا إعادةَ فيه ولا إكمال، ونتيجتُه لا تستدركُ ولا رجوعَ فيها ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد:٤١].

هذا الامتحان، ليس في مكانٍ وفير، ومقاعدَ مريحة، بل هو وقوف بين يدي ملك الملوك، وعلامِ الغيوب ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤] ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

يقول النبيُّ ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة».(١)

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦).

هذا الامتحان أسئلتُه مكشوفة معلومة، قد بينها لنا النبي ﷺ:

ستُسأل يا عبد الله... عن عُمُرِك ماذا أفنيته فيه؟ وعن شبابِك فيما أبليته؟

وعن مالِك كيف كسبته؟ ثم في أي شيء أنفقته؟ وستسأل عن تعلمك وعلمك ماذا عملت به؟

وستسأل يا عبد الله أولَّ ما تسأل... عن صلاتك؟ مدى حفاظك عليها وإقامتك لها، فان صلحت صلاتك، فقد أفلحت ونجحت، وان فسدت خسرت وخبت.

وستسأل أيضًا... عن أقرب الناس لك من زوجة وأولاد «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله سائلٌ كل راعٍ عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيّع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[(٢)].

وستسأل أيضًا... عن كل نعمة أسديت لك، أفي الحلال استعملتها، أم في الحرام سخرتها ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨].

إنها والله أسئلة عظيمة، ومواقف منتظرة مهولة، بكت من أجلها دموع الخاشعين وفرقت لهولها قلوب الصالحين.

ولو أنا إذا مُتْنا تُركْنا ... لكان الموتُ راحةَ كلِّ حيٍّ

ولكنَّا إذا مُتْنا بُعِثْنا ... ونُسألُ بعدها عن كلِّ شيءٍ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر:١٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بهدي سيد المرسلين، أقول ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه، انه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) صحيح ابن حبان (٤٤٩٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عبده المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن اجتبى.

أما بعد فيا عباد الله: إن من علامات التوفيق أن يتأمل الإنسان صحة الطريق، سواء في نفسه أو من هم تحت يده، فالموفق من عمل على تربية نفسه، وتربية من يرعاهم التربية الصحيحة المستقيمة.

اللاء الخامسة: لا للنظرةِ المُفرِطة في الامتحانات:

بعض الآباء لا يسأل عن دراسة ابنه وتحصيله إلا إذا أظلت الامتحانات، وبعض المعلمين دائما ما يلوِّح لتلاميذه شبحَ الامتحانات، بين تارة وأخرى، ومناسبة وغير مناسبة، حتى أضحى مقياس العلم والتعليم لدى كثير من الناس مختَصرًا في ذلك الاختبار، ونُسيت الغايات النبيلة، التي قامت عليها الرسالة التعليمية، من إصلاحِ الجيل، وتربيةِ النشء، وبناءِ العقول، وترسيخ المعلومات طوال العام، وتوثيقِ عرى الدين، ومكارمِ الأخلاق، ومحاسن الآداب.

فالواجبُ التوسطُ والاعتدالُ في نظرتِنا للامتحانات، نعم نوصي الأبناءَ والتلاميذَ بالجدِّ والاجتهادِ فيها، ولكن لا تطغى قضية الامتحانات على جوانب الإصلاح والتربية.

اللاء السادسة: لا تكن الامتحانات هي المقياس.

بعض الآباء، يجعل نجاح الولد أو إخفاقه في الامتحان، علامة على نجاح الولد في حياته، أو فشله. فإذا نجح الولد كالَ له أبوه ألوانَ الثناء وأنواع المديح، التي ربما لا يجد الابن شطرها عندما يقوم بأداء واجبات دينية، وحقوق شرعية، وعلى النقيض من ذلك، لو أخفق الولد في امتحاناته، عاتبه والده وأنَّبه، ووبَّخه وبكَّته، ولا يجد الولد معشار ذلك التأنيب، حينما يقصر في أداء واجبات شرعية، أو يرتكب بعض المحرمات، ولا شك أن هذا خلل في التربية، وتقصير في ترتيب الأولويات، وإعطاء كلِّ ذي حق حقه، والاتزان مطلوب، وكِلا طرفي قصد الأمور ذميمُ.

البلاء السابعة: **أيها الأب والمعلم! لا تغفل عن متابعة الأولاد والطلاب أيام الاختبارات.**

وبالأخص في ساعات الصباح بعد الخروج من قاعات الامتحانات، فأحيانًا تتلقاهم أيادي الخبث، وقرناء السوء إلى مهاوي الردى. وقلِّبْ نَظَرَكَ في المقاهي، أو محلات الإنترنت، أو في المتَسكِّعين في الشوارع لترى حجم أولئك الشباب، الذي ما عَرفَ بعضُهم هذه الأماكن إلا في أيام الامتحانات، فكانت تلك الأيام شرارةَ الانحراف في حياة بعض الشباب، وتغيُّرِ كثيرٍ من أخلاقياتهم، والسبب: غفلة الآباء والمربين عن أبنائهم.

عوّد بنيك على الآداب في الصغر كيما تقرّ بهم عيناك في الكبرِ

فإنما مثل الآداب تجمعها في عنفوان الصبا كالنقش في الحجرِ

فاتقوا الله -أيها المسلمون- في أمانة الأبناء، واحرصوا على متابعتهم وتربيتهم وحفظهم، وصلاحهم وإصلاحهم، فهم قرة عين لكم في الحياة، وذخر لكم بعد الوفاة..

هذا وصلوا وسلموا رحمكم الله على خير البرية وأزكى البشرية.



الإجازة الصيفية وفلذات الأكباد[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها المسلمون: لقد اهتم الإسلام بتربية الأولاد اهتمامًا عظيمًا؛ لأنهم اللبنة الأولى للمجتمع، بهم يقوى شأنه، ويعلو أمره، ويظهر صيته، وعلى أكتافهم تقوم الأمم، وتعلو الهمم، وهم الساعد الأيمن لأمتهم.

وأي أمة خلت من هذه اللبنات ضعفت أركانها، وخارت قواعدها، وأصبحت فريسة لأعدائها. والأمة المسلمة تحتاج إلى مزيد من الرجال ليحملوا رسالتها، ويبلغوا دعوتها، ويدافعوا عن وجودها. ولن تتحقق لها ذلك إلا إذا تربى أبناؤها تربية صالحة، قائمة على ما شرعه الله ورسوله.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

ولهذا اهتم الإسلام بتربية الأبناء، وحث على العناية بهم وإحسان تربيتهم، وأوجب على الآباء والأمهات القيام بحق الله فيهم.

أيها المسلمون: إن من أعظم نعم الله على الإنسان في هذه الحياة نعمة الأولاد، فهم منحة إلهية، وهبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده ولو كان فقيرًا، ويمنعها عمن يشاء من خلقه ولو كان غنيًا، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

عباد الله: إن فلذات الأكباد هم زينة الحياة الدنيا، وهم زهرتها، يخففون عن آبائهم متاعب الحياة وهمومها، وجودهم في البيت كالأزهار في الحدائق، يضفون عليه البهجة والسرور تسرُّ الفؤاد مشاهدتهم، وتقرُّ العين رؤيتهم، وتبتهج النفس بمحادثتهم، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦]. وهم بسمة الأمل، وأريج النفس، وريحان القلب، وهم الأكباد التي تمشي على الأرض.

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا ... تمشي على الأرضِ

لو هبّت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمضِ

أيها المسلمون: إن الأولاد أمانة عند الوالدين، كلَّفهما الله بحفظها ورعايتها، وأوصاهما بتربيتهم تربية صالحة في دينهم ودنياهم، وهم أولى الناس بالبر وأحقهم بالمعروف. والأبوان مسئولان بين يدي الله عن تربية أبنائهم، قالﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في بيته، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسئولة عن رعيتها...»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله سائلٌ كل راعٍ عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيّع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) صحيح ابن حبان (٤٤٩٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أدِّب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته وماذا علَّمته؟ وهو مسئول عن برِّك وطواعيته لك»[1]. فهل قام الآباء بالحق الذي أو جبه الله تجاه أبنائهم؟ وهل حفظ الآباء هذه الأمانة التي حمَّلهم الله إياها؟! وهل أدى الآباء المسئولية التي كلفهم الله بها؟! إنها أمانة عظيمة، ومسئولية كبيرة.

أيها المسلمون: إن أيامًا يقضي فيه فلذات الأكباد، وأمل الأمة، إجازة عن الدراسة لحري بالوالدين أن يتنبهوا ويستيقظوا للأمانة والمسئولية التي حملوها أمام أبنائهم، فيعملوا على تربيتهم، وتعليمهم، واستغلال أوقاتهم فيما ينفعهم، فالأيام التي يقضون فيها الإجازة تضيع في اللهو واللعب، فما ذا يجب عليك أيها الأب الكريم وأنتِ أيتها الأم الفاضلة أمام أبناؤكم في الإجازات والعطل؟ إنها أمور كثيرة، وواجبات عظيمة، فهناك وسائل كثيرة يمكن أن يستخدمها الآباء في تربية أولادهم منها:

القدوة الحسنة: إن القدوة من أفضل الوسائل في تربية الأولاد وأعظمها أثرًا، وذلك لأن الولد ينظر إلى والديه على أنهما مثلٌ أعلى له، فهو يحاكي فعلهما، ويقلد سلوكهما، فإذا رأى أبويه يحافظان على أوقاتهما، ويرتبان أعمالهما، بجدية وانتظام، فالابن حين يجد من أبويه القدوة الصالحة في كل شيء فإنه يتشرب مبادئ الخير، ويتربى على الفضيلة والأخلاق الطيبة، وحب القراءة والحفظ واستغلال الأوقات والفراغ، والعكس فإنه حين يجد من أبويه القدوة السيئة من تضييع للأوقات واللامبالاة فإنه ينهج طريق الضياع واللهو واللعب.

وينشأ ناشئ الفتيان فينا ... على ما كان عوَّده أبوهُ

وما دان الفتى بحجى ولكن ... يعوَّده التدين أقربوهُ

ولاشكَّ أنَّ للتربيةِ أثرٌ كبيرٌ في صلاحِ الأولاد؛ فالأولادُ يُولدون على الفطرةِ، ثُّم يأتي دورُ التربيةِ في المحافظةِ على هذهِ الفطرةِ أو حرفها فكلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه. فالولدُ الصغير أمانةٌ عند والديهِ إن عوداهُ الخيرَ اعتاده، وإن عوداهُ الشرَ اعتاده، والولدُ في صغرهِ أكثرُ استقبالًا واستفادةً من التربية.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٤٨٧٧).



قــد ينفــعُ الأدبُ الأولادَ في صــغرٍ ولــيس يــنفعُهم مــن بعــده أدبُ

إن الغصــونُ إذا عــدلتها اعتــدلت ولا يلــينُ ولــو لينتــهُ الخشــب

ألا فاتقوا الله أيها الآباء في أولادكم، وكونوا قدوة صالحة لهم، فهم بكم يتـأثرون، وعـلى طريقتكم يمشون، وعنكم يأخذون ويتركون، وبكم يقتدون وعلى ما أنتم يكونون.

إن تربية الأولاد مسئولية في أعناق الآباء والأمهات، إذ هي أمانة يسأل عنها يوم القيامـة هل رعاها وحفظها أم أهملها وضيعها، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله سـائل كـل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[1] فالأولاد فلذات الأكباد يجب الاعتناء بتربيتهم، فهم جيل الغد، وأمل المستقبل، بهم تعتز الأمة وبهم تذل.

أيها المسلمون: إن الإنسان العاقل لا يفرط أو يضيع شيئًا هو محبوب إليه فهو حريص كل الحرص على الحفاظ عليه والاستفادة منه، فإذا حصل على مال سعى جاهداً في الحفاظ عليه، وتنميته ورعايته، وغيره من الأمور التي يحبها الإنسان، فكيف بفلذات الأكباد أليسـوا أحـق بالحفاظ عليهم من ما يسوؤهم؟! أليسـوا أحـق برعـايتهم؟ أليسـوا أحـق بتربيـتهم التربيـة الحسنة؟ أليسوا أحق من أي شيء بالاهتمام بهم في جميع شؤونهم؟.

أيها الآباء، وإن من وسـائل تربيـة الأبنـاء وفلـذات الأكبـاد الـوعظ بأحسـن أسـلوب، والتذكير بأجمل خطاب، فذلك من وسـائل التربيـة المـؤثرة التـي اسـتخدمها القـرآن كثـيراً يقــول تعــالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣]، وقد كان النبيﷺ يتخول أصحابه بالموعظة بين حـين وآخـر، والأبنـاء يصـغون ويرغبون في سماع النصيحة والتوجيه من الأبوين أو من يحبونه ويتأثرون به.

فينبغي على الأبوين أن يستخدما في الأصل الأسلوب السهل اللين، والخطـاب المتعقـل، والحوار المقنع، بعيدًا عن الشدة والقوة، وأن يراعيـا الزمـان والمكـان الـذي يعيشـه الأبنـاء، فالأبناء يعيشون في زمان كثر فيه الفساد، وظهر فيه المفسـدون، فـالإعلام الفاسـد دخـل إلى البيوت فأثر على الأبناء بل وعلى الأبوين. ورفقاء السوء ملؤا الشـوارع والطرقـات فأخـذوا

(١) السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).



البنين والبنات، والسبيل إلى التخلص من هذا كله أن يتخلله بالموعظة، والترغيب والتشجيع، وغرس القناعات، وأن يدفعه إلى أماكن الخير، ودور التعليم والتربية، لكي يحفظ وقته، وينفع نفسه، ويصون عقيدته وأخلاقه.

عباد الله: إن وسائل التربية كثيرة فالملاحظة والمتابعة للأبناء داخل وخارج البيت أمرٌ مطلوب وضروري، فالوالدان يتابعان الأبناء في سلوكهم، وأخلاقهم، وفي أقوالهم وأفعالهم، فإن كان الخير أكرموهم وشجعوهم عليه، وإن كان غير ذلك نهوهم عنه وحذروهم منه، فالمحافظة على الصلوات والأذكار وفعل الخيرات، والعمل على استغلال أوقات الإجازات في حفظ القرآن والسنة، وتعلم الآداب وغيرها من العلوم النافعة أمرٌ يشجع عليه الأبناء من قبل الوالدين، والعكس، فإذا أقبل الأبناء على عمل غير صحيح يحذروا منه وقد يعاقبوا عليه، بحيث يضعوا العقوبة في موضعها، دون إفراط أو تفريط.

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم وبما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.. أما بعد:

أيها المسلمون: بعد أن عرفنا عظمة المسئولية أمام أبنائنا، وعرفنا بعض الوسائل التربوية التي تعين الوالدين على تربية أبنائهم، والاهتمام بحفظ أوقاتهم، فإن هناك سؤال يطرح نفسه: على ماذا نربي أولادنا؟ وبأي شيء يحفظ أوقاتهم؟ إن تربية الأبناء وفلذات الأكباد تكون على العقيدة الصحيحة أولاً فالآباء ينبغي عليهم أن يعلموا أبناءهم أصول الإيمان، ومبادئ العقيدة الصحيحة، فيعرفوهم بربهم، ويغرسوا محبته في نفوسهم، وأنه الخالق والمحي والمميت، والمعز والمذل، الكريم الرحيم، وأنه واحد لا شريك له؛ وأنه لا معبود بحق إلا الله ويحذرانهم من الشرك وأهله وتعرفيهم بأركان الإسلام والإيمان.

ثانياً: تربية الأبناء على مراقبة الله وخشيته، فهو الذي خلق السماوات السبع والأرضين وما بينهما وهو الذي يقول للشيء: (كن فيكون)، والقادر والمطلع على كل شيء خفي أو أعلن، فلقد كان السلف الصالح يعلمون أبناءهم مخافة الله فهذا عبد الله بن دينار يقول: خرجت مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة ففي الطريق انحدر علينا راع من الجبل، فقال له عمر: «يا راعي بعنا شاة من هذه الغنم، فقال الراعي: إنه مملوك فقال له عمر: قل لسيدك أكلها الذئب، فقال العبد: أين الله؟ فبكى عمر، وغدا على سيد الراعي فاشتراه منه وأعتقه، وقال: كلمةٌ أعتقتك في الدنيا أرجو أن تعتقك يوم القيامة».

فالصحابة كانوا يربون أبناءهم ومن تحت أيديهم على مراقبة الله في كل أعمالهم وأقوالهم.

ثالثاً: غرس حب رسول الله ﷺ في نفوس الأبناء فحب رسول الله ﷺ من الإيمان فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1]. فتكون محبة رسول الله ﷺ بطاعته واقتفاء أثره وموالاة من كان يوالي،

(١) رواه البخاري (١٥).

ومعاداة من كان يعادي، وتصديقه في كل ما أخبر به، وإحياء سنته وإظهار شريعته، وإبلاغ دعوته، وإنفاذ وصاياه، وحب الصالحين وموالاتهم بحبه، وبغض الفاسقين ومعاداتهم ببغضه.

رابعاً: تعليم القرآن الكريم تلاوة وحفظًا، ففيه آداب كثيرة تعلمنا آداب الاستئذان، والصدق، والتواضع، والأمانة، والإيثار، وبر الوالدين، والرفق في معاملة اليتيم والمسكين، والعفة والصيانة، وغض البصر وخفض الصوت، وإخفاء الصدقات والصبر، والشجاعة بلا تهور ولا تعدٍّ، وغير ذلك من الآداب والأخلاق، فعلى الآباء أن يحرصوا على تعليم أبنائهم القرآن؛ لأنه من أهم أسس التربية الإسلامية.

أيها المسلمون: إن تربية الأبناء على الأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة مسئولية الأبوين والمعلمين إذ الأخلاق غاية التربية الإسلامية وروحها، فالإسلام حث على حسن الخلق لأهميته في حياة الأبناء، والأخلاق عبارة عن سلوك الفرد في حياته اليومية، فالأبناء يأخذون هذه الأخلاق من الوالدين والمجتمع المحيط بهم.

لقد عني الإسلام بالتربية الخلقية عناية كبيرة حيث جعل الدين الإسلامي هو أساس الأخلاق الفاضلة، التربية الأخلاقية هي تنشئة الأبناء على المبادئ الأخلاقية، وتكوينهم بها تكويناً كاملاً وذلك بتكوين استعداد أخلاقي للالتزام بها في كل مكان، وإشباع روحه بروح الأخلاق، وتكوين عاطفتهم وبصيرتهم الأخلاقية حتى يصبح مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر.

لقد اهتم الإسلام بالتربية الأخلاقية للأبناء اهتماماً كبيراً، حيث جعل الدين الإسلامي هو أساس الأخلاق الفاضلة، وحرص العلماء كل الحرص على العناية بالتربية الخلقية للأبناء عن طريق تعويده على الأخلاق الفاضلة كالصدق، والأمانة والرحمة، لكي تكون له صفة وسلوكًا في جميع شؤون حياته الخاصة والعامة لكي يحصل على خير الدنيا والآخرة.

ومما يلحق بذلك تعريف الجيل والنشء بأهمية الأوقات، وسرعة انقضاء الأعمار، وقيمتها عند الله تعالى، وأنها مادة الحياة، فيُعلموا كيفية تنظيمها واستغلالها، وليُجعل للولد أو الطالب هدف أو إنجاز يسعى لتحقيقه أثناء عطلته، سواء كان هدفًا علميًا أو عمليًا، كحفظ

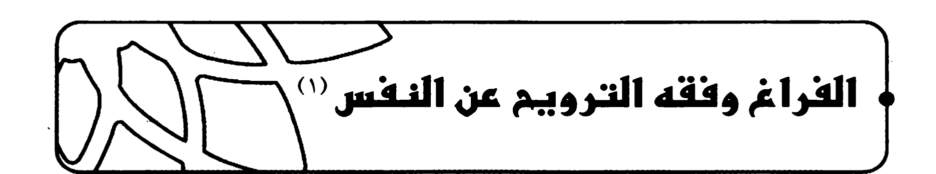
أجزاء من القرآن الكريم، أو تعلم شيء من الأمور النافعة، أو إنجاز عمل يكون فيه إثراء لرصيده واقتراب من تحقيق أهدافه، فيمزج في إجازته بين المتعة والفائدة، وبين الترفيه والعمل، والجد والمرح، وهذا يرجع إلى حكمة المربي، وتوازنه التربوي.

نسأل الله تعالى أن يصلح شباب المسلمين، وأولاد المسلمين، وبنات المسلمين، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، ويأخذ بنواصينا للبر والتقوى..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد والحمد لله رب العالمين.







الفراغ وفقه الترويح عن النفس[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتوحد بالجلال بكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرًا وتدبيرًا، المتعالي بعظمته ومجده الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فاتقوا اللهَ -معاشرَ المسلمين-، واعلموا أنّ أصدقَ الحديث كلام الله، وخيرَ الهدي هدي محمّد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين، فإنّ يدَ الله على الجماعة، ومن شذَّ عنهم فمات فميتتُه جاهليّة.

أيّها المسلمون: إنّ حياةَ النّاس بعامّة مليئة بالشّواغل والصّوارف المتضخِّمة، والتي تفتقر من حيث الممارساتُ المتنوِّعة إلى شيء من الفرز والتّرتيب لقائمة الأولويّات منها، مع عدمِ إغفال النّظر حول تقديم ما هو أنفع على ما هو نافع فحسب. ثمّ إنّ الضغوطَ النفسيّة والاجتماعيّة الكبيرة الناتجةَ عن هذا التضخّم ربّما ولّدت شيئًا من النّهم واللّهث غير المعتاد تجاهَ البحثِ عمّا يبرِد غلّةَ هذه الرواسب المتراكمة ويطفئ أوارَها[2]. يقول تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:١-٤].

إنّ الحضارةَ العالميّة حينما توفِّر للإنسانِ بالتقدُّم العمليّ والجهد الصناعيّ قوّةَ الإنسان ونشاطَه، وتوفر له مزيدًا من الوقت، ثمّ يكون في نفسِه وقلبه وروحِه ذلكم الفراغ، فهنا

---

(١) سعود الشريم.

(٢) الأوار: حرّ النار والشمس.



تحدُث المشكِلة ويكمُن الدّاء الذي يجعَل أوقاتَ الفراغ في المجتمعاتِ تعيش اتّساعًا خطيرًا، حتّى صارت عبئًا ثقيلًا على حركتِها وأمنِها الفكريّ والذّاتيّ، ومَنفذًا لإهدارِ كثيرٍ مِن المجهودات والطّاقات المثمِرة.

إنّ غيابَ الضّبط والتّحليل والتّرشيد للظّاهرة الحضاريّة الجديدة المُنشِئةِ لأوقاتَ الفراغ ليمثّل دليلا بارزًا على وجود شرخٍ في المشروع الحضاريّ والعولَمة الحرّة، غير بعيدٍ أن تؤتَى الأمّة المسلمة من قبله.

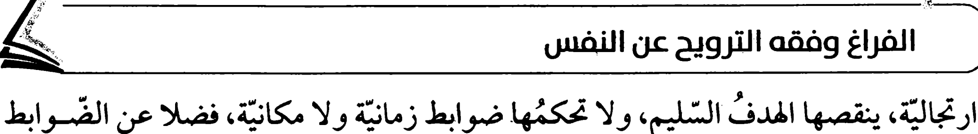
وإنّ عدمَ وعينا التامّ بخطورة هذا المسلك تجاهَ أوقات الفراغ وعدَم وعينا التامّ بالمادّة المناسبَة لشغل تلك الأوقات في استغلال العمليّات التنمويّة والفكريّة والاقتصاديّة البنّاءة لجديرٌ بأن يقلِبَ صورتَه إلى مِعوَل هدم يضاف إلى غيره من المعاول، من حيثُ نشعر أو لا نشعر، والتي ما فتِئ الأجنبيّ عنّا يبثُّها ليلَ نهار، لنسفِ حضارة المسلمين على كافّة الأصعدة بلا استثناء، كيف لا؟! ورسول الله يقول: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحّة والفراغ»[1].

إنّ الإسلامَ دينٌ صالح للواقع والحياة، يعامِل الناسَ على أنّهم بشر، لهم أشواقهم القلبيّة وحظوظُهم النفسية، فهو لم يوجب عليهم أن يكونَ كلُّ كلامهم ذكرًا، وكلّ شرودهم فكرًا، وكلّ تأمّلاتهم عِبرة، وكلّ فراغِهم عبادة. كلاّ، ليس الأمر كذلك، وإنّما وسّع الإسلام التّعاملَ مع كلّ ما تتطلّبه الفطرة البشريّة السّليمة من فرح وترح، وضحكٍ وبكاء، ولهو ومرَح، في حدود ما شرعه الله، محكومًا بآداب الإسلام وحدودِه.

عبادَ الله: إنّ قضيّةَ إشغال الفراغ باللّهو واللّعب والمرح والفرح لهيَ قضيّة لها صِبغة واقعيّة على مضمار الحياة اليوميّة، لا يمكن تجاهلُها لدى كثيرٍ من المجتمعات، بل قد يشتدُّ الأمر ويزداد عند وجودِ موجبات الفراغ كالعُطَل ونحوِها، حتّى أصبَحت عند البعضِ منهم مصنَّفةً ضمنَ البرامج المنظّمة في الحياة اليوميّة العامّة، وهي غالبًا ما تكون غوغائيّة تلقائيّة

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).



ارتجاليّة، ينقصها الهدفُ السّليم، ولا تحكمُها ضوابط زمانيّة ولا مكانيّة، فضلا عن الضّوابط الشرعية وما يحسُن من اللّهو وما يقبح.

التّرويح والتّرفيه عبادَ الله هو إدخال السّرور على النفس، والتنفيس عنها، وتجديد نشاطِها، وزمُّها عن السّآمة والمَلل.

وواقعُ النبيّ إبَّانَ حياتِه يؤكِّد أحقِّية هذا الجانب في حياة الإنسان، يقول سماك بن حَرب: قلتُ لجابر بن سمرة: أكنتَ تجالس رسول الله؟ قال: «نعم، كان طويلَ الصّمت، وكان أصحابه يتناشَدون الشعرَ عنده، ويذكرون أشياء من أمر الجاهليّة، ويضحكون فيبتسمُ معهم إذا ضحكوا»[(١)].

وأخرج البخاريّ في الأدب المفرد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: (لم يكن أصحاب رسول الله منحرفين ولا متماوِتِين، وكانوا يتناشدون الأشعارَ في مجالسهم ويذكرون أمرَ جاهليتهم، فإذا أريد أحدُهم على شيءٍ من دينه دارَت حماليق عينيه)[(٢)(٣)].

وذكر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي الدرداء أنّه قال: «إنّي لأستجمّ نفسي بالشيء من اللّهو غيرِ المحرّم، فيكون أقوى لها على الحقّ»[(٤)].

وذكر ابن أبي نجيح عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّي ليعجبُني أن يكونَ الرّجل في أهله مثلَ الصبيّ، فإذا بُغي منه حاجة وُجِد رجلا»[(٥)].

يقول ابن الجوزيّ: (ولقد رأيت الإنسانَ قد حُمّل من التكاليف أمورًا صَعبة، ومِن أثقل ما حُمِّل مداراةُ نفسِه وتكليفها الصبرَ عمَّا تحبّ وعلى ما تكرَه، فرأيتُ الصّوابَ قطعَ طريق الصّبر

---

(١) رواه مسلم (٦٧٠) بنحوه، واللفظ لأحمد (٥/ ٨٦، ٨٨).

(٢) حماليق العين: هو ما يسوده الكحل من باطن أجفان العين، وهو كناية عن فتح العينين، والنظر الشديد.

(٣) الأدب المفرد (٨١)، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٧٨)، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٤٠)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٣٢).

(٤) ذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس والذهبي في السير (٥/ ٤٢١).

(٥) رواه البيهقي في الشعب (٦/ ٢٩٢).



بالتسلية والتلطّف للنّفس). وبمثل هذا تحدّث أبو الوفاء بن عقيل فقال: (العاقلُ إذا خلا بزوجاتِه وإمائه لاعبَ ومازح وهازل، يعطي للزوجة والنفسِ حقَّهما، وإن خلا بأطفاله خرجَ في صورة طفلٍ وهجَر الجدَّ في بعضِ الوقت).

هذه -عبادَ الله- بعضُ الشّذرات حولَ مفهوم اللّهو والتّسلية والترويح، يُؤكّد من خلالِه أنّ الإسلام قد عُني بهذا الجانب حقَّ العناية، غيرَ أنّنا نودّ أن نبيّن هنا وجهَ الهوّة بين مفهوم الإسلام للتّرويح والتّسلية وبين اللّهو والمرَح في عصرنا الحاضر، والذي هو بطبيعته يحتاج إلى دراساتٍ موسَّعة تقتنِص الهدف للوصول إلى طريقةٍ مثلى للإفادة منها في الإطار المشروع.

فينبغي دراسةُ الأنشطةِ الترويحيّة الإيجابيّة منها والسلبيّة، والربط بينها وبين الخلفيّة الشرعيّة والاجتماعيّة للطبقة الممارسة لهذا النشاط، ومدَى الإفادة مِن الترويح والإبداع في الوصول إلى ما يقرّب المصالحَ ولا يبعّدها، وما يُرضي الله ولا يسخطه، وتحليل الفِعل وردود الفِعل، بين معطيات المتطلّبات الشرعيّة والاجتماعيّة، وبين متطلّبات الرّغبات الشخصيّة المشبوهة، وأثرِ تلك المشاركاتِ في إذكاءِ الطاقات والكفاءات الإنتاجيّة العائدة للأسَر والمجتمعات بالنّفع في دينِهم ودنيَاهم.

إنّ علينا جميعًا كمسلمين أن نشدَّ عزائمَنا لصيانتها ما أمكنَ من أيِّ ضياع في مرحٍ أو لهو غير سليم، أو ممّا إثمه أكبرُ من نفعه، فلا ينبغي للمسلمين أن يطلِقوا لأنفسهم العِنانَ في التّرويح، بحيث يزاحِم آفاقَ العمل الجادّ واليقظة المستهدفة، ولا أن يشغلَ عن الواجبات أو تضيع بسبب الانغماس فيه الفرائضُ والحقوق، إذ ليست إباحة التّرويح وسطَ رُكام الجدّ إلا ضربًا من ضروب العَون وشحذِ الهمّة على تحمّل أعباء الحقّ، والصبر على تكاليفه، والإحساس بأنّ ما للجدّ أولى بالتّقديم ممّا للّهو والتّرويح، وبهذا يُفهَم قول النبيّ لحنظلةَ بن عامر وقد شكا إليه تخلُّلَ بعض أوقاتِه بشيءٍ من الملاطفة للصّبيان والنّساء، فقال له: «ولكن ساعة وساعة»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٠).

أمّا أن يصبِحَ التّرويح للنفس طابعَ الحياة في الغـدوِّ والآصـال والخَلـوة والجَلـوة، وهمًّـا أساسًا من هموم المجتمعات في الحياة، فهو خروجٌ به عن مقصده وطبيعته، واتّجـاهٌ بالحيـاة إلى العبث والضّياع، وفي الحديث: «ولا تكثر الضحك؛ فإن كثـرة الضـحك تميـت القلـب»[1]، فنهى عن الإفراط في ذلك مع جواز الأصل.

فالإنسان الجادّ عليه أن يجعلَ من اللّهو والترويح له ولمن يعوله وقتًا مـا، ويجعـل للعمـل والجدّ أوقاتًا، لا العكس، فـاللهو والاسـتجمام والـترويح وسـيلة لا غايـة، فهـو كاسـتراحة المحارب، لا سيّما ونحن نعيش في عصرٍ استهوت معظم النّفوسِ فيـه كـلّ جديـد وطريـف، حتّى صارت أكثرَ انجذابًا إلى احتضان واعتناقِ ما هو وافد عليها في ميدان اللّهو والمرح، ولا غروَ في ذلكِ عبادَ الله، فإنّ الاسترخاءَ الفكريّ وهشاشةَ الضابط القيمِيّ لدى البعضِ منّا هما أنسبُ الأوقات لنفاذ الطرائف والبدائع إلى النفوس، وهنا تكمن الخطورة ويستفحِل الداء.

فاللهوُ المنفتِح -عبادَ الله- والذي لا يضبَط بالقيود الواعيّة، إنّه ولا شكَّ يتهدَّد الأصـالةَ الإسلاميّة، من خلال بعض المسابقات تُدعَى ثقافيّةً، والتي تقوم في الغالب على جمع للتضـادِّ الفكريّ، أو تنميّة الصراع الثقافي، أو تصديع الثوابت العقائدية والقـيم الأخلاقيـة والحـدود الشرعية لدى المسلمين، من خلال وسائلَ للترويح والتسلية سواء عبر الملتقيـات والأمـاكن التي لا تتقيد بقيود القيم ولا تُحَدّ بحدود الشرع، أو عبرَ القنوات المرئيّـة الّتـي تنـتِج مفـاهيمَ وطرائق مضلِّلة، عبرَ طرق جاذِبة في الثقافاتِ والشهوات، لاسترقاق الفِكر من خلالِ فنـونٍ أو أساطيرَ أو عروض لما يفتِن أو للسِّحر والشعوذة وما شاكلها.

ومـا حـال مـن يقَـع في مثـل هـذا الـترويح إلا كقـول مـن يقـول: (وداوني بـالتي كانت هي الداءَ)[2].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإيّاكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلـت مـا قلـت، إن صـوابا فمـن الله، وإن خطـأ فمـن نفسـي والشـيطان، وأسـتغفر الله إنه كان غفارًا.

---

(١) ابن ماجه (٤٢١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٢١).

(٢) شطر بيت لأبي نواس، وشطره الأول: (دع عنك لومي فإن اللوم إغراءُ)، وهو في ديوانه (١/ ٢١).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الواحدِ الأحَد، الفردِ الصمَد، الذي لم يلِد ولم يولَد. وأشهَد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامُه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد:

فإن من أعظم الدلائل على عظمة دين الإسلام أن تشريعاته قامت على جلب المصالح ودرء المفاسد؛ المبنية على رفع الحرج، ومراعاة التيسير، ومجافاة العنَت والتشديد؛ وهي بذلك تراعي الفطرة البشرية ومتطلباتها؛ فلم تكبتها أو تضيق عليها، وفي الوقت نفسه لم تطلق لها العنان، أو تترك لها الحبل على الغارب، وإنما حرصت على الموازنة بين الحقوق والواجبات، وما يباح وما يمنع، في مختلف جوانب الحياة البشرية.

وإن من أبرز ما تتصف به النفس البشرية أنها تصاب بالملل والفتور؛ فتحتاج إلى الترويح لتستعيد نشاطها، وتواصل سيرها بجد نحو البناء والتقدم.

ونظرًا لهذه الطبيعية البشرية نجد أن الإسلام شرع مبدأ الترويح عن النفس؛ تخفيفًا لما تتحمله من تكاليف ومشاق؛ فقد صحَّ أنّ النبيّ قال: «كلُّ شيءٍ ليس مِنْ ذِكرِ الله لهوٌ ولَعِبٌ، إلَّا أنْ يكونَ أربعةً: ملاعَبَةُ الرجلِ امرأتَهُ، وتأديبُ الرجُلِ فرَسَهُ، ومشْيُ الرجلِ بينَ الغَرَضَيْنِ، وتعليمُ الرجلِ السباحَةَ»[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ معلِّقًا على هذا الحديث: (والباطل مِن الأعمال هنا ما ليس فيه منفعة ولم يكن محرّمًا، فهذا يرخَّص فيه للنفوس التي لا تصبِر على ما ينفع، وهذا الحقّ في القَدر الذي يُحتاج إليه في الأوقات التي تقتضي ذلك، كالأعياد والأعراس وقدوم الغائِب ونحو ذلك) انتهى كلامه[2]، ويقول ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا الحديث: (ليس مرادُه

---

(١) صحيح الجامع (٤٥٣٤) صححه الألباني.

(٢) الاستقامة (١/ ٢٧٧).



بقوله: «باطل» أي: أنّه حرام، وإنّما يريد به أنه عارٍ من الثواب، وأنّه للدنيا محض، لا تعلّق له بالآخرة، والمباح منه باطل) انتهى كلامه(١).

هذا في اللهو المُباح عباد الله، وأمّا اللّهو المحرّم أو اللهو المباح الذي قد يفضي إلى محرّم فاستمعوا يا رعاكم الله إلى كلام الإمام البخاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه حيث يقول: (باب: كلّ لهوٍ باطل إذا أشغله عن طاعة الله)(٢)، ويعلّق الحافظ ابن حجر على هذا فيقول: (أي: كمَن التهى بشيء من الأشياء مطلقًا، سواء كان مأذونا في فعله أو منهيًّا عنه، كمن اشتغل بصلاة نافلة أو بتلاوة أو ذكر أو تفكّرٍ في معاني القرآن مثلا، حتّى خرج وقت الصلاة المفروضة عمدًا، فإنّه يدخل تحت هذا الضابط، وإذا كان هذا في الأشياء المرغَّب فيها المطلوب فعلها، فكيف حال ما دونها؟!)(٣).

عباد الله: إن الترويح عن النفس أمر أباحته الشرائع؛ لكونه من متطلبات الفطرة البشرية؛ فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن إخوة يوسف حينما احتالوا لأخذ أخيهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبين أباهم بقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:١٢]؛ يقول الإمام الجصاص رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي الآية دلالة على أن اللعب الذي ذكروه كان مباحًا، لولا ذلك لأنكره يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهم)(٤).

وقال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (يقصد منه الاستجمام ودفع السآمة، وهو مباح في كافة الشرائع إذا لم يصر دأبًا)(٥).

وقال أبو الليث السمرقندي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفيه دليل أن القوم إذا خرجوا من المِصْر، فلا بأس بالمطايبة والمزاح، في غير مأثم)(٦). ومن دلائل إباحة الترويح واللعب المباح، ما جاء في

---

(١) انظر: فيض القدير (٥/ ٤٠٢).

(٢) وذلك في كتاب الاستئذان من صحيحه.

(٣) فتح الباري (١١/ ٩١).

(٤) أحكام القرآن (٤/ ٣٨١).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٩).

(٦) بحر العلوم (٢/ ٣٦٧).

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قصة لعب الحبشة في المسجد يوم العيد أن النبي ﷺ قال: «لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ في دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ»[1].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ؛ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ بِتِلْكَ»[2].

ومع هذه الفسحة في الترويح عن النفس، إلا أنه ينبغي للمسلم أن لا يجعلها غاية له وهدفًا في هذه الحياة الدنيا، وأن لا يتخذها وسيلة ومطية لانتهاك حرمات الله، وتعدي حدوده، وإنما عليه أن ينظر إليها كوسيلة لغاية عظمى وهدف أسمى؛ هو بقاء الإنسان نشيطًا، ذا همّة وعطاء، من أجل بناء المجتمعات، وعمارة الأرض، وإقامة الشرع؛ وهذا وفقًا للتوجيه الرباني: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

ومن هنا نعلم أن الترويح عن النفس لا بد أن ينضبط بضوابط الشَّرع وقواعده، ويُعرَض على مِيزانه؛ لضمان تحقيق أهدافه التي أبيح من أجلها، حتى لا يؤول إلى وسيلة لضياع الأوقات وهَدْر المُقدَّرات، والتَّردِّي في مَهاوي الخمول والكسل والانحراف والضياع، وإلا كان وبالًا وهلاكًا؛ فمَن أراد أن يفرحَ ويلهو فليكن فرحَ العقلاء الأتقياء، وهو في نفس الوقت لا يزيغ ولا يبغي، بل يتّقي الأهازيج والضّجيج التي تقلق الذاكرَ وتكسِر قلبَ الشاكر. ويمكن إجمال ضوابط اللهو المباح فيما يلي:

أولًا: النية والاحتساب في الترويح:

من أهم ما تؤثر فيه النية المباحات والعادات؛ فإنها تتحول بالنية إلى عبادات وقربات؛ والترويح من جملة المباحات التي يثاب عليها الإنسان إذا نوى بها الاستجمام والنشاط للطاعة

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أحمد.

والعبادة، وأداء الواجبات الدنيوية، كما أنه قد يأثم إذا قصد به الهروب من المسؤوليات، وتضييع الواجبات؛ فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»(١).

وقد كان السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى يحرصون على ذلك ويتعاهدون نياتهم في جميع أعمالهم؛ فعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لكني أنام ثم أقوم فأقرأ، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»(٢)، وعن زبيد اليامي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء؛ حتى في الطعام والشراب)، وقال أيضًا: (انو في كل شيء تريده الخير، حتى خروجك إلى الكُناسة)(٣). فلا ينبغي للمسلم أن يغفل عن تلك اللحظات؛ فإنه يُسأل عنها يوم القيامة؛ لم فعله؟ وما الذي قصد به.

ثانيًا: اختيار الصحبة الطيبة للترويح:

يشعر الإنسان بمتعة أكبر وسعادة غامرة إذا كان ترويحه في رفقة أو صحبة من الناس، ونظرًا لكون اللهو والمرح مما يشغل القلب عن أداء الواجبات والتكاليف؛ فيحتاج المسلم إلى من يذكره بها؛ ولذا ينبغي أن يختار من الرُّفقة من يعينوه على الطاعة، ويحذروه من المعصية؛ ممن يَقْدُرُ للدِّينِ قَدْرَه، ويَعرِفُ أنَّ للشَّرعِ حَدَّه، وإن: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(٤).

ثالثًا: اختيار أوقات الترفيه وعدم تعدي حدود الله في ذلك:

ينبغي للمسلم أن ينظم وقته بين العمل واللهو، والجد واللعب، فلا يعتدي على الوقت الذي هو حق لله تعالى؛ كوقت الصلوات المفروضة، أو أن يغفل عن ذكر الله في أوقات هو

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن حبان.

(٣) جامع العلوم والحكم.

(٤) متفق عليه.

أحوج ما يكون فيها إلى القرب من ربه؛ كإهدار ساعات الليل كلها في السَّمر واللَّهو والحرام، فلا هو في نوافل العبادات قضاها، ولا لأمر واجب أحياها.

ومما ينبغي أن يجتنبه المسلم أيضًا التعدي على الأوقات التي تتعلق بأداء حقوق العباد؛ كالعمل الرسمي؛ فلا ينبغي أن يقضيه المسلم في الترفيه والترويح، تاركًا وراءه مسؤوليات أُنيطت به؛ فوقت العمل مرتبط بما التزم به الإنسان من عقود ومواثيق يجب الوفاء بها واحترامها؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

رابعًا: أن لا يستهلك الترويح جُلَّ وقت الإنسان:

إن من أخطر الأمور في ممارسة الترفيه والترويح؛ أن لا يكون الإنسان حكيمًا في سياسة نفسه، فيستهلك كل وقته أو معظمه في اللهو والترفيه حتى يضيع عمره وتنفرط عليه أموره؛ فهذه الأوقات يسأل عنها الإنسان يوم القيامة؛ كيف قضاها، كما أخبر بذلك النبي ﷺ؛ فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»(١).

فالوقت عند المسلم له قيمة، وهو يعلم أن ما ضاع منها سُدَى لا يَعُودُ، وأن ما يقضيه في الترويح والترفيه يهدف من ورائه مضاعفة الهمة والنشاط؛ لتعويض ما فات، وأن الحكمة والتَّعقُّلَ في استغلال الأوقات لا في إهدارها وتضييعها.

والوقت أنفَسُ ما عُنيتَ بحفظهِ ... وأراه أسهل ما عليك يضيعُ

خامسًا: أن تكون وسيلة الترويح مشروعة:

أما كون الوسيلة مشروعة؛ فتأتي هذه المشروعية من وجهين:

الأول: أن تكون مباحة في ذاتها؛ بمعنى أنه لم يرد في الشرع الكريم نهيٌ عنها لذاتها، وإلا كانت ممنوعة؛ فلا يجوز للمسلم أن يترفَّه أو يلهو فيما ما حرّمه الله تعالى؛ كالضحك والسخرية من الآخرين، أو الاستهزاء بهم، أو ترويعهم وتخويفهم، أو إزعاجهم في طرقهم ومساكنهم،

---

(١) رواه الترمذي.

أو استعمال آلات اللهو والطرب للترويح عن النفس، أو اللهو بألعاب محرَّمة كالنرد والقمار، وغير ذلك مما وردت النصوص الشرعية بتحريمها.

الثاني: أن تكون الغاية -التي تستعمل لها الوسيلة المباحة- مشروعة أيضًا؛ ذلك أن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فالوسيلة وإن كانت مشروعة أو مباحة في ذاتها، وقصد بها التوصل إلى ما حرّم الله، كانت محرّمة تبعًا لمقصدها؛ فالسفر بحد ذاتها وسيلة مشروعة أو مباحة؛ فإن استعملها الإنسان في التوصل إلى خير؛ كان السفر جائزًا مشروعًا، أما إذا قصد الإنسان بسفره هذا ارتكاب المحرمات، وفعل المنكرات؛ كان السفر والحالة هذه ممنوعًا غير مشروع؛ تبعًا للمقصد الذي استعمل لأجله.

عباد الله: التوازن مطلوب في هذه الحياة، فهل فقهنا عن الله أحكامه؟ وهل فهمنا يُسر الشريعة وسماحة الدين كما ينبغي؟ أليس من الإفراط والتفريط أن ترى المسلم عابسًا جافًا يتكلف الرزانة ويحرم على نفسه ما أحل الله حتى يشق على من حوله؟ أو أن تراه معظم وقته مازحًا هازلًا حتى يقع في المحظور ويترك المأمور ويثقل على من حوله من الحضور؟ لذا كانت الحكمة تقتضي التوازن بلا إفراط ولا تفريط، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ههذا وصلُّوا -رحمكم الله- على خير البرية وأزكى البشرية محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم، صاحبِ الحوض والشّفاعة، فقد أمرَكم الله بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنّى بملائكتِه المسبّحة بقدسه، وثلث بكم فقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



حرارة الصيف دروس وعبر[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، أحمده تعالى حمد الشاكرين، واستغفره استغفار المنيبين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهُ الأولين والآخرين، وقيوم يوم الدين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمينُ إلى العالمين، صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تبارك وتعالى حق التقوى، أطيعوه ولا تعصوه، وراقبوه ولا تنسوه، واعلموا أنكم لديه محضرون، وعلى أعمالكم محاسبون، وعلى تفريطكم نادمون، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

عباد الله: نُعايِشُ هذه الأيام شدةَ الحَرِّ اللافح، والصيف القائظ، والشمسُ تزداد سطوعًا، لترسل نورها وشيئًا من نارها، فتنشرَ سياط لهبها على الأرض والأبدان، ولا تسأل عن حال الناس في هذه الأيام مع شدة الحر وهم يطلبون الظل الظليل، والهواء العليل، والماء البارد السلسبيل؛ لذا كان لا بد لنا مع الصيف من وقفات، ومع الحر من خطرات، ومع القيظ من عبر وعظات.

إن الزمان بليله ونهاره، وشهوره وأعوامه، وصيفه وشتائه آيةٌ من آيات الله تبارك وتعالى التي نصبها للعباد موعظةً وذكرى، موعظةٌ في تقلُّبِ الأحوال وتصرفها، وغِيَرِ الأيام وتصرُّمها.

---

(١) محمد بن إبراهيم السبر.

يذكرنا كَرُّ الغداة ومَرُّ العشي بأن الحياةَ مراحل، وأن كُـلَّ مرحلـة لهـا قيمتُهـا ومكانتُهـا، ولكل منها تَبِعةٌ مطلوبةٌ، وحسابٌ قائمٌ، قال الحسنُ البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما من يوم ينشق فجره وتشرق شمسه إلا ينادي منادٍ يا ابن آدمَ أنا خلق جديد، وعـلى عملـك شـهيدٌ، فتـزود منـي بعملٍ صالحٍ، فإني لا أعودُ إلى يوم القيامة).

إنّ في هذا الحر دليلًا من دلائـل ربوبيـة الله سـبحانه وتعـالى، فهـو الـذي يقلّـب الأيـام والشهور، ويطوي الأعوام والدهور، وهو الواحد الأحد الصمد، المستحق للعبادة، سبحانه وبحمده! قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]؛ فوجوده سبحانه وربوبيتُه وقدرتُه أظهرُ من كل شيء على الإطلاق.

وفي كُـــــل شيءٍ لـــــه آيـــــةٌ　　　تـــدُلُّ عـــلى أنَّـــهُ واحـــدُ

قال ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: (ثم تأمـل هـذه الحكمـة البالغـة في الحـرّ والـبرد، وقيـام الحيوان والنبات عليهما، وفكِّر في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته، ولو دخل عليه مفاجأة لأضرّ ذلك بالأبدان وأهلكهـا، وبالنبـات، ولـولا العنايـة والحكمـة والرحمة والإحسان لما كان ذلك).

عباد الله: ونحن نعيش ونعايش الهجير والرمضاء وهذا الحر اللافح، نتذكر ما منَّ به ربنا علينا وأنعم من الوسائل التي تقي الناس الصيفَ وقيظَه، من الظلال الوارفة، والأشجار اليانعة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:٨١].

وفوق هذا هل استشعرنا عظيم نعمة الله علينا حين يسَّر لنا من وسائل التبريد والتكييف المختلفة ما تطمئن به النفوس، ونتقي بها أذى الشمس وسمومها؟ أجهزة تقلبُ الصيفَ شتاءً والشـتاءَ صـيفًا، وتخفـفُ مـن لأواءِ الهجـير، وتطفـئُ لهـبَ القـيظ في المنـزل والمسـجد والسـيارة والعمـل! هـل تأملنـا ذلـك فشـكرنا ربنـا عـلى ذلـك، وتركنـا الإسراف في استعمال هذه الأجهزة؟!.



هل تأملنا فيمن يسكنون بيوت الصفيح والخيام والقش، فحمدنا ربنا وعبدناه حق عبادته! وإن هذا يدعونا لأن نتذكر أُسَرًا تعيش بيننا لا يملكون ما نملك من هذه الوسائل الحديثة، وإنْ ملكوها فلا يستطيعون دفع ما يترتب على عملها من أموال؛ فأعينوا إخوانكم - عباد الله- في النائية والبلدان الفقيرة، واحتسبوا الأجر من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠]، وقال النبي ﷺ: «اتقوا النارَ ولو بشق تمرة»[1]، وقال أيضًا: «إنَّ ظِلَّ المؤمنِ يومَ القيامةِ صَدَقَتُه»[2]. وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

إن ابن آدم ظلوم جهول، مزاجي ملول، ومن جهله عدم الرضا عن حاله، فإذا جاء الصيف تضجَّر منه، وإذا جاء الشتاء تضجَّر منه، وفي ذلك يقول الناظم:

يتمنى المرءُ في الصيف الشِّتَا ... فإذا جاء الشِّتَا أَنْكَرهُ

فهْوَ لا يرضَى بحالٍ واحدٍ ... قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرهُ!

وهذا من طبع البشر؛ ولكن المسلم يرضى بما قدر الله له من خير أو شر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، أخرج مسلم عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[3].

ولن يعدم المؤمن أحد هذين الخيرين بشرط الرضا والشكر والصبر، ومَن حُرِمَ الصبر على ما قدر الله فهو المحروم، ومن أعطي الصبر فقد أعطي خيرًا كثيرًا.

أيها الناس: إن الحرّ ابتلاء من الله تعالى لعباده، فلا يجوز أن يترك المسلم ما أمره الله به من واجبات، فحين خرج النبيﷺ إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة وكانت في حَرٍ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦).

(٢) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٨٦٧).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩).



شديدٍ، وسَفَرٍ بعيد، تواصى المنافقون فيما بينهم بعدم النفير في هذا الحر، فجاء الوعيد من الله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١].

إن الحر ليس عائقًا عن عبادة الله، ولا صادًا عن طاعته، فالصفوة من عباد الله يرون أن في الحر غنيمة لا تفوت، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، في اليوم الحار الشديد الحر، وإن الرجل لَيَضَعُ يده على رأسه من شدة الحر، وما في القوم أَحَدٌ صائمٌ إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة». رواه ابن ماجه بإسناد صحيح.

ويقول ﷺ: «من صام يومًا في سبيل الله باعَدَ الله بذلك اليوم حرَّ جهنم عن وجهه سبعين خريفًا»(١)

حين يخرج المصلِّي إلى صلاة الظهر أو العصر فيرى الشمس اللاهبة ويحس بالحر اللافح، ولكنه يطمع في رحمة رب العالمين، ويدخر هذا المخرج عند الله، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

إن صيام الهواجر، ومكابدة الجوع والعطش في يوم شديدٍ حرُّه، بعيدٍ ما بين طرفيه، ذاك دَأْبُ الصالحين، وسنة السابقين، والمحروم من حُرم.

روي أنّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يَصوم في الصَّيف ويُفطِر في الشتاء، ووَصّى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنه عبدَ الله فقال: «عليك بخصال الإيمان»، وسمَّى منها الصومَ في شدّةِ الحرِّ في الصيفِ.

ولما مرض معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَضَ وفاته قال في الليلة التي تُوفي فيها: «أعوذ بالله من ليلةٍ صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت، حبيبًا جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجَرْيِ الأنهار، ولا لغرس الأشجار؛ ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَقِ الذكر».

لم يتأسف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مال ولا ولد، ولم يبك على فراق نعيم الدنيا، ولكنه تأسف على قيام الليل، ومزاحمة العلماء بالركب، وعلى ظمأ الهواجر بالصيام في أيام الحر الشديد!.

---

(١) رواه النسائي وصححه الألباني (٢٢٥١).

خرج ابن عمر في سفر معه أصحابه فوضعوا سفرة لهم فمر بهم راعٍ فدعوه إلى أن يأكل معهم فقال: إني صائم، فقال ابن عمر: «في مثل هذا اليوم الشديد حَرُّه، وأنت بين هذه الشعاب في آثار هذه الغنم، وأنت صائم!» فقال: أبادر أيامي هذه الخالية.

ويقول أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ موصيًا أصحابه: «صوموا يومًا شديدًا حرُّه لحر يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور».

هكذا كان الصالحون حال الحر، وكان ابنُ عمرَ وغيرُه من السلف إذا شربوا ماءً باردًا بكوا وذكروا أمنيةَ أهلِ النار، وأنهم يشتهون الماء البارد، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، ويقولون لأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٠]، فيقولون لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠].

إن اشتداد الحر يا عباد الله -يُذَكِّرُنَا- بِحَرِّ جهنَّم -أعاذنا الله منها-، تلكم النار التي أعدها الله جل وعلا للكافرين، ويعذبُ بها مَن يشاءُ من عباده المؤمنين العاصين.

وإنَّ اشتدادَ الحَرِّ في هذه الدنيا هو من نفَس النار، قال النبي ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربِّ، أَكَلَ بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف، فهو أشدُ ما تجدون من الحر، وأشدُّ ما ترون من الزمهرير -يعني البرد-»[1]، وفي رواية للبخاري قال: «فإذا اشتد الحر فأَبْرِدُوا بالصلاة؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم»[2]، والمقصود تأخيرُ صلاة الظهر إلى قرب صلاة العصر عند اشتداد الحر.

فإذا كان هذا الحر الشديد والشمس المحرقة إنما هي نفَسٌ من أنفاسِ جهنم، فيا ترى ما عذابها إذًا؟.

رأى عمر بن عبد العزيز قومًا في جنازة قد هربوا من الشمس إلى الظل وتوقوا الغبار، فبكى وأنشد:

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦) ومسلم (٦١٧).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩).

من كـان حـين تصيبُ الشـمسُ جبهتَـه	أو الغبــارُ يخــاف الشَّــيْنَ والشَّــعَثا
ويــألَفُ الظِّــلَّ كــي يُبْقِــى بشاشَــتَهُ	فســوف يســكُنُ يومًــا -راغِـمًا- جـدَثا
في ظِــلِّ مُقْفِــرَةٍ غــبراءَ مُظْلِمَــةٍ	يُطيــل تحــت الثــرى في ظلهــا اللُّبُثـا
تجهَّــزِي بجهَــازٍ تبلغــين بـــه	يــا نفــسُ قبــل الــرَّدَى لم تُخْلَقِــي عَبَثَــا

عباد الله: هل تذكّر العاصي - وكلنا عصاة - تلك النار التي توقد وتغلي بأهلها حين أقدم على معصية الجبار سبحانه مستهينًا بمولاه، وجاحدًا لنعمته عليه، ومتناسيًا ما أُعِدَّ من العذاب والنكال للكفرة والفجرة والعصاة؟ ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ [الليل:١٤-٢١].

نسـيتَ لَظَـى عنـد ارتكابـك للهـوى	وأنْــتَ تُــوَقَّى حَــرَّ شــمسِ الهــواجِرِ
كأنَّــكَ لم تَــدْفِنْ حمــيًا ولم تكــن	لــه في ســياقِ المــوتِ يومًــا بحــاضِرِ

ما أُنذر العباد -رعـاكم الله- بشـيءٍ أشرَّ مـن النـار، النـارُ موحشـةٌ، أهوالُهـا عظيمـةٌ، وأخطارُها جسيمةٌ، وعذابها أبدًا في مزيـد، لا يُفَتَّرُ عـنهم وهـم فيـه مبلسـون، كلـما خَبَـتْ زادها الله سعيرًا.

قال رسول الله ﷺ: «إن الصخرةَ العظيمةَ لتلقى من شـفير جهـنم فتهـوي فيهـا سـبعينَ عامًا، ما تفضي إلى قرارها»(١)، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو راوي الحديث: «أكثروا ذكرَ النارِ، فإن حرَّها شديدٌ، وقعرَها بعيدٌ، وإن مقامعَها حديدٌ» رواه الترمذي.

---

(١) صحيح الترمذي (٢٥٧٥).

ذكر رسول الله ﷺ النار يومًا، فقال لأصحابه: «أترونها حمراءَ كناركم هذه؟ لَهِيَ أسوَدُ من القَارِ!»[1]. أُوقدَ عليها ألفُ عام حتى احمّرت، وألفُ عامٍ حتى ابيضت، وألفُ عامٍ حتى اسودّت، فهي سوداءُ مظلمة، لها تغيظٌ وزفيرٌ، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١-٧٢].

اللهم أظلنا تحت ظِلِّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلُّك، اللهم هون علينا الحساب، وأجِرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أجرنا من النار، اللهم أجرنا من النار، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه كان للأوابين غفورًا.

(١) رواه مالك وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٦٧٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها المسلمونَ عبادَ الله: إنَّ الناس حريصون كُلَّ الحرص على راحة أنفسهم وأهليهم، ولكن كم هو عظيم الأسى عندما نرى أكثرَهم لا يقيم وزنًا لنار جهنمَ، ولا يعمل على وقاية نفسه وأهله ومَنْ تحت يده منها، والله عَزَّوَجَلَّ قد خاطب عباده المؤمنين، وحذرهم منها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فيا مَن لا يطيقون حرارة الجو، يا من لا يتحمّل الوقوف في الشمس ساعة، يا من يخافون على أبنائهم ويجنّبونهم شدة الحر، كيف أنتم في وقايتهم من عذاب الله وحر جهنم؟! إن حرَّها شديد، وقعرها بعيد، جاء في الحديث انه ﷺ قال: «إن أنعم أهل الأرض من أهل الدنيا يؤتى به يوم القيامة، فيُغمس في النار غمسة، فيقال: هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مرَّ بي نعيم قط»[1]. ينسى كل نعيم الدنيا بمجرد غمسة واحدة في جهنّم، مع أنه أنعم أهل الأرض!

يقول الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ مخاطبًا ابنه:

تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ	فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا؟
ولستَ تطيق أهونها عذابا	ولو كنتَ الحديدَ بِها لَذُبْتَا
ولا تُنْكِر فإنَّ الأمر جِدٌّ	وليس كما حسبتَ ولا ظَنَنْتَا

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).

عباد الله: ولئن كان حرُّ الدنيا يُتقَّى بالملابس والثياب وغيرها؛ فإن حرّ الآخرة لا يتقى بشيء من ذلك، إنما يتقى بالأعمال الصالحة، والكف عن المحارم والمظالم، يوم تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، فعند مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار، ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا» قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه(١).

سيأتي يومٌ شديدُ الحَر، عظيم الكرب، الذي لا مفر منه، أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»(٢).

ومنهم من ينعم بالاستظلال بظل الله يوم لا ظل إلا ظله، فيكون المؤمن في ظل صدقته يوم القيامة، وهناك سبعةٌ يظلهم الله ذلك اليوم في ظله، قال ﷺ: «سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»(٣).

فهل عرضت نفسك أيها الحبيب على هذا الحديث؟ هل لك نصيب فيه؟ هل تقدر على أن تفوز ببعض ما فيه من الصفات والطاعات؟ لعلك أن تفوز بظل رب الأرض والسموات؟

إن في تقلب المناخ والأجواء، واختلاف الأيام والليالي، لعبرة وعظة، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، جعلني الله وإياكم من أولي الألباب، الذين يفقهون ويتفكرون ويتذكرون، إنه قريب مجيب.

هذا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر...

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٢).

(٣) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

الشتاء البارد [1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

لبس الشتاء من الجليد جلودا ... فالبس فقد بَرَد الزمان بُرودا

كم مؤمن قرصته أظفار الشتا ... فغدا لسكان الجحيم حسودا

وترى طيور الماء في وكناتها ... تختار حر النار والسّفّودا

وإذا رميت بفضل كأسك في الهوا ... عادت عليك من العقيق عقودا

يا صاحب العودين لا تهملهما ... حرك لنا عودًا وحرّق عودا

(١) ناصر الأحمد.

إن الله تعالى هو الذي خلق السماء والأرض، وهو الذي أوجد اليابس والماء، وهو الذي يكور الليل على النهار ومكور النهار على الليل.

وهو الذي يأتي بالصيف الحار، وبالشتاء البارد، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ولنا مع قدوم قليل من البرد هذه الأيام بعض تأملات، وذكر بعض الأحكام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ»[1]. وهذا من أمور الغيب الذي يؤمن به المسلم. قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذه الشكوى بلسان المقال).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنه الأظهر). وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا إحالة في حمل اللفظ على حقيقته). قال: (وإذا أخبر الصادق بأمر جائز لم يحتج إلى تأويله، فحمله على حقيقته أولى).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحو ذلك، ثم قال: (حمله على حقيقته هو الصواب، وتنفسها على الحقيقة، والمراد بالزمهرير شدة البرد، ولا إشكال من وجوده في النار، ففيها طبقة زمهريرية) نسأل الله العافية.

فهذه النار اشتكت إلى خالقها، فكيف بالذي في داخلها؟ وكيف بمن يعذب فيها؟ وكيف بمن حكم الله عليه بالخلود فيها؟ نسأل الله العفو والعافية.

فشفقةً من الله بهذه النار التي خلقها لإحراق الكفار والمنافقين والعصاة، ومن يستحق دخولها أذن لها بنفسين، نفس في كل موسم فأشد ما نجد من الحر ما هو إلاّ نفس من أنفاس جهنم، وأشد ما نجد من البرد أيضًا ما هو إلاّ نفس من أنفاس جهنم، قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، وقالت: أكل بعضي بعضًا؟ فجعل لها نفسين: نفسا في الشتاء، ونفسا في الصيف، فأما نفسها في الشتاء فزمهرير، وأما نفسها في الصيف فسَمُوم»[2].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦) ومسلم (٦١٧).

(٢) صحيح الترمذي (٢٥٩٢) وقال الألباني: (صحيح على شرط الشيخين).

وهذا سؤال وجه لفضيلة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هناك من ينسب شدة البرد أو الحر للعوامل المناخية أو لطبقة الأوزون أو لدوران الكرة الأرضية، فهل يصح هذا التأويل؟

فأجاب بقوله: لا شك أن شدة الحر وشدة البرد لها أسباب طبيعية معلومة، ووجودها بأسبابها من تمام حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، وبيان أنه سبحانه وتعالى خلق الخلق على أكمل نظام، وهناك أسباب مجهولة لا نعلمها نحن، مثل قول الرسول ﷺ: «اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ». وهذا سبب غير معلوم، لا يُعلم إلا بطريق الوحي، ولا حرج على الإنسان أن يضيف الشيء إلى سبب معلوم حسًا أو شرعًا، لكن بعد ثبوت أنه سبب حقيقي.

وإن كان سببًا وهميًا، أو كان سببًا مبنيًا على نظريات لا أساس لها، فإنه لا يجوز اعتمادها؛ لأن إثبات الوقائع أو الحوادث إلى أسباب غير معلومة، لا عن طريق الشرع، ولا عن طريق الحس، يدخل في ما نهى الله عنه في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

أيها المسلمون: وقد ينزعج بعض الناس من برودة الشتاء، كما يتضايق البعض من حر الصيف، وفي كلٍ منهما، وتقلب الأحوال عمومًا مصالح وحكم، قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلًا واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه، فلو كان صيفًا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء، ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف، وكذلك لو كان ربيعًا كله أو خريفًا كله).

ولشيخ ابن القيم، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام نفيس كان يتحدث فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هروب الشيء من ضده، وأن كثيرًا من الأشياء يمكن أن تقاوم بأضدادها، وهذه قاعدة مهمة يحتاجها الجميع عامة والمصلحون خاصة، فمَثّل لقاعدته بكلام يناسب موضوعنا، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويسخن جوف الإنسان في الشتاء، ويبرد في الصيف؛ لأنه في الشتاء يكون الهواء باردًا، فيبرد ظاهر البدن، فتهرب الحرارة إلى باطن البدن؛ لأن الضد يهرب من

الضد والشبيه ينجذب إلى شبيهه، فتظهر البرودة إلى الظاهر، ولهذا يسخن جوف الأرض في الشتاء، وجوف الحيوان كله، وتبرد الأجواف في الصيف لسخونة الظواهر فتهرب البرودة إلى الأجواف) انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن الوقفات التربوية هنا: أنك إذا عرفت بأن الضد يهرب من الضد، والشبيه ينجذب إلى شبيهه، أدركت وعرفت بأنه لا طريق للتخلص من رقّ المعصية إلاّ بضدها، وهي الطاعة، وأنه إذا ارتاحت نفسك بالجلوس مع العصاة، فهذا من انجذاب الشبيه إلى شبيهه - والله المستعان-.

أيها المسلمون: ومن الأحكام أن السنة قد جاءت بالإبراد بصلاة الظهر في حر الصيف تخفيفًا على الناس؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»[١]

وكان رسول الله ﷺ إذا اشتد البرد بكّر بالصلاة، وإذا اشتد الحر أبرد بالصلاة؛ عن أبي ذر رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فأراد المؤذن أن يؤذن للظهر، فقال ﷺ: «أبرد» ثم أراد أن يؤذن، فقال له: «أبرد» حتى رأينا فيء التلول، فقال النبي ﷺ: «إن شده الحر من فيح جهنم، فإذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة»[٢]

وهذا الحكم خاص بصلاة الظهر، وأما صلاة الجمعة، وإن كانت في وقت الظهر، فإنها تصلى في وقتها، حتى في الحر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما الجمعة، فالسنة أن تصلى في أول وقتها في جميع الأزمنة؛ لأن النبي ﷺ كان يصليها في أول الوقت شتاءً وصيفًا، ولم يؤخرها هو ولا أحد من أصحابه، بل ربما كانوا يصلونها قبل الزوال وذاك؛ لأن الناس يجتمعون لها إذ السنة التبكير إليها، ففي تأخيرها إضرار بهم).

ونعلم بأن السنة أن يقرأ الإمام في ركعتي الجمعة بسورة الجمعة والمنافقون، وثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بسبح والغاشية[٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦) ومسلم (٦١٥).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩).

(٣) رواهما مسلم.



والسنة أن يقرأ الإمام مرة بهذا ومرة بهذا؛ لئلا تهجر السنة، ولكن كما قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو أن الإمام راعى أحوال الناس، ففي الشتاء البارد قرأ بسبح والغاشية، ولم يقرأ بالجمعة والمنافقون تيسيرًا على الناس، ومثله في أيام الحر الشديد، وذلك؛ لأن من هدي النبي ﷺ أنه ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا).

أيها المسلمون: بوب الإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سننه، فقال: (باب ما جاء في الصوم في الشتاء)، ثم أخرج بسنده عَنْ عَامِرِ بنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ الصَّوْمُ فِي الشِّتَاءِ»[1].

وكانت غنيمةً باردةً لحصول المؤمن على الثواب بلا تعب كثير، فالصوم في الشتاء البارد لا يحس فيه الصائم بالعطش لبرودة الجو، ولا بألم الجوع لقصر النهار، فحقًا إنها لغنيمة باردة فأين أصحابها؟

أيها المسلمون: من عبر التاريخ أن الله عذّب أقوامًا بالريح الباردة في الشتاء كقوم عاد كما قد ذكر ذلك أهل التفسير، وقد كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة وهو السحاب الذي يخال فيه المطر، أقبل وأدبر، وتغير وجهه، فقالت له عائشة: إن الناس إذا رأوا مخيلة استبشروا، فقال يا عائشة: «وما يؤمنني قد رأى قوم عاد العذاب عارضًا مستقبل أوديتهم، فقالوا: هذا عارض ممطرنا» قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤][2]. وهذا من شدة خشيته ﷺ وخوفه من الله تعالى، وقد أمّنه ربه من العذاب، فما عسانا نقول؟

ومن عجائب فصل الشتاء: أن من حكم الله تعالى أن نبات وفواكه الشتاء لو أُكل في الصيف، أو العكس، لربما أضر البدن وسبب له الأذى، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلو كان نبات الصيف إنما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية، واستثقالًا بوروده، مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها، وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف، أو ما في خريفها في الربيع، لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذاذه ذلك الالتذاذ، ولهذا تجد

---

(١) صحيح الترمذي (٧٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٨٢٨) ومسلم (٨٩٩).

المتأخر منها عن وقته مملولًا محلول الطعم، ولا يظن أن هذا الجريان العادة المجردة بذلك، فإن العادة إنما جرت به؛ لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير)[1].

ومن عجائب الحر والبرد والصيف والشتاء: هذا الحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه ضمن كرامات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: كَانَ أَبُو لَيْلَى يَسْمُرُ مَعَ عَلِيٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ يَلْبَسُ ثِيَابَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَثِيَابَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، فَقُلْنَا: لَوْ سَأَلْتَهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ إِلَيَّ وَأَنَا أَرْمَدُ الْعَيْنِ يَوْمَ خَيْبَرَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي أَرْمَدُ الْعَيْنِ فَتَفَلَ فِي عَيْنِي، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ» قَالَ: فَمَا وَجَدْتُ حَرًّا وَلَا بَرْدًا بَعْدَ يَوْمِئِذٍ[2].

رضي الله عن علي بن أبي طالب، وعن سائر الأصحاب والتابعين، وألحقنا بهم في عباده الصالحين.

---

(١) انتهى كلامه.

(٢) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٩٥).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، الحمد لله مُصرِّف الأحوال، ومُقدِّر الآجال، لا إله إلا هو الكبيرُ المُتعال، سبحانه وبحمده كريمٌ لا يبخَل، وحليمٌ لا يعجَل، الحُكمُ حُكمُه، والأمرُ أمرُه، تُسبِّح له السماوات والأرض ومن فيهنَّ بالغُدوِّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المُتفرِّدُ بالكمال والجمال والجلال، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه عظيمُ المقام شريفُ الخِصال، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى الطيبين الطاهرين، وأصحابِه الغُرِّ الميامين خيرِ صحب وأكرمِ آل، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم المآل، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

أتدري كيف قابلني الشتاءُ	وكيف تكون فيه القرفصاء
وكيف البرد يفعل بالثنايا	إذا اصطكت وجاوبها الفضاء
وكيف نبيت فيه على فراش	يجور عليه في الليل الغطاء
فإن حل الشتاء فأدفئوني	فإن الشيخ آفته الشتاء
أتدري كيف جارك يا ابن أمي	يهدده من الفقر العناء
وكيف يداه ترتجفان بؤسًا	وتصدمه المذلة والشقاء
يصب الزمهرير عليه ثلجًا	فتجمد في الشرايين الدماء
خراف الأرض يكسوهن عِهنٌ	وترفل تحته نعمٌ وشاء
وهذا الآدمي بغير دار	فهل يرضيك يزعجه الشتاء
يجوب الأرض من حي لحي	ولا أرض تقيه ولا سماء
معاذ الله أن ترضى بهذا	وطفل الجيل يصرعه الشتاء
أتلقاني وبي عوز وضيق	ولا تحنو؟ فما هذا الجفاء
أخي بالله لا تجرح شعوري	ألا يكفيك ما جرح الشتاء

أيها الأحبة: إن للفقراء علينا حقٌّ دائم، ويتأكد هذا الحق لهم في الأزمات والملمّات، وفي النكبات والصعوبات، ومن ذلك: أن نرحمهم، ونعطف عليهم، مع برد الشتاء، هل تذكرنا أحوال المشردين والمستضعفين؟ والفقراء والمحتاجين؟ هلا تفقدنا جيراننا وأرحامنا ممن قد لا يملكون ما يستدفئون به من برد الشتاء القارس؟ الله الله في إخوانكم وجيرانكم وأرحامكم، انظروا إليهم بعين الرحمة والرأفة، لعل الله أن ينظر إليكم بها، وأنفقوا يُنفق عليكم، وتراحموا تُرحموا، فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

إخواني في الله: ومن مواطِن العِبَر، وفُرص الأمل: ما أوصَى به الفارُوقُ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ابنَه بإتمام الوضوء عند البرد قائلًا: «وإسباغُ الوضوءِ في اليوم الشَّاتِي». ذلكم أن إسباغَ الوضوء على المكارِه مما تُحطُّ به الخطايا، وتُرفعُ به الدرجات؛ فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ألا أدُلُّكم على ما يمحُو الله به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات؟!». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغُ الوضوء على المكارِه، وكثرةُ الخُطا إلى المساجِد، وانتِظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكمُ الرِّباط، فذلكمُ الرِّباط»[1]. والمكارِه: شدَّة البرد وآلام الجسم.

وإسباغُ الوضوء: تكميلُه وإيعابُه مع شدَّة البرد وألم الجسم، وما يلحَقُ ذلك من مشقَّةٍ.

على أن تعلَموا -رحمكم الله- أنه لا مانِع من الوضوء بالماء الدَّافِئ، وتسخين الماء، وتنشيف الأعضاء بعد الفراغ من الوضوء؛ بل يُباحُ التيمُّم إذا خافَ على نفسِه شدَّةَ البرد، فضلًا من الله ورحمة، وتيسيرًا ونعمة.

وفي مثل هذا جاءَت مُكاتبَةُ عُمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ووصاياه لعُمّاله ووُلاتِه إذا حضر الشتاء، يقول لهم: «إن الشِّتاءَ قد حضَرَ وهو عدوٌّ لكم، فتأهَّبُوا له أُهبتَه من الصُّوفِ والخِفافِ والجوارِب، واتَّخِذوا الصُّوفَ شِعارًا». أي: مما يلي الأجساد، «ودِثارًا» أي: فوق الملابِس، «فإنَّ البردَ عدوٌّ سريعٌ دخولُه، بعيدٌ خروجُه».

بل لقد امتنَّ الله على عبادِه بما يسَّر من وسائل استِدفاءٍ باللباس وغيرِه، فقال -عزَّ شأنُه-: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

فتأمَّل كيف أفردَ الدِّفءَ بالذِّكر وخصَّه بالتنويه، مع أنه من جُملة المنافِع!

---

(١) رواه مسلم.



وقال عزَّ شأنُه: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:٨٠].

ومما تقتَضِيه المُناسَبَةُ -عباد الله-: التنبيهُ إلى أن بعضَ الناسِ يُوقِدُ النارَ للتدفِئَة، كما يستخدِمُ بعضَ أجهزة التدفِئَة، وهذا من فضلِ الله ونعمته، وتيسيره وتسخِيره، ولكن قد أرشدَ نبيُّكم محمدٌ ﷺ إلى إطفاءِ النار قبل النوم؛ فقد جاء في الخبر الصحيح في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «إن هذه النار إنما هي عدوٌّ لكم، فإذا نِمتُم فأطفِئُوها عنكم». وما ذلك إلا لما تُسبِّبُه من الاحتِراق أو الاختِناق.

ومن الأحكام التي تحتاجها الناس والمتعلقة بالشتاء غالبًا: مسألة المسح على الجوربين، وهي مسألة عقدية فقهية، وقد ذكرها بعض العلماء في كتب العقائد منهم ابن أبى العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية، وسبب ذكره لذلك أن هناك بعض الفرق الباطنية والمنحرفة ينكرون سنيّة المسح على الخفين منهم الرافضة والمعتزلة، وغيرهم، وقد تواترت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين، يقول الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: (ليس في قلبي من المسح على الخفين شيء، فيه أربعون حديثًا عن رسول الله ﷺ). و قال الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- في زاد المعاد: (صح عنه ﷺ أنه مسح في الحضر والسفر، ولم ينسخ ذلك حتى توفى ووقّت للمقيم يومًا وليلة وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن في عدة أحاديث حسان وصحاح. وكان ﷺ يمسح ظاهر الخفين، ولم يصح عنه، مسح أسفلهما، ومسح على الجوربين والنعلين، ومسح على العمامة مقتصرًا عليها ومع الناصية، وثبت عنه ذلك فعلًا وأمرًا في عدة أحاديث، ولم يكن يتكلف ضد حاله التي عليها قدماه، بل إن كانتا في الخف مسح عليهما ولم ينزعهما، وإن كانتا مكشوفتين غسل القدمين ولم يلبس الخف ليمسح عليه)(١).

وكيفية المسح: أن يبل يديه بالماء، ثم يمرّهما على ظهر الخفين من أطرافهما مما يلي الأصابع إلى الساق مرة واحدة، ولو مسح اليمنى على اليمنى واليسرى على اليسرى، فهذا حسن، ولو مسح كليهما بيده اليمنى، فلا حرج في ذلك.

ويلبسهما على طهارة، ثم يبدأ مدة المسح من أول مسحة مسحها، وليس الابتداء من

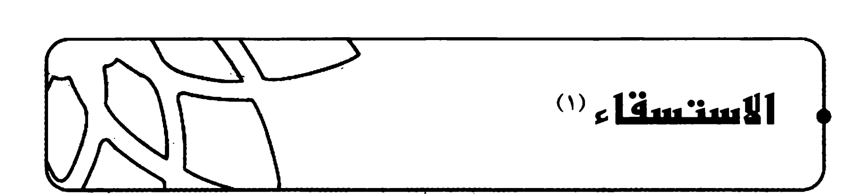
---

(١) انتهى كلامه.

الحدث بعد اللبس، كما قال به البعض، فإذا لبس الإنسان الجورب لصلاة الفجر، ولم يمسح عليهما أول مرة إلا لصلاة الظهر، فابتداء المدة من الوقت الذي مسح فيه لصلاة الظهر، فيمسح المقيم إلى مثل ذلك الوقت من الغد. وإذا تمت المدة، وهو على طهارة فطهارته باقية، حتى تنتقض، فإذا انتقضت بعد تمام المدة وجب عليه غسل رجليه إذا توضأ، ثم يلبس من جديد. ومن تمت مدته فنسي ومسح بعد تمام المدة، فعليه: أن يعيد الصلاة التي صلاها بالمسح الذي بعد تمام المدة.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، اللهم فقهنا في الدين، واجعلنا هداة مهتدين.





الاستسقاء [1]

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، سبحانه وبحمده، أوجد الكون ودبَّره، وخلق الإنسان من نطفة فقدره، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ.

والشكر لربنا على جميل لطفه، وجزيل ثوابه، وواسع فضله، عَظُم حِلْمُه فستر، واستغفره المذنبون فغفر، وبسط يده بالعطاء فأكثر، قصَدَتْه الخلائق بحاجاتها فأعطاها، وتوجهت إليه القلوب بلهفاتها فهداها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تكفَّل برزق جميع الخلائق، وتعرَّف إلى خلقه بالدلائل والحقائق، له الحكمة فيما قدَّر وقضى، وإليه وحده تُرفَع الشكوى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أرفعُ عباد الله قدرًا، وأكثرهم لمولاه شكرًا، وأعظمهم لربه ذكرًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، صفوة الله من خلقه، وخيرته من عباده، والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، سبحانك ربنا، أنت إلهنا، ونحن عبيدك، أنت الملك، لا إله إلا أنت، ظلمنا أنفسنا، واعترفنا بذنوبنا، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا، وما أنت أعلم به منا، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، واستغفروه وتوبوا إليه، فالكرامةُ كرامةُ التقوى، والعزُّ عزّ الطاعة، والوحشةُ وحشة الذنوب، والأنسُ أُنس

(١) صالح بن حميد.

الإيمان والعمل الصالح، من لم يعتزَّ بطاعة الله لم يزل ذليلًا، ومن لم يستشفِ بكتاب الله لم يزل عليلًا، ومن لم يستغنِ بالله ظلَّ طولَ دهره فقيرًا.

عبادَ الله: أجيبوا داعيَ الله إذ دعاكم يُجِبْكم إذا دعوتموه، قدِّموا لأنفسكم ما طلبه منكم مِن طاعتِه يؤتِكم ما رجوتُموه من رحمتِه، لولا فضل الخالق لم يكن المخلوق شيئًا مذكورًا، ولولا كرمُ الرازق لم يملك المرزوق نقيرًا ولا قطميرًا.

أيها الناس: تأملوا في هذه الحياة، مُدْبِرٌ مُقْبِلُها، ومائلٌ مُعْتَدِلُها، كثيرةٌ عللها، إن أضحكت بزخرفها قليلًا، فلقد أبكت بأكدارها طويلًا.

تفكروا في حال مَن جَمَعَها ثم مُنِعَها، انتقلت إلى غيره، وحَمَل إثمها ومغرمها، فيا لحسرة من فرط في جنب الله! ويا لندامة من اجترأ على محارم الله! أقوام غافلون، جاءتهم المواعظ فاستقلوها، وتوالت عليهم النصائح فرفضوها، توالت عليهم نعم الله فما شكروها، ثم جاءهم ريب المنون، فأصبحوا بأعمالهم مرتهَنين، وعلى ما قدمت أيديهم نادمين: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

أيها المسلمون: من صفا مع الله صافاه، ومن أوى إلى الله آواه، ومن فوّض إليه أمرَه كفاه، ومن باع نفسَه من الله اشتراه، وجعل ثمنَه جنتَه ورضاه. وعدٌ من الله صادق، وعهدٌ منه سابق، ومن أوفى بعهده من الله؟! معاشرَ الأحبّة، ربُّنا الرحيم الرحمن أعلمُ بخلقه، يعلم عجزَهم وضعفَهم، ويعلم نقصَهم وتقصيرَهم، فتَح لهم بمنّه وكرمه بابَ الرجاء في عفوِه والطمع في رحمته والأمل في مرضاته ومغفرته، دعاهم إلى ساحةِ جوده وكرمه، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢١]، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم»[(١)]، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]. رحمةٌ من ربّكم فيّاضة لا ينقطع مددُها، ونعمةٌ من عنده

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

دفّاقة لا يضعُف سببُها، من ذا الذي يتألّى على الله أن لا يغفر ذنوبَ عباده؟! ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].

ومن منَّة الله الكبرى وفضله العظيم أن يدعوَ عبادَه لعفوه ومغفرته، ثمَّ يُتبعها بمنةٍ أخرى، يؤخِّرُهم إلى مهلة يراجعون فيها أنفسَهم، ويتدبَّرون فيها أحوالهم، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم:١٠].

الذنوب يا عباد الله مغفورةٌ برحمة الله ولو كانت مثلَ زَبَد البحر، فلا يقنَطنّ عبدٌ من رحمة الله، ومن عظمت ذنوبُه وكثرت آثامه فليعلمْ أنَّ رحمةَ الله ومغفرتَه أعظمُ وأعظم.

والتقصير من شأن البشر، فإن نبيكم محمدًا ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، ثم يستغفرون، فيغفر لهم»(١).

ولكن أين المستغفرون؟ أين التائبون العائدون؟ أين النادمون الصادقون؟ إن الله ليفرح بهم فأين هم؟

سبحانك ربَّنا، جلّ شأنك، تباركت وتعاليت، أنت غفارُ الذنوب، وساترُ العيوب، تبسط يدَك بالليل ليتوبَ مسيء النهار، وتبسط يدَك بالنهار ليتوبَ مسيء الليل، وتنادي عبادَك ولك الحمد: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

أيها الإخوة: طوبى لِمَن عرفَ أنَّ له ربًّا رحيمًا، عفوًّا كريمًا، يقبل توبَة النادمين، ويُقيل عثراتِ العاثرين إذا لجؤوا إليه صادقين مخلصين، غيرَ يائسين ولا مُصرِّين، كيفَ لا؟! وقد أمر بذلك نبيَّه والمؤمنين: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

أيها الإخوة: إذا كثُر الاستغفار في الأمة وصدَر عن قلوبٍ صادقة، وأفئدة خاشعة، ونفوس مُخبتة خجلة من ذنوبها وتقصيرها، دفع الله عنها ضروبًا من النقم، وصرَف عنها

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

صنوفًا من البلايا والمحن، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣].

أيها الإخوة: إن هناك صلةً قويّة بين طهارة الفرد والمجتمع من الذنوب والخطايا وقضاءِ الحاجات وتحقيقِ الرغبات، هناك ارتباطٌ متين بين القوة والرزق وبين الاستغفار. الاستغفارُ جالبٌ للخَصب والبركة وكثرة النسل والنماء. الاستغفارُ مصدرٌ للعزة والمنعة، اقرؤوا إن شئتم في خبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح:١٠-١٢]، وفي خبر عاد الشداد مع نبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود:٥٢].

المستغفرون يمتِّعهم ربّهم متاعًا حسنًا من سعةِ الرزق وبسطِ الأمن ومدِّ العافيَة ورغَد العيشِ والقناعَة بالموجود وعدَم الحزن على المفقود. بالاستغفار يبلُغ كلُّ ذي منزل منزلتَه، وينال كلُّ ذي فضل فضلَه، اقرؤوا إن شئتم في خبر نبيّكم محمد صلى الله علي وسلم: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ ﴾ [هود:٣].

إن الاستغفارَ الحقَّ صدقٌ في العزم على ترك الذنب، والإنابةُ بالقلوب إلى علامِ الغيوب. إن الخيرَ كلّه معلّق بصلاح القلوب وقبُول الإيمان، وحينئذ يأتي الغفران، ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال:٧٠].

ألا فاتقوا الله رحمكم الله، اتقوا الله ربّكم، وتوجَّهوا إليه بقلوبكم، وأحسنوا به الظنّ. ارجعوا على أنفسكم بالمحاسبة، ومن صدَق في اللجوء صحَّت عنده التوبة. جانِبوا أهلَ الفحش والتفحُّش، ومجالسةَ أصحابِ الرَّدى، ومماراةَ السمهاء. احفَظوا للناس حقوقَهم، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف:٨٥].

إنها لا تفسد الأحوالُ ولا تضطربُ الأوضاعُ إلا بطغيان الشهوات وعبادة الأهواء والنزوات واختلاط النيات واختلاف الغِيَر والمداهنات، لا يكون الفسادُ إلا حينَ يُترَك للناس الحبلُ على الغارب، يعيشون كما يشتهون، بالأخلاق يعبثون، وللأعراض ينتهكون،

ولحدود الله يتجاوَزون، من غير وازعٍ ولا رادع، ولقد تقرَّر عند أهل العلم بما صحَّ من الأخبار عن رسول الله صلى الله علي وسلم أنَّ منعَ الزكاة وأكلَ الحرام وتركَ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر أسبابٌ خاصة في منع القطر من السماء وعدم إجابة الدعاء. إذا كثُر الخبثُ استحقَّ القومُ الهلاكَ، وبكثرة الخبثِ تُنتقص الأرزاق، وتُنزَع البركات، وتفشو الأمراض، وتضطرب الأحوال.

أيها الناس: إنَّ للمعاصي شؤمَها، وللذنوب أثرها، فكم أهلكَت من أمَم، وكم دمَّرت من شعوب، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء:١١].

وها أنتم عباد الله قد حضرتُم في هذا المكان الطيّب الطاهر المبارك، تقفون بين يدي ربِّكم، تشكون جَدب دياركم، وتبسطون إليه حاجتكم، وكلّ ذلك الجدب وكلّ تلك الحاجة بلاءٌ من ربّكم لتقبلوا عليه، وتتقرَّبوا بصالح الأعمال لديه، فتعجَّلوا الإنابةَ رحمكم الله، وبادِروا بالتوبة، وألحُّوا في المسألة، فبالتوبة النصوح تُغسل الخطايا، وبكثرة الاستغفار تُستمطر السماء وتستَدَرُّ الخيراتُ وتستنزَل البركات، فأظهروا رحمكم الله صدق التوبة، ورقَّة القلوب وافتقارَ النفوس والذلَّ بين يدي العزيز الغفار، استكينوا لربّكم، وارفَعوا أكفَّ الضراعة إليه، ابتهِلوا وادعوا وتضرَّعوا واستغفروا.

إن خشوع الناس وصدق إخباتهم وندمهم هو أقوى وسيلة لاستنزال رحمة الله تعالى.

حدث ذات مرَّة قحط شديد في الأندلس، فأرسل الملك الناصر رسولًا من عنده يدعو القاضي المنذر بن سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ لإمامة الناس في صلاة الاستسقاء، فقال المنذر للرسول: (ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة؟ فقال له: ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا؛ إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخس الثياب، مفترش التراب، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تُعَذِّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! لن يفوتك شيء مني. قال: فتهلَّل وجه المنذر بن سعيد عندما سمع قوله، وقال: يا غلام؛ احمل المطر معك؛ فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض، رحم جبار السماء). وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلَّا عن السقيا!

نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه.

اللهم بعلمك بحالنا وبقدرتك علينا وبرحمتك بنا أتمِم علينا نعمتَك، واكتب لنا رضاك، وتفضَّل علينا بلطفك وخفِيِّ عنايتك. اللهم لا تحرمنا عطاءَك، ولا تخيِّب رجاءَنا فيك. اللهم ولا تحرمنا خيرَك، ولا تمنع عنّا بذنوبنا فضلَك، يا من أظهرَ الجميل، وستر القبيحَ، ولم يؤاخِذ بالجريرة، ولم يهتِك السريرَة، برحمتك نستغيث، ومن عذابِك نستجير، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفةَ عين ولا إلى أحدٍ من خلقك.

ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين.

اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث ولا تجعلنا من القانطين. اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا. اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا هنيئًا مريئًا طبقًا سحًّا مجلِّلا عامًّا، نافعًا غيرَ ضار، عاجلًا غير آجل. اللهم تحيي به البلاد، وتغيثُ به العباد، وتجعله بلاغًا للحاضر والباد. اللهم سُقيا رحمة، لا سقيا عذاب ولا هدم ولا بلاء ولا غرق. اللهم اسق عبادَك وبلادَك وبهائمَك، وانشر رحمتَك، وأحي بلدَك الميت. اللهم أنبِت لنا الزرع، وأدرَّ لنا الضَّرع، وأنزل علينا من بركاتك، واجعل ما أنزلتَه قوةً لنا على طاعتك، وبلاغًا إلى حين.

اللهم إنا خلق من خلقك، فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك، اللهم إنا خلق من خلقك، فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك. سبحان الله، سبحانك ربَّنا، على الله توكلنا، ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين.

اللهم ارفع عنَّا من الجوع والجهد والعري، واكشف عنَّا من البلاء ما لا يكشفه إلا أنت. اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارًا، فأرسل السماء علينا مدرارًا.

اللهم اسقنا الغيث، وآمنا من الخوف، ولا تجعلنا آيسين، ولا تهلكنا بالسنين. اللهم اسقنا الغيث، وآمنا من الخوف، ولا تجعلنا آيسين، ولا تهلكنا بالسنين.



اللهم ارحم الأطفالَ الرُّضَّع والبهائمَ الرتَّع والشيوخ الركّع، وارحم الخلائقَ أجمعين.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربَّنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربَّنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم انصر دينَك وكتابَك وسنةَ نبيك محمد ﷺ وعبادَك الصالحين.

اللهم أصلح لنا دينَنا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي إليها معادنا، واجعل الحياةَ زيادة لنا في كل خير، والموتَ راحة لنا من كل شر، وأحسن عاقبتَنا في الأمور كلّها، وأجِرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم ارفع عنا الغلا والوبا والربا والزنا والزلازل والمحن وسوءَ الفتن ما ظهر منها وما بطن، عن بلدنا وعن سائر بلاد المسلمين يا رب العالمين.

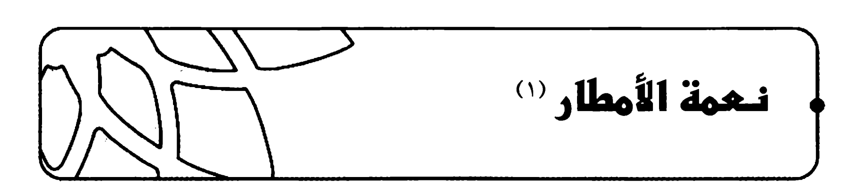
اللهم من أرادَنا وأراد بلادنا ومقدساتِنا بسوء فأشغله بنفسه، واجعل كيدَه في نحره، واجعل تدبيرَه تدميرَه. اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم. اللهم ردَّ عنا كيدَ الكائدين وعدوانَ المعتدين، واقطع دابرَ الفساد والمفسدين.

عباد الله: اقلبوا أرديتكم تأسِّيًا بنبيّكم محمد صلى الله علي وسلم، واجتهدوا في الدعاء، وألحُّوا في المسألة، وادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وأكثروا الاستغفارَ والصدقة وصلةَ الأرحام، واحفظوا الحقوقَ، ولا تبخَسوا الناسَ أشياءَهم، عسى ربّكم أن يرحمكم، فيغيث القلوب بالرجوع إليه، والبلدَ بإنزال الغيث عليه.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.





نعمة الأمطار [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله وسعت رحمته ذنوب المسرفين، وأعجزت آلاؤه عد العادين، أحمده سبحانه لا تحجب عنه دعوة، ولا تخيب لديه طلبة، ولا يضل عنده سعي، وأشكره وأثني عليه، رضي من عظيم النعم بقليل الشكر، وغفر بالندم كبير الذنب، ومحا بتوبة ساعة خطايا سنين.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تبلغ الآمال، وتهدي من الضلال، وتحفظ النعم من الزوال. وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله ربه هدىً ورحمة، وسراجًا منيرًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، وعلى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم وأعد لهم مغفرة وأجرًا كبيرًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

عباد الله: إننا في هذه الأيام نتقلب في نعمة من نعم الله وافرة، فسماؤنا تمطر، وأشجارنا تثمر، وأرضنا تخضرّ، وما هذا إلا نعمة ورحمة من المنعم الرحمن المنان.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠]، أجاج أي: شديد الملوحة.

اللهم لك الشكر على آلائك التي لا تعد ولا تحصى، اللهم لو شئت لجعلت ماءنا أجاجًا، ولكن رحمتك أدركتنا فجعلته عذبًا زلالًا، فلك الشكر لا نحصي ثناءً عليك، فما بنا من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك.

---

(١) يزيد بن الخضر بن قاسي.



عباد الله: وكيف لا نشكر الله وقد كنا بالأمس القريب فقط نشكو الجدب والقحط وقلة المياه، وكانت مشكلة نقص المياه تُعد من أكبر أزمات البلاد، فنزلت رحمة الله الواسعة، فرويت الأرض، وجرت الوديان، وامتلأت الآبار، وسالت العيون، وفاضت السدود برحمة من الله وفضله.

أيها الإخوة المسلمون: إن رحمة الله بنا عظيمة، ونعمه علينا كثيرة، فالواجب علينا أن نشكر الله على هذه النعمة، وأن ننسب الفضل له، فما مطرنا إلا بفضل الله ورحمته.

جاء في صحيح البخاري ومسلم عن زيد الجهني أنه قال: صلى بنا رسولُ الله ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت بليل، أي: بعد ليلة ممطرة، فلما انصرف النبيّ ﷺ - أي: سلّم من صلاة الفجر - أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي و كافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا أو كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[1].

لقد كان أهل الجاهلية يظنون أنّ نزول الغيث بواسطة كوكب من الكواكب اسمه النَّوء، فلا ينزل المطر إلا بظهور ذلك النجم، فبدل أن يجعلوه علامةً كانوا يعتقدون أنّه هو الموجد والفاعل المحدث للمطر، يجيء المطر بمجيئه وظهوره، فأنكر الله عليهم ذلك وأبطل قولهم، وجعله كفرا.

فالشاهد من الحديث أن على كل المسلم أن ينسب نزول المطر لله وحده لا شريك له، وأن يشكره تعالى ويقول بعد نزول المطر: (مُطرنا بفضل الله ورحمته)، وأن لا يعلق نزول المطر بشيء من المخلوقات كوكب كان أو نجم أو طبيعة كما يزعم البعض، وما الطبيعة؟ بل رب الطبيعة وحده لا شريك الله.

أيها المسلمون: إن المؤمن المستبصر دومًا وأبدا يتأمل ويتدبر في مخلوقات الله، ويتخذ من كل حركة وسكون في هذا الكون آية تدل على عظمته سبحانه وتعالى وقوّته وقدرته وكرمه وفضله.

---

(١) رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١).

فيا عجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيء له آيةٌ ... تدل على أنه الواحدُ

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

وفي نزول المطر عبر وآيات عظيمة ذكرها الله في كتابه العزيز فينبغي أن نعتبر بها حق الاعتبار.

ومن هذه العبر والآيات ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧].

نعم ففي إنزال المطر دليل ومثال على قدرة الله العظيمة، ويتجلى ذلك في إنشائه سبحانه للسحب بعدما كانت ماءً يتبخر، فتتراكم وتتجمع على أشكال مختلفة، ثم تأتي الرياح بأمره فتسوقها إلى بلد محدّد دون بلد آخر، وإلى مكان محدد دون مكان آخر، فينزل المطر بقدر معلوم وفي أوقات معلومة، ذلك تقدير العزيز العليم، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٢-١٣]، أي: شديد القوة سبحانه، إنها قوةٌ لا حدود لها، فما يعجزه شيء سبحانه.

ومن آيات الله إنزال المطر وإحياؤه للأرض بعد موتها: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]. خاشعة أي: يابسة. نرى الأرض جرداءَ قاحلة قد تشققت، ونال منها القحطُ وجفت، وعجز في إصلاحها الناس، ويئس منها المزارع، فبينما هي كذلك إذا بها تهتز خضراء رابية، قال الله تعالى:

وفي إحيائه للأرض بعد موتها العبرة ومثال لقدرته في إحيائه للموتى يوم القيامة، ولذا نجد أن الله كثيرا ما يربط بين إحياء الأرض بعد موتها وبين إحياء الموتى من قبورهم، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف:١١]، أي: كذلك خروجكم من قبوركم بعد موتكم، فالذي أحيى الأرض بعد موتها قادر على بعثكم بعد موتكم.

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم، ونفعني وإياكم بما في من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه كان غفارا.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي استوى على عرشه فوقَ السماوات، وأحاط بعلمِه مكنونَ الضمائر والخفِيَّات، له الأيامُ يُداوِلها، وبيدِه الأحوالُ يُقلِّبها، وفي الكون آياته الظاهراتُ وسُنَنُه الباهرات، وفي أحوالِ الأرضِ والأمَمِ عِبَرٌ وعِظات، فتِلكَ أرضٌ ترتَجُّ وتتزَلزَل ويطغَى عليها البحر ويعلوها الموجُ فتُصبِحُ آيةً وخبرًا، وتلك دولٌ تدُول تتغيَّر وجوهها وأحوالُها، والله هوَ المُعِزُّ وهو المُذِلُّ، وهو الحكيم في تَصاريفِ القدَر، وإنَّ في ذلك لمُدَّكرًا، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

الحمد لله المحمود بكلِّ حال، الحمد لله المُؤمَّل لكلِّ عطاءٍ ونَوال، الحمد لله حمدَ الشاكرِ في النعماء، وحمدَ الصابر في البلاء، أحمده تعالى وأشكره، وأُثني عليه وأستَغفِره.

أشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، عزَّ جاره، وجلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، لا يُخلَف وعدُه، ولا يُهزَمُ جندُه، سبحانه وبحمده. اللّهمّ لك الحمد كلُّه، ولك الشكر كلُّه، وبيدك الخير كلُّه، وإليكَ يرجع الأمر كلُّه، لا مانع لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا هاديَ لمن أضلَلتَ، ولا مُضِلَّ لمن هديتَ، ولا قابضَ لما بَسطتَ، ولا باسِطَ لما قبضتَ، اللّهمّ ابسط علينا من بركاتِك ورحمتك وفضلِك ورزقك.

وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين، وصحابته والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعد:

فاتَّقوا الله تعالى أيها المسلمون: فتقواه مفتاح الأغلاق وباب الأرزاق، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

أيها الإخوة المسلمون: لا بد أن نقف على حقيقة قد يغفل عنها الكثيرُ من الناس، وتتمثل هذه الحقيقة في طرحنا لسؤال على أنفسنا: ما هي أسباب تنزل الرحمات من رب البريات؟

وهل نستحق هذه الأمطارَ حقيقة؟ وهل يظن الواحدُ منا أن هذا المطرَ الذي نـزل هـو جـزاءٌ نستحقه لما قدمناه من أعمال؟ وهـل نحـن مـن أهـل الاسـتقامة ليصـدق فينـا قولُـه تعـالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، أي: لو استقاموا على طريقـة الهـدى وملةِ الإسلام قولا وعملا واعتقادا لأسقيناهم ماءً كثيرا، فهل تشملنا هذه الآيةُ الكريمة؟ إن لم نكن كذلك فهل نحن ممن يكثر الاستغفار ليصدق علينا قول الله عـلى لسـان نـوح لقومـه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نـوح:١٠-١١]؟ وخاصـة بالنظر إلى حالنا وحال المسلمين اليـوم مـن كثـرة الـذنوب والعصـيان والفسـوق والطغيـان والظلم والعدوان والتقصيرِ في حق الله والبعدِ عن دينه. فهل تشـملنا هـذه الآيـةُ الكريمـة؟ كلا، ولكنها رحمة الله الواسعة التي أدركتنا، بل هي رحمة الله التي غلبت غضـبه، فـوالله لـولا رحمةُ الله وحلمُه ما رأينا هذا الخيرَ كلَه.

ولذا ينبغي التنبه إلى الحذر مما يمنع نـزول الأمطـار ويمحـق بركـة الأرزاق، يقـول ﷺ: «لم ينقص قومٌ المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنـة وجـور السـلطان، ولم يمنعـوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم ما أمطروا»(١).

اسمعوا جيدا أيها الإخوة المسلمون إلى قوله: «ولولا البهائم ما أمطروا»، نعم هـذه هـي الحقيقة، لولا هذه البهائمُ والحيوانات، ولولا رحمة الله ما رأينا هذا الخيرَ كله.

وبهـذا معشـر المسـلمين نـدرك مـدى رحمـة الله الواسـعة، ومـدى حلمـه الكبـير مـع تقصيرنا في حقه.

فتوجهوا إلى الكـريم الـرحيم، وأقبلـوا عليـه، وتقربـوا بصـالح العمـل لديـه، ابتهلـوا وتضرعوا وادعوا واستغفروا، فقد ربط سبحانه في كتابـه بـين الاسـتغفار وحصـول الغيـث المدرار، اقرؤوا وصية نبـي الله نـوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومـه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢] ووصية هـود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومـه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

---

(١) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٦٢).

راجعوا أنفسكم رحمكم الله بالاعتراف بتقصيركم وعيوبكم، وتوبوا إلى ربكم من جميع ذنوبكم، وجهوا قلوبكم إلى من بيده خزائن الرحمة والأرزاق، وأمِّلوا الفرج من الرحيم الخلاق، توبوا إلى ربكم من ذنوبٍ تمنع نزول الغيث، وأقلعوا من مظالم تحجب أبواب البركات.

تعطّفوا على فقرائكم بالرحمة والإحسان، أدوا الحقوق إلى أصحابها، وردوا المظالم إلى أهلها، قوموا بمسؤولياتكم على وجهها، أحسنوا إلى من تحت أيديكم، أدوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وأصلحوا ذات بينكم، وأحسنوا تربية بناتكم وأبنائكم، وبروا والديكم، وصلوا أرحامكم، أدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم، وتصدقوا من فضول أموالكم، واتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن الصدقة تطفئ الخطيئة، وتطفئ غضب الرب سبحانه.

أيها الإخوة المسلمون: لقد علّمنا رسول الله ﷺ أدعية وأذكارا تقال آناء الليل وأطراف النهار، ومنها ما هو مخصوص بحسب الحال والمكان، وما ذلك إلا ليبقى المسلم دائما متصلا ومتعلقا بربه جل وعلا، ذاكرا وداعيا إياه مستغيثا ومناجيا.

روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر قال: «اللهم صيِّبًا نافعا»(١). وعندما يتوقف كما تقدم يقول: «مطرنا بفضل الله ورحمته»(٢).. وكان إذا نزل المطر خشي منه الضرر دعا وقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والضراب وبطون الأودية ومنابت الشجر**»(٣). وإذا هبت الريحُ نهانا عن سبّها لأنها مأمورة، وكان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني نسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»(٤).

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٢).

(٢) رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١).

(٣) رواه البخاري (١٠١٤) ومسلم (٨٩٧).

(٤) رواه مسلم (٨٩٩).

وجاء في الأثر بسند صحيح عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»[1].

فلا ينبغي للمسلم أن تفوته مثل هذه الأدعية و الأذكار.

والدعاء عند نزول الغيث مستجاب، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلبوا إجابة الدعاء عند التقاء الجيوش وإقامة الصلاة ونزول المطر»[2]. فهذا من فضائل نزول الغيث، فما لنا لا نغتنمها؟! الدعاء الدعاء عباد الله، هو سلاح المؤمن، وملجأ الملهوف والمهموم، والمكروب والمحزون، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، لم يأمر الكريم بالدعاء إلا ليستجيب ويعطي.

ولا بأس أن نُذَكّر إخواننا ببعض الرخص الصحيحة التي تؤدّى عند نزول الغيث، فقد ثبت عن النبي ﷺ الجمع بين الصلاتين في المسجد، وذلك لرفع المشقة عن أمته، وكما رخص للمسلم أن يصلّي في رحله أو بيته، فإذا صلى الناس الظهر ونزل المطر، أو كانت هناك ريح شديدة، أو سيول ومخاضات في الطين والماء في طرقات المصلين، حتى تشق عليهم العودة إلى الصلاة، فحينئذ يجمعون بين الظهر والعصر، وهكذا يقال في الجمع بين المغرب والعشاء، فالجمع تقرره المشقة، من مطر، أو ريح، أو نحو ذلك، والمشقة تجلب التيسير، والله أعلم.

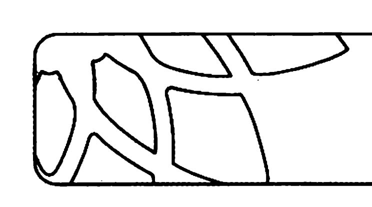
اللهم اغفر لنا إنك كنت غفارا، اللهم أنزل علينا من بركات السماء، وأخرج لنا من بركات الأرض، واكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك..

عباد الله: صلوا وسلموا على البشير النذير، والسراج المنير...



(١) صحيح الأدب المفرد (٥٥٦).

(٢) صحيح الجامع (١٠٢٦).



فهرس الموضوعات





